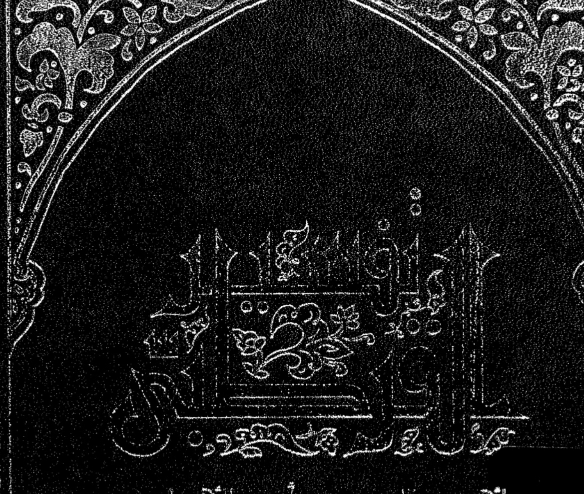
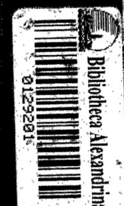
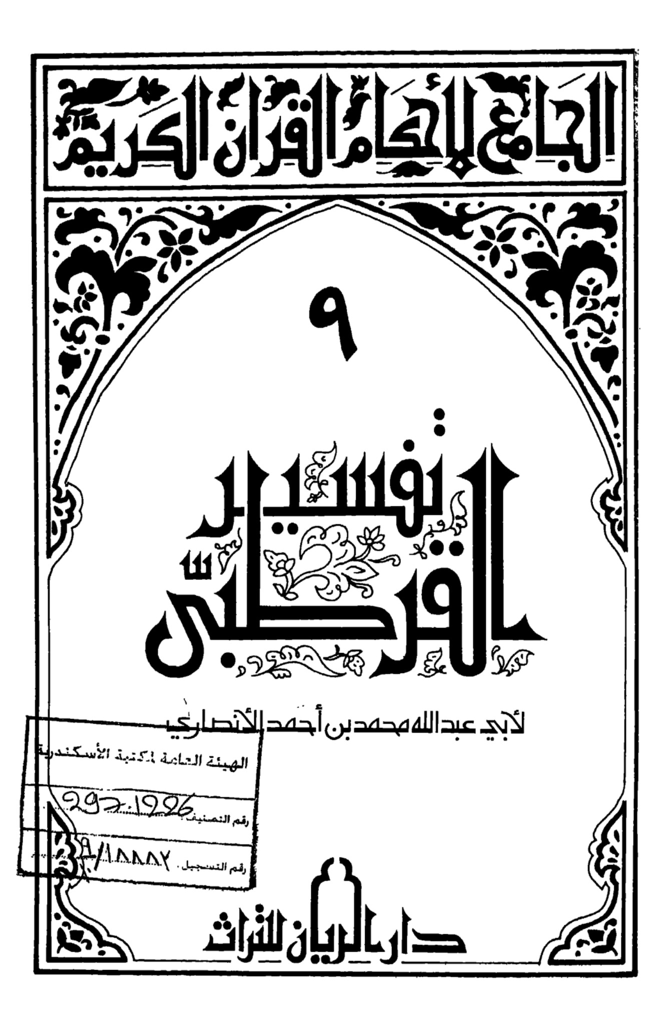

الجامع لأحكام القرآن الكريم


لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري




الجامع لأحكام القرآن الكريم
٩
تفسير القرطبي
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري
دار الريان للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

مكيّة فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى »[1] إلى آخرها . وهى ثلاث وخمسون آية .

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن : سألت الحسين بن الفضل : لم قطع « حمٓ » من « عٓسٓقٓ » ولم تقطع « كهيعص » و « المٓر » و « المٓص » ؟ فقال : لأن « حم . عسق » بين سُوَرٍ أوّلها « حم » فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ؛ فكأن « حم » مبتدأ و « عسق » خبره . ولأنها عدّت آيتين، وعدّت أخواتها اللواتى كتبت جملة آية واحدة . وقيل : إن الحروف المعجمة كلها فى المعنى واحد، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام؛ ذكره الجُرْجانى . وكتبت « حم . عسق » منفصلا و « كهيعص » متصلا لأنه قيل : حمٓ؛ أى حمّ ما هو كائن، ففصّلوا بين ما يقدّر فيه فعل و بين ما لا يقدّر . ثم لو فُصل هذا ووُصل ذا لجاز؛ حكاه القُشيرى . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس « حم . سق » قال ابن عباس :

(١) آية ٢٣ .

وكان علىّ رضى الله عنه يعرف الفتن بها . وقال أرطاة بن المنذر : قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرنى عن تفسير قوله تعالى : « حم . عسق »؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثا فأعرض عنه . فقال حذيفة بن اليمان : أنا أنبئك بها، قد عرفت لِمَ تركها؛ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبنى عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقا، فإذا أراد الله زوال ملكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداء مظلمة، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها، فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قُلبت! فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا؛ فذلك قوله : «حم . عسق» . أى عزمة[1] من عزمات الله وفتنة وقضاء حُمّ : حمّ . « ع » : عدلاً منه ، « س » : سيكون ، « ق » : واقع فى هاتين المدينتين . .

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَلىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تُبنى مدينة بين دجلة ودُجيل وقُطْرَبُّل[2] والصَّراة يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبى إليها الخزائن يخسف بها — وفى رواية بأهلها — فَلَهِىَ أسرع ذهابا فى الأرض من الوَتِد الجيد فى الأرض الرِّخوة" . وقرأ ابن عباس «حمٓ . سٓقٓ» بغير عين . وكذلك هو فى مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبرىّ . وروى نافع عن ابن عباس : « الحاء » حلمه[3] ، و « الميم » مجده ، و «العين» علمه ، و « السين » سَنَاه ، و « القاف » قدرته؛ أقسم الله بها . وعن محمد بن كعب : أقسم الله بحلمه ومجده وعلوه وسَنَاه وقدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مخلصا من قلبه . وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : « الحاء » من الرحمن، و « الميم » من المجيد، و «العين» من العليم، و «السين» من القدوس ، و «القاف» من القاهر . وقال مجاهد : فواتح السور . وقال عبدالله بن بُريدة : إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا . وذكر القشيرىّ واللفظ للثعلبىّ : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية عُرفت الكآبة فى وجهه؛

---

(١) أى حق من حقوقه . (٢) وروى بفتح أوله وثانيه . (٣) فى بعض النسخ . «حكمه» بالكاف .

فقيل له : يا رسول الله ، ما أحزنك ؟ قال : "أخبرت ببلايا تنزل بأمتى من خسف وقذف ونار تحشرهم وريح تقذفهم فى البحر وآيات متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال" . والله أعلم . وقيل : هذا فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فـ « الحاء » حوضه المورود، و « الميم » ملكه الممدود، و « العين » عزه الموجود ، و « السين » سناه المشهود ، و « القاف » قيامه فى المقام المحمود، وقربه فى الكرامة[1] من الملك المعبود . وقال ابن عباس : ليس من نبى صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه : «حم . عسق» ؛ فلذلك قال : « يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ » . المهدوى : وقد جاء فى الخبر أن "« حم . عسق » معناه أوحيت إلى الأنبياء المتقدمين". وقرأ ابن محيصن وابن كثير ومجاهد «يوحَى» (بفتح الحاء) على ما لم يسم فاعله ؛ وروى عن ابن عمر . فيكون الجار والمجرور فى موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز أن يكون اسم ما لم يسم فاعله مضمرا ؛ أى يوحى إليك القرآن الذى تضمنته هذه السورة، ويكون اسم الله مرفوعا بإضمار فعل، التقدير : يوحيه الله إليك؛ كقراءة ابن عامر وأبى بكر « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ » أى يسبحه رجال . وأنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ بخصومة * وأشعثُ ممن طوّحته الطوائح[2]

فقال : لِيُبْكَ يزيدُ ، ثم بيّن من ينبغى أن يبكيه ، فالمعنى يبكيه ضارع . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ؛ كأنه قال : الله يوحيه . أو على تقدير إضمار مبتدأ أى الموحى الله . أو يكون مبتدأ والخبر « العزيزُ الحكيمُ » . وقرأ الباقون « يوحى إليك » بكسر الحاء ، ورفع الاسم على أنه الفاعل . ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ ﴾ تقدم فى غير موضع[3] .

---

(١) فى نسخة من الأصل : « وقربه يوم القيامة من الملك ... » .

(٢) رواية البيت كما فى كتاب سيبويه وخزانة الأدب :

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

وهذا البيت نسبه سيبويه للحارث بن نهيك . ونسبه صاحب خزانة الأدب لنهشل بن حرى فى مرثية يزيد . (راجع الشاهد الخامس والأربعين) .

(٣) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . وجـ ٣ ص ٢٧٨ .

قوله تعالى : تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة بالتاء . وقرأ نافع وابن وثّاب والكسائى بالياء . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد فى الطاء، وهى قراءة العامة . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عبيد « ينفطرن » من الانفطار؛ كقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقد مضى فى سورة « مريم » بيان هذا (١) . وقال ابن عباس : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ » أى تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التى تليها ؛ من قول المشركين : « اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا » (٢) . وقال الضّحاك والسُّدّى : «يتفطرن» أى يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن . وقيل : «فوقهن» ، فوق الأرضين من خشية الله لو كنّ مما يعقل .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى ينزّهونه عما لا يجوز فى وصفه وما لا يليق بجلاله . وقيل : يتعجّبون من جرأة المشركين؛ فيُذكر التسبيح فى موضع التعجب . وعن علىّ رضى الله عنه : أن تسبيحهم تعجّب مما يرون من تعرّضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِم» بأمر ربهم؛ قاله السُّدّى . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال الضحاك : لمن فى الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدى . بيانه فى سورة المؤمن : «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» (٣) . وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش . وقيل : جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبىّ . وقال وهب ابن منبّه : هو منسوخ بقوله : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » . قال المهدوىّ : والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاص للمؤمنين . وقال أبو الحسن الماوَرْدىّ عن الكلبىّ : ان الملائكة لما رأت الملكين اللذين اختُبرا وبُعثا إلى الأرض ليحكما بينهم ، فافتتنا بالزّهرة

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٦ . (٢) آية ١١٦ سورة البقرة . (٣) آية ٧

وهربا إلى إدريس — وهو جدّ أبي نوح عليهما السلام — وسألاه أن يدعُوَ لهما ، سبّحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم . قال أبو الحسن بن الحصار : وقد ظن بعض مَن جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت ، وأنها منسوخة بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض . الماوردي : وفي استغفارهم لهم قولان : أحدهما — من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهر قول مقاتل. الثاني — أنه طلب الرزق لهم والسّعة عليهم؛ قاله الكلبي .

قلت : وهو أظهر، لأن الأرض تعمّ الكافر وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر . وقد رُوي في هذا الباب خبر رواه عاصم الأحْول عن أبي عثمان عن سَلْمان قال : إن العبد إذا كان يذكر الله في السّراء فنزلت به الضّراء قالت الملائكة : صوت معروف من آدميّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السراء فنزلت به الضراء؛ فيستغفرون له . فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت منكر من آدميّ كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء؛ فلا يستغفرون . وهذا يدلّ على أن الآية في الذاكر لله تعالى في السراء والضراء ، فهي خاصّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين . والله أعلم . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى : « إنّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوات والأرْضَ أنْ تَزُولَا[1] — إلى أن قال — إنّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا » ، وقوله تعالى : « وَإنّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم[2] » . والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام ؛ فيكون عاما ؛ قاله الزمخشري . وقال مُطَرِّف : وجدنا أنصح عبادِ الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين . وقد تقدّم[3] . ﴿ أَلَا إنّ اللهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ قال بعض العلماء : هَيَّب وعَظّم جلّ وعزّ في الابتداء، وألطف وبشّر في الانتهاء .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

(١) آية ٤١ سورة فاطر . (٢) آية ٦ سورة الرعد . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٥

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما يعبدونها . ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عليهم ﴾ أى يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وهذه منسوخة بآية السيف . وفى الخبر : " أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط " أى صوّتت من ثقل سكانها لكثرتهم ، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يشركون به .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعانى فكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًّا بيّناه بلغة العرب . وقيل : أى أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه . والمعنى واحد . ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعنى مكة . وقيل لمكة أم القُرى لأن الأرض دُحيت من تحتها . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من سائر الخلق . ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أى بيوم الجمع، وهو يوم القيامة . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه . ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ابتداء وخبر . وأجاز الكسائى النصب على تقدير : لتنذر فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير .

قوله تعالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ؛ أهل ضلالة أو أهل هدًى . ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أنس بن مالك : فى الإسلام . ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ عطف على اللفظ . ويجوز « ولا نصيرٌ » بالرفع على الموضع و « مِن » زائدة .

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا ﴾ أى بل اتخذوا . ﴿ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما . ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أى وليك يا محمد وولىّ من اتبعك ، لا ولىّ سواه . ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ يريد عند البعث . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء .

قوله تعالى : وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين؛ أى وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم حكمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدّين هو الإسلام لا غيره، وأمور الشرائع إنما تُتلقى من بيان الله . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى الموصوف بهذه الصفات هو ربى وحده ؛ وفيه إضمار : أى قل لهم يا محمد ذلكم الله الذى يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّى . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع .

قوله تعالى : فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله ، أو على تقدير هو فاطر . ويجوز النصب على النداء ، والجر على البدل من الهاء فى « عليه » . والفاطر : المبدع والخالق . وقد تقدّم[1] . ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قيل معناه إناثا . وإنما

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٧ ٥ جـ ٩ ص ٢٧٠ و ٣٤٦ ، جـ ١٤ ص ٢٤ وما بعدها و ٣١٩

قال : « مِن أنفسكم » لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم . وقال مجاهد : نَسْلًا بعد نسل . ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى الثمانية التى ذكرها فى « الأنعام »[1] ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها . ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أى يخلقكم وينشئكم «فيه» أى فى الرحم . وقيل : فى البطن. وقال الفرّاء وابن كَيْسان : « فيه » بمعنى به . وكذلك قال الزجاج : معنى « يذرؤكم فيه » يكثّركم به ؛ أى يكثّركم بجعلكم أزواجا ، أى حلائل ؛ لأنهن سبب النسل . وقيل : إن الهاء فى « فيه » للجعل ، ودلّ عليه « جَعَل » ؛ فكأنه قال : يخلقكم ويكثّركم فى الجعل . ابن قُتيبة : « يذرؤكم فِيهِ » أى فى الزوج ؛ أى يخلقكم فى بطون الإناث . وقال : ويكون « فيه » فى الرحم ، وفيه بُعْد ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدّم لها ذكر . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ قيل : إن الكاف زائدة للتوكيد ؛ أى ليس مثله شىء . قال :

* وصالياتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ[2] *

فأدخل على الكاف كافاً تأكيدا للتشبيه . وقيل : المثل زائدة للتوكيد ؛ وهو قول ثعلب : ليس كهو شىء ؛ نحو قوله تعالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا[3] » . وفى حرف ابن مسعود « فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا » قال أوس بن حَجَر :

وقَتْلَى كمثل جذوع النخيـ * ـــل يغشاهم مطر منهمر

أى كجذوع . والذى يُعتقد فى هذا الباب أن الله جل اسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعلىّ صفاته ، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يُشبَّه به ، وإنما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق ، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ؛ إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض ، وهو تعالى منزه عن ذلك ؛ بل لم يزل بأسمائه وبصفاته على ما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الصاليات : الأثافى ، وهى الأحجار التى ينصب عليها القدر . ومعنى يؤثفين : ينصبن للقدر . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الخامس والثلاثين بعد المائة وكتاب سيبويه) . (٣) آية ١٣٧ سورة البقرة .

أسماء الله الحسنى) ، وكفى فى هـذا قوله الحق : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطّلة من الصفات . وزاد الواسطى رحمه الله بيانا فقال : ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة . رضى الله عنهم !

قوله تعالى : لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم فى « الزمر »[1] بيانه . النحاس : والذى يملك المفاتيح يملك الخزائن؛ يقال للفتاح : إقليد ، وجمعه على غير قياس ؛ كمحاسن والواحد حسن . ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم أيضا فى غير موضع[2] .

قوله تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٤ . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٩ ص ٣١٤

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ أى الذى له مقاليد السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم بيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ وهو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما . ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ، قال الله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » وقد تقدّم القول فيه[1] . ومعنى « شرع » أى نهج وأوضح وبيّن المسالك . وقد شرَع لهم يَشْرَع شَرْعًا أى سنّ . والشارع : الطريق الأعظم . وقد شَرَع المنزلُ اذا كان على طريق نافذ . وشرعت الإبل إذا أمكنتها من الشريعة . وشرعت الأديم إذا سلخته . وقال يعقوب : إذا شققت ما بين الرجلين ، قال : وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرية . وشرعت فى هذا الأمر شروعا أى خضت . ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ « أنْ » فى محل رفع ، على تقدير والذى وصّى به نوحا ان اقيموا الدّين ، ويوقف على هذا الوجه على « عيسى » . وقيل : هو نصب ، أى شرع لكم إقامة الدين . وقيل : هو جرّ بدلا من الهاء فى « به » ؛ كأنه قال : به أقيموا الدين . ولا يوقف على « عيسى » على هذين الوجهين . ويجوز أن تكون « أن » مفسرة ، مثل أن امشوا ، فلا يكون لها محل من الإعراب .

الثانية ــ قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى حديث الشفاعة الكبير المشهور : " ولكن ائتوا نوحا فإنه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقولون له أنت أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .. " وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أوّل نبىّ[2] بغير إشكال ؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نُبوّة ، ولم تُفرض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم ، وإنما كان تنبيها على بعض

---

(١) راجع ﺟ ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) فى نسخ الأصل : « كما أن آدم أوّل رسول نبى بغير إشكال ، إلا أن آدم » والتصويب عن ابن العربى .

الأمور واقتصارا على ضرورات المعاش ، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء ؛ واستقر المدى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، ووظف عليه الواجبات وأوضح له الآداب فى الديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر[1] بالأنبياء — صلوات الله عليهم — واحداً بعد واحد وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فكان المعنى أوصيناك يامحمد ونوحا دينا واحدا ؛ يعنى فى الأصول التى لا تختلف فيها الشريعة ، وهى التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والزلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه ، والصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الكفر والقتل والزنى والإذاية للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات ؛ فهذا كله مشروع دينا واحدا وملة متحدة ، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى اجعلوه قائما ؛ يريد دائما مستمرا محفوظا مستقرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب ؛ فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث ؛ ومن نكث فانما ينكث على نفسه . واختلفت الشرائع وراء هذا فى معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه فى الأزمنة على الأمم » . والله أعلم . قال مجاهد : لم يبعث الله نبيا قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة ، فذلك دينه الذى شرع لهم ؛ وقاله الوالبى عن ابن عباس ، وهو قول الكلبى . وقال قتادة : يعنى تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقال الحكم : تحريم الأمهات والأخوات والبنات . وما ذكره القاضى يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها . وخص نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع .

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عظم عليهم . ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان . قال قتادة : كبر على المشركين فاشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها على من

(١) فى ابن العربى : « ويتناشر » .

ناوأها . ثم قال : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يختار . والاجتباء الاختيار ؛ أى يختار للتوحيد من يشاء . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أى يستخلص لدينه من رجع إليه .

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ قال ابن عباس : يعنى قريشا . ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وكانوا يتمنّون أن يبعث إليهم نبىّ ؛ دليله قوله تعالى فى سورة فاطر : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ » (١) يريد نبيًّا . وقال فى سورة البقرة : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » على ما تقدّم بيانه هناك (٢) . وقيل : أمم الأنبياء المتقدّمين ؛ فإنهم فيما بينهم آختلفوا لما طال بهم المدَى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقال آبن عباس أيضا : يعنى أهل الكتاب ؛ دليله فى سورة المُنفكّين « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » . فالمشركون قالوا : لم خُصّ بالنبوّة! واليهود حسدوه لما بُعث؛ وكذا النصارى .

﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى بغيا من بعضهم على بعض طلبا للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فى تأخير العقاب عن هؤلاء . ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » (٣) . وقيل : إلى الأجل الذى قضى فيه بعذابهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين من آمن وبين من كفر بنزول العذاب . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى .

﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد المختلفين فى الحق . ﴿ لَفِي شَكٍّ ﴾ من الذى أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : «إن الذين أورثوا الكتاب» قريش . «من بعدهم» من بعد اليهود والنصارى . « لفى شك » من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى « من بعدهم » من قبلهم؛ يعنى من قبل مشركى مكة، وهم اليهود والنصارى .

---

(١) آية ٤٢ راجع جـ ١٤ ص ٣٥٧

(٢) آية ٨٩ راجع جـ ٢ ص ٢٧ طبعة ثانية .

(٣) آية ٤٦ سورة القمر .

قوله تعالى : فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٥)

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ . لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى أو لقريش قيل له :﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أى فتبينت شكهم فادع إلى الله ؛ أى إلى ذلك الدين الذى شرعه الله للأنبياء ووصاهم به . فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى : «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا» أى إليها . و « ذلك » بمعنى هذا . وقد تقدم أول «البقرة»[(١)] . والمعنى فلهذا القرآن فادع . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع . وقيل : إن اللام على بابها؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذى تقدم ذكره فادع واستقم . قال ابن عباس : أى إلى القرآن فادع الخلق . ﴿ وَٱسْتَقِمْ ﴾ خطاب له عليه السلام . قال قتادة : أى استقم على أمر الله . وقال سفيان : أى استقم على القرآن . وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أى لا تنظر إلى خلاف من خالفك . ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى أن أعدل؛ كقوله تعالى : « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[(٢)] . وقيل : هى لام كى، أى لكى أعدل . قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوى بينكم فى الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول . وقال غيرهما : لأعدل فى جميع الأحوال . وقيل : هذا العدل هو العدل فى الأحكام . وقيل فى التبليغ . ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود ؛ أى لنا ديننا ولكم دينكم . قال : ثم نُسخت بقوله «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»[(٣)] الآية . قال مجاهد : ومعنى « لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل : ليس بمنسوخ ؛

---

(١) راجع جـ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٦٦ سورة غافر . (٣) آية ٢٩ سورة التوبة

لأن البَرَاهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، و بعد العناد لاحجة ولاجدال. قال النحاس : و يجوز أن يكون معنى « لا حُجَّةَ بيننا و بينكم » على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتجّ عليكم و يقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا . كما أن قائلا لو قال من قبل أن تحوّل القبلة : لا تصلّ الى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد، لجاز أن يقال نسخ ذلك . ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أى فهو يحكم بيننا اذا صرنا إليه ، ويجازى كُلًّا بما كان عليه . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه الى دين قريش، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوّجه شيبةُ بابنته

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ رجع الى المشركين . ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس . قال : وهؤلاء قد توهّموا أن الجاهلية تعود . وقال قتادة : الذين يحاجون فى الله اليهود والنصارى ، ومحاجّتهم قولهم نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء . وكان المشركون يقولون : « أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا »[1] فقال الله تعالى : « وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ » أى لاثبات لها كالشىء الذى يزلّ عن موضعه . والهاء فى « له » يجوز أن يكون لله عز وجل؛ أى من بعد ما وحّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية . ويجوز أن يكون للنبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى من بعد ما استجيب لمحمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين . يقال : دَحَضت حجّته دُحوضًا بطلت . وأدحضها الله . والإدحاض : الإزلاق . ومكان دَحْض ودَحَض أيضا

---

(١) آية ٧٣ سورة مريم .

(بالتحريك) أى زَلِق . ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت . ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت . ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ يريد فى الدنيا . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يريد فى الآخرة عذاب دائم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن وسائر الكتب المنزلة . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى العدل ؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين . والعدل يسمى ميزانا ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل . وقيل : الميزان ما بين فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه . وهذه الأقوال متقاربة المعنى . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . وقيل : إنه الميزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به ؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ؛ قال الله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ »[1] . قال مجاهد : هو الذى يوزن به . ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به] . وقيل : الميزان محمد صلى الله عليه وسلم ، يقضى بينكم بكتاب الله . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فلم يخبره بها . يحضه على العمل بالكتاب والعدل والسوية ، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئ اليوم الذى يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال ، فيوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف . فـ « لعلّ الساعة قريب » أى منك وأنت لا تدرى . وقال : « قريب » ولم يقل قريبة ؛ لأن تأنيثها غير حقيقى لأنها كالوقت ؛ قاله الزجاج . والمعنى : لعل البعث أو لعل مجىء الساعة قريب . وقال الكسائى : « قريب » نعت يُنعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[2] . قال الشاعر :

وكنا قريبا والديار بعيدة * فلما وصلنا نُصْب أعينهم غبنا

(١) آية ٢٥ سورة الحديد . (٢) آية ٥٦ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ .

قوله تعالى : يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ يعنى على طريق الاستهزاء ، ظنًّا منهم أنها غير آتية ، أو إيهاما للضَّعَفة أنها لا تكون . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد فى الطاعة ؛ كما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجعون »[1] . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أى التى لا شك فيها . ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى يشكّون ويخاصمون فى قيام الساعة . ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى عن الحق وطريق الاعتبار ؛ إذ لو تذكّروا لعلموا أن الذى أنشأهم من تراب ثمّ من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا ، قادر على أن يبعثهم

قوله تعالى : ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : حَفِيّ بهم . وقال عكرمة : بارٌّ بهم . وقال السُّدّىّ : رفيق بهم . وقال مقاتل : لطيف بالبرّ والفاجر ؛ حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم . وقال القُرَظىّ : لطيف بهم فى العرض والمحاسبة . قال :

غدًا عند مَوْلَى الخلق للخلق موقفٌ * يسائلهم فيه الجليل ويلطف

وقال جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين : يلطف بهم فى الرزق من وجهين : أحدهما ــ أنه جعل رزقك من الطيبات . والثانى ــ أنه لم يدفعه إليك مَرّةً واحدة فتبذّره . وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم فى القرآن وتفصيله وتفسيره . وقال الجُنيد : لطيف

(١) آية ٦٠ سورة المؤمنون .

بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه . وقال محمد بن علي الكتاني : اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكل عليه ورجع إليه، فحينئذ يقبله ويقبل عليه. وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جل وعز امحت آثارهم واضمحلت صورهم وبقي عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خففوا عنهم العذاب فيخفف عنهم العذاب " . قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه :

أمر بأفناء القبور كأنني * أخو فطنة والثوب فيه نحيف

ومن شق فاه الله قدر رزقه * وربي بمن يلجأ إليه لطيف

وقيل : اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب ؛ وعلى هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا من أظهر الجميل وستر القبيح " . وقيل : هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل . وقيل : هو الذي يجبر الكسير وييسر العسير . وقيل : هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله . وقيل : هو الذي يبذل لعبده النعمة فوق الهمة ويكلفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(١) ، « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً »(٢) ، وقال : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(٣) ، « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ »(٤) . وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المدحة . وقيل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه . وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يوئس آمله . وقيل : هو الذي يعفو عمن يهفو . وقيل : هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه . وقيل : هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجا ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجا ، وأجزل لهم من سحائب بره ماء ثجاجا . وقد مضى في « الأنعام » قول أبي العالية والجنيد أيضا(٥) . وقد ذكرنا جميع هذا في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف، والحمد لله . ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ويحرم من يشاء . وفي تفضيل قوم بالمال حكمة؛ ليحتاج

---

(١) آية ٣٤ سورة إبراهيم . (٢) آية ٢٠ سورة لقمان . (٣) آية ٧٨ سورة الحج .

(٤) آية ٢٨ سورة النساء . (٥) راجع جـ ٧ ص ٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

البعض إلى البعض، كما قال : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا »[1]، فكان هـذا لطفاً بالعباد . وأيضا ليمتحن الغنىّ بالفقير والفقير بالغنىّ؛ كما قال : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ »[2] على ما تقدّم بيانه . ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ .

قوله تعـالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ الحرث العمل والكسب . ومنه قول عبد الله بن عمـر : واحْرُث لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا . ومنـه سمى الرجل حارثا . والمعنى : أى من طلب بمـا رزقناه حرثًا لآخرته ، فأدّى حقوق الله وأنفق فى إعزاز الدّين؛ فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشرا إلى سبعمائة فأكثر . ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ أى طلب بالمـال الذى آتاه الله رياسـة الدنيا والتوصّل إلى المحظورات، فإنا لا نحرمه الرزق أصلا، ولكن لا حظّ له فى الآخرة من ماله ؛ قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَـا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْـلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَـا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »[3] . وقيـل : « نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ » نوفقه للعبادة ونسهلها عليـه . وقيل : حرث الآخرة الطاعة ؛ أى من أطاع فله الثواب . وقيل : « نزد له فى حرثه » أى نعطيه الدنيا مع الآخرة . وقيل : الآية فى الغَزْو؛ أى من أراد بغَزْوه الآخرة أوتى الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتى منها . قال القُشيرىّ : والظاهر أن الآية فى الكافر؛ يوسع له فى الدنيا ؛ أى لا ينبغى له أن يغترّ بذلك لأن الدنيا لا تبقى . وقال قتادة : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا . وقال أيضا : يقول الله تعالى : " من عمل لآخرته زدناه فى عمله وأعطيناه من الدنيـا ما كتبنا له ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيبًا فى الآخرة

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . (٢) آية ٢٠ سورة الفرقان . راجع جـ ١٣ ص ١٨
(٣) آية ١٨ وما بعدها سورة الإسراء .

إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقا قد قسمناه له لا بُدّ أن كان يؤتاه مع إيثار أو غير إيثار". وروى جُوَيْبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : وقوله عز وجل : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ » من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه » أى فى حسناته . « ومن كان يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا » أى من كان من الفُجّار يريد بعمله الحَسَن الدنيا « نُؤْتِه مِنها » ثم نسخ ذلك فى سبحان : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »(١). والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عزّ وجل. ألا ترى أنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقل أحدكم اللّهُمّ اغفرلى إن شئت اللّهُمّ ارحمنى إن شئت". وقد قال قتادة ما تقدم ذكره، وهو يبيّن لك أن لا نسخ . وقد ذكرنا فى « هود »(٢) أن هذا من باب المطلق والمقيّد، وأن النسخ لا يدخل فى الأخبار . والله المستعان .

مســألة : هذه الآية تبطل مذهب أبى حنيفة فى قوله : إنه من توضأ تَبَرُّداً أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظّف عليــه؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدهما على الآخر، ولا تجزى نيته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربى.

قوله تعــالى : أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أى ألهم ! والميم صلة والهمزه للتقريع . وهــذا متصل بقوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً »، وقوله تعالى : «اللهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ والمِيزانَ » كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذى لم يأذن به الله ! وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به . ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يوم

(١) آية ١٨ (٢) راجع جـ ٩ ص ١٤

القيامة حيث قال: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» . ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، فعاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع . ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين . ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا القتلُ والأسر والقهر، وفي الآخرة عذاب النار . وقرأ ابن هُرْمُز «وأنّ» بفتح الهمزة على العطف على «وَلَوْلَا كَلِمَةُ» والفصلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائز . ويجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعا على تقدير : وجب أنّ الظالمين لهم عذاب أليم ؛ فيكون منقطعا مما قبله كقراءة الكسر؛ فاعلمه .

قوله تعالى : تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي من جزاء ما كسبوا . والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر . ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي نازل بهم . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الرَّوْضة : الموضع النَّزِه الكثير الخضرة . وقد مضى في «الروم»[1] . ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي من النعيم والثواب الجزيل . ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى كُنْه صفته ؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١١

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرئ « يُبَشِّر » من بَشَّره ، « ويُبْشِر » من أبشره ، « ويَبْشُر » من بَشَره ، وفيه حذف ؛ أى يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور ويزدادوا منه وجدًا فى الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلًا . ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ قال الزجاج : «إلا المودة» استثناء ليس من الأول ؛ أى إلا أن تَوَدُّونى لقرابتى فتحفظونى . والخطاب لقريش خاصّةً ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم . قال الشعبيّ : أكثَر الناسُ علينا فى هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ؛ فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسطَ الناس فى قريش، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَده ؛ فقال الله له : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» إلا أن تَوَدُّونى فى قرابتى منكم ؛ أى تراعوا ما بينى و بينكم فتصدّقونى. فـ « الْقُرْبَىٰ » ها هنا قرابة الرَّحِم ؛ كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوّة . قال عكرمة : وكانت قريش تَصِل أرحامها فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعته ؛ فقال : " صِلُونى كما كنتم تفعلون " . فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكّركم قرابتى ؛ على أنه استثناء ليس من الأوّل ؛ ذكره النحاس . وفى البخاريّ عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : « إلا المودّة فى القُرْبَىٰ » فقال سعيد بن جُبير : قُرْبَى آل محمد ؛ فقال ابن عباس : عجِلت ! إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ؛ فقال : إلا أن تَصِلوا ما بينكم من القرابة . فهذا قول . وقيل : القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا أسألكم أجرا إلا أن تَوَدّوا قرابتى وأهل بيتى ، كما أمر بإعظامهم ذوى القربى . وهذا قول على بن حسين وعمرو بن شعيب والسُّدِّى . وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما أنزل الله عز وجل : « قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المَوَدّة فى القُرْبَىٰ » قالوا : يا رسول الله ، من

هؤلاء الذين تودّهم ؟ قال : "عليّ وفاطمة وأبناؤهما". ويدل عليه أيضا ما روى عن عليّ رضي الله عنه قال: شكوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى. فقال: "أما ترضى أن تكون رابعَ أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا" . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "حُرّمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عِتْرتى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقيني يوم القيامة" . وقال الحسن وقتادة : المعنى إلا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقرّبوا إليه بطاعته . و « القُرْبَى » على هذا بمعنى القربة . يقال : قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى ؛ كالزُّلْفة والزُّلْفَى . وروى قَزَعة بن سُويد عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجرا إلا أن توادّوا وتقرّبوا إليه بالطاعة" . وروى منصور وعوف عن الحسن «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودّة فى القُرْبَى » قال : يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقرّبون منه بطاعته . وقال قوم : الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة ؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وأمرهم الله بمودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه ؛ فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ » (١) ؛ فأنزل الله تعالى « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ » (٢) فنسخت بهذه الآية وبقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » (٣) ، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ » (٤)، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » (٥) ؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل . ورواه جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس . قال الثعلبيّ : وليس بالقوىّ ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول : إن التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ ؛ وقد

(١) آية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ سورة الشعراء . (٢) آية ٤٧ سورة سبأ .
(٣) آية ٨٦ سورة ص . (٤) آية ٧٢ سورة المؤمنون . (٥) آية ٤٠ سورة الطور وآية ٤٦ سورة القلم .

قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " من مات على حُبّ آل محمد مات شهيدا . ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمة . ومن مات على بُغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس اليوم من رحمة الله . ومن مات على بُغض آل محمد لم يَرِح[1] رائحة الجنة . ومن مات على بغض آل بيتى فلا نصيب له فى شفاعتى " .

قلت : وذكر هذا الخبر الزَّمَخْشَرِيّ فى تفسيره بأطول من هذا فقال : وقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألَا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمـان . ألَا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنـة ثم مُنْكَر ونكير . ألَا ومن مات على حب آل محمد فُتح له فى قبره بابان إلى الجنـة . ألا ومن مات فى حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة . ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنة والجماعة . ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله . ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا . ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يَشُمّ رائحة الجنة " . قال النحاس : ومذهب عِكْرِمة ليست بمنسوخة ؛ قال : كانوا يَصِلون أرحامهم فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعوه فقال : " قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا أن تَوَدُّونى وتحفظونى لقرابتى ولا تكذبونى " .

قلت : وهذا هو معنى قول ابن عباس فى البُخارِيّ والشَّعْبِيّ عنه بعينه ؛ وعليه لانسخ . قال النحاس : وقول الحسن حسن ، ويدل على صحته الحديثُ المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدى قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادى قال أخبرنا أسد ابن موسى قال حدّثنا قَزَعة[2] — وهو ابن يزيد البصرى — قال حدّثنا عبد الله بن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا أسئلكم على ما أنبئكم به من البيّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادّوا الله عز وجل وأن تتقربوا إليه بطاعته". فهذا المبيّن عن الله عز وجل قد قال هذا ، وكذا قالت الأنبياء صـلى الله عليهم قبله : « إنْ أَجْرِى إلاّ على الله » .

---

(١) أى لم يشم ريحها ؛ يقال : راح يَريح ، وراح يَراح ، وأراح يُريح . والثلاثة قد رُوى بها الحديث .

(٢) تقدم أنه قزعة بن سويد ؛ وهو ممن يروى عن ابن ابى نجيح . (راجع تهذيب التهذيب) .

الثانيـــة ـــ واختلفوا فى سبب نزولهـا ؛ فقال ابن عباس : لمـا قَدِم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه ؛ فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه فنجمع له ؛ ففعلوا ، ثم أتوه به فنزلت . وقال الحسن : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون ، فقالت الأنصار نحن فعلنا ، وفخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
روى مِقْسم عن ابن عبـاس قال سمع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم شيئا فخطب فقال للأنصار : " ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بى . ألم تكونوا ضُلّالا فهداكم الله بى . ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بى ألا تردّون علىّ " ؟ فقـالوا : بِمَ نجيبك ؟ قال : " تقولون ألم يطردك قومُك فآويناك . ألم يكذبك قومك فصدّقناك ... " فعدّد عليهم . قال : فجثوا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك؛ فنزلت : « قل لا أسئلكم عليه أجرًا إلا المَوَدَّةَ فى القُرْبَى » .
وقال قتادة : قال المشركون لعلّ محمدا فيما يتعاطاه يطلب أجرا؛ فنزلت هذه الآية؛ ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه . قال الثعلبيّ : وهذا أشبه بالآية ؛ لأن السورة مكية .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أى يكتسب . وأصـل القرف الكسب؛ يقال : فلان يَقْرِف لعياله ؛ أى يكسب . والاقتراف الاكتساب ؛ وهو مأخوذ من قولهم : رجل قرفة ، إذا كان محتالا . وقـد مضى فى « الأنعام »[1] القول فيه . وقال ابن عبـاس : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَـنَةً » قال المودّة لآل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَـا حُسْنًا ﴾ أى نضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعدًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ قال قتادة : «غفور» للذنوب، «شكور» للحسنات . وقال السُّدّى : «غفور» لذنوب آل محمد عليه السلام، «شكور» لحسناتهم .

قوله تعـالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٠

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ الميم صلة، والتقدير أيقولون افترى . واتصل الكلام بما قبل؛ لأن الله تعالى لما قال : « وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ » [1]، وقال « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ » [2] قال إتماما للبيان : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » يعني كفار قريش قالوا : إن محمدا اختلق الكذب على الله . ﴿ فَإِنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية . وقال مجاهد ومقاتل : « إن يشأ الله » يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقةٌ من قولهم . وقيل : المعنى إن يشأ يزل تمييزك . وقيل : المعنى لو حدثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لطبع على قلبك ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب . فالخطاب له والمراد الكفار؛ ذكره القشيري . ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ ﴾ قال ابن الأنباري : « يختم على قلبك » تام . وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير؛ مجازه : والله يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع . كما حذفت من قوله «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» [3]، «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ» [4] ولأنه عطف على قوله «يختم على قلبك». وقال الزجاج: قوله «أم يقولون افترى على الله كذبا» تام؛ وقوله «ويمح الله الباطل» احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته في المفترين. ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي الإسلام فيثبته ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي بما أنزله من القرآن . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ عام؛ أي بما في قلوب العباد . وقيل خاص . والمعنى أنك لو حدثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لعلمه وطبع على قلبك .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

(١) آية ١٥ من هذه السورة . (٢) آية ١٧ من هذه السورة .
(٣) آية ١٨ سورة العلق . (٤) آية ١١ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » قال قوم فى نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده ؛ فأخبر جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وأنهم قد اتهموه فأنزل «أم يقولون افترى على الله كذبا » الآية ؛ فقال القوم : يا رسول الله ، فإنا نشهد أنك صادق ونتوب . فنزلت : «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده» . قال ابن عباس : أى عن أوليائه وأهل طاعته. والآية عامة . وقد مضى الكلام فى معنى التوبة وأحكامها[1] ، ومضى هذا اللفظ فى «براءة»[2] . ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى عن الشرك قبل الإسلام . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى من الخير والشر . وقرأ حمزة والكسائى وحفص وخلف بالتاء على الخطاب ، وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه . الباقون بالياء على الخبر ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه بين خبرين : الأول «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده» والثانى «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .

قوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

«الذين» فى موضع نصب ؛ أى ويستجيب الله الذين آمنوا ، أى يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه . وقيل : يعطيهم مسألتهم إذا دعوه . وقيل : ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض ؛ يقال : أجاب واستجاب بمعنىً ؛ وقد مضى فى «البقرة»[3] . وقال ابن عباس : «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات» يشفعهم فى إخوانهم . « وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » قال : يشفعهم فى إخوان إخوانهم . وقال المُبَرِّد : معنى « ويستجيب الذين آمنوا » وليستدع الذين آمنوا الإجابة ؛ هكذا حقيقة معنى استفعل . فـ«الذين » فى موضع رفع . ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) آية ١٠٤ راجع جـ ٨ ص ٢٥٠

(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان :

الأولى — فى نزولها؛ قيل: إنها نزلت فى قوم من أهل الصُّفّة تمنّوا سَعة الرزق . وقال خَبّاب بن الأرتّ : فينا نزلت ؛ نظرنا إلى أموال بنى النَّضير وقُريظة وبنى قَيْنُقاع فتمنّيناها فنزلت . ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه وسّع . وبَسَط الشىء نشره . وبالصاد أيضا . ﴿لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا . وقال ٱبن عباس : بغيُهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس . وقيل أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه ، لقوله : " لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا " وهـذا هو البَغْى ، وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : لو جعلناهم سواء فى المـال لمـا انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع. وقيل : أراد بالرزق المطر الذى هو سبب الرزق ؛ أى لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء ، فيقبض تارة ليتضرّعوا ويبسُط أخرى ليشكروا . وقيل : كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض؛ فلا يبعد حمل البغى على هذا . الزَّمَخْشَرِىّ : « لبغَوْا » من البغى وهو الظلم؛ أى لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مأشرة ، وكفى بقارون عبرةً . ومنه قوله عليه السلام : " أخْوَف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها " . ولبعض العرب :

وقد جعـل الوَسْمِىُّ يُنْبت بيننا * وبين بنى دُودَان نَبْعًا وشَوْحَطَا(١)

يعنى أنهم أحيُوا فحدّثوا أنفسهم بالبغى والتغابن . أو من البَغْى وهو البَذَخ والكبر؛ أى لتكبّروا فى الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلوّ فيها والفساد . ﴿وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أى ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم . وقال مقاتل : « ينزّل بقدرٍ ما يشاء » يجعلَ من يشاء غنيًّا ومن يشاء فقيرا .

(١) الوسمى : مطر أول الربيع . والنبع والشوحط : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسىّ . وفى نسخ الأصل وبعض كتب التفسير : « ... بنى رومان » . ودودان : أبو قبيلة من أسد .

الثانيــة ــ قال علماؤنا : أفعال الربّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوى عنه الدنيا؛ مصلحةً له . فليس ضيق الرزق هواناً ولا سعة الرزق فضيلة ؛ وقد أعطى أقواما مع علمه أنهم يستعملونه فى الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح . والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته ، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح فى كل فعل من أفعال الله تعالى . وروى أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : " من أهان لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى وإنى لأغضب لهم كما يغضب الليْث الحَرِد . وما تردّدت فى شىء أنا فاعله تردّدى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بدّ له منه . وما تقرب إلىّ عبدى المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدى المؤمن يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه فاذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومؤيّدًا فإن سألنى أعطيته وإن دعانى أجبته . وإن من عبادى المؤمنين من يسألنى الباب من العبادة وإنى عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العُجْب فأفسده . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى . وإنى لأدبّر عبادى لعلمى بقلوبهم فإنى عليم خبير" . ثم قال أنس : اللهم إنى من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرنى برحمتك .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (٢٨)

قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى « يُنْزِل » مخففا . الباقون بالتشديد . وقرأ ابن وثّاب أيضا والأعمش وغيرهما « قَنِطوا » بكسر النون؛ وقد تقدّم جميع هذا [(١)] . والغيث المطر؛ وسمى الغَيْث غيثًا لأنه يغيث

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ ، ٦٧ وجـ ١٤ ص ٣٤

الخلق . وقد غاث الغيث الأرض أى أصابها . وغاث الله البلاد يَغيثها غَيْثًا . وغيثت الأرضُ تُغاث غَيْثًا فهى أرض مَغيثة ومَغْيُوثة . وعن الأصمعىّ قال : مررت ببعض قبائل العرب وقد مُطروا فسألت عجوزا منهم : أتاكم المطر ؟ فقالت : غِثنا ما شئنا غَيْثًا ؛ أى، مُطرنا . وقال ذو الرُّمّة : قاتل الله أَمَة بنى فلان ما أفصحها ! قلت لها كيف كان المطر عندكم ؟ فقالت : غِثنا ما شئنا . ذكر الأوّل الثعلبى والثانى الجوهرى . وربما سمى السحاب والنبات غَيْثًا . والقنوط الإياس ؛ قاله قتادة وغيره . قال قتادة : ذُكر أنّ رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قَحَط المطرُ وقَلّ الغيث وقَنَط الناس ؟ فقال : مطرتم إن شاء الله ؛ ثم قرأ « وهو الذى ينزّل الغيث من بعد مَا قَنَطوا » . والغيث ما كان نافعا فى وقته ، والمطر قد يكون نافعا وضارًا فى وقته وغير وقته ؛ قاله الماوَرْدىّ . ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ قيل المطر ؛ وهو قول السُّدّى . وقيل ظهور الشمس بعد المطر ؛ ذكره المهدَوى . وقال مقاتل : نزلت فى حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ، ثم أنزل الله المطر . وقيل : نزلت فى الأعرابى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة فى خبر الاستسقاء ؛ ذكره القشيرى ، والله أعلم . ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ «الولى» الذى ينصر أولياءه . «الحميد» المحمود بكل لسان .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علاماته الدالة على قدرته . ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال مجاهد : يدخل فى هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[1] . وقال الفرّاء : أراد ما بثّ فى الأرض دون السماء ؛ كقوله « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من الملح دون العَذْب . وقال أبو علىّ : تقديره وما بث فى أحدهما ؛ فحذف المضاف . وقوله « يخرج منهما » أى من أحدهما . ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ .

(١) آية ٨ سورة النحل .

قوله تعالى : وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « بما كسبت » بغير فاء . الباقون « فبما » بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة فى الحرف والأجر . قال المهدوىّ : إن قدرت أن «ما» الموصولة جاز حذف الفاء و إثباتها، والإثبات أحسن . و إن قدرتها التى للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه ، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »(١) . والمصيبة هنا الحدود على المعاصى؛ قاله الحسن . وقال الضحاك : ما تعلّم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ؛ قال الله تعالى : « وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » ثم قال : وأىّ مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبى رَوّاد . قال أبو عبيد : إنما هذا على الترك، فأما الذى هو دائب فى تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك فى شئ . ومما يحقق ذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان ينسى الشئ من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : سمع قراءة رجل فى المسجد فقال : " ماله رحمه الله لقد أذكرنى آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا " . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، والمعنى الذى أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله عز وجل . و إذا كان يكفّر عنى بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روى هذا المعنى مرفوعا عنه رضى الله عنه ، قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدّثنا بها النبى صلى الله عليه وسلم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الآية . " يا علىّ ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم . والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا عنه

(١) آية ١٢١ سورة الأنعام .

فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه ". وقال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود ولا نكبة حجر إلّا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر ". وقال الحسن : دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل : لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران : يا أخى لا تفعل ! فوالله إنى لأحبّ الوجع ومن أحبه كان أحبّ الناس إلى الله ، قال الله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » فهذا مما كسبت يدى ، وعَفْوُ ربى عما بقى أكثر . وقال مُرّة الهَمْدانى : رأيت على ظهر كف شُريح قُرحة فقلت : يا أبا أمية ، ما هذا ؟ قال : هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وقال ابن عَون : إن محمد بن سيرين لما ركبه الدّين اغتم لذلك فقال : إنى لأعرف هذا الغم ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة . وقال أحمد ابن أبى الحَوَارِى[1] قيل لأبى سليمان الدّارانى : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ فقال : لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، قال الله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . وقال عِكْرمة : ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصّله إليها إلا بها . وروى أن رجلا قال لموسى : يا موسى سل الله لى فى حاجة يقضيها لى هو أعلم بها ، ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزّق السَّبُع لحمه وقتله ؛ فقال موسى : ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له : "ياموسى إنه سألنى درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له فى نيل تلك الدرجة " . فكان أبو سليمان الدارانى إذا ذكر هذا الحديث يقول : سبحان من كان قادرا على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى ! ولكنه يفعل ما يشاء .

قلت : ونظير هذه الآية فى المعنى قوله تعالى «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» وقد مضى القول فيه[2] . قال علماؤنا : وهذا فى حق المؤمنين ، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة الى الآخرة . وقيل : هذا خطاب للكفار ، وكان إذا أصابهم شرّ قالوا : هذا بشؤم محمد ؛ فردّ عليهم وقال بل ذلك

---

(١) ضبط كسكارى (بالفتح) أو أحد الحوار يين (شرح القاموس) . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦

بشؤم كفركم . والأول أكثر وأظهر وأشهر . وقال ثابت البُنَانِيّ : إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا . ثم فيها قولان : أحدهما ــ أنها خاصة فى البالغين أن تكون عقوبة لهم، وفى الأطفال أن تكون مثوبة لهم . الثانى ــ أنها عقوبة عامة للبالغين فى أنفسهم والأطفال فى غيرهم من والد ووالدة . ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى عن كثير من المعاصى ألا يكون عليها حدود ؛ وهو مقتضى قول الحسن . وقيل : أى يعفو عن كثير من العصاة ألا يعجل عليهم بالعقوبة . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بفائتين الله؛ أى لن تعجزوه ولن تفوتوه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تقدّم فى غير موضع[1] .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى ومن علاماته الدالة على قدرته السفنُ الجارية فى البحر كأنها من عظمها أعلام . والأعلام : الجبال؛ وواحد الجوارى جارية ، قال الله تعالى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ»[2] . سُمّيت جارية لأنها تجرى فى الماء . والجارية : هى المرأة الشابة ؛ سُمّيت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب . وقال مجاهد : الأعلام القصور ، واحدها علم؛ ذكره الثعلبى . وذكر الماوردى عنه أنها الجبال . وقال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم . قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا :

وإنّ صخرا لتأتمّ الهُداة به * كأنه علَمٌ فى رأسه نار

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ ﴾ كذا قرأه أهل المدينة « الرياح » بالجمع . ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أى فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجرى . رَكَد الماء ركودا سكن . وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظهيرة . وكلّ ثابت فى مكان فهو راكد . وركَد

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة الحاقة .

الميزان ٱستوى . وركد القوم هدءوا . والمراكد : المواضع التي يَرْكُد فيها الإنسان وغيره
وقرأ قتادة « فَيَظْلِلْنَ » بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة، مثل ضَلِلت أَضِل[1] . وفتح اللام
هي اللغة المشهورة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾
أي صبار على البَلْوَى شكور على النعماء . قال قُطْرُب : نعم العبد الصبار الشكور ، الذي إذا
أعطى شكر وإذا ٱبْتُلِيَ صبر . قال عَوْن بن عبد الله : فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر ، وكم من
مبتلى غير صابر .

قوله تعالى : أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق
السفن، أي يغرقهن بذنوب أهلها . وقيل : يوبق أهل السفن . ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ من
أهلها فلا يغرقهم معها ؛ حكاه الماوردي . وقيل : « ويعفو عن كثير » أي ويتجاوز عن
كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك . قال القُشَيْرِي : والقراءة الفاشية « ويعفُ »
بالجزم ، وفيها إشكال؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها
بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يعف» على هذا، لأنه يصير المعنى : إن يشأ يعف، وليس
المعنى ذلك بل المعنى الاخبار عن العفو من غير شرط المشيئة؛ فهو إذًا عطف على المجزوم
من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم « ويعفو » بالرفع، وهي جيدة في المعنى .
﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ يعني الكفار ؛ أي إذا توسطوا البحر
وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله،
ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[2]،
ومضى القول في ركوب البحر في « البقرة[3] » وغيرها بما يغني عن إعادته . وقرأ نافع وابن عامر

---

(١) في الأصول : « ظللت أظل » بالظاء المعجمة . والتصويب عن الكشاف .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ و جـ ١٣ ص ٢٢٣ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية .

« ويعلمُ » بالرفع ، الباقون بالنصب . فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء ؛ كقوله فى سورة التوبة « ويُخزِهِمْ وينصُرْكُمْ عليهم » [1] ثم قال « وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » رفعا . ونظيره فى الكلام إن تأتنى آتك وينطلقُ عبد الله . أو على أنه خبر ابتداء محذوف . والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » [2] صرف من حال الجزم الى النصب استخفافا كراهيةً لتوالى الجزم؛ كقول النابغة :

فإن يَهْلِكْ أبو قابوس يهلِكْ * ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ [3]

ونُمسِكَ بعده بِذِنابِ عَيْشٍ * أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنام [4]

وهذا معنى قول الفرّاء، قال : ولو جزم « ويعلم » جاز . وقال الزجاج : نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزما؛ تقول : ما تصنعْ أصنعْ مثله وأكرمَك . وإن شئت قلت : وأكرمْك بالجزم . وفى بعض المصاحف « وليعلم » . وهذا يدل على أن النصب بمعنى : وليعلم أو لأن يعلم . وقال أبو على والمبرّد : النصب بإضمار « أن » على أن يجعل الأوّل فى تقدير المصدر؛ أى ويكون منه عفْوٌ وأن يعلم، فلما حمله على الاسم أضمر أن، كما تقول : إن تأتنى وتعطينى أكرمك ، فتنصب تعطينى ؛ أى إن يكن منك إتيان وأن تعطينى . ومعنى ﴿ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من فرار ومهرب ؛ قاله قُطْرُب . السُّدّى : من ملجأ . وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به . ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق أى يميل عنه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) آية ١٤ (٢) آية ١٤٢ سورة آل عمران . (٣) أبو قابوس : كنيته النعمان بن المنذر ؛ يريد أنه كان كالربيع فى الخصب لمجتديه ، وكالشهر الحرام لجاره ؛ أى لا يوصل الى من أجاره . والمعنى : إن يمت النعمان يذهب خير الدنيا لأنها كانت تعمر به وبجوده وعدله ونفعه للناس ، ومن كان فى ذمته وسلطانه فهو آمن على نفسه محقون الدم كما يأمن الناس فى الشهر الحرام على أموالهم ودمائهم . (٤) ذناب كل شىء : عقبه ومؤخره . وأجب الظهر مقطوع السنام . يقول : إن مات بقينا فى طرف عيش قد مضى صدره ومعظمه وخيره ، وقد بقى منه ذنبه .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَـا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىْءٍ ﴾ يريد من الغنى والسّعة فى الدنيا . ﴿ فَمَتَاعُ ﴾ أى فإنما هو متاعٌ فى أيام قليلة تنقضى وتذهب؛ فلا ينبغى أن يتفاخر به . والخطاب للشركين . ﴿ وَمَا عِنْـدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صـدّقوا ووحّدوا ﴿ وَعَلَى رَبِّهِـمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ نزلت فى أبى بكر الصدّيق حين أنفق جميع ماله فى طاعة الله فلامه الناس . وجاء فى الحديث أنه : أنفق ثمـانين ألفا .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُـمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

فيـه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ الذين فى موضع جرّ معطوف على قوله : « خير وأبقى للذين آمنوا » أى وهو للذين يجتنبون ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ ﴾ وقد مضى القول فى الكبائر فى « النساء »[1] . وقرأ حمزة والكسائىّ « كبير الإثم » والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[2] ، وكما جاء فى الحديث : "منعت العراق درهمها وقفيزها" . الباقون بالجمع هنا وفى « النجم »[3] . ﴿ وَالفَوَاحِشَ ﴾ قال السُّدّى : يعنى الزنى . وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشرك. وقال قوم : كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عنـد اجتنابها . والفواحش داخلة فى الكبائر، ولكنها تكون أفحش وأشـنع كالقتل بالنسبة الى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة . وقيـل : الفواحش والكبائر بمعنًى واحد؛ فكرر لتعدد اللفظ ؛ أى يجتنبون المعاصى لأنهـا كبائر وفواحش . وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى يتجاوزون ويحلُمـون عمن ظلمهم . قيل : نزلت فى عمر حين شُـتم بمكة . وقيل فى أبى بكر حين لامه الناس على

(١) آية ٣١ راجع جـ ٥ ص ١٥٨ وما بعدها . (٢) آية ٣٤ سورة ابراهيم ، و ١٨ سورة النحل .
(٣) آية ٣٢

انفاق ماله كله وحين شُتم فحَلُم . وعن عليّ رضى الله عنه قال : اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدّق به كله في سبيل الخير ؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ــ الى قوله ــ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردّ عليه شيئا؛ فنزلت الآية . وهذه من محاسن الأخلاق ، يُشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ؛ لقوله تعالى في آل عمران « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »[1] . وهو أن يتناولك الرجل فتكظم غيظك عنه . وأنشد بعضهم :

إني عفوت لظالمي ظلمي * ووهبت ذاك له على علمي

ما زال يظلمني وأرحمه * حتى بكيت له من الظلم

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ قال عبد الرحمن ابن زيد : هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا الى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيبا منهم قبل الهجرة . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يتشاورون في الأمور . والشُّورَى مصدر شاورته؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه . فكانت الأنصار قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمرا تشاوروا فيه ثم عملوا عليه ؛ فمدحهم الله تعالى به ؛ قاله النقاش . وقال الحسن : أي إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون؛ فمُدحوا باتفاق كلمتهم . قال الحسن : ما تشاور قوم قطّ إلا هُدُوا لأرشد أمورهم . وقال،

(١) آية ١٣٤ راجع جـ ٤ ص ٢٠٦

الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورد النقباء اليهم حتى اجتمع رأيهم فى دار أبى أيوب على الإيمان به والنصرة له . وقيل تشاورهم فيما يعرض لهم؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض . وقال ابن العربى : الشُّورَى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب الى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا . وقد قال الحكيم .

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى لبيب أو مشورة حازم (١)

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فإن الخَوَافى (٢) قوة للقوادم

فمدح الله المشاورة فى الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك : وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحروب ؛ وذلك فى الآراء كثير . ولم يكن يشاورهم فى الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام . فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون فى الأحكام و يستنبطونها من الكتاب والسنة . وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبى بكر والأنصار ما سبق بيانه (٣) . وقال عمر رضى الله عنه : نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا . وتشاوروا فى أهل الردة فاستقر رأى أبى بكر على القتال . وتشاوروا فى الجدّ وميراثه ، وفى حدّ الخمر وعدده . وتشاوروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب ؛ حتى شاور عمر الهُرْمُزان حين وفَد عليه مسلما فى المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدوّ المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأسُ و إن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس و إن شُدِخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان . والرأسُ كِسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس ؛ فَمُر المسلمين فلينفروا الى كِسْرى ... وذكر الحديث . وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قطُّ ! إذا حَزَبَنى أمر شاورت قومى ففعلت الذى يرون ؛ فإن أصبت فهم المصيبون ، و إن أخطأت فهم المخطئون .

(١) البيتان لبشار بن برد . والخَوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . والقوادم : عشر ريشات فى مقدم الجناح وهى كبار الريش . (٢) فى الأصول « نافع » . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢٤

الثالثة ــ قد مضى فى « آل عمران » ما تضمنته الشورى من الأحكام عند قوله تعالى «وشَاوِرْهُمْ فى الأمر»[(١)] . والمَشُورة بركة . والمَشْوَرة : الشُّورَى ، وكذلك المشورة (بضم الشين) ؛ تقول منه : شاورته فى الأمر واستشرته بمعنًى . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شُـورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها". قال حديث غريب. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أى ومما أعطيناهم يتصدقون . وقد تقدّم فى « البقرة »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾

فيـه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ﴾ أى أصابهم بغى المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بَغَوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة ، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم فى الأرض ونصرهم على من بغى عليهم ؛ وذلك قوله فى سورة الحج « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

(١) آية ١٥٩ راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨ وما بعدها .

لَقَدِيرٌ ‌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا[1] ... » الآيات كلها . وقيل : هو عام فى بَغْى كل باغ من كافر وغيره؛ أى إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظالمه . وهذه إشارة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود . قال ابن العربى : ذكر الله الانتصار فى البغى فى معرض المدح ، وذكر العفو عن الجرم فى موضع آخر فى معرض المدح ؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعا الى حالتين؛ إحداهما أن يكون الباغى معلنا بالفجور، وَقِحاً فى الجمهور ، مؤذيا للصغير والكبير ؛ فيكون الانتقام منه أفضل . وفى مثله قال إبراهيم النَّخَعِىّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق . الثانية — أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة و يسأل المغفرة ؛ فالعفو هاهنا أفضل، وفى مثله نزلت « وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى[2] » . وقوله : « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ[3] » . وقوله : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ[4] » .

قلت : هذا حسن ، وهكذا ذكر الكِيَا الطبرى فى أحكامه قال : قوله تعالى « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» يدل ظاهره على أن الانتصار فى هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى و إقام الصلاة؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِىّ أنهم كانوا يكرهون للؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصر على ذلك . والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجانى نادما مقلعا . وقد قال عقيب هذه الآية « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » . ويقتضى ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقبه بقوله « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » . وهو محمول على الغفران عن غير المُصرّ ، فأما المصرّ على البغى والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التى قبلها . وقيل : أى إذا أصابهم البغى تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم و يدفعوه؛ قاله ابن بحر . وهو راجع الى العموم على ما ذكرنا .

---

(١) آية ٣٩ راجع جـ ١٢ ص ٦٧ (٢) آية ٢٣٧ سورة البقرة . (٣) آية ٤٥ سورة المائدة . (٤) آية ٢٢ سورة النور .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ قال العلماء : جعل الله المؤمنين صنفين؛ صنفٌ يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم فى قوله : « وَإِذَا مَاغَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ». وصنف ينتصرون من ظالمهـم . ثم بين حدّ الانتصار بقوله : « وَجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثلُهـا » فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدى . قال مقاتل وهشام بن حُجَير : هذا فى المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبّ أو شتم . وقاله الشافعى وأبو حنيفة وسـفيان . قال سفيان : وكان ابن شُبْرُمَة يقول : ليس بمكة مثل هشام . وتأوّل الشافعى فى هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه ؛ واستشهد فى ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم لهند زوج أبى سفيان : "خذى من ماله مايكفيك وولدك" فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفًى فى « البقرة »[1] . وقال ابن أبى نَجيح : إنه محمول على المقابلة فى الجراح . وإذا قال : أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثـله . ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب . وقال السُّدِّى : إنمـا مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتـداء بالزيادة على مقـدار ما فعل به ؛ يعنى كما كانت العرب تفعله . وسمى الجزاء سيئةً لأنه فى مقابلتها ؛ فالأوّل ساء هذا فى مال أو بدن ، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضا ؛ وقد مضى هذا كله فى « البقرة »[1] مستوفى .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ قال ابن عباس : من ترك القصاص وأصلح بينه و بين الظالم بالعفو ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى إن الله يأجره على ذلك . قال مقاتل : فكان العفو من الأعمـال الصالحة . وقد مضى فى « آل عمـران »[2] فى هذا ما فيه كفاية ، والحمـد لله . وذكر أبو نعيم الحافظ عن على بن الحسين رضى الله عنهـم قال : إذا كان يوم القيـامة نادى منادٍ أيّكم أهل الفضل ؟ فيقوم ناس من الناس ؛ فيقال : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجـنة ؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم قالوا مَن أنتم ؟ قالوا أهل الفضـل ؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كنا إذا جُهل علينا حَلمنا

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٠٧

وإذا ظُلمنا صَبَرْنا وإذا سيء إلينا عفونا ؛ قالوا آدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين وذكر الحديث . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى مَن بدأ بالظلم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقيل : لا يحبّ مَن يتعدى فى الاقتصاص ويجاوز الحد ؛ قاله ابن عيسى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أى المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لَوْمه ، بل يُحمد على ذلك مع الكافر . ولا لوم إن آنتصر الظالم من المسلم ؛ فالانتصار من الكافر حتم ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب .

الخامسة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفى ذلك بنفسه . وهذا ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها — أن يكون قصاصا فى بدن يستحقه آدمى ، فلا حرج عليه إن آستوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام فى تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم . وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج ، وهو فى الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب . القسم الثانى — أن يكون حدّ الله تعالى لا حق لآدمى فيه كحدّ الزنى وقطع السرقة ؛ فان لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه ، وإن ثبت عند حاكم نُظر ، فان كان قطعا فى سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه ، ولم يجب عليه فى ذلك حق لأن التعزير أدب ، وإن كان جلدا لم يسقط به الحدّ لتعدّيه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه . القسم الثالث — أن يكون حقا فى مال ؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به ، وإن كان غير عالم نُظر ، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له إلا الاستسرار بأخذه . وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بيّنة تشهد له ففى جواز استسراره بأخذه مذهبان : أحدهما — جوازه ؛ وهو قول مالك والشافعى . الثانى — المنع ؛ وهو قول أبى حنيفة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أى بعدوانهم عليهم ؛ فى قول أكثر العلماء . وقال آبن جُريج : أى يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم .

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى فى النفوس والأموال، فى قول الأكثرين . وقال مقاتل : بغيهم عملهم بالمعاصى . وقال أبو مالك : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام دينا . وعلى هذا الحد قال ابن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وإن هذا للشركين خاصة . وقول قتادة : إنه عام ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام . وقد بيناه والحمد لله .

السابعــة ــ قال ابن العربى : هذه الآية فى مقابلة الآية المتقدمة فى « براءة » وهى قوله « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ »[1]؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها[2] على من ظلم ؛ واستوفى بيان القسمين .

الثامنــة ــ واختلف علماؤنا فى السلطان يضع على أهل بلد مالاً معلوما يأخذهم به ويؤدونه على قدر أموالهم ؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم . فقيل لا ؛ وهو قول سحنون من علمائنا . وقيل : نعم، له ذلك إن قدر على الخلاص ؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودى ثم المالكى. قال : ويدل عليه قول مالك فى الساعى يأخذ من غنم أحد الخلطاء شاة وليس فى جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشىء . قال : ولست آخذ بما روى عن سحنون ؛ لأن الظلم لا أسوة فيه ، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه فى ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » .

التاســعة ــ واختلف العلمــاء فى التحليل ؛ فكان ابن المسيب لا يحلل أحدا من عرض ولا مال . وكان سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين يحللان من العرض والمال . ورأى مالك التحليل من المال دون العرض . روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب « لا أحلل أحدا » فقال : ذلك يختلف ؛ فقلت له يا أبا عبد الله ، الرجل يسلف الرجل فيهلك ولا وفاء له ؟ قال : أرى أن يحلله وهو أفضل عندى ؛ فان الله تعالى يقول « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » . فقيل له : الرجل يظلم الرجل ؟

(١) آية ٩١ (٢) فى ابن العربى : « أثبتها » .

فقال : لا أرى ذلك ، هو عندى مخالف للاول ؛ يقول الله تعالى « إنما السبيلُ على الذين يَظْلِمُون الناس » ويقول تعالى « ما على المحسنين من سَبِيل » فلا أرى أن يجعله من ظلمه فى حِلّ . قال ٱبن العربى : فصار فى المسئلة ثلاثة أقوال : أحدها لا يحلّله بحال؛ قاله سعيد ٱبن المسيب . الثانى — يحلّله؛ قاله محمد بن سيرين . الثالث — إن كان مالا حلله وإن كان ظلما لم يحلله؛ وهو قول مالك . وجه الأول ألّا يحلل ماحرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثانى أنه حقه فله أن يسقط كما يسقط دمَه وعِرْضه . ووجه الثالث الذى اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن يتحلله ، وان كان ظالما فمن الحق ألا تتركه لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا[1] فى أفعالهم القبيحة . وفى صحيح مسلم حديثُ أبى اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لغريمه : أُخرج الىّ ، فقد علمتُ أين أنت ؛ فخرج ؛ فقال : ما حملك على أن ٱختبأت منى ؟ قال : أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيتُ والله أن أحدثك فأكذبك ، وان أعدك فأخلفك، وكنتَ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنتُ والله مُعْسِراً . قال قلت : آلله ؟ قال الله[2]؛ قال : فأتى بصحيفة فمحاها فقال : إن وجدتَ قضاءً فٱقض ، وإلا فأنت فى حِلّ ... وذكر الحديث . قال ٱبن العربى : وهذا فى الحىّ الذى يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء التَّمَحُّل[3]، فكيف بالميت الذى لا محالة له ولا ذمة معه .

العاشــرة — قال بعض العلماء : إن مَن ظُـلم وأخذ له مال فإنما له ثواب ما ٱحتبس عنـه الى موته ، ثم يرجع الثواب الى ورثتـه ، ثم كذلك الى آخرهم ؛ لأن المـال يصير بعده للوارث . قال أبو جعفر الداودى المـالكى : هـذا صحيح فى النظر ؛ وعلى هـذا القول إن مات الظالم قبل مَن ظلمه ولم يترك شيئا أو ترك مالم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلـوم الى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .

---

(١) فى بعض الأصول : « ويستسرون » وفى البعض الآخر : « ويستشرون » . (٢) قال النووى . « الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثانى بلا مدّ ، والهاء فيهما مكسورة . قال القاضى : ورويناه بفتحهما معا ؛ وأكثر أهل العربية لا يجيزون إلا الكسر » . (٣) فى ٱبن العربى : « التحلل » وقد كتب على هامش نسخة من الأصل بخط الناسخ : « يقال تمحل أى احتال فهو متمحل قاله الجوهرى » .

الحادية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أى صبر على الأذى و « غفر » أى ترك الانتصار لوجه الله تعالى ؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم . ويحكى أن رجلا سبّ رجلا فى مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويَعْرَق فيمسح العَرَق ، ثم قام فتلا هــذه الآية ؛ فقال الحسن : عقلها والله ! وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون . وبالجمــلة العفو مندوب اليــه ، ثم قد ينعكس الأمر فى بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا اليه كما تقــدّم ؛ وذلك إذا ٱحتيج الى كفّ زيادة البغى وقطع مادّة الأذى ، وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم مايدل عليه ، وهو أن زينب أسمعت عائشــة رضى الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهى ؛ فقال لعائشــة : " دونك فانتصرى " خرجه مسلم فى صحيحه بمعناه . وقيل : « صَبَر » عن المعاصى وستر على المساوئ . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أى من عزائم الله التى أمر بها . وقيل من عزائم الصواب التى وفق لها . وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه مع ثلاث آيات قبلها، وقد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك . وهى المدنيات من هذه الســورة . وقيل : هذه الآيات فى المشركين، وكان هــذا فى ابتداء الإسلام قبل الامر بالقتال ثم نسختها آية القتال؛ وهو قول ٱبن زيد، وقد تقدّم . وفى تفسير ٱبن عباس « وَلَمَن ٱنتصر بعد ظُلمِه » يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر . ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ يريد بالظــلم والكفر . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يريد وجيع . ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَــرَ ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ ﴾ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى .

قوله تعــالى : وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْــدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أى يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة فى القربى ، ولم يصدّقه فى البعث وأن متاع الدنيا قليل . أى من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ.

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى الكافرين . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى جهنم . وقيل رأوا العذاب عند الموت . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يطلبون أن يُردّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون الى ذلك .

قوله تعالى : وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على النار لأنها عذابهم ؛ فكنّى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث ؛ لأن ذلك العذاب هو النار ، وإن شئت جهنم ، ولو راعى اللفظ لقال عليه . ثم قيل : هم المشركون جميعا يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها ؛ قاله الأكثرون . وقيل : آل فرعون خصوصا ، تُحبس أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح ؛ فهو عرضهم عليها ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : إنهم عامة المشركين ، تعرض عليهم ذنوبهم فى قبورهم ، ويعرضون على العذاب فى قبورهم ؛ وهذا معنى قول أبى الحجاج . ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على « خاشعين » . وقوله : « من الذّل » متعلق بـ«ـينظرون » . وقيل : متعلق بـ«ـخاشعين » . والخشوع الانكسار والتواضع . ومعنى ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أى لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تاما ؛ لأنهم ناكسو الرءوس . والعرب تصف الذليل بغضّ الطرف ، كما يستعملون فى ضدّه حديد النظر إذا لم يُتّهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة . وقال مجاهد : « مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » أى ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عميا ، وعين القلب طرفٌ خفيّ . وقال قتادة والسدّى والقُرظىّ وسعيد بن جُبير : يسارقون النظر من شدّة الخوف . وقيل : المعنى ينظرون من

عين ضعيفة النظر . وقال يونس : « من » بمعنى الباء ؛ أى ينظرون بطرف خفى ، أى ضعيف من الذل والخوف ، ونحوه عن الأخفش . وقال ابن عباس : بطرف ذابل ذليل . وقيل : أى يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يقول المؤمنون فى الجنة لما عاينوا ماحل بالكفار إن الخسران فى الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم فى العذاب المخلد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا فى النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا فى الجنة فقد حيل بينه و بينهم . وقيل : خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل فى الجنة من الحور العين . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى « أولئك هم الوارثون »". وقد تقدّم[1] . وفى مسند الدارمى عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوّجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار وما منهن واحدة إلا ولها قُبُلٌ شهى وله ذكر لا ينثنى " . قال هشام ابن خالد : " من ميراثه من أهل النار " يعنى رجالا أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون . ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ أى دائم لا ينقطع . ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى أعوانا ونصراء ﴿ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من عذابه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى طريق يصل به إلى الحق فى الدنيا والجنة فى الآخرة؛ لأنه قد سدّت عليه طريق النجاة .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨

قوله تعالى : ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لِربكم ﴾ أى أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة . استجاب وأجاب بمعنى؛ وقد تقدّم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ﴾ يريد يوم القيامة؛ أى لا يردّه أحد بعد ماحكم الله به وجعله أجلا ووقتا. ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأ ﴾ أى من ملجأ ينجيكم من العذاب . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أى من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد . وقيل : النكير بمعنى المنكر؛ كالأليم بمعنى المؤلم ؛ أى لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب ؛ حكاه ابن أبى حاتم ، وقاله الكلبى . الزجاج : معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التى يوقفون عليها . وقيل : « من نكير » أى إنكار ما ينزل بكم من العذاب ، والنكير والإنكار تغيير المنكر .

قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أى عن الايمان ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى حافظا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها . وقيل: موكلا بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا ؛ أى ليس لك إكراههم على الايمان . ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقيل : نسخ هذا بآية القتال . ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْانْسَانَ ﴾ الكافر . ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ رخاء وصحة . ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ بطر بها . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء وشدّة . ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَاِنَّ الْانْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أى لما تقدّم من النعمة فيعدّد المصائب وينسى النعم .

قوله تعالى : لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك : يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهنّ ، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم ؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف . وقال واثلة بن الأسقع : إن من يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » فبدأ بالإناث . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية، ثم تلد غلاما ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد تَوْءَمًا، غلاما وجارية ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا . قال القُتَبِيّ : التزويج ها هنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقول العرب : زوجت إبلى إذا جمعت بين الكبار والصغار . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أى لا يولد له ؛ يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم . وعَقِمت المرأة تَعْقَم عَقْمًا؛ مثل حَمِد يَحْمَد . وعَقُمت تَعْقُم، مثل عُظم يعظم . وأصله القطع ، ومنه المُلْك العقيم ، أى تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفا على الملك . وريح عقيم؛ أى لا تلقح سحابا ولا شجرا . ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده . ويقال : نساء عُقُم وعُقْم؛ قال الشاعر[1] :

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهَه * إن النساء بمثله عُقْمُ

---

(١) فى لسان العرب : « قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومى ، وقيل هو لحزين الليثى »

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى الأنبياء خصوصا وإن عم حكمها . وهب لُلوط الإناث ليس معهنّ ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث ، وجعل عيسى ويحيى عقيمين ؛ ونحوه عن ابن عباس واسحاق بن بشر . قال اسحاق : نزلت فى الأنبياء ، ثم عمّت . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾ يعنى لوطا عليه السلام، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان . ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ يعنى ابراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له ثمانية ذكور . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد له أربعة بنين وأربع بنات . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ يعنى يحيى بن زكريا عليهما السلام ؛ لم يذكر عيسى . ابن العربى : قال علماؤنا « يهب لمن يشاء إناثا » يعنى لوطا كان له بنات ولم يكن له ابن . « ويهب لمن يشاء الذكور » يعنى إبراهيم ، كان له بنون ولم يكن له بنت . وقوله « أو يزوجهم ذكرانا وإناثا » يعنى آدم، كانت حوّاء تلد له فى كل بطن توءمين ذكرا وأنثى ، ويزوج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر ، حتى أحكم الله التحريم فى شرع نوح صلى الله عليه وسلم . وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان له ذكور وإناث من الأولاد : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله[1] وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ؛ وكلهم من خديجة رضى الله عنها ، وإبراهيم وهو من مارية القبطية . وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا ، إلى أن تقوم الساعة ، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة ؛ ليبقى النسل ، ويتمادى الخلق ، وينفذ الوعد ، ويحق الأمر ، وتعمر الدنيا ، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحدة ما يملؤها ويبقى . ففى الحديث : "إن النار لن تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه[2] ، فتقول قط قط[3] . وأما الجنة فيبقى منها فينشئ الله لها خلقا آخر" .

الثانيـــة — قال ابن العربى : إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوته يخلق الخلق ابتداء من غير شىء ، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئا من شىء لا عن حاجة ؛ فانه قدوس

---

(١) القول الأصح أن الذكور ثلاثة : القاسم وعبد الله (ويسمى بالطيب والطاهر) وابراهيم . راجع شرح المواهب اللدنية . (٢) قال القسطلانى : « أى يذللها تذليل من يوضع تحت الرجل ، والعرب تضع الأمثال بالأعضاء ولا تريد أعيانها كقولها للنادم : سقط فى يده » . (٣) قوله : « قط قط » بكسر الطاء وسكونها فيهما ، ويجوز التنوين مع الكسر والمعنى : حسبي حسبي قد اكتفيت .

عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال القدوس السلام؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبا على الوطء كائنا عن الحمل موجودا فى الجنين بالوضع؛ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: "إذا سبق ماءُ الرجل ماء المرأة أذكرا و إذا سبق ماءُ المرأة ماء الرجل آنثا"[1]. وكذلك فى الصحيح أيضا "إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه و إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله".

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال "نعم" فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلّت[2]؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعيها وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله و إذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه". قال علماؤنا: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضى الشبه؛ وقد جاء فى حديث ثَوْبان خرجه مسلم أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لليهودى: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فاذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذكرا باذن الله و إذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا باذن الله ..." الحديث. فجعل فى هذا الحديث أيضا العلو يقتضى الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِي المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولا عِلّة واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشّبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين. والذى يتعيّن تأويله الذى فى حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولهم سابقنى فلان فسبقته أى غلبته؛ ومنه قوله تعالى:

---

(١) روى بالمد وتخفيف النون و بالقصر وتشديد النون. (٢) قوله: «تربت يداك». معناه: ما أصبت! وهو فى الأصل بمعنى صار فى يدك التراب ولا أصبت خيرا أى افتقرت، لكن لا يريدون به الدعاء على المخاطب، كما يقولون: قاتله الله؛ الى غير ذلك. وقوله «وألت»: أى صاحت لما أصابها من شدة هذا الكلام. وروى بضم الهمزة مع التشديد؛ أى طعنت بالألة وهى الحربة. قال ابن الأثير: وفيه بعد؛ لأنه لا يلائم لفظ الحديث.

« وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين قيل عليه : علا . ويؤيد هذا التأويل قوله فى الحديث . "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا" . وقد بنى القاضى أبو بكر بن العربى على هذه الأحاديث بناء فقال: إن للماءين أربعة أحوال : الأول أن يخرج ماء الرجل أولا، الثانى أن يخرج ماء المرأة أولا ، الثالث أن يخرج ماء الرجل أولا و يكون أكثر، الرابع أن يخرج ماء المرأة أولا و يكون أكثر . ويتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أولا ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أولا وكان أكثر جاء الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة. وإن خرج ماء المرأة أولا وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم الغلبة . وإن خرج ماء الرجل أولا لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة. وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل . قال : وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم .

الثالثة — قال علماؤنا : كانت الخلقة مستمرة ذكرا وأنثى إلى أن وقع فى الجاهلية الأولى الخنثى فأتِىَ به فريضَ العرب ومعمّرها[1] عامر بن الظَّرِب فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه؛ فلما جَنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأقَضَّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجيء به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حاله فقالت : ما بك ؟ قال لها : سهرت لأمر قُصِدت به فلم أدر ما أقول فيه ؟ فقالت ما هو ؟ قال لها :رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله فى الميراث ؟ قالت له الأَمَة : ورّثه من حيث يبول ؛ فعقَلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين . وجاء الاسلام على ذلك فلم تنزل إلا فى عهد علىّ رضى الله عنه فقضى فيها . وقد روى الفَرَضيُّون عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يورّث ؟ قال : من حيث يبول . وروى

(١) فى ابن العربى : « ومعتمدها » . و يقال أنه عاش ثلثمائة عام .

أنه أتى بخنثى من الأنصار فقال : " ورّثوه من أوّل ما يبول " . وكذا روى محمد بن الحنفية عن علىّ ، ونحوه عن ابن عباس ، وبه قال ابن المسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ، وحكاه المزنى عن الشافعى . وقال قوم : لا دلالة فى البول ؛ فان خرج البول منهما جميعا قال أبو يوسف : يحكم بالأكثر . وأنكره أبو حنيفة وقال : أتكيله ! ولم يجعل أصحاب الشافعى للكثرة حكما . وحكى عن علىّ والحسن أنهما قالا : تعد أضلاعه ، فان المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد . وقد مضى ما للعلماء فى هذا فى آية المواريث فى « النساء »[1] مجوّدا والحمد لله .

الرابعة ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى : وقد أنكر قوم من رءوس العوام وجود الخنثى ، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى . قلنا : هذا جهل باللغة ، وغباوة عن مقطع الفصاحة ، وقصور عن معرفة سعة القدرة . أما قدرة الله سبحانه فانه واسع عليم ، وأما ظاهر القرآن فلا ينفى وجود الخنثى ؛ لأن الله تعالى قال : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء » . فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه ؛ لأن القدرة تقتضيه . وأما قوله « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما » فهذا إخبار عن الغالب فى الموجودات ، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل ، والوجود يشهد له والعيان يكذب منكره ، وقد كان يقرأ معنا برباط أبى سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ؛ فربك أعلم به ، ومع طول الصحبة عقلنى الحياء عن سؤاله ، وبودّى اليوم لو كاشفته عن حاله .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(١) راجع جـ ٥ ص ٦٥ فما بعدها .

فيــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: ألّا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن موسى لن ينظر إليه " فنزل قوله « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحيًا » ؛ ذكره النقاش والواحدى والثعلبي . ﴿ وَحْيًا ﴾ قال مجاهد : نَفْثٌ يُنْفَثُ في قلبه فيكون إلهاما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " إن روح القُدُس نَفَث في رُوعِي(١) إنّ نَفْسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب. خذوا ما حَلّ ودَعُوا ما حُرِم " . ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ كارساله جبريل عليه السلام . وقيل : « إلا وحيا » رؤيا يراها في منامه ؛ قاله محمد بن زهير . « أو من وراءِ حجاب » كما كلم موسى . « أو يرسل رسـولا » قال زهير هو جبريل عليه السلام . ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ وهذا الوحى من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقا ويرونه عيانا . وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحى على النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وذكرياء عليهم السلام . فأما غيرهم فكان وحيا إلهاما في المنام . وقيل « إلا وحيا » بارسال جبريل « أومن وراء حجاب » كما كلّم موسى « أو يرسل رسولا » إلى النـاس كافّة . وقرأ الزهرى وشيبة ونافع « أو يرسلُ رسـولا فيوحِى » برفع الفعلين . الباقون بنصبهما . فالرفع على الاستئناف ؛ أى وهو يرسل. وقيل « يرسل » بالرفع في موضع الحال ؛ والتقدير إلا موحيا أو مرسـلا . ومن نصب عطفوه على محل الوحى ؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى أو يرسـل . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة . ويكون في موضـع الحال ؛ التقدير أو بأن يرسـل رسولا . ولا يجوز أن يعطف « أو يرسل » بالنصب على « أن يكلمه » لفساد المعنى ؛ لأنه يصير : ما كان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولا ، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم .

(١) الروع (بالضم) : القلب والعقل . والروع (بالفتح) : الفزع .

الثانيــة ــ احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلم رجلا فأرسل إليه رسولا أنه حانث ؛ لأن المرسل قد سُمى فيها مكلما للمرسَل إليه ، إلا أن ينوى الحالف المواجهة بالخطاب . قال ابن المنذر : واختلفوا فى الرجل يحلف ألّا يكلم فلانا فكتب إليه كتابا أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال الثّورى : الرسول ليس بكلام . وقال الشافعى : لا يبين أن يحنَث . وقال النَّخَعىّ : والحكم فى الكتاب يحنث . وقال مالك : يحنث فى الكتاب والرسول . وقال مَرّة : الرسول أسهل من الكتاب . وقال أبو عبيد : الكلام سوى الخط والإشارة . وقال أبو ثور : لا يحنث فى الكتاب . قال ابن المنذر : لا يحنث فى الكتاب والرسول .

قلت : وهو قول مالك . قال أبو عمر : ومن حلف ألا يكلم رجلا فسلم عليه عامدا أو ساهيا ، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث فى ذلك كله عند مالك . و إن أرسل إليه رسولا أو سلم عليه فى الصلاة لم يحنث .

قلت : يحنث فى الرسول إلا أن ينوى المشافهة ؛ للآية ، وهو قول مالك وابن الماجشُون. وقد مضى فى أول « سورة مريم »[1] هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ أى وكالذى أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿ رُوحًا ﴾ أى نبوة ؛ قاله ابن عباس . الحسن وقتادة : رحمة من عندنا . السُّدّى : وحْيا . الكلبى : كتابا . الربيع : هو جبريل . الضحاك : هو القرآن . وهو قول

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٦

مالك بن دينار . وسماه روحا لأن فيه حياة من موت الجهل . وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب . ويمكن أن يحمل قوله « ويسئلونك عن الروح » على القرآن أيضا « قل الروح من أمر ربى » أى يسئلونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر الله أنزله علىّ معجزا ؛ ذكره القُشَيْرى . وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أى لم تكن تعرف الطريق إلى الايمان . وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفا بالإيمان . قال القشيرى : وهو من مجوّزات العقول ، والذى صار إليه المعظم ان الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنــا به قبل البعثــة . وفيه تحــكّم ، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به . قال القاضى أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن[1] قبــل النبوّة فللناس فيه خلاف ؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوّة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شىء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام . قال الله تعالى « وآتيناه الْحُكْمَ صَبِيًّا[2] » قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكتاب الله فى حال صباه . قال معمر : كان ابن سنتين أو ثلاث ؛ فقال له الصبيان : لم لا تلعب ! فقال : أللعب خُلقت ! وقيل فى قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ[3] » صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين ، فشهد له أنه كلمة الله وروحه . وقيل : صدقه وهو فى بطن أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إنى أجد ما فى بطنى يسجد لمـا فى بطنك تحيــة له . وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله « لا تحزنى » على قراءة من قرأ « مَنْ

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) آية ١٢ سورة مريم . (٣) آية ٣٩ سورة ال عمران .

تحتها » ، وعلى قول من قال إن المنادى عيسى ونص على كلامه فى مهده فقال « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا » . وقال : « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما »(١) وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبى يلعب فى قصة المرجومة وفى قصة الصبى ما اقتدى به أبوه داود . وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما . وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل . وقال المفسرون فى قوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل »(٢) : أى هديناه صغيرا ؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل ابداء خلقه . وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم بعث الله إليه ملكا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال : قد فعلت ؛ ولم يقل أفعل ؛ فذلك رشده . وقيل : إن إلقاء إبراهيم فى النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة . وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين . وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة(٣) . وقيل : أوحى إلى يوسف وهو صبى عند ما هم إخوته بإلقائه فى الجب بقوله تعالى : « وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا »(٤) الآية ؛ إلى غير ذلك من أخبارهم . وقد حكى أهل السير أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء ، وقال فى حديثه صلى الله عليه وسلم : " لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعد " . ثم يتمكن الأمر لهم ، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة فى تحصيل الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة . قال الله تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما »(٥) . قال القاضى : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نبئ واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك . ومستند هذا الباب النقل . وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله .

---

(١) آية ٧٩ سورة الأنبياء . (٢) آية ٥١ سورة الأنبياء . (٣) فى الأصول : خمسة عشر شهرا » راجع جـ ٧ ص ٢٥ . (٤) آية ١٥ سورة يوسف . (٥) آية ١٤ سورة القصص .

قال القاضي : وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما ٱفترته ، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وٱختلقته ، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة ، ولم نجد فى شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه . ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه فى معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظع وأقطع فى الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ؛ ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا « مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التى كانوا عَلَيْهَا » كما حكاه الله عنهم .

الثالثة — وتكلم العلماء فى نبينا صلى الله عليه وسلم، هل كان مُتَعَبَّدًا بدين قبل الوَحْى أم لا ؛ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عُرِف تابعا ، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى بالوقف فى أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليه بشيء فى ذلك، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا ٱستبان عندها (١) فى أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبى المعالى . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به ؛ ثم ٱختلف هؤلاء فى التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها ؛ فلا يجوز أن يكون النبى على دين منسوخ . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم ؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ؛ لأنه أقدم الأديان . وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دينٍ ولكن عين الدين غير معلومة عندنا . وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ؛ إذ هى أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة ، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه . والذى يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضى أن يكون واحدا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته ؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعز . وأنه

(١) فى الأصول : « عندهما » .

صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولا سجد لصنم ، ولا أشرك بالله ، ولا زنى ولا شرب الخمر ، ولا شهد السامر (١) ولا حضر حلف المطر (٢) ولا حلف المطيّبين (٣)؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك. فإن قيل : فقد روى عثمان بن أبى شيبة حديثا بسنده عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم ، فسمع ملَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه : اذهب حتى تقوم خلفه؛ فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًّا وقال: هذا موضوع أو شبيه بالموضوع . وقال الدّارَقُطْنى : إن عثمان وَهِم فى إسناده ، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه ؛ والمعروف عن النبىّ صلى الله عليه وسلم خلافه عند أهل العلم من قوله : " بُغِّضت إلىّ الأصنام " وقوله فى قصة بَحِيرا حين استحلف النبىّ صلى الله عليه وسلم باللّات والعُزّى إذ لقِيَه بالشام فى سَفْرته مع عمه أبى طالب وهو صبىّ ، ورأى فيه علامات النبوّة فاختبره بذلك ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئا قطُّ بُغْضَهُمَا " فقال له بَحِيرا : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه؛ فقال : "سل عما بدا لك " . وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيق الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين فى وقوفهم بمزدلِفة فى الحج، وكان يقف هو بعرفة؛ لأنه كان

---

(١) الموضع الذى يجتمعون للسمر فيه . (٢) كذا فى الأصول . (٣) فى الأصول : «المطيب» .

قال ابن الأثير : «أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات ، فذلك الذى ورد النهى عنه فى الاسلام بقوله صلوات الله عليه : "لا حلف فى الاسلام". وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذلك الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : "وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة" يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق؛ وبذلك يجتمع الحديثان ، وهذا هو الحلف الذى يقتضيه الاسلام . والممنوع منه ما خالف حكم الاسلام» .

ويلاحظ أنه قال صلى الله عليه وسلم : "شهدت غلاما مع عمومتى حلف المطيبين" . اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتَيْم فى دار ابن جدعان فى الجاهلية وجعلوا طيبا فى جَفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم؛ فسموا المطيبين . وقال عليه السلام : "شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت الى مثله فى الاسلام لأجبت" . قال ابن الأثير : يعنى حلف الفضول . (راجع نهاية ابن الأثير مادة حلف . طيب . فضل) .

موقف إبراهيم عليه السلام . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم » وقال : « أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم » وقال « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين » الآية . وهذا يقتضى أن يكون متعبِّدًا بشرع . فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد و إقامة الدِّين ؛ على ما تقدّم بيانه فى غير موضع وفى هذه السورة عند قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ » والحمد لله .

الرابعة — إذا تقرر هذا فآعلم أن العلماء اختلفوا فى تأويل قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » . فقال جماعة : معنى الإيمان فى هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : تفاصيل هذا الشرع ؛ أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل . ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيرى : وقيل : ماكنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبى العالية . وقال بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام . قال : وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيمانا . وهذه الأقوال الأربعة متقاربة . وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ؛ لقوله تعالى «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاما والمراد الخصوص . وقال الحسين بن الفضل : أى ماكنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ؛ أى من الذى يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما . وقيل : ماكنت تدرى شيئا إذ كنت فى المهد وقبل البلوغ . وحكى الماوردى نحوه عن علىّ بن عيسى قال : ماكنت تدرى ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ . وقيل : ماكنت تدرى ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك ؛ وهو محتمل . وفى هذا الإيمان وجهان : أحدهما أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوّته . والثانى — أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة .

---

(١) آية ١٣٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٢٣ سورة النحل . (٣) آية ١٣ من هذه السورة .

قلت : إنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ؛ على ما تقدم . وقيل : « ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمـان » أى كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان ،حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ؛ وهو كقوله تعالى : «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»(١) . روى معناه عن ابن عباس رضى الله عنهما . ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : يعنى الإيمان . السُّدِّى : القرآن . وقيل الوحى . أى جعلنا هـذا الوحى ﴿ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى من نختاره للنبوة؛ كقوله تعالى : «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء»(٢) . ووحّد الكناية لأن الفعل فى كثرة أسمائه بمنزلة الفعل فى الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول : إقبالك و إدبارك يعجبنى ؛ فتوحّد، وهما اثنان . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ أى تدعو وترشـد ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه . وقال علىّ : إلى كتاب مستقيم . وقرأ عاصم الجَحْدَرىّ وحَوْشب « و إنك لَتُهْـدَى » غير مُسَمَّى الفاعل؛ أى لَتُـدْعَى . الباقون « لتهدى » مسمى الفاعل . وفى قراءة أُبَىّ « و إنك لتدعو » . قال النحاس : وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد، و إنمـا يحمل ماكان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير ؛ كما قال « و إنك لتهدى » أى لتدعو . وروى معمر عن قتادة فى قوله تعالى «و إنك لَتَهْدِى إلى صراط مستقيم» قال : « ولكل قوم هاد » . ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة . قال علىّ : هو القرآن . وقيل الإسلام . ورواه النوّاس بن سمعان عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم . ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ملكا وعبدا وخلقا . ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ وعيد بالبعث والجزاء . قال سهل بن أبى الجعد : احترق مصحف فلم يبق إلا قوله «ألا إلى الله تصـير الأمو ر » وغرق مصحف فانمحى كله إلا قوله « ألا إلى الله تصـير الأمو ر » . والحمد لله وحده .

---

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت . (٢) آية ١٠٥ سورة البقرة

سورة الزخرف

مكية بإجماع . وقال مقاتل : إلا قوله « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » .

وهي تسع وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)

قوله تعالى : ﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ تقدّم[2] الكلام فيه . وقيل : « حم » قسم . « والكتاب المبين » قسم ثانٍ ؛ ولله أن يقسم بما شاء . والجواب « إنا جعلناه » . وقال ابن الأنباري : من جعل جواب «والكتاب» « حم » — كما تقول نزل والله وَجَب والله — وقف على « الكتاب المبين» . ومن جعل جواب القسم «إنا جعلناه» لم يقف على «الكتاب المبين» . ومعنى «جعلناه» أي سميناه ووصفناه ؛ ولذلك تعدّى إلى مفعولين ؛ كقوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ[3] » . وقال السدى : أي أنزلناه قرآنا . مجاهد : قلناه . الزجاج وسفيان الثّورى : بيّناه . ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أي أنزلناه بلسان العرب ؛ لأن كل نبيّ أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وقال مقاتل : لأن لسان أهل السماء عربيّ .

وقيل : المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء ؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربيا . والكناية في قوله « جعلناه » ترجع إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمون أحكامه ومعانيه . فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون العجم ؛ قاله ابن عيسى . وقال ابن زيد : المعنى لعلكم تتفكرون ؛ فعلى هذا يكون خطابا عاما للعرب والعجم . ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه ؛ على ما تقدّم في غير موضع .

---

(١) آية ٤٥ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ (٣) آية ١٠٣ سورة المائدة .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أى رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض؛ قال الله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ» (١) وقال تعالى : «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» (٢) . وقال ابن جريج : المراد بقوله تعالى « وإنه » أى أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية . «لَعَلِىٌّ» أى رفيع عن أن ينال فيبدّل. « حَكِيمٌ » أى محفوظ من نقص أو تغيير . وقال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق؛ فالكتاب عنده ، ثم قرأ « وإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ » . وكسرَ الهمزةَ من « أم الكتاب » حمزة والكسائى . وضم الباقون، وقد تقدّم (٣) .

قوله تعالى : أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ افنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ يعنى : القرآن ؛ عن الضحاك وغيره . وقيل : المراد بالذكر العذاب؛ أى أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدى ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس . وقال ابن عباس : المعنى أحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به . وعنه أيضا أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون . وقال السدى أيضا : المعنى أفنترككم سُدًى فلا نأمركم ولا ننهاكم . وقال قتادة : المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم . وعنه أيضا : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم . وقاله ابن زيد . قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته . وقال الكسائى : أفنطوى عنكم الذكر طَيًّا فلا توعظون ولا تؤمرون . وقيل : الذكر التذكر ؛ فكأنه قال أنترك تذكيركم لأن كنتم قوما مسرفين؛ فى قراءة من فتح . ومن كسر جعلها للشرط

---

(١) آية ٧٧ سورة الواقعة . (٢) آية ٢١ سورة البروج . (٣) راجع جـ ٥ ص ٧١

وما قبلها جوابا لها؛ لأنها لم تعمل فى اللفظ. ونظيره «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[(١)] وقيل : الجواب محذوف دل عليه ما تقدّم ؛ كما تقول : أنت ظالم إن فعلت . ومعنى الكسر عنـد الزجاج الحال ؛ لأن فى الكلام معنى التقرير والتوبيخ . ومعنى ﴿ صَفْحًا ﴾ إعراضا ؛ يقال : صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه . وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته . والأصل فيـه صفحة العنق ؛ يقال : أعرضت عنه أى وليته صفحة عنق . قال الشاعر[(٢)] :

صـفُوحًا فـما تلقـاك إلا بخيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّتِ

وانتصب « صَفْحا » على المصدر لأن معنى «أفنضرب» أفنصفح . وقيل : التقدير أفنضرب عنكم الذكر صالحين، كما يقال: جاء فلان مَشْياً. ومعنى ﴿مُسْرِفِينَ﴾ مشركين. واختار أبو عبيدة الفتح فى «أنْ» وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم وابن عامر، قال: لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم .

قوله تعـالى : وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِى الأَوَّلِينَ﴾ «كم» هنا خبرية والمراد بها التكثير؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء . كما قال « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»[(٣)] أى ما أكثر ما تركوا . ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ أى لم يكن يأتيهم نبى ﴿ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك . يعزى نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم ويسلّيه . ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أى قوما أشدّ منهم قوّة. والكناية فى «منهم» ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله « أفنضرب عنكم الذكر صفحا» فكنّى عنهم بعد أن خاطبهم . و«أشدّ» نصب على الحال . وقيل هو مفعول؛ أى فقد أهلكنا

(١) آية ٢٧٨ سورة البقرة . (٢) هو كثير عزة . (٣) آية ٢٥ سورة الدخان .

أقوى من هؤلاء المشركين فى أبدانهم وأتباعهم . ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ أى عقوبتهم ؛ عن قتادة . وقيل : صفة الأولين؛ نخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم؛ حكاه النقاش والمهدوى . والمَثَل : الوصف والخبر .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعنى المشركين . ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ فأقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم . وقد مضى فى غير موضع[1] .

قوله تعالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة . وهذا ابتداء إخبارٍ منه عن نفسه، ولو كان هذا إخبارا عن قول الكفار لقال الذى جعل لنا الأرض . ﴿مِهادا﴾ فراشا و بساطا . وقد تقدّم[2] . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » ﴿وجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى معايش . وقيل طرقا ، لتسلكوا منها إلى حيث أردتم . ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته . وقيل « لعلكم تهتدون » فى أسفاركم؛ قاله ابن عيسى . قيل : لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : تهتدون إلى معايشكم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ قال ابن عباس : أى لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم؛ بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة ، حتى

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٠٩

يكون معاشا لكم ولأنعامكم. ﴿ فَأَنْشَرْنَا ﴾ أي أحيينا. ﴿ به ﴾ أي بالماء . ﴿ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ أي مقفرة من النبات . ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي من قبوركم ؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك . وقد مضى في «الأعراف» مجوّدا[1] . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر « يَخْرُجون » بفتح الياء وضم الراء . الباقون على الفعل المجهول .

قوله تعالى : وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ ﴾ أي والله الذي خلق الأزواج . قال سعيد بن جبير : أي الأصناف كلها . وقال الحسن : الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار . وقيل : أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : أراد أزواج النبات ؛ كما قال تعالى : « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[2] و « مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ »[3] . وقيل ما يتقلّب فيه الانسان من خير وشر ، وإيمان وكفر ، ونفع وضر ، وفقر وغنى ، وصحة وسقم .

قلت : وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ الإبل ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ في البر والبحر . ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ ذكر الكناية لأنه ردّه إلى ما في قوله « ما تركبون » ؛ قاله أبو عبيد . وقال الفرّاء : أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس ، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند ؛ فلذلك ذكّر ، وجمع الظهور ، أي على ظهور هذا الجنس .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٠ . (٢) آية ٧ سورة ق . (٣) آية ٧ سورة الشعراء .

الثانيــة ــ قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها؛ وهو الصحيح لقوله عليـه السلام : " بينما رجلٌ راكب بقرة إذ قالت له لَمْ أخلق لهذا إنمـا خلقت للحرث" فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر"[1] . وما هما فى القوم . وقد مضى هذا فى أوّل سورة « النحل »[2] مستوفًى والحمد لله .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ يعنى به الابل خاصة بدليل ما ذكرنا ، ولأن الفلك إنمـا تركب بطونها ، ولكنــه ذكرهما جميعا فى أول الآية وعطف آخرها على أحدهما . ويحتمل أن يجعل ظاهرهما باطنهما ؛ لأن المـاء غمره وستره وباطنهما ظاهرا ؛ لأنه آنكشف للظاهرين وظهر للبصرين .

الرابعــة ــ قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى ركبتم عليه . وذكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا فى البر والبحر . ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ أى ذلّل لنا هذا المركب . وفى قراءة علىّ بن أبى طالب « سبحان من سخر لنا هذا » . ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أى مطيقين؛ فى قول آبن عباس والكلبى. وقال الأخفش وأبو عبيدة: « مقرنين » ضابطين . وقيل : ممـاثلين فى الأيد والقوّة ؛ من قولهم : هــو قِرْن فلان إذا كان مثله فى القوّة . ويقال : فلانٌ مُقْرِن لفلان أى ضابط له . وأقرنت كذا أى أطقته . وأقرن له أى أطاقه وقوِىَ عليه ؛ كأنه صار له قِرْنا . قال الله تعالى : « وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين » أى مطيقين . وأنشد قُطْرُب قول عمرو بن مَعْدِيكَرِب :

لقد علم القبائل ما عُقيلٌ * لنـا فى النائبات بمقرنينـا

وقال آخر :

ركبتم صَعْبَتِى أشَرًا وحَيْفًا * ولستم للصِّعاب بمقرنينـا

المُقْرِن أيضا : الذى غلبته ضَيعته ؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها ، أو يكون يسقى إبله ولا ذائد له يذودها . قال آبن السِّكِّيت : وفى أصله قولان : أحدهما ــ أنه مأخوذ من الإقران؛ يقال : أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق. وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته؛ كأنه ـ

(١) أى أبو بكر وعمر لم يكونا حاضرين . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٢

فى قرن — وهو الحبل — فأوثقه به وشدّه . والثانى — أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير؛ يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الخامســة — علمنا الله سـبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرّفنا فى آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ؛ وهى قوله تعالى : « وقال آركَبُوا فِيهـا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيها ومُرْساها إنّ رَبِّى لغفـورٌ رحِيمٌ »[1] فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت[2] أو طاح من ظهرها فهلك[3] . وكم من راكبين فى سفينة آنكسرت بهم فغرقوا . فلما كان الركوب مباشرةَ أمرٍ محظور وآتصالا بأسباب من أسباب التلف أمر ألا ينسى عنـد آتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه . ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقـاء الله بإصلاحه من نفسه . والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه . حكى سليمان بن يسار أن قوما كانوا فى سـفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : « سبحان الذى سخّر لنا هذا وما كنا له مُقْـرِنين »[4] وكان فيهم رجل على ناقة له رازم — وهى التى لا تتحـرك هزالا — فقال : أمّا أنا فإنى لهذه لمقرن، قال : فقمصت به فدقت عنقه . وروى أن أعرابيا ركب قعودا له وقال إنى لمقرن له فركضت به القعود حـتى صرعته فآندقّت عنقه[5] . ذكر الأوّل الماوردى والثانى آبن العـربى . قال : وما ينبغى لعبد أن يدع قول هـذا وليس بواجب ذكره باللسان ؛ فيقول متى ركب وخاصة فى السفر إذا تذكر : « سبحانَ الذى سخّر لنا هذا وما كُنَّا له مُقْرِنين . وإنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمـال، اللهم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المنقلَب، والحَوْر بعد الكَوْر، وسوء المنظر فى الأهل والمـال . يعنى بـ « الحور بعد الكور » تشتت أمر الرجل بعـد آجتماعه . وقال عمرو بن دينار : ركبت مع أبى جعفر إلى أرض له نحو حائط يقال لها مدركة، فركب

---

(١) آية ٤١ سورة هود . (٢) تقحم الفرس براكبه ألقاه على وجهه . (٣) فى الأصول : «فهلكت» . (٤) وجد على هامش نسخة من الأصل بخط ناسخه : «الرازم من الإبل : الثابت على الأرض الذى لا يقوم من الهزال . وقد رزمت الناقة ترزُم وترزِم رزوما ورُزاما قامت من الإعياء والهزال فلم تتحرك فهى رازم . قاله الجوهرى فى الصحاح» . (٥) هذه عبارة ابن العربى والأصول : ويلاحظ أن القعود مذكر .

على جمل صعب فقلت له : أبا جعفر ! أما تخاف أن يصرعك ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا آسم الله كما أمركم ثم آمتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله " . وقال عليّ بن ربيعة : شهدت عليّ بن أبي طالب ركب دابة يوما فلما وضع رجله في الركاب قال : باسم الله ، فلما آستوى على الدابة قال الحمد لله ، ثم قال « سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مُقرنين . وإنا إلى ربنا لَمُنْقَلِبونَ » ثم قال : الحمد لله والله أكبر ــ ثلاثا ــ اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك فقلت له : ما أضحكك؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعتُ ، وقال كما قلت ، ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : " العبد ــ أو قال ــ عجبا لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فآغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره " . خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، وأبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد في أحكامه . وذكر الثعلبيّ نحوه مختصرا عن عليّ رضي الله عنه ، ولفظه عنه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله في الركاب قال : "باسم الله ــ فإذا استوى قال ــ الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين" . وروى آبن أبي نجيح عن مجاهد قال : من ركب ولم يقل « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» قال له الشيطان تَغَنّه ، فإن لم يحسن قال له تمنّه ، ذكره النحاس .

ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق ، فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلّ طِلاهم[1] وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره . الزَّمَخْشَريّ : ولقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يَصْحُ إلا بعد ما آطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية ! ؟

(١) الطلاء : ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء ؛ يريد بذلك تحسين اسمها .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا له مِن عِبادِهِ جُزْءًا ﴾ أى عِدلًا ؛ عن قتادة . يعنى ما عبد من دون الله عز وجل . الزجاج والمبرد : الجزء هاهنا البنات؛ عَجّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكا أو ولدا، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به؛ لأن هذا من صفات النقص . قال الماوردى : والجزء عند أهل العربية البنات ؛ يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات؛ قال الشاعر :

إن أجزأتْ حُرَّةٌ يوما فلا عَجَبٌ * قد تجزئُ الحُرَّةُ المذكار أحيانا

الزمخشرى : ومن بِدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث ، وادّعاء أن الجزء فى لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدَث متحوّل ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتا، وبيتا :

* إن أجزأت حرة يوما فلا عجب *

* زُوِّجْتُهَا من بنات الأوس مُجْزِئَةً[(١)] *

وإنما قوله « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » متصل بقوله « ولئن سَأَلْتَهُمْ » أى ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى « مِن عِبادِهِ جُزْءًا » أن قالوا الملائكة بنات الله؛ فجعلوهم جزءا له وبعضا ، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءا له . وقرئ « جزؤا » بضمتين . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر . ﴿ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ قال الحسن : يعدّ المصائب وينسى النعم . « مُبِينٌ » مظهر الكفر .

---

(١) وتمامه كما فى اللسان مادة جزأ : * للعوسج اللدن فى أبياتها زجل *

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ الميم صلة ، تقديره آتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله ؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ . ﴿ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ أى آختصكم وأخلصكم بالبنين ؛ يقال : أصفيته بكذا ؛ أى آثرته به . وأصفيته الودّ أخلصته له . وصافيته وتصافينا تخالصنا . عجب من إضافتهم إلى الله آختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين ؛ وهو مقدّس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه آتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس؟ وهذا كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تلك إذا قسمةٌ ضيزى » (١) .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ أى بأنه ولدت له بنت ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أى صار وجهه ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ قيل ببطلان مَثَله الذى ضربه . وقيل : بما بُشِّر به من الأنثى ؛ دليله فى سورة النحل « و إذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى » (٢) . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم وآربدّ وجهه غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت :

ما لأبى حمزة (٣) لا يأتينا * يَظَلّ فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا * وإنما نأخذ ما أعطينا

وقرئ « مسودٌ ، ومسوادٌ » . وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه آسم «ظل» و « مسودا » خبر « ظل » . ويجوز أن يكون فى « ظل » ضمير عائد على أحد وهو آسمها ، و « وجهه »

---

(١) آية ٢١ سورة النجم . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٦ . (٣) فى رواية «حمزة» بالحاء المهملة. وفى بلوغ الأرب للآلوسى : « لأبى الذلفاء » .

بدل من الضمير . و « مسودا » خبر «ظل» . ويجوز أن يكون رفع « وجهه » بالابتداء، ويرفع « مسودا » على أنه خبره،وفى «ظل» آسمها والجملة خبرها . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى حزين؛ قاله قتادة . وقيل مكروب ؛ قاله عكرمة . وقيل ساكت ؛ قاله ابن أبى حاتم ؛ وذلك لفساد مَثَله وبطلان حجته . ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبها لله ؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه . ومن اسودّ وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى ، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه ؛ فكيف إلى الله عز وجل ! وقد مضى فى « النحل » فى معنى هذه الآية ما فيه كفاية[1] .

قوله تعالى : أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِى الحِلْيَةِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ ﴾ أى يُرَبَّى ويَشِبّ . والنُّشوء: التربية؛ يقال : نشأت فى بنى فلان نَشْئًا ونشوءا إذا شَبَبْت فيهم . ونُشِّئَ وأنشئ بمعنًى . وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وَثّاب وحفص وحمزة والكسائى وخَلَف « يُنَشَّأ » بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ أى يربى ويكبَر فى الحِلْية . وآختاره أبو عبيد؛ لأن الإسناد فيها أعلى . وقرأ الباقون « يَنْشأ » بفتح الياء وإسكان النون ، وآختاره أبو حاتم ؛ أى يرسَخ وينبت ؛ وأصله من نشأ أى ارتفع ؛ قاله الهَرَوِىّ . فـ«يُنَشَّأ» متعد، و «ينشأ» لازم .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ فِى الحِلْيَةِ ﴾ أى فى الزينة . قال ابن عباس وغيره : هنّ الجوارى زِيُّهن غير زِىّ الرجال. قال مجاهد: رُخّص للنساء فى الذهب والحرير؛ وقرأ هذه الآية. قال الكِيا: فيه دلالة على إباحة الحُلِىّ للنساء، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١٦

قلت ـ روى عن أبي هريرة أنه كان يقول لابنته : يا بنيّة ، إياك والتحلّي بالذهب ! فإني أخاف عليك اللهب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي في المجادلة والإدلاء بالحجة . قال قتادة : ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها . وفي مصحف عبد الله « وهو في الكلام غير مبين » . ومعنى الآية : أيضاف إلى الله من هذا وصفه ! أي لا يجوز ذلك . وقيل : المنشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة وحلّوها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . ويكون معنى « وهو في الخصام غير مبين » على هذا القول : أي ساكت عن الجواب . و « مَن » في محل نصب ؛ أي اتخذوا لله من ينشأ في الحلية . ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء والخبر مضمر؛ قاله الفرّاء . وتقديره : أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة . وإن شئت قلت خفض ردا إلى أول الكلام وهو قوله « بما ضَرَب » ، أو على «ما» في قوله « مما يخلق بنات » . وكون البدل في هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلة بين البدل والمبدل منه . ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ قرأ الكوفيون « عباد » بالجمع . واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذبهم في قولهم إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا ببناته . وعن ابن عباس أنه قرأ « عُبّاد الرحمن » ، فقال سعيد بن جبير : إن في مصحفي « عبد الرحمن » فقال : امحها واكتبها « عباد الرحمن » . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « بل عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »[1] . وقوله تعالى : « أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ »[2] . وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »[3] . وقرأ الباقون « عند الرحمن » بنون ساكنة ، واختاره أبو حاتم . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ »[4] وقوله « وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ »[5] . والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم

(١) آية ٢٦ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠٢ سورة الكهف . (٣) آية ١٩٤ سورة الأعراف .
(٤) آخر سورة الأعراف . (٥) آية ١٩ سورة الأنبياء .

فى نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم فى تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله . وذكر العباد مدح لهم ؛ أى كيف عبدوا من هو فى نهاية العبادة، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل . والجعل هنا بمعنى القول والحُكْم ؛ تقول : جعلت زيدا أعلم الناس ؛ أى حكمت له بذلك . ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث . وقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم سألهم وقال : "فما يدريكم أنهم إناث" ؟ فقالوا : سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فى أنهم إناث، فقال الله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أى يسئلون عنها فى الآخرة . وقرأ نافع « أَوُشْهِدوا »[1] بهمزة آستفهام داخلة على همزة مضمومة مسهّلة، ولا يمدّ سوى ماروى المسيّبى عنه أنه يمدّ . وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقّق الهمزتين . والباقون « أشهِدوا » بهمزة واحدة للاستفهام . وروى عن الزهرى « أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ » على الخبر، «ستكتب» قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول « شهادتهم » رفعا . وقرأ السُّلمى وآبن السَّمَيْقَع وهُبيرة عن حفص « سنكتب » بنون، « شهادتهم » نصبا بتسمية الفاعل . وعن أبى رجاء « ستكتب شهاداتهم » بالجمع .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ يعنى قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية : لو شاء الرحمن على زعمكم ماعبدنا هذه الملائكة . وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل . وكل شىء بإرادة الله ، وإرادتُه تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها ؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم يقع . ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ماحصل منهم . وقد مضى هذا المعنى فى الأنعام عند قوله «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»[2] وفى يس : « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ »[3] . وقوله ﴿ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مردود إلى

(١) رسمناها هكذا تصويرا للنطق . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٧

قوله « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا » أي مالهم بقولهم : الملائكة بنات الله؛ من علم ؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي . وقال مجاهد وابن جريج : يعني الأوثان ؛ أي مالهم بعبادة الأوثان من علم . « مِن » صلة . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يحدسون ويكذبون ؛ فلا عذر لهم في عبادة غير الله عز وجل . وكان في ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضي ذلك منا، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة .

قوله تعالى : أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾

هذا معادل لقوله « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » . والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا من قبله ؛ أي من قبل القرآن بما ادعوه ؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه .

قوله تعالى : بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أي على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بن عبد العزيز . وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة « على إِمَّة » بكسر الألف . والأمة الطريقة . وقال الجوهري : والإمة (بالكسر) : النعمة . والإمة أيضا لغة في الأُمة ، وهي الطريقة والدين؛ عن أبي عبيدة . قال عدي بن زيد في النعمة :

ثم بعد الفلاح والمُلك والأمة وارتهم هناك القبور

عن غير الجوهري . وقال قتادة وعطية : « على أمة » على دين؛ ومنه قول قيس بن الخطيم :

كنا على أمة آبائنا * ويقتدي الآخر بالأول

قال الجوهرى : والأمّة الطريقة والدّين ، يقال : فلان لا أمة له ؛ أى لا دين له ولا نِحْلة .
قال الشاعر :

* وهل يستوى ذو أمّة وكَفُورُ *

وقال مجاهد وقطرب : على دين على ملة . وفى بعض المصاحف « قالوا إنا وجدنا آباءنا على ملة » وهذه الأقوال متقاربة . وحكى عن الفرّاء على ملة على قِبْلة . الأخفش : على استقامة ، وأنشد قول النابغة :

حَلَفْتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وهل يأْثَمَنْ ذو أُمّة وهو طائع

الثانيــة — ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أى نهتدى بهم . وفى الآية الأخرى « مقتدون » أى نقتـدى بهم ، والمعنى واحد . قال قتادة : مقتدون متبعون . وفى هـذا دليل على إبطال التقليد ؛ لذمّه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة » مستوفًى[1] . وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن المغيرة وأبى سفيان وأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة من قريش ؛ أى وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلهم أيضا . يُعزّى نبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ »[2] . والمترَف : المنعَّم ؛ والمراد هنا الملوك والجبابرة .

قوله تعالى : ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى﴾ أى قل يا محمد لقومك : أوليس قد جئتكم من عند الله بأهدى ؛ يريد بأرشد . ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعنى بكل ما أرسـل به الرسل . فالخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ولفظه لفظ الجمع ؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سـواه . وقرئ « قل وقال وجئتكم وجئناكم » يعنى أتتبعون آباءكم ولـو جئتكم بدين أهـدى من دين آبائكم ؟ قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى . وقد مضى فى « البقرة » القول فى التقليد وذمه فلا معنى لإعادته[1] .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١١ فما بعدها ، طبعة ثانية .   (٢) آية ٤٣ سورة فصلت .

قوله تعالى : فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَانْتَقَمْنَا منهم﴾ بالقحط والقتل والسبى ﴿فانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾ آخر أمر من كذب الرسل . [وقراءة العامة « قل أولو جئتكم » . وقرأ ابن عامر وحفص «قال أوَ لَوْ» على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة . وقرأ أبو جعفر «قل أو لو جئنا كم» بنون وألف ؛ على أن المخاطبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل] [1] .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ أى ذكّرهم إذ قال . ﴿إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت ؛ لا يقال : البراءان والبراءون ؛ لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء . قال الجوهرى : وتبرّأت من كذا ، وأنا منه بَراء ، وخَلاء منه ، لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر فى الأصل ؛ مثل : سَمِع سَمَاعا . فاذا قلت : أنا برىء منه وخَلِىّ ثنّيتَ وجمعت وأنّثت ، وقلت فى الجمع : نحن منه بُرَآء مثل فقيه وفقهاء ، وبِراء أيضا مثل كريم وكِرام ، وأبراء مثل شريف وأشراف ، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء ، و بريئون . وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات و برايا . و رجل برىء و بُراء مثل عجيب وعجاب . والبَراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر ، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس .

﴿ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى ﴾ استثناء متصل ، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم . قال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا ؛ مع عبادة الأوثان . و يجوز أن يكون منقطعا ؛ أى لكن الذى فطرنى فهو يهدين . قال ذلك ثقةً بالله وتنبيها لقومه إن الهداية من ربه .

قوله تعالى : وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

(١) ما بين المربعين مقحم من الآية السابقة .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ الضمير في « جعلها » عائد على قوله « إلا الذي فطرني » . وضمير الفاعل في «جعلها» لله عز وجل؛ أي وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية في عقبه، وهم ولده وولد ولده ؛ أي إنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضا في ذلك . والعقب من يأتي بعده . وقال السدي : هم آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : قوله « في عقبه » أي في خلفه . وفي الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها كلمة باقية في عقبه . أي قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله . قال مجاهد وقتادة : الكلمة لا إله إلا الله . قال قتادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال الضحاك : الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله . عكرمة : الإسلام؛ لقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »(١) . القرظي : وجعل وصية إبراهيم التي وصى بها بنيه وهو قوله «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ»(٢) — الآية المذكورة في البقرة — كلمة باقية في ذريته وبنيه . وقال ابن زيد : الكلمة قوله « أسلمت لرب العالمين » وقرأ « هو سماكم المسلمين من قبل » . وقيل : الكلمة النبوة . قال ابن العربي : ولم تزل النبوة باقية في ذرية إبراهيم . والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم .

الثانية — قال ابن العربي : إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين ؛ إحداهما في قوله « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ »(٣) فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد . ثانيهما قوله « وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ »(٤) . وقيل : بل الأولى قوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »(٥) فكل أمة تعظمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو نوح .

الثالثة — قال ابن العربي : جرى ذكر العقب ها هنا موصولا في المعنى ، وذلك مما يدخل في الأحكام وترتب عليه عقود العُمْرَى(٦) والتحبيس . قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) آخر سورة الحج . (٢) آية ١٣٢ (٣) آية ١٢٤ سورة البقرة . (٤) آية ٣٥ سورة إبراهيم . (٥) آية ٨٤ سورة الشعراء . (٦) العمرى (كحبلى) : تمليك الشيء مدة العمر .

" أَيُّمَا رَجُلٍ أُعْمِرَ عُمْرَى له ولعقبه فإنها للذى أعطِيَها لا ترجع إلى الذى أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث " . وهى تَرِد على أحد عشر لفظا :

اللفظ الأوّل — الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وُجد من الرجل وامرأته فى الإناث والذكور . وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعا ؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعيّن وأولاد الذكور من المعيّن دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين، ولذلك لم يدخلوا فى الحبس بهذا اللفظ ؛ قاله مالك فى المجموعة وغيرها .

قلت : هذا مذهب مالك وجميع أصحابه المتقدّمين ، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ »[1] . وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون فى الأحباس؛ يقول المحبِّس : حبست على ولدى أو على عقبى . وهذا اختيار أبى عمر بن عبد البر وغيره؛ واحتجوا بقول الله جل وعز : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ»[2] . قالوا: فلما حَرّم الله البنات حَرمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنها بنت ووجب أن تدخل فى حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام »[3] مستوفًى .

اللفظ الثانى — البنون ؛ فإن قال: هذا حبس على ابنى؛ فلا يتعدّى الولد المعين ولا يتعدّد. ولو قال ولدى، لتعدّى وتعدّد فى كل من ولد . و إن قال على بنىّ، دخل فيه الذكور والإناث. قال مالك : من تصدّق على بنيه و بنى بنيه فإن بناته و بنات بناته يدخلن فى ذلك . روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن فى ذلك مع بنات صلبه . والذى عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون فى البنين . فإن قيل فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحسن آبن آبنته : " إن ابنى هذا سيِّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " . قلنا : هذا مجاز ، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه ؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل فى ولد بنته ليس بآبنى ؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه ؛

(١) آية ١١ سورة النساء . (٢) آية ٢٣ سورة النساء . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣١

لأن الحقائق لا تنفى عن منتسباتها[١] . ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه ؛ ولذلك قيل في عبد الله بن عباس : إنه هاشمي وليس بهلالي و إن كانت أمه هلالية .

قلت : هذا الاستدلال غير صحيح ، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة لوجود معنى الولادة فيه ، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » . وقال تعالى « ومن ذريته داود وسليمان — الى قوله — من الصالحين »[٢] فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدم بيانه هناك . فان قيل فقد قال الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا * بنوهن أبناء الرجال الأباعد

قيل لهم : هذا لا دليل فيه ؛ لأن معنى قوله إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب ، و إن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك ؛ اذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسميه ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن ؛ وقد يقول الرجل في ولده ليس هو بابني إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقا ، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه و إنما يريد أن ينفي عنه حكمه . ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولدا فقد أفسد معناه وأبطل فائدته ، وتأول على قائله ما لا يصح ؛ اذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابنا ، ولا يسمى ولد الابنة ابنا ؛ من أجل أن معنى الولادة التي اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى ؛ لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة ، و ولد الابن انما هو ولده بماله مما كان سببا للولادة . ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده في اللسان ، وانما أخرجهم منه قياسا على الموارثة . وقد مضى هذا في «الأنعام»[٢] والحمد لله .

اللفظ الثالث — الذرية ؛ وهي مأخوذة من ذرأ الله الخلق ؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله « ومن ذريته داود وسليمان — الى أن قال — وذكريا ويحيى وعيسى » . وإنما كان من ذريته من قبل أمه . وقد مضى في « البقرة »[٣] اشتقاق الذرية وفي « الأنعام » الكلام على « ومن ذريته » الآية ؛ فلا معنى للاعادة .

(١) في نسخة من الأصل : « مشبهاتها » . وفي ابن العربي « مسمياتها » .
(٢) آية ٨٤ سورة الأنعام . راجع جـ ٧ ص ٣١ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

اللفظ الرابع — العقب؛ وهو في اللغة عبارة عن شيء بعد شيء كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال : أعقب الله بخير؛ أي جاء بعد الشدّة بالرخاء . وأعقب الشيبُ السواد . وعَقَب يَعقُب عقوبا وعَقْبًا اذا جاء شيئا بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل : عَقِبه . والمِعْقاب من النساء : التي تلد ذكرا بعد أنثى، هكذا أبدا . وعقب الرجل : ولده وولد ولده الباقون بعده . والعاقبة الولد؛ قال يعقوب : في القرآن «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» . وقيل : بل الورثة كلهم عَقِب . والعاقبة الولد؛ ولذلك فسره مجاهد هنا . وقال ابن زيد : ها هنا هم الذرية . وقال ابن شهاب : هم الولد وولد الولد . وقيل غيره على ما تقدّم عن السُّدي . وفي الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهي مؤنثة . وعقب الرجل أيضا ولده وولد ولده . وفيه لغتان : عَقِب وعَقْب (بالتسكين) وهي أيضا مؤنثة، عن الأخفش . وعَقَب فلان مكان أبيه عاقبة أي خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى «لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ»(1) . ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد في المعنى . واختلف في الذرّية والنسل فقيل إنهما بمنزلة الولد والعقب؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك . وقيل : إنهم يدخلون فيهما . وقد مضى الكلام في الذرية هنا وفي «الأنعام»(2) .

اللفظ الخامس . نسلي؛ وهو عند علمائنا كقوله ولدي وولد ولدي؛ فانه يدخل فيه ولد البنات . ويجب أن يدخلوا؛ لأن نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجه، ولم يقترن به ما يخصّه كما اقترن بقوله عَقِبي ما تناسلوا . وقال بعض علمائنا : إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيه ولد البنات؛ إلا أن يقول المحبس نسلي ونسل نسلي، كما اذا قال عقبي وعقب عقبي . وأما اذا قال ولدي أو عقبي مفردا فلا يدخل فيه البنات .

اللفظ السادس — الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع . قال ابن القاسم : هما سواء، وهم العَصَبة والإخوة والبنات والعمات، ولا يدخل فيه الخالات . وأصل أهل الاجتماعُ،

---

(1) آية ٢ سورة الواقعة .

(2) راجع جـ ٧ ص ٣١ .

يقال : مكانٌ آهل إذا كان فيه جماعة ، وذلك بالعصبة ومن دخل فى القُعْدُد[1] من النساء ، والعصبة مشتقة منه وهى أخص به . وفى حديث الإفك : يا رسول الله ، أَهْلُكَ ! ولا نعلم إلا خيرا ؛ يعنى عائشة . ولكن لا تدخل فيه الزوجة بإجماع وإن كانت أصل التأهل ؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربطها ويحل بالطلاق . وقد قال مالك : آل محمد كلُّ تقى ؛ وليس من هذا الباب . وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فاشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة . وقد قال أبو إسحاق التونسى : يدخل فى الأهل كل من كان من جهة الأبوين ؛ فوفّى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال . وهذه المعانى إنما تبنى على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق ؛ فهذان لفظان .

اللفظ الثامن — قرابة ؛ فيه أربعة أقوال : الأول — قال مالك فى كتاب محمد وابن عبدوس : إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد ؛ ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالاتْ . الثانى — يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه ؛ قاله علىّ بن زياد . الثالث — قال أشهب : يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء . الرابع — قال ابن كنانة : يدخل فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت . وقد قال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى »[2] قال : إلا أن تصلوا قرابة ما بينى وبينكم . وقال : لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ فهذا يضبطه والله أعلم .

اللفظ التاسع — العشيرة ؛ ويضبطه الحديث الصحيح : إن الله تعالى لما أنزل « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »[3] دعا النبى صلى الله عليه وسلم بطون قريش وسماهم — كما تقدم ذكره — وهم العشيرة الأقربون ؛ وسواهم عشيرة فى الإطلاق . واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد ، كما تقدم من قول علمائنا .

---

(١) فى الأصول : « ومن دخل فى العقد » . وفى ابن العربى : « ومن دخل فى العقدة » وقد أثبتناه كما ترى استئناسا بما فى شرح الباجى على الموطأ ؛ وعبارته : « ... ولا يدخل فى ذلك الخالات . ومعنى ذلك عندى العصبة أو من كان فى تعددهن من النساء » . والقعدد (بضم أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه وفتحه) : القربى .

(٢) آية ٢٣ سورة الشورى . (٣) آية ٢١٤ سورة الشعراء . راجع جـ ١٣ ص ١٤٣

اللفظ العاشر ــ القوم ؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء . والقوم يشمل الرجال والنساء؛ وإن كان الشاعر قد قال :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــوم آل حِصْــن أم نســاء

ولكنــه أراد أن الرجل إذا دعا قومــه للنصرة عنى الرجال ، وإذا دعاهم للحُرْمَــة دخل فيهم الرجال والنساء ؛ فتعمّمه الصفة وتخصّصه القرينة .

اللفظ الحادى عشر ــ الموالى؛ قال مالك : يدخل فيــه موالى أبيه وابنه مع مواليه . وقال ابن وهب : يدخل فيه أولاد مواليه . قال ابن العربى : والذى يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء ؛ قال : وهــذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والســنة المبيّنة له؛ والتفريع والتتميم فى كتاب المسائل، والله أعلم .

قوله تعـالى : بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ وقــرئ « بل متعنــا » . ﴿ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُــمْ ﴾ أى فى الدنيــا بالإمهال . ﴿ حَتَّى جَاءَهُــمُ الْحَقُّ ﴾ أى محمد صــلى الله عليــه وسلم بالتوحيــد والإسلام الذى هو أصــل دين إبراهيم ، وهو الكلمة التى بقّاها الله فى عقبــه . ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أى يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة . ﴿ وَلَمَّــا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا هَــذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ أى هلّا نزل ﴿ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ ﴾

وقـرئ « على رَجْل » بسكون الجيم . ﴿ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى من إحدى القريتين ؛ كقوله تعالى : « يَخْـرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ » أى من أحدهما . أو على أحد رجلين من القريتين . القريتان : مكة والطائف . والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبي جهل . والذى من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى ؛ قاله قتـادة . وقيل : عمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ؛ وهو قول مجاهد . وعن ابن عباس : أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفى . وقال السدى : كنانة بن عبد بن عمرو . وروى أن الوليد بن المغيرة — وكان يسمى ريحانة قريش — كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقا لنزل علىّ أو على أبي مسعود ؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعنى النبوة فيضعونها حيث شاءوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى أفقرنا قوما وأغنينا قوما ؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهـم فكيف يفوّض أمر النبوة إليهم . قال قتادة : تلقاه ضعيف القـوّة قليل الحيلة عَيِيّ اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شـديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتّر عليه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن فى رواية عنه « معايشهم » . وقيل : أى نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما علىّ وأنا قادر على نزع النّعمة عنهما ؛ فأى فضل وقدر لهما . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فاضلنا بينهم ؛ فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس ؛ قاله مقاتل . وقيل : بالحرية والرق ؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل : بالغـنى والفقر ؛ فبعضهم غنى وبعضهم فقـير . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر . ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قال السدى وابن زيد : خَوَلًا وخدّاما ، يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض . وقال قتادة والضحاك : يعنى ليملك بعضهم بعضا . وقيل : هو من السخرية التى بمعنى الاستهزاء ؛ أى ليستهزئ الغنى بالفقير . قال الأخفش : سَخِرت به وسَخِرت منه ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وبه ؛ كلّ يقال ، والاسم السُّخرية (بالضم) . والسُّخْرِيّ والسِّخْرِيّ (بالضم والكسر) . وكل الناس ضمّوا « سخريا » إلا ابن مُحَيْصِن ومجاهد فإنهما قرأا « سِخريا » . ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي أفضل مما يجمعون من الدنيا . ثم قيل : الرحمة النبوة ، وقيل الجنة . وقيل : تمام الفرائض خير من كثرة النوافل . وقيل : ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم

قوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قال العلماء : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها ، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة وَدَرَجها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب ؛ فيحمل ذلك على الكفر . قال الحسن : المعنى لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ماوصفناه ؛ لهوان الدنيا عند الله عز وجل . وعلى هذا أكثر المفسرين ابن عباس والسدي وغيرهم . وقال ابن زيد : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » في طلب الدنيا واختيارها على الآخرة « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » . وقال الكسائي : المعنى لولا أن يكون في الكفار غنيٌّ وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها .

الثانية ــ قرأ ابن كثير وأبو عمرو « سَقْفًا » بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع ؛ اعتبارا بقوله تعالى « فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » . وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع ؛ مثل رَهْن ورُهُن . قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما . وقيل : هو جمع سقيف ؛ مثل كَثِيب وكُثُب ، ورَغيف ورُغُف ؛ قاله الفراء . وقيل : هو جمع سُقوف ؛ فيصير جَمْعَ الجمع : سَقْف وسُقُوف ، نحو فَلْس وفُلُوس . ثم جعلوا فُعُولا كأنه اسم واحد فجمعوه على فُعُل . وروى عن مجاهد « سَقْفًا » بإسكان القاف . وقيل : اللام في « لبيوتهم » بمعنى على ؛ أي على بيوتهم . وقيل : بدل ؛ كما تقول فعلت هذا لزيد لكرامته ؛ قال الله تعالى « وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » كذلك قال هنا « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ » .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ يعنى الدرج ؛ قاله ابن عباس وهو قول الجمهور . واحدها مِعراج ، والمِعراج السُّلَّم ؛ ومنه ليلة المعراج . والجمع معارج ومعاريج ؛ مثل مفاتح ومفاتيح ؛ لغتان . « ومعاريج » قرأ أبو رجاء العُطَارِدِى وطلحة بن مُصَرِّف ؛ وهى المراقى والسلالم . قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج ؛ مثل مِرقاة ومَرقاة . ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أى على المعارج يرتقون و يصعدون ؛ يقال : ظهرت على البيت أى علوت سطحه . وهذا لأن من علا شيئا وآرتفع عليه ظهر للناظرين . و يقال : ظهرت على الشيء أى علمته . وظهرت على العدوّ أى غلبته . وأنشد نابغة بنى جَعْدة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

عَلَوْنا السماء عِزّةً ومهابةً * وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا[1]

أى مصعدا ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال " إلى أين " ؟ قال إلى الجنة ؛ قال " أجل إن شاء الله " . قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟ !

الرابعــة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لاحقّ فيه لرب العُلْو ؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها . وهذا مذهب مالك رحمه الله . قال ابن العربى : وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف و باب ؛ فمن له البيت فله أركانه . ولا خلاف أن العلو له الى السماء . واختلفوا فى السفل ؛ فمنهم من قال هو له ، ومنهم من قال ليس له فى باطن الأرض شىء . وفى مذهبنا القولان . وقد بيّن حديث الاسرائيلى الصحيح فيما تقدّم : أن رجلا باع من رجل دارا فبناها فوجد فيها جَرّة من ذهب ، فجاء بها إلى البائع فقال : إنما اشتريت الدار دون الجَرّة ، وقال البائع : إنما بعت الدار بما فيها ؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يزوّج أحدهما ولده من بنت

---

(١) رواية البيت كما فى كتاب الأغانى جـ ٥ ص ٨ طبع دار الكتب المصرية : * بلغنا السماء مجدنا وجدودنا *
وروايته كما فى جمهرة أشعار العرب : * بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا *
وروايته كما فى اللسان مادة «ظهر» : * بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا *

الآخر ويكون المال لهما . والصحيح أن العُلْو والسُّفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع ؛ فاذا باع أحدهما أحد الموضعين فله منه ما ينتفع به وباقيه للبتاع منه .

الخامسة — من أحكام العُلْو والسُّفل . إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيعتلّ السفل أو يريد صاحبه هَدْمَه ؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال : إذا أراد صاحب السفل أن يهدم ، أو أراد صاحب العلو أن يبنى علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة ، ويكون هدمه له أرفق لصاحب العلو ؛ لئلّا ينهدم بانهدامه العلو، وليس لرب العلو أن يبنى على علوه شيئا لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذى لا يضر بصاحب السفل . ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها ويخاف ضررها على صاحب السفل. قال أشهب : وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبنى السفل ؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل له بِعْ ممن يبنى . وروى ابن القاسم عن مالك فى السفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل ، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله ؛ لأن عليه إمّا أن يحمله على بنيان أو على تعليق، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثانى على صاحب الأوسط . وقد قيل : إن تعليق العلو الثانى على رب العلو حتى يبنى الأسفل. وحديث النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجوْا جميعا" — أصلٌ فى هذا الباب . وهو حجة لمالك وأشهب . وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضرّ به ، وأنه إن أحدث عليه ضررا لزمه إصلاحه دون صاحب العلو ، وأن لصاحب العلو منعه من الضرر ؛ لقوله عليه السلام : " فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوا جميعا " ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو ممنوع من إحداث

لا يجوز له فى السنة . وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ وقد مضى فى « الأنفال »[1] . وفيه دليل على جواز القرعة وآستعمالها ، وقد مضى فى « آل عمران »[2] فتأمل كُلًّا فى موضعه تجده مبيّناً ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ﴾ أى و لجعلنا لبيوتهم . وقيل : «لبيوتهم» بدل اشتمال من قوله «لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ» . «أَبْوَابًا» أى من فضة . ﴿ وَسُرُرًا ﴾ كذلك؛ وهو جمع السرير . وقيل : جمع الأسِرّة، والأسِرّة جمع السرير؛ فيكون جمع الجمع . ﴿ يَتَّكِئُونَ عَلَيْهَا ﴾ الاتكاء والتوكُّؤ : التحامل على الشيء ، ومنه « أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا » . ورجل تُكَأَة ؛ مثال هُمَزَة ؛ كثير الاتكاء . والتُّكَأة أيضا : ما يُتَّكأ عليه . وآتكأ على الشيء فهو متّكئ؛ والموضع متَّكأ . وطعنه حتى أتكأه (على أَفْعَلَه) أى ألقاه على هيئة المُتَّكِئ . وتوكّأت على العصا . وأصل التاء فى جميع ذلك واو ، ففُعل به ما فُعل بآتّزن وآتّعد . ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ الزخرف هنا الذهب ؛ عن آبن عباس وغيره . نظيره : « أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ »[3] وقد تقدّم . وقال آبن زيد : هو ما يتخذه الناس فى منازلهم من الأمتعة والأثاث . وقال الحسن : النقوش ؛ وأصله الزينة . يقال : زخرفت الدار؛ أى زينتها . وتزخرف فلان؛ أى تزين . وانتصب «زخرفا» على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا . وقيل : بنزع الخافض ؛ والمعنى لجعلنا لهم سُقُفًا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب؛ فلما حذف «من» قال «وزخرفا» فنصب . ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن آبن عامر « و إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » بالتشديد . الباقون بالتخفيف؛ وقد ذُكر هذا . وروى عن أبى رجاء كسر اللام من « لَمّا » ؛ ف « ما » عنده بمنزلة الذى، والعائد عليها محذوف؛ والتقدير : و إن كل ذلك للذى

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ فما بعدها . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٦ فما بعدها . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

هو متاع الحياة الدنيا ، وحذف الضمير هاهنا كحذفه فى قراءة من قرأ « مَثَلاً ما بَعُوضَةٌ فما فوقها »[1] و « تَمَاماً على الذى أَحْسَنُ »[2] . أبو الفتح : ينبغى أن يكون « كُلٌّ » على هذه القراءة منصوبة ؛ لأن « إن » مخففة من الثقيلة ، وهى إذا خففت و بطل عملها لزمتها اللام فى آخر الكلام للفرق بينها و بين « إن » النافية التى بمعنى ما ؛ نحو إن زيد لقائم ، ولا لام هنا سوى الجارة . ﴿ وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يريد الجنة لمن اتقى وخاف . وقال كعب : إنى لأجد فى بعض كتب الله المنزلة : لولا أن يحزن عبدى المؤمن لكللت رأس عبدى الكافر بالإكليل، ولا يتصدع ولا ينبض منه عرق بوجع . وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر". وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" . وفى الباب عن أبى هريرة، وقال: حديث حسن غريب . وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن * إذًا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً * وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال آخر :

تمتع من الأيام إن كنت حازما * فإنك فيها بين ناهٍ وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن زِفٍّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمحسن * ولا رضى الدنيا عقابا لكافر

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٢

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا . فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وقرأ ابن عباس وعكرمة «وَمَنْ يَعْشَ» بفتح الشين، ومعناه يعمى؛ يقال منه عَشِى يَعْشَى عشًا إذا عَمِىَ . ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر؛ ومنه قول الأعشى :

رأتْ رجلًا غائب الوافِدَيْـ * ـنِ مختلفَ الخلق أعْشَى ضريرا [١]

وقوله :

أأن رأت رجلًا أعْشَى أضَرَّ به * رَيْبُ المنونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ

الباقون بالضم؛ من عشا يعشو إذا لحقه ما يلحق الأعشى . وقال الخليل : العشو هو النظر ببصر ضعيف؛ وأنشد :

متى تأته تَعْشُو إلى ضَوْءِ ناره * تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ [٢]

وقال آخر :

لنعم الفتى يعشو إلى ضوء ناره * إذا الريح هبّت والمكان جديب

الجَوْهَرِىّ : والعَشَا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذى لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار . والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان . وأعشاه الله فعَشِى (بالكسر) يَعْشَى عَشًى، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا يَعْشوان؛ لأن الواو لما صارت فى الواحد ياء لكسرة ما قبلها تُركت فى التثنية على حالها . وتعاشى إذا أرى من نفسه أنه أعشى . والنسبة إلى أعْشَى أعْشَوِىّ . وإلى العَشِيَّة عَشَوِىّ . والعشواء : الناقة التى لا تبصر أمامها فهى تَخْبِط بيديها كلّ شىء . وركب فلان العشواء إذا خَبَط أمره على غير بصيرة . وفلان خابِطٌ خبطَ عشواء .

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا » [٣] أى نواصل لكم الذكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أى نسبب له شيطانا جزاء له على كفره ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ قيل فى الدنيا ، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قول ابن عباس .

---

(١) فى اللسان مادة «وفد» : « والوافدان اللذان فى شعر الأعشى هما الناشزان من الخدّين عند المضغ ؛ فاذا هرم الانسان غاب وافداه » . (٢) البيت للحطيئة . (٣) آية ٥

وقيل فى الآخرة إذا قام من قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْرى . وفى الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يُشْفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأن المؤمن يُشْفع بمَلَك حتى يقضى الله بين خلقه ؛ ذكره المهدوى . وقال القشيرى : والصحيح فهو له قرين فى الدنيا والآخرة . وقال أبو الهيثم والأزهرى : عَشَوْت إلى كذا أى قصدته . وعشوت عن كذا أى أعرضت عنه، فتفرق بين «إلى» و «عن»؛ مثل : مِلْتُ إليه، ومِلْتُ عنه . وكذا قال قتادة : يَعْشُ؛ يُعْرِض؛ وهو قول الفراء . النحاس : وهو غير معروف فى اللغة . وقال القُرَظى: يولّى ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه. وأنكر العُتْبى عشوت بمعنى أعرضت ؛ قال : وإنما الصواب تعاشيت . والقول قول أبى الهيثم والأزهرى . وكذلك قال جميع أهل المعرفة . وقرأ السُّلَمِى وابن أبى اسحاق و يعقوب وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش «يقيّض» (بالياء) لذكر «الرحمن» أوّلا؛ أى يقيّض له الرحمن شيطانا . الباقون بالنون. وعن ابن عباس « يُقَيَّضْ لَهُ شَيْطَانٌ فهو له قَرِينٌ » أى ملازم ومصاحب . قيل: «فهو» كناية عن الشيطان؛ على ما تقدّم. وقيل: عن الإعراض عن القرآن[1]؛ أى هو قرين للشيطان . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى وإن الشيطان ليصدونهم عن سبيل الهدى؛ وذُكر بلفظ الجمع لأن « مَن » فى قوله « ومَن يعش » فى معنى الجمع . ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أى و يحسب الكفار ﴿ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص؛ يعنى الكافر يوم القيامة . الباقون « جاءانا » على التثنية ، يعنى الكافر وقرينه وقد جُعلا فى سلسلة واحدة، فيقول الكافر ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أى مشرق الشتاء ومشرق الصيف، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ »[2] ونحوه قول مقاتل . وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لهما جميعا ؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده ؛ كما قال :

وعينٌ لها حَدْرةٌ بَدْرةٌ * شُقّت مآقيهما من أُخُرْ[3]

---

(١) فى الأصول: «عن التعرض» . (٢) آية ١٧ سورة الرحمن . (٣) البيت لامرئ القيس . وحدرة : مكتنزة صلبة، وقيل الواسعة الجاحظة . و بدرة : تبدر بالنظر، وقيل تامة كالبدر .

قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بُعْدَ مشرق أطول يوم فى السنة إلى مشرق أقصر يوم فى السنة ، ولذلك قال « بُعْدَ المشرقين » . وقال الفراء : أراد المشرق والمغرب فغلّب اسم أحدهما، كما يقال : القمران للشمس والقمر، والعُمَران لأبى بكر وعمر، والبصرتان للكوفة والبصرة، والعصران للغداة والعصر . وقال الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم ٭ لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجَرير :

ما كان يرضى رسول الله فعلهم ٭ والعُمَران أبو بكر ولا عمر

وأنشد سيبويه :

٭ قَدْنِيَ من نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِى ٭

يريد عبد الله ومصعبا ابنى الزبير ، وإنما أبو خبيب عبد الله . ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ أى فبئس الصاحب أنت؛ لأنه يورده إلى النار . قال أبو سعيد الخُدْرِىّ: إذا بُعث الكافر زوّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار .

قوله تعالى : وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ « إذ » بدل من اليوم ؛ أى يقول الله للكافر لن ينفعكم اليوم إذ أشركتم فى الدنيا هذا الكلام ؛ وهو قول الكافر « يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ» أى لا تنفع الندامة اليوم . «إنكم» بالكسر ﴿ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ وهى قراءة ابن عامر باختلاف عنه . الباقون بالفتح . وهى فى موضع رفع تقديره : ولن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب ؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه . أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسى كما يتأسى أهل المصائب فى الدنيا، وذلك أن التأسى يستروحه أهل الدنيا فيقول أحدهم : لى فى البلاء والمصيبة أسوة ؛ فيسكن ذلك من حزنه ؛ كما قالت الخنساء :

فلولا كثرة الباكين حولى ٭ على إخوانهم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن ٭ أعزّى النفس عنه بالتأسّى

فإذا كان فى الآخرة لم ينفعهم التأسى شيئا لشغلهم بالعذاب . وقال مقاتل : لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ؛ لأن قرناءكم وأنتم فى العذابِ مشتركون كما اشتركتم فى الكفر .

قوله تعالى : أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ﴾ يا محمد ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا؛ ففيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وفيه ردّ على القدرية وغيرهم ، وأن الهدى والرشد والخذلان فى القلب خَلْقُ الله تعالى ، يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء .

قوله تعالى : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش . ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ وهو الانتقام منهم فى حياتك . ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ؛ وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام ؛ يريد ما كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم من الفتن . و « نَذْهَبَنَّ بك » على هذا نتوفينّك . وقد كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم نقمة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يُرِه فى أمته إلا التى تقرّ به عينه وأبقى النقمة بعده، وليس من نبيّ إلا وقد أُرِى النّقمة فى أمته . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُرِى ما لقيت أمته من بعده، فما زال منقبضا، ما انبسط ضاحكا حتى لقى الله عز وجل . وعن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أراد الله بأمة خيرا قبض نبيّها قبلها فجعله لها فَرَطًا وسَلَفا . وإذا أراد الله بأمة عذابا عذّبها ونبيُّها حيٌّ لتقرّ عينه لما كذّبوه وعصَوْا أمره" .

قوله تعالى : فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب ؛ فـ ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يوصّلك إلى الله ورضاه وثوابه . ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعنى القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم ؛ نظيره : «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ»[1] أى شرفكم . فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب ؛ فاحتاج أهل اللغات كلّها إلى لسانهم كلّ من آمن بذلك فصاروا عيالا عليهم ؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذى عنى به من الأمر والنهى وجميع ما فيه من الأنباء ، فشَرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سُمّى عربيًّا . وقيل : بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة . وقيل : تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به . وقيل : « وإنه لذكر لك ولقومك » يعنى الخلافة فإنها فى قريش لا تكون فى غيرهم ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "الناس تَبَعٌ لقريش فى هذا الشأن مُسْلِمُهم تَبَعٌ لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم" . وقال مالك : هو قول الرجل حدّثنى أبى عن أبيه ، حكاه ابن أبى سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر الماوردىّ والثعلبىّ وغيرهما . قال ابن العربى : ولم أجد فى الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببَغْداد فإن بنى التميمى بها يقولون : حدّثنى أبى قال حدّثنى أبى، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبذلك شَرُفت أقدارهم ، وعظّم الناس شأنهم ، وتهمّمت الخلافة بهم . ورأيت بمدينة السلام ابنى أبى محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبى الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد ابن أُكَيْنة بن عبد الله التميمى وكانا يقولان : سمعنا أبانا رزق الله يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت علىّ بن أبى طالب

(١) آية ١٠ سورة الأنبياء .

يقول وقد سئل عن الحنّان المنّان فقال : الحنان الذي يُقبل على من أعرض عنه ، والمنان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال . والقائل سمعت عليًّا : أ كَيْنة بن عبد الله جدّهم الأعلى . والأقوى أن يكون المراد بقوله « وإنه لذِكْرٌ لك ولقومك » يعني القرآن ؛ فعليه انبنى الكلام وإليه يرجع المصير، والله أعلم . قال الماوَرْدي : « ولقومك » فيهم قولان : أحدهما — من اتبعك من أمتك؛ قاله قتادة وذكره الثعلبي عن الحسن . الثاني — لقومك من قريش ؛ فيقال ممن هذا ؟ فيقال من العرب ، فيقال من أيّ العرب؟ فيقال من قريش؛ قاله مجاهد .

قلت — والصحيح أنه شرف لمن عمِل به ، كان من قريش أو من غيرهم . روى ابن عباس قال: أقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم من سَرِيّة أو غَزَاة فدعا فاطمة فقال: "يافاطمة اشتري نفسك من الله فإني لا أُغْنِي عنك من الله شيئا" وقال مثل ذلك لنسْوته ، وقال مثل ذلك لعِتْرته ، . ثم قال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: "ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ولا قريش بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ولا الأنصار بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ولا الموالي بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون . إنما أنتم من رجل وآمرأة وأنتم كجِمَام(1) الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى". وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرًّا عند الله من الجعلان التي تدفع النَّتْن بأنفها كلّكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء [الناس] مؤمن تقيٌّ وفاجر شقيّ " . خرجهما الطبري . وسيأتي لهذا مزيد بيان في الحُجُرات إن شاء الله تعالى .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أي عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفراء . وقال ابن جُرَيج : أي تسألون أنت ومن معك على ما أتاك . وقيل تسألون عما عملتم فيه ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

(1) الجمام (بالتثليث) : ما علا رأس المكيال من الطفاف .

قال ابن عبـاس وابن زيد : لمـا أسرى برسول الله صـلى الله عليه وسـلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — وهو مسجد بيت المقدس — بعث الله له آدم ومَن وُلد من المرسلين، وجبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأذّن جبريل صلى الله عليه وسلم ثم أقام الصلاة، ثم قال : يا محمد تقدّم فصل بهم ؛ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل صلى الله عليه وسـلم : " سـل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا أسأل قد اكتفيت " . قال ابن عباس : وكانوا سبعين نبيًّـا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم . فى غير رواية ابن عباس : فصلّوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ؛ وكان يلى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمّهم ركعتين ؛ فلما انفتل[1] قام فقال : "إن ربّى أوحى إلىّ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله " ؟ فقالوا : يا محمد، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبُدون من دونه باطل و إنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا، وأن لا نبىّ بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى بن مريم فإنه مأمور أن يتّبع أثرك" . وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى « وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا» قال : لقِىَ الرّسلَ ليلة أسرى به . وقال الوليد بن مسلم فى قوله تعالى «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» قال: سألت عن ذلك خليد بن دَعْلَج فحدّثنى عن قتادة قال سألهم ليلة أسرى به، لقى الأنبياء ولقى آدم ومالك خازن النار .

قلت : هذا هو الصحيح فى تفسير هذه الآية . و « مِن » التى قبل « رسلنا » على هذا القول غير زائدة . وقال المبرد وجمـاعة من العلماء : إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا. وروى أن فى قراءة ابن مسعود « واسأل الذى أرسلنا إليهم قبلك رسلنا» .

---

(١) انفتل عن الصلاة : اذا انصرف عنها .

وهذه قراءة مفسّرة ؛ فـ«ـمن » على هذا زائدة، وهو قول مجاهد والسّدّى والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وآبن عباس أيضا. أى واسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وقيل: المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك ؛ فحذفت « عن » ، والوقف على « رسلنا » على هـذا تام ؛ ثم ابتـدأ بالاستفهام على طريق الإنكار . وقيل : المعنى واسأل تُبّـاع مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا ، فحذف المضاف . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أخبر عن الآلهـة كما أخبر عمن يعقل فقال « يعبدون » ولم يقـل تعبد ولا يعبدن ؛ لأن الآلهـة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل .

وسبب هذا الأمر بالسؤال أنّ اليهود والمشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهـة التوقيف والتقرير ؛ لا لأنه كان فى شك منه . وآختلف أهل التأويل فى سؤال النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم على قولين : أحدهما ـــ أنه سألهم فقالت الرسل بُعثنا بالتوحيد ؛ قاله الواقدى . الثـانى ـــ أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل؛ حتى حكى آبن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : "هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشدّ إيمانا وأعظم يقينا من أن يسأل عن ذلك" . وقد تقدّم هذا المعنى فى الروايتين حسبما ذكرناه .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّـا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَـا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِـم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَـا عَهِـدَ عِندَكَ إِنَّنَـا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّـا كَشَفْنَا عَنْهُـمُ ٱلْعَـذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ لمـا أعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه منتقم له من عدوّه، وأقام الحجـة بأستشهاد الأنبيـاء وآتفاق الكل على التوحيد أكّد ذلك بقصـة موسى وفرعون ، وما كانــ من فرعون من التكذيب ، وما نزل به و بقومه من الإغراق والتكذيب ؛ أى أرسلنا موسى بالمعجزات وهى التسع الآيات فكُذِّب ؛ فجعلت العاقبة الجميلة له ، فكذلك أنت . ومعنى ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء وسخرية ؛ يوهمون أتباعهم أنــ تلك الآيات سحـر وتخييل ، وأنهم قادرون عليها . وقوله : ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أى كانت آيات موسى من كبار الآيات ، وكانت كل واحدة أعظمَ مما قبلها . وقيل: « إلا هى أكبر من أختهـا » لأن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما ، فتُضَمّ الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح . ومعنى الأُخُوّة المشاكلة والمناسبة ؛ كما يقال : هذه صاحبة هذه ؛ أى هما قريبتان فى المعنى . ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أى على تكذيبهم بتلك الآيات؛ وهوكقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ »(1) . والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع . وكانت هذه الآيات الأخيرة عذابا لهم وآياتٍ لموسى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من كفرهم . ﴿ وَقَالُوا يَأَيُّهَـا السَّاحِرُ ﴾ لمـا عاينوا العذاب قالوا ياأيها الساحر ؛ نادَوه بمـا كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم . وقيل: كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم . قال ابن عباس : « ياأيها الساحر » ياأيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيما يوقّرونه ؛ ولم يكن السحر صفةَ ذم . وقيل : ياأيها الذى غَلَبنَا بسحره ، يقال : ساحرته فسحرته ؛ أى غلبتـه بالسحر ؛ كقول العـرب : خاصمته فخصمته أى غلبتـه بالخصومة ، وفاضلته ففضلته؛ ونحوها . ويحتمل أنــ يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معنى الاستفهام ، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا . وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بن وَثّاب « أيُّهُ الساحر » بغير ألف والهاء مضمومة ؛ وعلّتها أن الهاء خُلطت بما قبلها وألزمت ضم الياء الذى أوجبه النداء المفرد . وأنشد الفرّاء :

يأيُّهُ القلبُ اللّجُـوجُ النفس * أفِق عن البيض الحسانِ اللُّعْسِ

(1) آية ١٣٠ سورة الأعراف .

فضم الهاء حملا على ضم الياء؛ وقد مضى فى «النور»[1] معنى هذا . ووقف أبو عمرو وآبن أبى إسحاق و يحيى والكسائى « أيها » بالألف على الأصل . الباقون بغير ألف ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف . ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أى بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا؛ فسله يكشف عنا . ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى فيما يستقبل . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ أى فدعا فكشفنا . ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ أى ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا . وقيل : قولهم « إننا لمهتدون » إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدّوا .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال ؛ فنادى بمعنى قال ؛ قاله أبو مالك . فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه فى جموع القبط؛ وكأنه نودى به بينهم . وقيل: إنه أمر من ينادى فى قومه؛ قاله آبن جريج . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ أى لا ينازعنى فيه أحد . قيل : إنه ملك منها أربعين فرسخا فى مثلها؛ حكاه النقاش . وقيل : أراد بالملك هنا الإسكندرية . ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ يعنى أنهار النيل، ومعظمها أربعة : نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تِنّيس[2] . قال قتادة : كانت جنانا وأنهارا تجرى من تحت قصوره . وقيل: من تحت سريره . وقيل: «من تحتى» أى تصرّفى نافذ فيها من غير صانع . وقيل: كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجَرْى . قال القُشَيْرى: ويجوز ظهور خوارق العادة على مدّعى الرُّبوبية؛ إذ لا حاجة فى تمييز الإله من غير الإله إلى فعلٍ خارق للعادة . وقيل : معنى « وهذه الأنهار تجرى من تحتى » أى القوّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى؛ قاله الضحاك . وقيل : أراد بالأنهار الأموال، وعبّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . وقوله « تجرى من تحتى » أى أفرّقها على من يتبعنى ؛ لأن الترغيب والقدرة فى الأموال دون

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٣٨

(٢) فى كتاب روح المعانى للألوسى : « والأنهار : الخلجان التى تخرج من النيل المبارك ؛ كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ، ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك ، لكنه اندرس بجدده أحمد بن طولون ملك مصر فى الاسلام»

الأنهار . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتي وقوّتي وضَعْف موسى . وقيـل قدرتي على نفقتكم وعجز موسى . والواو في « وهذه » يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على « مُلك مِصر » و «تجرى» نصب على الحال منها . ويجوز أن تكون واو الحال ، وٱسم الإشارة مبتدأ ، و « الأنهـار » صفة لاسم الإشارة ، و « تجرى » خبر للمبتدأ . وفتحَ الياء من « تحتىَ » أهل المدينة والبَزّى وأبو عمرو، وأسكن الباقون . وعن الرشـيد أنه لمـا قرأها قال : لأُولّينّها أخس عبيدى، فولّاها الخصيبَ، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهذه القرية التي ٱفتخر بها فرعون حتى قال «أليس لى ملك مصر»؟! والله لهى عنـدى أقلّ من أن أدخلها! فثنى عِنانه . ثم صرّح بحاله فقال ﴿ أم أنا خَيْرٌ ﴾ قال أبو عبيدة والسُّدّى : «أم» بمعنى «بل» وليست بحرف عطف؛ على قول أكثر المفسرين . والمعنى : قال فرعون لقومه بل أنا خير ﴿ مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ أى لا عِزّ له فهو يمتهن نفسه فى حاجاته لحقارته وضعفه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعنى ما كان فى لسانه من العقـدة ؛ على ما تقدّم فى « طـه »[1] . وقال الفراء : فى « أم » وجهان : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذى جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت جعلتها نَسَقاً على قوله «أليس لى ملك مصر» . وقيل : هى زائدة . وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون « أم » زائدة؛ والمعنى أنا خير من هـذا الذى هو مهين . وقال الأخفش : فى الكلام حذف ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جُلاجِلٍ * وبين النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ[2]

أى أنت أحسن أمْ أمّ سالم . ثم ٱبتـدأ فقال أنا خير . وقال الخليـل وسيبويه : المعنى أفلا تبصرون، أم أنتم بصراء، فعطف بـ « أم » على «أفلا تبصرون» لأن معنى «أم أنا خير» أى أم تبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء . وروى عن عيسى

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ .

(٢) القائل هو ذو الرمة . والوعساء : رملة لينة . وجلاجل : موضع بعينه . والنقاء : الكثيب من الرمل .

الثَّقفىّ ويعقوب الحَضْرَمىّ أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف تبصرون الثانى . وقيل : مَن وقف على « أم » جعلها زائدة، وكأنه وقف على « تبصرون » من قوله « أفلا تبصرون » . ولا يتم الكلام على « تبصرون » عند الخليل وسيبويه؛ لأن « أم » تقتضى الاتصال بما قبلها . وقال قوم : الوقف على قوله « أفلا تبصرون » ثم ٱبتدأ « أم أنا خير » بمعنى بل أنا خير؛ وأنشد الفَرّاء :

بدت مثل قَرْن الشمس فى رَوْنَق الضحى * وصورتِها أم أنتِ فى العين أملَحُ

فمعناه : بل أنتِ أملح . وذكر الفَرّاء أن بعض القراء قرأ « أمَا أنا خير » ؛ ومعنى هذا ألست خيرا . وروى عن مجاهد أنه وقف على « أم » ثم يبتدئ « أنا خير » وقد ذُكر .

قوله تعالى : فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أى هلّا ﴿ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزىّ أهل الشرف . وقرأ حفص « أَسْوِرة » جمع سِوار، كخمار وأخمرة . وقرأ أُبَىّ « أساور » جمع إسوار . وابن مسعود « أساوير » . الباقون « أساورة » جمع الأسورة؛ فهو جمع الجمع . ويجوز أن يكون « أساورة » جمع « إسوار » وألحقت الهاء فى الجمع عوضا من الياء؛ فهو مثل زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشبهه . وقال أبو عمرو ابن العَلاء : واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار ، وهى لغة فى سُوار . قال مجاهد : كانوا إذا سوّروا رجلا سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق ذهب علامةً لسيادته، فقال فرعون: هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقا ! ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعنى متتابعين؛ فى قول قتادة . مجاهد : يمشون معًا . ابن عباس : يعاونونه على من خالفه؛ والمعنى : هلّا ضم إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ؛ فيكون ذلك أَهْيَبَ فى القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغى أن يكونوا

كرسل الملوك فى الشاهد ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية ؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه ، و إمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا — فى قول مقاتل — أو دليلا على صدقه — فى قول الكلبي — وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف، وقد كان فى الجائز أن يُكَذَّب مع مجئ الملائكة كما كُذِّب مع ظهور الآيات . وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله تعالى : فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ قال ابن الأعرابى : المعنى فآستجهل قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولهم ؛ يقال : استخفه الفرح أى أزعجه ، وآستخفه أى حمله على الجهل ؛ ومنه « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ »[1] . وقيل : استفزهم بالقول فأطاعوه على التكذيب . وقيل : استخف قومه أى وجدهم خفاف العقول . وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه، فلابد من إضمار بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . وقيل : استخف قومه وقهرهم حتى آتبعوه ؛ يقال استخفه خلاف استثقله ، وآستخف به أهانه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله .

قوله تعالى : فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس : أى غاظونا وأغضبونا . وروى عنه علي بن أبى طلحة : أى أسخطونا . قال الماوردي : ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهة ، والغضب إرادة الانتقام . القشيري : والأسف هاهنا بمعنى الغضب ؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات، و إما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قول الماوردي .

(١) آية ٦٠ سورة الروم .

وقال عمر بن ذر : يأهل معاصى الله، لا تغترّوا بطول حلم الله عنكم ، واحذروا أسفه ؛ فإنه قال « فلمّا آسفونا انتقمنا منهم » . وقيل : «آسفونا» أى أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين ؛ نحو السحرة وبنى اسرائيل . وهو كقوله تعالى : « يُؤْذُونَ الله »[1] و « يحاربون الله »[2] أى أولياءه ورسله .

قوله تعالى : فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿فجعلناهم سَلَفًا﴾ أى جعلنا قوم فرعون سَلَفًا . قال أبو مجلز : «سَلَفًا» لمن عمل عملهم، «ومَثَلًا» لمن يعمل عملهم. وقال مجاهد : «سلفا» إخبارًا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، «ومثلا» أى عبرة لهم . وعنه أيضا «سلفا» لكفار قومك يتقدمونهم إلى النار . قتادة : « سلفا » إلى النار، « ومثلا » عظةً لمن يأتى بعدهم . والسلف المتقدم ؛ يقال : سَلَف يَسْلُف سَلَفًا ؛ مثل طلب طلبا؛ أى تقدّم ومضى . وسلف له عمل صالح أى تقدّم . والقوم السُّلّاف المتقدّمون . وسَلَفُ الرجل : آباؤه المتقدّمون ؛ والجمع أسلاف وسُلّاف . وقراءة العامة « سَلَفًا » (بفتح السين واللام) جمع سالف ؛ كخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس. وقرأ حمزة والكسائى «سُلُفا» (بضم السين واللام) . قال الفراء : هو جمع سليف، نحو سرير وسُرُر . وقال أبو حاتم : هو جمع سَلَف ؛ نحو خَشَب وخُشُب ، وثَمَر وثُمُر؛ ومعناهما واحد. وقرأ عليّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنَّخَعى وحُميد بن قيس «سُلَفًا» (بضم السين وفتح اللام) جمع سُلْفة ، أى فرقة متقدّمة . قال المؤرِّج والنَّضْر بن شُمَيل : « سُلَفًا » جمع سُلْفة، نحو غُرْفة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم .

قوله تعالى : وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

لمّا قال تعالى : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ » تعلّق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلٰها كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم إلٰها؛ قاله قتادة . ونحوه عن مجاهد قال : إن قريشا قالت إن محمدا

(١) آية ٥٧ سورة الأحزاب . (٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن عباس : أراد به مناظرة عبد الله بن الزِّبَعْرَى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حالة كفره لما قالت له قريش إن محمدا يتلو « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[1] الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ؛ قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عُزَيْرًا ، أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ؛ وذلك معنى قوله « يَصِدُّونَ » . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »[2] . ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ؛ لأنه قال « وما تعبدون » ولم يقل ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين . وقد مضى هذا فى آخر سورة « الأنبياء »[3] . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : "يا معشر قريش لا خير فى أحد يُعبد من دون الله" . قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبياً وعبدا صالحا ، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله ! . فأنزل الله تعالى « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » أى يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . قرأ نافع وابن عامر والكسائى « يَصُدُّون » (بضم الصاد) ومعناه يُعرِضون ؛ قاله النَّخَعِيّ ، وكسر الباقون . قال الكسائى : هما لغتان ؛ مثل يَعْرِشون ويَعْرُشون ، ويَنِمُّون ويَنُمُّون ، ومعناه يَضِجُّون . قال الجوهرى : وصَدَّ يَصُدّ صديدا ؛ أى ضَجّ . وقيل : إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض ، وبالكسر من الضجيج ؛ قاله قُطْرُب . قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لكانت : إذا قومك عنه يصدون . الفَرّاء : هما سواء ؛ منه وعنه . ابن المُسيِّب : يصدون يضجون . الضحاك يعجون . ابن عباس : يضحكون . أبو عبيدة : مَن ضَمّ فمعناه يعدلون ؛ فيكون المعنى : من أجل المَيْل يعدلون . ولا يُعَدّى « يصدون » بمن ، ومن كسر فمعناه يضجون ؛ فـ « من » متصلة بـ « يصدون » والمعنى يضجون منه .

---

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣ فما بعدها .

قوله تعالى : وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أى آلهتنا خير أم عيسى ؟ قاله السُّدّى . وقال : خاصموه وقالوا إن كل من عبد من دون الله فى النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى« إنّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» الآية . وقال قتادة : « أم هو » يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة ابن مسعود « آلهتنا خير أم هذا » . وهو يقوّى قول قتادة ، فهو استفهام تقرير فى أن آلهتهم خير . وقرأ الكوفيون و يعقوب « أآلهتنا » بتحقيق الهمزتين، ولّين الباقون . وقد تقدم . ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ «جدلا» حال؛ أى جدلين . يعنى ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مجادلون بالباطل . وفى صحيح الترمذىّ عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل — ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية — «ما ضربوه لك إلا جَدَلًا بل هم قوم خصمون» " .

قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أى ما عيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوّة، وجعله مَثَلًا لبنى إسرائيل؛ أى آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى؛ فإن عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى و إبراء الأكْمَه والأبرص والأسقام كلها مالم يُجعل لغيره فى زمانه ، مع أن بنى إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأحبّه إلى الله عز وجل ، والناس دونهم، ليس أحد عند الله عز وجل مثلَهم . وقيل : المراد بالعبد المنعم عليه محمد صلى الله عليه

وسلم؛ والأول أظهر . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ أى بدلًا منكم ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ يكونون خلفاً عنكم؛ قاله السُّدّى . ونحوه عن مجاهد قال : ملائكة يعمرون الأرض بدلا منكم . وقال الأزهرى : إن « مِن » قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية .

قلت : قد تقدم هذا المعنى فى « براءة »(١) وغيرها . وقيل : لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة وإن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف؛ والمعنى : لو نشاء لأسكنّا الأرض الملائكة؛ وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا؛ أو يقال لهم بنات الله . ومعنى ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ يخلف بعضهم بعضا؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جُبير : يريد القرآن؛ لأنه يدل على قرب مجيء الساعة، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها . وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضا : إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وإنه لَعَلَمٌ للساعة » (بفتح العين واللام) أى أمارة . وقد روى عن عِكرمة « وإنه للعلم » (بلامين) وذلك خلاف للصاحف . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم؛ ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم؛ فرد الحديث إلى عيسى بن مريم قال : قد عُهِد إلىّ فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل؛ فذكر خروج الدجال — قال : فأنزل فأقتله . وذكر الحديث؛ خرّجه ابن ماجه فى سننه . وفى صحيح مسلم " فبينما هو — يعنى المسيح الدجال — إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤١

دِمَشْق بين مَهْرُودتين[1] واضعًا كفّيه على أجنحة ملَكين إذا طأطأ رأسَه قطَر و إذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ فلا يحلّ لكافر يجد ريحَ نَفَسه إلا مات ونَفَسُه [ينتهى] حيث ينتهى طرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ[2] فيقتله ...» الحديث ... وذكر الثعلبيّ والزمخشريّ وغيرهما من حديث أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : «ينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء على ثَنِيّة من الأرض المقدسة يقال لها أَفِيق[3] بين مُمَصَّرتين[4] وشعر رأسه دَهين وبيده حربة يقتل بها الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر والإمام يؤمّ بهم فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلّى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير و يكسر الصليب ويخرب البِيَع والكنائس ويقتل النصارى إلّا من آمن به» . وروى خالد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الأنبياء إخوة لِعَلّات أمهاتُهم شتّى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم إنه ليس بينى و بينه نبيّ و إنه أوّل نازل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام» . قال الماوَرْدىّ : وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رُفع التكليف لئلا يكون رسولا إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى و ينهاهم . وهذا قول مردود لثلاثة أمور ؛ منها الحديث ، ولأن بقاء الدنيا يقتضى التكليف فيها ، ولأنه ينزل آمرًا بمعروف وناهيًا عن منكر . وليس يُستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصورا على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه .

قلت : ثبت فى صحيح مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لَيَنْزِلَنّ عيسى بن مريم حَكَمًا عادلا فَلَيَكْسِرَنّ الصليبَ وليَقْتُلَنّ الخنزير ولَيَضَعَنّ الجزْيَة ولَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنّ الشحناء والتباغُضُ والتحاسد ولَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يقبله أحد» . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامُكم منكم» وفى رواية «فأمّكم منكم» قال ابن أبى ذئب : تدرى «ما أمّكم

(١) أى شقتين أو حلتين . (٢) لد (بالضم والتشديد) : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .
(٣) فى روح المعانى : «أفيق بفاء وقاف بوزن أمير ، وهى هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ...» .
(٤) الممصرة من الثياب : التى فيها صفرة خفيفة .

منكم" ؟ قلت : تخبرنى ؛ قال : فأمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم" .
قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فهذا نص على أنه ينزل مجددا لدين النبي صلى الله عليه وسلم للذى درس منه ، لا بشرع مبتدأ والتكليف باق ؛ على ما بيناه هنا وفى كتاب التذكرة . وقيل : « وإنه لَعِلْمٌ للساعة » أى وإن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى ؛ قاله ابن إسحاق .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وإنه » وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لعلم للساعة ؛ بدليل قوله عليه السلام : "بُعثت أنا والساعةُ كهاتين" وضم السبابة والوسطى ؛ خرّجه البخارى ومسلم . وقال الحسن : أول أشراطها محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فلاَ تَمْتَرُنَّ بها ﴾ فلا تشكون فيها ؛ يعنى فى الساعة ، قاله يحيى بن سلام . وقال السدّى : فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها فانها كائنة لا محالة . ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ أى فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله . ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى طريق قويم إلى الله ، أى إلى جنته . وأثبت الياء يعقوب فى قوله « واتبعون » فى الحالين ، وكذلك « وأطيعون » . وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع فى الوصل دون الوقف ، وحذف الباقون فى الحالين . ﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى لا تغتروا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين ؛ فان شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة أو نار . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [1] تقدم فى « البقرة » وغيرها

قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخَلْقَ الطير والمائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية

هنا الإنجيل. ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ أى النبوة؛ قاله السُّدّى. ابن عباس : علم ما يؤدى إلى الجميل ويكف عن القبيح . وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيرى والماوردى . ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال مجاهد : من تبديل التوراة . الزجاج : المعنى لأبين لكم فى الإنجيل بعض الذى تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد : و بيّن لهم فى غير الإنجيل ما احتاجوا إليه . وقيل : بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا فى أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها. وقيل : إن بنى إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم. ومذهب أبى عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى : « يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ »[1] : وأنشد الأخفش قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها * أو تعتلق بعض النفوس حِمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض. و يقال للنية : عَلُوق وعَلّاقة . قال المفضّل البكرى :

وسائلة بثَعْلَبةَ بن سَيْر[2] * وقد علقت بثعلبةَ العَلُوقُ

وقال مقاتل : هو كقوله « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »[3] . يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة ؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ و إذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلها أو ابن إله . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادة الله صراط مستقيم ، وما سواه معوج لا يؤدى سالكه إلى الحق .

قوله تعالى : فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)

(١) آية ٢٨ سورة غافر . (٢) يريد ثعلبة بن سيار . (٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ قال قتادة : يعني ما بينهم ، وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضا ؛ قاله مجاهد والسدى . الثاني — فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا في عيسى ؛ فقالت النسطورية : هو آبن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ؛ قاله الكلبي ومقاتل ، وقد مضى هذا في سورة « مريم »[1] . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا وأشركوا ؛ كما في سورة « مريم »[1] . ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي أليم عذابه ؛ ومثله : ليل نائم ؛ أي ينام فيه . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ يريد الأحزاب لا ينتظرون . ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ يريد القيامة . ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفطنون . وقد مضى في غير موضع[2] . وقيل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة . ويكون « الأحزاب » على هذا ، الذين تحزّبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وكذّبوه من المشركين . ويتصل هذا بقوله تعالى : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا »[3] .

قوله تعالى : ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧)

قوله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي أعداء ، يعادي بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا . ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في أُمَيَّة بن خَلَف الجُمَحيّ وعُقْبة بن أبي مُعَيط ، كانا خليلين ؛ وكان عقبة يجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبي معيط ؛ فقال له أمية : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تَتْفُل في وجهه ؛ ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبيّ صلى الله عليه وسلم قتله فقتله يوم بَدْرٍ صبرا[4] ، وقُتل أميّة في المعركة ؛ وفيهم نزلت هذه الآية . وذكر الثعلبيّ رضي الله عنه في هذه الآية قال : كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين فقال : يا رب ،

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ٥٨ من هذه السورة (٤) الصبر : نصب الإنسان للقتل .

إن فلانا كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، وكان يأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، ويخبرنى أنى ملاقيك، يا رب فلا تُضِلّه بعدى، واهده كما هديتنى، وأكرمه كما أكرمتنى ؛ فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما ، فيقول الله تعالى : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول يا رب، إنه كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، ويخبرنى أنى ملاقيك ؛ فيقول الله تعالى : نِعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان . قال : ويموت أحد الكافرَيْن فيقول : يا رب ، إن فلانا كان ينهانى عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك يا رب ألّا تَهْدِه بعدى ، وأن تضله كما أضللتنى ، وأن تهينه كما أهنتنى؛ فإذا مات خليله الكافر قال الله تعالى لهما : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول : يا رب ، إنه كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ويخبرنى أنى غير ملاقيك، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب؛ فيقول الله تعالى : بئس الصاحب والأخ والخليل كنت . فيلعن كلّ واحد منهما صاحبه .

قلت : والآية عامة فى كل مؤمن ومتقٍ وكافر ومُضل .

قوله تعالى : يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى منادٍ فى العَرَصات "يا عِبادِى لا خوف عليكم اليوم" ، فيرفع أهل العَرْصة رءوسهم؛ فيقول المنادى : « الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » فينكّس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين . وذكر المحاسبى فى الرعاية : وقد روى فى هذا الحديث أن المنادى ينادى يوم القيامة : «يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» فيرفع الخلائق رءوسهم، يقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » فينكّس الكفار رءوسهم ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم . ثم ينادى الثالثة : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكس أهل الكبائر رءوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليّه ولا يُسلمه عند الهلكة . وقرئ « يا عباد » .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ ﴾

قال الزجاج : « الذين» نصب على النعت لـ « عبادى » لأن «عبادى» منادى مضاف . وقيل : « الذين آمنوا » [خبر لمبتدإ محذوف أو][1] ابتداء وخبره محذوف ؛ تقديره هم الذين آمنوا، أو الذين آمنوا يقال لهم « آدخلوا الجنة » . وقرأ أبو بكر وزِرّ بن حُبيش « يا عِبادِىَ » بفتح الياء وإثباتها فى الحالين ؛ ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس ساكنة فى الحالين . وحذفها الباقون فى الحالين ؛ لأنها وقعت مثبتة فى مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا الجنة ، أو يا عبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة . ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المسلمات فى الدنيا . وقيل : قرناؤكم من المؤمنين . وقيل : زوجاتكم من الحُور العين . ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تكرمون ؛ قاله آبن عباس ؛ والكرامة فى المنزلة . الحسن : تفرحون ، والفرح فى القلب . قتادة : تنعمون ؛ والنعيم فى البدن . مجاهد : تسّرون ؛ والسرور فى العين . آبن أبى نجيح : تعجبون ؛ والعجب هاهنا درك ما يستطرف . يحيى بن أبى كثير : هو التلذذ بالسماع . وقد مضى هذا فى « الروم »[2] .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى لهم فى الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم فى صِحاف من ذهب وأكواب . ولم يذكر الأطعمة والأشربة ؛ لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شىء . وذكر الذهب فى الصحاف واستغنى به عن الإعادة فى الأكواب ؛ كقوله تعالى :

(١) زيادة لا يستقيم المعنى إلا بها . (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢

« والذَّا كِرِين اللهَ كَثيراً والذَّاكِرَاتِ » [١] . وفى الصحيحين عن حُذيفة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تلبَسوا الحرير ولا الدِّيباج ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها [٢] فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة". وقد مضى فى سورة « الحج » [٣] أن من أكل فيهما فى الدنيا أو لبس الحرير فى الدنيا ولم يتب حُرِم ذلك فى الآخرة تحريما مؤبدا . والله أعلم . وقال المفسرون : يطوف على أدناهم فى الجنة منزلةً سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب، يُغْدَى عليه بها ، فى كل واحدة منها لون ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا ، ويراح عليه بمثلها . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام ، مع كل غلام صحفة من ذهب ، فيها لون من الطعام ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا . ﴿وأَكْوَابٌ﴾ أى ويطاف عليهم بأكواب ؛ كما قال تعالى : « ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضةٍ وأَكوابٍ » [٤] . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبى قِلابة قال : يُؤْتَوْن بالطعام والشراب ، فإذا كان فى آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتَضْمُر لذلك بطونهم ، ويفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك ؛ ثم قرأ « شرابا طهورا » . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يَتْفِلُون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخطون] قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جُشاء ورَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التسبيحَ والتحميد والتكبير ــ فى رواية ــ كما يلهمون النَّفَس" .

الثانيــة ــ روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يُجَرْجِر فى بطنه نار جهنم" وقال : "لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها" وهذا يقتضى التحريم ، ولا خلاف فى ذلك .

(١) آية ٣٥ سورة الأحزاب . راجع جـ ١٤ ص ١٨٥ . (٢) قوله « فى صحافها » على حد قوله تعالى : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ... » فالضمير « عائد على الفضة ، ويلزم حكم الذهب بطريق الأولى .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٩ (٤) آية ١٥ سورة الإنسان .

واختلف النـاس فى استعمالها فى غير ذلك . قال ٱبن العـربى : والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها فى شىء ؛ لقول النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى الذهب والحرير : "هذان حرام لذكور أمتى حلّ لإناثها" . والنهى عن الأكل والشرب فيهـا يدل على تحريم استعمالها ؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز . أصله الأكل والشرب ، ولأن العلة فى ذلك استعجال أمر[1] الآخرة ، وذلك يستوى فيـه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : "هى لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة" فلم يجعل لنا فيها حظا فى الدنيا .

الثالثـة — إذا كان الإناء مُضَبَّبا بهما أو فيه حَلْقة منهما ؛ فقال مالك : لا يعجبنى أن يُشرب فيه ، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبنى أن ينظر فيها وجهه . وقد كان عند أنس إناء مضبّب بفضة وقال : لقد سقيت فيه النبى صلى الله عليـه وسلم . قال ٱبن سيرين : كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة ؛ فقال أبو طلحة : لا أغير شيئا ممـا صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتركه .

الرابعـة — إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها ؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور[2] . وفى كتب علمائنا أنه يلزم الغُرم فى قيمتها لمن كسرها ، وهو معنى فاسد ، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها . ولا يجوز تقويمها فى الزكاة بحال . وغير هذا لا يلتفت إليه .

قوله تعـالى : ﴿ بِصِحَافٍ ﴾ قال الجوهرى : الصحفة كالقَصْعة والجمع صحاف . قال الكسائى : أعظم القصاع الجَفْنة ثم القَصعة تليها تُشبع العشرة ، ثم الصحفة تشـبع الخمسة ، ثم المِئْكلة تشـبع الرجلين والثـلاثة ، ثم الصُّحَيفة تُشبع الرجل . والصحيفة الكتاب والجمـع صحف وصحائف .

قوله تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ قال الجوهرى : الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب . قال الأعشى يصف الخمر :

---

(١) فى ٱبن العربى : « أجر » .

(٢) الطنبور : من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس ؛ معرّب .

صَرِيفِيــة طَيِّبٌ طَعْمُهـا * لهـا زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ[1]

وقال آخـــر[2] :

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه * يسعى عليه العَبْدُ بالكُوب

وقال قتادة : الكُوب المدوَّر القصير العنق القصير العروة . والإبريق المستطيـل العنق الطويل العروة . وقال الأخفش : الأكواب الأباريق التى لا خراطيم لها . وقال قُطْرُب : هى الأباريق التى ليست لها عُرًى . وقال مجاهد : إنها الآنية المدوَّرة الأفواه . السُّـدّى : هى التى لا آذان لها . ابن عَزيز: «أكواب» أباريق لا عُرًى لها ولا خراطيم ؛ واحدها كوب .

قلت : وهو معنى قول مجاهد والسُّدّى ، وهو مذهب أهل اللغة أنها التى لا آذان لهـا ولا عُرًى .

قوله تعـالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ روى الترمذىّ عن سليمان بن بُريدة عن أبيه أن رجلا سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هل فى الجنـة من خيل ؟ قال : " إن اللهُ أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك [فى الجنة[3]] حيث شئت" . قال : وسأله رجل فقال يا رسول الله ، هل فى الجنـة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه قال : " إنْ يُدخلك الله الجنـة يكن لك فيهـا ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك" . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام «وفيها ماتشتهيه الأنفس » ، الباقون « تشتهى الأنفس » أى تشتهيه الأنفس ؛ تقول : الذى ضربت زيد ؛ أى الذى ضربته زيد . ﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ تقـول : لَذّ الشىءُ يَـلَذّ لذاذا ، ولذاذة . ولَذِذت بالشىء أَلَذّ (بالكسر فى المـاضى والفتح فى المستقبل) لذاذا ولذاذة ؛ أى وجدته لذيـذا . والتذذت به وتلذذت به بمعنًى . أى فى الجنـة ما تستلذه العين فكان حَسَن المَنْظَر . وقال سعيد بن جبير : «وتلذ الأعين» النظر إلى الله عز وجل ؛ كما فى الخبر : " أسألك لذة النظر إلى وجهك " . ﴿ وأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ باقون دائمون ؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت .

(١) الصريفية : الخمر المنسوبة الى صريفون ، وهى قرية عند عكبراء ، أو لأنها أخذت من الدنّ ساعتئذ كاللبن الصريف (الحليب الحار ساعة يصرف من الضرع) . (٢) هو عدى بن زيد . (٣) زيادة عن سنن الترمذى .

قوله تعالى : وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ أى يقال لهم هذه تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا . وقال ابن خالويه : أشار تعالى إلى الجنة بتلك وإلى جهنم بهذه ؛ ليخوف بجهنم ويؤكد التحذير منها . وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التى ينظر إليها . ﴿ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارا ؛ فالكافر يرث نار المسلم، والمسلم يرث جنة الكافر ؛ وقد تقدم هذا مرفوعا فى « قد أفلح المؤمنون »(1) من حديث أبى هريرة، وفى « الأعراف »(2) أيضا .

قوله تعالى : لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

الفاكهة معروفة ، وأجناسها الفواكه ، والفاكهانى الذى يبيعها . وقال ابن عباس : هى الثمار كلها ، رطبها ويابسها ؛ أى لهم فى الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لما ذكر أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضا ليبين فضل المطيع على العاصى . ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أى لا يخفف عنهم ذلك العذاب . ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى آيسون من الرحمة . وقيل : ساكتون سكوت يأس ؛ وقد مضى فى « الأنعام »(3) . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالشرك . ويجوز «ولكن كانوا هم الظالمون» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبر كان .

قوله تعالى : وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾

(1) راجع ج ١٢ ص ١٠٨ (2) راجع ج ٧ ص ٢٠٨ (3) راجع ج ٦ ص ٤٢٦

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يا مالِكُ ﴾ وهو خازن جهنم ، خلقه لغضبه ؛ إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا . وقرأ علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما « ونادوا يا مالِ » وذلك خلاف المصحف . وقال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم « ونادوا يا مال » باللام خاصة ؛ يعنى رخم الاسم وحذف الكاف . والترخيم الحذف ، ومنه ترخيم الاسم فى النداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول فى مالك : يا مال ، وفى حارث : يا حار، وفى فاطمة : يا فاطم، وفى عائشة : يا عائش، وفى مروان : يا مرو، وهكذا . قال :

حار لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية * لم يَلْقَها سُوقَةٌ قَبْلى ولا مَلِكُ[1]

وقال آمرؤ القيس :

أحار ترى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَه * كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ[2]

وقال أيضا :

أفاطم مَهْلًا بعضَ هذا التدلُّلِ * وإن كنتِ قد أزمعتِ صُرْمِى فأَجْمِلِى[3]

وقال آخر[4] :

يا مَرْوَ إن مَطِيّتى محبوسةٌ * ترجو الحِباء وربُّها لم ييأس

وفى صحيح الحديث "أى فل ، هَلُمّ" . ولك فى آخر الاسم المرخّم وجهان : أحدهما ــ أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف . والآخر ــ أن تبنيه على الضم ؛ مثل : يا زيد ؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراع المحذوف . وذكر أبو بكر الأنبارى قال : حدّثنا محمد بن يحيى المرْوزىّ قال حدّثنا محمد ــ وهو ابن سعدان ــ قال حدّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى ، وهو من قصيدة يخاطب بها الحارث بن ورقاء الصيداوى وكان أغار على بنى عبدالله ابن غطفان فغنم وأخذ ابل زهير وراعيه يسارا ، فطالبهم بذلك ليردوا عليه ما أخذوه وتوعدهم بالهجاء ... الخ ، راجع شرح ديوان زهير ص ١٦٤ المطبوع بدار الكتب المصرية .

(٢) يروى « أصاح » . والحبى : السحاب المعترض بالأفق . والمكلل . المتراكب .

(٣) فاطمة هى ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر . والصرم (بالضم) . القطيعة .

(٤) هو الفرزدق يخاطب مروان بن الحكم وكان واليا على المدينة فوفد عليه مادحاله ، فأبطأ عليه جائزته ... والحباء (بكسر الحاء المهملة) : العطاء . وجعل الرجاء للناقة وهو يريد نفسه مجازا . (شرح الشواهد للشنتمرى) .

عيينة عن مجاهد قال : كنا لا ندرى ما الزخرف حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « بيت من ذهب »[1] ، وكنا لا ندرى « ونادوا يا مالك » أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « ونادوا يا مالِ » على الترخيم . قال أبو بكر : لا يعمل على هذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله فى الرواية عن الرسول عليه السلام، وكتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفى عنه الباطل .

قلت : وفى صحيح البخارى عن صَفْوان بن يَعْلَى عن أبيه قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر «ونادَوْا يامالكُ لِيَقْضِ علينا ربك» بإثبات الكاف. وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى — أوذكر لى — أن أهل النار استغاثوا بالخَزَنة فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جهنم ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا من العذابِ»[2] فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيه العذاب، فردّتْ عليهم « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » قال : فلما يَئسوا مما عند الخزنة نادَوْا مالكًا، وهو عليهم وله مجلس فى وسطها، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا : « يامالك ليقض علينا رَبُّك » قال : سألوا الموت، قال : فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة، قال : والسنة ستون وثلثمائة يوم، والشهر ثلاثون يوما، واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال : « إنكم ماكثون » وذكر الحديث ؛ ذكره ابن المبارك . وفى حديث أبى الدَّرْداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيقولون ادْعوا مالكا فيقولون يامالك لِيَقْضِ علينا رَبُّك قال إنكم ماكثون" . قال الأعمش : نُبِّئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام ؛ خرّجه الترمذى . وقال ابن عباس : يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة، ثم يقول إنكم ماكثون . وقال مجاهد ونَوْف البِكَالِيّ : بين ندائهم وإجابته إياهم مائة سنة . وقال عبد الله بن عمرو : أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك .

---

(١) فى قوله تعالى : « أو يكون لك بيت من زخرف » آية ٩٣ سورة الإسراء . وراجع جـ ١٠ ص ٣٣١

(٢) آية ٤٩ سورة غافر .

قوله تعالى : لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم؛ أى إنكم ما كثون فى النار لأنا جئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا . ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم؛ أى بيّنا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : « ولكن أكثركم » أى ولكن كلكم . وقيل : أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم، وأما الأتباع فما كان لهم أثر . ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ أى للإسلام ودين الله ﴿ كَٰرِهُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فى دار النّدْوة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجلٌ ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه؛ فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر . « أَبْرَمُوا » أحكموا . والإبرام الإحكام . أبرمت الشيء أحكمته . وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثانى، والأول سَحِيل؛ كما قال :

* ... ... مِن سَحِيلٍ ومُبْرَمِ[(1)] *

فالمعنى أم أحكموا كيدًا فإنا محكمون لهم كيدًا؛ قاله ابن زيد ومجاهد . قتادة : أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث . الكلبى : أم قضَوْا أمرًا فإنا قاضون عليهم بالعذاب . وأم بمعنى بل . وقيل : « أَمْ أَبْرَمُوا » عطف على قوله «أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ[(2)] » . وقيل : أى ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا ، أم سمعوا فأعرضوا لأنهم فى أنفسهم أبرموا أمرا آمنوا به العقاب .

قوله تعالى : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

(١) هذا عجز بيت لزهير بن أبى سلمى . والبيت كما فى ديوانه :

يمينا لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

والسحيل، الغزل الذى لم يبرم . (٢) آية ٤٥ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أى ما يسرّونه فى أنفسهم ويتناجون به بينهم . ﴿ بَلَى ﴾ نسمع ونعلم . ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى الحفظة عندهم يكتبون عليهم . وروى أن هذا نزل فى ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها ؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ وقال الثانى : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع . وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى . وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود فى سورة « فُصِّلت »(١) .

قوله تعالى : قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ اختلف فى معناه ؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّى : المعنى ما كان للرحمن ولد ؛ فـ« إن » بمعنى ما ، ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدئ « فأنا أول العابدين » أى الموحّدين من أهل مكة على أنه لا ولد له . والوقف على « العابدين » تام . وقيل : المعنى قل يا محمد إن ثبت لله ولد فأنا أوّل من يعبد ولده ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ؛ وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلتَ بالدليل فأنا أوّل من يعتقده ؛ وهذا مبالغة فى الاستبعاد ؛ أى لا سبيل إلى اعتقاده . وهذا ترقيق فى الكلام ؛ كقوله : « وإنّا أو إيّاكم لعلى هُدًى أو فى ضلالٍ مُبين »(٢) . والمعنى على هذا : فأنا أول العابدين لذلك الولد ، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد . وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل من عبده وحده ، على أنه لا ولد له . وقال السُّدِّى أيضا : المعنى لو كان له ولد كنت أوّل من عبده ؛ على أن له ولدا ولكن لا ينبغى ذلك . قال المَهْدَوِى : فـ« إن » على هذه الأقوال للشرط ، وهو الأجود ، وهو اختيار الطبرى ؛ لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى . وقيل : إن معنى « العابدين » الآنفين . وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العَبِدين .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١ (٢) آية ٢٤ سورة سبأ . راجع جـ ١٤ ص ٢٩٨

وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني « فأنا أول العَبِدين » بغير ألف ، يقال ، عَبِدَ يَعْبَدُ عَبَدًا (بالتحريك) إذا أنِف وغضب فهو عَبِد ، والاسم العَبَدة مثل الأنفة ، عن أبي زيد . قال الفرزدق :

أولئك أجلاسي فجئني بمثلهم * وأعْبَدُ أن أهْجُو كُلَيْبًا بدارِم

وينشد أيضا :

أولئك ناس إن هَجَوْني هجوتهم * وأعبَدُ أن يهجى كُلَيْبٌ بدارم

قال الجوهري : وقال أبو عمرو وقوله تعالى «فأنا أول العابدين» من الأَنَف والغضب ؛ وقاله الكسائي والقُتَبي ، حكاه الماوردي عنهما . وقال الهَرَوي : وقوله تعالى « فأنا أول العابدين » قيل هو من عَبِد يَعْبَد ؛ أي من الآنفين . وقال ابن عرفة : إنما يقال عَبِد يَعبدُ فهو عَبِد ؛ وقلما يقال عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، ولكن المعنى فأنا أول من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لا ولد له . وروى أن امرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان رضي الله عنه فأمر برجمها ؛ فقال له علي : قال الله تعالى « وَحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا » وقال في آية أخرى « وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ » فوالله ما عَبِد عثمانُ أن بعث إليها تُرَد . قال عبد الله بن وهب : يعني ما استنكف ولا أنِف . وقال ابن الأعرابي : «فأنا أول العابِدين» أي الغضاب الآنفين . وقيل : «فأنا أول العابدين» أي أنا أول من يعبده على الوحدانية مخالفًا لكم . أبو عبيدة : معناه الجاحدين ؛ وحكى : عَبَدَني حَقِّي أي جحدني . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « وُلْد » بضم الواو وإسكان اللام . الباقون وعاصم « وَلَد » وقد تقدّم[1] . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي تنزيها له وتقديسا . نَزّه نفسه عن كل ما يقتضي الحدوث ، وأمَرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالتنزيه . ﴿ عما يصفون ﴾ أي عما يقولون من الكذب .

قوله تعالى : فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٥

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ يعنى كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة . أى اتركهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ إمّا العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة . وقيل : إن هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو مُحْكَم ، وإنما أخرج مخرج التهديد . وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد وحُميد وابن القعقاع وابن السَّمَيْقَع « حتى يَلْقوا » بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف ، وفتح القاف هنا وفى « الطور » (١) و « المعارج » (٢) . الباقون « يُلاقُوا » .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

هذا تكذيب لهم فى أن لله شريكا وولدا ؛ أى هو المستحق للعبادة فى السماء والأرض . وقال عمر رضى الله عنه وغيره : المعنى وهو الذى فى السماء إله فى الأرض (٣) ؛ وكذلك قرأ . والمعنى أنه يعبد فيهما . وروى أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما « وهو الذى فى السماء اللهُ وفى الأرض اللهُ » وهذا خلاف المصحف . و « إِلٰهٌ » رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ أى وهو الذى فى السماء هو إله ؛ قاله أبو على . وحسن حذفه لطول الكلام . وقيل : « فى » بمعنى على ؛ كقوله تعالى : « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ » أى على جذوع النخل ؛ أى هو القادر على السماء والأرض . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) تقدّم .

قوله تعالى : وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة ؛ وقد تقدّم (٥) . ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى وقت قيامها . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « وإليه يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . وكان ابن مُحَيْصِن وحُميد ويعقوب وابن أبى إسحاق يفتحون أوله على أصولهم . وضم الباقون .

(١) آية ٤٥ (٢) آية ٤٢ (٣) فى بعض نسخ الأصل : « ... فى السماء إله وفى الأرض ... »
(٤) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣

قوله تعالى : وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ «مَن» في موضع الخفض . وأراد بـ « الذين يدعون من دونه» عيسى وعُزيرًا والملائكة . والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة ؛ قاله سعيد بن جبير وغيره . قال : وشهادة الحق لا إله إلا الله . وقيل : « من » في محل رفع ؛ أي ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ؛ يعني الآلهة — في قول قتادة — أي لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق ؛ يعني عُزيرا وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله . ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما شهدوا به . وقيل : إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث ونَفَرًا من قريش قالوا : إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولّى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه ؛ فأنزل الله «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلا مَنْ شَهِد بِالحق » أي اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة . ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ يعني المؤمنين إذا أذن لهم . قال ابن عباس : « إلا من شهد بالحق » أي شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقيل : أي لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق ؛ فإن من شهد بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك . و « إلا » بمعنى لكن ؛ أي لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق ؛ فهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلا ؛ لأن في جملة « الذين يدعون من دونه » الملائكة . ويقال : شَفَعْته وشَفَعْت له ؛ مثل كِلْته وكِلْت له . وقد مضى في « البقرة » معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها [1] . وقيل : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحق» إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق في الدنيا ، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به ، أو بأن شاهدوه على الإيمان .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِـدَ بِالْحَقِّ وَهُـمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على معنيين : أحدهما — أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا يغنى مع عدم العلم بصحة المقالة . والثانى — أن شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالمـا بها . ونحوه ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فَدَعْ " . وقد مضى فى « البقرة »(١) .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُـمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ أى لأقروا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنهـا حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له . يقال : أَفَكَه يأْفِكُه أَفْكاً؛ أى قلبه وصرفه عن الشيء . ومنه قوله تعالى : «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا»(٢) . وقيل : أى ولئن سألت الملائكة وعيسى « من خلقهم» لقالوا الله . « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى فأنّى يُؤفك هؤلاء فى ادعائهم إياهم آلهة .

قوله تعـالى : وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

فى « قِيـلِه » ثلاث قراءات : النصب ، والجَرّ ، والرفع . فأمّا الجَرّ فهى قراءة عاصم وحمزة . وبقية السبعة بالنصب . وأما الرفع فهى قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب . فمن جرّ حمله على معنى : وعنده علم الساعة وعلم قِيلِه . ومن نصب فعلى معنى : وعنده علم الساعة ويعلم قِيلَه ؛ وهذا اختيار الزجاج . وقال الفرّاء والأخفش : يجوز أن يكون « قيله » عطفا على قوله « أَنَّا لَا نَسْـمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ »(٣) . قال ابن الأنبارى : سألت أبا العباس محمد ابن يزيد المبرد بأىّ شيء تنصب القيل؟ فقال : أنصبه على « وعنده علم الساعة ويعلم قيله » . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « تُرْجعون » ، ولا على « يعلمون » . ويحسن الوقف على « يكتبون »(٤) . وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القِيل على معنى : لا نسمع سرهم ونجواهم

(١) راجع ج ٣ ص ٣٨٩ . (٢) آية ٢٢ سورة الأحقاف . (٣) آية ٨٠ من هذه السورة .
(٤) فى آية .

وقِيلَه ؛ كما ذكرنا عنهما . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « يكتبون » . وأجاز الفراء والأخفش أيضا : أن ينصب على المصدر؛ كأنه قال : وقال قيله، وشكا شكواه إلى الله عزّ وجلّ ، كما قال كعب بن زُهير :

تمشي الوُشاةُ جَنابَيها[1] وقِيلَهُم * إنّك يابنَ أبى سُلْمَى لَمَقْتُولُ

أراد : ويقولون قيلهم . ومن رفع « قيله » فالتقدير : وعنده قِيلُه، أو قِيلُه مسموع، أو قِيلُه هذا القول . الزمخشرى : والذى قالوه ليس بقوى فى المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه . والرفع على قولهم : أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ، ويكون قوله « إنّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون » جواب القسم؛ كأنه قال : وأقسم بقيله يارَبّ، أو قيله يارَبّ قسمى، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . وقال ابن الأنبارى : ويجوز فى العربية «وقيله» بالرفع، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا يؤمنون. المَهْدَوِىّ : أو يكون على تقدير وقِيلُه قِيلُه يارَبّ ؛ فحذف قيله الثانى[2] الذى هو خبر ، وموضع « يارَبّ » نصب بالخبر المضمر، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول وبقى بعضه ؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور . والهاء فى « قِيله » لعيسى ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد جرى ذكره إذ قال « قل إن كان للرحمن وَلَدٌ » . وقرأ أبو قِلابة « يارَبَّ » بفتح الباء . والقيل مصدر كالقول ؛ ومنه الخبر "نهى عن قيل وقال" . ويقال : قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا . وفى النساء « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا »[3] .

قوله تعالى : فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال قتادة: أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم؛ فصار الصفح منسوخا بالسيف . ونحوه عن ابن عباس قال : « فاصفح عنهم » أى أعرض عنهم . ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أى معروفا ؛ أى قل لمشركى أهل مكة « فسوف تعلمون» ثم نُسخ هذا فى سورة «براءة» بقوله تعالى: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم»[4] الآية . وقيل : هى مُحْكَمة لم تنسخ . وقراءة العامة « فسوف

(١) أى ناحيتها . (٢) فى الأصول : «الأول» . (٣) آية ١٢٢ . (٤) آية ٥ .

يعلمون » (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيه بالتهديد . وقرأ نافع وابن عامر « تعلمون » (بالتاء) على أنه من خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين بالتهديد . و « سَلَامٌ » رفع بإضمار عليكم؛ قاله الفراء . ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام ، ولم يجعله تحيّة لهم؛ حكاه النقاش . وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرّفه بذلك كيف السلام عليهم؛ والله أعلم .

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق، إلا قوله تعالى : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا »(١) . وهي سبع وخمسون آية . وقيل تسع . وفي مسند الدارمي عن أبي رافع قال : " من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له وزوّج من الحور العين " . رفعه الثعلبيّ من حديث أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له " . وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك " . وعن أبي أمامة قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتا في الجنة " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾

إن جعلت «حم» جواب القسم تمّ الكلام عند قوله «المبين» ثم تبتدئ « إنّا أنزلناه » . وإن جعلت « إنّا كُنّا مُنْذِرِين » جواب القسم الذي هو « الكتاب » وقفت على «منذرين» وابتدأت «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» . وقيل : الجواب «إنا أنزلناه»، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به ، ولا تكون صفة المقسم به جوابا للقَسَم، والهاء في « أنزلناه »

(١) آية ١٥ .

للقرآن . ومن قال : أقسم بسائر الكتب فقوله « إنا أنزلناه » كنّى به عن غير القرآن؛ على ما تقدّم بيانه فى أوّل « الزخرف »[1] . والليلة المباركة ليلة القدر . ويقال : ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة وليلة البراءة، وليلة الصَّك، وليلة القدر . ووصفها بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب . وروى قتادة عن واثلة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزلت صحف إبراهيم فى أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لِستّ مضَيْن من رمضان وأنزلت الزبور لاثنتى عشرة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان". ثم قيل : أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا فى هذه الليلة . ثم أنزل نجمًا نجمًا فى سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب . وقيل : كان ينزل فى كل ليلة القدر ما ينزل فى سائر السنة . وقيل كان ابتداء الإنزال فى هذه الليلة . وقال عكرمة : الليلة المباركة هاهنا ليلة النصف من شعبان . والأوّل أصح لقوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » . قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزّة فى سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فى الليالى والأيام فى ثلاث وعشرين سنة . وهذا المعنى قد مضى فى « البقرة »[2] عند قوله تعالى « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القرآن » ، و يأتى آنفا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

قال ابن عباس : يُحكم الله أمرَ الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق . وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم . وقيل : إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيّران؛ قاله ابن عمر . قال المهدوى : ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون فى ذلك العام ولم يزل ذلك فى علمه عز وجل . وقال عكرمة : هى ليلة النصف من شعبان يُبْرَم فيها أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات، و يكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وروى عثمان بن المغيرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبان

(١) راجع ص ٦١ من هذا الجزء . (٢) آية ١٨٥ راجع جـ ٢ ص ٢٩٠ طبعة ثانية .

إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج آسمه فى الموتى » . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا نهارها فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفر فأغفر له ألا مبتلى فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر » ذكره الثعلبى . وخرج الترمذى بمعناه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كَلْب » . وفى الباب عن أبى بكر الصديق قال أبو عيسى : حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحجاج بن أرْطاه عن يحيى بن أبى كثير عن عروة عن عائشة ، وسمعت محمدا يضعف هذا الحديث ، وقال : يحيى بن أبى كثير لم يَسمع من عروة والحجاج بن أرطاه لم يَسمع من يحيى بن أبى كثير .

قلت : وقد ذكر حديثَ عائشة مطولا صاحب كتاب العروس ، واختار أن الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان ، وأنها تسمى ليلة البراءة . وقد ذكرنا قوله والرد عليه فى غير هذا الموضع ، وأن الصحيح إنما هى ليلة القدر على ما بيناه . روى حماد آبن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كُلْثوم قال : سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا أبا سعيد ، أرأيت ليلة القدر أفى كل رمضان هى ؟ قال : أىْ والذى لا إله إلا هو ، إنها فى كل رمضان ، إنها الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله كلّ خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها . وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج ؛ يقال : يحج فلان ويحج فلان . وقال فى هذه الآية : إنك لترى الرجل يمشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى ، وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هى للملائكة الموكلين بأسباب الخلق . وقد ذكرنا هذا المعنى آنفا . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ؛ وهو باطل لأن الله تعالى قال فى كتابه الصادق القاطع : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » فنص على أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عين من زمانه الليل ها هنا بقوله « فى ليلة مباركة » ؛

فمن زعم أنه فى غيره فقد أعظم الفِرْية على الله، وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل عليه لا فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها . الزمخشرىّ : « وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر ؛ فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف؛ ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم؛ ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله ؛ فيلقى على ألسنة الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته . وقرئ « نفرّق » بالتشديد، و « يَفْرق » كلُّ على بنائه للفاعل ونصب « كل » ؛ والفارق الله عز وجل . وقرأ زيد بن علىّ رضى الله عنه « نفرق » بالنون . ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ كلّ شأن ذى حكمة؛ أى مفعول على ما تقتضيه الحكمة » .

قوله تعالى : ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ قال النقاش : الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده . وقال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده . وهو مصدر فى موضع الحال . وكذلك ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ وهما عند الأخفش حالان؛ تقديرهما : أنزلناه آمرين به وراحمين . المبرد : « أمرا » فى موضع المصدر ؛ والتقدير : أنزلناه إنزالا . الفرّاء والزجاج : « أمرا » نصب بـ « يُفْرَق » ؛ مثل قولك : يفرق فرقا . فأمرٌ بمعنى فرق فهو مصدر ؛ مثل قولك : يضرب ضربا . وقيل : « يفرق » يدلّ على يؤمر ؛ فهو مصدر عمل فيه ما قبله . ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الفراء : « رحمة » مفعول بـ« مرسلين » . والرحمة النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال الزجاج : « رحمة » مفعول من أجله ؛ أى أرسلناه للرحمة . وقيل : هى بدل من قوله « أمرا » . وقيل : هى مصدر . الزمخشرىّ : « أمرا » نصب على الاختصاص؛ جعل كلّ أمر جزلا فخما بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه

فخامة بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لَدُنَّا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا . وفي قراءة زيد بن علي « أَمْرٌ من عنـدنا » على هو أمر، وهي تنصر انتصابه على الاختصاص . وقرأ الحسن « رحمةٌ » على تلك هي رحمة ، وهي تنصر انتصابها بأنه مفعول له.

قوله تعالى : رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قرأ الكوفيون « رَبِّ » بالجر . البـاقون بالرفع ؛ رَدًّا على قوله «إنه هو السميع العليم» . وإن شئت على الابتداء ، والخبر لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ تقديره : هو رب السموات والأرض . والجر على البدل من « رَبِّك » وكذلك « رَبِّكم وربِّ آبائكم الأولين » بالجر فيهما ؛ رواه الشَّيْزَرِي[1] عن الكسائي . الباقون بالرفع على الاستئناف . ثم يحتمل أن يكون هـذا الخطاب مع المعترف بأن الله خالق السموات والأرض ؛ أى إن كنتم موقنين به فآعلموا أن له أن يرسل الرسـل ، وينزل الكتب . ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق ؛ أى ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق ، وأنه الذى يحيي ويميت . وقيل : الموقن ها هنا هو الذى يريد اليقين ويطلبه ؛ كما تقول : فلان يُنْجِد ؛ أى يريد نجدا ، ويُتْهِم ؛ أى يريد تِهامة . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى هو خالق العالم ؛ فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء . و « هو يحيي ويميت » أى يحيي الأموات ويميت الأحيـاء . ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مالككم ومالك من تقدم منكم . واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أى ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمـان والإقرار في قـولهم : إن الله خالقهم ؛ وإنمـا

---

(١) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازى ، كان حجازيا ثم انتقل الى شيزر (كحيدر ، بلدة قرب حماة) وأقام بها الى أن مات فنسب اليها . أخذ القراءة عرضا وسماعا من الكسائى ، وله عنه انفرادات . (غاية النهاية) .

يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم فهم فى شك . وإن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون فى دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة . وقيل : « يلعبون » يضيفون إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الافتراء استهزاء . ويقال لمن أعرض عن المواعظ : لاعب؛ وهو كالصبي الذى يلعب فيفعل ما لا يدرى عاقبته .

قوله تعالى : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين؛ قاله قتادة . وقيل : معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتى السماء بدخان مبين ؛ ولذلك سُمِّى الحافظ رقيبا . وفى الدُّخَان أقوال ثلاثة : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجئ بعدُ ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوما يملأ ما بين السماء والأرض ؛ فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم؛ وهو من آثار جهنم يوم القيامة . وممن قال إن الدخان لم يأت بعدُ : علىّ وآبن عباس وآبن عمر وأبو هريرة وزيد بن علىّ والحسن وآبن أبى مليكة وغيرهم . وروى أبو سعيد الخُدْرِىّ مرفوعا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة ؛ يأخذ المؤمن منه ؛ كالزَّكْمَة . وينفخ الكافرَ حتى يخرج من كل مسمع منه؛ ذكره الماوردى . وفى صحيح مسلم عن أبى الطُّفَيل عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفارِىّ قال : آطّلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال : " ما تذكرون " ؟ قالوا : نذكر الساعة ؛ قال : " إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشر آيات ـــ فذكر ـــ الدخانَ والدَّجالَ والدابةَ وطلوعَ الشمس من مغربها ونزولَ عيسى بن مريم وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ وثلاثةَ خُسُوف خَسْفٌ بالمَشْرِق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرة العرب وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمن تَطْرد الناس إلى مَحْشرهم " . فى رواية عن حُذيفة "إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خَسْفٌ بالمشرق وخسفٌ بالمغرب وخسف فى جزيرة العرب والدُّخانُ والدّجالُ

ودابّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوجُ وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّلُ الناس" . وخرجه الثعلبيّ أيضا عن حُذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوّل الآيات خروجًا الدّجالُ ونزولُ عيسى بن مريم ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن أَبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتَقِيل معهم إذا قالوا وتصبح معهم إذا أصبحوا وتُمْسي معهم إذا أمسوا" . قلت : يا نبيّ الله ، وما الدخان ؟ قال هذه الآية : " « فَٱرْتَقِبْ يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبِينٍ» يمـلأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليـلة أما المؤمن فيصيبه منه شـبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره ".

فهذا قول . القول الثاني — أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا ؛ قاله ابن مسعود . قال : وقد كشفه الله عنهم ، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم . والحديث عنه بهذا في صحيح البخاريّ ومسلم والترمذيّ . قال البخاريّ : حدثني يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مَسْرُوق قال قال عبد الله : إنما كان هـذا لأن قريشا لمـا استعصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف ، فأصابهم قَحْـطٌ وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينـه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ؛ فأنزل الله تعـالى : « فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مبينٍ . يَغْشَى ٱلنَّـاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » . قال : فأُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل : يا رسول الله ، استسق الله لِمُضَرَ فإنها قد هلكت . قال : "لِمُضَرَ ! إنك لجريء" . فاستسقى فسُقُوا ؛ فنزلت : « إِنَّكُمْ عائِدُونَ» . فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ؛ فأنزل الله عز وجل « يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» . قال : يعني يوم بدر. قال أبو عبيدة : والدُّخَان الجَدْب . القُتَبِيّ : سُمّي دخانا ليبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان . القول الثالث — إنه يوم فتح مكة لمـا حجبت السماءَ الغبرة ؛ قاله عبـد الرحمن الأعرج . ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ في موضع الصفة للدخان ، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود فهو خاص بالمشركين مـن أهل مكة ، وإن كان من

أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم . ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى يقول الله لهم : « هـذا عذاب أليم » . فمن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : « هـذا عذاب أليم » حكاية حال ماضية ، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية . وقيل : « هذا » بمعنى ذلك . وقيل : أى يقول الناس لذلك الدخان : « هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقيل : هو إخبار عن دنو الأمر ؛ كما تقول : هذا الشتاء فأعدّ له .

قوله تعالى : رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أى يقولون ذلك ؛ اكشف عنا العذاب فـ « إنا مؤمنون » ؛ أى نؤمن بك إن كشفته عنا . قيل : إن قريشا أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هـذا القول . قال قتادة : « العذاب » هنا الدخان . وقيل : الجوع ؛ حكاه النقاش .

قلت : ولا تناقض ؛ فإن الدخان لم يكن إلا من الجوع الذى أصابهم ؛ على ما تقدم . وقد يقال للجوع والقحط : الدخان ؛ ليبس الأرض فى سنة الجدْب وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار ؛ ولهذا يقال لسَنة الجدْب : الغبراء . وقيل : إن العذاب هنا الثلج . قال الماوردىّ وهذا لا وجه له ؛ لأن هذا إنما يكون فى الآخرة أو فى أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الثلج ؛ غير أنه مقول فحكيناه .

قوله تعالى : أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أى من أين يكون لهم التذكّر والاتعاظ عند حلول العذاب . ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يبيّن لهم الحق ، والذِّكْرى والذِّكْر واحد ؛ قاله البخارىّ . ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتّعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليهم عن محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم إيّاه . وقيل : أى أنّى ينفعهم

قولهم : « إنا مؤمنون » بعد ظهور العذاب غدًا أو بعد ظهور أعلام الساعة ، فقد صارت المعارف ضرورية . وهـذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة . ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أى علّمه بَشَرٌ أوعلمه الكَهَنة والشياطين، ثم هو مجنون وليس برسول .

قوله تعـالى : إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥)

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ أى وقتا قليلا، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ؛ أى فى زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعـد كشفه ؛قاله ابن مسعود. فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه . ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليـه بالكفر يستمر على كفره . ومن قال هـذا فى القيامة قال : أى لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر . وقيل : معنى ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلينا؛ أى مبعوثون بعد الموت . وقيل : المعنى « إنكم عائدون » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

قوله تعـالى : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)

﴿ يَوْمَ ﴾ محمول على ما دلّ عليـه ﴿ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ؛ أى ننتقم منهـم يوم نَبْطِش . وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد « إنّ » لا يفسر ما قبلها . وقيل : إن العامل فيه « منتقمون » . وهو بعيد أيضا؛ لأن ما بعد « إن » لا يعمل فيما قبلها . ولا يحسن تعلّقه بقوله : «عائدون» ولا بقوله : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ » ؛ إذ ليس المعنى عليه . ويجوز نصبه بإضمار فعل؛ كأنه قال : ذكّرهم أو اذكر . ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون ، فإذا عدتم أنتقـم منكم يوم نبطش البطشة الكبرى . ولهذا وصل هـذا بقصة فرعون ، فإنهـم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهـم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا . وقيل : « إنّا كاشِفو العذابِ قليلا إنكم عائدون » كلام تام . ثم ابتـدأ « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » أى ننتقم من جميع الكفار . وقيل : المعنى وارتقب الدخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش ، فحذف واو العطف؛

كما تقول : آتق النار اتق العذاب. و ﴿ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ في قول ابن مسعود : يوم بدر . وهو قول ابن عباس وأبيّ بن كعب ومجاهد والضّحاك . وقيل : عذاب جهنم يوم القيامة ؛ قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضا ، واختاره الزجاج . وقيل : دخان يقع في الدنيا ، أو جوع أو قَحْط يقع قبل يوم القيامة . الماوردي : ويحتمل أنه قيام الساعة ؛ لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا . ويقال : انتقم الله منه ؛ أي عاقبه . والاسم منه النّقمة والجمع النِّقمات (١) . وقيل بالفرق بين النّقمة والعقوبة ؛ فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة . والنقمة قد تكون قبلها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : العقوبة ما تقدّرت والانتقام غير مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿١٧﴾

أي آبتليناهم . ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة . والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوا فأهلكوا ؛ فهكذا أفعل بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا . وقيل : فتنّاهم عذبناهم بالغرق . وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : ولقد جاء آلَ فرعون رسول كريم وفتنّاهم ، أي أغرقناهم ؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل . والواو لا ترتّب . ومعنى ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي كريم في قومه . وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح . وقال الفرّاء : كريم على ربّه إذ اختصه بالنبوّة و إسماع الكلام .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : المعنى جاءهم فقال اتبعوني . فـ « عِبادَ الله » منادى . وقال مجاهد : المعنى أرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب . فـ « عِبادَ الله » على هذا مفعول . وقيل : المعنى أدُّوا إليّ سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربي . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي أمين على الوحي فاقبلوا نصحي . وقيل : أمين على ما أستأديه

(١) في كتب اللغة : « النقمة بالكسر والفتح وكفرحة جمع نقم ككلم وعنب وكلمات » .

منكم فلا أخون فيه . ﴿ وَأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لا تتكبّروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته . وقال قتادة : لا تبغوا على الله . ابن عباس : لا تفتروا على الله . والفرق بين البغى والافتراء أن البغى بالفعل والافتراء بالقول . وقال ابن جُريج : لا تَعْظُموا على الله . يحيى بن سلام : لا تستكبروا على عبادة الله . والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاولُ المقتدر، والاستكبارَ ترفعُ المحتقر؛ ذكره الماوردى . ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قال قتادة : بعذر بيّن . وقال يحيى بن سلام : بحجة بيّنة . والمعنى واحد؛ أى برهان بيّن .

قوله تعالى : وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾

كأنهم توعّدوه بالقتل فاستجار بالله . قال قتادة : « تَرْجُمُونِ » بالحجارة . وقال ابن عباس : تشتمونِ؛ فتقولوا ساحر كذاب . وأظهر الذال من « عُذْتُ » نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ويعقوب . وأدغم الباقون . والإدغام طلبا للتخفيف، والإظهار على الأصل . ثم قيل : إنى عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال : « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا »[1] . وقيل : إنى أعوذ؛ كما تقول : نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله؛ أى أقسم .

قوله تعالى : وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي ﴾ أى إن لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لأجل برهانى؛ فاللام فى « لى » لام أجل . وقيل : أى وإن لم تؤمنوا بى؛ كقوله : « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »[2] أى به . ﴿ فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أى دعونى كَفافًا[3] لا لِيَ ولا عَلَيّ؛ قاله مقاتل . وقيل : أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا . وقيل : فخلّوا سبيلى وكُفّوا عن أذاى . والمعنى متقارب، والله أعلم .

قوله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾

---

(١) آية ٣٥ سورة القصص . (٢) آية ٢٦ سورة العنكبوت . (٣) أى مكفوفا عنى شركم .

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ فيه حذف ؛ أى فكفروا فدعا ربه . ﴿ أَنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ بفتح «أنّ» أى بأن هؤلاء . ﴿ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أى مشركون، قد امتنعوا من إطلاق بنى إسرائيل ومن الإيمان .

قوله تعالى : فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادى؛ أى بمن آمن بالله من بنى إسرائيل . ﴿ لَيْلًا ﴾ أى قبل الصباح . ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ وقرأ أهل الحجاز « فاسر » بوصل الألف . وكذلك ابن كثير؛ من سرى . الباقون « فأسر » بالقطع؛ من أسرى . وقد تقدّم[1] . وتقدّم خروج فرعون وراء موسى فى « البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس[2] » وإغراقه وإنجاء موسى؛ فلا معنى للإعادة .

الثانيــة ـ أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلا . وسَيْرُ الليل فى الغالب إنما يكون عن خَوْف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدوّ فيتخذ الليــل سترا مُسْــدَلًا ؛ فهو من أستار الله تعالى . وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرّ أو جَدْب ؛ فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يَسْرِى ويُدْلِج[3] ويترفّق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطُوا الإبل حَظّها من الأرض وإذا سافرتم فى السَّنَة فبادروا بها نِقْيها[4]" . وقد مضى فى أول « النحل[5] » ؛ والحمد لله .

قوله تعالى : وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٩ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها . وجـ ٨ ص ٣٧٧ وما بعدها . وجـ ١١ ص ٢٢٧ وما بعدها . وجـ ١٣ ص ١٠٥ وما بعدها . (٣) قوله : « يسرى » أى يسير عامة الليل . و « يدلج » أى سار من أول الليل . وربما استعمل لسير آخر الليل . (٤) قوله : « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنقى (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ ؛ ومعناه أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا الى المقصد وفيها بقية من قوتها . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٧٣

قال آبن عباس : ﴿ رَهْوًا ﴾ أى طريقا . وقاله كعب والحسن . وعن آبن عباس أيضا سمتا . الضحاك والربيع : سهلا . عكرمة : يَبَسًا ؛ لقوله : « فَٱضْرِبْ لهم طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا » . وقيل : مفترقا . مجاهد : منفرجا . وعنه يابسا . وعنه ساكنا ؛ وهو المعروف في اللغة . وقاله قتادة والهَرَوِىّ . وقال غيرهما : منفرجا . وقال آبن عرفة : وهما يرجعان إلى معنًى واحد وإن اختلف لفظاهما ؛ لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج . وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام . والرَّهْوُ عند العرب : الساكن ؛ يقال : جاءت الخيل رَهْوًا ؛ أى ساكنة . قال :

والخيل تَمْزَع رَهْوًا فى أعنّتها * كالطير تنجو من الشُّؤْبوب ذى البَرَدِ [(1)]

الجوهرى : و يقال آفعل ذلك رَهْوًا ؛ أى ساكنا على هِينَتِك [(2)] . وعيشٌ راهٍ ؛ أى ساكن رافه . وخِمْسٌ راهٍ ؛ إذا كان سهلا . ورها البحر أى سكن . وقال أبو عبيد : رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا أى فتح ؛ ومنه قوله تعالى : « وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا » . والرَّهْوُ : السير السهل ؛ يقال : جاءت الخيل رهوا . قال آبن الأعرابى : رَهَا يَرْهُو فى السير أى رَفَقَ . قال القطامى فى نعت الركاب :

يَمْشِين رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذلةٌ * ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ

والرَّهْوُ والرَّهْوة : المكان المرتفع ، والمنخفض أيضا يجتمع فيه الماء ؛ وهو من الأضداد . وقال أبو عبيد : الرَّهْو : الجَوْبة تكون فى مَحَلّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره . وفى الحديث أنه قضى أن "لا شفعة فى فِناء ولا طريقٍ ولا مَنْقَبة ولا رُكْحٍ ولا رَهْوٍ" [(3)] . والجمع رِهَاء . والرَّهْو : المرأة الواسعة الهَنِ ؛ حكاه النَّضْر بن شُمَيل . والرَّهْو : ضرب من الطير ؛ و يقال :

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى . و « تمزع » : تمرّ مرًّا سريعا . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل محرفة ؛ ففى بعضها « تمرح » بالراء والحاء . وفى البعض الآخر : « تمرع » بالراء والعين . ويروى : « غربا » بدل « رهوا » أى حدّة . و « الشؤبوب » : السحاب العظيم القطر . (٢) الهينة (بالكسر) : السكينة والوقار .

(٣) الفناء : فناء الدار ، وهو ما امتد معها من جوانبها . والمنقبة : هى الطريق بين الدارين . وقيل : هو الطريق الذى يعلو أنشاز الأرض . والركح (بالضم) : ناحية البيت من ورائه ؛ وربما كان فضاء لا بناء فيه .

هو الكُرْكِىّ . قال الهَرَوِىّ : ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى ـ وقاله القشيرىّ ـ أى سِرْ ساكنا على هِينَتِك ؛ فالرّهو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر . وعلى الأوّل هو من نعت البحر؛ أى اتركه ساكنا كما هو قد انفرق فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر لما قطعه بعصاه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون فقيل له هذا . وقيل : ليس الرَّهْو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين ؛ يقال : رَهَا ما بين الرجلين أى فرج . فقوله : «رهوا» أى منفرجا . وقال الليث : الرهو مَشْىٌ فى سكون؛ يقال : رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ . وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافض . وٱفعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا؛ أى ساكنا بغير شدّة . وقد ذكرناه آنفا. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أى إن فرعون وقومه . ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه .

قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى «الشعراء» مستوفًى[1] . ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ النَّعمة (بالفتح) التنعيم ؛ يقال : نعّمه الله وناعَمه فتنعّم . وٱمرأة مُنَعَّمة ومُنَاعَمة ؛ بمعنًى . والنِّعمة (بالكسر) اليَدُ والصَّنيعة والمِنّة وما أنعم به عليك . وكذلك النُّعمى . فإن فتحت النون مددت وقلت : النَّعماء . والنعيم مثله . وفلان واسع النِّعمة؛ أى واسع المال . جميعه عن الجوهرىّ . وقال ابن عمر : المراد بالنِّعمة نيل مصر . ابن لَهِيعة : الفيوم . ابن زياد: أرض مصر لكثرة خيرها . وقيل : ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعة . وقد يقال : نَعْمَة ونِعْمَة (بفتح النون وكسرها) ؛ حكاه الماوردىّ . قال : وفى الفرق بينهما وجهان : أحدهما ـ أنها بكسر النون فى المِلْك، وبفتحها فى البَدَن والدِّين؛ قاله النَّضْر بن شُمَيل . الثانى ـ أنها بالكسر من المِنّة وهو الإفضال والعطيّة، وبالفتح من التنعيم وهو سَعة العيش والراحة؛ قاله ابن زياد.

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

قلت : هــذا الفرق هو الذى وقع فى الصّحاح وقد ذكرناه . وقــرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة « فَكِهِين » بغير ألف؛ ومعناه أَشِرِين بَطِرِين . قال الجوهرى : فَكِه الرجل (بالكسر) فهو فَكِه إذا كان طيِّب النفس مَزّاحا . والفكِـه أيضا الأشِر البطِر . وقرئ « وَنَعْمَةٍ كانوا فِيها فَكِهِين » أى أشرين بطرين . و « فاكهين » أى ناعمين . القشيرى : « فاكهين » لاهين مازحين؛ يقال : إنه لفاكه أى مَزّاح . وفيه فُكاهة أى مزح . الثعلبى : وهمــا لغتان كالحاذر والحَــذِر ، والفارِه والفَرِه . وقيــل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة . والفاكهة : فضــلٌ عن القوت الذى لا بدّ منه .

قوله تعــالى : كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَـوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾

قال الزجاج : أى الأمر كذلك ؛ فيوقف على « كذلك » . وقيل : إن الكاف فى موضع نصب ، على تقدير نفعل فعلا كذلك بمن نريد إهلاكه . وقال الكلبى : « كذلك » أفعــل بمن عصانى . وقيــل : « كذلك » كان أمرهم فأهلكوا . ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث . ونظيره « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا »(١) الآية .

قوله تعــالى : فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى لكفرهم . ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ . أى مؤخرين بالغرق . وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض؛ أى عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق، وبكته الليالى الشاتيات. قال الشاعر :

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

فالريح تبكى شجوها * والبرق يلمع فى الغمامه [1]

وقال آخر [2] :

والشمس طالعةٌ ليست بكاسفة * تبكى عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت الخارجية [3] :

أيا شجر الخابور مالك مورقًا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً فى وجوب الجزع والبكاء عليه . والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فَقْد . وقيل : فى الكلام إضمار ؛ أى ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة ؛ كقوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » بل سرّوا بهلاكهم ؛ قاله الحسن . وروى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ــ ثم تلا ــ «فما بكت عليهم السماء والأرض» ". يعنى أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم لأجله ، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكى فَقْدَ ذلك . وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا . قال أبو يحيى : فعجبت من قوله فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكى على عبد يَعْمُرها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوِىّ كدوىّ النحل ! . وقال علىّ وابن عباس رضى الله عنهما : إنه يبكى عليه مُصَلّاه من الأرض ومصعد عمله من السماء . وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض . وهو معنى قول سعيد بن جُبير . وفى بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه : أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان . ويشبه أن يكون قولَ مجاهد . وقال شُريح الحضرمى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغُرَباء يوم القيامة ــ

---

(١) البيت ليزيد بن مُفرِّغ الحميرى . وقد ورد هذا البيت فى الأصول محرفا ؛ والتصويب عن وفيات الأعيان وشرح الكامل . (٢) هو جرير . (٣) الخارجية هى ليلى بنت طريف الشيبانى ترثى أخاها الوليد ابن طريف ؛ وكان رأس الخوارج وأشدّهم بأساً وصولة .

قيل : من هم يارسول الله؟ قال — هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا — ثم قال — ألا لا غُرْبة على مؤمن وما مات مؤمن فى غُربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « فما بكت عليهم السماء والأرض » — ثم قال — ألا إنهما لا يبكيان على الكافر ” .

قلت : وذكر أبو نعيم محمد بن معمر قال : حدثنا أبو شعيب الحرّانى قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعىّ قال حدثنى عطاء الخراسانى قال : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقيل : بكاؤهما حمرة أطرافهما ؛ قاله علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — وعطاء والسُّدّى والترمذى محمد ابن علىّ وحكاه عن الحسن . قال السُّدّى : لما قُتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما بكت عليه السماء ؛ وبكاؤها حمرتها . وحكى جرير عن يزيد بن أبى زياد قال : لما قتل الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما احمرّ له آفاق السماء أربعة أشهر . قال يزيد : واحمرارها بكاؤها . وقال محمد بن سيرين : أخبرونا أن الحمرة التى تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقال سليمان القاضى : مُطِرْنا دمًا يوم قتل الحسين .

قلت : روى الدّارَقُطنىّ من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ” الشفق الحمرة “ . وعن عُبادة بن الصامت وشداد ابن أوس قالا : الشفق شفقان ، الحمرة والبياض ؛ فإذا غابت الحمرة حلّت الصلاة . وعن أبى هريرة قال : الشفق الحمرة . وهذا يردّ ما حكاه ابن سيرين . وقد تقدم فى « سبحان »[1] عن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكرياء والحسين بن علىّ ، وحمرتها بكاؤها . وقال محمد بن على الترمذى : البكاء إدرار الشىء فإذا أدرّت العين بمائها قيل بكت ، وإذا أدرت السماء بحمرتها قيل بكت . وإذا أدرت الأرض بغبرتها قيل بكت ؛ لأن المؤمن نور ومعه نور الله ؛ فالأرض مضيئة بنوره وإن غاب عن عينيك ، فإن فقدت نور المؤمن اغبرت فدرت

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٠ .

باغبرارها ؛ لأنها كانت غبراء بخطايا أهل الشرك ، وإنمـا صارت مضيئة بنور المؤمن ؛ فإذا قبضَ المؤمن منها دَرَت بغبرتها . وقال أنس : لمـا كان اليوم الذى دخل فيـه النبيّ صلى آلله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء ، فلما كان اليوم الذى قبض فيه أظلم كلّ شيء ، وإنا لفى دفنه ما نفضنا الأيدى منه حتى أنكرنا قلوبنـا . وأما بكاء السماء فحمرتهـا كما قال الحسن . وقال نصر بن عاصم : إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر ، وإنمـا ذلك لدنو الساعة ، فتدرّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين . وقيل : بكاؤها أمارة تظهر منها تدلّ على أسَف وحزن .

قلت : والقول الأوّل أظهر ؛ إذ لااستحالة فى ذلك . وإذا كانت السموات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم ــ كما بيناه فى « سبحان ومريم وحم فصلت[1] » ــ فكذلك تبـكى ؛ مع ما جاء من الخبر فى ذلك .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

يعنى ما كانت القبط تفعل بهـم بأمر فرعون ، من قتل الأبناء واستخدام النساء ، واستعبادهم إياهـم وتكلفهم الأعمال الشاقة . ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من « العذابِ المهينِ » فلا تتعلق « مِن » بقوله : « مِن العذابِ » لأنه قد وصف ، وهـو لا يعمل بعـد الوصف عمل الفعل . وقيل : أى أنجيناهم من العذاب ومن فرعون . ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى جبارا من المشركين . وليس هـذا عُلوّ مَدح بل هو عُـلُوٌّ فى الإسراف ؛ كقوله : « إنَّ فِرعون علا فِى الأرضْ[2] » . وقيل : هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله .

قوله تعـالى : وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ولَقَد اخْتَرْنَاهُمْ﴾ يعنى بنى إسرائيل . ﴿على عِلْمٍ﴾ أى على علم منا بهم لكثرة الأنبياء منهم . ﴿على العالَمِينَ﴾ أى عالمى زمانهم؛ بدليل قوله لهذه الأمة : « كنتم خَيْرَ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ وجـ ١١ ص ١٥٧ وجـ ١٥ ص ٣٤٤ (٢) آية ٤ سورة القصص .

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»[1] . وهذا قول قتادة وغيره . وقيل على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ؛ حكاه ابن عيسى والزمخشري وغيرهما . ويكون قوله : «كنتم خَيْرَ أُمَّةٍ» أى بعد بنى إسرائيل . والله أعلم . وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وآتَيْناهُمْ مِنَ الآياتِ ﴾ أى من المعجزات لموسى . ﴿ ما فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ قال قتادة : الآيات إنجاؤهم من فرعون وفلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم وإنزال المَنّ والسَّلْوَى . ويكون هذا الخطاب متوجها إلى بنى إسرائيل . وقيل : إنها العصا واليد . ويشبه أن يكون قول الفراء . ويكون الخطاب متوجها إلى قوم فرعون . وقول ثالث — إنه الشر الذى كفّهم عنه والخير الذى أمرهم به؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . ويكون الخطاب متوجها إلى الفريقين معًا من قوم فرعون وبنى إسرائيل . وفى قوله : «بَلَاءٌ مُبِينٌ» أربعة أوجه : أحدها — نعمة ظاهرة؛ قاله الحسن وقتادة . كما قال الله تعالى : «وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا»[2] . وقال زُهير :

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذى يَبْلُو[3]

الثانى — عذاب شديد ؛ قاله الفراء . الثالث — اختبار يتميز به المؤمن من الكافر؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وعنه أيضا : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ؛ ثم قرأ «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً»[4] .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾

---

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران . (٢) آية ١٧ سورة الأنفال . (٣) صدره : رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم * (٤) آية ٣٥ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ يعنى كفار قريش ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ ابتداء وخبر . مثل «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ»[1] ، «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا»[2] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أى بمبعوثين . ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدّم[3] . والمنشورون المبعوثون . قيل : إنّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال : يا محمد، إن كنت صادقا فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا، أحدهما ــ قُصَىّ بن كلاب فإنه كان رجلا صادقا، لنسأله عما يكون بعد الموت . وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات ؛ لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف ، فكأنه قال: إن كنت صادقا فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف . وهو كقول قائل : لو قال إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء ؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء؛ حكاه الماوردى . ثم قيل : «فأتوا بآبائنا» مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ؛ كقوله : « رَبِّ ارْجِعُونِ »[4] قاله الفرّاء . وقيل : مخاطبة له ولأتباعه .

قوله تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا استفهام إنكار؛ أى إنهم مستحقون فى هذا القول العذاب، إذ ليسوا خيرا من قوم تبع والأمم المهلكة ، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء . وقيل : المعنى أهم أظهر نعمة وأكثر أموالا أم قوم تُبّع . وقيل : أهم أعزّ وأشدّ وأمنع أم قوم تبع . وليس المراد بتُبّع رجلا واحدا بل المراد به ملوك اليمن ؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة . فتُبّع لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين ، وكِسْرى للفُرْس، وقَيْصر للروم . وقال أبو عبيدة : سُمّى كل واحد منهم تُبّعًا لأنه يتبع صاحبه . قال الجوهرى : والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تُبّع . والتُّبّع أيضا الظِّل؛ وقال .

(١) آية ١٥٥ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٩ سورة الأنعام . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٧٨
(٤) آية ٩٩ سورة المؤمنون .

يَرد المياه حَضيرةً ونَفيضةً * وِردَ القطاة إذا اسْمَالَّ التُّبَّعُ[1]

والتبع أيضا ضرب من الطير . وقال السهيلى : تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر وحضرموت، و إن مَلَكَ اليمن وحدها لم يقل له تبع ؛ قاله المسعودى . فمن التبابعة : الحارث الرائش، وهو ابن همال ذى سدد[2] . وأبرهة ذو المنار . وعمرو ذو الأذعار . وشمر بن مالك ، الذى تنسب إليه سَمَرْقَنْد . وأفريقيس بن قيس، الذى ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان، وبه سميت إفريقية .

والظاهر من الآيات أن الله سبحانه إنما أراد واحدا من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدّ من معرفة غيره؛ ولذلك قال عليه السلام : "ولا أدرى أتُبَّع لَعِينٌ أم لا" . ثم قد روى عنه أنه قال : "لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمنا". فهذا يدلّك على أنه كان واحدا بعينه؛ وهو — والله أعلم — أبو كرب الذى كسا البيت بعد ما أراد غَزْوَه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمّا أخبر أنها مُهاجَر نبيّ اسمه أحمد . وقال شعرا أودعه عند أهلها ؛ فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأدّوه إليه . و يقال : كان الكتاب والشعر عند أبى أيوب خالد بن زيد . وفيه :

شهدت على أحمد أنه * رسول من الله بارى النَّسَمْ

فلو مُدّ عمرى إلى عمره * لكنت وزيرًا له وابنَ عَمّ

وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا والزمخشرى وغيرهم أنه حُفر قبر له بصنعاء — ويقال بناحية حمير — فى الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان ، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب "هذا قبر حُبّى ولَميس" ويروى أيضا : حبى وتماضر ، ويروى أيضا : هذا قبر رضوى وقبر حُبّى ابنتا تبع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئا؛ وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

---

(١) البيت لسعدى — وقيل لسلمى — الجهنية ترثى أخاها أسعد . والحضيرة والنفيضة : جماعة القوم، وقيل : النفر يغزى بهم . وقيل غير هذا . واسمال الظل : قصر وضمر؛ وذلك عند نصف النهار .

(٢) وردت هذه الأسماء محرّفة .

قلت : وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان في الكتاب الذي كتبه : « أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك ، وأنا على دينك وسنتك ، وآمنت بربك ورب كل شيء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام؛ فإن أدركتُك فيها ونِعْمَت، وإن لم أدركك فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة ؛ فإني من أمتك الأولين وبايعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام » . ثم ختم الكتاب ونقش عليه : « لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » . وكتب على عنوانه « إلى محمد بن عبد الله نبيّ الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول ربّ العالمين صلى الله عليه وسلم . من تُبَّع الأول » . وقد ذكرنا بقية خبره وأوله في « اللمع اللؤلؤية في شرح العشر بينات النبوية » [1] للفارابي رحمه الله . وكان من اليوم الذي مات فيه تبع إلى اليوم الذي بعث فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا يزيد ولا ينقص .

واختلف هل كان نَبِيًّا أو مَلِكًا؛ فقال ابن عباس : كان تبع نبيًّا . وقال كعب : كان تبع ملكا من الملوك، وكان قومه كُهّانًا وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأمر الفريقين أن يقرّب كل فريق منهم قُرْبانًا ففعلوا، فتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم . وقالت عائشة رضي الله عنها : لا تسبّوا تُبَّعًا فإنه كان رجلا صالحا . وحكى قتادة أن تبعًا كان رجلا من حمير، سار بالجنود حتى عَبَرَ الحِيرة وأتى سَمَرْقَند فهدمها؛ حكاه الماوردي . وحكى الثعلبي عن قتادة أنه تبع الحميري، وكان سار بالجنود حتى عبر الحيرة . وبنى سَمَرْقَنْد وقتل وهدم البلاد . وقال الكلبي : تبع هو أبو كَرِب أسعد بن ملكيكرب ، وإنما سمي تبعا لأنه تَبِع مَن قبله . وقال سعيد بن جُبير : هو الذي كسا البيت الحِبَرات [2] . وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمّه، وضرب بهم لقريش مثلًا لقربهم من دارهم وعِظَمهم في نفوسهم ؛ فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم ــ لأنهم كانوا مجرمين ــ كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك . وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تبع خيرا من قريش . وقيل : سُمِّيَ أولهم تبعًا لأنه اتبع قرن الشمس وسافر في الشرق مع العساكر .

(١) اضطربت الأصول في هذا الكتاب وفي اسم مؤلفه، ولم نعثر عليه .
(٢) الحبرات (بكسر ففتح جمع حِبَرَة وحَبَرَة) : ضرب من برود اليمن مُنَمَّر .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ « الذين » فى موضع رفع عطف على « قَوْمُ تُبَّعٍ » . « أهلكناهم » صلته . ويكون « من قبلهم » متعلقًا به . ويجوز أن يكون « من قبلهم » صلة « الذين » ويكون فى الظرف عائد إلى الموصول . وإذا كان كذلك كان «أهلكناهم» على أحد أمرين : إما أن يقدّر معه «قد» فيكون فى موضع الحال . أو يقدر حذف موصوف ؛ كأنه قال : قوم أهلكناهم . والتقدير أفلا تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاء المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين . ويجوز أن يكون « والذين من قبلهم » ابتداء خبره «أهلكناهم» . ويجوز أن يكون « الذين » فى موضع جر عطفا على « تبع » كأنه قال : قوم تبع المهلكين من قبلهم . ويجوز أن يكون « الذين » فى موضع نصب باضمار فعل دل عليه « أهلكناهم » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى غافلين ؛ قاله مقاتل . وقيل : لاهين ؛ وهو قول الكلبي . ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بالأمر الحق ؛ قاله مقاتل . وقيل : إلا للحق ؛ قاله الكلبي والحسن . وقيل : إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنبياء »[1] . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى أكثر الناس . ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ هو يوم القيامة ؛ وسمى بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . دليله قوله تعالى : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ »[2] . ونظيره قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »[3] . فـ«يوم الفصل» ميقات الكل ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »[4] أى الوقت المجعول لتمييز المسيء من المحسن ، والفصل بينهما : فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وهذا غاية فى التحذير والوعيد . ولا خلاف بين القرّاء فى رفع

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٦ . (٢) آية ٣ سورة الممتحنة . (٣) آية ١٤ سورة الروم .
(٤) آية ١٧ سورة النبأ .

« مِيقَاتُهُمْ » على أنه خبر « إنّ » واسمها « يَوْمَ الفَصْلِ » . وأجاز الكسائي والفَرّاء نصب « ميقاتهم » . بـ« إن » و « يوم الفصل » ظرف في موضع خبر « إن » ؛ أي إن ميقاتهم يوم الفصل .

قوله تعالى : يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأول . والمَوْلَى : الوَلِيُّ وهو ابن العمّ والناصر . أي لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ، ولا قريبٌ عن قريبه ، ولا صديقٌ عن صديقه . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أي لا ينصر المؤمن الكافر لقرابته . ونظير هذه الآية « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا »[1] الآية . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ٱللَّهُ ﴾ « مَن » رفع على البدل من المضمر في « يُنْصَرُونَ » ، كأنك قلت : لا يقوم أحد إلا فلان . أو على الابتداء والخبر مضمر ؛ كأنه قال : إلا من رحم الله فمغفور له ؛ أو فيغني عنه ويشفع وينصر ، أو على البدل من « مَوْلًى » الأول ؛ كأنه قال : لا يغني إلا من رحم الله . وهو عند الكسائي والفَرّاء نصب على الاستثناء المنقطع ؛ أي لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يغنيهم من المخلوقين . ويجوز أن يكون استثناء متصلا ؛ أي لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض . ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ؛ كما قال « شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ »[2] فقرن الوعد بالوعيد .

قوله تعالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء ؛ إلا حرفا واحدا في سورة الدخان « إن شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » ؛ قاله

---

(١) آية ٤٨ سورة البقرة . (٢) آية ٣ سورة غافر .

ابن الأنبارى . و ﴿ الْأَثِيمِ ﴾ الفاجر ؛ قاله أبو الدرداء . وكذلك قرأ هو وابن مسعود . وقال همام بن الحارث : كان أبو الدرداء يقرئ رجلا « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » والرجل يقول : طعام اليتيم ؛ فلما لم يفهم قال له : « طعام الفاجر » . قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنى أبى قال حدّثنا نصر قال حدّثنا أبو عبيد قال حدّثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : علّم عبد الله بن مسعود رجلا « إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم ؛ فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ ؛ فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر؟ قال بلى ؛ قال فافعل . ولا حجة فى هذا للجهال من أهل الزّيغ ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبا للتعلّم، وتوطئةً منه له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزمخشرى : « وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤديّة معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهى أن يؤدّى القارئ المعانى على كمالها من غير أن يخْرِم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ؛ لأن فى كلام العرب خصوصا فى القرآن الذى هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ، من لطائف المعانى والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر . وروى علىّ بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه فى إنكار القراءة بالفارسية » . وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسمّاها الشجرة الملعونة ؛ فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغليت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار . وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل ، وهو النُّحاس المذاب . وقراءة العامة « تَغْلِي » بالتاء حملًا على الشجرة . وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب « يغلي » بالياء حملًا على الطعام ؛ وهو فى معنى الشجرة . ولا يُحمل على المهْل لأنه

ذكر للتشبيه . و « الأثيم » الآثم؛ من أثِم يأثَم إثْمًا؛ قاله القشيرى وابن عيسى . وقيل هو المشرك المكتسب للإثم؛ قاله يحيى بن سلام . وفى الصحاح : وقد أثِم الرجل (بالكسر) إثما ومأثما إذا وقع فى الإثم ، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضا . فمعنى « طَعَامُ الأَثِيمِ » أى ذى الإثم الفاجر؛ وهو أبو جهل . وذلك أنه قال : يَعِدُنا محمد أن فى جهنم الزقوم ، و إنما هو الثريد بالزُّبد والتمر؛ فبيّن الله خلاف ما قاله . وحكى النقّاش عن مجاهد أن شجرة الزقوم أبو جهل .

قلت : وهذا لا يصح عن مجاهد . وهو مردود بما ذكرناه فى هذه الشجرة فى سورة « الصافات وسبحان(١) » أيضا .

قوله تعالى : خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أى يقال للزبانية خذوه؛ يعنى الأثيم . ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أى جُرّوه وسُوقوه . والعَتْل : أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِله؛ أى تجره إليك لتذهب به إلى حبس أو بليّة . عتلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا إذا جذبته جَذْبا عنيفا . ورجل مِعْتَل (بالكسر) . وقال يصف فرسا :

* نَفْرَعُه فَرْعًا ولسنا نَعْتِله(٢) *

وفيه لغتان : عَتَلَه وعَتَنه (باللام والنون جميعا) ؛ قاله ابن السكيت . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « فاعْتِلوه » بالكسر . وضم الباقون . ﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ وسط الجحيم . ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ . قال مقاتل : يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبى جهل بمقمع من حديد ؛ فيتفتّت رأسه عن دماغه ؛ فيجرى دماغه على جسده

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٣ وجـ ١٥ ص ٨٥

(٢) القائل هو أبو النجم؛ وقبله :

طار عن المهر نَسِيل ينسله * عن مَرِح الكَنفين حرّ عطله

ثم يصبّ الملك فيه ماء حميا قد انتهى حره فيقع فى بطنه؛ فيقول الملَك: ذُق العذاب. ونظيره «يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ»(١).

قوله تعالى : ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنبارى: أجمعت العوام على كسر «إنّ». وروى عن الحسن عن علىّ رحمه الله «ذق أنك» بفتح «أن»، وبها قرأ الكسائىّ. فمن كسر «إن» وقف على «ذُقْ». ومن فتحها لم يقف على «ذق»؛ لأن المعنى ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم. قال قتادة: نزلت فى أبى جهل وكان قد قال: ما فيها أعزّ منّى ولا أكرم؛ فلذلك قيل له: ذق إنك أنت العزيز الكريم. وقال عكرمة: التقى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "إن الله أمرنى أن أقول لك أوْلَى لك فأولى" فقال: بأى شىء تهدّدنى! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا، إنى لمن أعز هذا الوادى وأكرمه على قومه؛ فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية. أى يقول له الملك: ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص؛ أى قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شعيب لشعيب: «إنّك لأنت الحليمُ الرَّشيدُ»(٢) يعنون السفيه الجاهل فى أحد التأويلات على ما تقدّم(٣). وهذا قول سعيد بن جبير. ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أى تقول لهم الملائكة: إن هذا ما كنتم تشكون فيه فى الدنيا.

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

---

(١) آية ١٩ سورة الحج. (٢) آية ٨٧ سورة هود (٣) راجع ج ٩ ص ٨٧

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ لما ذكر مستقر الكافرين وعذابهم ذكر نزل المؤمنين ونعيمهم . وقرأ نافع وابن عامر « فى مُقام » بضم الميم . الباقون بالفتح . قال الكسائى : المَقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال :

* عفَتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها * (١)

قال الجوهرى : وأما المَقام والمُقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج وهذا مُدَحْرَجُنا . وقيل : المقام (بالفتح) المشهد والمجلس، و(بالضم) يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدرا ويقدّر فيه المضاف، أى فى موضع إقامة . ﴿ أَمِينٍ ﴾ يؤمن فيه من الآفات ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ بدل « من مقام أمين » . ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا . والسُّنْدُس : مارقّ من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه . وقد مضى فى « الكهف » (٢) .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أى الأمر كذلك الذى ذكرناه . فيوقف على « كذلك » . وقيل : أى كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم حُورًا عِينًا . وقد مضى الكلام فى العين فى « والصافات » (٣) . والحُور : البيض؛ فى قول قتادة والعامة، جمع حوراء . والحَوْراء : البيضاء التى يرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه فى كعبها؛ كالمرآة من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون . ودليل هذا التأويل أنها فى حرف ابن مسعود « بعِيس عِين » (٤) . وذكر أبو بكر الأنبارى أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدّثنا حسين

---

(١) هذا أول معلقة لبيد . وتمامه : * بمِنًى تأبد غولها فرجامها *

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٥

(٤) العيس (بالكسر) : بياض يخالطه شىء من شقرة .

قال حدّثنا عمار بن محمد قال : صلّيت خلف منصور بن المعتمر فقرأ فى « حم » الدخان « بعِيس عِين . لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى » . والعيس : البيض ؛ ومنه قيل للإبل البيض : عيس، واحدها بعير أَعْيس وناقة عَيْساء . قال امرؤ القيس :

يرُعْنَ إلى صوتى إذا ما سمعنه ❊ كما تَرْعَوِى عِيطٌ إلى صوت أَعْيسا (١)

فمعنى الحور هنا : الحسان الثاقبات (٢) البياض بحسن . وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحُور العين ليرى مُخّ ساقها من وراء اللحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلّة، كما يُرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء . وقال مجاهد : إنما سُمِّيت الحُور حورا لأنهنّ يحار الطرف فى حسنهنّ وبياضهنّ وصفاء لونهنّ . وقيل : إنما قيل لهنّ حور لحَوَر أعينهنّ . والحَوَر : شدّة بياض العين فى شدّة سوادها . امرأة حَوْراء بيّنة الحَوَر . يقال : احورّت عينه احورارا، واحورّ الشىء ابيض . قال الأصمعى : ما أدرى ما الحَوَر فى العَين؟ وقال أبو عمرو : الحَوَر أن تسودّ العين كلّها مثل أعين الظباء والبقر . قال : وليس فى بنى آدم حَوَر ؛ وإنما قيل للنساء : حُور العين لأنهنّ يشبَّهن بالظباء والبقر . وقال العَجّاج :

❊ بأعينٍ مُحَوَّراتٍ حُورِ (٣) ❊

يعنى الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحَدَق . والعين جمع عَيْناء ؛ وهى الواسعة العظيمة العينين . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مهور الحُور العِين قبضات التمر وفِلَق الخبز " . وعن أبى قِرصافة (٤) سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إخراج القُمامة من المسجد مهور الحور العِين " . وعن أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) العيط (جمع عيطاء) . الناقة الفتية التى لم تحمل . (٢) الثاقب : المضىء .

(٣) فى الأصول : ❊ بأعين محورات بيض ❊

والتصويب عن أراجيز العجاج . وقبله : ❊ إذ ترمى من خلل الخدور ❊

وبعده : ❊ نزر بألباب إلى صور ❊

(٤) أبو قرصافة (بكسر أوله) اسمه جندرة بن خيشنة الكنانى .

قال : " كنس المساجد مهور الحور العين " ذكره الثعلبي رحمه الله . وقد أفردنا لهذا المعنى بابا مفردا فى (كتاب التذكرة) والحمد لله .

واختلف أيما أفضل فى الجنة؛ نساء الآدميات أم الحور ؟ فذكر ٱبن المبارك قال : وأخبرنا رِشْدِين عن ٱبن أَنْعُم عن حِبّان بن أبي جَبَلة قال : إن نساء الآدميات من دخل منهن الجنة فُضِّلن على الحُور العين بما عملن فى الدنيا . وروى مرفوعا إن " الآدميات أفضل من الحُور العين بسبعين ألف ضعف " . وقيل : إن الحور العين أفضل؛ لقوله عليه السلام فى دعائه : " وأبدله زوجًا خيرا من زوجه ". والله أعلم . وقرأ عكرمة « بِحُورِ عِينٍ » مضاف . والإضافة والتنوين فى « بحور عين » سواء .

قوله تعالى : يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾

قال قتادة : « آمنين » من الموت والوَصَب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه .

قوله تعالى : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ﴾ أى لا يذوقون فيها الموت ألْبتّة لأنهم خالدون فيها . ثم قال : ﴿ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ﴾ على الاستثناء المنقطع؛ أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا . وأنشد سيبويه :

من كان أسرع فى تَفَـرُّق فالج * فلَبُونه جَرِبتْ معًا وأغـدّتِ[1]

(١) فى كتاب سيبويه : * من كان أشرك *

والقائل هو عنز بن دجاجة المازنى . وفالج هذا ؛ هو فالج بن مازن بن مالك . سعى عليه بعض بنى مازن وأساء اليه حتى رحل عنهم ، ولحق ببنى ذكوان بن بهثة فنسب اليهم . وكانت بنو مازن قد ضيقوا على رجل منهم يسمى « ناشرة » حتى انتقل عنهم الى بنى أسد ، فدعا هذا الشاعر المازنى على بنى مازن حيث اضطروه فألجئ الى الخروج عنهم . واستثنى « ناشرة » منهم ؛ لأنه لم يرض فعلهم ، ولأنه قد امتحن محنة « فالج » بهم . واللبون : ذوات اللبن ، وتقع للواحد والجماعة . ومعنى « أغدت » صارت فيها الغـدة ؛ وهى من أدواء الإبل كالذبحة . والغلواء : النماء والارتفاع . والمتنبت : المتمى والمغذى . و يروى بكسر الياء ، ومعناه الثابت النامى . (عن شرح الشواهد) .

ثم استثنى ممـا ليس من الأول فقال :

إلا كابشـرة الذى ضـيّعتمُ * كالغصن فى غـلوائه المتنبّت

وقيل : إن « إلا » بمعنى بعد؛ كقولك : ماكلّمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك ، أى بعد رجل عندك . وقيل : « إلا » بمعنى سوى؛ أى سوى الموتة التى ماتوها فى الدنيا؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَـدْ سَلَفَ »[1] . وهو كما تقول : ما ذقت اليوم طعاما سـوى ما أكلت أمس . وقال القُتَبِىّ : « إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » معنـاه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمـة ويلقى الرَّوح والرَّيحان، وكان موته فى الجنـة لاتصافه بأسـبابها؛ فهو استثناء صحيح . والموت عَرَض لا يذاق ، ولكن جعـل كالطعام الذى يكره ذوقه ، فاستعير فيـه لفظ الذوق . ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم . فـ « فضلا » مصدر عمل فيه « يَدْعُون » . وقيل : العامل فيه « ووقاهم » . وقيل فعل مضمر . وقيل : معنى الكلام الذى قبله؛ لأنه تفضل منه عليهم ، إذ وفّقهم فى الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنـة . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة . وقيل : هو من قولك فاز بكذا؛ أى ناله وظَفِر به .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنَّمَـا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُـم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنَّمَـا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ يعنى القرآن؛ أى سهّلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى يتعظون وينزجرون . ونظيره « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »[2] . فختم السورة بالحثّ على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا؛ كما قال فى مفتتح السورة : « إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » ، « إنا أنزلناه فى ليلة القَدْر » على ما تقدم . ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ أى انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك المـوت ؛ حكاه

---

(١) آية ٢٢ سورة النساء .

(٢) آية ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ سورة القمر .

النقاش . وقيل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان . والمعنى متقارب . وقيل : ارتقب وعدتك من الثواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب . وقيل : ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة ؛ جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم .

سورة الجاثية

مكيّة كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ، هي : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ »[1] نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ذكره الماوردي ، وقال المهدوي والنحاس عن ابن عباس : إنها نزلت في عمر رضي الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عز وجل « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » ثم نسخت بقوله : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[2] . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهي سبع وثلاثون آية . وقيل ست .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ مبتدأ و ﴿ تَنزِيلُ ﴾ خبره . وقال بعضهم : « حمٓ » اسم السورة . و« تنزيل الكتاب » مبتدأ . وخبره « من الله » . والكتاب القرآن . و« العزيز » المنيع . « الحكيم » في فعله . وقد تقدّم جميع هذا[3] .

قوله تعالى : إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ

(١) آية ١٤ . (٢) آية ٥ سورة التوبة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ و جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى فى خلقهما ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ يعنى المطر . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقدّم جميعه مستوفًى فى «البقرة» وغيرها[1]. وقراءة العامة « وما يبثُّ من دابة آياتٌ » « وتصريف الرياح آياتٌ » بالرفع فيهما . وقرأ حمزة والكسائى بكسر التاء فيهما . ولا خلاف فى الأوّل أنه بالنصب على اسم « إنّ » وخبرها «فى السموات» . ووجه الكسر فى «آيات» الثانى العطف على ما عملت فيـه ؛ التقدير : وإن فى خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ . فأما الثالث فقيل : إن وجه النصب فيـه تكرير « آيات » لمـا طال الكلام؛ كما تقول : ضربت زيدا زيدا. وقيل : إنه على الحمل على ما عملت فيه «إنّ» على تقدير حذف «فى»؛ التقدير: وفى اختلاف الليل والنهار آيات . فحذفت « فى » لتقدّم ذكرها. وأنشد سيبويه فى الحذف :

أكُلَّ امرئٍ تَحْسِبِين امرأً * ونارٍ تَوَقَّدُ بالليـل نارا[2]

فحذف « كل » المضاف إلى نار المجرورة لتقدّم ذكرها . وقيل : هو من باب العطف على عاملين . ولم يجـزه سيبويه ، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين ؛ فعطف «اختلاف» على قـوله : « وفى خلقكم » ثم قال : « وتصريف الرياح آيات » فيحتاج إلى العطف على عاملين ، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل ، فـلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا فى حال . وأما قراءة الرفع فحملا على موضع « إن » مع ما عملت فيـه . وقد ألزم النحويون فى ذلك أيضا العطف على عاملين ؛ لأنه عطف على « واختلاف » على «وفى خلقكم» ، وعطف « آيات » على موضـع « آيات » الأوّل ، ولكنه يقـدّر على تكرير «فى» . ويجوز أن يرفع

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ وما بعدها ، وجـ ١٤ ص ٥٨ (٢) البيت لأبى دؤاد الأيادى .

على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة . وحكى الفراء رفع « اختلاف » و « آيات » جميعا، وجعل الاختلاف هو الآيات .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ تلك آياتُ الله ﴾ أى هذه آيات الله ؛ أى حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى بالصدق الذى لا باطل ولا كذب فيه . وقرئ « يتلوها » بالياء . ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ ﴾ وقيل بعد قرآنه ﴿ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر . وقرأ ابن مُحَيْصِن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائى « تؤمنون » بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ « ويلٌ » وادٍ فى جهنم . توعّد من ترك الاستدلال بآياته . والأفّاك : الكذاب . والإفك الكذب . « أثيم » أى مرتكب للإثم . والمراد فيما رُوى النضرُ بن الحارث . وعن ابن عباس أنه الحارث بن كَلَدة . وحكى الثعلبى أنه أبو جهل وأصحابه . ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ يعنى آيات القرآن . ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أى يتمادى على كفره متعظما فى نفسه عن الانقياد ؛ مأخوذ من صرّ الصُّرة إذا شدها . قال معناه ابن عباس وغيره . وقيل : أصله من إصرار الحمار على العانة[1] ، وهو أن ينحى عليها صارًّا أذنيه . و « أنْ » من « كأنْ » مخففة من الثقيلة ؛ كأنه لم يسمعها ، والضمير ضمير الشأن ؛ كما فى قوله :

* كأنْ ظَبْيَةٌ تَعْطُو إلى ناضر السَّلَمْ[2] *

---

(١) العانة : الأتان (الحمارة) . (٢) ويروى : الى وارق السلم . وهذا عجز بيت لابن صريم اليشكرى وصدره كما فى كتاب سيبويه والمقاصد النحوية : * ويوما توافينا بوجه مقسم * والمقسم : المحسن . و « تعطو » : تتناول . و « السلم » : شجر بعينه . وصف امرأة حسنة الوجه فشبهها بظبية مخصبة المرعى .

ومحل الجملة النصب؛ أى يصرّ مثل غير السامع ، وقد تقدّم فى أوّل « لقمان » القول فى معنى هذه الآية[1] . وتقدّم معنى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فى « البقرة »[2] .

قوله تعالى : وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ نحو قوله فى الزقوم : إنه الزبد والتمر، وقوله فى خزنة جهنم : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذلٌّ مخزٍ . ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ما هم فيه من التعزز فى الدنيا والتكبر عن الحق جهنمُ . وقال ابن عباس : « من ورائهم جهنم » أى أمامهم ؛ نظيره « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ »[3] أى من أمامه . قال :

أليس ورائى إن تراخت منيّتى * أدُبّ مع الولدان أزحفُ كالنَّسْر

﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أى من المال والولد ؛ نظيره « لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شيئا »[4] أى من المال والولد . ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى دائم مؤلم .

قوله تعالى : هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر؛ يعنى القرآن . وقال ابن عباس : يعنى كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى جحدوا دلائله .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٥٧ (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ١٦ سورة إبراهيم . (٤) آية ١٠ سورة آل عمران .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الرجز العذاب ؛ أى لهم عذاب من عذاب أليم ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السماء »(١) أى عذابا . وقيل : الرجز القذر مثل الرجس ؛ وهو كقوله تعالى : « وَيُسْقَى مِنْ مَاء صَدِيدٍ »(٢) أى لهم عذاب من تجرع الشراب القذر . وضم الراء من الرجز ابن مُحَيْصن حيث وقع . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحفص « اليم » بالرفع ؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز . الباقون بالخفض نعتا للرجز .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ يعنى أن ذلك فعله وخلقه وإحسانٌ منه وإنعام . وقرأ ابن عباس والجَحْدَرى وغيرهما « جميعا مِنَّةً » بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوبا على المصدر . قال أبو عمرو : وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها « مِنَّةً » أى تفضلا وكرما . وعن مسلمة بن محارب أيضا « جميعا مَنُّهُ » على إضافة المَنّ إلى هاء الكناية . وهو عند أبى حاتم خبر ابتداء محذوف ؛ أى ذلك، أو هو مَنُّه . وقراءة الجماعة ظاهرة . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ جزم على جواب « قل » تشبيها بالشرط والجزاء ؛ كقولك : قم تُصِب خيرا . وقيل : هو على حذف اللام . وقيل : على معنى قل

(١) آية ٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٦ سورة إبراهيم .

لهم اغفروا يغفروا ؛ فهو جواب أمر محذوف دل الكلام عليه ؛ قاله علىّ بن عيسى واختاره ابن العربىّ . ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به. قال ابن العربىّ : وهذا لم يصح . وذكر الواحدىّ والقشيرىّ وغيرهما عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عمر مع عبد الله بن أُبَىّ فى غَزْوة بنى المُصْطَلِق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها المُرَيْسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى ، وأبطأ عليه فقال : ما حبسك؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قِرب النبىّ صلى الله عليه وسلم وقِرب أبى بكر ، وملأ لمولاه . فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سَمِّن كلبك يأكلك . فبلغ عمرَ رضى الله عنه قولُه ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ؛ فأنزل الله هذه الآية . هذه رواية عطاء عن ابن عباس . وروى عنه ميمون بن مهران قال : لما نزلت « مَنْ ذا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا[1] » قال يهودىّ بالمدينة يقال له فِنْحاص : احتاج ربّ محمد ! قال : فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج فى طلبه ؛ فجاء جبريل عليه السلام إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " إن ربّك يقول لك قُلْ لِلذِين آمنوا يَغْفِرُوا لِلذِين لا يَرْجُون أيّامَ اللهِ " . واعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج فى طلب اليهودى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه ، فلما جاء قال : " يا عمر ، ضع سيفك " قال : يا رسول الله ، صدقت ، أشهد إنك أرسلت بالحق . قال : " فإن ربك يقول قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله " قال : لا جرم! والذى بعثك بالحق لا ترى الغضب فى وجهى .

قلت : وما ذكره المهدوىّ والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول القُرَظىّ والسُّدّى وعليه يتوجه النسخ فى الآية . وعلى أن الآية نزلت بالمدينة أو فى غزوة بنى المُصْطَلِق فليست بمنسوخة . ومعنى « يغفروا » : يعفوا ويتجاوزوا . ومعنى « لا يرجون أيام الله » : أى لا يرجون ثوابه . وقيل : أى لا يخافون بأس الله ونقمه . وقيل : الرجاء بمعنى الخوف ، كقوله : «مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا[2]» أى لا تخافون له عظمة . والمعنى : لا تخشون

---

(١) آية ٢٤٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٣ سورة نوح .

مثل عذاب الأمم الخالية . والأيام يعبّر بها عن الوقائع . وقيل : لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه . وقيل : المعنى لا يخافون البعث.﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ قراءة العامة «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى ليجزى الله.وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر «لنجزى» بالنون على التعظيم . وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة « لِيُجْزَى » بياء مضمومة وفتح الزاى على الفعل المجهول، «قوما» بالنصب . قال أبو عمرو : وهذا لحن ظاهر . وقال الكسائى : معناه ليجزى الجزاءُ قوما ، نظيره «وكَذلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ» على قراءة ابن عامر وأبى بكر فى سورة « الأنبياء »[1] . قال الشاعر :

ولو وَلَدتْ قُفَيرةُ جَروَ كَلْبٍ ٭ لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا[2]

أى لَسُبَّ السَّبُّ .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

تقدّم[3] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة.﴿ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الحكم : الفهم فى الكتاب . وقيل : الحكم على الناس والقضاء . « والنبوّة » يعنى الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام.﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الحلال

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٣٤ (٢) قائله جرير يهجو الفرزدق . وقفيرة (كجهينة) : أم الفرزدق .

من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام . وقيل : يعني المنّ والسلوى في التيه .
﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي على عالمي زمانهم ؛ على ما تقدّم في « الدخان »[1] بيانه
﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ قال ابن عباس: يعني أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وشواهد نبوّته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، وينصره أهل يثرب . وقيل : بيّنات الأمر شرائعُ واضحات في الحلال والحرام ومعجزات . ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يريد يُوشَع بن نُون ؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : « إلا من بعد ما جاءهم العلم » نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي حسدًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه الضحاك . وقيل : معنى « بَغْيًا » أي بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البينات ولكن أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الشريعة في اللغة : المذهب والملة . ويقال لمشرعة الماء — وهي مورد الشاربة — : شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد . فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين؛ والجمع الشرائع . والشرائع في الدين : المذاهب التي شرعها الله لخلقه . فمعنى « جعلناك على شريعة من الأمر » أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق . وقال ابن عباس : « على شريعة » أي على هدًى من الأمر . قتادة: الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض . مقاتل : البينة؛ لأنها

---

(١) راجع جـ ١٦ ص

طريق إلى الحق . الكلبي : السُّـنة ؛ لأنه يُستن بطريقة مَن قبله من الأنبياء . ابن زيد : الدِّين ؛ لأنه طريق النجاة . قال ابن العربي : والأمر يرد في اللغـة بمعنيين : أحدهما ـ بمعنى الشأن كقوله : « فَٱتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ »[1] . والثاني ـ أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي . وكلاهما يصح أن يكون مرادا ها هنا ؛ وتقديره : ثم جعلناك على طريقة من الدِّين وهي ملة الإسلام؛ كما قال تعالى: « ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »[2] .

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه .

الثانيـــة ـ قال ابن العربي: ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن الله تعالى أفرد النبي صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المشركين . وقال ابن عباس: قُريظة والنَّضير . وعنه : نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه .

قوله تعـالى : إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا . ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب . قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أولياء اليهود . ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي ناصرهم ومعينهم . والمتقون هنا : الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

---

(١) آية ٩٧ سورة هود (٢) آية ١٢٣ سورة النحل .

قوله تعالى : هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى هذا الذى أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس فى الحدود والأحكام . وقرئ « هذه بصائر » أى هذه الآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشد وطريق يؤدّى إلى الجنة لمن أخذ به . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ فى الآخرة ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أىْ اكتسبوها . والاجتراح : الاكتساب ؛ ومنه الجوارح ، وقد تقدّم فى المائدة[1] . ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ ﴾ قال الكلبي : « الذين اجترحوا » عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة والوليد بن عُتبة . و « الذين آمنوا » علىّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث — رضى الله عنهم — حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم . وقيل : نزلت فى قوم من المشركين قالوا : إنهم يعطون فى الآخرة خيرا مما يعطاه المؤمن ؛ كما أخبر الرب عنهم فى قوله : «ولئن رُجِعتُ إلى رَبّى إنّ لى عِندَه للحُسنَى»[2] . وقوله « أم حسب » استفهام معطوف معناه الإنكار . وأهل العربية يجوّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطا للخطاب . وقوم يقولون : فيه إضمار ؛ أى والله ولىّ المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوّى بينهم . وقيل : هى أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان . وقراءة العامة « سواءٌ » بالرفع على أنه خبر ابتداء مقدّم ، أى محياهم ومماتهم سواء . والضمير فى «محياهم ومماتهم» يعود على الكفار ؛ أى محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش « سواء » بالنصب ، واختاره أبو عبيد قال : معناه

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٦ . (٢) آية ٥٠ سورة فصلت .

نجعلهم سواء. وقرأ الأعمش أيضا وعيسى بن عمر «ومماتهم» بالنصب؛ على معنى سواء فى محياهم ومماتهم؛ فلما أسقط الخافض انتصب. ويجوز أن يكون «محياهم ومماتهم» بدلا من الهاء والميم فى نجعلهم؛ المعنى: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم. ويجوز أن يكون الضمير فى «محياهم ومماتهم» للكفار والمؤمنين جميعا. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا، والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا. وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى الضحا عن مسروق قال قال رجل من أهل مكة: هذا مقام تميم الدارى، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكى «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية كلها. وقال بشير: بتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلى فمر بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرا ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعرى! من أى الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة.

قوله تعالى: وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى بالأمر الحق. ﴿وَلِتُجْزَى﴾ أى ولكى تجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى فى الآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلٰهه الذى يعبده ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن

شيئا وهويه اتخذه إلها . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ؛ فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن قيس السهمى أحد المستهزئين ؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه . وقال سفيان بن عيينة : إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة . وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيبا لذوى العقول من هذا الجهل . وقال الحسن بن الفضل : فى هذه الآية تقديم وتأخير ؛ مجازه : أفرأيت من اتخذ هواه إلهه . وقال الشعبى : إنما سمى الهوى [هوى] لأنه يهوى بصاحبه فى النار . وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوًى فى القرآن إلا ذمّه ؛ قال الله تعالى : «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ»[1] . وقال تعالى : «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا»[2] . وقال تعالى «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ»[3] . وقال تعالى : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ»[4] . وقال تعالى : «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»[5] . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " . وقال أبو أمامة سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى" . وقال شدّاد بن أوس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله " . وقال عليه السلام : " إذا رأيت شُحّاً مطاعا وهوًى مُتّبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعْ عنك أمر العامة " . وقال صلى الله عليه وسلم : " ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شُحٌّ مطاع وهوًى متبع وإعجاب المرء بنفسه . والمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب" . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ؛ فإن كان عمله

---

(١) آية ١٧٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) آية ٢٩ سورة الروم . (٤) آية ٥٠ سورة القصص .
(٥) آية ٢٦ سورة ص .

تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، و إن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح . وقال الأصمعى سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سرقت نونه ؛ فأخذه شاعر فنظمه وقال :

نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقةٌ * فإذا هَوِيت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه * فإذا هويت فقد كسبت هوانا
و إذا هويت فقد تعبّدك الهوى * فاخضع لحبّك كائناً من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة * ألا يُرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس فى شهواتها * والحرّ يشبع تارةً ويجوع

ولابن دُرَيْد :

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة * وكان إليها للخلاف طريق
فَدَعْها وخالف ما هَوِيت فإنما * هواك عدوٌّ والخلاف صديق

ولأبى عبيد الطُّوسىّ :

والنفس إن أعطيتها مناها * فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبى الحَوارَى : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له : أنت عليل . قال نعم . قلت مذ كم؟ قال : مذ عرفت نفسى! قلت فتداوى ؟ قال : قد أعيانى الدواء، وقد عزمت على الكَىّ . قلت وما الكى ؟ قال : مخالفة الهوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : هواك داؤك ؛ فإن خالفته فدواؤك . وقال وهب : إذا شككت فى أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته .

وللعلماء فى هذا الباب فى ذم الهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه؛ وحسبك بقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى »(1) .

قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أى على علم قد علمه منه . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال ابن عباس : أى على علم قد سبق عنده أنه سيضل . مقاتل : على علم منه أنه ضال ؛ والمعنى متقارب . وقيل : على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر . ثم قيل : « على علم » يجوز أن يكون حالا من الفاعل ؛ المعنى : أضله على علم منه به ، أى أضله عالما بأنه من أهل الضلال فى سابق علمه . ويجوز أن يكون حالا من المفعول؛ فيكون المعنى : أضله فى حال علم الكافر بأنه ضال . ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى(2) . ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أى غطاء حتى لا يبصر الرشد . وقرأ حمزة والكسائى « غَشْوة » بفتح الغين من غير ألف ، وقد مضى فى « البقرة »(3) . وقال الشاعر :

أما والذى أنا عبدٌ له * يمينًا ومالك أبدى اليمينا
لئن كنت ألبستنى غَشْوة * لقد كنت أصفيتك الوُدّ حينا

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ أى من بعد أن أضله . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

وهذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلهم فى الاعتقاد ؛ إذ هى مصرحة بمنعهم من الهداية . ثم قيل : « وختم على سمعه وقلبه » إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم . وقيل : إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم ؛ كما تقدم فى أول « البقرة »(4) . وحكى ابن جريج أنها نزلت

---

(1) آية ٤٠ سورة النازعات . (2) فى بعض نسخ الأصل : « الهوى » بالواو .
(3) راجع جـ ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .
(4) راجع جـ ١ ص ١٨٦ .

فى الحارث بن قيس من الغياطلة[1] . وحكى النقاش أنها نزلت فى الحارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد ابن المغيرة ، فتحدثا فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق ! فقال له مَهْ ! وما دلّك على ذلك ! ؟ قال : يا أبا عبد شمس ، كنا نسمّيه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تمّ عقله وكَمُل رشده ، نسمّيه الكذاب الخائن ! ! والله إنى لأعلم أنه لصادق ! قال : فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به؟ قال : تتحدّث عنى بنات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كِسرة ، واللات والعزّى إن اتبعته أبدا . فنزلت « وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث و إبطال للجزاء . ومعنى « نموت ونحيا » أى نموت نحن وتحيا أولادنا ؛ قاله الكلبى . وقرئ « ونُحيا » بضم النون . وقيل : يموت بعضنا ويحيا بعضنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى نحيا ونموت ؛ وهى قراءة ابن مسعود . ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال مجاهد : يعنى السنين والأيام . وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد . وقرئ « إلا دهر يمرّ » . وقال ابن عيينة كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذى يهلكنا وهو الذى يحيينا ويميتنا ؛ فنزلت هذه الآية . وقال قُطْرُب : وما يهلكنا إلا الموت ؛ وأنشد قول أبى ذُؤَيب :

أمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تتوجّعُ * والدَّهْرُ ليس بمُعتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

---

(١) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٧٥ طبع أوربا) : « بنو قيس بن عدى كانوا من رجال قريش يلقبون الغياطل ، وكان قيس سيد قريش فى دهره غير مدافع » . قال : « والغياطل : جمع غيطلة ، وهو الشجر الملتف ، واختلاط الظلام » .

وقال عكرمة : أى وما يهلكنا إلا الله . وروى أبو هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان أهل الجاهلية يقولون ما يُهلكنا إلا الليل والنهار وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبون الدهر قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يسب الدهْرَ وأنا الدّهْرُ بيدى الأمر أقلّب الليل والنهار".

قلت : قوله "قال الله" إلى آخره نَصُّ البخارى ولفظه . وخرجه مسلم أيضا وأبو داود. وفى الموطأ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقولَنّ أحدكم ياخَيْبَةَ الدهر فإن الله هو الدهر" . وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله . وقال : من لم يجعله من العلماء اسما إنما خرج ردا على العرب فى جاهليتها ؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم فى هذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدّهر؛ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التى تضيفونها إلى الدهر فيرجع السبّ إليه سبحانه ؛ فنُهُوا عن ذلك . ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى يؤذينى ابن آدم ... " الحديث . ولقد أحسن من قال، وهو أبو علىّ الثقفىّ :

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ * لا تَلُم الدهرَ على غَدْرِه

الدهرُ مأمورٌ، له آمرٌ * وينتهى الدهرُ إلى أمره

كم كافرٍ أموالُه جَمّةٌ * تزداد أضعافاً على كفره

ومؤمنٍ ليس له درهمٌ * يزداد إيماناً على فَقْرِه

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيرا ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بنىّ وذِكْرَ الدهر ! وأنشد :

فما الدهر بالجانى لشىء لِحَيْنِه * ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدّهْرَا

ولكن متى ما يبعث الله باعثًا * على معشر يجعل مياسيرهم عُسْرَا

وقال أبو عبيد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول "فإن الله هو الدهر" فقلت : وهل كان أحد يسب الله فى آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إنّ محلا وإنّ مُرْتَحَلا * وإنّ فى السَّفْر إذ مَضَوْا مَهَلَا

استأثر الله بالوفاء وبالعد * ل وولّى الملامةَ الرَّجُلَا

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب ؛ حتى ذكروه فى أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه . قال عمرو بن قَمِيئة :

رمتنى بنات الدهر من حيث لاأرى * فكيف بمن يُرْمَى وليس برام

فلو أنها نَبْل إذًا لاتّقيتها * ولكننى أُرْمَى بغير سهام

على الراحتين مَرّة وعلى العصا * أَنُوءُ ثلاثًا بعدهن قيامى

ومثله كثير فى الشعر . ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا رب سواه . ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى علم . و « من » زائدة ؛ أى قالوا ما قالوا شاكين . ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى ما هم إلا يتكلمون بالظن . وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك فى البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث فى الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين ؛ فيتأولون ويرون القيامة موت البدن ، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للارواح بزعمهم ؛ فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار ؛ لأن هؤلاء يُلبسون على الحق، ويُغتر بتلبيسهم الظاهر . والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم . وقيل : نموت وتحيا آثارنا ؛ فهذه حياة الذكر . وقيل أشاروا إلى التناسخ ؛ أى يموت الرجل فتجعل روحه فى موات فتحيا به .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى وإذ تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة فى جواز البعث لم يكن ثَمَّ دفعٌ ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبر كان ، والاسم «إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا» الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردّ الله عليهم بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يعنى بعد كونكم نُطَفًا أمواتا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ كما أحياكم فى الدنيا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم . الزمخشرى : « فإن قلت لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدْلَوْا به كما يُدْلِى المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسُمِّيت حجة على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله :

* تَحِيَّةُ بينهم ضَرْبٌ وَجِيعُ [1] *

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد نفى أن تكون لهم حجة ألْبَتَّةَ . فإن قلت : كيف وقع قوله « قل الله يحييكم » جواب « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبَكِّت ألزموا ما هم مقرّون به من أن الله عز وجل هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، وضُمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغَوْا إلى داعى الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شىء عليه » .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ « يوم » الأول منصوب بـ « يَخْسَر » و « يومئذ » تكرير للتأكيد

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب . وصدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

يقول : إذا تلاقوا فى الحرب جعلوا بدلا من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع . ودلفت : زحفت . والدليف مقاربة الخطو فى المشى .

أو بدل . وقيل : إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة . والعامل في « يومئذ » « يَخْسَر » ، ومفعول « يَخْسَر » محذوف ؛ والمعنى يَخْسَرُون منازلهم في الجنة .

قوله تعالى : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي من هَوْل ذلك اليوم . والأُمّة هنا : أهلُ كل ملة . وفي الجاثية تأويلات خمس : الأول ـ قال مجاهد : مستوفزة . وقال سفيان : المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله . الضحاك : ذلك عند الحساب . الثاني ـ مجتمعة ؛ قاله ابن عباس . الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين . الثالث ـ متميزة ؛ قاله عكرمة . الرابع ـ خاضعة بلغة قريش ؛ قاله مُؤَرِّج . الخامس ـ باركة على الركب ؛ قاله الحسن . والجَثْوُ : الجلوس على الركب . جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا ؛ على فعول فيهما ، وقد مضى في « مريم »[1] : وأصل الجثوة[2] : الجماعة من كل شيء . قال طَرَفة يصف قبرين :

ترى جُثْوَتَيْن من تراب عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيح مُنَضَّدِ[3]

ثم قيل : هو خاص بالكفار ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إنه عام للمؤمن والكافر انتظارا للحساب . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كأني أراكم بالكُوم[4] جاثين دون جهنم" ذكره الماوردي . وقال سلمان : إن في يوم القيامة لساعةً هي عشر سنين يَخِرّ الناس فيها جُثاةً على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي "لا أسألك اليوم إلا نفسي" . ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ قال يحيى ابن سلام : إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر ؛

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٣٢ . (٢) مثلثة الجيم .

(٣) الصم : الصلب . والمنضد : الذي يجعل بعضه على بعض .

(٤) الكوم : المواضع المشرفة .

قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد . وقيل : « كتابها » ما كتبت الملائكة عليها . وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ . وقرأ يعقوب الحضرمى « كُلَّ أمةٍ » بالنصب على البدل من « كل » الأولى لما فى الثانية من الإيضاح الذى ليس فى الأولى ؛ إذ ليس فى جُثُوها شىء من حال شرح الجثو كما فى الثانية من ذكر السبب الداعى إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها . وقيل : انتصب بإعمال « ترى » مضمرا . والرفع على الابتداء . ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر .

قوله تعالى : هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ﴾ قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة . ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى يشهد . وهو استعارة ؛ يقال : نطق الكتاب بكذا أى بيّن . وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ؛ فكأنه ينطق عليهم ؛ دليله قوله : « وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » (١) . وفى المؤمنين : « وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (٢) وقد تقدّم (٣) . و « يَنْطِقُ » فى موضع الحال من الكتاب ، أو من ذا ، أو خبر ثان لذا ، أو يكون « كتابنا » بدلا من « هذا » و « ينطق » الخبر . ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى نأمر بنسخ ما كنتم تعملون . قال علىّ رضى الله عنه : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم . وقال ابن عباس : إن الله وكّل ملائكة مطهّرين فينسَخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما يكون من أعمال بنى آدم فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس ، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العباد موافقا لما فى كتابهم الذى استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان . قال ابن عباس : وهل يكون النسخ إلا من كتاب . الحسن : نستنسخ ما كتبته الحفظة

---

(١) آية ٤٩ سورة الكهف (٢) آية ٦٢ سورة المؤمنون .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ وجـ ١٢ ص ١٣٤ .

على بنى آدم ؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال . وقيل : تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد ، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نُسخ منه الحسنات والسيئات ؛ ولا تحول المباحات إلى النسخة الثانية . وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فيقال لهم ذلك ، وهو استفهام توبيخ . ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن قبولها . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين تكسبون المعاصى . يقال : فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم ؛ فالمجرم من أكسب نفسه المعاصى . وقد قال الله تعالى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ »(1) فالمجرم ضدّ المسلم فهو المذنب بالكفر إذاً .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى البعث كائن . ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة « والساعةَ » بالنصب عطفا على « وَعْدَ » . الباقون بالرفع على الابتداء ، أو العطف

---

(1) آية ٣٥ سورة القلم .

على موضع « إن وعد الله » . ولا يحسن على الضمير الذى فى المصدر ؛ لأنه غير مؤكد ، والضمير المرفوع إنما يعطف عليه بغير تأكيد فى الشعر . ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ ﴾ هل هى حق أم باطل . ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ تقديره عند المبرد : إن نحن إلا نظن ظنا . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أن الساعة آتية .

قوله تعالى : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أى ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى نزل بهم وأحاط . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من عذاب الله .

قوله تعالى : وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ ﴾ أى نترككم فى النار كما تركتم لقاء يومكم هذا ؛ أى تركتم العمل له . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى مسكنكم ومستقركم . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ من ينصركم .

قوله تعالى : ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ هُزُوًا ﴾ لعبا . ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى خدعتكم بأباطيلها وزخارفها ؛ فظننتم أن ليس ثَمّ غيرها ، وأن لا بعث . ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أى من النار . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون . وقد تقدم[1] . وقرأ حمزة والكسائى « فاليوم لا يَخْرُجُون » بفتح الياء وضم الراء؛ لقوله تعالى :

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٦٢ وجـ ١٤ ص ٤٩ وجـ ١٥ ص ٣٥٣ .

«كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا»[1] الباقون بضم الياء وفتح الراء ؛ لقوله تعالى : «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا» . ونحوه .

قوله تعالى : فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن «رَبُّ السموات وربُّ الأرض رَبُّ العالمين» بالرفع فيها كلها على معنى هو رَبُّ . ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ أى العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال . ﴿فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والله أعلم .

سورة الأحقاف

مكية فى قول جميعهم . وهى أربع وثلاثون آية ، وقيل خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ تقدّم.[2] ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ تقدّم أيضا . ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعنى القيامة ؛ فى قول ابن عباس وغيره . وهو الأجل الذى تنتهى إليه السموات والأرض . وقيل : إنه هو الأجل

(١) آية ٢٠ سورة السجدة . (٢) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

المقدور لكل مخلوق . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا ﴾ خُوِّفوه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ مُولُّون لاهون غير مستعدّين له . ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ؛ أى عن إنذارهم ذلك اليوم .

قوله تعالى . ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله . ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى هل خلقوا شيئا من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أى نصيب ﴿ فِى السَّمَوَاتِ ﴾ أى فى خلق السموات مع الله . ﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أى من قبل هذا القرآن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ قراءة العامة « أو أثارة » بألف بعد الثاء . قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هو خط كانت تخطه العرب فى الأرض " . ذكره المهدوى والثعلبي . قال ابن العربي : ولم يصح . وفى مشهور الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " كان نبيّ من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك " ولم يصح أيضا .

قلت : هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمى ؛ خرجه مسلم . وأسند النحاس : حدّثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرايجى[(1)]) قال حدّثنا محمد بن بندار قال حدّثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثورى عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله عز وجل « أو أثارة من علم » قال " الخط " وهذا صحيح أيضا . قال ابن العربي : واختلفوا فى تأويله ؛ فمنهم من قال : جاء لإباحة الضرب ؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله .

---

(١) اضطربت الأصول فى كتابة هذه النسبة .

ومنهم من قال جاء للنهى عنه ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : " فمن وافق خطه فذاك " ولا سبيل إلى معرفة طريق النبي المتقدم فيه ؛ فإذًا لا سبيل إلى العمل به . قال :

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصا * ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع[1]

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب ، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحلّ بهم ، فصار ظناً مبنياً على ظن ، وتعلقًا بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه ؛ وقد نهت الشريعة عنه ، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به ، وقطعه عن الخلق ، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها فى درك الأشياء المغيبة ؛ فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب ؛ فلا يجوز مزاحمته فى ذلك ، ولا يحل لأحد دعواه . وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهى ؛ فإذ وقد ورد النهى فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب .

قلت : ما اختاره هو قول الخطابى . قال الخطابى : قوله عليه السلام : " فمن وافق خطه فذاك " هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علما لنبوته وقد انقطعت ، فنهينا عن التعاطى لذلك . قال القاضى عياض : الأظهر من اللفظ خلاف هذا ، وتصويب خط من يوافق خطه ؛ لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرص وادعاء الغيب جملة — فإنما معناه أن من وافق خطه فذاك الذى يجدون إصابته ؛ لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم . وحكى مكى فى تفسير قوله : "كان نبى من الأنبياء يخط " أنه كان يخط بأصبعه السبابة والوسطى فى الرمل ثم يزجر . وقال ابن عباس فى تفسير قوله " ومنا رجال يخطون" : هو الخط الذى يخطه الحازى[2] فيعطى حُلوانا فيقول : اقعد حتى أخط لك ؛ وبين يدى الحازى غلام معه ميل ثم يأتى إلى أرض رِخوة فيخط الأستاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين ، فإن بقى خطان فهو علامة النجح ، وإن بقى خط فهو علامة الخيبة . والعرب تسميه الأسحم وهو مشئوم عندهم .

(١) البيت للبيد ، والرواية فيه : « الطوارق » بدل « الضوارب » . والطرق : الضرب بالحصا . والطوارق المكهنات . (٢) الحازى : الكاهن .

الثالثة — قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يُبْقِ من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ؛ فإنه أذن فيها ، وأخبر أنها جزء من النبوّة وكذلك الفأل ؛ وأما الطِّيَرة والزجر فإنه نهى عنهما . والفأل : هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا ؛ فإن سمع مكروها فهو تطيّر ؛ أمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضي على أمره مسرورا . وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجْله ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهُمّ لا طَيْرَ إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك". وقد روى بعض الأدباء :

الفأل والزجر والكهان كلهم * مضلّلون ودون الغيب أقفال

وهذا كلام صحيح ، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به ، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه ؛ فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم .

قلت : قد مضى في الطِّيَرة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في « المائدة »[1] وغيرها . ومضى في « الأنعام »[2] أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب ، وأن أحدا لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله ، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على مَجْرَى العادة . وقد يختلف مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر ، وإذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر . وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعا ثانيا فتثمر . وكما أنه جائز أيضا ألا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومه يوم إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت . إلى غير ذلك مما تقدّم في « الأنعام » بيانه .

الرابعة — قال ابن خُوَيْزِمَنداد : قوله تعالى : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » يريد الخط . وقد كان مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه . وإذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحِيَل والتزوير . وقد روى عنه أنه قال : "يحدث الناس فجورا فتحدث لهم أقضية" . فأما إذا شهد الشهود على الخط المحكوم به ؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه ، أشهدنا على

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٩ وما بعدها .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢

ما فيه وإن لم يعلموا ما فى الكتاب . وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك — فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به . وقيل : « أو اثر من علم » أو بقية من علم ؛ قاله ابن عباس والكلبي وأبو بكر بن عياش وغيرهم . وفى الصحاح «أو أثارة من علم» بقية منه . وكذلك الأَثَرة (بالتحريك) . ويقال : سمنت الإبل على أثارة ؛ أى بقية شحم كان قبل ذلك . وأنشد الماوردى والثعلبي قول الراعى :

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها * نباتا فى أَكِمَّته فقارا

وقال الهَرَوِىّ : والأثارة والأثر : البقية ؛ يقال : ما ثَمّ عين ولا أثر . وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » خاصة من علم . وقال مجاهد : رواية تأثرونها عمن كان قبلكم . وقال عكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء . وقال القُرَظِى : هو الإسناد . الحسن : المعنى شيء يثار أو يستخرج . وقال الزجاج : « أَوْ أَثَارَةٍ » أى علامة . والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة . وأصل الكلمة من الأَثْر ، وهى الرواية ، يقال : أثرت الحديث آثُرُه أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر ؛ إذا ذكرته عن غيرك . ومنه حديث مأثور ؛ أى نقله خَلَف عن سَلَف . قال الأعشى :

إن الذى فيه تَمَارَيْتُمَا * بُيِّن للسامع والآثر

ويروى « بَيّن » وقرئ « أَوْ أُثْرَة » بضم الهمزة وسكون الثاء . ويجوز أن يكون معناه بقية من علم . ويجوز أن يكون معناه شيئا مأثورا من كتب الأولين . والمأثور : ما يتحدث به مما صح سنده عمن تحدث به عنه . وقرأ السُّلَمِى والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ؛ أى خاصة من علم أوتيتموها أو أوثرتم بها على غيركم . وروى عن الحسن أيضا وطائفة « أَثْرة » مفتوحة الألف ساكنة الثاء ؛ ذكر الأولى الثعلبي والثانية الماوردى . وحكى الثعلبي عن عكرمة : أو ميراث من علم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها ؛ فأولها المعقول ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع . ثم قال : « ائتوني بِكِتَابٍ مِن قبل هذا » فيه بيان أدلة السمع « أو أثارة من علم » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ﴿ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهي الأوثان . ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها وهي جماد مخرج ذكور بني آدم ؛ إذ قد مثّلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تُخدم .

قوله تعالى : وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ أي هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . فالملائكة أعداء الكفار ، والجنّ والشياطين يتبرءون غدًا من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضا . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ؛ على تقدير خلق الحياة لها ؛ دليله قوله تعالى : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ »[1] . وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، وجحد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

---

(١) آية ٦٣ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَلٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ الميم صلة ؛ التقدير : أيقولون افتراه ؛ أى تقوّله محمد . وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا . ومعنى الهمزة فى « أم » الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال : دع هذا وآسمع قولهم المستنكر المقضىّ منه العجب . وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا ؛ والضمير للحق ، والمراد به الآيات . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ على سبيل الفرض . ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى لا تقدرون على أن تردّوا عنى عذاب الله ؛ فكيف أفترى على الله لأجلكم . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تقولونه ؛ عن مجاهد . وقيل : تخوضون فيه من التكذيب . والإفاضة فى الشىء : الخوض فيه والاندفاع . أفاضوا فى الحديث أى اندفعوا فيه . وأفاض البعير أى دفع جِرّته من كَرِشه فأخرجها ؛ ومنه قول الشاعر :

* وأفَضْنَ بعد كُظُومهنّ بجِرّة * (1)

---

(1) هذا عجز بيت للراعى، وصدره كما فى معجم البلدان لياقوت فى « حقيل » :

* من ذى الأبارق إذ رعين حقيلا *

وذو الأبارق وحقيل : موضع واحد . يقول : كن كظوما من العطش (والكاظم من الابل الذى أمسك عن الجرة) ، فلما ابتل ما فى بطونها أفضن بجرة .

وأفاض الناس من عرفات إلى منًى أى دفعوا، وكل دفعة إفاضة . ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا﴾ نصب على التمييز . ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى هو يعلم صدق وأنكم مبطلون . ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لمن تاب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعبادة المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى أوّل من أرسل، قد كان قبلى رسل ؛ عن ابن عباس وغيره . والبِدْع : الأوّلُ . وقرأ عكرمة وغيره « بِدَعا » بفتح الدال ، على تقدير حذف المضاف ؛ والمعنى : ما كنت صاحب بِدَع . وقيل : بِدْع وبديع بمعنًى ؛ مثل نصف ونصيف . وأبدع الشاعر : جاء بالبديع . وشيء بِدْع (بالكسر) أى مبتدَع . وفلان بِدْعٌ فى هذا الأمر أى بديع . وقوم أبداع ؛ عن الأخفش . وأنشد قُطْرُب قولَ عدى بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادثَ تعترى * رجالا غدت من بعد بؤسى بأسعد [(١)]

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ يريد يوم القيامة . ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبيًّا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يُفعل به؛ فنزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » [(٢)] فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار . وقالت الصحابة : هنيئا لك يا رسول الله، لقد بين الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا؟ فنزلت «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» [(٣)] الآية . ونزلت «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا» [(٤)] . قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك . وقالت أم العلاء امرأةٌ من الأنصار : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان

---

(١) هذا رواية البيت كما فى نسخ الأصل . والذى فى شعراء النصرانية :

فلست بمن يخشى حوادث تعترى * رجالا فبادوا بعد بؤس وأسعد

(٢) آية ٢ سورة الفتح . (٣) آية ٥ سورة الفتح . (٤) آية ٤٧ سورة الأحزاب .

ابن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا فتُوفِّيَ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب! إن الله أكرمك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك أن الله أكرمه" ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟! قال: "أمّا هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيرا فوالله إني لأرجو له الجنة ووالله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل بي ولا بكم" . قالت : فوالله لا أزكّي بعده أحدًا أبدًا . ذكره الثعلبي، وقال : وإنما قال هذا حين لم يعلم بغفران ذنبه، وإنما غفر الله له ذنبه في غَزْوَة الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين .

قلت : حديثُ أمِّ العلاء خرّجه البخاريّ ، وروايتي فيه : "وما أدري ما يُفعل به" ليس فيه "بي ولا بكم" وهو الصحيح إن شاء الله ، على ما يأتي بيانه . والآية ليست بمنسوخة ؛ لأنها خبر . قال النحاس : محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين : أحدهما أنه خبر ، والآخر أنه من أوّل السورة إلى هذا الموضع خطاب للشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للشركين كما كان قبله وما بعده ، ومحال أن يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين "ما أدري ما يفعل بي ولا بكم" في الآخرة ؛ ولم يزل صلى الله عليه وسلم من أوّل مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة ؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم ما يفعل به وبهم في الآخرة . وليس يجوز أن يقول لهم ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ فيقولون كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفض ودَعة أم إلى عذاب وعقاب . والصحيح في الآية قول الحسن ، كما قرأ علي بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا أبو بكر الهذلي عن الحسن «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا» قال أبو جعفر : وهذا أصح قول وأحسنه ، لا يدري صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر . ومثله «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ»[1] . وذكر الواحدي وغيره عن الكلبي عن أبي صالح عن

(١) آية ١٨٨ سورة الأعراف .

ابن عباس : لما اشتدّ البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه يهاجر إلى ارض ذات نخل وشجر وماء ؛ فقصّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا : يا رسول الله ، متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟ فسكت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم » أى لا أدرى أ أخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أم لا . ثم قال: " إنما هو شيء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يُوحَى إلىّ " أى لم يوح إلىّ ما أخبرتكم به . قال القُشَيرى : فعلى هذا لا نسخ فى الآية . وقيل : المعنى لا أدرى ما يفرض علىّ وعليكم من الفرائض . واختار الطبرى أن يكون المعنى : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا ، أتؤمنون أم تكفرون ، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخّرون .

قلت : وهو معنى قول الحسن والسُّدِّى وغيرهما . قال الحسن : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أما فى الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه فى الجنة حين أخذ ميثاقه فى الرسل ، ولكن قال ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى ؛ أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلى؛ ولا أدرى ما يفعل بكم؛ أأمّتى المصدّقة أم المكذّبة، أم أمتى المرمية بالحجارة من السماء قَذْفًا ، أو مخسوفٌ بها خَسْفًا ؛ ثم نزلت « هو الذى أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[1] . يقول : سيظهر دينه على الأديان . ثم قال فى أمته : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »[2] فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته؛ ولا نسخ على هذا كله، والحمد لله . وقال الضحاك أيضا : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " أى ما تؤمرون به وتنهون عنه . وقيل: أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول للؤمنين ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى القيامة؛ ثم بيّن الله تعالى ذلك فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » وبيّن فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بين حال الكافرين .

قلت : وهذا معنى القول الأول؛ إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان، وأنه أمر أن يقول ذلك للؤمنين ؛ والصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره . و « ما » فى « ما يفعل » يجوز أن

---

(١) آية ٣٣ سورة التوبة . (٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .

تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرئ « يوحى » أى الله عز وجل . تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعنى القرآن . ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وقال الشعبي : المراد محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبد الله بن سلام ، شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور فى التوراة، وأنه نبى من عند الله . وفى الترمذى عنه : ونزلت فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ « وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » (١) . وقد تقدم فى آخر سورة «الرعد» . وقال مسروق : هو موسى والتوراة، لا ابن سلام؛ لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية . وقال : وقوله « وكفرتم به » مخاطبة لقريش . الشعبي : هو من آمن من بنى إسرائيل بموسى والتوراة؛ لأن ابن سلام إنما أسلم قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بعامين، والسورة مكية . قال القشيرى : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية ، وأسلم ابن سلام قبل موت النبى صلى الله عليه وسلم بعامين، ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع فى سورة مكية؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبى صلى الله عليه وسلم ضعوها فى سورة كذا . والآية فى محاجة المشركين ، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود فى أشياء ؛ أى شهادتهم لهم وشهادة نبيهم لى من أوضح الحجج . ولا يبعد أن تكون السورة فى محاجة اليهود، ولما جاء ابن سلام مسلماً من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال : يا رسول الله، اجعلنى حكماً بينك وبين اليهود؛ فسألهم عنه : "أى رجل هو فيكم" قالوا : سيدنا وعالمنا . فقال : "إنه قد آمن بى" فأساءوا القول فيه .. الحديث ،

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥

وقد تقدّم [1] . قال ابن عباس : رضيت اليهود بحكم ابن سلام ، وقالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن يشهد لك آمنا بك؛ فسئل فشهد ثم أسلم . ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ أى على مثل ما جئتكم به ؛ فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن . وقال الجُرجانى : « مِثْل » صلة ، أى وشهد شاهد عليه أنه من عند الله . ﴿ فَآمَنَ ﴾ أى هذا الشاهد . ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن الإيمان . وجواب « إن كان » محذوف تقديره : فآمن أتؤمنون؛ قاله الزجاج . وقيل : « فآمن واستكبرتم » أليس قد ظلمتم ؛ يبيّنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقيل : « فآمن واستكبرتم » أفتأمنون عذاب الله . و « أرأيتم » لفظ موضوع للسؤال والاستفهام؛ ولذلك لا يقتضى مفعولا . وحكى النقاش وغيره : إن فى الآية تقديما وتأخيرا ، وتقديره : قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بنى إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ اختلف فى سبب نزولها على ستة [2] أقوال :

الأول — أن أبا ذَرّ الغفارى دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا ؛ فبلغ ذلك قريشا فقالوا : غفارٌ الحلفاء لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو المتوكل .

الثانى — أن زِنّيرة [3] أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها : أصابك اللاتُ والعُزّى ؛ فردّ الله عليها بصرها . فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زِنّيرة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عروة بن الزبير .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥ (٢) كذا فى نسخ الأصل . ويلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر خمسة أقوال .

(٣) زنيرة (بكسر الزاى وتشديد النون المكسورة) : رومية ، وكانت من السابقات الى الاسلام ، وممن يعذب فى الله ، وكان أبو جهل يعذبها ، وهى من السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصديق وأنقذهم من التعذيب .

الثالث ــ أن الذين كفروا هم بنو عامر وغَطَفان وتميم وأسد وحَنْظَلة وأشجع ، قالوا لمن آسلم من غِفار وأسلم وجُهينة ومُزَينة وخزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه رُعاة البَهْم إذ نحن أعزّ منهم ؛ قاله الكلبي والزّجاج ، وحكاه القُشيرى عن ابن عباس . وقال قتادة : نزلت فى مشركى قريش ، قالوا : لو كان ما يدعونا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه بلال وصُهيب وعمّار وفلان وفلان . وهو القول الرابع .

القول الخامس ــ أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعنى عبد الله بن سلّام وأصحابه : لو كان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه ؛ قاله أكثر المفسرين ، حكاه الثعلبى . وقال مسروق : إن الكفار قالوا لو كان خيرا ما سبقتنا إليه اليهود ؛ فنزلت هذه الآية .

وهذه المعارضة من الكفار فى قولهم : لو كان خيرا ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات بانقلابها عليهم لكل من خالفهم ؛ حتى يقال لهم : لو كان ما أنتم عليه خيرا ما عدلنا عنه ، لو كان تكذيبكم للرسول خيرا ما سبقتمونا إليه ؛ ذكره الماوردى . ثم قيل : قوله « ما سبقونا إليه » يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين ، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »[1] . ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ يعنى الإيمان . وقيل القرآن . وقيل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أى لما لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به عادَوْه ونسبوه إلى الكذب ، وقالوا هذا إفك قديم ؛ كما قالوا : أساطير الأولين . وقيل لبعضهم : هل فى القرآن : من جهل شيئا عاداه ؟ فقال نعم ؟ قال الله تعالى : « وإذ لم يَهْتَدُوا بِهِ فسيقولون هذا إِفْكٌ قديم » ومثله « بل كَذَّبوا بما لم يُحيطُوا بِعلمه »[2] .

قوله تعالى : وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

---

(١) آية ٢٢ سورة يونس . (٢) آية ٣٩ سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى ومن قبل القرآن ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ أى التوراة ﴿ إِمَامًا ﴾ يقتدى بمـا فيه ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من الله . وفى الكلام حذف؛ أى فلم تهتدوا به . وذلك أنه كان فى التوراة نعت النبيّ صـلى الله عليه وسلم والإيمـانُ به فتركوا ذلك . و « إماماً » نصب على الحال؛ لأن المعنى : وتقدّمه كتاب موسى إمامًا . «ورحمةً» معطوف عليه . وقيل : انتصب بإضمار فعل؛ أى أنزلناه إماما ورحمة . وقال الأخفش : على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة ، لأن النكرة إذا أعيـدت أو أضيفت أو أدخل عليها ألفا ولاما صارت معرفـة . ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ ﴾ يعنى للتوراة ولمـا قبله من الكتب . وقيل : مصدّق للنبى صلى الله عليه وسلم . ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ منصوب على الحال؛ أى مصدّق لمـا قبله عربيا، و « لسانا » توطئـة للحال أى تأكيد ؛ كقولهم : جاءنى زيد رجلا صالحا ؛ فتـذكر رجلا توكيدا . وقيـل : نصب بإضمار فعل تقديره : وهـذا كتاب مصدّق أعنى لسانا عربيا . وقيل : نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره : بلسان عربى . وقيـل : إن لسانا مفعول والمراد به النبيّ صلى الله عليـه وسلم؛ أى وهذا كتاب مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسـلم لأنه معجزته ؛ والتقـدير : مصدّق ذا لسان عربى . فاللسان منصوب بمصدّق، وهو النبى صلى الله عليه وسلم . ويبعد أن يكون اللسان القرآن ؛ لأن المعنى يكون يصدّق نفسه . ﴿ لِيُنْـذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة « لينذر » بالياء خبرا عن الكتاب؛ أى لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية . وقيل : هو خبر عن الرسول صلى الله عليـه وسلم . وقرأ نافع وآبن عامر والبَزّى بالتـاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْذِرٌ » . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ « بشرى » فى موضع رفع؛ أى وهو بشرى . وقيل : عطفًا على الكتاب؛ أى وهـذا كتاب مصدّق وبشرى . ويجوز أن يكون منصوبا بإسقاط حرف الخفض ؛ أى لينذر الذين ظلموا وللبشرى ؛ فلمـا حذف الخافض نصب . وقيـل : على المصدر ؛ أى وتبشر المحسنين بشرى؛ فلما جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة نصب ؛ كما تقول : أتيتـك لأزورك ، وكرامة لك وقضاء لحقك ؛ يعنى لأزورك وأكرمك وأقضى حقك؛ فنصب الكرامة بفعل مضمر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الآية تقدم معناها[1] . وقال ابن عباس : نزلت فى أبى بكر الصدّيق . والآية تعم . ﴿جَزَاءً﴾ نصب على المصدر .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ بين اختلاف حال الإنسان مع أبويه ، فقد يطيعهما وقد يخالفهما ؛ أى فلا يبعد مثل هذا فى حق النبيّ صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويكفر البعض . فهذا وجه اتصال الكلام بعضه ببعض ؛ قاله القشيرىّ .

الثانيــة ــ قوله تعالى : « حسنا » قراءة العامة « حُسْنًا » وكذا هو فى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام . وقرأ ابن عباس والكوفيون « إِحْسَانًا » وحجتهم قوله تعالى فى سورة (الأنعام وبنى إسرائيل) : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[2] وكذا هو فى مصاحف الكوفة . وحجة القراءة الأولى قوله تعالى فى سورة العنكبوت : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »[3]

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٧ (٢) آية ١٥١ سورة الأنعام ، ٢٣ سورة الإسراء . (٣) آية ٨

ولم يختلفوا فيها . والحُسْن خلاف القُبح . والإحسان خلاف الإساءة . والتوصية الأمر .
وقد مضى القول فى هذا وفيمن نزلت[(١)] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أى بكره ومشقة . وقراءة العامة بفتح الكاف . واختاره أبو عبيد، قال : وكذلك لفظ الكره فى كل القرآن بالفتح إلا التى فى سورة البقرة « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ »[(٢)] لأن ذلك اسم وهذه كلها مصادر . وقرأ الكوفيون « كُرْهًا » بالضم . قيل : هما لغتان مثل الضُّعف والضَّعف والشُّهد والشَّهد؛ قاله الكسائى، وكذلك هو عند جميع البصريين . وقال الكسائى أيضا والفراء فى الفرق بينهما : إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره؛ أى قهرا وغصبا؛ ولهذا قال بعض أهل العربية : إن كَرها (بفتح الكاف) لحن .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا، وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا . وروى أن عثمان قد أُتِىَ بامرأة قد ولدت لستة أشهر؛ فأراد أن يقضى عليها بالحدّ؛ فقال له علىّ رضى الله عنه : ليس ذلك عليها، قال الله تعالى : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » وقال تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فالرضاع أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها . وقد مضى فى « البقرة »[(٣)] . وقيل : لم يعدّ ثلاثة أشهر فى ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نُطفة وعَلَقة ومُضْغة فلا يكون له ثقل يُحَس به ، وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ »[(٤)] . والفصال الفطام . وقد تقدّم فى « لقمان »[(٥)] الكلام فيه . وقرأ الحسن ويعقوب وغيرهما « وفَصْله » بفتح الفاء وسكون الصاد . وروى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق، وكان حمله وفصاله فى ثلاثين شهرا ، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهرا . وفى الكلام إضمار؛

---

(١) يراجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ (٢) آية ٢١٦ (٣) راجع جـ ٣ ص ١٦٠ وما بعدها .
(٤) آية ١٨٩ سورة الأعراف . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٦٤ وما بعدها .

أي ومدة حمله ومدة فصاله ثلاثون شهرا ؛ ولولا هـذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغير المعنى .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قال ابن عباس : ثمانى عشرة سنة. وقال فى رواية عطاء عنه : إن أبا بكر صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبيّ صلى الله عليه وسلم ابن عشرين ســنة ، وهم يريدون الشام للتجارة ، فنزلوا منزلا فيـه سدرة ، فقعد النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى ظلها ، ومضى أبو بكر الى راهب هناك فسأله عن الدّين . فقال الراهب : مَن الرجل الذى فى ظل الشـجرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبـد الله ابن عبد المطلب . فقال : هذا والله نبيّ ، وما أستظل أحد تحتها بعد عيسى . فوقع فى قلب أبى بكر اليقين والتصديق ؛ وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره وحضره . فلما نُبِّئ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو ابن أربعين ســنة ، صدّق أبو بكر رضى الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم وهو ابن ثمانية وثلاثين ســنة . فلما بلغ أربعين ســنة قال : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ » الآية . وقال الشـعبيّ وابن زيد : الأَشُدّ الحُلُم . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين . وعنه قيام الحجة عليه . وقد مضى فى « الأنعام » الكلام[1] فى الآية . وقال السدى والضحاك : نزلت فى سعد بن أبى وقاص . وقد تقدّم[2] . وقال الحسن : هى مرسلة نزلت على العموم . والله أعلم .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أى ألهمنى . ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ فى موضع نصب على المصـدر ؛ أى شكر نعمتك ﴿عَلَيَّ﴾ أى ما أنعمت به علىّ من الهـداية ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ بالتحنن والشفقة حتى ربيانى صغيرا . وقيـل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية وعلى والدىّ بالغنى والثروة . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ! أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك مَن بعده . ووالده هو أبو قحـافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم . وأمه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ و جـ ١٤ ص ٦٣

أمّ الخير ، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد . وأمّ أبيه أبي قحافة « قَيْلة » (بالياء المعجمة باثنتين من تحتها) . وامرأة أبي بكر الصدّيق اسمها « قُتيلة » (بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها) بنت عبد العُزّى . ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ قال ابن عبـاس : فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعـذَّبون في الله منهم بلال وعامر بن فُهيرة ؛ ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح منكم اليوم صائما " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن تبع منكم اليوم جنازة " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن أطعم منكم اليـوم مسكينا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن عاد منكم اليوم مريضا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة " .

السابعــة ــ قوله تعـالى : ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي اجعل ذرّيتي صالحين . قال ابن عبـاس : فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنـوا بالله وحده . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم هو وأبواه وأولاده و بناته كلهم إلا أبو بكر . وقال سهل بن عبـد الله : المعنى اجعلهم لي خَلَف صِـدق ، ولك عبيد حق . وقال أبو عثمان : اجعلهم أبرارا لي مطيعين لك . وقال ابن عطاء : وفقهم بصالح أعمال ترضى بها عنهم . وقال محمد بن علي : لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلا . وقال مالك بن مِغْوَل : اشتكى أبو معشر ابنَه إلى طَلْحة بن مُصَرِّف؛ فقال : استعن عليه بهذه الآية ؛ وتلا « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه . ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي المخلصين بالتوحيد .

قوله تعـالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما . وقرئ « يَتَقَبَّلُ ، وَيَتَجَاوَزُ » بفتح الياء ؛ والضمير فيهما يرجع لله عز وجل . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نتقبل ، ونتجاوز » بالنون فيهما ؛ أى نغفرها ونصفح عنها . والتجاوز أصله من جزت الشيء إذا لم تقف عليه . وهذه الآية تدل على أن الآية التى قبلها « ووصينا الإنسان » إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم . وهو قول الحسن . ومعنى « نتقبل عنهم » أى نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات . قال زيد بن أسلم — ويحكيه مرفوعا — : إنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم . وقيل : الأحسن ما يقتضى الثواب من الطاعات ، وليس فى الحسن المباح ثواب ولا عقاب ؛ حكاه ابن عيسى . ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ « فى » بمعنى مع ، أى مع أصحاب الجنة ، تقول : أكرمك وأحسن إليك فى جميع أهل البلد ، أى مع جميعهم . ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله ؛ أى وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق . وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الصدق هو ذلك الوعد الذى وعده الله ؛ وهو كقوله تعالى : « حَقُّ الْيَقِينِ »[1] . وهذا عند الكوفيين ، فأما عند البصريين فتقديره : وعد الكلام الصدق أو الكتاب الصدق ، فحذف الموصوف . وقد مضى هذا فى غير موضع[2] . ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ فى الدنيا على ألسنة الرسل ؛ وذلك الجنة .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة .　(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى أن أبعث . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ قراءة نافع وحفص وغيرهما « أُفٍّ » مكسور منوّن . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضل عن عاصم « أُفَّ » بالفتح من غير تنوين . الباقون بالكسر غير منوّن؛ وكلها لغات، وقد مضى فى « بنى إسرائيل »(١) . وقراءة العامة « أتعدانِنِى » بنونين مخففتين . وفتح ياءه أهل المدينة ومكة . وأسكن الباقون . وقرأ أبو حَيْوَة والمغيرة وهشام « أتعدانّى » بنون واحدة مشدّدة ؛ وكذلك هى فى مصاحف أهل الشام . والعامة على ضم الألف وفتح الراء من « أن أُخرج » . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء . قال ابن عباس والسُّدّى وأبو العالية ومجاهد : نزلت فى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل . وقال قتادة والسدى أيضا : هو عبد الرحمن بن أبى بكر قبل إسلامه ، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام ويعدانه بالبعث؛ فيردّ عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه ؛ وكان هذا منه قبل إسلامه . وروى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت أن تكون نزلت فى عبد الرحمن . وقال الحسن وقتادة أيضا : هى نعت عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه . وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ » أى العذاب، ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين؛ فالصحيح أنها نزلت فى عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه . وقال محمد بن زياد : كتب معاوية إلى مروان ابن الحكم حتى يبايع الناس ليزيد؛ فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : لقد جئتم بها هِرَقْلِيَّة(٢)، أتبايعون لأبنائكم! فقال مروان: هو الذى يقول الله فيه «والذى قال لوالديه أُفٍّ لكما» الآية. فقال : والله ما هو به، ولو شئت لسمّيت، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه، فأنت فَضَضٌ(٣) من لعنة الله . قال المهدوى : ومن جعل الآية فى عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك « أولئك الذين

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٢ .

(٢) أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

(٣) كل ما انقطع من شىء أو تفرّق فهو فضض ؛ أراد أنك قطعة وطائفة منها .

حَقّ عليهم القول» يراد به من اعتقد ما تقدّم ذكره؛ فأول الآية خاص وآخرها عام . وقيل : إن عبد الرحمن لما قال « وقد خلت القرون من قبلي » قال مع ذلك : فأين عبد الله ابن جُدْعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقولون . فقوله « أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ » يرجع إلى أولئك الأقوام .

قلت : قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة « الأنعام » عند قوله « له أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إلى الْهُدَى » [1] ما يدل على نزول هذه الآية فيه ؛ إذ كان كافرا وعند إسلامه وفضله تعيّن أنه ليس المراد بقوله « أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ » . ﴿ وَهُمَا ﴾ يعني والديه . ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أي يدعوان الله له بالهداية . أو يستغيثان بالله من كفره ؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . وقيل : الاستغاثة الدعاء ؛ فلا حاجة إلى الباء . قال الفراء : أجاب الله دعاءه وغُواثه . ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ أي صدّق بالبعث . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي صدق لا خلف فيه . ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا ﴾ أي ما يقوله والداه . ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعني الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله أَحْيُوا لي مشايخ قريش ، وهم المعنيّون بقوله « وقد خلت القرون من قبلي » . فأما ابن أبي بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه في قوله « وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» على ما تقدّم . ومعنى «حَقّ عليهم القولُ» أي وجب عليهم العذاب، وهي كلمة الله : "هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي" . ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أي مع أمم . ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ تقدّمت ومضت . ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الكافرين ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي تلك الأمم الكافرة ﴿ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ لأعمالهم ؛ أي ضاع سعيهم وخسروا الجنة .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾ أى ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنّ والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سِفالا ، ودرج أهل الجنة عُلُوًّا . ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لذكر الله قبله ، وهو قوله تعالى : « إنّ وعد الله حقٌّ » واختاره أبو حاتم . الباقون بالنون ردًّا على قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ » وهو اختيار أبي عبيد . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ أى ذكّرهم يا محمد يوم يعرض . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ أى يقال لهم أذهبتم ؛ فالقول مضمر . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير « أأذهبتم » بهمزتين مخففتين ، واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو حَيْوة وهشام « آذهبتم » بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام . الباقون بهمزة واحدة من غير مدّ على الخبر ، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ ، والعرب توبّخ بالاستفهام وبغير الاستفهام ؛ وقد تقدّم . واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبى عمرو وحمزة والكسائى ، مع من وافقهم شيبة والزهرى وابن محيصن والمغيرة بن أبى شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثّاب وغيرهم ؛ فهذه عليها جِلّة الناس . وترك الاستفهام أحسن ؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك ، كما تقول : أنا ظلمتك ؟ تريد أنا لم أظلمك . وإثباته حسن أيضا ؛ يقول القائل : ذهبت فعلت كذا ، يُوَبِّخ ويقول : أذهبت فعلت ! كل ذلك جائز . ومعنى

« أذهبتم طَيِّبَاتِكُم » أى تمتعتم بالطيبات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات؛ يعنى المعاصى . ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى عذاب الخزى والفضيحة. قال مجاهد : الهون الهوان، قتادة : بلغة قريش .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فى أفعالكم بَغْيًا وظلمًا . وقيل : « أذهبتم طيباتكم » أى أفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى . قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوة؛ مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه، أى شبابه وقوته . قال الماوردىّ : ووجدت الضحاك قاله أيضا .

قلت : القول الأوّل أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاءً وصِنابا وصَلائِقَ، ولكنى استبقى حسناتى ؛ فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » وقال أبو عبيد فى حديث عمر : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة . وفى بعض الحديث : وأفلاذ. قال أبو عمرو وغيره : الصلاء (بالمدّ والكسر) : الشواء، سُمِّىَ بذلك لأنه يُصْلَى بالنار . والصِّلاء أيضا : صلاء النار؛ فإن فتحت الصاد قصرت وقلت: صَلَى النار . والصِّناب : الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب . قال أبو عمرو : ولهذا قيل للبِرْذَوْن : صِنابِىّ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك . قال : والسلائق (بالسين) هو مايسلق من البقول وغيرها . وقال غيره : هى الصلائق بالصاد؛ قال جرير :

تُكَلِّفُنِى معيشةَ آلِ زيد * ومَن لى بالصّلائق والصِّناب

والصلائق : الخبز الرقاق العريض . وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف[1] » . وأما الكراكر فكراكر الإبل، واحدتها كِرْكِرة وهى معروفة ؛ هذا قول أبى عبيد . وفى الصحاح : والكِرْكِرة رَحَى زَوْر البعير، وهى إحدى الثفنات الخمس . والكركرة أيضا الجماعة من

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩٨

الناس . وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجل من علماء اللغة . قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهي القطعة من الكَبِد . قال أعْشَى باهلة :

تَكْفِيه حُزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمَّ بها * من الشّواء ويُرْوِى شُرْبَه الغُمَرُ [1]

وقال قتادة : ذكر لنا أن عمر رضى الله عنه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما، وألينكم لباسا، ولكنى أستبقى طيباتى للآخرة . ولما قدم عمر الشام صُنع له طعام لم ير قط مثله قال : هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير ! فقال خالد ابن الوليد : لهم الجنة، فاغْرَوْرَقت عَيْنا عمرَ بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا هم فى حظهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيدا . وفى صحيح مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه دخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو فى مَشْرُبته [2] حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئا يردّ البصر إلا أُهُبًا [3] جلودا معطونة قد سطع ريحها، فقلت : يارسول الله، أنت رسول الله وخِيرته، وهذا كِسْرى وقَيْصر فى الدِّيباج والحرير ؟ قال : فاستوى جالسا وقال : "أفى شَكٍّ أنت يابن الخطاب . أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا" فقلت : استغفر لى ! فقال : "اللَّهُمَّ اغفر له" . وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدّى عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخبز والزيت، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقَديد، وأقلّ ذلك اللحم الغريض [4] . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كلّه ؛ فجىء بخبز متفلع [5] غليظ ؛ فجعل يأكل ويقول : كلوا؛ فجعلنا لا نأكل؛ فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا؛ فقال : يابن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أن لو أمرتُ بعَناق [6] سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تُخرج مَصْلِيّة [7] كأنها كذا وكذا ،

(١) الغمر (بضم الأول وفتح الثانى) : القدح الصغير .

(٢) المشربة (بفتح الميم والراء) : الموضع الذى يشرب منه الناس . (وبضم الراء وفتحها) : الغرفة .

(٣) بضم الهمزة والهاء، وبفتحهما على غير قياس؛ جمع إهاب؛ وهو الجلد . (٤) الغريض : الطرى .

(٥) فى نسخة من الأصل : «متقلع» بالقاف . والمتفلع : المتشقق . (٦) العناق : الأنثى من ولد المعز؛ والجمع أعنق وعنوق . (٧) الصلاء (بالكسر) : الشواء .

أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشن عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل[1] ! ما تنعت العيش ؛ قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركناكم فى العيش! ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ». ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى الهوان . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ تخرجون عن طاعة الله . وقال جابر : اشتهى أهلى لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما هذا يا جابر؟ فأخبرته ؛ فقال : أوكلما اشتهى أحدكم شيئا جعله فى بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم » الآية . قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها استسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله . والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبا كان أو قفارا[2] ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله ديدنا . ومعيشة النبى صلى الله عليه وسلم معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته . وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحللة ، وهو حسن ؛ فإن

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : «أجاد» .

(٢) القفار (بالفتح) : الطعام بلا أدم .

تناول الطيب الحلال مأذون فيـه ، فإذا ترك الشكر عليـه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنـذَرَ قَوْمَـهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَـدْ خَلَتِ ٱلنُّـذُرُ مِنۢ بَـيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِۦٓ أَلَّا تَعْبُـدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْـكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليـه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين . ﴿ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ أى آذكر لهؤلاء المشركين قصة عادٍ ليعتبروا بها . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود ليقتدى به ، ويهون عليـه تكذيب قومه له . والأحقاف : ديار عاد ، وهى الرمال العظام ؛ فى قول الخليـل وغيره . وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم . والأحقاف جمع حِقْف، وهو ما استطال من الرمل العظيم وآعوج ولم يبـلغ أن يكون جبلا ، والجمـع حِقاف وأحقاف [وحقوف] . وآحقوقف الرمل والهلال أى آعوج. وقيل : الحِقف جمع حِقاف. والأحقاف جمع الجمع . ويقال : حِقْفٌ أحقف . قال الأعشى :

* بات إلى أرطـاة حِقف أحْقَفَا[1] *

أى رمل مستطيل مشرف . والفعل منه آحقوقف . قال العجاج :

طـىَّ الليـالى زُلَفًا فزلفـا * سَمَاوَةَ الهلال حتى احقوقفا

أى انحنى واستدار . وقال امرؤ القيس :

كحقف النقا[2] يمشى الوليـدَان فوقه * بمـا احتسبا من لين مَسٍّ وتَسْهالِ

وفيما أريد بالأحقاف هاهنا مختلف فيه . فقال ابن زيد : هى رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبـال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ؛ وشاهـده ما ذكرناه . وقال قتادة : هى جبال،

---

(١) هذا الرجز نسبه الطبرى فى تفسـيره الى العجاج؛ ولم نعثر عليـه فى شعر الأعشى ولا فى أراجيز العجاج . والأرطاة: جمعه أرطى ، وهو شجر من شجر الرمل . (٢) النقا : الكثيب من الرمل .

مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْرُ قريب من عدن؛ يقال : شِحْرُ عُمان وشَحْرُ عمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن . وعنه أيضا : ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن ، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشِّحْر . وقال مجاهد : هى أرض من حِسْمَى تسمى بالأحقاف وحِسْمَى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها . قال النابغة :

فأصبح عاقِلًا بجبال حِسْمَى ＊ دُقاقَ التُّرْب مُحْتَزِمَ القَتامِ (١)

قاله الجوهرى . وقال ابن عباس والضحاك : الأحقاف جبل بالشام . وعن ابن عباس أيضا : وادٍ بين عُمان ومهرة . وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بواد يقال له مهرة، و إليه تنسب الإبل المَهْرِيّة (٢)؛ فيقال : إبل مَهْرِيّة ومهارى . وكانوا أهل عُمُد سيّارة فى الربيع فإذا هاج (٣) العود رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم . وقال الكلبى : أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمان الغرق ، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره . وروى الطُّفيل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : خير واديَيْن فى الناس وادٍ بمكة ووادٍ نزل به آدم بأرض الهند . وشرُّ واديَيْن فى الناس وادٍ بالأحقاف ووادٍ بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواح الكفار . وخير بئر فى الناس بئر زمزم . وشر بئر فى الناس بئر بَرَهُوت ، وهو فى ذلك الوادى الذى بحضرموت . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أى مضت الرسل . ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى من قبل هود . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى ومن بعده ، قاله الفراء . وفى قراءة ابن مسعود « من بين يديه ومن بعده » . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ هذا من قول المرسل ، فهو كلام معترض . ثم قال هود ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقيل «ألا تعبدوا إلا الله» من كلام هود ، والله أعلم .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم

(١) قال ابن برى : «أى حسمى قد أحاط به القتام كالحزام له» . (٢) فى معجم البلدان لياقوت وكتب اللغة أن الإبل المهرية تنسب الى مهرة بن حيدان أبو قبيلة . (٣) هاج البقل : إذا أخذ فى اليبس .

مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — لتزيلنا عن عبادتها بالإفك . الثانى — لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع ؛ قاله الضحاك . قال عُرْوة بن أُذَيْنة :

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ * فُوكًا ففى آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أنك نبىّ ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ بوقت مجىء العذاب . ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ لا عندى . ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ عن ربكم . ﴿ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فى سؤالكم استعجال العذاب . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ قال المبرد : الضمير فى « رأوه » يعود إلى غير مذكور ؛ وبيّنه قوله : « عَارِضًا » فالضمير يعود إلى السحاب ؛ أى فلما رأوا السحاب عارضا . و« عارضا » نصب على التكرير ؛ سُمّىَ بذلك لأنه يبدو فى عرض السماء . وقيل : نصب على الحال . وقيل : يرجع الضمير إلى قوله : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » فلما رأوه حسبوه سحابا يمطرهم ، وكان المطر قد أبطأ عنهم ، فلما رأوه « مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » استبشروا . وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال الجوهرى : والعارض السحاب يعترض فى الأفق ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أى ممطر لنا ؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة . والعرب إنما تفعل مثل هذا فى الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها . قال جرير :

يارُبَّ غابِطنا لوكان يطلبكم * لاقَى مباعدةً منكم وحِرْمانَا

ولا يجوز أن يقال : هذا رجل غلامنا . وقال أعرابى بعد الفطر : رُبَّ صائمه لن تصومه وقائمة لن تقومه ؛ فجعله نعتا للنكرة وأضافه إلى المعرفة .

قلت : قوله : « لا يجوز أن يكون صفة لعارض » خلاف قول النحويين ، والإضافة فى تقدير الانفصال، فهى إضافة لفظية لا حقيقية؛ لأنها لم تفد الأول تعريفا ؛ بل الاسم نكرة على حاله؛ فلذلك جرى نعتا على النكرة . هـذا قول النحويين فى الآية والبيت . ونعت النكرة نكرة . و « رُبَّ » لا تدخل إلا على النكرة . ﴿ بَلْ هُـوَ ﴾ أى قال هُودٌ لهم . والدليل عليه قراءة من قرأ « قال هود بل هـو » وقرئ « قل بل ما استعجلتم به هى ريح » أى قال الله قل بل هو ما استعجلتم به ؛ يعنى قولهم : «فَأْتِنَا بِمَـا تَعِدُنَا» ثم بيّن ما هو فقال : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والريح التى عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذى رأوه، وخرج هـود من بين أظهرهم ، فجعلت تحمل الفساطيط وتحمل الظَّعِينة[1] فترفعها كأنها جرادة ، ثم تضرب بها الصخور . قال ابن عباس : أوّل ما رأو العارض قاموا فمـدّوا أيديهم ، فأوّل ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشى تطير بهـم الريح ما بين السماء والأرض مثـل الريش ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهـم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما[2] ، ولهم أنين ؛ ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم فى البحر ؛ فهى التى قال الله تعـالى فيها : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أى كل شىء مرت عليه من رجال عاد وأموالها . قال ابن عباس : أى كل شىء بُعثت إليه ، والتدمير : الهلاك . وكذلك الدّمار . وقرئ « يَدْمُرُ كُلُّ شىء » من دَمَر دمارًا . يقال : دمّره تدميرا ودمارا ودمّر عليـه بمعنًى . ودَمَر يَدْمُر دُمورا دخل بغير إذن . وفى الحديث : " من سبق طَرْفُهُ استئذانه فقد دَمَر " مخفّف الميم . وتَدْمُر : بلد بالشام . ويَرْبوع تَدْمُرِىّ إذا كان صغيرا قصيرا . ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ بإذن ربها . وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لَهَوَاته[3] إنما كان يتبسّم . قالت : وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا

---

(١) الظعينة : الجمل يظعن عليه . والهودج فيه امرأة أم لا . (٢) الأيام الحسوم : الدائمة فى الشر .

(٣) جمع لهاة ، وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

عُرِف في وجهه . قالت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرِف في وجهك الكراهية ؟ فقال : "يا عائشة ، ما يُؤَمِّنُني أن يكون فيه عذاب عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هـذا عارِضٌ مُمْطِرُنا" خرجه مسلم والترمذي ، وقال فيه : حديث حسن . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نُصرت بالصَّبا[1] وأهلكت عادٌ بالدبور" . وذكر المـاوردي أن القائل « هذا عارِضٌ مُمْطِرنا» من قوم عاد : بكر بن معاوية ؛ ولمـا رأى السحاب قال : إني لأرى سحابا مرمدا ، لا تدع من عاد أحدا[2] . فذكر عمرو بن ميمون أنهـا كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم . قال ابن إسحاق : واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يُلين أعلى ثيابهم ، وتلتذ الأنفس به ؛ وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتَدْمَغُهم بالحجارة حتى هلكوا . وحكى الكلبي أن شاعرهم قال في ذلك :

فـدعا هـود عليهـم * دعوةً أضحَوْا همـودا

عصفت ريح عليهـم * تركت عادًا خمـودا

سخرت سـبع ليـال * لم تدع في الأرض عودا

وعمر هود في قومه بعدهم مائة وخمسين سنة . ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة « لا يرى إلا مساكنهم » بالياء غير مسمى الفاعل . وكذلك روى حماد بن سـلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ « ترى » بالتـاء . وقد روى ذلك عن أبي بكر عن عاصم . الباقون « تَرَى » بتاء مفتوحة . « مسـاكنَهم » بالنصب ؛ أي لا ترى يا محمد إلا مساكنهم . قال المهدَوي : ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذي هو المساكن المؤنثـة ؛ وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر . وقال أبو حاتم : لا يستقيم هـذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار ؛ كما تقول في الكلام ألا تُرى النساء إلا زينب . ولا يجوز لا ترى إلا زينب .

(١) الصبا (بالفتح) : ريح الشمال . والدبور : ريح الجنوب .

(٢) في نهاية ابن الأثير واللسان مادة (رمد) وتاريخ الطبري : «خذها رمادا رمددا ، لا تذر من عاد أحدا» والرمدد (بالكسر) : المتناهي في الاحتراق والدقة .

وقال سيبويه : معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحمزة . قال الكسائى : معناه لا يرى شىء إلا مساكنهم؛ فهو محمول على المعنى؛ كما تقول : ما قام إلا هند، والمعنى ما قام أحد إلا هند . وقال الفرّاء : لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل ، وإنما ترى مساكنهم لأنها قائمة . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ قيل : إن « إنْ » زائدة ؛ تقديره ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه . وهذا قول القتبى .

وأنشد الأخفش :

يُرجِّى المرءُ ما إنْ لا يراه * وتعرض دون أدناه الخطوب

وقال آخر :

فما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولكن * منايانا ودَوْلةُ آخرينا[1]

وقيل : إن « ما » بمعنى الذى . و « إن » بمعنى ما ؛ والتقدير ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّد . وقيل : شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير ولقد مكناهم فى ما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشدّ ؛ وتمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ يعنى قلوبا يفقهون بها . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من عذاب الله . ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ ﴾ يكفرون . ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أحاط بهم . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

(١) البيت لفروة بن مسيك المرادى؛ والطب : الشأن والعادة والشهوة والإرادة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ﴾ يريد حِجْر ثمود وقُرَى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم . ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ يعنى الحجج والدلالات وأنواع البيّنات والعظات ؛ أى بيّناها لأهل تلك القرى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلم يرجعوا . وقيل : أى صرفنا آيات القرآن فى الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

قوله تعالى : فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمْ ﴾ «لولا» بمعنى هلّا ؛ أى هلّا نصرهم آلهتهم التى تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»[1] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم . قال الكسائىّ : القُرْبان كلُّ ما يُتقرب به إلى الله تعالى من طاعة ونَسيكة ؛ والجمع قرابين ، كالرهبان والرهابين . وأحد مفعولى اتخذ الراجع[2] إلى الذين المحذوف ، والثانى « آلهة » . و « قُرْبانا » حال ، ولا يصح أن يكون « قربانا » مفعولا ثانيا . و « آلهة » بدل منه لفساد المعنى ؛ قاله الزمخشرىّ . وقرئ «قُرُبانا» بضم الراء . ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أى هلكوا عنهم . وقيل : « بل ضلوا عنهم » أى ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم ؛ إذ هى جماد . وقيل : ضلوا عنهم ؛ أى تركوا الأصنام وتبرءوا منها . ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أى والآلهة التى ضلّت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زُلْفَى . وقراءة العامة « إِفْكُهُمْ » بكسر الهمزة وسكون الفاء ؛ أى كذبهم . والإفك : الكذب ، وكذلك الأفيكة ، والجمع الأفائك . ورجل أفاك أى كذاب . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير «وذلك أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة

---

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) الضمير الراجع .

والفاء والكاف، على الفعل؛ أي ذلك القول صرفهم عن التوحيد . والأَفْكُ (بالفتح) مصدر قولك : أَفَكَه يأْفِكه أَفْكًا ؛ أي قلبه وصرفه عن الشيء . وقرأ عكرمة « أَفّكهم » بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير. قال أبو حاتم : يعني قلبهم عما كانوا عليه من النعيم . وذكر المهدوي عن ابن عباس أيضا « آفكهم » بالمد وكسر الفاء ؛ بمعنى صارفهم . وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه « آفكهم » بالمد؛ فجاز أن يكون أفعلهم ، أي أصارهم إلى الإفك . وجاز أن يكون فاعلهم كخادعهم . ودليل قراءة العامة « إفكهم » قوله ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي يكذبون. وقيل «إفْكُهم» مثل «أَفَكُهم» . الإفك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر؛ قاله المهدوي.

قوله تعالى : وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ﴾ هذا توبيخ لمشركي قريش ؛ أي إن الجنّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنتم معرضون مصُِرّون على الكفر . ومعنى « صَرَفنا » وجهنا إليك وبعثنا . وذلك أنهم صُرفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب — على ما يأتي — ولم يكونوا بعد عيسى قد صُرفوا عنه إلا عند مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم : لما مات أبو طالب خرج النبي صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثَقيف النُّصْرة فقصد عبْد ياليل ومسعودا وحبيبا وهم إخوة — بنو عمرو بن عمير — وعندهم امرأة من قريش من بني جُمَح؛ فدعاهم إلى الإيمان وسألهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم : هو يَمْرُط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : ما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك كلمة أبدا ؛ إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام ، وإن كنت تكذب فما ينبغي لي أن أكلمك . ثم أغروْا به سفهاءهم

---

(١) يمرط : ينزع .

وعبيدهم يسبّونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعُتْبة وشَيْبة ابني ربيعة . فقال لِجُمَحِيّة : "ماذا لقينا من أحمائك" ؟ ثم قال : " اللّهُمّ إنى أشكو إليك ضَعْف قوّتى وقِلّة حِيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّى ؛ لِمن تَكِلُنى ! إلى عبد[1] يَتَجَهّمنى[2] ، أو إلى عدوّ ملّكته أمرى ! إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بى غضبك ، أو يحلّ على سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوّة إلا بك" . فرحمه ٱبنا ربيعة وقالا لغلام لهما نصرانىّ يقال له عدّاس : خذ قِطْفًا من العنب وضعه فى هذا الطبق ثم ضعه بين يدى هذا الرجل ؛ فلما وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النبى صلى الله عليه وسلم " بٱسم الله " ثم أكل ؛ فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " من أىّ البلاد أنت يا عدّاس وما دينك " ؟ قال : أنا نصرانى من أهل نِينَوَى . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتّى " ؟ فقال : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال : " ذاك أخى كان نبيًا وأنا نبىّ " فٱنكبّ عدّاس حتى قبّل رأس النبى صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه . فقال له ابنا ربيعة : لم فعلت هكذا ! ؟ فقال : يا سيّدىّ ما فى الأرض خير من هذا ، أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبىّ . ثم ٱنصرف النبىّ صلى الله عليه وسلم حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان ببطن نَخْلة قام من الليل يصلى فمرّ به نفر من جنّ أهل نَصِيبِين . وكان سبب ذلك أن الجنّ كانوا يسترقون السمع ، فلما حُرِست السماء ورُمُوا بالشهب قال إبليس : إن هذا الذى حدث فى السماء لشىء حدث فى الأرض ؛ فبعث سراياه ليعرف الخبر ، أوّلهم رَكْب نَصِيبين وهم أشراف الجنّ إلى تِهامة ، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبىّ صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فٱستمعوا له وقالوا : أنصتوا . وقالت طائفة : بل أمِر النبى صلى الله عليه وسلم أن ينذر

---

(١) فى سيرة ابن هشام : «بعيد» . (٢) أى يلقانى بالغلظة والوجه الكريه

الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ؛ فصرف الله عز وجل إليه نفرا من الجنّ من نينوى وجمعهم له ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني أريد أن أقرأ القرآن على الجنّ الليلة فأيكم يتبعني " ؟ فأطرقوا ، ثم قال الثانية فأطرقوا ، ثم قال الثالثة فأطرقوا ؛ فقال ابن مسعود : أنا يا رسول الله ؛ قال ابن مسعود : ولم يحضر معه أحد غيري ؛ فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم شِعْبًا يقال له « شِعْب الحَجُون » وخطّ لي خطا وأمرني أن أجلس فيه وقال : "لا تخرج منه حتى أعود إليك" . ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن ، فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وتمشي في رفرفها ، وسمعت لَغَطًا وغَمْغَمَةً حتى خِفْت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وغَشِيته أسْوِدة[1] كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم طَفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ، ففرغ النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الفجر فقال : " أنِمت " ؟ قلت : لا والله ، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا ؛ فقال : "لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم" ثم قال : " هل رأيت شيئا " ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، رأيت رجالًا سُودًا مُسْتَثْفِري[2] ثيابًا بيضًا ؛ فقال : " أولئك جِنّ نَصِيبين سألوني المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل[3] ورَوْثة وبعرة " . فقالوا : يا رسول الله يَقْذَرها الناس علينا . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث . قلت : يا نبيّ الله ، وما يغني ذلك عنهم ! قال : "إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل ، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبّها يوم أُكِل" فقلت : يا رسول الله ، لقد سمعت لغطا شديدا ؟ فقال : " إن الجنّ تدارأت[4] في قتيل بينهم فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحق". ثم تبرز النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم أتاني فقال : "هل معك ماء" ، فقلت يا نبيّ الله ، معي إداوة[5] فيها شيء من نبيذ التمر فصببت على يديه فتوضأ فقال : " تمرة طيّبة وماء طهور " . روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضا عن ابن مسعود . وليس

(١) أسودة (جمع السوّاد) والسواد والأسودات والأساود : جماعة الناس . وقيل هم الضروب المتفرقون .
(٢) الاستثفار : أن يدخل الانسان إزاره بين فخذيه ملويا ثم يخرجه . (٣) العظم الحائل : المتغير ؛ قد غيره البلى . (٤) تدارأ : اختلف . (٥) الإداوة : إناء صغير من جلد .

في حديث معمر ذكر نبيذ التمر . وروى عن أبي عثمان النَّهْدِيّ أن ابن مسعود أبصر زُطًّا[1] فقال: ما هؤلاء؟ قال : هؤلاء الزُّطّ . قال: ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنّ فكانوا مستفزين يتبع بعضهم بعضا . وذكر الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن لَهِيعة حدّثني قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس عن ابن مسعود أنه وضأ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ بنبيذ فتوضأ به وقال: "شراب وطهور" . ابنُ لَهِيعة لا يحتج به . وبهذا السند عن ابن مسعود أنه خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمعك ماء يابن مسعود" ؟ فقال : معي نبيذ في إداوة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صُبَّ عليّ منه" . فتوضأ وقال : "هو شراب وطهور" تفرّد به ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث . قال الدارقطني : وقيل إن ابن مسعود لم يشهد مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ . كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال : ما شهدت ليلة الجنّ . حدّثنا أبو محمد بن صاعد حدّثنا أبو الأشعث حدّثنا بشر بن المفضل حدّثنا داود بن أبي هند عن عامر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعي الجنّ؟ قال لا . قال الدارقطني: هذا إسناد صحيح لا يختلفُ في عدالة راويه . وعن عمرو بن مُرّة قال قلت لأبي عبيدة: حضر عبدالله بن مسعود ليلة الجنّ؟ فقال لا . قال ابن عباس : كان الجنّ سبعة نفر من جنّ نَصِيبين فجعلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم رسلا إلى قومهم . وقال زِرّ بن حُبيش : كانوا تسعةً أحدهم زَوْبعة . وقال قتادة : إنهم من أهل نِينَوى . وقال مجاهد : من أهل حران . وقال عكرمة : من جزيرة الموصل . وقيل : إنهم كانوا سبعة، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين . وروى ابن أبي الدنيا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في هذا الحديث وذكر فيه نصيبين فقال: "رفعت إليّ حتى رأيتها فدعوت الله أن يكثر مطرها وينضر شجرها وأن يُغْزِر نهرها" . وقال السهيلي : ويقال كانوا سبعة ، وكانوا يهودا فأسلموا، ولذلك قالوا « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وقيل في أسمائهم : شاصر[2] وماصر ومنشى

(١) الزط : جيل أسود من السند . وقيل : إعراب « جَتْ » بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند .

(٢) في كتب اللغة : « شصار » ككتّاب .

وماشي والأحقب ؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابن دُرَيد . ومنهم عمرو بن جابر ؛ ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السَّبِيعى عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان فى نفر من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حَيّة قتيل ، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقّه وكفن الحية ببعضه ودفنها؛ فلما جنّ الليل إذا امرأتان تسألان : أيكم دفن عمرو بن جابر؟ فقلنا : ما ندرى من عمرو بن جابر! فقالتا : إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه ، إن فَسَقة الجنّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو ، وهو الحيّة التى رأيتم ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم وَلّوْا إلى قومهم منذرين . وذكر ابن سلام رواية أخرى : أن الذى كفّنه هو صفوان بن المُعَطَّل .

قلت : وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال : وقال ثابت بن قطبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا : إنا كنا فى سفر فرأينا حية متشحّطة فى دمائها، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا : أيكم دفن عَمْرًا ؟ قلنا : وما عمرو! قالوا الحية التى دفنتم فى مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآن من النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان بين حَيَّيْن من الجنّ مسلمين وكافرين قتال فقتل . ففى هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن فى سفر ولا حضر الدفن؛ والله أعلم . وذكر ابن أبى الدنيا عن رجل من التابعين سمّاه : أن حية دخلت عليه فى خِبائه تَلْهَث عطشا فسقاها ثم أنها ماتت فدفنها، فأتِى من الليل فسلّم عليه وشكر ، وأخبر أن تلك الحية كانت رجلا من جنّ نَصِيبِين اسمه زوبعة . قال السُّهَيْلِيّ : وبلغنا فى فضائل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه مما حدّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلى أن عمر بن عبد العزيز كان يمشى بأرض فلاة، فإذا حية ميّتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها ؛ فإذا قائل يقول : ياسرق، أشهد لسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستموت بأرض فلاة فيكفنك رجل صالح " . فقال : ومن أنت يرحمك الله ! فقال : رجل من الجنّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق منهم إلا أنا وسرق، وهذا سرق قد مات . وقد قتلت

عائشة رضى الله عنها حية رأتها فى حجرتها تستمع وعائشة تقرأ ؛ فأتيت فى المنام فقيل لها : إنك قتلت رجلا مؤمنا من الجنّ الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : لو كان مؤمنا ما دخل على حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل لها : ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة ، وما جاء إلا ليستمع الذكر . فأصبحت عائشة فزعة ، وآشترت رقابا فأعتقتهم . قال السهيلى : وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنّ ما حضرنا ؛ فإن كانوا سبعة فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم ، وليس بآسم علم ؛ فإن الأسماء التى ذكرناها آنفا ثمانية بالأحقب . والله أعلم .

قلت : وقد ذكر الحافظ آبن عساكر فى تاريخه : هامة بن الهيم[1] بن الأقيس بن إبليس ؛ قيل : إنه من مؤمنى الجنّ وممن لقى النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلّمه سورة «إذا وقعت الواقعة» و «المرسلات» و «عمّ يتساءلون» و «إذا الشمس كُوّرت» و «الحمد» و «المعوّذتين» . وذكر أنه حضر قتل هابيل وشَرِك فى دمه وهو غلام ابن أعوام ، وأنه لقى نُوحًا وتاب على يديه ، وهودًا وصالحا ويعقوب ويوسف وإلياس وموسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام . وقد ذكر الماوردىّ أسماءهم عن مجاهد فقال : حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم . وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدّثنا محمد آبن البراء قال حدّثنا الزبير بن بكار قال : كان حمزة بن عتبة بن أبى لهب يُسَمّى جنّ نَصيبين الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : حسى ومسى وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيان[2] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أى حضروا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو من باب تلوين الخطاب . وقيل : لما حضروا القرآن واستماعه . ﴿ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض اسكتوا لآستماع القرآن . قال آبن مسعود : هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى بعض الأصول : «الأهيم» .

(٢) لم نوفق لتحقيق هذه الأسماء . والأصول والمصادر التى بين أيدينا مضطربة فيها .

وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه « قالوا أنصتوا » قالوا صه . وكانوا سبعة : أحدهم زوبعة ؛ فأنزل الله تعالى : «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا » الآية إلى قوله : « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . وقيل : « أنصتوا » لسماع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى متقارب . ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير « فَلَمَّا قَضَى » بفتح القاف والضاد؛ يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة . وذلك أنهم خرجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاءوا وادى نخلة والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فى صلاة الفجر ، وكانوا سبعة ، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين ، ولم يعلم بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : بل أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفرا من الجنّ ليستمعوا منه وينذروا قومهم ؛ فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنّ ، منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا . وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه أرسلهم . ويدل على هذا قولهم : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ » ولولا ذلك لما أنذروا قومهم . وقد تقدّم عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جعلهم رسلا إلى قومهم ؛ فعلى هذا ليلة الجنّ ليلتان ، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفى . وفى صحيح مسلم ما يدل على ذلك على ما يأتى بيانه فى « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ » . وفى صحيح مسلم عن مَعْن قال : سمعت أبى قال سألت مسروقا من آذن(١) النبيّ صلى الله عليه وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثنى أبوك — يعنى ابن مسعود — أنه آذنته بهم شجرة .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

---

(١) آذن : أعلم .

يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ أى القرآن؛ وكانوا مؤمنين بموسى . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا؛ ولذلك قالوا : «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى» . وعن ابن عباس أن الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى، فلذلك قالت : «أُنْزِل من بعدموسى» . ﴿ مُصَـدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى ما قبله من التوراة . ﴿ يَهْدِى إِلَى الْحَـقِّ ﴾ دين الحق . ﴿ وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الله القويم . ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ وهـذا يدل على أنه كان مبعوثًا إلى الجنّ والإنس . قال مُقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجنّ والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : يدل على قوله ما فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "أعطيت خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحدٌ قبـلى كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثت إلى كلّ أحمرَ وأسْوَدَ وأحِلّت لِىَ الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلى وجُعلت لِىَ الأرض طَيّبـةً طهورا ومسجدًا فأيّمـا رجلٍ أدركته الصـلاة صلّى حيث كان ونُصِرْتُ بالرُّعْب بين يَدَىْ مَسِـيرةِ شَهْرٍ وأعْطِيتُ الشفاعةَ" . قال مجاهـد : الأحمر والأسود : الجنّ والإنس . وفى رواية من حديث أبى هريرة "وبُعثت إلى الخلق كافّةً وخُتم بى النبيّون" . ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أى بالداعى ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « به » أى بالله ؛ لقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ . قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا؛ فرجعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء؛ فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم .

مســـألة ـــ هذه الآى تدلّ على أن الجنّ كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب . وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجـنّ ثواب غير نجاتهم من النـار ؛ يدلّ عليـه قوله تعـالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . وبه قال أبو حنيفة قال : ليس ثواب الجنّ إلا أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون

فى الإساءة يجازَوْن فى الإحسان مثل الإنس . وإليه ذهب مالك والشافعىّ وابن أبى ليلى . وقد قال الضحاك : الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . قال القشيرىّ : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء، والعلم عند الله .

قلت : قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »(1) يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة؛ لأنه قال فى أول الآية : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي(2) ــ إلى أن قال ــ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » . والله أعلم؛ وسيأتى لهذا فى سورة « الرحمن » مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى لا يفوت الله ولا يسبقه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله . ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الرؤية هنا بمعنى العلم . و « أنّ » واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولى الرؤية . ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ احتجاج على منكرى البعث . ومعنى « لَمْ يَعْيَ » يعجز ويضعف عن إبداعهن . يقال : عَىّ بأمره وعَيِيَ إذا لم يهتد لوجهه ؛ والإدغام أكثر . وتقول فى الجمع عَيُوا ، مخففا ، وعَيّوا أيضا بالتشديد . قال :

(1) آية ١٣٢ سورة الأنعام . (2) آية ١٣٠ سورة الأنعام .

عَيُّــوا بِأَمرِهمُ كما * عَيَّتْ بِبيضتِهــا الحمــامهْ [(١)]

وعيِيت بأمرى إذا لم تهتد لوجهه . وأعيانى هو . وقرأ الحسن « ولم يَعِى » بكسر العين وإسكان اليــاء ؛ وهو قليل شاذ ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا فى أسماء قليلة ؛ نحو غلية وآية . ولم يأت فى الفعل سوى بيت أنشده الفرّاء ؛ وهو قول الشاعر :

فكأنها بين النساء سَبِيكَةٌ * تمشِي بِسُــدَّةِ بَيْتِها فتُــعِي [(٢)]

﴿ بِقَادِرٍ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء فى قوله : « وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً » ، وقوله : « تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ » [(٣)] . وقال الكسائىّ والفرّاء والزجاج : الباء فيــه خَلَف الاستفهام والجحد فى أوّل الكلام . قال الزجاج : والعرب تدخلها مع الجحد تقول : ما ظننت أن زيدا بقــائم . ولا تقول : ظننت أن زيدا بقائم . وهو لدخول « ما » ودخول « أنّ » للتوكيد . والتقــدير : أليس الله بقادر؛ كقوله تعــالى : « أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ » [(٤)] . وقرأ ابن مسعود والأعرج والجَحْدرىّ وابن أبى إسحاق ويعقوب « يَقدر » واختاره أبو حاتم ؛ لأن دخول البــاء فى خبر « أنّ » قبيح . واختار أبو عبيد قراءة العامة؛ لأنها فى قراءة عبد الله « خَلَقَ السّمواتِ والأرض قادرٌ » بغير باء . والله أعلم .

قوله تعــالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّــارِ ﴾ أى ذكّرهم يوم يعرضون فيقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ فيقول لهم المقرّر : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَــا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفركم .

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص . (٢) السدّة : الفناء .

(٣) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٤) آية ٨١ سورة يس .

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ قال ابن عباس : ذوو الحزم والصبر ؛ قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : إن أولى العزم : نوح ، وهود ، وإبراهيم . فأمر الله عز وجل نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم . وقال السدّى : هم ستة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . وقيل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ؛ وهم المذكورون على النسق فى سورة « الأعراف والشعراء » . وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدّة . وإبراهيم صبر على النار . وإسحاق صبر على الذبح . ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر . ويوسف صبر على البئر والسجن . وأيوب صبر على الضرّ . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم . وقال الشعبيّ والكلبيّ ومجاهد أيضا : هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة . وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون فى سورة « الأنعام » وهم ثمانية عشر : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهرون ، وزكرياء ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط . واختاره الحسن بن الفضل لقوله فى عقبه : « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ »[1] . وقال ابن عباس أيضا : كل الرسل كانوا أولى عزم . واختاره علىّ بن مهدى الطبرىّ ، قال : وإنما دخلت «من» للتجنيس لا للتبعيض ؛ كما تقول : اشتريت أردية من البزّ وأكسية من الخزّ . أى اصبر كما صبر الرسل . وقيل : كل الأنبياء أولو عَزْم إلا يونس بن متّى ؛ ألا ترى أن

(١) آية ٩٠ سورة الأنعام .

النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يكون مثله ؛ لخفّة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مُغاضباً لقومه ، فابتلاه الله بثلاث : سلّط عليه العمالقـة حتى أغاروا على أهله وماله ، وسلّط الذئب على ولده فأكله ، وسلط عليـه الحُوت فابتلعه ؛ قاله أبو القاسم الحكيم . وقال بعض العلماء : أولو العزم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل بالشام فعصوهم ، فأوحى الله إلى الأنبياء أنى مرسل عذابى إلى عصاة بنى إسرائيل ؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بنى إسرائيل ، وإن شئتم نجيتكم وأنزلت العـذاب ببنى إسرائيل ؛ فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى الله بنى إسرائيل ؛ فأنجى الله بنى إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب . وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض ؛ فمنهم من نُشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات ، ومنهم من حُرّق بالنار . والله أعلم . وقال الحسن : أولو العزم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى ؛ فأما إبراهيم فقيل له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين »(١) ثم ٱبتلى فى ماله وولده ووطنه ونفسه ، فوجد صادقا وافيـا فى جميع ما ابتلى به . وأما موسى فعزمه حين قال له قومه : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ »(٢) . وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبه عليها ، فأقام يبكى أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجـرة ، فقعد تحت ظلها . وأما عيسى فعزمه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال : " إنها مَعْبر فٱعبروها ولا تعمروها " . فكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اصبر ؛ أى كن صادقا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم ، واثقا بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى ، مهتمًّا بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود ، زاهدا فى الدنيا مثل زهد عيسى . ثم قيل : هى منسوخة بآية السيف . وقيل : مُحْكَمَة ؛ والأظهر أنها منسوخة ؛ لأن السورة مكية . وذكر مقاتل : أن هذه الآية نزلت على رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ؛ فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم من الرسل ، تسهيلا عليه وتثبيتًا له . والله أعلم . ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ قال مقاتل : بالدعاء

---

(١) آية ١٣١ سورة البقرة . (٢) آية ٦١ سورة الشعراء .

عليهم . وقيل : فى إحلال العذاب بهم ؛ فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة . ومفعول الاستعجال محذوف ، وهو العذاب . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال يحيى : من العذاب . النقاش : من الآخرة . ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أى فى الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى . وقال النقاش : فى قبورهم حتى بعثوا للحساب . ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ يعنى فى جنب يوم القيامة . وقيل : نسّاهم هَوْل ماعاينوا من العذاب طول لبثهم فى الدنيا . ثم قال : ﴿بَلَاغٌ﴾ أى هذا القرآن بلاغ ؛ قاله الحسن . فـ « بلاغ » رفع على إضمار مبتدأ ؛ دليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ »[1] ، وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ »[2] . والبلاغ بمعنى التبليغ . وقيل : أى إن ذلك اللبث بلاغ ؛ قاله ابن عيسى ، فيوقف على هذا على « بلاغ » وعلى « نهار » . وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على « وَلَا تَسْتَعْجِلْ » ثم ابتدأ « لهم » على معنى لهم بلاغ . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام ، ــ وهى رافعة ــ بشىء ليس منهما . ويجوز فى العربيــة : بلاغا وبلاغٍ ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغا ؛ على المصدر أو على النعت للساعة . والخفض على معنى من نهارٍ بلاغٍ . وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن . وروى عن بعض القــرّاء « بَلِّغْ » على الأمر ؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على « من نهار » ثم يبتدئ « بلغ » ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى الخارجون عن أمر الله ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقرأ ابن مُحيْصن « فهل يَهلك إلا القوم » على إسناد الفعل إلى القــوم . وقال ابن عباس : إذا عَسُر على المــرأة وَلَدُها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين فى صحيفة ثم تغسل وتسق منها ؛ وهى : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »[3] . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » صدق الله العظيم . وعن قتادة : لا يهلك إلا هالك مشرك[4] . وقيل : هذه أقوى آية فى الرجاء . والله أعلم .

---

(١) آخر سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٦ سورة الأنبياء . (٣) آخر سورة النازعات .

(٤) فى تفسير الطبرى : « تعلموا ما يهلك على الله إلا هالك ولّى الإسلام ظهره ، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله » .

سورة القتال، وهي سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنية في قول ابن عباس ؛ ذكره النحاس . وقال الماوردي : في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزنا عليه ؛ فنزل عليه « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ »(1) . وقال الثعلبي : إنها مكية ؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد ابن جبير . وهي تسع وثلاثون . وقيل ثمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ (١)

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ؛ وقاله السدي . وقال الضحاك : « عن سبيل الله » عن بيت الله بمنع قاصديه . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وجعل الدائرة عليهم؛ قاله الضحاك . وقيل : أبطل ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار . وقال ابن عباس : نزلت في المُطْعِمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث ابن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبَيّ وأُمَيّة ابنا خلف ، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل.

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)

(1) آية ١٣

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار . وقال مقاتل : إنها نزلت خاصّةً في ناس من قريش . وقيل : هما عامّتان فيمن كفر وآمن . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطلها . وقيل : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من قال إنهم الأنصار فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم . ومن قال إنهم من قريش فهي الهجرة . ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التي ترضى الله تعالى . ﴿ وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ لم يخالفوه في شيء ؛ قاله سفيان الثَّوْرِيّ . وقيل : صدّقوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم . وقيل : أي إن القرآن هو الحق من ربهم ، نسخ به ما قبله ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان . ﴿ وأَصْلَحَ بالَهُمْ ﴾ أي شأنهم ؛ عن مجاهد وغيره . وقال قتادة : حالهم . ابن عباس : أمورهم . والثلاثة متقاربة وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم ؛ ومنه قول الشاعر :

فإن تُقبِلي بالودّ أقبل بمثله * وإن تدبري أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم . « والبال » كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات . المبرد : قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب ؛ يقال : ما يخطر فلان على بالي ؛ أي على قلبي . الجوهري : والبال رخاء النفس ؛ يقال فلان رخيّ البال . والبال : الحال ؛ يقال ما بالك . وقولهم : ليس هذا من بالي ؛ أي مما أباليه . والبال : الحوت العظيم من حيتان البحر ؛ وليس بعربي . والبالة : وعاء الطِّيب ؛ فارسي معرّب ؛ وأصله بالفارسية پيلة . قال أبو ذؤيب :

كأنّ عليها بالةً لَطَمِيَّةً[1] * لها من خلال الدَّأْيَتَيْنِ أَرِيجُ

(١) اللطمية : العنبرة التي لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها . والدأى : فقر الكاهل والظهر .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ « ذلك » في موضع رفع؛ أي الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدّم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق . والباطلُ : الشركُ . والحقُّ : التوحيد والإيمان . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي كهذا البيان الذي بُيِّن يُبيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير في « أَمْثَالَهُمْ » يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا .

قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما ميّز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار . قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان . وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذمّة؛ ذكره الماوَرْدي . واختاره ابن العربي وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه؛ « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » مصدر . قال الزجاج أي فاضربوا الرقاب ضربا . وخصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقيل : نصب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولك يانفسُ صبراً . وقيل : التقدير

اقصدوا ضرب الرقاب. وقال : «فضرب الرقاب» ولم يقل فاقتلوهم؛ لأن فى العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره؛ وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعُلوه وأوْجَهُ أعضائه .

الثانيــة ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أى أكثرتم القتل. وقد مضى فى «الأنفال» عند قوله تعالى : «حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ»(١). ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أى إذا أسرتموهم . والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرا ؛ يقال : أوثقته إيثاقا ووثاقا . وأما الوِثاق (بالكسر) فهو اسم الشيء الذى يوثق به كالرِّباط ؛ قاله القشيرى . وقال الجوهرى : وأوثقه فى الوثاق أى شده، وقال تعالى : «فَشُدُّوا الوَثاق» . والوِثاق (بكسر الواو) لغة فيــه . وإنما أمر بشدّ الوثاق لئلا يُفلِتوا . ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ . ولم يذكر القتل هاهنا اكتفاء بما تقدّم من القتل فى صدر الكلام؛ و «مَنًّا» و «فِدَاءً» نصب بإضمار فعل . وقرئ «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء ؛ أى فإما أن تمنّوا عليهم مَنًّا ، وإما أن تفادوهم فِداءً . روى عن بعضهم أنه قال : كنت واقفا على رأس الحجاج حين أُتِىَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِندة فقال: ياحجاج، لاجازاك الله عن السنة والكرم خيرا! قال :ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال « فإذا لقيتُمُ الّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْـدُ وَإِمّا فِداءً » فى حق الذين كفروا ؛ فوالله! ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ ؟ وقـد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهـم * إذا أثقل الأعناقَ حِمْـلُ المغـارم

فقال الحجاج : أُفٍّ لهذه الجِيَف ! أمَا كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام ! ؟ خَلُّوا سبيل من بقى . فخُلِّىَ يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زُهاء ألفين، بقول ذلك الرجل .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها .

الثالثة — واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول — أنها منسوخة ، وهي في أهل الأوثان ، لا يجوز أن يُفادوا ولا يُمَنّ عليهم . والناسخ لها عندهم قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم »(١) وقوله : « فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم »(٢) وقوله : « وقاتلوا المشركين كافة »(٣) الآية ؛ قاله قتادة والضحاك والسدي وابن جُرَيج والعَوْفي عن ابن عباس ، وقاله كثير من الكوفيين . وقال عبد الكريم الجَوْزي : كُتب إلى أبي بكر في أسير أُسِر ، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا ؛ فقال : اقتلوه ، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا .

الثاني — أنها في الكفار جميعا ، وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر ، منهم قتادة ومجاهد قالوا : إذا أُسِر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه ، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين ؛ ولا يجوز أن يفادَى عندهم إلا بالمرأة ؛ لأنها لا تقتل . والناسخ لها « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف ؛ فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجزية . وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة ؛ خيفة أن يعودوا حَرْبًا للمسلمين . ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة « فإما مَنًّا بعدُ وإما فداء » قال نسخها « فشرد بهم من خلفهم » . وقال مجاهد : نسخها « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . وهو قول الحكم .

الثالث — أنها ناسخة ؛ قاله الضحاك وغيره . روى الثوري عن جُوَيبر عن الضحاك « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » قال نسخها « فإما مَنًّا بعدُ وإما فداءً » . وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء « فإما مَنًّا بعدُ وإما فداءً » فلا يقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى ؛ كما قال الله عز وجل . قال أشعث : كان الحسن يكره أن يقتل الأسير ، ويتلو « فإما مَنًّا بعدُ وإما فداء » . وقال الحسن أيضا : في الآية تقديم وتأخير ؛ فكأنه قال : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها . ثم قال : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » .

---

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) آية ٥٧ سورة الأنفال . (٣) آية ٣٦ سورة التوبة .

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير فى يديه أن يقتله ؛ لكنه بالخيار فى ثلاثة منازل : إما أن يَمُنّ، أو يفادى ، أو يسترق .

الرابــع ــ قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعـالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »[١] . فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بمـا رآه من قتل أو غيره .

الخامس ــ أن الآية محكمة ، والإمام مخيّر فى كل حال؛ رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء، وهو مذهب مالك والشافعي والثورى والأوزاعى وأبى عبيـد وغيرهم . وهو الاختيار ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ؛ قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم عُقْبَةَ بن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبْرًا ، وفادى سائر أسارى بدر، ومَنّ على ثُمـامة بن أُثَال الحنفى وهو أسير فى يده، وأخذ من سلمة بن الأَكْوَع جارية ففدى بها أناسا من المسلمين، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ومنّ عليهم، وقد منّ على سَبْيِ هوازن . وهذا كله ثابت فى الصحيح ، وقد مضى جميعه فى (الأنفال[٢]) وغيرها . قال النحاس : وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما ؛ وهو قول حسن ، لأن النسخ إنمـا يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمـل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسـخ ، إذا كان يجوز أن يقـع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسـترقاق والمفاداة والمنّ ؛ على ما فيـه الصلاح للمسـلمين . وهـذا القول يروى عن أهل المدينـة والشافعى وأبى عبيد ، وحكاه الطحاوى مذهبًا عن أبى حنيفة ، والمشهور عنه ما قدّمناه ، وبالله عزّ وجلّ التوفيق .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَـرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد وابن جبير : هو خروج عيسى عليه السـلام . وعن مجاهـد أيضا : أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسـلام ؛ فيُسْـلم كلّ يهوديّ ونصرانى وصاحب مِلّة ، وتأمن الشاة من الذئب . ونحـوه

(١) آية ٦٧ سورة الأنفال . (٢) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها .

عن الحسن والكلبي والفرّاء والكسائي . قال الكسائي : حتى يُسْلِم الخلق . وقال الفرّاء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقال الكلبي : حتى يظهر الإسلام على الدّين كله . وقال الحسن : حتى لا يعبدوا إلا الله . وقيل : معنى الأوزار السلاح ؛ فالمعنى شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح . وقيل : معناه حتى تضع الحرب ، أي الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . ويقال للكراع أوزار . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها ✻ رماحا طوالا وخيلا ذكورا

ومن نَسْج داود يحدى بها ✻ على أثر الحيّ عيرًا فعيرًا[1]

وقيل : « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أي أثقالها . والوِزْر الثِّقْل ؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال . وأثقالها السلاح لثقل حملها . قال ابن العربي : « قال الحسن وعطاء : في الآية تقديم وتأخير ؛ المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق ؛ وليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أمَرَنا الله ؛ وقرأ « حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » . قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس في تفسير الله للمنّ والفداء منع من غيره ؛ فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد ، وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم حكم الرجم ؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال ، وربك أعلم » .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ « ذلك » في موضع رفع على ما تقدّم ؛ أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت . وقيل : هو منصوب على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ ؛ المعنى ذلك حكم الكفار . وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام ، وهو كما قال تعالى : « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ »[2] . أي هذا حق وأنا أعرّفكم أن للظالمين كذا . ومعنى « لانتصر منهم » أي أهلكهم بغير قتال . وقال

(١) هذه رواية البيت في الأصول . وروايته في كتاب « الأعشين » :

ومن نسج داود موضونة ✻ تساق مع الحي عيرا فعيرا

والموضونة : الدرع المنسوجة . وفي شعراء النصرانية : ... على أثر العيس ...

(٢) آية ٥٥ سورة ص .

ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة . ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أى أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين ؛ كما فى السورة نفسها . ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قراءة العامة « قاتلوا » وهى اختيار أبى عبيد . وقرأ أبو عمرو وحفص « قُتِلوا » بضم القاف وكسر التاء ، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير . وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وأبو حيوة « قَتَلُوا » بفتح القاف والتاء من غير ألف ؛ يعنى الذين قتلوا المشركين . قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعْلُ هُبَلُ . ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يومٌ بيوم بَدْر والحرب سِجال . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا سواء . قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم فى النار يعذبون " . فقال المشركون : إن لنا العزّى ولا عُزّى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم . وقد تقدّم ذكر ذلك فى (آل عمران)[1] .

قوله تعالى : ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾

قال القشيرى : قراءة أبى عمرو « قُتِلوا » بعيدة ؛ لقوله تعالى : «سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ» والمقتول لا يوصف بهذا . قال غيره : يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة ، أو سيهدى من بقى منهم ؛ أى يحقق لهم الهداية . وقال ابن زياد : سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير فى القبر . قال أبو المعالى : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : « فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ » . ومنه قوله تعالى : « فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ »[2] معناه فاسلكوا بهم إليها .

قوله تعالى : ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٤ (٢) آية ٢٣ سورة الصافات .

أى إذا دخلوها يقال لهم تفرّقوا إلى منازلكم ؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم . قال معناه مجاهـد وأكثر المفسرين . وفى البخارى ما يدل على صحـة هـذا القول عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار [فيَقَصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا](1) حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة [منه](1) بمـنزله فى الدنيـا " . وقيل : « عرّفها لهـم » أى بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال . قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل : فيه حذف ؛ أى عَرَّف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم ؛ فحـذف المضاف . وقيل : هذا التعريف بدليل ، وهو المَلَك الموكّل بعمل العبد يمشى بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتى العبد منزله ، ويعرّفه المَلَك جميع ما جعل له فى الجنة . وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ يردّه . وقال ابن عباس « عرّفها لهـم » أى طيّبها لهـم بأنواع الملاذ ؛ مأخوذ من العَرْف ، وهو الرائحة الطيبة . وطعام مُعَرَّف أى مطيَّب ؛ تقول العرب : عَرّفت القدر إذا طيّبتها بالملح والأبزار . وقال الشاعر يخاطب رجلا ويمدحه .

* عَرُفْتَ كإتْب عرّفته اللّطائم(2) *

يقول : كما عَرُف الإتْب ، وهو البقير والبَقيرة ، وهو قميص لا كُمّين له تلبسه النساء . وقيـل : هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته ؛ يقال : حرير معرّف ؛ أى بعضه على بعض ، وهو من العُرْف المتتابع كعُرْف الفرس . وقيـل : « عرّفهـا لهم » أى وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة . وقيل : عرّف أهل السماء أنها لهم إظهارا لكرامتهم فيها . وقيل : عرّف المطيعين أنها لهم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

---

(1) زيادة عن صحيح البخارى . (2) اللطائم (جمع لطيمة) : قطعة مسك .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار . نظيره « وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ » (١) وقد تقدم . وقال قُطْرب : إن تنصروا نبى الله ينصركم الله ؛ والمعنى واحد . ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أى عند القتال . وقيل على الإسلام . وقيل على الصراط . وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة فى موطن الحرب . وقد مضى فى « الأنفال » (٢) هذا المعنى . وقال هناك : « إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا » (٢) فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا ؛ كقوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ » (٣) ثم نفاها بقوله : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » (٤) . « ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ » (٥) ومثله كثير ؛ فلا فاعل إلا الله وحده .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء ، والنصب بما يفسّره « فَتَعْسًا لَّهُمْ » كأنه قال : أتعس الذين كفروا . و « تعسًا لهم » نصب على المصدر بسبيل الدعاء ؛ قاله الفراء ، مثل سَقْيًا له ورَعْيًا . وهو نقيض لَعًا له (٦) . قال الأعشى :

* فالتَّعْس أَوْلَى لها من أن أقول لَعَا (٧) *

وفيه عشرة أقوال : الأوّل ــ بُعْدًا لهم ؛ قاله ابن عباس وابن جُريج . الثانى ــ حزنًا لهم ؛ قاله السدى . الثالث ــ شقاء لهم ؛ قاله ابن زيد . الرابع ــ شَتْمًا لهم من الله ؛ قاله الحسن . الخامس ــ هلاكا لهم ؛ قاله ثَعْلب . السادس ــ خَيْبةً لهم ؛ قاله الضحاك وابن زيد . السابع ــ قبحا لهم ؛ حكاه النقاش . الثامن ــ رغما لهم ؛ قاله الضحاك أيضا . التاسع ــ

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧٧ (٣) آية ١١ سورة السجدة .
(٤) آية ٤٠ سورة الروم . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) لعا : كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع . (٧) فى اللسان وكتاب الأعشين : «أدنى» بدل «أولى» . وصدره :
* بذات لوث عفرناة إذا عثرت *
واللوث (بالفتح) : القوّة . وعفرناة : قوية .

شَرًّا لهم؛ قاله ثعلب أيضا . العاشر — شِقْوة لهم؛ قاله أبو العالية . وقيل : إن التَّعْس الانحطاط والعِثار . قال ابن السِّكِّيت : التعس أن يَخِرّ على وجهه . والنَّكْس أن يَخِرّ على رأسه . قال: والتعس أيضا الهلاك . قال الجوهري : وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش . وقد تَعَس (بفتح العين) يَتْعَس تَعْسًا، وأتعسه الله . قال مُجَمِّع بن هلال :

تقول وقد أفردْتُها من خَليلها * تَعِسْتَ كما أتْعَسْتَنِي يا مُجَمِّعُ

يقال : تعسًا لفلان؛ أي ألزمه الله هلاكا . قال القُشَيْرِيّ : وجوّز قوم تَعِس (بكسر العين).

قلت : ومنه حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَعِس عَبْدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة[1] إن أُعطي رَضِيَ وإن لم يُعْطَ لم يرض" خرّجه البخاري . في بعض طرق هذا الحديث "تعس وٱنتكس وإذا شِيك فلا ٱنتقش[2]" خرّجه ابن ماجه .

قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان . ودخلت الفاء في قوله « فَتَعْسًا » لأجل الإبهام الذي في « الذين »، وجاء « وأضل أعمالهم » على الخبر حملا على لفظ الذين؛ لأنه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حَمْلًا على المعنى، وأضل حملا على اللفظ .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

أي ذلك الإضلال والإتعاس؛ لأنهم ﴿كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ من الكتب والشرائع . ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي مالهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقْبَل الله العمل إلا من مؤمن . وقيل : أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾

---

(١) القطيفة : دثار . والخميصة : كساء أسود مربع له أعلام وخطوط .

(٢) قوله « شيك » أي أصابته شوكة . و « فلا انتقش » أي فلا خرجت شوكته بالمنقاش .

بين أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان ، ثم وصل هذا بالنظر ؛ أى ألم يسر هؤلاء فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿ فَيَنظُرُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ كَيْفَ كَانَ ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . يقال : دمّره تدميرا ، ودمّر عليه بمعنى . ثم تواعد مشركى مكة فقال ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أى أمثال هذه الفعلة ؛ يعنى التدمير . وقال الزجاج والطبرى : الهاء تعود على العاقبة ؛ أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (١١)

أى وليّهم وناصرهم . وفى حرف ابن مسعود « ذلك بأن الله ولىّ الذين آمنوا » . فالمولى : الناصر هاهنا؛ قاله ابن عباس وغيره . قال :

فغدتْ كِلَا الفَرْجَيْنِ تحسب أنه * مَوْلَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[1]

قال قتادة : نزلت يوم أُحُد والنبىّ صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب، إذ صاح المشركون : يومٌ بيوم ، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " وقد تقدّم[2] . ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أى لا ينصرهم أحد من الله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (١٢)

---

(١) البيت من معلقة لبيد . و يروى : « فعدت » بالعين المهملة . أخبر أنها (أى البقرة) خائفة من كلا جانبيها من خلفها وأمامها . والفرج : الواسع من الأرض . والفرج : الثغر المخوف ، وهو موضع المخافة .

(٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ تقدّم فى غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ فى الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما فى غدهم . وقيل: المؤمن فى الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع . ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى مقام ومنزل .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ تقدّم الكلام فى « كأين » فى (آل عمران)[1] . وهى هاهنا بمعنى كم ؛ أى وكم من قرية . وأنشد الأخفش قول لبيد :

وكائن رأينا من ملوك وسُوقة * ومفتاح قَيْد للاسير المكبّل

فيكون معناه : وكم من أهل قرية. ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أى أخرجك أهلها . ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس : لما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : " اللّهمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إلىّ ولولا المشركون أهلُكِ أخرجونى لما خرجت منك " . فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبى، وهو حديث صحيح .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الألف ألف تقرير. ومعنى « على بينة » أى على ثبات ويقين ؛ قاله ابن عباس . أبو العالية : وهو محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة الوَحْى . ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أى عبادة الأصنام ، وهو أبو جهل والكفار .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى ما اشتهوا . وهذا التزيين من جهة الله خلقا . ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة . ويجوز أن يكون من الكافر؛ أى زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر . وقال « سُوء » على لفظ « مَن » « واتبعوا » على معناه .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ (١٥)

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ لما قال عزوجل : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ » وصف تلك الجنات؛ أى صفة الجنة المعدّة للمتقين . وقد مضى الكلام فى هذا فى «الرعد»[(١)] . وقرأ علىّ بن أبى طالب «مِثال الجنة التى وعد المتقون» . ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ أى غير متغيّر الرائحة . والآسن من الماء مثلُ الآجن . وقد أسَن الماء يأسُن و يأسِن [أسْنًا و] أُسُونا إذا تغيرت رائحته . وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أجْنًا وأُجُونًا . ويقال بالكسر فيهما : أجِن وأسِن يأسَن و يأجَن أسَنًا وأجَنًا ؛ قاله اليزيدى . وأسِن الرجل أيضا يأسَن (بالكسر لا غير)[(٢)] إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغُشِى عليه أو دار رأسُه . قال زُهير :

قد أترك القِرن مُصفَرًّا أناملُه * يَمِيد فى الرُّمح مَيد المائح الأَسِن[(٣)]

و يروى « الوسن » . وتأسّن الماء تغيّر . أبو زيد : تأسّن علىّ تأسُّنا اعتلّ وأبطأ . أبو عمرو : تأسّن الرجل أباه أخذ أخلاقه . وقال اللّحيانى : إذا نزع إليه فى الشبه . وقراءة العامة « آسن » بالمدّ . وقرأ ابن كثير وحُميد « أسن » بالقصر ، وهما لغتان ؛ مثل حاذر وحذر . وقال الأخفش : أسن للحال ، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ (٢) أى فى الماضى . (٣) وفيه رواية أخرى : «يغادر القرن »

لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أى لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة .﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها[1] الأيدى كخمر الدنيا ؛ فهى لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون . يقال : شراب لَذّ ولذيذ بمعنًى . واستلذّه عدّه لذيذا . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النحل . « مُصَفًّى » أى من الشمع والقذى ، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل. وفى الترمذى عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعدُ " . قال : حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة " . وقال كعب : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ، ونهر الفرات نهر لبنهم ، ونهر مصر نهر خمرهم ، ونهر سَيْحان نهر عسلهم . وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر . والعسل : يذكر ويؤنث . وقال ابن عباس : «من عَسَلٍ مُصَفًّى» أى لم يخرج من بطون النحل . ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ « مِن » زائدة للتأكيد . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أى لذنوبهم . ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ قال الفرّاء : المعنى أفمن يخلد فى هذا النعيم كمن يخلد فى النار . وقال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زُيّن له سوء عمله وهو خالد فى النار . فقوله « كمن » بدل من قوله « أفمن زين له سوء عمله » . وقال ابن كيسان : مثل هذه الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم . ومثل أهل الجنة فى النعيم المقيم كمثل أهل النار فى العذاب المقيم . ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ أى حارا شديد الغليان ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم ؛ فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم . والأمعاء : جمع مِعًى ، والتثنية مِعيان ، وهو جميع ما فى البطن من الحوايا .

---

(١) رنق الماء : كدره .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أى من هؤلاء الذين يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام،وزُين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون : عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلُول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت[(1)] والحارث بن عمرو ومالك بن دُخْشم ، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه ؛ قاله الكلبى ومقاتل . وقيل : كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين؛ فيستمعون منه ما يقول ، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر . ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أى إذا فارقوا مجلسكَ . ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال عكرمة : هو عبد الله بن العباس . قال ابن عباس : كنت ممن يُسأل ، أى كنت من الذين أوتوا العلم . وفى رواية عن ابن عباس : أنه يريد عبد الله بن مسعود . وكذا قال عبد الله بن بريدة : هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن : هو أبو الدرداء . وقال ابن زيد : إنهم الصحابة . ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أى الآن ؛ على جهة الاستهزاء . أى أنا لم ألتفت إلى قوله . و « آنفا » يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات إليك ؛ من قولك : استأنفت الشىء إذا ابتدأت به . ومنه أَمْرٌ أُنُف، ورَوْضة أُنُف؛ أى لم يرعها أحد . وكأس أنف : إذا لم يُشرب منها شىء ؛ كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . قال الشاعر[(2)] :

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنفَ القِصاع

(1) كذا فى الأصول . وفى سيرة ابن هشام وابن الأثير طبع أوربا : « اللُّصيت » بالتاء المثناة من فوق . فى تاريخ الطبرى (طبع أوربا قسم أول ص ١٦٩٩) : « اللصيب » بالباء الموحدة . (2) هو الحطيئة .

وقال آخر[1] :

إن الشِّـواء والنَّشِيل والرُّغُـفْ * والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

* للطاعنين الخيل والخيلُ قُطُفْ[2]

وقال امرؤ القيس :

* قـد غَدَا يحملنى فى أنفـه[3] *

أى فى أوّله . وأَنْفُ كلّ شىء أوّله . وقال قتادة فى هؤلاء المنافقين : الناس رجلان : رجل عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع . وكان يقال : الناس ثلاثة : فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع غافل تارك .

قوله تعـالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ فلم يؤمنوا . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى الكفر . ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ أى للإيمان زادهم الله هدى . وقيل : زادهم النبيّ صلى الله عليه وسلم هدى . وقيل : ما يستمعونه من القرآن هـدى ؛ أى يتضاعف يقينهم . وقال الفرّاء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى . وفى الهـدى الذى زادهم أربعـة أقاويل : أحدها — زادهم علما ؛ قاله الربيع بن أنس . الثانى — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بمـا علموا ؛ قاله الضحاك . الثالث — زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقا لنبيهم ؛ قاله الكلبيّ . الرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أى ألهمهم إياها . وقيل : فيه خمسة أوجه : أحدها — آتاهم الخشية ؛ قاله الربيع . الثانى — ثواب تقواهم فى الآخرة ؛ قاله السدّىّ . الثالث — وفقهم للعمل الذى فرض عليهم ؛ قاله مقاتل . الرابع — بيّن لهم ما يتقون ؛ قاله ابن زياد والسدّىّ أيضا . الخامس — أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ ؛ قاله عطية . المـاوردىّ : ويحتمل . سادسا —

---

(١) هو لقيط بن زرارة . والنشيل : ما طبخ من اللحم بغير تابل . والرغف جمع رغيف . ويقال : أرغفة ورغفان .

(٢) فى الأصول : « حنف » والتصويب عن اللسان مادة « قطف » . وقد ورد هذا الشطر فى اللسان مادة « نشل » : « للضاربين الهام والخيل قطف » . وقطفت الدابة : أساءت السير وأبطأت .

(٣) تمامه : * لاحق الأيطل محبوك ممر *

أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم . وقرئ « وأعطاهم » بدل « وآتاهم » . وقال عكرمة : هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة . وهذا وعيد للكفار . ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي أماراتها وعلاماتها . وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها ؛ قاله الضحاك والحسن . وفي الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وضم السبابة والوسطى ؛ لفظ مسلم . وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه . ويروى " بعثتُ والساعة كفَرَسَيْ رِهان " . وقيل : أشراط الساعة أسبابُها التي هي دون معظمها . ومنه يقال للدُّون من الناس : الشَّرَط . وقيل: يعني علامات الساعة انشقاق القمر والدخان ؛ قاله الحسن أيضا . وعن الكلبي : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام . وقد أتينا على هذا الباب في كتاب « التذكرة » مستوفًّى والحمد لله . وواحد الأشراط شَرَط ؛ وأصله الأعلام . ومنه قيل الشُّرَط ؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يُعرفون بها . ومنه الشَّرْط في البيع وغيره . قال أبو الأسود :

فإن كنتِ قد أزْمَعْتِ بالصُّرْم بيننا * فقد جعلت أشراط أوّله تبدو

ويقال : أشرط فلان نفسه في عمل كذا أي أعلمها وجعلها له . قال أوْس بن حَجَر يصف رجلا تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة[1] يقطعها ليتّخذ منها قوْسًا :

فأشْرَط نفسَه فيها وهو مُعْصِمٌ * وألْقَى بأسبابٍ له وتَوَكّلا

---

(١) النبعة (واحدة النبع) : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القِسِيّ .

﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ «أن» بدل اشتمال من «الساعة»؛ نحو قوله : « أَنْ تَطَئُوهُمْ » من قوله : «رِجالٌ مؤمنون ونِساءٌ مؤمناتٌ»[1] ؛ وقرئ « بَغَتَّة » بوزن جَرَبَّة[2] ، وهى غريبة لم ترد فى المصادر أختها؛ وهى مَرْوِية عن أبى عمرو . الزمخشرىّ: وما أخوفنى أن تكون غلطة من الراوى عن أبى عمرو ، وأن يكون الصواب « بَغَتة » بفتح الغين من غير تشديد؛ كقراءة الحسن . وروى أبو جعفر الرؤاسى وغيره من أهل مكة «إنْ تأتِهم بغتة» . قال المهدوىّ: ومن قرأ «إن تأتِهم بغتة» كان الوقف على «الساعة» ثم استأنف الشرط . وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق ؛ كأنه قال : إن شكُّوا فى مجيئها «فقد جاء أشراطها» .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ «ذِكراهم» ابتداء و«أنَّى لهُم» الخبر. والضمير المرفوع فى « جاءتهم » للساعة؛ التقدير : فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؛ قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجىء الساعة ؛ قاله ابن زيد . وفى الذكرى وجهان : أحدهما — تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر . الثانى — هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا ؛ روى أبان عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك " ذكره الماوَرْدِىّ .

قوله تعالى : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قال الماوردىّ : وفيه — وإن كان الرسول عالما بالله — ثلاثة أوجه : يعنى اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . الثانى — ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا . الثالث — يعنى فاذكر أن لا إله إلا الله؛ فعبّر عن الذكر بالعلم

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) الجربة (بالفتح والتشديد) : القطيع من حُمُر الوحش . وقد يقال للأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين : جربة

لحدوثه عنه . وعن سفيان بن عُيَيْنة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفرْ لذنبك » فأمر بالعمل بعد العلم وقال : « اعلموا أنما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ — إلى قوله — سابِقُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ »[1] وقال : « واعْلَموا أنّما أمْوالُكُمْ وأوْلادُكُمْ فِتْنةٌ »[2] . ثم قال بعدُ : « فاحْذَرُوهُمْ »[3] . وقال تعالى : « واعْلَمُوا أنّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فأنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ »[4] . ثم أمر بالعمل بعدُ .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — يعنى استغفر الله أن يقع منك ذنب . الثانى — استغفر الله ليعصمك من الذنوب . وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان ؛ أى اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار . وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة ؛ وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين ؛ فنزلت الآية . أى فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله ، فلا تعلق قلبك بأحد سواه . وقيل : أمر بالاستغفار لتقتدى به الأمة . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى ولذنوبهم . وهذا أمر بالشفاعة . وروى مسلم عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرْجِس المخزومىّ قال : أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ! فقال له صاحبى : هل استغفر لك النبىّ صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم ، ولك . ثم تلا هذه الآية « واستغفرْ لِذنبِك ولِلمؤمنين والمؤمنات » ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، جُمْعًا[5] [عليه][6] خِيلان كأنه الثآليل .

﴿ وَاللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها — يعلم أعمالكم فى تصرفكم وإقامتكم . الثانى — « متقلبكم » فى أعمالكم نهارا « ومثواكم » فى ليلكم نياما . وقيل

(١) آية ٢٠ سورة الحديد . (٢) آية ٢٨ سورة الأنفال . (٣) فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » آية ١٤ سورة التغابن . (٤) آية ٤١ سورة الأنفال .
(٥) يريد مثل جُمع الكف ، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها . (٦) زيادة عن صحيح مسلم . والخيلان : جمع خال ، وهو الشامة فى الجسد . والثآليل : جمع ثؤلول ، وهى حبيبات تعلو الجسد .

« متقلبكم » فى الدنيا . « ومثواكم » فى الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال عكرمة : « متقلبكم » فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات . « ومثواكم » مقامكم فى الأرض . وقال ابن كيسان : « متقلبكم » من ظهر إلى بطن إلى الدنيا . « ومثواكم » فى القبور .

قلت : والعموم يأتى على هذا كله ، فلا يخفى عليه سبحانه شىء من حركات بنى آدم وسكناتهم ، وكذا وجميع خلقه . فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أُولَى وأُخْرَى . سبحانه! لا إله إلا هو .

قوله تعالى : وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى المؤمنون المخلصون . ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اشتياقا للوحى وحرصا على الجهاد وثوابه . ومعنى «لولا» هلا . ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ لا نسخ فيها . قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشد القرآن على المنافقين . وفى قراءة عبد الله « فإذا أنزلت سورة مُحْدَثَة » أى محدثة النزول . ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أى فرض فيها الجهاد . وقرئ « فإذا أنزلت سورة وذكر فيها القتالَ » على البناء للفاعل ونصب القتال . ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق . ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق ؛ كمن يَشْخَص بصره عند الموت ؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعا وهلعا، ولميلهم فى السر إلى الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ « فأولى لهم » قال الجوهرىّ : وقولهم : أَوْلَى لك، تَهَدُّد ووعيد . قال الشاعر :

فأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهل للدَّرِّ يُحْلَب من مَرَدِّ

قال الأصمعى : معناه قارَبَه مايُهْلكه ؛ أى نزل به . وأنشد :

فعادَى بين هادِيَتَيْنِ منها * وأوْلَى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل أحد فى « أوْلى » أحسن مما قال الأصمعى .

وقال المبرد : يقال لمن هَـمّ بالعَطَب ثم أفلَت : أوْلى لك ؛ أى قاربت العطب . كما روى أن أعرابيـا كان يوالى رَمْىَ الصيد فيُفْلِت منه فيقول : أوْلى لك . ثم رمى صـيدا فقاربه ثم أفلت منه فقال :

فلوكان أوْلَى يُطعِـم القومَ صِدْتُهم * ولكنّ أوْلَى يَتْرُكُ القـومَ جُوَّعَا

وقيـل : هو كقول الرجل لصاحبه : يا محروم ، أىّ شىء فاتك ! وقال الجُرْجَانِىّ : هو مأخوذ من الويل ؛ فهو أفعل، ولكن فيه قلب ؛ وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام . وقد تم الكلام على قوله : « فأوْلى لهم » . قال قتادة : كأنه قال العقاب أوْلَى لهم . وقيل : أى وَلِيَهـم المكروه . ثم قال : « طاعة وقول معروف » أى طاعة وقـول معروف أمثـل وأحسن ؛ وهو مذهب سيبويه والخليل . وقيل : إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف ؛ فحذف المبتدأ فيوقف على « فأوْلَى لهم » . وكذا من قدّر يقولون منا طاعة . وقيـل : إن الآية الثانيـة متصلة بالأولى . واللام فى قوله « لهم » بمعنى البـاء ؛ أى الطاعة أولى وأليق بهم ، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله . وهى قراءة أُبَىّ « يقولون طاعة » . وقيل : إن « طاعة » نعت لـ « سورة » ؛ على تقدير : فإذا أنزلت سورة ذات طاعة ، فلا يوقف على هذا على « فأوْلى لهم » . وقال ابن عباس : إن قولهم « طاعة » إخبار من الله عز وجل عن المنافقين . والمعنى لهم طاعة وقول معروف قبل وجوب الفرائض عليهم ، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها . فيوقف على هذا على « فأوْلَى » .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى جدّ القتال ، أو وجب فرض القتال ، كرهوه . فكرهوه جواب « إذا » وهو محذوف . وقيل : المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر . ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى الإيمان والجهاد . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ اختلف في معنى « إنْ تَوَلَّيْتُمْ » فقيل : هو من الولاية . قال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاما أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرِّشا . وقال الكلبيّ : أي فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم . وقال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام . وقال كعب : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضا . وقيل : من الإعراض عن الشيء . قال قتادة : أي فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام ، وتقطّعوا أرحامكم . وقيل : « فهل عسيتم » أي فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم . وقرئ بفتح السين وكسرها . وقد مضى في « البقرة » القول فيه مستوفًى[1] . وقال بكر المزني : إنها نزلت في الحَرُورِيّة والخوارج ؛ وفيه بُعْدٌ . والأظهر أنه إنما عني بها المنافقون . وقال ابن حيان : قريش . ونحوه قال المسيب بن شريك والفراء ، قالا : نزلت في بني أمية و بني هاشم ؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مغفل قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض » — ثم قال — هم هذا الحيّ من قريش أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم " . وقرأ عليّ بن أبي طالب « إن تُوُلِّيتم أن تفسدوا في الأرض » بضم التاء والواو وكسر اللام . وهي قراءة ابن أبي إسحاق ، ورواها رُوَيْس عن

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٤

يعقوب . يقول : إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم فى الفتنة وحاربتموهم . ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ بالبغى والظلم والقتل . وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم « وتَقْطعوا » بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتبارا بقوله تعالى « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ »[1] . وروى هذه القراءة هارون عن أبى عمرو . وقرأ الحسن « وتَقَطَّعوا » مفتوحة الحروف مشدّدة؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ »[2] . الباقون « وتُقَطِّعوا » بضم التاء مشددة الطاء، من التقطيع على التكثير؛ وهو اختيار أبى عبيد . وتقدّم ذكر «عسيتم» فى (البقرة)[3] . وقال الزجاج فى قراءة نافع : لو جاز هذا لجاز «عَسِى» بالكسر . قال الجوهرى : ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك، وعَسِيت بالكسر . وقرئ «فهل عَسِيتم» بالكسر .

قلت : ويدل قوله هذا على أنهما لغتان . وقد مضى القول فيه فى « البقرة » مستوفًى[3] .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته . ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحق . ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أى قلوبهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأن مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه؛ فجعله كالبهيمة التى لا تعقل . وقال : « فهل عسيتم » ثم قال : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » فرجع من الخطاب إلى الغَيْبة على عادة العرب فى ذلك .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام . ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أى بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون . وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبهم . وفى حديث مرفوع أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها" . وأصل القَفْل اليُبْس والصلابة . ويقال لما يبس من الشجر : القَفْل . والقفيل مثله . والقفيل أيضا نبت . والقفِيل : الصوت . قال الراجز :

لما أتاك يابسا قِرْشَبّا * قمت إليه بالقفيل ضربا

* كيف قَرَيْتَ شَيْخَكَ الأَزَبّا[4] *

---

(١) آية ٢٧ سورة البقرة . (٢) آية ٩٣ سورة الأنبياء . (٣) جـ ٣ ص ٢٤٤

(٤) الأزب (بالفتح والتشديد) : الكثير الشعر.

القِرْشَبّ (بكسر القاف): المسِنّ؛ عن الأصمعي. وأقفله الصوم أي أيبسه؛ قاله القشيري والجوهري. فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوه عن الإيمان. أي لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: «على قلوبٍ» لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة. والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها.

الثالثة — في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت هذا مَقام العائذ من القطيعة قال نعم أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وَصلكِ وأقطع مَن قطعكِ قالت بلى قال فذاكِ لكِ — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — اقرءوا إن شئتم «فهل عَسَيتم إن تَوَلّيتم أن تُفسِدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعْمَى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها»". وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلكم، أو يُخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض لسفك الدماء. قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تَوَلّوْا عن كتاب الله تعالى! ألم يسفكوا الدماء الحرام ويقطعوا الأرحام وعصوا الرّحمن. فالرحم على هذا رَحِم دين الإسلام والإيمان، التي قد سماها الله إخوة بقوله تعالى: «إنما المؤمنون إخوةٌ»[1]. وعلى قول الفراء أن الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية؛ والمراد من أضمر منهم نفاقا؛ فأشار بقطع الرحم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم من القرابة بتكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم. وذلك يوجب القتال. وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة وخاصة؛ فالعامة رَحِم الدِّين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم. وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم،

(١) آية ١٠ سورة الحجرات.

وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم ؛ وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب . وقال بعض أهل العلم : إن الرحم التى تجب صلتها هى كل رَحِم مَحْرَم ، وعليه فلا تجب فى بنى الأعمام و بنى الأخوال . وقيل : بل هذا فى كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوى الأرحام فى المواريث، مَحْرَمًا كان أو غير محرم . فيخرج من هذا أن رحم الأم التى لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم . وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله و يعمه الرحم تجب صلته على كل حال ، قربةً ودينية ؛ على ما ذكرناه أولا والله أعلم . وقد روى أبو داود الطيالسى فى مسنده قال : حدّثنا شعبة قال أخبرنى محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحدّث عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للرحم لسانا يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قُطعتُ يا رب ظُلمت يا رب أُسىء إلىّ فيجيبها ربها ألا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعكِ " . وفى صحيح مسلم عن جُبير بن مُطْعِم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة قاطع " . قال ابن أبى عمر قال سفيان : يعنى قاطع رَحِم . ورواه البخارى .

الرابعــة ــ قوله عليه السلام : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم ... " «خلق» بمعنى اخترع وأصله التقدير، كما تقدّم[1] . والخلق هنا بمعنى المخلوق . ومنه قوله تعالى : « هـذا خَلْقُ اللهِ[2] » أى مخلوقه . ومعنى " فرغ منهم " كمل خلقهم . لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم ؛ إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة ؛ تعالى عن ذلك . وقوله : " قامت الرَّحم فقالت " يحمل على أحد وجهين : أحدهما ــ أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك ، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها و يكتب ثواب مَن وصلها ووزر من قطعها؛ كما وكل الله بسائر الأعمال كراما كاتبين ، و بمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين . وثانيهما ــ

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ (٢) آية ١١ سورة لقمان .

أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدّة الاعتناء . فكأنه قال : لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام ؛ كما قال تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ـ ثم قال ـ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[1] . وقوله : " فقالت هـذا مقام العائذ بك من القطيعة " مقصود هـذا الكلام الإخبار بتأكّد أمر صلة الرحم ، وأن الله سبحانه قد نزلهـا بمنزلة من آستجار به فأجاره ، وأدخله فى ذمتـه وخُفارته[2] . وإذا كان كذلك فجارُ الله غير مخذول وعهـدُه غير منقوض . ولذلك قال مخاطبا للرَّحم : " أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلك وأقطع من قطعك " . وهذا كما قال عليه السـلام : " ومن صلى الصبح فهو فى ذمة الله تعـالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشىء فإنه من يطلبه بذمته بشىء يدركه ثم يَكُبّه فى النار على وجهه " .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُـمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُـمْ وَأَمْلَىٰ لَهُـمْ ﴿٢٥﴾

قال قتادة : هم كفار أهـل الكتاب ، كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعـد ما عرفوا نعته عندهم ؛ قاله ابن جريج . وقال ابن عباس والضحاك والسدى : هم المنافقون ، قعدوا عن القتال بعد ما علموه فى القرآن . ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أى زيّن لهم خطاياهم ؛ قاله الحسن . ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ أى مَدّ لهم الشيطان فى الأمل ووعدهم طول العمر ؛ عن الحسن أيضا . وقال : إن الذى أملى لهم فى الأمل ومدّ فى آجالهم هو الله عز وجل ؛ قاله الفرّاء والمفضـل . وقال الكَلْبِيّ ومُقاتل : إن معنى « أملى لهم » أمهلهم ؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أمْلَى لهم بالإمهال فى عذابهم . وقرأ أبو عمرو وآبن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة « وَأُمْلِيَ لهم » بضم الهمزة وكسر اللام وفتح اليـاء ؛ على ما لم يسمّ فاعله . وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدَرى ويعقوب ، إلا أنهم سكّنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم ؛ كأنه قال : وأنا أملى لهم . واختاره أبو حاتم ، قال : لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان

(١) آية ٢١ سورة الحشر . (٢) الخفارة (بالضم والكسر) : الذمام .

يملى لهم ، وليس كذلك ؛ فلهذا عدل إلى الضم . قال المهدوى : ومن قرأ « وأُمْلِيَ لهم » فالفاعل اسم الله تعالى . وقيل الشيطان . واختار أبو عبيد قراءة العامة ، قال : لأن المعنى معلوم ؛ لقوله : « لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ »[1] ردّ التسبيح على اسم الله ، والتوقير والتعزيرَ على اسم الرسول .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ أى ذلك الإملاء لهم حتى يتمادوا فى الكفر بأنهم قالوا ؛ يعنى المنافقين واليهود . ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ وهم المشركون . ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ اى فى مخالفة محمد والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره فى السر. وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيّه. وقراءة العامة « أسرارهم » بفتح الهمزة، جمع سِرّ ؛ وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم « إسرارهم » بكسر الهمزة على المصدر؛ نحو قوله تعالى: « وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا »[2] جُمع لاختلاف ضروب السرّ .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ ﴾ أى فكيف تكون حالهم. ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ ﴾ أى ضاربين ؛ فهو فى موضع الحال . ومعنى الكلام التخويف والتهديد ؛ أى إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر . وقد مضى فى « الأنفال والنحل »[3] . وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه . وقيل : ذلك عند القتال نُصْرةً لرسول الله

---

(١) آية ٩ سورة الفتح . (٢) آية ٩ سورة نوح . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٨ و جـ ١٠ ص ٩٩

صلى الله عليه وسلم ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب . وقيل : ذلك فى القيامة عند سَوْقهم إلى النار .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك جزاؤهم . ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ قال ابن عباس : هو كتمانهم ما فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم . وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر . ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ يعنى الإيمان . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ نفاق وشك ؛ يعنى المنافقين . ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ الأضغان ما يضمر من المكروه . واختلف فى معناه ؛ فقال السدّى : غِشّهم . وقال ابن عباس : حسدهم . وقال قُطْرُب : عداوتهم . وأنشد قول الشاعر :

قل لابن هند ما أردت بمنطق * ساء الصديق وشيّد الأضغانا

وقيل : أحقادهم . واحدها ضغن . قال :

* وذى ضِغن كففت النفس عنه *

وقد تقدّم . وقال عمرو بن كلثوم :

وإن الضغن بعد الضغن يفشو * عليك ويخرج الداء الدفينا

قال الجوهري: الضغن والضغينة: الحقد. وقد ضغن عليه (بالكسر) ضِغْناً وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا أبطنوا على الأحقاد. واضْطَغَنت الصبيّ إذا أخذته تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

* كأنه مُضْطَغِنٌ صَبِيّا *

أي حامله في حجره. وقال ابن مُقْبل:

إذا اضطغنتُ سلاحى عند مَغْرِضها * ومِرْفَقٍ كَرِئاس السيف إذ شَسَفا[1]

وفرس ضاغنٌ لا يعطى ما عنده من الجَرْيِ إلا بالضرب. والمعنى: أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي لعرّفناكهم. قال ابن عباس: وقد عرّفه إيّاهم في سورة «براءة»[2]. تقول العرب: سأريك ما اصنع؛ أي سأعلمك؛ ومنه قوله تعالى: «بما أَرَاكَ الله»[3] أي بما أعلمك. ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعلاماتهم. قال أنس: ما خفى على النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم. وقد كنا في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم[4] الناس، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» فذلك سيماهم. وقال ابن زيد: قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأَبَوْا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

* وخير الكلام ما كان لَحْنا *

أي ما عُرِف بالمعنى ولم يُصَرَّح به. مأخوذ من اللحن في الإعراب، وهو الذهاب عن الصواب، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أَنْ يكون ألحن بحجته من بعض" أي أذهب بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام. أبو زيد:

---

(١) المغرض: جانب البطن أسفل الأضلاع. و«رئاس السيف»: مقبضه. و«الشاسف»: اليابس من الضمر والهزال. (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٦. (٣) آية ١٠٥ سورة النساء.

(٤) في نسخ الأصل: «يشكونهم».

لَحَنْتُ له (بالفتح) أَلْحَنُ لَحْنًا إذا قُلْتَ له قَوْلًا يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره . ولَحِنَه هو عنّى (بالكسر) يلحنه لحنا أى فهمه . وألحنته أنا إياه ، ولاحنت الناس فاطنتهم ؛ قال الفَزَارِىّ :

وحديثٍ أَلَذُّه هــو ممــا * يَنْعَت الناعِتُون يُوزَن وَزْنَا
منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيــا * نًا وخيرُ الحديث ما كان لحنَا

يريد أنهــا تتكلم [بشىء] وهى تريد غيره ، وتُعَــرِّض فى حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها . وقد قال تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » . وقال القَتَّال الكِلَابِىّ :

ولقد وَحَيْتُ(1) لكم لكيما تفهموا * ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمرتاب

وقال مرار الأسدى :

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابنى * صدودُكِ تُرْضِين الوشاةَ الأعاديَا

قال الكلبى : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبىّ صلى الله عليه وسلم منافق إلا عرفه . وقيل : كان المنافقون يخاطبون النبى صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم ؛ والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد ، فنبهه الله تعالى عليــه ، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم . قال أنس : فلم يَخْفَ منافق بعــد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عَرّفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء منها .

قوله تعــالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣١)

قوله تعــالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أى نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور . وقيل : لنعاملنكم معاملة المختبرين . ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ عليه . قال ابن عباس : « حَتَّى نَعْــلَمَ » حتى نميز . وقال علىّ رضى الله عنه : « حتى نعلم » حتى نرى . وقــدْ مضى

(1) فى اللسان : « لحنت » .

فى «البقرة»[1]. وقراءة العامة بالنون فى «نَبْلُوَنَّكُمْ» و «نعلم» «ونَبْلُوَ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهن . وروى رُوَيس عن يعقوب إسكان الواو من «نبلو» على القطع مما قبل . ونصب الباقون ردًّا على قوله : «حَتَّى نَعْلَمَ» . وهذا العلم هو العلم الذى يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم . فتأويله : حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا ، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة . ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ نختبرها ونظهرها . قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللّهمّ لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود . وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر . نظيرها «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ» الآية[2]. ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أى عادَوه وخالفوه . ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أى علموا أنه نبيّ بالحجج والآيات . ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ بكفرهم . ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى ثواب ما عملوه .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لما بيّن حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة فى أوامره والرسول فى سننه . ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى حسناتكم بالمعاصى؛ قاله الحسن . وقال الزُّهرى : بالكبائر. ابن جُريج: بالرياء والسمعة .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية . (٢) آية ٣٦ سورة الأنفال .

وقال مقاتل والثمالى : بالمنّ؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسلامه. وكلّه متقارب ، وقول الحسن يجمعه . وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصى تخرج عن الإيمان .

الثانيــة — احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوّع — صلاةً كان أو صوما — بعـد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنـه . وقال من أجاز ذلك — وهو الإمام الشافعىّ وغيره — : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأمّا ما كان نفلا فلا ؛ لأنه ليس واجبا عليه . فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه . ووجه تخصيصه أن النفل تطوّع ، والتطوّع يقتضى تخييرا . وعن أبى العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب ؛ حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال . وقال مقاتل : يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود فى النار . وقـد مضى فى « البقـرة » الكلام فيه[1] . وقيل : إن المراد بالآية أصحاب القَلِيب[2] . وحكمها عام .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أى تضعفوا عن القتال . والوَهْن : الضعف . وقد وَهَن الإنسانُ ووَهَنَه غيره ، يتعدّى ولا يتعدّى . قال :

* إننى لست بمَوْهُونٍ فَقِر[3] *

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ (٢) المراد به قليب بدر . (٣) هذا عجز بيت لطرفة ، وصدره :

* وإذا تلسننى ألسنها *

ووهِن أيضا (بالكسر) وَهْنًا أى ضعف ، وقرئ « فما وهِنوا » بضم الهاء وكسرها . وقد مضى فى (آل عمران)[1] .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى: ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ أى الصلح . ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أى وأنتم أعلم بالله منهم . وقيل : وأنتم الأعلون فى الحجة . وقيل : المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم فى الظاهر فى بعض الأحوال . وقال قتادة : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

الثالثـــة ـــ واختلف العلماء فى حكمها ؛ فقيل : إنها ناسخة لقـوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا »[2] ؛ لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح . وقيل : منسوخة بقوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » . وقيل : هى محكمة . والآيتان نزلتا فى وقتين مختلفى الحال . وقيل : إن قوله « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » مخصوص فى قوم بأعيانهم ، والأخرى عامة . فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة ؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين . وقد مضى هـذا المعنى مستوفى[2] . ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ أى بالنصر والمعونة ؛ مثل « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »[3] . ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لن ينقصكم ؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه الموتور الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ؛ تقول منه : وَتَرَه يَتِره وَتْرًا وتِرَةً . ومنه قوله عليه السلام : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله وماله" أى ذهب بهما . وكذلك وَتَره حقه أى نقصه . وقوله تعالى : « ولَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » أى لن ينتقصكم فى أعمالكم ؛ كما تقول : دخلت البيت ؛ وأنت تريد فى البيت ؛ قاله الجوهرى . الفراء : « ولن يَتِرَكُم » هو مشتق من الوتر وهو الفرد ؛ فكان المعنى ولن يفردكم بغير ثواب .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٠

(٢) آية ٦١ سورة الأنفال راجع جـ ٨ ص ٣٩

(٣) ٦٩ سورة العنكبوت .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ (٣٧)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تقدّم في « الأنعام »[1] . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة ؛ بل أمر بإخراج البعض ؛ قاله ابن عُيينة وغيره . وقيل : « لا يسألكم أموالكم » لنفسه أو لحاجة منه إليها ؛ إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم . وقيل : « لا يَسألكم أموالكم » إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها . وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجرًا على تبليغ الرسالة . نظيره «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»[2] الآية . ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يلحّ عليكم ؛ يقال : أحْفَى بالمسئلة وألحف وألحّ بمعنًى واحد . والحَفِيّ المستقصي في السؤال ؛ وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة . ومنه أحفى شاربه أى استقصى في أخذه . ﴿ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أى يخرج البخل أضغانكم . قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن وحُمَيد « وتَخْرُج » بتاء مفتوحة وراء مضمومة . « أضغانُكم » بالرفع لكونه الفاعل . وروى الوليد عن يعقوب الحضرمىّ « ونخرج » بالنون . وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو « ويخرجُ » بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف . والمشهور عنه « ويُخْرِج » كسائر القرّاء ، عطف على ما تقدّم .

قوله تعالى : هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم (٣٨)

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ (٢) آية ٥٧ سورة الفرقان .

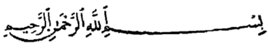
قوله تعالى : ﴿ هَأَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ ﴾ أى هاأنتم هؤلاء أيها المؤمنون تُدْعَوْن ﴿ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى فى الجهاد وطريق الخير . ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى على نفسه ؛ أى يمنعها الأجر والثواب . ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أى إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم . ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ إليها . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أى أطوع لله منكم . روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » قالوا : ومن يُستبدل بنا ؟ قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَنْكِب سَلْمان ثم قال : "هذا وقومه . هذا وقومه" قال : حديث غريب فى إسناده مقال . وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد على بن المديني أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تَوَلَّيْنا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ سلمان ، قال : "هذا وأصحابه . والذى نفسى بيده لو كان الإيمان مَنُوطًا بالثُّرَيَّا لتناوله رجال من فارس". وقال الحسن : هم العجم . وقال عكرمة : هم فارس والروم . قال المحاسبيّ : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسنُ دِيناً ، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار ؛ قاله شريح بن عبيد . وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار . وعنه أنهم الملائكة . وعنه هم التابعون . وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس . ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ قال الطبريّ : أى فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله . وحكى عن أبي موسى الأشعريّ أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هى أحبّ إليّ من الدنيا " . والله أعلم .

ســـورة الفتـــح

مدنية بإجماع، وهى تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة فى شأن الحُدَيْبِيَة.
روى محمد بن إسحاق عن الزهرى عن عُروة عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحُدَيْبِيَة من أولها إلى آخرها. وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه؛ فقال عمر بن الخطاب : ثَكِلَتْ أمّ عمر، نَزَرْتَ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كلّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر : فحرّكت بعيرى ثم تقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فىّ قرآن، فما نَشِبْتُ[2] أن سمعت صارخاً يصرخ بى؛ فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فىّ قرآن، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه؛ فقال : "لقد أنزلت علىّ الليلة سورة لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس — ثم قرأ — «إنا فتحنا لك فَتْحاً مُبيناً»". لفظ البخارى. وقال الترمذى : حديث حسن غريب صحيح. وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال : لما نزلت «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا. ليغفر لك اللهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما — إلى قوله — فوزا عظيما» مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهَدْىَ بالحديبية، فقال : "لقد أنزلت علىّ آية هى أحبّ إلىّ من الدنيا جميعا". وقال عطاء عن ابن عباس : إن اليهود شمّتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى: «وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُم» وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به! فاشتد ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: «إِنَّا فَتَحْنَا لك فَتْحاً مُبِيناً لِيغفِرَ لك اللهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخر». ونحوه قال مقاتل

(١) أى ألححت عليه وبالغت فى السؤال.
(٢) أى ما لبثت وما تعلقت بشىء.

ابن سليمان : لما نزل قوله تعالى : « وما أدرى ما يُفْعَلُ بِى ولا بِكُم » فرح المشركون والمنافقون وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ولا بأصحابه ؛ فنزلت بعد ما رجع من الحديبية « إنّا فتحنا لك فتحًا مُبِينًا » أى قضينا لك قضاء . فنسخت هذه الآيةُ تلك . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لقد أنزلت على سورة ما يَسُرُّنى بها حُمْرُ النَّعَم " . وقال المسعودى : بلغنى أنه من قرأ سورة الفتح فى أوّل ليلة من رمضان فى صلاة التطوّع حفظه الله ذلك العام .



إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾

اختلف فى هذا الفتح ما هو؟ ففى البخارىّ حدّثنى محمد بن بشار قال حدّثنا غُنْدَر قال حدّثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » قال : الحُدَيْبِيَة . وقال جابر : ما كنا نَعُدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية . وقال الفرّاء[٢] : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا ونحن نَعُدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا نُعَدّ مع النبىّ صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة[٣] ، والحديبية بئر . وقال الضحاك : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » بغير قتال . وكان الصلح من الفتح . وقال مجاهد : هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه . وقال : كان فتح الحديبية آية عظيمة ، نزح ماؤها فمجّ فيها فدرّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال موسى بن عقبة : قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ؛ لقد صدّونا عن البيت . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح و يسألوكم القضية و يرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا " . وقال الشعبىّ فى قوله تعالى « إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا » قال : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب فيها ما لم يُصب فى غزوة ؛ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، و بويع بيعة الرضوان ،

(١) آية ٩ سورة الأحقاف . (٢) فى تفسير الطبرى : « البراء » .
(٣) فى تفسير الطبرى : « خمس مائة » .

وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهَدْىُ مَحِلَّه ، وظهرت الروم على فارس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال الزهرى : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ؛ فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف . وقال مجاهد أيضا والعَوْفى : هو فتح خَيْبر . والأول أكثر، وخَيْبَرُ إنما كانت وعدًا وُعِدوه، على ما يأتى بيانه فى قوله تعالى : « سيقول الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ »(1) ، وقوله «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ»(2) . وقال مُجَمِّع بن جارية — وكان أحد القرّاء الذين قرءوا القرآن — : شهدنا الحديبية مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر ؛ فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم . قال : فخرجنا نُوجِف(3) فوجدنا نبى الله صلى الله عليه وسلم عند كُراع الغَمِيم(4) ، فلما اجتمع الناس قرأ النبى صلى الله عليه وسلم « إنا فتحنا لك فتحًا مُبينًا » فقال عمر بن الخطاب : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : "نعم ، والذى نفسى بيده إنه لفتح" . فقسمت خيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية . وقيل : إن قوله تعالى « فَتْحاً » يدل على أن مكة فتحت عَنْوة(5)؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقا إلا على مافتح عَنْوةً . هذا هو حقيقة الاسم . وقد يقال: فُتح البلد صُلْحاً ، فلا يفهم الصلح إلا بأن يقرن بالفتح ، فصار الفتح فى الصلح مجازا . والأخبار دالة على أنها فتحت عَنْوة ؛ وقد مضى القول فيها(6) ، ويأتى .

قوله تعالى : لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

---

(1) آية ١٥ من هذه السورة . (2) آية ٢٠ من هذه السورة . (3) الإيجاف : سرعة السير .
(4) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة . (5) أى فتحت بالقتال ، قوتل أهلها حتى غلبوا عليها .
(6) راجع جـ ٨ ص ٢

قال ابن الأنبارى : «فَتْحاً مُبيناً» غير تام؛ لأن قوله « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ » متعلق بالفتح . كأنه قال : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجمع الله لك مع الفتح المغفرة ؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرّ به عينك فى الدنيا والآخرة . وقال أبو حاتم السجستانى : هى لام القَسَم . وهذا خطأ ؛ لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ؛ ولو جاز هذا لجاز : ليقوم زيد ؛ بتأويل ليقومن زيد . الزَّمَخْشَرِىّ : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قال : يسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك ليجمع لك عزّ الدارين وأعراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدوّ سببا للغفران والثواب . وفى الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم « ليغفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» مَرْجِعَه من الحديبية ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لقد أنزلت علىّ آية أحبّ إلىّ مما على وجه الأرض " . ثم قرأها النبىّ صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ فقالوا : هنيئا مريئا يا رسول الله ، لقد بيّن الله لك ماذا يُفعل بك ؛ فماذا يُفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤمِنِينَ والْمُؤمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزًا عَظِيمًا » قال حديث حسن صحيح . وفيه عن مُجَمِّع ابن جارية . واختلف أهل التأويل فى معنى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» فقيل : « ما تقدم من ذنبك » قبل الرسالة . « وما تأخر » بعدها ؛ قاله مجاهد . ونحوه قال الطبرى وسفيان الثورى ، قال الطبرى : هو راجع إلى قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح — إلى قوله — تواباً » .« لِيَغفر لك اللهُ ماتقدم مِن ذنبك » قبل الرسالة « وَمَا تَأَخَّرَ » إلى وقت نزول هذه الآية . وقال سفيان الثورى : «لِيَغفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» ماعملته فى الجاهلية من قبل أن يوحى إليك . « وَمَا تَأَخَّرَ » كل شىء لم تعمله ؛ وقاله الواحدى . وقد مضى الكلام فى جريان[1] الصغائر على الأنبياء فى سورة « البقرة » ؛ فهذا قول . وقيل :

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

« ما تقدّم » قبل الفتح . « وما تأخّر » بعد الفتح . وقيل : « ما تقدّم » قبل نزول هـذه الآية . « وما تأخّر » بعـدها . وقال عطاء الخُراسانيّ : « ما تقـدّم من ذنبك » يعنى من ذنب أبويك آدم وحَوّاء . « وما تأخّر » من ذنوب أمتك . وقيل : من ذنب أبيك إبراهيم . « وما تأخّر » من ذنوب النبيين . وقيل : « ما تقدّم » من ذنب يوم بَدْر . « وما تأخر » من ذنب يوم حُنَين . وذلك أن الذنب المتقدّم يوم بدر ، أنه جعل يدعو ويقول : " اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبد فى الأرض أبدا " وجعل يردّد هـذا القول دفعات ، فأوحى الله إليه من أين تعلم أنى لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبدا ؛ فكان هذا الذنب المتقدّم . وأما الذنب المتأخر فيوم حُنَين ، لمـا انهزم الناس قال لعمه العباس ولابن عمه أبى سفيان : " ناولانى كَفًّا من حَصْباء الوادى " فناولاه فأخذه بيده ورمى به فى وجوه المشركين وقال : " شاهت الوجوه . حَم . لا ينصرون " فانهزم القوم عن آخرهم ، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء . ثم نادى فى أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم : " لو لم أرمهم لم ينهزموا " فأنزل الله عز وجل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ »(1) فكان هذا هو الذنب المتأخر . وقال أبو على الرُّوذَبَارِىّ : يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : فى الجنـة . وقيـل : بالنبوّة والحكمة . وقيـل : بفتح مكة والطائف وخيبر . وقيـل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبّر . ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه . ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أى غالبًا منيعًا لا يتبعه ذل .

قوله تعـالى : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

---

(1) آية ١٧ سورة الأنفال .

« السكينة » : السكون والطمأنينة . قال ابن عباس : كل سكينة فى القرآن هى الطمأنينة إلا التى فى « البقرة »[1] . وتقدم معنى زيادة الإيمان فى « آل عمران »[2] . وقال ابن عباس : بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ فلما صدّقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدّقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل لهم دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أى تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان . وقال الربيع بن أنس : خَشْيَةً مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينامع يقينهم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يريد الملائكة والجنّ والشياطين والإنس ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يريده .

قوله تعالى : لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

أى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا . ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة . وقيل : اللام فى «ليدخل» يتعلق بما يتعلق به اللام فى قوله : « ليغفر لك الله ». ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ ﴾ أى ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أى نجاةً من كل غم ، وظفرا بكل مطلوب . وقيل : لما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » قالوا : هنيئا لك يا رسول الله، فماذا لنا ؟ فنزل « لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات » ولما قرأ « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليك » قالوا : هنيئا لك ؛ فنزلت « وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي »[3] فلما قرأ «وَيَهْدِيَكَ صراطا مستقيما» نزل فى حق الأمة « وَيَهْدِيَكُمْ صراطًا مستقيما »[4] . ولما قال « وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » نزل « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٨ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠
(٣) آية ٣ سورة المائدة (٤) آية ٢٠ من هذه السورة.

الْمُؤْمِنِينَ [1] » . وهو كقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [2] » . ثم قال : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ [3] » ذكره القُشَيْرِيّ .

قوله تعالى : وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أى بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين ، وبأن يسلط النبيّ عليه السلام قتلًا وأسرًا واسترقاقا . ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعنى ظنّهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يرجع إلى المدينة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية ، وأن المشركين يستأصلونهم . كما قال : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » . وقال الخليل وسيبوَيْه : «السوء» هنا الفساد . ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ فى الدنيا بالقتل والسَّبْى والأسر ، وفى الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « دائرة السوء » بالضم . وفتح الباقون . قال الجوهرى : ساءه يسوءه سَوْءًا (بالفتح) ومَساءة ومَسائِيَة ؛ نقيض سره ، والاسم السُّوء (بالضم) . وقرئ «عليهم دائرة السُّوء » يعنى الهزيمة والشر . ومن فتح فهو من المساءة . ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . تقدّم فى غير موضع جميعه ، والحمد لله . وقيل : لما جرى صلح الحديبية قال ابن أُبَىّ : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم ! فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم . وقيل : يدخل فيه

(١) آية ٤٧ سورة الروم . (٢) آية ٥٦ سورة الأحزاب .
(٣) آية ٤٣ سورة الأحزاب

جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : « وللهِ جنُود السمواتِ » الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون . وأعاد لأن الذى سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين . والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد . فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مُسَمًّى .

قوله تعالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ قال قتادة : على أمتك بالبلاغ . وقيل : شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية . وقيل : مُبَيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم . وقيل : شاهدا عليهم يوم القيامة . فهو شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة . وقد مضى فى «النساء» عن سعيد بن جبير[1] هذا المعنى مبينا . ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة . ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى فى « البقرة »[2] اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما . وانتصب « شاهدا ومبشرا ونذيرا » على الحال المقدرة . حكى سيبويه : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ؛ فالمعنى : إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة . وعلى هذا تقول : رأيت عمرا قائما غدا . ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وأبو عمرو « ليؤمنوا » بالياء ، وكذلك « يعزِّروه ويُوقِّروه ويُسَبِّحوه » كله بالياء على الخبر . واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ؛ فأما قبله فقوله « ليدخل » وأما بعده فقوله « إن الذين يبايعونك » الباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أى تعظموه وتفخموه ؛ قاله الحسن والكلبي . والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . ومنه التعزير فى الحدّ ؛ لأنه مانع . قال القَطَامِيّ :

---

(١) يلاحظ أن الذى مضى فى سورة النساء هو : سعيد بن المسيب . راجع جـ ٥ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

ألا بَكَرَتْ مَىٌّ بغير سَفَاهـةٍ * تُعاتِبُ والمَوْدُودُ ينفعه العَزْر

وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معـه بالسيف . وقال بعض أهـل اللغة : تطيعـوه . ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أى تسوّدوه؛ قاله السدى . وقيل تعظموه . والتوقير : التعظيم والتَّرْزين أيضا . والهاء فيهما للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وهنا وقف تام، ثم تبتدئ « وتسبحوه » أى تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وأَصِيلًا﴾ أى عَشِيًّا . وقيـل : الضمائر كلّها لله تعالى ؛ فعلى هـذا يكون تأويل « تعزروه وتوقروه » أى تثبتوا له صحـة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك . وآختار هذا القول القشيرى . والأوّل قول الضحاك ، وعليه يكون بعض الكلام راجعا إلى الله سبحانه وتعالى وهو « وتسبّحوه » من غير خلاف . وبعضه راجعا إلى رسـوله صلى الله عليه وسلم وهو «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أى تدعوه بالرسالة والنبوّة لا بالاسم والكُنْيَة . وفى «تسبحوه» وجهان : أحدهما — تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح . والثانى — هو فعل الصلاة التى فيها التسبيح . « بُكْرَةً وأَصِيلًا » أى غُدْوة وعشيًّا . وقد مضى القول فيه[1]. وقال الشاعر :

لَعَمْرِى لأنت البيتُ أُكْرِمُ أهْلَهُ * وأجلس فى أفيـائه بالأصائل[2]

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحُدَيْبِيَة يا محمد . ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ بيّن أن بيعتهم لنبيّه صلى الله عليه وسـلم إنما هى بيعة الله ؛ كما قال تعالى : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَـدْ أَطَاعَ اللَّهَ »[3] . وهذه المبايعة هى بيعة الرضوان، على ما يأتى بيانها فى هذه السـورة إن شاء الله تعالى . ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل : يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، ويده فى المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطاعة . وقال الكلبىّ : معناه نعمة الله عليهـم فوق ما صنعوا

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٨ (٢) البيت لأبى ذؤيب . (٣) آية ٨٠ سورة النساء .

من البَيعة . وقال ابن كَيْسان : قوة الله ونُصرته فوق قوتهم ونصرتهم . ﴿ فَمَنْ نَكَثَ ﴾ بعد البيعة . ﴿ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أى يرجع ضرر النَّكْث عليه؛ لأنه حَرَم نفسَه الثواب وألزمها العقاب. ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ قيل فى البيعة . وقيل فى إيمانه . ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعنى فى الجنة . وقرأ حفص والزهرى « عليهُ » بضم الهاء . وجرّها الباقون . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « فسنؤتيه » بالنون . واختاره الفرّاء وأبو معاذ . وقرأ الباقون بالياء . وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لقرب اسم الله منه .

قوله تعالى : سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قال مجاهد وابن عباس : يعنى أعراب غِفار ومُزَينة وجُهينة وأسلم وأشجع والدِّيل ؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ؛ تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حَذَرًا من قريش ، وأحرم بعُمْرة وساق معه الهَدْىَ ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشّغل؛ فنزلت . وإنما قال : « المخلفون » لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيّه . والمخلَّف المتروك . وقد مضى فى « براءة »[1] . ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أى ليس لنا من يقوم بهما . ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ جاءوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ؛ ففضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذا هو النفاق المحض . ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ قرأ حمزة والكسائى « ضُرًّا » بضم الضاد هنا فقط ؛ أى أمرًا يضركم . وقال ابن عباس : الهزيمة .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٦

الباقون بالفتح ، وهو مصدر ضررته ضَرًّا . و بالضم اسم لمـا ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال . والمصدر يؤدّى عن المرّة وأكثر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأنه قابله بالنفع وهو ضدّ الضر . وقيل : هما لغتان بمعنًى ؛ كالفَقْر والفُقْر والضَّعف والضُّعْف . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أى نصرًا وغَنيمة . وهذا ردّ عليهم حين ظنّوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر و يعجل لهم النفع .

قوله تعـالى : بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا . (١٢)

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِـم أَبَدًا ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أَكَلة[1] رأس لا يرجعون . ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ ﴾ أى النفاق . ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وهـذا التزيين من الشيطان ، أو يخـلق الله ذلك فى قلوبهم . ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أن الله لاينصر رسوله . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هَلْكَى ، قاله مجاهد . وقال قتادة : فاسدين لا يصلحون لشىء من الخير . قال الجَوْهَرِىّ : البُور : الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِىّ :

يا رسـول المليك إن لسانى * راتـق ما فَتَقْتُ إذ أنا بـور

وامرأة بُور أيضا ، حكاه أبو عبيد . وقوم بُورٌ هَلْكَى . قال تعالى : «وكنتم قوما بورا» وهو جمع بائر ، مثل حائل وحُول . وقد بار فـلان أى هلك . وأباره الله أى أهلكه . وقيل : « بورا » أشرارًا ، قاله ٱبن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لا ينفع الطُّول من نُوكِ الرجال وقد * يهـدى الإله سبيـل المَعْشَر البـور[2]

أى الهالك .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد . (٢) ورد هذا البيت فى الأصول محرفا .

قوله تعالى : وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالنفاق .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

أى هو غنىّ عن عباده، و إنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن و يعاقب من كفر وعصى.

قوله تعالى : سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يعنى مغانم خيبر ؛ لأن الله عز وجل وعد أهل الحُدَيْبِيَة فتح خَيْبَر ، وأنها لهم خاصّةً من غاب منهم ومن حضر . ولم يَغِب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضر . قال ابن إسحاق : وكان المتولّى للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصارى من بنى سلمة ، وزيد بن ثابت من بنى النجار ؛ كانا حاسبين قاسمين . ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أى دعونا . تقول : ذَرْه ، أى دعه . وهو يَذَرُه ؛ أى يَدَعُه . وأصله وَذِرَه يَذَرُه مثال وَسِعه يَسَعُه . وقد أُمِيت صدره[1] ، لا يقال : وذَره ولا واذر ، ولكن تركه وهو تارك . قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قوما

---

(١) هذه عبارة الأصل وصحاح الجوهرى . وعبارة اللسان : «والعرب قد أماتت المصدر من « يذر » والفعل الماضى ، فلا يقال . ... » الخ .

ووجّه بهم قالوا ذَرُونا نتّبعكم فنقاتل معكم . ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ أى يغيّروا . قال ابن زيد : هو قوله تعالى « فَٱسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا[1] » الآية . وأنكر هذا القول الطبرى وغيره ؛ بسبب أن غزوة تبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكة . وقيل : المعنى يريدون أن يغيّروا وعد الله الذى وعد لأهل الحُدَيْبِيَة ؛ وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضًا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الطبرى وعليه عامة أهل التأويل . وقرأ حمزة والكسائى « كَلِمَ » بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة ؛ نحو سَلِمة وسَلِم . الباقون « كلام » على المصدر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، اعتبارا بقوله « إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي[2] » . والكلام : ما استقل بنفسه من الجمل . قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير . والكَلِم لا يكون أقلّ من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة ؛ مثل نَبِقة ونَبِق . ولهذا قال سيبويه : « هذا بابُ عِلْمِ ما الكَلِمُ من العربية » ولم يقل ما الكلام ؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الاسم والفعل والحرف ؛ فجاء بما لا يكون إلا جمعا ، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة . وتميمٌ تقول : هى كِلْمة ، بكسر الكاف ، وقد مضى فى « براءة » القول فيها[3] . ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة . ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نُصيب معكم من الغنائم . وقيل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم " . فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى «فسيقولون بل تحسدوننا» فقال الله تعالى ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى لا يعلمون إلا أمر الدنيا . وقيل : لا يفقهون من أمر الدِّين إلا قليلا ؛ وهو ترك القتال .

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة . (٢) آية ١٤٤ سورة الأعراف .

(٣) راجع جـ ٨ ص ١٤٩

قوله تعالى : قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي لَيْلَى وعطاء الخراساني : هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن ابن أبي ليلى : الروم . وعن الحسن أيضا : فارس والروم . وقال ابن جُبير : هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغَطَفان يوم حُنين . وقال الزهري ومقاتل : بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحاب مُسَيْلِمة . وقال رافع بن خَديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى « سَتُدْعَوْنَ إلى قومٍ أُولِي بأسٍ شديدٍ » فلا نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعدُ . وظاهر الآية يردّه .

الثانيــة ــ في هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين فلا ؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول عليه السلام ؛ لأنه قال « لن تخرجوا معِيَ أبدًا ولن تقاتلوا معِيَ عدوًّا »[(1)] فدلّ على أن المراد بالداعي غير النبي صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . الزَّمَخْشَرِيّ : فإن صحّ ذلك عن قتادة فالمعنى لن تخرجوا معي أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين .

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة .

أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجزية ، وهو معطوف على « تقاتلونهم » أي يكون أحد الأمرين ، إما المقاتلة وإما الإسلام؛ لا ثالث لهما . وفي حرف أُبَيّ « أو يُسْلِموا » بمعنى حتى يُسلِموا؛ كما تقول : كُلْ أو تشبع؛ أي حتى تشبع . قال :

فقلت له لا تَبْكِ عَيْنُك إنما * نحاول مُلْكاً أو نموت فنُعْذَرا[1]

وقال الزجاج : قال « أو يسلمون » لأن المعنى أو هم يسلمون من غير قتال . وهذا في قتال المشركين لا في أهل الكتاب .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الغنيمة والنصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ عامَ الحُدَيْبِيَة . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب النار .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس : لما نزلت « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » قال أهل الزَّمانة : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت « ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ » أي لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد لعماهم وزمانتهم وضعفهم . وقد مضى في « براءة » وغيرها الكلام فيه مُبَيَّناً[2] . والعَرَج : آفة تعرض لرِجْل واحدة، وإذا كان ذلك مؤثِّراً فخلل الرِّجْلين أولى أن يؤثّر . وقال مقاتل : هم أهل الزمانة

(١) البيت لامرئ القيس .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٢٦ وجـ ١٢ ص ٣١٢

الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم . أى من شاء أن يسير منهم معكم إلى خيبر فليفعل . ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمره . ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « ندخله » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدّم اسم الله أوّلا . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ هذه بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، وهذا خبر الحديبية على اختصار : وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أقام مُنْصَرَفه من غزوة بنى المُصْطَلِق فى شوّال ، وخرج فى ذى القعدة مُعْتَمِراً ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب ، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة . وقيل : ألف وخمسمائة . وقيل غير هذا ، على ما يأتى . وساق معه الهَدْىَ ، فأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم الناسُ أنه لم يخرج لحرب ، فلما بلغ خروجه قريشا خرج جمعهم صادّين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ودخول مكة ، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك ، وقدّموا خالد بن الوليد فى خيل إلى « كُرَاع الغَمِيم » فورد الخبر بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « بعُسْفان »(1) وكان المخبر له بشر بن سفيان الكعبى ، فسلك طريقا يخرج به فى ظهورهم ، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة ، وكان دليله فيهم رجل من أسلم ، فلما بلغ ذلك خيلَ قريش التى مع خالد ، جرت إلى قريش تُعلمهم بذلك ،

(1) عسفان (بضم أوّله وسكون ثانيه) : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وقيل : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة . (معجم البلدان) .

فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية بركت ناقته صلى الله عليه وسلم فقال الناس : خَلَأَتْ ! خَلَأَتْ[1] ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما خَلَأَتْ وما هو لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطّة يسألونى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها " . ثم نزل صلى الله عليه وسلم هناك ، فقيل : يا رسول الله ، ليس بهذا الوادى ماء ! فأخرج عليه الصلاة والسلام سهما من كِنَانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قَليب من تلك القُلُب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرُّواء[2] حتى كفى جميع الجيش . وقيل : إن الذى نزل بالسهم فى القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمى وهو سائق بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئذ . وقيل : نزل بالسهم فى القَليب البرَاء بن عازب ، ثم جرت السُّفَراء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش ، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاءه سُهيل بن عمرو العامرى ، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك ، فإذا كان من قابل أتى مُعْتَمِرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح ، حاشا السيوف فى قُرُبها فيقيم بها ثلاثا ويخرج ، وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام ، يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضا ، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ؛ فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجا ؛ فقال لأصحابه . " اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سببا إلى ظهور دينه " فأنس الناس إلى قوله هذا بعد نفار منهم ، وأبى سهيل بن عمرو أن يكتب فى صدر صحيفة الصلح : من محمد رسول الله ، وقالوا له : لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد ! فلا بد أن تكتب : باسمك اللّهُمّ . فقال لعلىّ وكان يكتب صحيفة الصلح : " امح يا علىّ ، واكتب باسمك اللّهُمّ " فأبى علىّ أن يمحو بيده « محمد رسول الله » . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعرضه علىّ " فأشار إليه فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأمره أن

---

(١) خلأت الناقة : حرنت و بركت من غير علة . (٢) الرواء : الكثير .

يكتب « من محمد بن عبد الله » . وأتى أبو جندل بن سهيل يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يرسُف فى قيوده، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيه ؛ فعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر أبا جندل "أن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولا، فجاء خبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قتلوه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة ؛ فرُوِى أنه بايعهم على الموت . وروى أنه بايعهم على ألّا يفِرّوا . وهى بيعة الرضوان تحت الشجرة، التى أخبر الله تعالى أنه رضى عن المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يدخلون النار . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيمينه على شماله لعثمان؛ فهو كمن شهدها . وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى قال : أوّل من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أبو سفيان الأسدى . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة؛ فبايعناه وعمرُ آخِذٌ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرة (1)، وقال : بايعناه على ألّا نفِرّ ولم نبايعه على الموت . وعنه أنه سمع جابرا يسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة ؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرة ؛ فبايعناه ، غير جدّ بن قيس الأنصارى اختبأ تحت بطن بعيره . وعن سالم بن أبى الجَعْد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة . فقال : لو كنا مائةَ ألف لكفانا ، كنا ألفا وخمسمائة . وفى رواية : كنا خمس عشرة مائة . وعن عبد الله بن أبى أوْفَى قال : كان أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة ، وكانت أسْلَمُ ثُمُن المهاجرين . وعن يزيد بن أبى عبيد قال قلت لسلمة : على أى شىء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال: على الموت. وعن البراء بن عازب قال : كتب علىّ رضى الله عنه الصلح بين النبىّ صلى الله عليه وسلم و بين المشركين يوم الحديبية ؛ فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فقالوا :

---

(1) السمرة : شجر الطلح .

لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلى : "امْحُه". فقال : ما أنا بالذى أمحاه(1)، فمحاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده . وكان فيما اشترطوا : أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثا، ولا يدخلها بسلاح الا جُلُبّان السلاح .[قلت لأبى إسحاق : وما جُلُبّان السلاح ؟ قال :](2) القِراب وما فيه . وعن أنس : أن قريشا صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سهيل بن عمرو : أما باسم الله(3) ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللّهُمّ . فقال : "اكتب من محمد رسول الله" قالوا : لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك ! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "اكتب من محمد بن عبد الله" فاشترطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نردّه عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا : يا رسول الله، أنكتب هذا! قال "نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا".
وعن أبى وائل قال : قام سهل بن حُنيف يوم صِفّين فقال يأيها الناس ، اتّهموا أنفسكم ، لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا ؛ وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين . فجاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال " بلى " قال . أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال " بلى " قال ففيم نعطى الدّنيّة فى ديننا ونرجعُ ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال " يابن الخطاب إنى رسول الله ولن يُضيّعَنى الله أبدا" قال : فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغيّظًا فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال بلى ؛ قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال بلى . قال : فعلام نعطى الدّنيّة فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال : يابن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا . قال : فنزل القرآن على رسول الله صلى

---

(1) أمحاه : لغة فى أمحوه . (2) زيادة عن مسلم . (3) قوله : « أما باسم الله ... » أى فنحن ندريه . وأما البسملة التى تذكرها بتمامها فما ندريها .

الله عليه وسلم بالفتح ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال : يا رسول الله ، أَوَ فَتْحٌ هو ؟ قال " نعم " . فطابت نفسه ورجع .

قوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ ما فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء ، قاله الفراء . وقال ابن جُريج وقتادة : من الرضا بأمر البَيْعة على ألا يفروا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت . ﴿ فأنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا . وقيل : « فعلم ما فى قلوبهم » من الكآبة بصدّ المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبىّ صلى الله عليه وسلم عنهم ؛ إذا رأى أنه يدخل الكعبة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما ذلك رؤيا منام" . وقال الصدّيق : لم يكن فيها الدخول فى هذا العام . والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد . وقيل الصبر . ﴿ وأثَابَهُمْ فَتْحاً قريباً ﴾ قال قتادة وابن أبى ليلى : فتح خيبر . وقيل فتح مكة . وقرئ « وآتاهم » ﴿ ومَغَانِمَ كَثِيرةً يأخُذُونَها ﴾ يعنى أموال خيبر ، وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة . فـ « مَغَانِمَ » على هذا بدل من « فَتْحاً قريباً » والواو مُقحَمة . وقيل : «ومغانم» فارس والروم .

قوله تعالى : وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرةً تأخُذُونَها ﴾ قال ابن عباس ومجاهد . إنها المغانم التى تكون إلى يوم القيامة . وقال ابن زيد : هى مغانم خيبر . ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ ﴾ أى خيبر ، قاله مجاهد . وقال ابن عباس : عجّل لكم صلح الحديبية . ﴿ وكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ يعنى أهل مكة ؛ كفّهم عنكم بالصلح . وقال قتادة : كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبرى ؛ لأن كف أيدى المشركين بالحديبية مذكور فى قوله « وهو الذى كف أيديَهُمْ عنكم »[1] . وقال ابن

(١) آية ٢٤ من هذه السورة .

عباس : فى « كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عنكم » يعنى عُيينة بن حِصْن الفَزَارِى وعوف بن مالك النَّضْرِىّ ومن كان معهما ؛ إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبى صلى الله عليه وسلم محاصر لهم ؛ فألقى الله عز وجل فى قلوبهم الرعب وكفّهم عن المسلمين . ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للؤمنين ؛ فيعلموا أن الله يحرسهم فى مشهدهم ومَغيبهم . وقيل : أى ولتكون كف أيديهم عنكم آية للؤمنين . وقيل : أى ولتكون هذه التى عجلها لكم آية للؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها . والواو فى «ولتكون» مقحمة عند الكوفيين . وقال البصريون : عاطفة على مضمر ؛ أى وكف أيدى الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية للؤمنين . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يزيدكم هُدًى ، أو يثبتكم على الهداية .

قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ « أخرى » معطوفة على « هذه » ؛ أى فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى . ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين ؛ كأرض فارس والروم ، وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى . وعن ابن عباس أيضا والضحاك وابن زيد وابن إسحاق : هى خيبر ، وعدها الله نبيّه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها . وعن الحسن أيضا وقتادة : هو فتح مكة . وقال عكرمة : حُنين ؛ لأنه قال « لم تَقْدِرُوا عليها » . وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات درك المطلوب فى الحال كما كان فى مكة ؛ قاله القشيرى . وقال مجاهد : هى ما يكون إلى يوم القيامة . ومعنى « قد أحاط الله بها » أى أعدّها لكم ؛ فهى كالشىء الذى قد أحيط به من جوانبه ، فهو محصور لا يفوت ، فأنتم وإن لم تقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة عليكم لا تفوتكم . وقيل : « أحاط الله بها » علم أنها ستكون لكم ؛ كما قال « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا »(1) . وقيل : حفظها الله عليكم ؛ ليكون فتحها لكم . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

(1) آية ١٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ قال قتادة : يعنى كفار قريش فى الحُدَيْبِيَة . وقيل : « ولو قاتلكم » غطفان وأسد والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر ؛ لكانت الدائرة عليهم . ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه . وانتصب « سُنَّةَ » على المصدر . وقيل : « سنة الله » أى كسنة الله . والسنة الطريقة والسِّيرة . قال :

فلا تجزَعَن من سِيرة أنت سِرْتَها * فأوّلُ راضٍ سُنّةً من يَسيرها[1]

والسُّنة أيضا : ضرب من تمر المدينة . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهى الحديبية . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم من جبل التَّنعيم[2] متسلّحين يريدون غِرّة[3] النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فأخذناهم سَلْمًا[4]

(١) البيت لخالد بن عتبة الهذلى . (٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف .

(٣) الغرة (بالكسر) : الغفلة ؛ أى يريدون أن يصادفوا منه صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم . (٤) رواية مسلم : « فأخذهم سلما فاستحياهم » . وقوله « سلما » قال ابن الأثير : « يروى بكسر السين وفتحها ، وهما لغتان فى الصلح ، وهو المراد فى الحديث على ما فسره الحميدى فى غريبه . وقال الخطابى : إنه السلم ، بفتح السين واللام ، يريد الاستسلام والإذعان ...... وهذا هو الأشبه بالقضية ؛ فإنهم لم يؤخذوا عن صلح وإنما أخذوا قهرا وأسلموا أنفسهم عجزا ... » .

فاستحييناهم؛ فأنزل الله تعالى «وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» . وقال عبد الله بن مغفّل المُزَنِىّ : كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن ؛ فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل جئتم فى عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا" . قالوا : اللهم لا ؛ فخلّى سبيلهم . فأنزل الله تعالى : «وهو الذى كفّ أيديهم عنكم» الآية . وذكر ابن هشام عن وكيع : وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلا أو ثمانين رجلا للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة فى أطرافهم ؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم فى الصلح ، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين يُسَمَّوْن العُتَقاء ، ومنهم معاوية وأبوه . وقال مجاهد : أقبل النبىّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَمِرًا ، إذ أخذ أصحابه ناسا من الحرم غافلين فأرسلهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة . وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له زُنَيم ، اطّلع الثَّنِيَّة من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه ؛ فبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم خيلا فأتوا باثنى عشر فارسا من الكفار ، فقال لهم النبىّ صلى الله عليه وسلم : "هل لكم علىّ ذمة" ؟ قالوا لا ؛ فأرسلهم فنزلت . وقال ابن أبزى والكلبى : هم أهل الحديبية ، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين ، وكف أيدى المسلمين عنهم . وقد تقدّم أن خالد بن الوليد كان فى خيل المشركين . قال القشيرى : فهذه رواية ، والصحيح أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت . وقد قال سلمة بن الأكْوَع : كانوا فى أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان ، فإذا الوادى يسير بالرجال والسلاح ، قال : فجئت لستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؛ فأتيت بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عمر قال فى الطريق : يا رسول الله ، نأتى قوما حَرْبًا ولبس معنا سلاح ولا كُرَاع ؟ فبعث

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيها ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عكرمة بن أبى جَهْل خرج إليك فى خمسمائة فارس؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : " هذا ابن عمك أتاك فى خمسمائة " . فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ؛ فيومئذ سُمّى بسيف الله ، فخرج ومعه خيل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة . وهذه الرواية أصح ، وكان بينهم قتال بالحجارة ، وقيل بالنَّبل والظُّفُر[1] . وقيل : أراد بكف اليد أنه شرط فى الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم ؛ فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردّهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل ، ومنهم أبو بَصير ، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم ، حتى جاء كبار قريش إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : آضممهم إليك حتى نأمن ؛ ففعل . وقيل : همّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيْبر ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم ، فمنعهم الله عن ذلك ؛ فهو كف اليد . ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه قولان : أحدهما — يريد به مكة . الثانى — الحديبية ، لأن بعضها مضاف إلى الحرم . قال الماوردى : وفى قوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِم » بفتح مكة . وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحا ؛ لقوله عز وجل : « كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم » .

قلت : الصحيح أن هذه الآية نزلت فى الحديبية قبل فتح مكة ، حسب ما قدمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين . وروى الترمذى قال : حدثنا عبد بن حُميد قال حدثنى سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمانين هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه؛ فأخذوا أخذًا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى : « وهو الذى كَفَّ أيديَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ؛ وقد تقدّم . وأما فتح مكة فالذى تدل عليه الأخبار أنها إنما فُتحت عَنْوة؛ وقد مضى القول فى ذلك فى « الحج »[2] وغيرها . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

(١) الظفر (بالضم) : طرف القوس . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٢

قوله تعالى : هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل:

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى قريشا ، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة حين أحرم النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعُمْرة، ومنعوا الهَدْىَ وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه . وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دِينًا ؛ فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه ، وأدخل الأنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه ووعده .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾(1) أى محبوسا . وقيل موقوفا . وقال أبو عمرو ابن العلاء : مجموعا . الجوهرى : عكفه أى حبسه ووقفه، يَعكِفه ويَعكُفه عَكْفًا ؛ ومنه قوله تعالى : « والهَدْىَ معكوفا » ؛ يقال : ما عكفك عن كذا . ومنه الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أى منحره؛ قاله الفراء . وقال الشافعى رضى الله عنه : الحَرَم . وكذا قال أبو حنيفة رضى الله عنه : المُحْصَر محلّ هَدْيه الحَرَم . والمَحِلّ (بكسر الحاء) : غاية الشيء . (وبالفتح) : هو الموضع الذى يحله الناس . وكان الهَدْى سبعين بَدَنة ، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلا . وقد اختلف العلماء فى هذا على ما تقدّم بيانه فى « البقرة » عند قوله تعالى « فإن أحصرتم »(2) والصحيح ما ذكرناه . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر

---

(1) فى الأصول : « واقفا » . (2) راجع جـ ٢ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

ابن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . وعنه قال : اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج والعمرة كل سبعة فى بدنة . فقال رجل لجابر : أيشترك فى البدنة مايشترك فى الجزور؟ قال : ماهى إلا من البدن . وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة ، اشتركنا كل سبعة فى بدنة . وفى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين؛ فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة وحلق رأسه . قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خراش بن أمية بن أبى العيص الخزاعى ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا و يحلوا؛ ففعلوا بعد توقف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت له أم سلمة : لو نحرت لنحروا ؛ فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه ونحروا بنحره، وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة . ورأى كعب بن عجرة والقمل يسقط على وجهه ؛ فقال : " أيؤذيك هوامك " ؟ قال نعم ؛ فأمره أن يحلق وهو بالحديبية . خرجه البخارى والدارقطنى . وقد مضى فى « البقرة »(1) .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان . وقرئ «حتى يبلغ الهَدِىُّ محلّه» بالتخفيف والتشديد ؛ الواحدة هَدْيَة . وقد مضى فى « البقرة »(2) أيضا . وهو معطوف على الكاف والميم من « صدّوكم » . و ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال ، وموضع « أنْ » من قوله «أنْ يبلغ محلّه» نصب على تقدير الحمل على « صدّوكم » أى صدّوكم وصدّوا الهَدْى عن أن يبلغ . ويجوز أن يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : وصدّوا الهَدْى كراهية أن يبلغ محله . أبو على : لا يصح حمله على العكف ، لأنا لا نعلم «عكف» جاء متعدّيا ، ومجىء « معكوفا » فى الآية يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ كأنه لما كان حَبْسًا حُمِل المعنى على ذلك ، كما حُمِل الرَّفث على معنى الإفضاء فعُدِّىَ بإلى ؛ فإن حُمِل على ذلك كان موضعه نصبا على قياس قول سيبويه ، وجرًّا على قياس

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٨٣ طبعة ثانية . (2) جـ ٢ ص ٣٧٨ .

قول الخليل . أو يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : محبوسا كراهية أن يبلغ محله . ويجوز تقدير الجر فى « أن » لأن عن تقدمت ؛ فكأنه قال : وصدّوكم عن المسجد الحرام، وصدّوا الهَدْىَ « عن » أن يبلغ محله . ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس : مررت برجل إنْ زيد وإن عمرو ؛ فأضمر الجار لتقدم ذكره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾ يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار ؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة وأبى جَنْدل بن سهيل ، وأشباههم . ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أى تعرفوهم . وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون . ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ؛ يقال : وطئت القوم ؛ أى أوقعت بهم . و « أن » يجوز أن يكون رفعاً على البدل من « رجالٌ، ونساءٌ » كأنه قال ولولا وطؤكم رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات . ويجوز أن يكون نصبا على البدل من الهاء والميم فى « تعلموهم » ؛ فيكون التقدير : لم تعلموا وطأهم ؛ وهو فى الوجهين بدل الاشتمال . « ولم تعلموهم » نعت لـ « رجالٌ » و « نساءٌ » . وجواب « لولا » محذوف ؛ والتقدير : ولو أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم فى دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ؛ ولكنا صُنّا من كان فيها يكتم إيمانه خوفاً . وقال الضحاك : لولا مَن فى أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ المَعَرّة العيب ، وهى مفعلة من العُرّ وهو الجَرَب ؛ أى يقول المشركون : قد قتلوا أهل دينهم . وقيل : المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن فى دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارةَ دون الدية فى قوله : « فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » قاله الكلبى ومقاتل وغيرهما . وقد مضى

فى « النساء » القول فيه.[1] وقال ابن زيد : « مَعَرَّةٌ » إثم . وقال الجوهرى وابن إسحاق : غُرْم الدِّيَة . قُطْرُب : شدّة . وقيل غمّ .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدّى ؛ حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدا لكان عن غير قصد . وهـذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليـه السلام فى قولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ؛ أى لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمتـه . ويجوز أن تتعلق بالإيمان . ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين ؛ لأن الجميع يدخلون فى الرحمـة . وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ؛ أى جنته .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أى تميّزوا ؛ قاله القُتَبى . وقيل : لو تفرقوا ؛ قاله الكلبى . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ؛ قاله الضحاك . ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار . وقال علىّ رضى الله عنـه : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن هـذه الآية « لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » فقال : "هم المشركون من أجداد نبى الله ومن كان بعـدهم وفى عصرهم كان فى أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذابا أليما" .

الثالثــة — هـذه الآية دليل على مراعاة الكافر فى حرمة المؤمن ؛ إذ لا يمكن إذاية الكافر إلا بإذاية المؤمن . قال أبو زيد قلت لابن القاسم : أرأيت لو أن قوما من المشركين فى حصن من حصونهم ، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى فى أيديهم ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٢٣ . (٢) آية ١٨ سورة النمل .

أيحرق هـذا الحصن أم لا ؟ قال : سمعت مالكا وسئل عن قوم من المشركين فى مراكبهم أنرمى فى مراكبهم بالنـار ومعهم الأسارى فى مراكبهم ؟ قال : فقال مالك لا أرى ذلك ؛ لقوله تعالى لأهل مكة : «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا». وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجز رميـه . وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحدا من المسلمين فعليـه الدية والكفارة . فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة ؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا ، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عواقلهم . فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا . وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تباعة . قال ابن العربى : « وقد قال جماعة إن معناه لو تزيلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال . وهذا ضعيف ؛ لأن من فى الصلب أو فى البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرة . وهو سبحانه قد صرح فقال : «ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم » وذلك لا ينطلق على من فى بطن المرأة وصلب الرجال ، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، وأبى جندل بن سهيل . وكذلك قال مالك : وقد حاصرنا مدينـة الروم فحبس عنهم المـاء ، فكانوا يُنزلون الأسارى يستقون لهم المـاء ، فلا يقدر أحد على رميهم بالنَّبل ، فيحصل لهم المـاء بغير اختيارنا . وقد جوّز أبو حنيفة وأصحابه والثّورىّ الرّمىَ فى حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . ولو تترس كافر بولد مسلم رمى المشرك ، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دية فيه ولا كفارة . وقال الثورى : فيه الكفارة ولا دية . وقال الشافعى بقولنا . وهذا ظاهر ؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز ؛ سيما بروح المسلم ؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضى الله عنه . والله أعلم » .

قلت : قد يجوز قتل التُّرس ، ولا يكون فيـه اختلاف إن شاء الله ، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كليـة قطعية . فمعنى كونها ضرورية ، أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس . ومعنى أنها كليـة ، أنها قاطعة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتـل الترس مصلحة كل المسلمين ؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها

قطعية، أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعا . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها ؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعا ؛ فإما بأيدي العدوّ فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدوّ على كل المسلمين . وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون . ولا يتأتى لعاقل أن يقول : لا يقتل التُّرْس في هذه الصورة بوجه ؛ لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين ، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة ، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها ؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم . والله أعلم .

الرابعة ـ قراءة العامة « لَوْ تَزَيَّلُوا » إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ « تزايلوا » وهو مثل « تزيّلوا » في المعنى . والتزايل : التباين . و « تزيّلوا » تفعّلوا ، من زِلْت . وقيل : هي تَفَيْعَلُوا . « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » قيل : اللام جواب لكلامين ؛ أحدهما ـ « لولا رجال » والثاني ـ « لو تزيلوا » . وقيل جواب « لولا » محذوف ؛ وقد تقدّم . « ولو تزيلوا » ابتداء كلام .

قوله تعالى : إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

العامل في « إذ » قوله تعالى : « لَعَذَّبْنَا » أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا . أو فعل مضمر تقديره واذكروا . ﴿ الحَمِيَّةَ ﴾ فعيلة وهي الأَنَفة . يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيّة (بالتشديد) ومَحْمِيَة إذا أنِفْت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله . ومنه قول المتلمّس :

أَلَا إنني منهم وعِرْضِي عِرْضُهم * كذي الأنْف يحمي أنفَه أن يُكَشَّمَا

أي يمنع . قال الزهري : حَمِيَّتُهم أنفتهم من الإقرار للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالرسالة

(١) الكشم : قطع الأنف باستئصال .

والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة . وكان الذى امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسـول الله : سهيل بن عمرو ؛ على ما تقدم . وقال ابن بحـر : حميتهم عصبيتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها . وقيل : « حَمِيَّـةَ الجاهِلِيَّةِ » إنهـم قالوا : قتلوا أبناءنا و إخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ؛ واللات والعزى لا يدخلها أبدا . ﴿ فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أى الطمأنينة والوقار ﴿ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ قيل لا إله إلا الله . روى مرفوعا من حديث أُبَيّ بن كَعْب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو قول علىّ وابن عمر وابن عباس ، وعمرو بن مَيْمُون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ، وسـلمة بن كُهَيل وعبيـد بن عمير وطلحة بن مُصَرِّف ، والربيع والسدى وابن زيد . وقاله عطاء الخراسانى ، وزاد « محمد رسول الله » . وعن علىّ وابن عمر أيضا هى لا إله إلا الله والله أكبر . وقال عطاء بن أبى رباح ومجاهد أيضا : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قـدير . وقال الزهرىّ : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى أن المشركين لم يُقِرّوا بهـذه الكلمة ؛ فخصّ الله بها المؤمنين . و « كلمـة التقوى » هى التى يتقى بهـا من الشرك . وعن مجاهد أيضا أن « كلمـة التقوى » الإخلاص . ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أى أحق بها من كفار مكة ؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه . ﴿ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ .

قوله تعـالى : لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنـام أنه يدخل مكة على هذه الصفة ؛ فلما صالح قريشا بالحُدَيْبِيَة ارتاب المنافقون حتى قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم

أنه يدخل مكة ؛ فأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » فأعلمهم أنهم سيدخلون فى غير ذلك العام، وأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق . وقيل : إن أبا بكر هو الذى قال إن المنام لم يكن مؤقتا بوقت ، وأنه سيدخل . وروى أن الرؤيا كانت بالحديبية، وأن رؤيا الأنبياء حق . والرؤيا أحد وجوه الوحى إلى الأنبياء . ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ أى فى العام القابل ﴿ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ قال ابن كيسان: إنه حكاية ما قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى منامه ؛ خوطب فى منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك ولهذا استثنى ؛ تأدب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »[1] . وقيل : خاطب الله العباد بما يحب أن يقولوه ؛ كما قال « ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » . وقيل : استثنى فيما يَعلم ليستثنى الخلقُ فيما لا يعلمون ؛ قاله ثعلب . وقيل : كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى ؛ قاله الحسين بن الفضل . وقيل : الاستثناء من « آمنين » ؛ وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة . وقيل : معنى « إن شاء الله » إن أمركم الله بالدخول . وقيل : أى إن سهل الله . وقيل : « إن شاء الله » أى كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : « إنْ » بمعنى « إذ » ؛ أى إذ شاء الله؛ كقوله تعالى « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[2] أى إذ كنتم . وفيه بُعدٌ؛ لأن « إذ » فى الماضى من الفعل ، و « إذا » فى المستقبل ؛ وهذا الدخول فى المستقبل ، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلّقه بشرط المشيئة ، وذلك عام الحديبية ؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذى طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتدّ عليهم وصالحهم ورجع ؛ ثم أذن الله فى العام المقبل فأنزل الله « لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق » . وإنما قيل له فى المنام « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إن شاء الله » فحكى فى التنزيل ما قيل له فى المنام؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك ، والله تعالى لا يشك ، و « لتدخلن » تحقيق فكيف يكون شك . فـ « إنْ » بمعنى « إذ » . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من العدو. ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) آية ٢٧٨ سورة البقرة .

وَمُقَصِّرِينَ ﴾ والتحليق والتقصير جميعا للرجال ؛ ولذلك غلب المذكر على المؤنث . والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير . وقد مضى القول في هذا في « البقرة »[1] . وفي الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبيّ صلى الله عليه وسلم على المَرْوَة بِمِشْقَص . وهذا كان في العُمْرة لا في الحج، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلق في حجته . ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حال من المحلقين والمقصِّرين ؛ والتقدير : غير خائفين . ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أي علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم . وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خَيْبر فافتتحها ، ورجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوة وعدّة بأضعاف ذلك . وقال الكلبي : أي علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم . وقيل : علم أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم . ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أي من دون رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم فتح خيبر ؛ قاله ابن زيد والضحاك . وقيل فتح مكة . وقال مجاهد : هو صلح الحديبية ؛ وقاله أكثر المفسرين . قال الزهري : ما فتح الله في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية؛ لأنه إنما كان القتال حين تلتقي الناس ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا ؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة . فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ؛ فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر . يدلّك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي يعليه على كل الأديان . فالدِّين اسم بمعنى المصدر ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٨١ طبعة ثانية .

ويستوى لفظ الواحد والجمع فيه . وقيل : أى ليظهر رسوله على الدين كله؛ أى على الدين الذى هو شرعه بالحجة ثم باليد والسيف، ونسخ ما عداه . ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ «شهيدا» نصب على التفسير ، والباء زائدة ؛ أى كفى الله شهيدا لنبيّه صلى الله عليه وسلم؛ وشهادته له تبيّن صحة نبوّته بالمعجزات . وقيــل : « شهيدا » على ما أرسل به ؛ لأن الكفار أبوْا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رســول الله .

قوله تعـالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ « محمد » مبتدأ و « رسول » خبره . وقيل : « محمد » ابتــداء و « رسول الله » نعتــه . ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ عطف على المبتدأ ، والخبر فيما بعده؛ فلا يوقف على هذا التقدير على « رســول الله » . وعلى الأول يوقف على « رســول الله » ؛ لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف به أصحابه ؛ فيكون « محمد » ابتداء و « رسول الله » الخبر « والذين معه » ابتداء ثان . و « أشداء » خبره و « رحماء » خبر ثان . وكون الصفات فى جمـلة أصحاب النبيّ صـلى الله عليه وسـلم هو الأشبه . قال ابن عباس : أهل الحديبية أشداء على الكفار؛ أى غلاظ عليهم كالأسد على فريسته . وقيل : المراد بـ « الذين معه » جميع المؤمنين . ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يرحم بعضهم بعضا . وقيــل :

متعاطفون متوادّون . وقرأ الحسن « أشداء على الكفار رحماء بينهم » بالنصب على الحال ؛ كأنه قال : والذين معه فى حال شدّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم . ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أى يطلبون الجنة ورضا الله تعالى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ السيما العلامة؛ وفيها لغتان : المد والقصر ؛ أى لاحت علامات التهجّد بالليل وأمارات السهر . وفى سنن ابن ماجه قال : حدّثنا إسماعيل بن محمد الطلحي قال حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . وقال ابن العربى : ودسّه قوم فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف . وقد روى ابن وهب عن مالك « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود ؛ وبه قال سعيد بن جبير . وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وَكَفَ[(1)] المسجد وكان على عريش ؛ فانصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين . وقال الحسن : هو بياض يكون فى الوجه يوم القيامة . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس؛ قاله الزهرى . وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة، وفيه : "حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود" . وقال شَهْر بن حَوْشب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو السَّمْت الحسن . وعن مجاهد أيضا : هو الخشوع والتواضع . قال

(١) أى قطر سقفه .

منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعـالى « سِيماهم فى وجوههـم » أهو أثر يكون بين عينى الرجل؟ قال لا ؛ ربمـا يكون بين عينى الرجل مثل رُكْبة العنز وهو أقسى قلبـا من الحجارة ! ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع . وقال ابن جُريج : هو الوقار والبهاء . وقال شَمِــر بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل . قال الحسن : إذا رأيتهـم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى . وقال الضحاك : أما انه ليس بالنَّدْب فى وجوههم ولكنه الصفرة . وقال سفيان الثَّورىّ : يصلّون بالليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك فى وجوههم؛ بيانُه قوله صلى الله عليه وسلم : "من كثرت صــلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . وقد مضى القول فيه آنفا . وقال عطاء الخراسانى : دخل فى هــذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ ﴾ قال الفرّاء: فيه وجهان، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم فى التوراة وفى الإنجيل أيضا ، كمثلهم فى القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنجيل» و إن شت قلت : تمام الكلام ذلك مثلهم فى التوراة، ثم ابتدأ فقال ومثلهم فى الإنجيل . وكذا قال ابن عباس وغيره : همـا مثـلان، أحدهمـا فى التوراة والآخر فى الإنجيل؛ فيوقف على هذا على « التوراة » . وقال مجاهد : هو مثل واحد ؛ يعنى أن هذه صفتهم فى التوراة والإنجيل ؛ فـلا يوقف على « التوراة » على هذا ، و يوقف على « الإنجيل » ، ويبتدئ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ على معنى وهم كزرع . و « شطأه » يعنى فِراخه وأولاده؛ قاله ابن زيد وغيره . وقال مقاتل : هو نبت واحد؛ فإذا خرج ما بعــده فقــد شَطَأه . قال الجوهرى : شَطْءُ الزرع والنبات فراخه ، والجمـع أشطاء . وقد أشطأ الزرعُ خرج شَطْؤه . قال الأخفش فى قوله « أخرج شطأه » أى طَرَفه . وحكاه الثعلبى عن الكسائى . وقال الفراء : أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِئٌ إذا خرج . قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى * ومن الأشجار أفنانَ الثمـر

الزجاج : أخرج شطأه أى نباته . وقيل : إن الشطء شـوك السُّنبُل؛ والعرب أيضا تسميه : السَّفَا ؛ وهو شَوْك البُهْمَى[1] ؛ قاله قُطْرُب . وقيل : إنه السنبل؛ فيخرج من الحبة

(١) البهمى : نبت تجد به الغنم وجدا شديدا ما دام أخضر .

عشر سنبلات وتسع وثمان؛ قاله الفراء ، حكاه الماوردي . وقرأ ابن كثير وابن ذكوان « شَطَأه » بفتح الطاء ؛ وأسكن الباقون . وقرأ أنس ونصر بن عاصم وابن وثاب «شطاه» مثل عصاه . وقرأ الجحدري وابن أبي إسحاق « شَطَه » بغير همز؛ وكلها لغات فيها .

وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قَوِيَ أمره ؛ كالزرع يَبْدُو بعد البَذْر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباتُه وأفراخُه . فكان هذا من أصح مَثَل وأقوى بيان . وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر . ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي قوّاه وأعانه وشدّه ؛ أي قوى الشطءُ الزرع . وقيل بالعكس؛ أي قوى الزرعُ الشطءَ . وقراءة العامة « آزره » بالمدّ . وقرأ ابن ذكوان وأبو حَيْوة وحُميد بن قيس « فأَزَرَهُ » مقصورة ؛ مثل فَعَلَه . والمعروف المدّ . قال امرؤ القيس :

بمَحْنِيَةٍ(١) قد آزر الضَّالَ نَبْتُها * مَجَرّ جيوش غانمين وخُيَّبِ

﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساقا له . والسُّوق : جمع الساق . ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أي يعجب هذا الزرع زرّاعَه . وهو مَثَلٌ كما بيّنا ؛ فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم، والشَّطْءُ أصحابه ؛ كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقَوُوا ؛ قاله الضحاك وغيره . ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ؛ أي فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد؛ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة . ﴿ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثوابا لا ينقطع وهو الجنة . وليست « مِن » في قوله « منهم » مبعّضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة

---

(١) المحنية (بالتخفيف) : واحدة المحاني، وهي معاطف الأودية . والضال (بتخفيف اللام) : شجرة السدر .

مجنّسة ؛ مثلُ قوله تعالى : « فاْجتنبوا الرِّجْس من الأوثان [1] » لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس ؛ أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى ، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب ؛ فأدخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » ؛ أى من هذا الجنس ، يعنى جنس الصحابة . ويقال : أنفق نفقتك من الدراهم ؛ أى اجعل نفقتك هذا الجنس . وقد يخصص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بوعد المغفرة تفضيلا لهم ، وإن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة . وفى الآية جواب آخر : وهو أن « من » مؤكدة للكلام ؛ والمعنى وعدهم الله كلَّهم مغفرة وأجرا عظيما . فجرى مجرى [قول] العربى : قطعت من الثوب قميصا ؛ يريد قطعت الثوب كله قميصا . و « مِن » لم يبعض شيئا . وشاهد هذا من القرآن «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ [2]» معناه وننزل القرآن شفاء ؛ لأن كل حرف منه يشفى ، وليس الشفاء مختصًّا به بعضه دون بعض . على أن من اللغويين من يقول « من » مجنسة ؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن ، ومن جهة القرآن ، ومن ناحية القرآن . قال زُهير :

* أمِن أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ [3] *

أراد من ناحية أم أوْفَى دِمْنَةٌ ، أم من منازلها دِمْنَة . وقال الآخر :

أخُو رغائبَ يعطيها ويسألها * يأبَى الظُّلامةَ منه النَّوفَلُ الزُّفَرُ [4]

فـ « من » لم تُبعِّض شيئا ، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نَوفَلٌ زُفَرٌ . والنَّوفَل : الكثير العطاء . والزُّفَر : حامل الأثقال والمؤن عن الناس .

الخامسة ــ روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية « محمد

---

(١) آية ٣٠ سورة الحج . (٢) آية ٨٢ سورة الإسراء . (٣) الدمنة : آثار الناس وما سودوا بالرماد . لم تكلم : لم تبين ؛ والعرب تقول لكل ما بين من أثر وغيره : تكلم ؛ أى ميز ؛ فصار بمنزلة المتكلم .
(٤) البيت لأعشى باهلة .

وسولُ الله والذين معه » حتى بلغ « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغيظَ بِهِمُ الكفارَ » . فقال مالك : مَن أصبح من الناس فى قلبه غَيْظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ؛ ذكره الخطيب أبو بكر .

قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله . فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه فى روايته فقد رَدّ على الله رَبّ العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ؛ قال الله تعالى : « محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدّاءُ على الكُفّار » الآية . وقال : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عنِ المؤمنينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة » إلى غير ذلك من الآى التى تضمنت الثناء عليهم ، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح ؛ قال الله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ »[1] . وقال : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِم وَأَمْوَالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ و رِضْوَانًا — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »[2] ، ثم قال عزّ من قائل : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِم — إلى قوله — فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[3] . وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ الناس قَرْنِي ثم الذين يلونهم " وقال : " لا تَسُبّوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهبًا لم يدرك مُدَّ أَحدهم ولا نَصِيفه " خرجهما البخارى . وفى حديث آخر : " فلو أن أحدكم أنفق ما فى الأرض لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مدّ أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ؛ فالنصيف هو النصف هنا . وكذلك يقال للعُشْر عَشِير ، وللخُمس خميس ، وللتّسع تَسيع ، وللثّمن ثَمين ، وللسّبع سَبيع ، وللسّدس سَدِيس ، وللربع رَبيع . ولم تقل العرب للثلث ثليث . وفى البزّار عن جابر مرفوعا صحيحا : " إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى " . وقال " فى أصحابى كلّهم خير " . وروى عُوَيم بْن ساعدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وَجَلّ اختارنى واختار لى أصحابى فجعل لى منهم وزراء وأختانًا وأصهارًا فمن سبّهم فعليه لعنة

---

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب . (٢) آية ٨ سورة الحشر . (٣) آية ٩ سورة الحشر .

الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفًا ولا عَدْلًا[(١)] » . والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ؛ فحذارِ من الوقوع فى أحد منهم ، كما فعل مَن طعن فى الدين فقال : إن المُعَوِّذَتين ليستا من القرآن ، وما صحّ حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تثبيتهما ودخولهما فى جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها ، فروايته مطَّرحة . وهذا ردّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة ، وإبطالٌ لما نقلته لنا الصحابة من الملة . فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجُهَنى ممن روى لنا الشريعة فى الصحيحين البخارى ومسلم وغيرهما ، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجرا عظيما . فمن نسبه أو واحدا من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومتى أُلحق واحد منهم تكذيبا فقد سُبّ ؛ لأنه لا عار ولا عَيْب بعد الكفر بالله أعظمُ من الكذب، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سَبّ أصحابه ؛ فالمكذِّب لأصغرهم — ولا صغير فيهم — داخلٌ فى لعنة الله التى شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألزمها كلَّ مَن سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلَت أصواتهم ؛ فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن أبا هريرة مُتَّهَم فيما يرويه ، وصَرّحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونَصَر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم وغيره؛ فنظر إلىّ الرشيد نظر مُغْضِب ، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب ؛ فدخل فقال لى : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنّط وتكفّن! فقلت : اللّهمّ إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه،

---

(١) الصرف : التوبة . وقيل النافلة . والعدل : الفدية . وقيل الفريضة .

قسلمنى منه . فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف وبين يديه النطع[1] ؛ فلما بصر بى قال لى : يا عمر بن حبيب ما تلقانى [أحد][2] من الرد والدفع [لقولى بمثل][2] ما تلقيتنى به ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن الذى قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وعلى ما جاء به][2] ؛ إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام فى الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول ؛ فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله ! وأمر لى بعشرة آلاف درهم .

قلت : فالصحابة كلهم عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله . هـذا مذهب أهل السُّنّة ، والذى عليه الجماعة من أئمة هـذه الأمة . وقد ذهبت شِرْذِمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ؛ فيلزم البحث عن عدالتهم . ومنهم من فرق بين حالهم فى بُداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العـدالة إذ ذاك ؛ ثم تغيّرت بهـم الأحوال فظهرت فيهم الحـروب وسفك الدماء ؛ فلا بُدّ من البحث . وهـذا مردود ؛ فإن خيـار الصحابة وفضلاءهم كعلىّ وطلحة والزبير وغيرهم رضى الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضى عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنـة بقوله تعالى « مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » . وخاصّة العشرة المقطوع لهم بالجنـة بإخبار الرسـول هم القُدْوَة مع علمهم بكثير من الفـتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ؛ إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد ، وكل مجتهد مصيب . وسيأتى الكلام فى تلك الأمور فى سورة « الحجرات » مبيّنة إن شاء الله تعالى .

---

(١) النطع (بالكسر) : بساط من الأديم .

(٢) زيادة عن كتاب تاريخ بغداد فى ترجمة عمر بن حبيب .

تفسير سورة الحجرات

مدنيـة بإجماع . وهى ثمانى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال العلماء : كان فى العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وتلقيبِ الناس . فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب . وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرمىّ : « لا تَقَدَّمُوا » بفتح التاء والدال من التقدّم . الباقون « تُقَدِّمُوا » بضم التاء وكسر الدال من التقديم ؛ ومعناهما ظاهر . أى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدّم قولَه أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدّمه على الله تعالى ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل .

الثانيـة ـ واختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة :

الأول ـ ما ذكره الواحدىّ من حديث ابن جُرَيج قال : حدّثنى ابن أبى مُلَيكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : أمِّر القَعْقاع بن مَعْبَد . وقال عمر : أمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردتَ إلا خلافى . وقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما ؛

فنزل فى ذلك : « يأيها الذين آمنوا لا تُقَدِّمُوا بين يَدَيِ اللهِ ورسولِه — إلى قوله — ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم » . رواه البخارى عن الحسن بن محمد بن الصباح ؛ ذكره المهدوِىّ أيضا .

الثانى — ما روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذ مضى إلى خَيْبَر ؛ فأشار عليه عمر برجل آخر ؛ فنزل « يأيها الذين آمنوا لا تُقَدِّمُوا بين يَدَيِ اللهِ ورسوله » . ذكره المهدوى أيضا .

الثالث — ما ذكره الماوَرْدِىّ عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم ؛ إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفئوا[1] إلى المدينة ؛ فلقُوا رجلين من بنى سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا : من بنى عامر، لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ؛ فجاء نفر من بنى سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن بيننا وبينك عهدا، وقد قتل منا رجلان ؛ فوداهما النبىّ صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ، ونزلت عليه هذه الآية فى قتلهم الرجلين . وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون لو أنزل فىّ كذا، أو أنزل فىّ كذا ؟ فنزلت هذه الآية . ابن عباس : نُهُوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . مجاهد : لا تفتاتوا[2] على الله ورسوله حتى يقضى الله على لسان رسوله ؛ ذكره البخارى أيضا . الحسن : نزلت فى قوم ذبحوا قبل أن يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمرهم أن يعيدوا الذبح . ابن جُريج : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذى أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قلت : هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضى أبو بكر بن العربى ، وسردها قبله الماوردى . قال القاضى : وهى كلها صحيحة تدخل تحت العموم ؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها ، ولعلها نزلت دون سبب ؛ والله أعلم . قال القاضى : إذا قلنا إنها نزلت فى تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها

(١) انكفأ القوم انكفاء : رجعوا وتبددوا .
(٢) افتات الكلام : ابتدعه . وافتات عليه فى الأمر : حكم عليه . وافتات برأيه : استبد به .

عليه كالصلاة والصوم والحج؛ وذلك بيّن . إلاّ[1] أن العلماء اختلفوا فى الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدّ خَلّة الفقير، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين ، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر ؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين . فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها . وإن جاء رأس العام وقد تغيّر النصاب تبيّن أنها صدقة تطوّع . وقال أشهب : لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة ؛ وكأنه طرد الأصل فى العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها فى النظام وحسن الترتيب . ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز؛ لأنه معفوٌّ عنه فى الشرع بخلاف الكثير . وما قاله أشهب أصح؛ فإن مفارقة اليسير الكثير فى أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير . فأما فى مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة . فإما تقديم كلّى كما قاله أبو حنيفة والشافعىّ، وإما حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ أصل فى ترك التعرض لأقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مرضه : " مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلّ بالناس " . فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : قولى له إن أبا بكر رجل أَسِيف[2] وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء ؛ فَمُرْ عمر فليصلّ بالناس . فقال صلى الله عليه وسلم : " إنكنّ لأنتنّ صواحبُ يوسف[3] . مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس " . فمعنى قوله " صواحب يوسف " الفتنة بالردّ عن الجائز إلى غير الجائز .

---

(١) فى الأصول : « وذلك أن العلماء ... » والتصويب عن ابن العربى .

(٢) سريع البكاء والحزن . وقيل : هو الرقيق .

(٣) قال القسطلانى : « أى مثلهن فى إظهار خلاف ما فى الباطن ؛ فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن الصديق لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه ، ومرادها زيادة على ذلك ، وهو ألا يتشاءم الناس به . وهذا مثل زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة ومرضها أن ينظرن إلى حسن يوسف و يعذرنها فى محبته ؛ فعبر بالجمع فى قوله « انكن » والمراد عائشة فقط . وفى قوله « صواحب » والمراد زليخا كذلك .

وربما احتج بفات القياس بهذه الآية . وهو باطل منهم ؛ فإن ما قامت دلالته فليس فى فعله تقديم بين يديه . وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس فى فروع الشرع ؛ فليس إذًا تقدّم بين يديه . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يعنى فى التقدّم المنهى عنه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعلكم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنو لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ روى البخارىّ والترمذىّ عن ابن أبى مُليكة قال : حدثنى عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه ؛ فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ؛ فتكلما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافى . فقال عمر: ما أردت خلافك ؛ قال : فنزلت هذه الآية : «يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ» قال : فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُسمع كلامه حتى يَستفهمه . قال : وما ذكر ابن الزبير جدّه يعنى أبا بكر. قال: هذا حديث غريب حسن. وقد رواه بعضهم عن ابن أبى مليكة مرسلا، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير .

قلت : هو البخارى ، قال : عن ابن أبى مُليكة كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر ، رفعا أصواتهما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قَدِم عليه ركْب بنى تميم ؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مُجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر؛ فقال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافى. فقال : ما أردتُ خلافك . فارتفعت أصواتهما

فى ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى» الآية .
فقال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه .
ولم يذكر ذلك عن أبيه[1] ؛ يعنى أبا بكر الصديق . وذكر المهدوى عن علىّ رضى الله عنه :
نزل قوله « لا ترفعوا أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبىّ » فينا لمـا ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر
وزيد بن حارثة ، نتنازع ابنة حمزة لمـا جاء بها زيد من مكة ؛ فقضى بهـا رسول صلى الله
عليه وسلم لجعفر؛ لأن خالتها عنده. وقد تقدم هذا الحديث فى « آل عمران[2] » . وفى الصحيحين
عن أنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله،
أنا أعلم لك عِلْمَهُ ؛ فأتاه فوجده جالسا فى بيته مُنَكِّسًا رأسه ؛ فقال له : ما شأنك ؟ فقال :
شَرٌّ ! كان[3] يرفع صوته فَوْقَ صوتِ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله وهو من أهل النار.
فأتى الرجلُ النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا . فقال موسى[4] : فرجع إليه المرة
الآخرة ببشارة عظيمة ؛ فقال : " اذهب إليه فقل له إنك لستَ من أهل النار ولكنك من
أهل الجنة " . لفظ البخارى . وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى يُكْنَى أبا محمد
بابنه محمد . وقيـل : أبا عبد الرحمن . قُتِـل له يوم الحَرَّة[5] ثلاثةٌ من الولد : محمد ، ويحيى ،
وعبـد الله . وكان خطيبا بليغا معروفا بذلك ، كان يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه
وسلم، كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولمـا قَدِم وَفْدُ تميم على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فافتخر ، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة
بليغة جَزْلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد :

---

(١) قوله « عن أبيه » يريد جده لأمه أسماء .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨ .

(٣) هذا التفات من الحاضر إلى الغائب ؛ والأصل : كنت أرفع صوتى .

(٤) هو ابن أنس ؛ أحد رجال سند الحديث .

(٥) الحرة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة ؛ تعرف بحرة واقم ، وبها كانت الوقعة فى سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام يزيد بن معاوية حين أنهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينـة من الصحابة والتابعين ، وأمّر عليهم مسلم بن عقبة المرى .

أتيناك كَيْمَا يعرف الناس فضلنا * إذا خالفونا عنـد ذكر المكارم

وإنا رءوس الناس من كل مَعْشَر * وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

وإنّ لنـا المِرْباع فى كل غارة * تكون بنجد أو بأرض التهائم (١)

فقام حسان فقال :

بَنِى دارم لا تَفْخَرُوا إن فَخْرَكم * يعود وَبَالًا عنـد ذكر المكارم

هَبِلْتم علينا تفخرون وأنتم * لنـا خَوَلٌ من بين ظِئْر وخادم (٢)

فى أبيـات لها .

فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ؛ فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعـالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صـوت النبىّ ولا تجهروا له بالقول » . وقال عطاء الخراسانى : حدّثتنى ابنة ثابت بن قيس قالت : لمـا نزلت « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ » الآية ، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ؛ ففقَدَه النبىّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليـه يسأله ما خبره ؛ فقال : أنا رجل شـديد الصوت ، أخاف أن يكون حَبِط عملى . فقال عليه السـلام : "لستَ منهم بل تعيش بخـير وتموت بخير" . قال : ثم أنزل الله « إنّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » (٣) فأغلق بابه وطَفِق يبكى ؛ ففقَدَه النبىّ صلى الله عليه وسـلم فأرسل إليه فأخبره ؛ فقال : يا رسول الله ، إنى أحب الجمال وأحب أن أسـود قومى . فقال : "لست منهم بل تعيش حَمِيدًا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة" . قالت : فلما كان يوم اليمـامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَة فلما التقوْا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتِـلا ؛ وعلى ثابت يومئـذ درع له نفيسة ؛ فمرّ به رجل من

(١) فى سيرة ابن هشام : « ... أو بأرض الأعاجم » والمرباع : ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة .
(٢) هبلتم : فقدتم . والخول : حشم الرجل وأتباعه .
(٣) آية ١٨ سورة لقمان .

المسلمين فأخذها؛ فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حُلُم فتضيعه، إنى لما قُتلت أمس مَرّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزله فى أقصى الناس، وعند خبائه فرس يَسْتَنّ (١) فى طِوَله، وقد كَفَأ على الدرع بُرْمَةً، وفوق البرمة رَحْل؛ فأْت خالدا فمُرْه أن يبعث إلى درعى فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى أبا بكر — فقل له : إن علىّ من الدَّين كذا وكذا، وفلان من رقيقى عتيق وفلان؛ فأتى الرجل خالدا فأخبره؛ فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته . قال : ولا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت، رحمه الله؛ ذكره أبو عمر فى الاستيعاب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أى لا تخاطبوه : يا محمد، ويا أحمد . ولكن : يا نبىّ الله، ويا رسول الله؛ توقيراً له . وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ ليقتدى بهم ضَعَفة المسلمين فنُهِىَ المسلمون عن ذلك . وقيل : « لا تجهروا له » أى لا تجهروا عليه، كما يقال : سقط لِفيه؛ أى على فيه . ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الكاف كاف التشبيه فى محل النصب؛ أى لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض . وفى هذا دليل [على] أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة؛ أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلّت عن رتبتها . ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى من أجل أن تحبط، أى تبطل؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : أى لئلا تحبط أعمالكم .

الثالثــة — معنى الآية الأمرُ بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته؛ أى إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ

(١) استن الفرس : قمص وعدا إقبالا وإدبارا . والطول والطيل (بالكسر) : الحبل الطويل يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره والطرف الآخر فى يد الفرس، ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه .

الذى يبلغه بصوته ، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه غالبا لكلامكم ، وجهرُه باهرًا لجهركم ؛ حتى تكون مزيّته عليكم لائحة ، وسابقته واضحة ، وآمتيازه عن جمهوركم كشيَة الأبلق . لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتَبْهَرُوا منطقه بصخبكم . وفى قراءة ابن مسعود «لا ترفعوا بأصواتكم» . وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام . وكره بعض العلمــاء رفع الصوت فى مجالس العلماء تشريفا لهم ؛ إذ هم ورثة الأنبياء .

الرابعـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حيًّا ، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثالُ كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه ، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ؛ كما كان يلزمه ذلك فى مجلســه عند تلفظه به . وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنــة بقوله تعــالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا »[١] . وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحْى ، وله من الحكمة مثل ما للقرآن ؛ إلا معانى مستثناة ، بيانها فى كتب الفقه .

الخامســـة — وليس الغــرض برفع الصــوت ولا الجهر ما يقصــد به الاستخفاف والاستهانة ؛ لأن ذلك كفر والمخــاطبون مؤمنون . وإنمــا الغرض صوت هو فى نفســه والمسموع من جَرْسه[٢] غيرُ مناسب لمــا يهاب به العظماء و يوقّر الكبراء ، فيتكلف الغض منــه وردّه إلى حدٍّ يميل به الى ما يستبين فيــه المأمور به من التعزير والتوقير . ولم يتنــاول النهى أيضا رفع الصوت الذى يتأذّى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك ؛ ففى الحديث أنه قال عليه السلام للعباس آبن عبد المطلب لمــا انهزم الناس يوم حُنين : " اصرخ بالناس " وكان العباس أجهر الناس صوتا ؛ يروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس : يا صباحاه ! فأسقطت الحوامل لشدّة صوته ، وفيه يقول نابغة بنى جَعْدة :

---

(١) آية ٢٠٤ سورة الأعراف .

(٢) الجرس (بفتح الجيم وكسرها) : الصوت .

زَجْرُ أبى عُرْوة[1] السباع إذا * أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع فى جوفه .

السادسة ـ قال الزجاج : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ التقدير لأن تحبط ؛ أى فتحبط أعمالكم ، فاللام المقدرة لام الصيرورة ، وليس قوله : « أَنْ تَحْبَطَ أعمالُكم وأنتم لا تشعرون » بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ؛ فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع . كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أى يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو هريرة : لما نزلت « لا تَرفعوا أصواتكم » قال أبو بكر رضى الله عنه : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار[2] . وذكر سنيد قال : حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة قال : لما نزلت « لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسُولِهِ » قال أبو بكر : والذى بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخى السِّرار . وقال عبد الله بن الزبير : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » ما حدث عمر عند النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ؛ فنزلت « إنّ الَّذِين يَغُضُّونَ أصواتَهم عِندَ رَسُولِ اللهِ أولئك الذين امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى » .
قال الفراء : أى أخلصها للتَّقْوَى . وقال الأخفش : أى اختصها للتقوى . وقال ابن عباس : « امتحن اللهُ قلوبَهُمْ للتَّقْوَى » طهّرهم من كل قبيح ، وجعل فى قلوبهم الخوف من الله

---

(١) أبو عروة : كنية العباس .

(٢) السرار (بالكسر) : المسارّة ؛ أى كصاحب السرار ، أو كمثل المساررة لخفض صوته ؛ والكاف صفة لمصدر محذوف .

والتقوى . وقال عمر رضي الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات . والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأَدِيمَ مَحْنًا حتى أوسعته . فمعنى آمتحن الله قلوبهم للتقوى وسّعها وشرحها للتقوى . وعلى الأقوال المتقدمة : امتحن قلوبهم فأخلصها ؛ كقولك : امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت . ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص . وقال أبو عمرو : كل شيء جَهَدته فقد محنته . وأنشد :

أتت رذايا باديًا كلالها (١) * قد محنت واضطربت آطالها

﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قال مجاهد وغيره : نزلت في أعراب بني تميم ؛ قدم الوفد منهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا ، فإن مَدْحَنَا زَيْنٌ وذَمَّنَا شَيْن . وكانوا سبعين رجلا قدموا الفداءَ ذَرارِيَ لهم ؛ وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم نام للقائلة . وروى أن الذي نادى الأقرع بن حابس ، وأنه القائل : إن مَدْحِي زَيْنٌ وإنّ ذَمِّيَ شَيْن ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ذاك الله" . ذكره الترمذي عن البراء بن عازب أيضا . وروى زيد بن أرقم فقال : أتى أناس النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس بأتباعه ، وإن يكن مَلِكًا نَعِشْ في جنابه (٢) . فأتَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد، يا محمد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . قيل : إنهم كانوا من بني تميم . قال مقاتل : كانوا تسعة عشر : قيس بن عاصم ، والزِّبْرِقان بن بدْر ، والأقْرَع بن حابس ، وسُوَيد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقَعْقاع بن مَعْبَد ، ووَكِيع بن وكيع ، وعُيَيْنَة بن حِصْن

(١) الرذايا : جمع رذية ؛ وهي الناقة المهزولة من السير . والكلال : الإعياء . والآطال : جمع إطل ؛ وهو الخاصرة . (٢) في الطبري : « في جناحه » .

وهو الأحمق المطاع ، وكان من الجرارين يجر عشرة آلاف قناة ، أى يتبعه . وكان اسمه حذيفة وسمى عُيَيْنة لَشَتَر[1] كان فى عينيه . ذكر عبد الرزاق فى عيينة هذا أنه الذى نزل فيه « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا »[2] . وقد مضى فى آخر « الأعراف » من قوله لعمر رضى الله عنه ما فيه كفاية[3] ؛ ذكره البخارى . وروى أنهم وفدوا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقد ؛ فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد ، اخرج إلينا ؛ فاستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هم جُفاة بنى تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم " . والحُجُرات جمع حُجْرة ؛ كالغُرُفات جمع غُرْفة ، والظُّلُمات جمع ظُلْمة . وقيل : الحجرات جمع الحُجَر ، والحُجَر جمع حُجْرة ؛ فهو جمع الجمع . وفيه لغتان[4] : ضمّ الجيم وفتحها . قال :

ولما رأونا باديا رُكَباتنا * على موطن لا نخلط الجدّ بالهَزْلِ

والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . وحظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهى فُعْلة بمعنى مفعولة . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « الحُجَرات » بفتح الجيم استثقالا للضمتين . وقرئ « الحُجْرات » بسكون الجيم تخفيفا . وأصل الكلمة المنع . وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حَجَرت عليه . ثم يحتمل أن يكون المنادى بعضا من الجملة فلهذا قال : « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

أى لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم . وكان صلى الله عليه وسلم لا يحتجب عن الناس إلا فى أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه فى تلك الحالة

---

(١) الشتر (بفتحتين) : انقلاب فى جفن العين . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ (٤) وفيه لغة ثالثة : سكون الجيم .

من سوء الأدب . وقيل : كانوا جاءوا شفعاء في أسارى بني عنبر فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم، وفادى على النصف . ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ قيل : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط . وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة مُصَدِّقا إلى بني المُصْطَلِق؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم — في رواية : لإحْنَة كانت بينه و بينهم — ؛ فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدّوا عن الإسلام . فبعث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبّت ولا يَعْجَل ؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا ؛ فبعث عُيونَه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ؛ فعاد إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فنزلت هذه الآية ؛ فكان يقول نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " التأنّي من الله والعجلة من الشيطان " . في رواية : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بني المُصْطَلِق بعد إسلامهم ؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم . فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغَزْوِهم ؛ فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدّي إليه ما قبلنا من الصدقة، فٱستمر راجعا، و بلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله، الله ما خرجنا لذلك ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وسُمّيَ الوليدُ فاسقًا أي كاذبا . قال

ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله : الفاسق الكذاب . وقال أبو الحسن[1] الوراق : هو المعلن بالذنب . وقال ابن طاهر : الذى لا يستحى من الله . وقرأ حمزة والكسائى «فتثبتوا» من التثبت . الباقون « فتبينوا » من التبيين ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ أى لئلا تصيبوا ؛ ف « أن » فى محل نصب بإسقاط الخافض . ﴿ قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ أى بخطأ . ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ على العجلة وترك التأنى .

الثانيــة ــ فى هذه الآية دليلٌ على قبول خبر الواحد إذا كان عَدْلاً ؛ لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق . ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعا ؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها . وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود ، و إثبات حق مقصود على الغير ؛ مثل أن يقول : هذا عبدى ؛ فإنه يقبل قوله . و إذا قال : قد أنفذ فلان هذا لك هدية ؛ فإنه يقبل ذلك . وكذلك يقبل فى مثله خبر الكافر . وكذلك إذا أقر لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعا . وأما فى الإنشاء على غيره فقال الشافعى وغيره : لا يكون وَلِيّاً فى النكاح . وقال أبو حنيفة ومالك : يكون وَلِيّاً ؛ لأنه يَلِي ما لها فيلى بُضْعَها . كالعدل ، وهو و إن كان فاسقا فى دينه إلا أن غَيْرته موفرة وبها يحمى الحريم ، وقد يبذل المال و يصون الحرمة ، و إذا وَلِيَ المال فالنكاح أولى .

الثالثــة ــ قال ابن العربى : ومن العَجَب أن يجوّز الشافعى ونظراؤه إمامةَ الفاسق . ومن لا يؤتمن على حبة مال [كيف[2]] يصحّ أن يؤتمن على قنطار دِين . وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلّون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا اسْتُطِيعت إزالتهم صُلِّيَ معهم ووراءهم ؛ كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ؛ فإذا أحسنوا فأحسن ، و إذا أساءوا فآجتنب إساءتهم . ثم كان من الناس من إذا صلّى معهم تَقِيّةً أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته . وبوجوب الإعادة أقول ؛

---

(١) فى بعض النسخ : « أبو الحسين » .

(٢) زيادة عن ابن العربى .

بلا ينبغى لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سرا فى نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

الرابعة — وأما أحكامه إن كان واليًا فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذى أمضاه بحال؛ ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية [تؤثر](1) أو قول يحكى؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر .

الخامسة — لا خلاف فى أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره فى قول يبلغه أو شىء يوصله ، أو إذن يعلمه ؛ إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلِّغ ؛ فإن تعلّق به حق لغيرهما لم يقبل قوله . وهذا جائز للضرورة الداعية إليه ؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق فى هذه المعانى إلا العدول لم يحصل منها(2) شىء لعدمهم فى ذلك . والله أعلم .

السادسة — وفى الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم؛ فإن حَكم الحاكمُ قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة .

السابعة — فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملا بجهالة ، كالقضاء بالشاهدين العدلين ، وقبول قول العالم المجتهد . وإنما العمل بالجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله . ذكر هذه المسألة القُشَيْرى ، والذى قبلها المَهْدَوِى .

قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) فى ابن العربى : « منهم » .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾ فلا تكذبوا ؛ فإن الله يُعلمه أنباءكم فتفتضحون. ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة و إثم؛ فإنه لو قتل القومَ الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه لكان خطأ، ولَعَنَتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه و بينهم. ومعنى طاعة الرسول لهم : الائتمارُ بما يأمر به فيما يبلّغونه عن الناس والسماع منهم . والعَنَت الإثم؛ يقال : عَنِت الرجل . والعنت أيضا الفجور والزنى؛ كما فى سورة « النساء »[1]. والعنت أيضا الوقوع فى أمر شاق ؛ وقد مضى فى آخر « براءة » القول فى « عَنِتُّم » بأكثر من هذا[2] . ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ﴾ هذا خطاب للؤمنين المخلصين الذين لايكذّبون النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بالباطل؛ أى جعل الإيمان أحبّ الأديان إليكم. ﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ بتوفيقه. ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى حسنه إليكم حتى اخترتموه . وفى هذا ردّ على القدرية والإمامية وغيرهم؛ حسب ما تقدّم فى غير موضع . فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم؛ لاشريك له . ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ قال ابن عباس : يريد به الكذب خاصة . وقاله ابن زيد . وقيل : كل ما خرج عن الطاعة ؛ مشتق من فَسَقت الرُّطَبةُ خرجت من قشرها . والفارة من جُحرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفًى[3] . والعصيان جمع المعاصى . ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال ﴿ أُولَئِكَ ﴾ يعنى هم الذين وفقهم الله فحبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر أى قبحه عندهم ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ كقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ »[4] . قال النابغة :

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْياء فالسَّنَد   أقوتْ وطال عليها سالفُ الأمَدِ

والرَّشَد الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه ؛ من الرَّشادة وهى الصخرة .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٢٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٢
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٥ (٤) آية ٣٩ سورة الروم .

قال أبو الوازع : كل مخرة رشادة . وأنشد :

وغير مُقَلَّد ومُوَشَّمات صَلِين الضَوءَ من صُمِّ الرشاد (١)

﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أى فعل الله ذلك بكم فضلا ؛ أى الفضل والنعمة ، فهو مفعول له . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « عليم » بما يصلحكم « حكيم » فى تدبيركم .

قوله تعالى : وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ روى المُعتَمِر بن سليمان عن أنس بن مالك قال قلت : يا نبيّ الله ، لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيّ ؟ فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة ؛ فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم قال : إليك عني ! فوالله لقد أذاني نتن حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحًا منك . فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ؛ فكان بينهم حرب بالجريد والأيدى والنعال ؛ فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية . وقال مجاهد : نزلت فى الأوس والخزرج . قال مجاهد : تقاتل حيّان من الأنصار بالعصى والنعال فنزلت الآية . ومثله عن سعيد ابن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال

---

(١) فى شرح شواهد الكشاف للرحوم الأستاذ أبى عليان : « الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل وغير الأثافى المغير لونها بالنار . والوشم والتوشيم تغيير اللون ؛ أى التى احترقت بضوئها أى حرها . و « من صم الرشاد » بيان لها . والصم : جمع صماء ، أى صلبة . وقيل : يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام ، وأنها غيرها أثر السير ، قوية بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب » .

بالسّعف والنعال ونحوه ؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم . وقال قتادة : نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة[1] في حق بينهما؛ فقال أحدهما : لآخذن حقي عنوة ؛ لكثرة عشيرته . ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال والسيوف ؛ فنزلت هذه الآية . وقال الكلبي : نزلت في حرب سُمير وحاطب[2]، وكان سُمير قتل حاطبا؛ فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت . وأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يصلحوا بينهما . وقال السُّدّي : كانت امرأة من الأنصار يقال لها «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار ؛ فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها في عُلّيّة لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها ؛ فتدافعوا وتجالدوا[3] بالنعال ؛ فنزلت الآية . والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين ؛ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس . وفي قراءة عبد الله «حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط» . وقرأ ابن أبي عَبْلَة «اقتتلتا» على لفظ الطائفتين . وقد مضى في آخر «براءة» القول فيه[4]. وقال ابن عباس في قوله عز وجل «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[5] قال : الواحد فما فوقه ؛ والطائفة من الشيء القطعة منه . ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما . ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ تعدّت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه . والبغي : التطاول والفساد . ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي ترجع إلى كتابه . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ ﴾ رجعت ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أي احملوهما على الإنصاف . ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا. وقيل : أقسطوا أي اعدلوا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي العادلين المحقين .

---

(١) تدارأ القوم : تدافعوا في الخصومة ونحوها واختلفوا . (٢) راجع خبر حربهما في كتاب الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤٩٤ طبع أوربا . (٣) تجالدوا : تضاربوا .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٩٤ . (٥) آية ٢ سورة النور .

الثانيـــة ــ قال العلماء : لاتخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالها؛ إما أن يقتتلا على سبيل البَغْى منهما جميعا أولا . فإن كان الأوّل فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافّة والموادعة . فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغى صير إلى مقاتلتهما . وأما إن كان الثانى وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكفّ وتتوب؛ فإن فعلت أصلح بينها و بين المبغىّ عليها بالقسط والعدل . فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة؛ فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . والله أعلم .

الثالثـــة ــ فى هذه الآية دليـل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين . وعلى فساد قول من منـع من قتال المؤمنين؛ واحتج بقوله عليـه السلام : " قتال المؤمن كفر " . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر؛ تعالى الله عن ذلك ! وقد قاتل الصدّيق رضى الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ، ولا يُجهز على جريح؛ ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب فى الكفار . وقال الطبرى : لو كان الواجب فى كل اختـلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لمـا أقيم حدّ ولا أُبْطِل باطل ، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كلّ ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْى نسائهم وسفك دمائهم؛ بأن يتحزّبوا عليهـم ، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم؛ وذلك مخالف لقوله عليه السـلام : "خذوا على أيدى سفهائكم"

الرابعـــة ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين، والعمدة فى حرب المتأولين، وعليها عوّل الصـحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهـل الملة ، وإياها عنى النبى صلى الله عليه وسـلم بقوله : " تَقْتل عمّارًا[1] الفئةُ الباغية " . وقوله عليه السـلام فى شأن

(١) هو عمار بن ياسر . (راجع خبره فى كتب الصحابة) .

الخوارج : "يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة" . والرواية الأولى أصح ؛ لقوله عليه السلام : "تقتلهم أولى الطائفتين إلى الحق" . وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب ومن كان معه . فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن عليًّا رضي الله عنه كان إماما ، وأن كل من خرج عليه باغ وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح . لأن عثمان رضي الله عنه قُتل والصحابة بُرآء من دمه ؛ لأنه مَنع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أول مَن خَلَف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بالقتل ؛ فصبر على البلاء ، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة . ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى ؛ فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم [عمر][1] في الشورى ، وتدافعوها ؛ وكان علي كرّم الله وجهه أحق بها وأهلها ؛ فقبلها حَوطة[2] على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل ، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل . فربما تغيّر الدين وانقض عمود الإسلام . فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيْعة التمكن من قَتَلة عثمان وأخذ القَوَد منهم ؛ فقال لهم علي رضي الله عنه : ادخلوا في البيْعة واطلبوا الحق تصلوا إليه . فقالوا : لا تستحق بيعة وقَتَلَةُ عثمان معك تراهم صباحاً ومساء . فكان علي في ذلك أسدّ رأيا وأصوبَ قِيلاً ؛ لأن عليًّا لو تعاطى القَوَد منهم لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حربًا ثالثة ؛ فانتظر بهم أن يستوثق الأمر[3] وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم ؛ فيجرى القضاء بالحق .

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة . وكذلك جرى لطلحة والزبير ؛ فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة ؛ وإنما رأيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أَوْلَى .

قلت : فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم . وقال جِلّة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة ، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به ؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم

(١) زيادة عن ابن العربي . (٢) الحوطة والحيطة : الاحتياط . (٣) في ابن العربي : «الأمن» .

وتم الصلح والتفرق على الرضا . فخاف قَتَلة عثمان رضى الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا؛ ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدءوا بالحرب سحرة فى العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ، ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ : غدر طلحة والزبير ؛ والفريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ . فتمّ لهم ذلك على ما دبّروه ، ونَشِبَت الحروب ؛ فكان كل فريق دافعاً لمكَرّته عند نفسه ، ومانعا من الإشاطة (١) بدمه . وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى ؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل . وهذا هو الصحيح المشهور . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أمرٌ بالقتال . وهو فرضٌ على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين؛ ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضى الله عنهم عن هذه المقامات؛ كسعد بن أبى وَقّاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم . وصوّب ذلك علىّ بن أبى طالب لهم ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه . ويروى أن معاوية رضى الله عنه لما أفضى إليه الأمر ، عاتب سعدًا على ما فعل ، وقال له : لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا ، ولا ممن قاتل الفئة الباغية . فقال له سعد : ندمتُ على تركى قتالَ الفئة الباغية . فتبيّن أنه ليس على الكل دَرْكٌ (٢) فيما فعل ، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ ومن العدل فى صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال ؛ فإنه تَلَفٌ على تأويل . وفى طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراءٌ (٣) فى البغى . وهذا أصل فى المصلحة . وقد قال لسان الأمة : إن حكمة الله تعالى فى حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل ؛ إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

---

(١) الإشاطة : الاهلاك . يقال : أشاط فلان دم فلان إذا عرضه للهلاك .

(٢) الدرك (بفتح الراء وسكونها) : التبعة . (٣) استشرى الرجل فى الأمر : لج . والأمور : تفاقمت وعظمت .

السابعة ــ إذا خرجت على الإمام العدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها ، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّة أو بمن فيه كفاية ، و يدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول فى الجماعة ، فإن أَبَوْا من الرجوع والصلح قوتلوا . ولا يُقتل أسيرهم ولا يتبع مُدْبِرهم ولا يُذَفَّف[1] على جريحهم ، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالهم . و إذا قتل العادلُ الباغى أو الباغى العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا . ولا يرث قاتلٌ عمدا على حال . وقيل : إن العادل يرث الباغى ؛ قياساً على القصاص .

الثامنة ــ وما استهلكه البُغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخَذوا به . وقال أبو حنيفة : يضمنون . وللشافعى قولان . وجه قول أبى حنيفة أنه إتلاف بعُدْوان فيلزم الضمان . والمعوّل فى ذلك عندنا أن الصحابة رضى الله عنهم فى حروبهم لم يتبعوا مُدْبِرا ولا ذَفَّفُوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ؛ وهم القُدْوة . وقال ابن عمر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة" ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال : "لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها" . فأما ما كان قائمـا ردّ بعينه . هذا كله فيمن خرج بتأويل يسوغ له . وذكر الزَّمَخْشَرى فى تفسيره : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعَة لها ضَمِنت بعد الفيئة ما جنَت ، و إن كانت كثيرةً ذات منعة وشَوكة لم تضمن ؛ إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله فإنه كان يُفتى بأن الضمان يلزمها إذا فاءت . وأما قبل التجمّع والتجنّد أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها ، فما جنته ضمنته عند الجميع . فحَمْلُ الإصلاح بالعدل فى قوله « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهما بِالعدلِ » على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل . وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد . والذى ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ، ليس بحسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط . قال الزمخشرى : فإن قلت : لم قُرن بالإصلاح الثانى العدلُ دون الأول ؟ قلت : لأن المراد بالاقتتال فى أول الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت

(١) تذفيف الجريح : الإجهاز عليه وتحرير قتله .

فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن وتسكينُ الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفى الشبهة ؛ إلا إذا أصرّتا فحينئذ تجب المقاتلة ؛ وأما الضمان فلا يجبه . وليس كذلك إذا بغت إحداهما ؛ فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين .

التاسعة — ولو تغلّبوا على بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافا للكتاب أو السنة أو الإجماع ؛ كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة ؛ قاله مُطَرِّف وابن الماجشون . وقال ابن القاسم : لا تجوز بحال . وروى عن أَصْبَغ أنه جائز . وروى عنه أيضا أنه لا يجوز كقول ابن القاسم . وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز تَوْلِيَته . فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة . والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضى الله عنهم، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح لم يعرضوا لأحد منهم فى حكم . قال ابن العربى : الذى عندى أن ذلك لا يصلح ؛ لأن الفتنة لما انجلت كان الإمام هو الباغى ، ولم يكن هناك من يعترضه . والله أعلم .

العاشرة — لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبّدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألّا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ؛ لحرمة الصحبة ولنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن سبّهم ، وأن الله غفر لهم . وأخبر بالرضا عنهم . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ؛ فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا . وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ فى التأويل وتقصيرا فى الواجب عليه ؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل فى طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه . ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علىّ بأن قاتل الزبير فى النار . وقوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بَشّر قاتل ابن صفية بالنار " . وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير

غير عاصيين ولا آثمين بالقتال ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبيّ صلى الله عليه وسلم في طلحة : " شهيد " . ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار . وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل . بل صواب أراهم الله الاجتهاد . وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم ، وعظيمَ غنائهم في الدِّين ، رضى الله عنهم . وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(1) . وسئل بعضهم عنها أيضا فقال : تلك دماء قد طَهَّر الله منها يدى ، فلا أُخضب بها لسانى . يعنى في التحرز من الوقوع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه . قال ابن فُورَك : ومن أصحابنا من قال إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف ؛ ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوّة ؛ فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة . وقال المحاسبي : فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم . وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغِبْنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فآتبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ؛ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ؛ إذ كانوا غير متّهمين في الدِّين ، ونسأل الله التوفيق .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى في الدِّين والحُرْمة لا في النسب ؛ ولهذا قيل : أخوّة الدين أثبت من أخوّة النسب ؛ فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين ،

(1) ١٣٤ سورة البقرة .

وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا[1] ". وفى رواية : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابَروا ولا يَبِعْ بعضُكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا . المسلمُ أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يَخْذُله ولا يَحْقِره . التقوى ها هنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بِحَسْبِ امرئٍ من الشر أن يَحْقِر أخاه المسلم . كلُّ المسلمِ على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه " لفظ مسلم . وفى غير الصحيحين عن أبى هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يَعيبه ولا يَخْذله ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتَار قِدره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها " . ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : " احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل " .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أى بين كل مسلمين تخاصما . وقيل : بين الأوس والخزرج ؛ على ما تقدّم . وقال أبو علىّ : أراد بالأخوين الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية يرد والمراد به الكثرة ؛ كقوله تعالى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ »[2] . وقال أبو عبيدة : أى أصلحوا بين كل أخوين ؛ فهو آت على الجميع . وقرأ ابن سيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجَحْدَرِىّ ويعقوب « بين إخوتكم » بالتاء على الجمع . وقرأ الحسن « إخوانكم » . الباقون « أخويكم » بالياء على التثنية .

الثالثــة — فى هذه الآية والتى قبلها دليل على أن البغى لا يزيل اسم الإيمان ، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين . قال الحارث الأعور : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو القدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجَمَل وصِفِّين : أمشركون هم ؟

---

(١) التحسس (بالحاء) : الاستماع لحديث القوم . والتناجش : أن تزيد فى ثمن سلعة ولا رغبة لك فى شرائها . وقيل : هو تحريض الغير على الشراء .

(٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

قال : لا ، من الشِّرك فَرّوا . فقيل : أمنافقون؟ قال : لا ، لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (١١)

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ قيل عند الله . وقيل « خيرا منهم » أي معتقدا وأسلم باطنا . والسُّخْرِية الاستهزاء . سَخِرت منه أسْخَر سَخَرًا (بالتحريك) ومَسْخَرًا وسُخْرًا (بالضم) . وحكى أبو زيد سَخِرت به ؛ وهو أردأ اللغتين . وقال الأخفش : سَخِرْت منه وسَخِرت به ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وهَزِئت به ؛ كُلٌّ يقال . والاسم السُّخْرِية والسُّخْرِى ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا »(١) وقد تقدم . وفلان سُخْرَة ؛ يتسخر في العمل . يقال : خادم سخرة . ورجل سخرة أيضا يسخر منه . وسُخَرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس .

الثانية ــ واختلف في سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر ؛ فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه ؛

---

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . راجع ص ٨٣ من هذا الجزء . وجـ ١٢ ص ١٥٤ وجـ ١٥ ص ٢٢٥

فربَّض كل رجل منهم بمجلسه ، وعَضُّوا[1] فيه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائما ؛ فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تفسّحوا تفسحوا ، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح . فقال له الرجل : قد وجدتَ مجلسا فاجلس ! فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا ، ثم قال : من هذا ؟ قالوا فلان ؛ فقال ثابت : ابن فلانة ! يعيّره بها ؛ يعني أُمًّا له في الجاهلية ؛ فاستحيا الرجل ، فنزلت . وقال الضحاك : نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أوّل السورة » استهزءوا بفقراء الصحابة ؛ مثل عمّار وخبّاب وابن فُهيرة وبِلال وصُهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرِهم ؛ لما رأوا من رثاثة حالهم ؛ فنزلت في الذين آمنوا منهم . وقال مجاهد : هو سخرية الغني من الفقير . وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله ؛ فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة . وقيل : نزلت في عِكْرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلما ؛ وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة . فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . وبالجملة فينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رَثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق[2] في محادثته ؛ فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضدّ صفته ؛ فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله ، والاستهزاء بمن عظمه الله . ولقد بلغ بالسّلف إفراط توقيهم وتصوّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شَرَحْبيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أصنع مثل الذي صنع . وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوَكّل بالقول ؛ لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا . و « قوم » في اللغة للمذكّرين خاصة . قال زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري * أقوم آل حِصْن أم نساء

وسُمّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد . وقيل : إنه جمع قائم ، ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين . وقد يدخل في القوم النساء مجازا ، وقد مضى في « البقرة »[3] بيانه .

(١) عض فلان الشيء : لزمه واستمسك به . (٢) رجل لبق ولبيق : حاذق رفيق بكل عمل .

(٣) راجع جـ ١ ص ٤٠٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر . وقد قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ »(١) فشمل الجميع . قال المفسرون : نزلت فى امرأتين من أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبة ـ وهو ثوب أبيض ، ومثلها السِّبّ ـ وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها ؛ فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : انظرى ! ما تجر خلفها كأنه لسان كلب . فهذه كانت سخريتهما . وقال أنس وابن زيد : نزلت فى نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم ، عيّرن أم سَلمة بالقِصَر . وقيل : نزلت فى عائشة ، أشارت بيدها إلى أم سلمة ، يانبىّ الله إنها لقصيرة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حُيَيّ بن أخْطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن النساء يُعيّرنني ويقلن لى يا يهودية بنت يهوديين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هلّا قلت إن أبى هارون وإن عمى موسى وإن زوجى محمد " . فأنزل الله هذه الآية .

الرابعة ـ فى صحيح الترمذى عن عائشة قالت : حكّيت للنبىّ صلى الله عليه وسلم رجلا ؛ فقال : " ما يسرنى أنى حكّيت رجلا وأن لى كذا وكذا "(٢) . قالت فقلت : يارسول الله ، إن صفية امرأة ـ وقالت بيدها(٣) ـ هكذا ؛ يعنى أنها قصيرة . فقال : " لقد مزجت بكلمة لو مُزج بها البحر لمزج " . وفى البُخارىّ عن عبد الله بن زَمْعة قال : نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنْفس . وقال : " لِمَ يضربُ أحدكم امرأته ضَرْب الفَحْل ثم لعله يعانقها " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " . وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفاً مذموما لا تصح

---

(١) أول سورة نوح . (٢) حكيت فلانا وحاكيته : فعلت مثل فعله . (٣) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ على المجاز والاتساع .

معه تلك الأعمال . ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصيةً يعلم الله من قلبه وَصفًا محمودا يغفر له بسببه . فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية . ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة . بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة . فتدبر هذا ، فإنه نظر دقيق ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ اللَّمْزُ: العَيْب، وقد مضى في «براءة» عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ »[1] . وقال الطبري : اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة . والهَمْزُ لا يكون إلا باللسان. وهذه الآية مثل قوله تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»[2] أي لا يقتل بعضكم بعضا؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه قاتلٌ نفسه . وكقوله تعالى : « فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ »[3] يعني يسلّم بعضكم على بعض . والمعنى : لا يَعِبْ بعضكم بعضا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير : لا يَطْعَن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يَلْعَن بعضكم بعضا . وقرئ : « ولا تَلْمُزُوا » بالضم . وفي قوله « أنفسكم » تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَر والحُمَّى" . وقال بكر بن عبد الله المزني : إذا أردت أن تنظر العيوب جَمّةً فتأمل عَيّابًا؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال صلى الله عليه وسلم : "يبصر أحدُكم القَذاةَ[4] في عَيْن أخيه ويدع الجِذْع في عينه". وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلا وَرِعًا * أشغَلَه عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيم المريض يشغله * عن وجع الناس كلهم وجعه

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٦ (٢) آية ٢٩ سورة النساء . (٣) آية ٦١ سورة النور .
(٤) القذاة : هو ما يقع في العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقال آخر :

تكشفن مساوى الناس ما ستروا[1] * فيهتك الله سترًا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ النَّبَزُ (بالتحريك) اللقب؛ والجمع الأنباز . والنبز (بالتسكين) المصدر؛ تقول : نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا ؛ أى لقّبه . وفلان يُنَبِّزُ بالصبيان أى يلقبهم؛ شُدد للكثرة . ويقال النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء . وتنابزوا بالألقاب : أى لقّب بعضُهم بعضا . وفى الترمذى عن أبى جُبيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيُدعَى ببعضها فعسى أن يكره ؛ فنزلت هذه الاية « ولا تنابزوا بالألقاب » . قال : هذا حديث حسن . وأبو جُبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصارى . وأبو زيد سعيدُ بن الربيع[2] صاحب الهَرَوى ثقة . وفى مُصنّف أبى داود عنه قال : فينا نزلت هذه الآية ، فى بنى سلمة « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » قال : قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا فلان فيقولون مَهْ يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا الاسم؛ فنزلت هذه الآية « ولا تنابزوا بالألقاب » . فهذا قول . وقولٌ ثانٍ — قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره يا يهودىّ يا نصرانىّ؛ فنزلت . وروى عن قتادة وأبى العالية وعكرمة . وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق . وقاله مجاهد والحسن أيضا . ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته؛ قاله ابن زيد . وقيل : المعنى أن مَن لقّب أخاه أو سخر منه فهو فاسق . وفى الصحيح "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه" . فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهَمْز والنبز فذلك فسوق؛ وذلك لا يجوز . وقد روى أن أبا ذَرّ رضى الله عنه كان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فنازعه

---

(١) فى أدب الدنيا والدين : «لا تلمس من مساوى» . (٢) أبو زيد من رجال سند هذا الحديث .

رجل فقال له أبو ذرّ : يابن اليهودية ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ماترى ها هنا أحمر وأسود ماأنت بأفضل منه" يعنى بالتقوى، ونزلت «ولاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلقابِ» . وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ؛ فنهى الله أن يُعيَّر بما سلف . يدلّ عليه ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من عيّر مؤمنا بذنب تاب منه كان حَقًّا على الله أن يَبْتَلِيه به ويَفْضَحَه فيه فى الدنيا والآخرة" .

الثالثة — وقع من ذلك مستثنًى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوّزته الأمة واتفق على قوله أهل المِلّة . قال ابن العربيّ : وقد ورد لَعَمْرُ الله من ذلك فى كتبهم ما لا أرضاه فى صالح جَزَرة[1] ؛ لأنه صحّف « خرزة » فلُقّب بها . وكذلك قولهم فى محمد بن سليمان الحضرمى : مُطَيَّن ؛ لأنه وقع فى طين . ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين ، ولا أراه سائغا فى الدّين . وقد كان موسى بن عُلَيّ بن رَباح المصرىّ يقول : لا أجعل أحدا صغّر اسم أبى [فى حلّ] ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين . والذى يضبط هذا كُلّه ؛ أن كلّ ما يكرهه الإنسان إذا نودى به فلا يجوز لأجل الإذاية . والله أعلم .

قلت — وعلى هذا المعنى ترجم البخارىّ رحمه الله فى (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح ، فى « باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شَيْن الرجل » قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما يقول ذو اليَدَيْن" قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِ مَنْداد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لقّب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصدّيق ، وعثمان بذى النُّورين ، وخزيمة بذى الشهادتين ، وأبا هريرة بذى الشّمالين وبذى اليدين ؛ فى أشباه ذلك .

---

(١) هو صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو على البغدادى الحافظ . روى الخطيب البغدادى بسنده ... سمعت صالحا — يعنى بجزرة — يقول : قدم علينا بعض الشيوخ من الشام ؛ فقرأت أنا عليه : حدثكم جرير بن عثمان قال : كان لأبى أمامة خرزة يرق بها المريض ؛ فصحفت « الخرزة » فقلت : كان لأبى أمامة « جزرة » وإنما هى « خرزة » . راجع تاريخ بغداد فى المجلد التاسع ص ٣٢٢ فى ترجمة صالح هذا .

الزَّمَخْشَرِيّ : « روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيَه بأحبّ أسمائه إليه " . ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن؛ قال عمر رضي الله عنه : أشيعوا الكُنَى فإنها منبّهة ، ولقد لُقّب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله . وقلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لَقَب . ولم تزل هذه الألقاب الحسنة فى الأمم كلها ــ من العرب والعجم ــ تجرى فى مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير » . قال الماوردىّ : فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

قلت ــ فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حُميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحُميد الأعرج، ومروان الأصفر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال : رأيت الأصلع ــ يعنى عمر ــ يقبّل الحجر . فى رواية الأُصَيْلِع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أى عن هذه الألقاب التى يتأذّى بها السامعون . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهى .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ ﴾ قيل : إنها نزلت فى رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم اغتابا رفيقهما . وذلك أن النبيّ صلى

الله عليه وسلم كان إذا سافر ضم الرجلَ المحتاج إلى الرجلين الموسِرَيْن فيخدمهما . فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئا، فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما ، فقالا له : انطلق فاطلب لنا من النبي صلى الله عليه وسلم طعاما وإداما ؛ فذهب فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك " وكان أسامة خازن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذهب إليه، فقال أسامة : ما عندي شيء ؛ فرجع إليهما فأخبرهما ؛ فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل . ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا ؛ فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة[(1)] لغار ماؤها . ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء ؛ فرآهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما " فقالا : يا نبي الله ، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال : " ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة " فنزلت « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ » ذكره الثعلبيّ . أي لا تظنوا بأهل الخير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير .

الثانيــة — ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسَّسُوا ولا تجسسوا ولا تَناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " لفظ البخاري . قال علماؤنا : فالظن هنا وفي الآية هو التُّهمة . ومحل التحذير والنهي إنما هو تُهَمَة لا سبب لها يوجبها ؛ كمن يُتَّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك . ودليل كون الظن هنا بمعنى التُّهَمة قوله تعالى : « ولا تجسسوا » وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبصّر ويستمع لتحقق ما وقع له من تلك التهمة . فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك . وإن شئت قلت : والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجبَ الاجتناب.

---

(١) بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء .

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأُونست منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفساد به والخيانة محرم؛ بخلاف من ٱشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن الله حَرّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه وأن يُظَن به ظنّ السوء" . وعن الحسن : كنا في زمنٍ الظنُّ بالناس فيه حرام ، وأنت اليوم في زمن اعمل وٱسكتْ وظُنّ في الناس ما شئت .

الثالثة ـ للظن حالتان : حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيم المتلفات وأروش الجنايات . والحالة الثانيـة ـ أن يقـع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهـذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهى عنـه على ما قررناه آنفا . وقـد أنكرت جماعة من المبتدعة تعبد الله بالظن وجـواز العمل به ؛ تحكمّا في الدين ودعوى في المعقول . وليس في ذلك أصل يعوّل عليـه ؛ فإن الباريَّ تعالى لم يذم جميعه ، وإنمـا أورد الذمّ في بعضه . وربمـا تعلّقوا بحـديث أبي هريرة "إياكم والظن" فإن هذا لا حجة فيه؛ لأن الظن في الشريعة قسمان : محمود ومذموم ؛ فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه . والمذموم ضدّه؛ بدلالة قوله تعـالى : « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ، وقوله : « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً[1] » ، وقوله : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُوراً[2] » وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكى على الله أحدا " . وقال : " إذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فـلا تبغ وإذا تطيّرت فآمض " خرّجه أبو داود . وأكثر العلمـاء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح؛ قاله المَهْدَويّ .

الرابعـة ـ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن بٱختلاف وغيرهما « ولا تحسسوا » بالحاء . واختلف هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؛ فقال الأخفش : ليس

(١) آية ١٢ سورة النور . (٢) آية ١٢ سورة الفتح .

تبعد إحداهما من الأخرى ؛ لأن التجسّس البحثُ عما يُكتم عنك . والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل : إن التجسس (بالجيم) هو البحث ؛ ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور . وبالحاء : هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقولٌ ثانٍ في الفرق : أنه بالحاء تطلّبه لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ؛ قاله ثعلب . والأوّل أعرف . جَسَست الأخبار وتجسّستها أى تفحّصت عنها ؛ ومنه الجاسوس . ومعنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تَتّبعوا عورات المسلمين؛ أى لا يبحث أحدكم عن عَيب أخيه حتى يطّلع عليه بعد أن ستره الله . وفى كتاب أبى داود عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن ٱتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء : كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها . وعن المِقدام بن مَعْدِى كَرِب عن أبى أُمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الأمير إذا ٱبتغى الريبة فى الناس أفسدهم " . وعن زيد بن وهب قال : أُتِىَ ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به . وعن أبى بَرْزة الأسلمى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم . فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يَفْضحه فى بيته ". وقال عبد الرحمن ابن عَوْف: حَرَست ليلةً مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج فى بيت بابُه مُجافٌ على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ؛ فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرّب فما ترى ! ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » وقد تجسسنا ؛ فانصرف عمر وتركهم . وقال أبو قِلابة : حُدِّث عمر ابن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثّقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ؛ فإذا ليس عنده إلا رجل؛ فقال أبو مِحْجن : إن هذا لا يحلّ لك ! قد نهاك الله عن التجسس ؛ فخرج عمر وتركه . وقال زيد بن أسلم : خرج عمر وعبد الرحمن يَعُسّان ،

إذ تبيّنت لها نار فاستأذنا ففتح الباب ؛ فإذا رجل وامرأة تغنّى وعلى يد الرجل قدح ؛ فقال عمر : وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين ! قال عمر : فمن هذه منك ؟ قال امرأتى ؛ قال فما فى هذا القدح؟ قال ماء زُلال؛ فقال للمرأة: وما الذى تُغَنّين ؟ فقالت :

تطاول هذا الليل وٱسْودّ جانبُه ... وأرّقنى أن لا خليلَ ألاعبُهْ

فواللهِ لولا اللهُ أنى أراقبُه ... لزُعْزِع من هذا السرير جوانبه

ولكنّ عقلى والحياء يَكُفُّنِى ... وأُكْرِم بَعْلِى أن تُنال مَرَاكِبُهْ

ثم قال الرجل : ما بهذا أُمِرْنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » . قال صدقت .

قلت : لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل؛ لأن عمر لا يقرّ على الزنى، وإنما غنّت بتلك الأبيات تذكارا لزوجها ، وأنها قالتها فى مَغيبه عنها[1] . والله أعلم . وقال عمرو بن دينار : كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت ، فكان يعودها فماتت فدفنها . فكان هو الذى نزل فى قبرها ، فسقط من كمه كيس فيه دنانير ، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال : لأكشفنّ حتى أنظر ما آل حال أختى إليه ؛ فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارا ، فجاء إلى أمه فقال : أخبرينى ما كان عمل أختى ؟ فقالت : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها ! فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم، فتجسّس عليهم وتُخرج أسرارهم ؛ فقال : بهذا هلكت !

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ نهى عز وجل عن الغِيبة ، وهى أن تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما الغِيبة " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " ذكرك أخاك بما يكره " قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟

(١) راجع هذه القصة فى ج ٣ ص ١٠٨ من هذا الكتاب .

قال : "إن كان فيه ما تقول فقد أغتبته و إن لم يكن فيه فقد بهته". يقال : اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه ، والاسم الغيبة ، وهي ذكر العيب بظهر الغيب[1] . قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان . فأما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه . وعن شعبة قال قال لي معاوية — يعني ابن قرة — : لو مر بك رجل أقطع ؛ فقلت هذا أقطع كان غيبة . قال شعبة : فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق . وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب؛ فسكت عنهما ، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : " أين فلان وفلان " ؟ فقالا : نحن ذا يا رسول الله ؛ قال " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار " فقالا : يا نبي الله ومن يأكل من هذا ! قال : " فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ مثّل الله الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه . وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس . وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيًّا . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية . قال الشاعر :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم * وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا[2]

---

(١) الظهر : ما غاب عنك .

(٢) البيت للمقنع الكندي ، واسمه محمد بن عميرة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما صام من ظل يأكل لحوم الناس " . فشبّه الوقيعة فى الناس بأكل لحومهم . فمن تنقّص مسلما أو ثلَم عرضه فهو كالآكل لحمه حيا ، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً . وفى كتاب أبى داود عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عُرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمُشُون وجوههم وصدورهم فقلت مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم " . وعن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كُسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سُمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة " . وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين " . وقوله للرجلين : " مالى أرى خُضرة اللحم فى أفواهكما " . وقال أبو قلابة الرقاشى : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما فى الغيبة . وكان ميمون بن سياه لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده ؛ ينهاه فإن انتهى وإلا قام . وذكر الثعلبى من حديث أبى هريرة قال : قام رجل من عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فرأوا فى قيامه عجزا فقالوا : يا رسول الله ما أعجز فلانا ! فقال : " أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه " . وعن سفيان الثورى قال : أدنى الغيبة أن تقول إن فلانا جَعْدٌ قَطَطٌ[1] ؛ إلا أنه يكره ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء ، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء . وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر ؛ فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ؛ قال : إياه فارحموا . وقال رجل للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ! فقال : لم يبلغ قدرك عندى أن أحكمك فى حسناتى .

---

(١) الجعد فى صفات الرجال، يكون مدحا وذما ؛ فالمدح أن يكون معناه شديد الأسر (القوة) والخلق . أو يكون جعد الشعر ، وهو ضد السبط .

وأما الذم فهو القصير المتردّد الخلق . وقد يطلق على البخيل أيضا ؛ يقال : رجل جعد اليدين ؛ والقطط : القصير الجعد من الشعر .

السابعــة — ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا فى الدين ولا تكون فى الخلقة والحسب . وقالوا : ذلك فعل الله به . وذهب آخرون إلى عكس هـذا فقالوا : لا تكون الغيبة إلا فى الخَلْق والخُلُق والحسب . والغيبة فى الخَلْق أشـدّ ؛ لأن من عَيّب صنعة فإنما عيّب صانعها . وهذا كله مردود. أما الأوّل فيردّه حديث عائشة حين قالت فى صفية : إنها امرأة قصيرة؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لقد قلت كلمة لو مُزج بهـا البحر لمزجته " . خرجه أبو داود . وقال فيـه الترمذى : حديث حسن صحيح؛ وما كان فى معناه حسب ما تقدّم . وإجماع العلماء قديما على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب . وأما الثانى فردود أيضا عند جميع العلماء ؛ لأن العلماء من أوّل الدهر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين بعـدهم لم تكن الغيبة عنـدهم فى شيء أعظم من الغيبـة فى الدين؛ لأن عيب الدين أعظم العيب ؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر فى دينه أشد ممـا يكره فى بدنه . وكفى ردا لمن قال هذا القول قولُه عليه السلام: " إذا قلت فى أخيك ما يكره فقد اغتبته ... " الحديث . فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد ردّ ما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم نصًّا . وكفى بعموم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" وذلك عام للدين والدنيا . وقول النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "من كانت عنده لأخيه مَظْلِمَة فى عرضه أو ماله فليتحلله منه " . فعمّ كل عرض ؛ فمن خص من ذلك شـيئا دون شيء فقد عارض ما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنــة — لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عز وجل . وهل يستحلّ المغتاب ؟ اختلف فيه ؛ فقالت فرقة : ليس عليه استحلاله ، وإنمـا هى خطيئة بينـه وبين ربه . واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه ، فليس ذلك بمَظْلَمة يستحلها منه ، وإنمـا المظلمة ما يكون منه البدل والعِوَض فى المـال والبدن . وقالت فرقة : هى مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه . واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته . وقالت فرقة : هى مظلمة وعليـه الاستحلال منها . واحتجت بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من كانت

لأخيه عنده مَظْلَمَة فى عِرْض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته". خرّجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه". وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ »[1] . وقد روى من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة : ما أطول ذيلها ! فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيها فاستحلّيها . فدلت الآثار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها. وأما قول من قال : إنما الغيبة فى المال والبدن ؛ فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مظلمة يأخذه بالحدّ حتى يقيمه عليه ؛ وذلك ليس فى البدن ولا فى المال . ففى ذلك دليل على أن الظلم فى العرض والبدن والمال ، وقد قال الله تعالى فى القاذف : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ »[2] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بَهَتَ مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله فى طِينة الخبال[3]" . وذلك كله فى غير المال والبدن . وأما من قال : إنها مظلمة ، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها ؛ فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال كفارتها أن يستغفر لصاحبها ؛ لأن قوله مظلمة تثبت ظلامة المظلوم ؛ فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له . وأما قول الحسن فليس بحجة ، وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت له عند أخيه مظلمة فى عِرْض أو مال فليتحللها منه" . وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله ، ورأى أنه لا يحل له ما حرّم الله عليه ؛ منهم سعيد بن المسيب قال : لا أحلل من ظلمنى . وقيل لابن سيرين : يا أبا بكر ، هذا رجل

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ . (٢) آية ١٣ سورة النور .

(٣) الخبال : الفساد ؛ و يكون فى الأفعال والأبدان والعقول . و « طينة الخبال » : عصارة أهل النار .

سألك أن تحله من مظلمة هى لك عنده ؛ فقال : إنى لم أحرمها عليه فأحلّها ، إن الله حرّم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلّ ما حرّم الله عليه أبدا . وخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم يدل على التحليل ، وهو الحجة والمبيِّن . والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو ؛ وقد قال تعالى: « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »[1] .

التاسعة — ليس من هذا الباب غِيبة الفاسق المعلن به المجاهر ؛ فإن فى الخبر " من ألقى جِلْباب الحياء فلا غِيبة له " . وقال صلى الله عليه وسلم : " اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس " . فالغيبة إذًا فى المرء الذى يستر نفسه . وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر . وقال الحسن لما مات الحجاج : اللهم أنت أَمَتَّه فاقطع عنا سنته — وفى رواية شَيْنه — فإنه أتانا أُخَيْفِش أُعَيْمِش ، يمدّ بيد قصيرة البنان ، والله ما عَرِق فيها غبار فى سبيل الله ، يُرَجِّل جُمّته ويَخْطِر فى مِشْيته ، ويَصْعَد المنبر فيَهْدِر حتى تفوته الصلاة . لا من الله يَتَّقِى ، ولا من الناس يستحى ؛ فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاةَ أيها الرجل . ثم يقول الحسن : هيهات ! حال دون ذلك السيف والسَّوْط . وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البدع غِيبة . وكذلك قولك للقاضى تستعين به على أخذ حقك ممن ظلمك فتقول : فلان ظلمنى أو غصبنى أو خاننى أو ضربنى أو قذفنى أو أساء إلىّ ؛ ليس بغيبة . وعلماء الأمة على ذلك مجمعة . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك : " لصاحب الحق مقال " . وقال : " مَطْلُ الغنيّ ظلم " وقال : " لَيّ الواجد[2] يُحِلّ عِرْضَه وعقوبته " . ومن ذلك الاستفتاء ؛ كقول هند للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى ، فآخذ من غير علمه ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نعم فخذى " . فذكرته بالشُّحّ والظلم لها ولولدها ، ولم يرها مغتابة ؛ لأنه لم يغيّر عليها ، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيَا لها . وكذلك إذا كان فى ذكره بالسوء فائدة ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) آية ٤٠ سورة الشورى . (٢) الواجد : القادر على قضاء دينه .

"أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم[1] فلا يضع عصاه عن عاتقه" . فهذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس[2] بهما . قال جميعه المحاسبي رحمه الله .

العاشرة – قوله تعالى : ﴿ مَيْتًا ﴾ وقرئ « مَيِّتا » وهو نصب على الحال من اللحم . ويجوز أن ينصب على الأخ ، ولما قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عَقّب ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . وفيه وجهان : أحدهما – فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة ؛ رُوى معناه عن مجاهد . الثاني – فكرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس . وقال الفراء : أى فقد كرهتموه فلا تفعلوه . وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر ؛ أى اكرهوه . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ عطف عليه . وقيل : عطف على قوله : « اجتنبوا . ولا تجسسوا » . ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى – قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ يعنى آدم وحواء . ونزلت الآية فى أبى هند ؛ ذكره أبو داود فى (المراسيل) ؛ حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدّثنا بقيّة بن الوليد قال حدثنى الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بَيَاضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم ؛ فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نزوّج

(١) هو ابن حذيفة بن غانم القرشى . وقوله : « لا يضع عصاه » أى أنه ضراب للنساء . وقيل : هو كناية عن كثرة أسفاره ؛ لأن المسافر يحمل عصاه فى سفره . (٢) هى أخت الضحاك بن قيس ، كانت من المهاجرات الأول ، وكانت ذات جمال وعقل وكمال ، وكانت عند أبى عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها فخطبها معاوية وأبو جهم ، فاستشارت النبى عليه السلام فيهما فأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته

بناتنـا موالينا ؟ ! فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً » الآية . قال الزهرى : نزلت فى أبى هند خاصة . وقيـل : إنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شمّـاس . وقوله فى الرجل الذى لم يتفسح له : ابن فلانة؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "من الذاكر فلانة" ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "انظر فى وجوه القوم" فنظر؛ فقال : "ما رأيت" ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر؛ فقال : "فإنك لا تفضـلهم إلا بالتقوى" فنزلت فى ثابت هـذه الآية . ونزلت فى الرجل الذى لم يتفسح له : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ »(1) الآية . قال ابن عباس: لـما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذّن؛ فقال عتّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمـد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هـذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هـذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيّره . وقال أبو سفيان : إنى لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء؛ فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا؛ فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء؛ فإن المدار على التقوى . أى الجميع من آدم وحواء ، إنمـا الفضل بالتقوى . وفى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال : "يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبّيّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل برّ تقىّ كريم على الله، وفاجر شقىّ هيّن على الله . والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » " . خرّجه من حديث عبـد الله بن جعفر والد على بن المـدينى وهو ضعيف ، ضـعّفه يحيى بن معـين وغيره . وقد خرّج الطبرى فى كتاب (آداب النفـوس) وحدّثنى يعقوب بن إبراهـيم قال حدّثنـا إسماعيل قال حدّثنا سعيد الجُرَيرى عن أبى نضرة قال : حدّثنى أو حدّثنا من

---

(1) آية ١١ سورة المجادلة .

شهد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنًى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : " يأيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألّا لا فضل لعربىّ على عجمىّ ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلّغت؟ قالوا نعم؛ قال ـ ليبلّغ الشاهدُ الغائب" . وفيه عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم" . ولعلىّ رضى الله عنه فى هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهـمُ آدمُ والأمّ حـواء
نفسٌ كنفس وأرواحٌ مشاكلة	وأعظمٌ خُلقت فيهـم وأعضاء
فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ	على الهُدى لمن استهْدى أدلّاء
وقَدْرُ كلّ امرئ ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

الثانيـة ـ بيّن الله تعالى فى هذه الآية أنه خلق الخلق من الذّكر والأنثى ، وكذلك فى أوّل سورة « النساء »[1] . ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم، أو دون ذَكَر كخلقه لعيسى عليه السلام ، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين . وهذا الجائز فى القدرة لم يرد به الوجود . وقد جاء أن آدم خلق الله منه حوّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه؛ فلعله هذا القسم؛ قاله ابن العربى .

الثالثـة ـ خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا، وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التى قدرها وهو أعلم بها ؛ فصار كل أحد يحوز نسبه ؛ فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحدّ بقذفه ؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه،

(١) راجع جـ ٥ ص ١ وما بعدها .

بقوله للعربي : يا عجمي، وللعجمي : يا عربي ؛ ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة .
انتهى .

الرابعة — ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربى في رحم الأم ، ويستمد من الدم الذي يكون فيه . واحتجوا بقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ »[1] . وقوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »[2] . وقوله : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى »[3] . فدلّ على أن الخلق من ماء واحد . والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية ؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل . وقوله تعالى: « خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »[4] والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ؛ على ما يأتي بيانه . وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسُّلالة والنطفة ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر . فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا . وبأن المرأة تمنى كما يمنى الرجل ، وعن ذلك يكون الشبه ؛ حسب ما تقدّم بيانه في آخر « الشورى »[5] . وقد قال في قصة نوح « فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »[6] وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض ؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين ، فلا ينكر أن يكون « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » . وقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ويريد ماءين . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ الشعوب رءوس القبائل ؛ مثل ربيعة ومُضَر والأوس والخَزْرَج ، واحدها « شَعْب » بفتح الشين ؛ سُمُّوا به

---

(١) آية ٢٠ ، ٢١ سورة المرسلات
(٢) آية ٨ سورة السجدة .
(٣) آية ٣٧ سورة القيامة .
(٤) آية ٦ ، ٧ سورة الطارق .
(٥) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء .
(٦) آية ١٢ سورة القمر .

لتشعّبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة . والشَّعْب من الأضداد ؛ يقال شعبته إذا جمعته؛ ومنه المِشْعَب (بكسر الميم)، وهو الإشْفَى؛ لأنه يجمع به ويشعب . قال :

فَكَابٍ على حُرّ الجبين ومُتّقٍ * بمَدْرِيَةٍ كأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ[1]

وشَعَبته إذا فرّقته ؛ ومنه سميت المنية شَعُوبا لأنها مفرّقة . فأما الشِّعب (بالكسر) فهو الطريق فى الجبل ؛ والجمع الشعاب . قال الجوهرى : الشَّعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ؛ والجمع الشعوب . والشُّعُوبية : فرقة لا تفضّل العرب على العجم . وأما الذى فى الحديث أن رجلا من الشعوب أسلم[2] ؛ فإنه يعنى من العجم . والشَّعْب : القبيلة العظيمة ، وهو أبو القبائل الذى ينسبون إليه ؛ أى يجمعهم ويضمهم . قال ابن عباس : الشعوب الجمهور[3]؛ مثل مضر. والقبائل الأفخاذ . وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب؛ والقبائل دون ذلك . وعنه أيضا أن الشعوب النسب الأقرب . وقاله قتادة . ذكر الأول عنه المَهْدَوِىّ[4]، والثانى الماوردى . قال الشاعر :

رأيت سعودا من شعوب كثيرة * فلم أر سعدًا مثل سعدِ بن مالك

وقال آخر :

قبائلُ من شعوب ليس فيهم * كريم قد يعدّ ولا نجيب

وقيل : إن الشعوب عَرَب اليمن من قَحْطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل : إن الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب . وقال ابن عباس فى رواية : إن الشعوب الموالى ، والقبائل العرب . قال القُشَيْرِىّ : وعلى هذا فالشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب كالهند والجبْل[5] والترك ؛ والقبائل من العرب . الماوردى : ويحتمل أن

(١) قوله : « فكاب على حر الجبين » أى خار على وجهه . و « المدرية » : القرن ؛ وهى المدرى والمدراة ، والجمع مدارٍ ومدارَى . و « ذلق » ذلق كل شىء : حدّه . و « مشعب » مثقب .

(٢) تمام الحديث كما فى اللسان : « فكانت تؤخذ منه الجزية ؛ فأمر عمر ألا تؤخذ منه » .

(٣) هذا القول منسوب إلى ابن جبير . والمأثور عن ابن عباس أن « الشعوب الجماع » والجماع (بضم الجيم وتشديد الميم) : مجتمع أصل كل شىء . أراد : منشأ النسب وأصل المولد . وقيل : أراد به الفرق المختلفة من الناس .

(٤) هو طرفة بن العبد . (٥) الجبل : الأمة من الخلق والجماعة من الناس ؛ وفيه لغات كثيرة . راجع جـ ١٥ ص ٤٧ من هذا التفسير .

الشعوب هم المضافون إلى النواحى والشعاب ؛ والقبائل هم المشتركون فى الأنساب . قال الشاعر :

وتفرقوا شُعَبًا فكل جزيرة * فيها أمير المؤمنين ومنبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبى عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفَخذ . وقيل : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفَصيلة ثم العَشيرة ؛ وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

اقصد الشَّعب فهو أكثر حَىٍّ * عددًا فى الحواء ثم القبيله

ثم تتلوها العمارة ثم الـ * ـبطن والفخذ بعدها والفصيله

ثم من بعدها العشيرة لكن * هى فى جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر :

قبيلة قبلها شَعْب وبعدهما * عِمارة ثم بَطْن تِلْوُه فَخِذُ

وليس يؤوى الفتى إلا فصيلته * ولا سداد لِسَهْم ماله قُذَذُ[1]

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقد تقدّم فى سورة « الزخرف » عند قوله تعالى : « وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »[2] . وفى هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هى المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب . وقرئ « أَنّ » بالفتح . كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب؟ قيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وفى الترمذى عن سَمُرَة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الحسب المالُ والكرمُ التقوى" . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وذلك يرجع إلى قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » . وقد جاء منصوصا عنه عليه السلام : "من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله" . والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه . وقد مضى هذا فى غير موضع . وفى الخبر من رواية أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول يوم القيامة إنى جعلت نَسَبًا وجعلتم

(١) القذذ (جمع قذة) : ريش السهم . (٢) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء .

نَسَبًا بجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون " . وروى الطبري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوليائي المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا " . وأَعْرَض في كُلِّ عِطْفَيْه . وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سِرٍّ يقول : " إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنما وَلِيِّيَ الله وصالح المؤمنين " . وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : من أكرم الناس؟ فقال : " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " قالوا : ليس عن هذا نسألك ؛ قال : فأكرمهم عند الله أتقاهم " فقالوا : ليس عن هذا نسألك ؛ فقال : " عن معادن العرب ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " وأنشدوا في ذلك :

ما يصنع العبد بعزّ الغنى * والعزُّ كلّ العزّ للمُتّقي

من عرف الله فلم تغنه * معرفةُ الله فذاك الشَّقِي

السابعة ـ ذكر الطبري حدثني عمر[1] بن محمد قال حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدثنا مندل بن علي عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبي الجعد قال : تزوج رجل من الأنصار امرأة فطُعن عليها في حسبها ؛ فقال الرجل : إني لم أتزوجها لحسبها إنما تزوجتها لدينها وخُلُقها ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما يضرك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة " . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لَوْم على مسلم إنما اللَّوْم لَوْمُ الجاهلية " . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي " ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى . قال ابن العربي : وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح . روى عبد الله عن مالك يتزوج المَوْلى العربية ؛ واحتج بهذه الآية . وقال أبو حنيفة والشافعي :

---

(١) في بعض النسخ : « عمرو » .

يراعى الحسب والمال . وفى الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة — وكان ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم — تبنّى سالما وأنكحه هندا[1] بنت أخيه الوليد بن عتبة ابن ربيعة؛ وهو مولى لأمرأة من الأنصار . وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود .

قلت : وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال . وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة . فدلّ على جواز نكاح الموالى العربية ؛ وإنما تراعى الكفاءة فى الدِّين . والدليل عليه أيضا ماروى سهل بن سعد فى صحيح البخارى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ عليه رجل فقال : " ما تقولون فى هذا " ؟ فقالوا : حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَح ، وإن شَفَع أن يُشَفَّع وإن قال أن يُسْمَع . قال : ثم سكت ؛ فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : " ما تقولون فى هذا " قالوا : حَرِيٌّ إن خطب ألا يُنْكَح ، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع ، وإن قال ألا يُسْمع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا خير من مِلء الأرض مثل هذا " . وقال صلى الله عليه وسلم : " تُنْكَح المرأة لمالها وجمالها ودينها — وفى رواية — ولحسبها فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك " . وقد خطب سلمان إلى أبى بكر ٱبنته فأجابه ، وخطب إلى عمر ٱبنته فالتوى عليه ، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان . وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها؛ فقال بلال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من بنى البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعونى وآذونى؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل بلال ؛ فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم : أمرى بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزوّجوها . وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى أبى هند حين حجمه : " أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه" . وهو مولى بنى بياضة . وروى الدَّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِيّ عن عُرْوَة عن عائشة أن أبا هند مولى بنى بياضة كان حجاما فحجم النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى أبى هند" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنكحوه وأنكحوا إليه " . قال القشيرى أبو نصر :

---

(١) وتسمى فاطمة .

وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوّة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح. والتقيّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب؛ فإن كانا تقيّين فحينئذ يقدّم النسيب منهما؛ كما يقدّم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوى.

قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

نزلت في أعراب من بني أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السرّ. وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يَمُنُّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس : نزلت في أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا؛ فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين. وقال السدّي : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: أعراب مُزَيْنة وجُهَيْنة وأسلَم وغِفَار والدِّيل وأشجع؛ قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم؛ فلما استنفروا إلى المدينة تخلّفوا؛ فنزلت. وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى. ومعنى « وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » أي استسلمنا خوف القتل والسَّبْي، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم؛ وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر، وذلك يَحْقِن الدم. ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني إن تخلصوا الإيمان ﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ أي لا ينقصكم. ﴿ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ لاته يليته ويَلُوته : نقصه. وقرأ أبو عمرو « لا يألتكم » بالهمزة، من أَلَتَ يَأْلِت

أَلْتًا ؛ وهو اختيار أبي حاتم ؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ »(١).
قال الشاعر :

أبلغ بني ثُعَلٍ عنّي مُغَلْغَلَةً * جَهْدَ الرِّسالة لا أَلْتًا ولا كَذِبا

واختار الأولى أبو عبيد . قال رُؤْبَة :

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ * ولم يَلِتْنِي عن سُرَاها لَيْتُ

أي لم يمنعني عن سُراها مانع ؛ وكذلك ألاته عن وجهه ؛ فَعَل وأَفْعَل بمعنًى . ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا ؛ أي ما نقصه ؛ مثل ألته ؛ قاله الفراء . وأنشد :

ويأكل ما أَغْنَى الوَلِيُّ فلم يَلِتْ * كأن بحافات النِّهاء المَزَارِعا(٢)

قوله : فلم « يَلِتْ » أي لم ينقص منه شيئا . و « أَغْنَى » بمعنى أنبت ؛ يقال : ما أَغْنَت الأرض شيئا ؛ أي ما أنبتت . و « الوَلِيّ » المطر بعد الوَسْمِيّ(٣) ؛ سُمِّيَ وَلِيًّا لأنه يلي الوسميّ . ولم يقل : لا يألتاكم ؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول .

قوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي صدّقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ في إيمانهم ؛ لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب . فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر

---

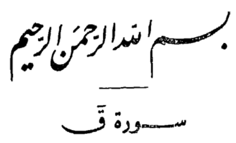
(١) آية ٢١ سورة الطور . (٢) البيت لعدي بن زيد .

(٣) الوسمي : مطر الربيع الأول ؛ سمي به لأنه يسم الأرض بالنبات .

والعلانية وكذبوا ؛ فنزلت . ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ الذى أنتم عليه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما في السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ إشارة إلى قولهم : جئناك بالأثقال والعيال . و « أن » في موضع نصب على تقدير لأن أسلموا . ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ أي بإسلامكم . ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ « أن » موضع نصب ، تقديره بأن . وقيل : لأن . وفي مصحف عبد الله « إذ هداكم » . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم مؤمنين . وقرأ عاصم « إن هداكم » بالكسر ، وفيه بُعْد ؛ لقوله « إن كنتم صادقين » . ولا يقال : يمن عليكم أن يهديكم إن صدقتم . والقراءة الظاهرة « أن هداكم » . وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين ؛ لأن تقدير الكلام : إن آمنتم فذلك منة الله عليكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو بالياء على الخبر ؛ ردًّا على قوله : « قالت الأعراب » . الباقون بالتاء على الخطاب .



سورة ق

مكية كلها وهى خمس وأربعون آية

مكية كلها فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . قال ابن عباس وقتادة إلا آية ، وهى قوله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ» . وفى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا سنتين — أو سنةً و بعضَ سنةٍ — وما أخذت « ق والقرآن المجيد » إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يقرؤها كلَّ يومِ جمعة على المنبر إذا خطب الناس . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبا واقد الليثيّ ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيهما بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » و « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » . وعن جابر بن سَمُرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الفجر بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » وكان صلاته بعدُ تخفيفا .

قوله تعالى : قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ قرأ العامة « قافْ » بالجزم . وقرأ الحسن وابن أبى إسحق ونصر بن عاصم « قافِ » بكسر الفاء؛ لأن الكسر أخو الجزم ، فلما سكن

آخره حركوه بحركة الخفض . وقرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء حركه إلى أخف الحركات .
وقرأ هرون ومحمد بن السَّمَيْقَع « قافُ » بالضم ؛ لأنه فى غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ
وقطُّ وقبلُ وبعدُ . وآختلف فى معنى « قٓ » ما هو؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو
جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء آخضرت السماء منه ، وعليه طَرَفَا السماءِ والسماءُ عليه
مَقْبِيَّةٌ ، وما أصاب الناسُ من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل . ورواه أبو الجوزاء عن
عبد الله بن عباس . قال الفرّاء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى « قٓ » ؛ لأنه
آسم وليس بهجاء . قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من آسمه؛ كقول القائل :

* قلتُ لها قِفِى فقالتْ قافْ *

أى أنا واقفة . وهذا وجه حسن وقد تقدّم أوّل « البقرة »(1) . وقال وهب : أشرف
ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالا صغارا ، فقال له : ما أنت ؟ قال : أنا قاف ؛
قال : فما هذه الجبال حولك ؟ قال : هى عروقى وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقى ،
فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرنى فحركت عرقى ذلك فتزلزلت تلك الأرض ؛ فقال له :
يا قاف أخبرنى بشىء من عظمة الله ؛ قال : إن شأن ربّنا لعظيمٌ ، وإن ورائى أرضا
مسيرة خمسمائة عام فى خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضا ، لولا هى لاحترقتُ من
حر جهنم . (فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها ، وأين هى من
الأرض)(2) . قال : زدنى، قال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تُرْعَد فرائصُه ،
يخلق الله من كل رِعْدة مائة ألف ملك ، فأولئك الملائكة وقوف بين يدى الله تعالى منكسو
رءوسهم ، فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا الله؛ وهو قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ
الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » يعنى قول : لا إله
إلا الله . وقال الزجاج : قوله « قٓ » أى قُضِى الأمر كما قيل فى « حمٓ » أى حُمَّ الأمرُ .
وقال آبن عباس : « قٓ » آسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وعنه أيضا : أنه آسم من أسماء

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٥٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبى .

القرآن . وهو قول قتادة . وقال القُرظى : ٱفتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاض وقابض . وقال الشَّعبى : فاتحة السورة . وقال أبو بكر الورّاق : معناه قِفْ عند أمرنا ونهينا ولا تعدُهما . وقال محمد بن عاصم الأنطاكى : هو قرب الله من عباده ؛ بيانه « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . وقال ٱبن عطاء : أقسم الله بقوّة قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله . « وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » أى الرفيع القدر . وقيل : الكريم ؛ قاله الحسن . وقيل : الكثير ؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد ، من قولهم : كثير فلان فى النفوس ؛ ومنه قول العرب فى المثل السائر : فى كلّ شجر نارٌ ، وٱستمجدَ المَرْخُ والعَفَار . أى ٱستكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر ؛ قاله ابن بحر . وجواب القسم قيل هو : « قد عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » على إرادة اللام ؛ أى لقد علمنا . وقيل هو : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى » وهو ٱختيار الترمذى . محمد بن على قال : « قٓ » قسم بٱسم هو أعظم الأسماء التى خرجت إلى العباد وهو القدرة ، وأقسم أيضا بالقرآن المجيد ، ثم ٱقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد ، وخلق الآدميين ، وصفة يوم القيامة والجنة والنار ، ثم قال : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال : « قٓ » أى بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما ٱقتصصت فى هذه السورة « لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » . وقال ابن كَيْسان : جوابه « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ » . وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم « بَلْ عَجِبُوا » . وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » لَتُبْعَثُنَّ ؛ يدل عليه « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ « أَنْ » فى موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم ، يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، والضمير للكفّار . وقيل : للؤمنين والكفار جميعا . ثم ميز بينهم بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ ولم يقل فقالوا ، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر ، كما تقول : جاءنى فلان فأسمعنى المكروه ، وقال لى الفاسق

أنت كذا وكذا . ﴿ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ العجيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العُجاب بالضم ، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال قتادة : عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد . وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور . والذى نص عليه القرآن أولى .

قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ نبعث، ففيه إضمار . ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ الرجع الرّد أى هو ردّ بعيد أى محال . يقال : رَجَعْته أَرْجِعه رَجْعًا ، ورَجَع هو يَرجع رُجوعا ، وفيه إضمار آخر ؛ أى وقالوا أنبعث إذا متنا . وذكر البعث وإن لم يجر ها هنا فقد جرى فى مواضع ، والقرآن كالسورة الواحدة . وأيضا ذكر البعث مطوى تحت قوله : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ » لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أى ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شىء حتى تتعذر علينا الإعادة . وفى التنزيل : « قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى » . وفى الصحيح : " كُلُّ ابنِ آدمَ يأكلُه التّرابُ إلا عَجْبَ الذَّنَبِ منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ " وقد تقدّم . وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرضُ أجسادهم ؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم . وقد بينا هذا فى كتاب « التذكرة » وتقدّم أيضا فى هذا الكتاب . وقال السدى : النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى ؛ لأن من مات دُفن فكأن الأرضَ تَنقصُ من الناس . وعن ابن عباس : هو من يدخل فى الإسلام من المشركين . ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أى بعدّتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل . وقيل : اللوح المحفوظ أى محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شىء . وقيل : الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء ؛ كما تقول : كتبت عليك هذا أى حفظته ؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة . وقيل : أى وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بنى آدم لنحاسبهم عليها .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ أى القرآن فى قول الجميع ؛ حكاه الماوردى . وقال الثعلبى : بالحق القرآن. وقيل : الإسلام . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾

أى مختلط . يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن ؛ قاله الضحاك وابن زيد . وقال قتادة : مختلف . الحسن : ملتبس ؛ والمعنى متقارب . وقال أبو هريرة : فاسد ؛ ومنه مَرِجت أماناتُ الناس أى فسدت ، ومَرِجَ الدينُ والأمرُ آختلط ؛ قال أبو دؤاد :

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدْ[1]

وقال آبن عباس : المريج الأمر المنكر . وقال عنه عمران بن أبى عطاء : « مريج » مختلط . وأنشد[2] :

فَجَالَتْ فَالْتمستُ به حَشَاهَا * فَخَرَّ كَأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيجُ

الخُوطُ الغصن . وقال عنه العوفى : فى أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن . وقيل : متغير . وأصل المَرَج الآضطراب والقلق ؛ يقال : مَرِج أمرُ الناس ومَرِج أمرُ الدين ومرِج الخاتمُ فى إصبعى إذا قَلِق من الهزال . وفى الحديث : "كيف بك يا عبد الله[3] إذا كنت فى قوم قد مَرِجت عهودُهم وأماناتُهم وآختلفوا فكانوا هكذا وهكذا" وشَبَّك بين أصابعه . أخرجه أبو داود وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

---

(١) الحارك الكاهل . والكتد مجمع الكتفين من الإنسان والفرس .

(٢) البيت للداخل الهذلى ؛ و يروى فراغت بدل فجالت والضمير للبقرة . و به أى بالسهم .

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما فى مسند أبى داود .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ نظر اعتبار وتفكر ، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة . ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالنجوم ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ جمع فرج وهو الشق ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ [1] *

وقال الكسائى : ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق . ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ تقدم فى « الرعد [2] » بيانه . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أى من كل نوع من النبات ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أى حسن يسر الناظرين ؛ وقد تقدم فى « الحج [3] » بيانه . ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أى جعلنا ذلك تبصرة لندل به على كمال قدرتنا . وقال أبو حاتم : نصب على المصدر ؛ يعنى جعلنا ذلك تبصيرا وتنبيها على قدرتنا ﴿ وَذِكْرَى ﴾ معطوف عليه . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلى الله مفكر فى قدرته .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب ﴿ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أى كثير البركة . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ التقدير ؛ وحبَّ النبت الحصيد وهو كل ما يحصد . هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، كما يقال : مسجدُ الجامع وربيعُ الأول وحقُّ اليقين وحبل الوريد ونحوها ؛ قاله الفراء . والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت . وقال الضحاك : حبّ الحصيد البُرُّ والشعيرُ . وقيل : كل حبّ يُحصد ويُدّخر ويُقتات . ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ نصب على الحال [4] ردّا على قوله : « وَحَبَّ الْحَصِيدِ » و « بَاسِقَاتٍ » حال . والباسقات الطوال ؛ قاله مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال عبد الله بن شداد : بُسُوقها استقامتها فى الطول . وقال سعيد بن جبير :

---

(١) البيت فى وصف فرسه ، وصدره :

* لها ذنب مثل ذيل العروس *

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) هكذا فى الأصول ، ولعل صواب العبارة أن تكون كما قال السمين : «والنخل» منصوب على العطف أى وأنبتنا النخل ، و «باسقات» حال .

مستويات . وقال الحسن وعكرمة أيضا والفراء : مواقير حوامل ؛ يقال للشاة بَسقت إذا ولدت، قال الشاعر :

فلمّا تركْنا الدارَ ظَلّتْ مُنيفةً * بِقُرّانَ فيه الباسقات المواقرُ

والأوّل فى اللغة أكثر وأشهر ؛ [يقال] : بَسَقَ النخلُ بُسوقًا إذا طال . قال :

لنا خمرٌ وليست خمرَ كَرْمٍ * ولكنْ مِن نِتاجِ الباسِقاتِ

كِرامٌ فى السماء ذَهَبْنَ طولًا * وفاتَ ثمارُها أيدى الجُنَاةِ

و يقال : بَسَقَ فلانٌ على أصحابه أى عَلَاهم، وأبسقت الناقةُ إذا وقع فى ضَرْعها اللِّبَن (1) قبل النِّتاج فهى مُبْسِق ونُوقٌ مَباسِيق . وقال قطبة بن مالك : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ « باصِقاتٍ » بالصاد؛ ذكره الثعلبي .

قلت : الذى فى صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صلّيت وصلّى بنا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم فقرأ « قٓ والْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » حتى قرأ « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » قال فجعلت أردّدها ولا أدرى ماقال؛ إلا أنه يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف . ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ الطلع هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل؛ يقال : طَلَعَ الطلعُ طُلوعًا وأطلعت النخلةُ ، وطَلْعها كُفُرّاها قبل أن ينشقّ . « نَضِيدٌ » أى متراكب قد نُضِّد بعضُه على بعض . وفى البخارى : «النضيد» الكُفُرّى مادام فى أكمامه، ومعناه منضود بعضه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد . ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ أى رزقناهم رزقا ، أو على معنى أنبتناها رزقا ؛ لأن الإنبات فى معنى الرزق، أو على أنه مفعول له أى أنبتناها لرزقهم ، والرزق ماكان مهيأ للانتفاع به . وقد تقدّم القول فيه (2) . ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أى من القبور أى كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم؛ فالكاف فى محل رفع على الابتداء . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع (3) . وقال « ميتا » لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز .

---

(1) فى بعض النسخ اللبأ وهو وزان عنب أوّل اللبن عند الولادة. (2) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وما بعدها.

(3) راجع جـ ١ ص ٢١١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أى كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب؛ ذكرهم بناء على من كان قبلهم من المكذّبين وخوّفهم ما أخذهم . وقد ذكرنا قصصهم فى غير موضع عند ذكرهم . ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ من هذه الأمم المكذبة . ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أى فحق عليهم وعيدى وعقابى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أى أفعيينا به فنعيا بالبعث . وهذا توبيخ لمنكرى البعث وجواب قولهم : « ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » . يقال : عَيِيت بالأمر إذا لم تعرف وجهه . ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى فى حيرة من البعث منهم مصدِّق ومنهم مكذِّب ؛ يقال : لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْسا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الناس ، وقيل آدم . ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أى ما يختلج فى سرّه وقلبه وضميره ، وفى هذا زجر عن المعاصى التى يستخفى بها . ومن قال : إن المراد بالإنسان آدم ؛ فالذى وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة ، ثم هو عامٌّ لولده . والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفى . قال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاسًا إذا انْصَرَفَتْ * كما اسْتَعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ (١)

وقد مضى فى « الأعراف » (٢). ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدّ من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال . روى معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف فى اللغة . والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين . وقال الحسن : الوريد الوتين وهو عِرق معلّق بالقلب . وهذا تمثيل للقرب ؛ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده الذى هو منه ، وليس على وجه قرب المسافة . وقيل : أى ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه . وقيل : أى ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذى هو من نفسه ؛ لأنه عرق يخالط القلب ، فعلم الربِّ أقربُ إليه من علم القلب ؛ روى معناه عن مقاتل قال : الوريد عِرق يخالط القلب ؛ وهذا القرب قرب العلم والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علم الله شىء .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ؛ أى نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر ، ولكنهما وكلا به إلزاما للحجة ، وتوكيدا للأمر عليه . وقال الحسن ومجاهد وقتادة : « المتلقيان » ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . قال الحسن : حتى إذا متّ طُويت صحيفةُ عملك وقيل لك يوم القيامة : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليكَ حَسيباً » عَدلَ واللهِ عليك من جعلك حسيبَ نفسك . وقال مجاهد : وَكَّلَ اللهُ بالإنسان مع علمه بأحواله ملَكين بالليل وملَكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره إلزاما للحجة : أحدهما عن يمينه يكتب الحسناتِ ، والآخر عن شماله يكتب السيئاتِ ؛ فذلك قوله تعالى : « عن اليمينِ وعنِ الشمالِ قَعيدٌ » . وقال سفيان : بلغنى أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب [العبد] قال

---

(١) عشرق كزبرج : شجر ينفرش على الأرض عريض الورق وليس له شوك ، وثمرته قشرة إذا هبت الريح قلقت تلك القشرة فتخشخشت فسمعت للوادى الذى تكون به زجلا وجلبة تفزع الإبل .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا تعجل لعله يستغفر الله . وروى معناه من حديث أبى أمامة ؛ قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عَمِل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا و إذا عَمِل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر " . وروى من حديث على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن مقعدَ مَلَكيك على ثَنِيَّتـك[1] لسانُك قلمهما وريقُك مِدَادُهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك فلا تستحى من الله ولا منهما " . وقال الضحاك : مجلسهما تحت الثغر على الحنك . ورواه عوف عن الحسن قال : وكان الحسن يعجبه أن ينظف عَنْفَقته . و إنما قال : « قَعِيدٌ » ولم يقل قعيدان وهما آثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأوّل لدلالة الثانى عليه . قاله سيبويه ؛ ومنه قول الشاعر[2] :

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما * عندكَ راضٍ والرّأىُ مُختلِفُ

وقال الفرزدق :

إنّى ضَمِنتُ لمن أتانى ما جَنَى * وأَبِى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُورِ

ولم يقل راضيان ولا غدورين . ومذهب المبرِّد : أن الذى فى التلاوة أوّلٌ أُخِّرَ آتساعا ، وحذف الثانى لدلالة الأوّل عليه . ومذهب الأخفش والفراء : أن الذى فى التلاوة يؤدّى عن الاثنين والجمع ولا حذف فى الكلام . و « قَعِيدٌ » بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد . وقيل : « قَعِيدٌ » بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم .

وقال الجوهرى : فعيل وفعول مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ؛ كقوله تعالى : « إنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وقوله : « والْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » وقال الشاعر فى الجمع ؛ أنشده الثعلبى :

أَلِكْنِي إلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو * لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الخَبَرْ[3]

---

(١) فى رواية أخرى عن على رضى الله عنه : « إن الملكين قاعدان على ناجذى العبد ... الخ » .

(٢) هو قيس بن الخطيم .

(٣) ألكنى إليها : أرسلنى إليها ؛ والأصل فى ألكنى آلكنى فنقلت كسرة الهمزة إلى اللام وحذفت الهمزة .

والمراد بالقعيد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أى ما يتكلم بشىء إلا كتب عليه ، مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم . وفى الرقيب ثلاثة أوجه : أحدها أنه المتبع للأمور . الثانى أنه الحافظ ؛ قاله السدى . الثالث أنه الشاهد ؛ قاله الضحاك . وفى العتيد وجهان : أحدهما أنه الحاضر الذى لا يغيب . الثانى أنه الحافظ المُعَدّ إما للحفظ وإما للشهادة . قال الجوهرى : العتيد الشىء الحاضر المهيأ وقد عَتَّده تعتيدا وأَعْتَده إعتادا أى أعده ليوم ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً » وفرس عَتَدٌ وعَتِدٌ بفتح التاء وكسرها المعَدّ للجرى .

قلت : وكله يرجع إلى معنى الحضور ؛ ومنه قول الشاعر :

لئن كُنتَ مِنِّى فى العِيَانِ مُغَيَّبًا * فذكرك عندى فى الفؤاد عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شىء حتى الأنين فى مرضه . وقال عكرمة : لا يُكتب إلا ما يؤجَر به أو يؤزَر عليه . وقيل : يكتب عليه كل ما يتكلم به ؛ فإذا كان آخر النهار محى عنه ما كان مباحا ، نحو انطلق اقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر ؛ والله أعلم . وروى عن أبى هريرة وأنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله فى أول الصحيفة خيرا وفى آخرها خيرا إلا قال الله تعالى لملائكته اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طَرَفى الصحيفة " . وقال على رضى الله عنه : " إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا فى أولها وفى آخرها خيرا يغفر لكم ما بين ذلك " .

وأخرج أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة قال حدّثنا جدّى محمد بن إسحق قال حدّثنا محمد بن موسى الحَرَشىّ قال حدّثنا سهيل ابن عبد الله قال : سمعت الأعمش يحدّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأمة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ العبدُ أو الأمةُ فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فُكَّ الكتاب المختوم الذى معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى « ما يَلفظ من قول

إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ » " غريب من حديث الأعمش عن زيد ، لم يروه عنه إلا سهيل .
وروى من حديث أنس أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله وكل بعبده ملكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سمواتى مملوءة من ملائكتى يسبحوننى فيقولان ربنا نقيم فى الأرض فيقول الله تعالى إن أرضى مملوءة من خلق يسبحوننى فيقولان يارب فأين نكون فيقول الله تعالى كونا على قبر عبدى فكبرانى وهللانى وسبحانى واكتبا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة " .

قوله تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أى غمرته وشدّته ؛ فالإنسان ما دام حيا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده . وقيل : الحقُّ هو الموت سمى حقّا إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحق ؛ فعلى هذا يكون فى الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره وجاءت سكرة الحقّ بالموت ، وكذلك فى قراءة أبى بكر وابن مسعود رضى الله عنهما ؛ لأن السكرة هى الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين . وقيل : يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى ؛ أى جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت . وقيل : الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت ؛ ذكره المهدوى . وقد زعم من طعن على القرآن فقال : أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصدّيق فقرأ : وجاءت سكرة الحق بالموت . فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان : إحداهما موافقة للصحف فعليها العمل ، والأخرى مرفوضة تجرى مجرى النسيان منه إن كان قالها أو الغلط من بعض من نقل الحديث . قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنا إسمعيل بن إسحق القاضى حدّثنا على بن عبد الله حدّثنا جرير عن منصور عن أبى وائل عن مسروق قال : لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

* إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصَّدْرُ (١) *

---

(١) صدر البيت : * لعمرك ما يغنى الثراء ولا الغنى *

فقال أبو بكر : هلّا قلت كما قال الله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » وذكر الحديث . والسَّكْرة واحدة السَّكَرات . وفى الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه رَكْوة — أو عُلْبة — فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء ، فيمسح بهما وجهه ويقول : "لا إله إلا الله إن للموت سكرات" ثم نصب يده فجعل يقول : "فى الرفيق الأعلى" حتى قُبِض ومالت يده . خرجه البخارى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته وإن مفاصله ليسلِّم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة" . وقال عيسى بن مريم : « يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة » يعنى سَكَرات الموت . وروى : "إن الموت أشدّ من ضربٍ بالسيوف ونشرٍ بالمناشير وقرض بالمقاريض" . ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أى يقال لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفرّ منه وتميل عنه . يقال : حادَ عن الشيء يَحيد حُيودًا وحَيْدة وحَيْدُودة مال عنه وعدل . وأصله حَيَدودة بتحريك الياء فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فَعْلُول غير صَعْفُوق . وتقول فى الإخبار عن نفسك : حِدْتُ عن الشيء أَحيد حَيْدا ومَحيدا إذا ملت عنه ؛ قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فهبته * وحِدْتَ كما حاد البعيرُ عن الدَّحْض

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هى النفخة الآخرة للبعث ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ الذى وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه . وقد مضى الكلام فى النفخ فى الصور مستوفى[1] والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ وجـ ١٥ ص ٢٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ اختلف فى السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل؛ رواه العوفى عن ابن عباس . وقال أبو هريرة : السائق الملك والشهيد العمل . وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال ابن مسلم : السائق قرينها من الشياطين سمى سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثها . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان . وعن عثمان ابن عفان رضى الله عنه أنه قال وهو على المنبر : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » سائق ملك يسوقها إلى أمر الله، وشهيد يشهد عليها بعملها .

قلت : هذا أصح فإن فى حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن ابن آدم لفى غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك ا كتب رزقه وأثره وأجله وا كتبه شقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك و يبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاءه الموت ارتفع ذلك[1] الملكان ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفرته رد الروح فى جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا[2] كتابا معقودا فى عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى « لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : " حالا بعد حال " ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن قدامكم أمرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم " خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن على عن جابر وقال فيه : هذا حديث غريب من حديث جعفر ، وحديث جابر تفرد به عنه جابر الجعفى وعنه المفضل . ثم فى الآية قولان : أحدهما أنها عامة فى المسلم والكافر وهو قول الجمهور . الثانى أنها خاصة فى الكافر ؛ قاله الضحاك .

---

(١) كذا فى جميع الأصول والدر المنثور ، والظاهر أن يكون « ذانك » .

(٢) أنشط الكتاب : حل عقدته .

قوله تعـالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ قال آبن زيد : المراد به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم . وقال آبن عباس والضحاك : إن المراد به المشركون أي كانوا في غفلة من عواقب أمورهم . وقال أكثر المفسرين : إن المراد به البر والفاجر . وهو آختيار الطبري . وقيل : أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد ؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية . «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ» أي عماك ؛ وفيه أربعة أوجه : أحدها إذا كان في بطن أمه فولد ؛ قاله السدي . الثاني إذا كان في القبر فنشر . وهذا معنى قول آبن عباس . الثالث وقت العرض في القيامة ؛ قاله مجاهد . الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة . وهذا معنى قول ابن زيد . ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قيل : يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه ؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار ، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام . وقيل : المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد ؛ أي قوي نافذ يرى ما كان محجوبا عنك . قال مجاهد : « فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك . وقاله الضحاك . وقيل : يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب . وهو معنى قول آبن عباس . وقيل : يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرق ويعمى . وقرئ « لَقَدْ كُنْتِ » « عَنْكِ » «فَبَصَرُكِ» بالكسر على خطاب النفس .

قوله تعالى : وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعنى الملك الموكل به فى قول الحسن وقتادة والضحاك . ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أى هذا ما عندى من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ . وقال مجاهد : يقول هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله . وقيل : المعنى هذا ما عندى من العذاب حاضر . وعن مجاهد أيضا : قرينه الذى قيض له من الشياطين . وقال ابن زيد فى رواية ابن وهب عنه : إنه قرينه من الإنس ؛ فيقول الله تعالى لقرينه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول : ويلك ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد . قال الفراء : تقول للواحد قوما عنا ؛ وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره اثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه ؛ ومنه قولهم للواحد فى الشعر : خليلىّ ؛ ثم يقول : يا صاح . قال امرؤ القيس :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي على أُمِّ جُنْدَبِ * نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ

وقال أيضا :

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخر :

فإنْ تَزْجُرانِي يابْنَ عَفّانَ أَنْزَجِرْ * وإنْ [تَدَعانِي](1) أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا

وقيل : جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين . وقال المازنى : قوله « أَلْقِيَا » يدل على أَلْقِ أَلْقِ . وقال المبرّد : هى تثنية على التوكيد المعنى أَلْقِ أَلْقِ فناب « أَلْقِيَا » مناب التكرار . ويجوز أن يكون « أَلْقِيَا » تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به الملكين . وقيل : هو مخاطبة للسائق والحافظ . وقيل : إن الأصل أَلْقِيَنْ بالنون الخفيفة تقلب فى الوقف ألفا فحمل الوصل على الوقف . وقرأ الحسن « أَلْقِيَنْ » بالنون الخفيفة نحو قوله : « وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » وقوله : « لَنَسْفَعًا » . ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

(1) فى الأصول : « تدعوانى » وما أثبتناه هو ما عليه الرواية فى تفسير الطبرى والألوسى والفراء وغيرها . ولعل ما فى الأصول رواية أخرى .

أى معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال بعضهم : العنيد المعرض عن الحق؛ يقال عَنَدَ يَعْنِد بالكسر عُنُودا أى خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند ، وجمع العَنِيد عُنُد مثل رَغِيف ورُغُف . ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ يعنى الزكاة المفروضة وكل حقّ واجب . ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ فى منطقه وسيرته وأمره ؛ ظالم . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاكّ فى التوحيد ؛ قاله الحسن وقتادة . يقال : أراب الرجل فهو مُرِيب إذا جاء بالريبة . وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة . وأراد بقوله : «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنه كان يمنع بنى أخيه الإسلام . ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ تأكيد للأمر الأوّل . ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ يعنى الشيطان الذى قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذّبه . ﴿ وَلَٰكِنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق وكان طاغيا باختياره وإنما دعوته فاستجاب لى . وقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف . حكاه المهدوى . وحكى الثعلبى قال ابن عباس ومقاتل : قرينه الملك ؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملك الذى كان يكتب سيئاته : ربّ إنه أعجلنى ؛ فيقول الملك : ربنا ما أطغيته أى ما أعجلته . وقال سعيد بن جبير : يقول الكافر ربّ إنه زاد علىّ فى الكتابة ؛ فيقول الملك : ربنا ما أطغيته أى ما زدت عليه فى الكتابة . فحينئذ يقول الله تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ ﴾ يعنى الكافرين وقرناءهم من الشياطين . قال القشيرى : وهذا يدل على أن القرين الشيطان . ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أى أرسلت الرسل . وقيل : هذا خطاب لكل من اختصم . وقيل : هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع . ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ قيل هو قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » وقيل هو قوله : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . وقال الفراء : ما يكذب عندى أى ما يزاد فى القول ولا ينقص لعلمى بالغيب . ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أى ما أنا بمعذّب من لم يجرم؛ قاله ابن عباس . وقد مضى القول فى معناه فى «الحج» (1) وغيرها .

---

(1) راجع ج ١٢ ص ١٦ و ج ١٥ ص ٢٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ قرأ نافع وأبو بكر « يَوْمَ يَقُولُ » بالياء آعتبارا بقوله : « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ » . الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهى نون العظمة . وقرأ الحسن « يَوْمَ أَقُولُ » . وعن آبن مسعود وغيره « يَوْمَ يُقَالُ » . وآنتصب « يوم » على معنى ما يبدّل القول لدىّ يوم . وقيل : بفعل مقدر معناه وأنذرهم « يومَ نقولُ لجهنمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ » لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها . وهذا الآستفهام على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق لوعده ، والتقريع لأعدائه ، والتنبيه لجميع عباده . و « تَقُولُ » جهنم « هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » أى ما بقى فىّ موضع للزيادة ؛ كقوله عليه السلام : "هل تَرَكَ لنا عَقِيل من رَبْع أو منزل" أى ما ترك ؛ فمعنى الكلام الجحد . ويحتمل أن يكون آستفهاما بمعنى الآستزادة ؛ أى هل من مزيد فأزداد؟ . وإنما صلح هذا للوجهين ؛ لأن فى الآستفهام ضربا من الجحد . وقيل : ليس ثَمّ قول وإنما هو على طريق المثل ؛ أى إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك ؛ كما قال الشاعر :

آمتلأَ الحوضُ وقال قَطْنِى * مَهْلًا رُوَيْدًا قَدْ مَلأْتَ بَطْنِى

وهذا تفسير مجاهد وغيره . أى هل فىّ من مسلك قد آمتلأت . وقيل : يُنْطِق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح . وهذا أصح على ما بيناه فى سورة « الفرقان »[1] . وفى صحيح مسلم والبخارى والترمذىّ عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية .

" لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قَدَمه فينْزوِى بعضُها إلى بعض وتقول قَطْ قَطْ بعزتك وكرمك ولا يزال فى الجنة فَضلٌ حتى يُنشئَ الله لها خلقا فيسكنَهم فَضْلَ الجنة " لفظ مسلم . وفى رواية أخرى من حديث أبى هريرة : " وأما النار فلا تمتلئُ حتى يضع الله عليها رِجلَه يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلئُ ويَنْزَوِى بعضُها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا " . قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القَدَم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار، وقد سبق فى علمه أنهم من أهل النار . وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم ؛ يقال : رأيت رِجْلًا من الناس ورِجْلًا من جَرَاد، قال الشاعر :

فَمرَّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى * إليهم من الحىِّ اليمانين أَرْجُلُ

قبائلُ من لَخْم وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ * على ٱبْنَىْ نِزارٍ بالعَداوة أحفَلُ

ويبين هذا المعنى ما روى عن آبن مسعود أنه قال : ما فى النار بيتٌ ولا سلسلةٌ ولا مِقمَع ولا تابوت إلا وعليه آسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذى قد عرف آسمه وصفته ، فإذا آستوفى ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطْ قَطْ حسبُنا حسبُنا آكتفينا آكتفينا، وحينئذ تنزوى جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر . فعبر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم ؛ ويشهد لهذا التأويل قوله فى نفس الحديث : " ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئَ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة " وقد زدنا هذا المعنى بيانا ومهدناه فى كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله . وقال النضر بن شُمَيل فى معنى قوله عليه السلام : " حتى يَضعَ الجبّار فيها قَدَمه " أى من سبق فى علمه أنه من أهل النار .

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى قربت منهم . قيل : هذا قبل الدخول فى الدنيا، أى قربت من قلوبهم حين قيل لهم آجتنبوا المعاصى . وقيل : بعد الدخول

(١) ينزوى بعضها إلى بعض : أى تنقبض على من فيها ، وتنشغل بعذابهم ، وتكف عن سؤال هل من مزيد . (هامش مسلم) .

قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد . «غَيْرَ بَعِيدٍ» أى منهم وهذا تأكيد . ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أى ويقال لهم هذا الجزاء الذى وعدتم فى الدنيا على ألسنة الرسل . وقراءة العامة « تُوعَدُونَ » بالتاء على الخطاب . وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر ؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين . ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ أوّاب أى رَجّاع إلى الله عن المعاصى ، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع ، هكذا قاله الضحاك وغيره . وقال ابن عباس وعطاء : الأوّاب المسبِّح من قوله « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » . وقال الحكم بن عُيَينة : هو الذاكر لله تعالى فى الخلوة . وقال الشعبى ومجاهد : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها . وهو قول ابن مسعود . وقال عُبيد بن عُمير : هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه . وعنه قال : كنا نحدّث أن الأوّاب الحفيظ الذى إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده، اللهم إنى أستغفرك مما أصبت فى مجلسى هذا . وفى الحديث : " من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان فى ذلك المجلس " . وهكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول . وقال بعض العلماء : أنا أحبّ أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة ، ولا أحبّ أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته .

قلت : هذا استحسان واتباع الحديث أولى . وقال أبو بكر الورّاق : هو المتوكل على الله فى السراء والضراء . وقال القاسم : هو الذى لا يشتغل إلا بالله عز وجل . «حَفِيظٍ» قال ابن عباس : هو الذى حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها . وقال قتادة : حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته وأُتمنه عليه . وعن ابن عباس أيضا : هو الحافظ لأمر الله . مجاهد : هو الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر . قال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول . وروى مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على أربع ركعات من أول النهار كان أوّابا حفيظا " ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ « مَن » فى محل خفض على البدل من قوله : « لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ » أو فى موضع الصفة لـ « أوّاب » . ويجوز الرفع على الاستئناف، والخبر

« ٱدْخُلُوهَا » على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم « ٱدْخُلُوهَا » . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره . وقال الضحاك والسدى : يعنى فى الخلوة حين لا يراه أحد . وقال الحسن : إذا أرخى السترَ وأغلق البابَ . ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ مقبل على الطاعة . وقيل : مخلص . وقال أبو بكر الوراق : علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته وواليا له ، متواضعا لجلاله تاركا لهوى نفسه .

قلت : ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم ؛ كما قال تعالى : « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » على ما تقدّم[1] . والله أعلم . ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ أى يقال لأهل هذه الصفات ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أى بسلامة من العذاب . وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم . وقيل : بسلامة من زوال النِّعم . وقال : « ٱدْخُلُوهَا » وفى أوّل الكلام « مَنْ خَشِيَ » ؛ لأن « مَنْ » تكون بمعنى الجمع .

قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ يعنى ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم . ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم . وقال أنس وجابر : المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف . وقد ورد ذلك فى أخبار مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ »[2] قال : الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . وذكر ٱبن المبارك ويحيى بن سلّام ، قالا : أخبرنا المسعودى عن المنهال بن عمرو عن أبى عبيدة بن عبد الله ٱبن عتبة عن ٱبن مسعود ، قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة فى كثيب من كافور أبيض فيكونون منه فى القرب . قال ٱبن المبارك : على قدر تسارعهم إلى الجمعة فى الدنيا . وقال يحيى بن سلّام : لمسارعتهم إلى الجمع فى الدنيا وزاد " فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك " . قال يحيى : وسمعت غير المسعودى يزيد فيه ؛ قوله تعالى : « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

قلت : قوله " فى كثيب " يريد أهل الجنة ، أى وهم على كثيب . كما فى مرسل الحسن ؛ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنة ينظرون ربهم فى كل يوم جمعة على كثيب من كافور " . الحديث . وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » وقيل : إن المزيد ما يزوجون به من الحور العين ؛ رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أى كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشدّ منهم بطشا وقوة . ﴿ فَنَقَّبُوا فِى الْبِلَادِ ﴾ أى ساروا فيها طلبا للهرب . وقيل : أثّروا فى البلاد ؛ قاله آبن عباس . وقال مجاهد: ضربوا وطافوا . وقال النضر بن شميل : دوّروا . وقال قتادة : طوّفوا . وقال المؤرّج تباعدوا ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

وقد نقّبت فى الآفاق حتّى * رضيتُ من الغنيمة بالإياب

ثم قيل : طافوا فى أقاصى البلاد طلبا للتجارات ، وهل وجدوا من الموت محيصا ؟ . وقيل : طوّفوا فى البلاد يلتمسون محيصًا من الموت . قال الحرث بن حلّزة :

نقّبوا فى البلادِ من حذرِ المو * تِ وجالوا فى الأرضِ كُلَّ مجالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية «فنقبوا» بفتح القاف وتخفيفها . والنّقب هو الخرق والدخول فى الشيء . وقيل : النّقب الطريق فى الجبل، وكذلك المنقب والمنقبة عن آبن السكيت . ونقب الجدار نقبا ، وآسم تلك النّقبة نقب أيضا ، وجمع النّقب النّقوب ؛ أى خرقوا البلاد وساروا فى نقوبها . وقيل : أثّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب . وقرأ السّلمى ويحيى بن يعمر «فنقّبوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد ؛ أى طوّفوا البلاد وسيروا

فيها فانظروا ﴿ هَلْ مِن ﴾ الموت ﴿ مَحِيص ﴾ ومَهْرَب ؛ ذكره الثعلبي . وحكى القشيري «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف أى أكثروا السير فيها حتى نَقِبت دوابُّهم . الجوهري : ونَقِب البعيرُ بالكسر إذا رَقَّت أخفافُه، وأنقب الرجلُ إذا نَقِب بعيره، ونَقِب الخفُّ الملبوس أى تخرق . والمحيص مصدر حاص عنه يَحِيص حَيْصا وحُيوصا ومَحِيصا ومَحَاصا وحَيَصانا أى عَدَلَ وحادَ . يقال ما عنه مَحِيص أى مَحِيد ومَهْرَب . والانحياص مثله ؛ يقال للأولياء : حاصوا عن العدو وللأعداء انهزموا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى ﴾ أى فيما ذكرناه فى هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أى عقل يتدبر به ؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ؛ كما قال امرؤ القيس :

أَغَـرَّكِ منِّى أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي * وأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِى القَلْبَ يَفْعَلِ

وفى التنزيل : « لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا » . وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان ؛ قلب محتشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه فى الآخرة . ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أى استمع القرآن . تقول العرب : ألق إلىّ سمعك أى استمع . وقد مضى فى «طه»[1] كيفية الاستماع وثمرته . « وَهُوَ شَهِيدٌ » أى شاهد القلب ؛ قال الزجاج : أى وقلبه حاضر فيما يسمع . وقال سفيان : أى لا يكون حاضرا وقلبه غائب . ثم قيل : الآية لأهل الكتاب ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال الحسن : إنها فى اليهود والنصارى خاصة . وقال محمد ابن كعب وأبو صالح : إنها فى أهل القرآن خاصة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ تقدم فى « الأعراف »[2] وغيرها . واللغوب التعب والإعياء ، تقول منه : لَغَب

(١) راجع جـ ١١ ص ١٧٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يَلْغُب بالضم لُغُوبا، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوبا لغة ضعيفة فيه . وألغبته أنا أى أنصبته .
قال قتادة والكلبي : هذه الآية نزلت فى يهود المدينة؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وآستراح يوم السبت ؛ فجعلوه راحة ، فأكذبهم الله تعالى فى ذلك .

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون؛ أى هَوِّن أمرهم عليك . ونزلت قبل الأمر بالقتال فهى منسوخة . وقيل : هو ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته . وقيل معناه : فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم إن الله آستراح يوم السبت .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ قيل : إنه أراد به الصلوات الخمس . قال أبو صالح : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر . ورواه جرير بن عبد الله مرفوعا؛ قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال : " أَمَا إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون فى رؤيته فإن آستطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ــ يعنى العصر والفجر ثم قرأ جرير ــ « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا » " متفق عليه واللفظ لمسلم . وقال آبن عباس : « قَبْلَ الْغُرُوبِ » الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ يعنى صلاة العشاءين . وقيل : المراد تسبيحه بالقول تنزيها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخُراسانى وأبو الأحوص . وقال بعض العلماء فى قوله : «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» قال ركعتى الفجر « وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» الركعتين قبل المغرب؛ وقال ثُمامة بن

عبد الله بن أنس كان ذوو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يُصلُّون الركعتين قبل المغرب . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا بالمدينة فإذا أذّن المؤذّنُ لصلاة المغرب ٱبتدروا السّوارِيَ[1] فركعوا ركعتين ، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صُلّيت من كثرة من يصلّيهما . وقال قتادة : ما أدركت أحدا يُصلّي الركعتين إلا أنسًا وأبا بَرْزَة الأسلمى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول — هو تسبيح الله تعالى فى الليل ؛ قاله أبو الأحوص . الثانى — إنها صلاة الليل كله ؛ قاله مجاهد . الثالث — إنها ركعتا الفجر ؛ قاله ٱبن عباس . الرابع — إنها صلاة العشاء الآخرة ؛ قاله ٱبن زيد . قال ٱبن العربى : من قال إنه التسبيح فى الليل فيعضُده الصحيح " مَنْ تَعَارّ[2] من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ". وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح الله ، ومنه سبحة الضحى . وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل ، والعشاء أوضحه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ ﴾ قال عمر وعلىّ وأبو هريرة والحسن بن علىّ والحسن البصرىّ والنخعىّ والشعبىّ والأوزاعىّ والزهرىّ : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر ؛ ورواه العوفى عن ٱبن عباس ، وقد رفعه ٱبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ركعتان بعد المغرب أدبار السجود " ذكره الثعلبى . ولفظ الماوردى : وروى عن ٱبن عباس قال : بِتُّ ليلةً عند النبى صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : " يابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود" : وقال أنس قال النبى صلى الله

(١) ٱبتدروا السوارى : أى سارعوا إليها ، والسوارى جمع السارية وهى الأسطوانة ؛ أى يقف كل مصلّ خلف أسطوانة لئلا يقع المرور بين يديه فى صلاته منفردا . (٢) تعار : ٱستيقظ .

عليه وسلم " من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته فى عليين ". قال أنس : فقرأ فى الركعة الأولى « قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفى الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » قال مقاتل : ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر . وعن ٱبن عباس أيضا : هو الوتر . قال ٱبن زيد هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة؛ قال النحاس : والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى ٱتباع الأكثر وهو صحيح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه . وقال أبو الأحوص : هو التسبيح فى أدبار السجود . قال ٱبن العربى وهو الأقوى فى النظر . وفى صحيح الحديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر الصلاة المكتوبة " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ[1]" وقيل : إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات؛ نقل ذلك الجماعة .

الخامسة — قرأ نافع وٱبن كثير وحمزة « وإِدْبَارَ السُّجُودِ» بكسر الهمزة على المصدر من أدبر الشىء إدبارا إذا وَلَّى . الباقون بفتحها جمع دُبُر . وهى قراءة على وٱبن عباس؛ ومثالها طُنُب وأطناب ، أو دُبْر كقُفْل وأقفال . وقد ٱستعملوه ظرفا نحو جئتك فى دبر الصلاة وفى أدبار الصلاة . ولا خلاف فى آخر «والطور» . «وإِدْبَارَ النُّجُومِ» أنه بالكسر مصدر؛ وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثانى؛ وهو البياض المنشق من سواد الليل .

قوله تعالى : وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(١) "ولا ينفع ذا الجد منك الجد" أى لا ينفع ذا الغنى منك غناه وإنما ينفعه الإيمان والطاعة . (النهاية لابن الأثير) .

. قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ مفعول الاستماع محذوف ؛ أى استمع النداء والصوت أو الصيحة وهى صيحة القيامة ، وهى النفخة الثانية ، والمنادى جبريل . وقيل : إسرافيل . الزمخشرى : وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى ، فينادى بالحشر ويقول : هلموا إلى الحساب فالنداء على هذا فى المحشر . وقيل : واستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب ، أى يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء . قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى فى آذانهم . وقيل : المكان القريب صخرة بيت المقدس . ويقال : إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا . وقال كعب : بثمانية عشر ميلا ؛ ذكر الأول القشيرى والزمخشرى ، والثانى الماوردى . فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادى بالحشر أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، وياعظاما نخرة ، ويا أكفانا فانية ، ويا قلوبا خاوية ، ويا أبدانا فاسدة ، ويا عيونا سائلة ، قوموا لعرض رب العالمين . قال قتادة : هو إسرافيل صاحب الصور . ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى صيحة البعث . ومعنى «الخروج» الاجتماع إلى الحساب . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أى يوم الخروج من القبور . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ نميت الأحياء ونحيى الموتى ؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ إلى المنادى صاحب الصور إلى بيت المقدس . ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أى هين سهل . وقرأ الكوفيون « تَشَقَّقُ » بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى . الباقون بإدغام التاء فى الشين . وأثبت ابن محيصن وابن كثير ويعقوب ياء « المنادى » فى الحالين على الأصل ، وأثبتها نافع وأبو عمرو فى الوصل لا غير ، وحذف الباقون فى الحالين .

قلت : وقد زادت السنة هذه الآية بيانا ؛ فروى الترمذى عن معاوية بن حَيْدة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره ، قال وأشار بيده إلى الشام فقال : " من هاهنا إلى هاهنا تُحشَرون ركبانا ومشاة وتُجرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام تُوفُون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه " فى رواية أخرى " فخذه وكفّه " وخرج على بن معبد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره ،

ثم يقول ـ يعني الله تعالى ـ لإسرافيل : " أنفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتي وجلالي ليرجعن كلّ رُوح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أوّل من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كلكمَ أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية " وذكر الحديث ، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره في « التذكرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي من تكذيبك وشتمك . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمسلّط تجبرهم على الإسلام ، فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال . والجبّار من الجبرية والتسلّط إذ لا يقال جبّار بمعنى مُجبِر، كما لا يقال خرّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري . النحاس : وقيل معنى جبّار لست تُجبرهم ، وهو خطأ لأنه لا يكون فَعّال من أفعل . وحكى الثعلبي : وقال ثعلب قد جاءت أحرف فَعّال بمعنى مُفعِل وهي شاذة، جبّار بمعنى مُجبِر، ودرّاك بمعنى مُدرِك، وسرّاع بمعنى مُسرِع ، وبكّاء بمعنى مُبكٍ ، وعدّاء بمعنى مُعْدٍ . وقد قرئ « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَّادِ » بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى . وقيل هو الله . وكذلك قرئ «وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ» يعني ممسكين . وقال أبو حامد الخارزنجي[1] تقول العرب سيف سَقّاط بمعنى مُسقِط . وقيل : « بِجَبَّارٍ » بمسيطر كما في الغاشية « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » . وقال الفرّاء : سمعت من العرب من يقول جَبَره على الأمر أي قهره ، فالجبار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح . وقيل : الجبار من قولهم جبرته على الأمر أي أجبرته وهي لغة كنانية وهما لغتان . الجوهري : وأجبرته على الأمر أكرهته عليه ، وأجبرته أيضا نسبته إلى [الجبر ، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر][2] . ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ قال ابن عباس : قالوا يارسول الله لو خوفتنا فنزلت «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» أي ما أعددته لمن عصاني من العذاب؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب، قال الشاعر :

---

(١) الخارزنجي : نسبة إلى خارزنج قرية بنواحي نيسابور . (٢) الزيادة من الصحاح للجوهري .

وإنّى وإنْ أوعدْتُه أو وَعدْتُه * لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ مَوْعدى

وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك . وأثبت الياء « فى وعيدى » يعقوب فى الحالين، وأثبتها ورش فى الوصل دون الوقف، وحذف الباقون فى الحالين . والله أعلم . تم تفسير سورة « ق » والحمد لله .

سورة والذاريات

مكية فى قول الجميع وهى ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)

قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنا عبد الله بن ناجية ، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدّثنا مكى بن إبراهيم ، حدّثنا الجعيد بن عبد الرحمن ، عن يزيد بن خصيفة ، عن السائب بن يزيد أن رجلا قال لعمر رضى الله عنه : إنى مررت برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر : اللهم أمكنى منه ؛ فدخل الرجل على عمر يوما وهو لابس ثيابا وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذّارِيَاتِ ذَرْوًا » فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده ، ثم قال : ألبسوه ثيابه واحملوه على قَتَب ، وأبلغوا به حَيَّه ، ثم ليقم خطيبا فليقل : إن صَبِيغًا طلب العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعا فى قومه بعد أن كان سيدا فيهم . وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل عليا رضى الله عنه، فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذاريات ذروا » [قال] : ويلك سَلْ تفقها ولا تسأل تعنتا « والذّرِيَاتِ ذَرْوًا » الرياح « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » السفن « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » الملائكة . وروى الحرث عن علىّ رضى الله عنه « وَالذّارِيَاتِ ذَرْوًا » .

قال : الرياح « فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا » قال : السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر « فالجَارِيَاتِ يُسْرًا » قال : السفن موقرة « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » قال : الملائكة تأتى بأمر مختلف ؛ جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتى بالموت . وقال الفراء : وقيل تأتى بأمر مختلف من الخصب والجدب والمطر والموت والحوادث[1] . ويقال: ذَرَتِ الريحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْوًا وتَذْرِيه ذَرْيا . ثم قيل : « وَالذارِيَاتِ » وما بعده أقسام، وإذا أقسم الربّ بشىء أثبت له شرفا . وقيل : المعنى وربِّ الذاريات ، والجواب ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أى الذى توعدون من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ لا كذب فيه ؛ ومعنى ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ لصدق ؛ وقع الاسم موقع المصدر . ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ يعنى الجزاء نازل بكم . ثم ابتدأ قسما آخر فقال: « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » وقيل : إن الذاريات النساء الولودات لأن فى ذرايتهن ذرو الخلق ؛ لأنهن يذرين الأولاد فصرن ذاريات ؛ وأقسم بهنّ لما فى ترائبهنّ من خيرة عباده الصالحين . وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذاريا لأمرين : أحدهما لأنهنّ أوعية دون الرجال ، فلاجتماع الذّروين فيهنّ خصصن بالذكر . الثانى ــ أن الذّرو فيهنّ أطول زمانا، وهنّ بالمباشرة أقرب عهدا . « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب . وقيل : الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل . والوِقر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهر أو فى بطن ؛ يقال : جاء يحمل وِقره وقد أوقر بعيرَه . وأكثر مايستعمل الوِقر فى حمل البغل والحمار ، والوَسْق فى حمل البعير . وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملا ثقيلا . وأوقرت النخلة كثر حَمْلُها ؛ يقال : نخلة مُوقِرة ومُوقِر ومُوقَرة ، وحكى مُوقَر وهو على غير القياس ؛ لأن الفعل للنخلة . وإنما قيل : مُوقِر بكسر القاف على [قياس][2] قولك امرأة حامل ؛ لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء ؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ ؛ وقد روى فى قول لبيد يصف نخيلا :

عَصَبٌ كَوارِعُ فى خليج مُحَلِّمٍ * حَمَلَتْ فمنها مُوقَرٌ مَكْمُومُ

---

(١) فى نسخ من الأصل الحوارق . (٢) الزيادة من كتب اللغة .

والجمع مواقِر. فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن، وقد وقرت أذنُه تَوْقر وَقْرا أى صَمّت، وقياس مصـدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقـدّم فى «الأنعام»[1] القول فيـه . «فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا» السفن تجرى بالرياح يسرًا إلى حيث سيرت . وقيل : السحاب ؛ وفى جريها يسرًا على هذا القول وجهان : أحدهما — إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع . الثانى — هو سهولة تسييرها ؛ وذلك معروف عند العرب ، كما قال الأعشى :

كأنّ مِشْيَتَهـا مِنْ بيتِ جارتِها * مَشْيُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

قوله تعالى : وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ والسَّماءِ ذَاتِ الحُبُكِ ﴾ قيـل : المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التى تظل الأرض . وقيل : السماء المرفوعة . ٱبن عمر : هى السماء السابعة ؛ ذكره المهدوى والثعلبى والمـاوردى وغيرهم . وفى «الحُبُك» أقوال سبعة : الأول — قال ٱبن عباس وقتادة ومجاهد والربيع : ذات الخَـلق الحسن المستوى . وقاله عكرمة ؛ قال : ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه يقـال منه حَبَك الثوبَ يَحبِكُه بالكسر حَبْكًا أى أجاد نسجه . قال ٱبن الأعرابى : كل شىء أحكمته وأحسنت عمله فقد ٱحتبكته . والثانى — ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير ، وعن الحسن أيضـا ذات النجوم وهو الثـالث . الرابع — قال الضحاك : ذات الطرائق؛ يقال لمـا تراه فى المـاء والرمل إذا أصابتـه الريح حُبُك . ونحوه قول الفراء؛ قال : الحُبُك تكسّر كل شىء كالرمل إذا مرت به الريح السـاكنة، والمـاء القائم

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ طبعة أولى أو ثانية .

إذا مرت به الريح ، ودرع الحديد لها حُبُك ، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك . وفى حديث الدجّال إن شعره حُبُك . قال زهير :

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ * رِيحٌ خَرِيقٌ لِضاحِى مائِهِ حُبُكُ [(١)]

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها . الخامس ــ ذات الشدة ؛ قاله ٱبن زيد ، وقرأ « وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا » . والمحبوك الشديد الخَلْق من الفرس وغيره ؛ قال ٱمرؤ القيس :

قد غَدَا يَحْمِلُنِى فى أَنْفِهِ * لَاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرْ

وقال آخر [(٢)] :

مَرِجَ الدِّينُ فأعددتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ

وفى الحديث : إن عائشة رضى الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع فى الصلاة ؛ أى تشدّ الإزار وتحكمه . السادس ــ ذات الصَّفاقة ؛ قاله خَصيف . ومنه ثوب صفيق ووجه صفيق بيِّن الصفاقة . السابع ــ أن المراد بالطرق المجرّة التى فى السماء سميت بذلك ؛ لأنها كأثر المَجَرّ . و « الْحُبُك » جمع حِباك ؛ قال الراجز :

كأنما جَلَّلَها الحُوَّاكُ * طِنفسةً فى وَشْيِها حِبَاكُ

والحِبَاك والحَبِيكة الطريقة فى الرمل ونحوه . وجمع الحِبَاك حُبُك وجمع الحَبِيكة حَبَائك ، والحُبُكة مثل العُبُكة وهى الحبة من السَّويق ؛ عن الجوهرى . وروى عن الحسن فى قوله : «ذَاتِ الْحُبُك» «الحُبْك» و«الحِبِك» و «الحِبْك» والحِبَك والحُبَك [وقرأ أيضا «الْحُبُك»] كالجماعة . وروى عن عِكْرمة وأبى مِجْلَز «الحُبَك» . و«الحُبُك» واحدتها حَبِيكة ، «والحُبْك» مخفّف منه . و « الحِبَك » واحدتها حِبْكة . ومن قرأ « الْحُبَك » فالواحدة حُبْكة كبُرْقة وبُرَق أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم . ومن قرأ «الحِبِك» فهو كإبل وإطل [(٣)] و «الحِبْك» مخففة منه .

---

(١) النجم : كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل . ريح خريق : شديدة . لضاحى مائه : ماظهر للشمس من الماء أى برز . والبيت فى وصف غدير .
(٢) هو أبو دؤاد يصف فرسا .
(٣) الإطل الخاصرة كلها وقيل غير ذلك .

ومن قرأ « الحِبُكِ » فهو شاذ إذ ليس فى كلام العرب فِعُلٌ ،وهو محمول على تداخل اللغات ، كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر « الحُبُك » فضم الباء . وقال جميعه المهدوى .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم الذى هو « والسَّمَاءِ » أى إنكم يأهل مكة « فِى قَوْلٍ مُخْتَلِف » فى محمد والقرآن فمن مصـدّق ومكذّب . وقيل : نزلت فى المقتسمين . وقيل : آختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل آفتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأوّلين . وقيـل : آختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شـك فيه . وقيل : المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم و يعبدون غيره .

قوله تعـالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْـهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أى يُصرف عن الإيمان بمحمد والقـرآن من صُرِف ؛ عن الحسن وغيره . وقيـل : المعنى يُصرَف عن الإيمـان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأوّلين . وقيـل : المعنى يُصرَف عن ذلك الآختـلاف من عصمه الله . أَفَكه يأْفِكه أفْكاً أى قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قوله تعالى : «أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا» . وقال مجاهد : معنى « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » يُؤفَن عنه من أُفِن والأَفْن فساد العقل . الزمخشرى : وقرئ « يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ » أى يحرمه من حرم ؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنهكه حَلْبا . وقال قُطْرُب : يُخدَع عنـه من خُدِع . وقال اليزيدى : يُدفَع عنه من دُفِـع . والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف .

قوله تعـالى : ﴿ قُتِلَ الْخَـرَّاصُونَ ﴾ فى التفسير : لُعن الكذّابون . وقال آبن عباس : أى قُتِـل المرتابون ؛ يعنى الكهنة . وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنا نبعث . ومعنى « قُتِل » أى هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهـم بالقتل على أيدى المؤمنين . وقال الفـرّاء : معنى «قُتِل» لُعن؛ قال : و«الخَـرَّاصُونَ» الكذّابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون؛ فيقولون : إن محمدا مجنون كذّاب ساحر شاعر ؛ وهذا دعاء عليهم؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال آبن الأنبارى : علمنا الدعاء عليهم؛ أى قولوا : «قُتِلَ الخَـرَّاصُونَ» وهو جمع خارص والخَرْص الكذب والخرّاص الكذّاب، وقد خَرَص يَخْرُص بالضم خَرصا أى كَذَب؛

يقال : خَرَص وٱخْتَرص، وخَلَق وٱختلَق، وبَشَك وٱبْتَشك، وسَرَج وٱسْتَرج، ومان، بمعنى كذب ؛ حكاه النحاس . والخَرْص أيضا حَزْر ما على النخل من الرطب تمرا . وقد خَرَصتُ النخلَ والاسم الخِرْص بالكسر؛ يقال : كم خِرْص نخلك والخرّاص الذى يخرصها فهو مشترك . وأصل الخُرْص القطع على ما تقدّم بيانه فى «الأنعام»[1] ومنه الخَرِيص للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء ، والخُرْص حبّة القُرْط إذا كانت منفردة ؛ لانقطاعها عن أخواتها ، والخُرْص العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته . والخَرِص الذى به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به ؛ يقال : خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص، أى جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص . ويقال للبرد بلا جوع خَصَر . والخُرْص بالضم والكسر الحَلْقة من الذهب أو الفضة والجمع الخِرْصان . ويدخل فى الخَرْص قول المنجمين وكل من يدّعى الحَدْس والتخمين . وقال ٱبن عباس : هم المقتسمون الذين ٱقتسموا أعقاب مكة ، وٱقتسموا القول فى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان به .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ الغَمْرة ماستر الشيءَ وغطّاه . ومنه نهر غَمْر أى يغْمُر من دخله ، ومنه غَمَرات الموت . «سَاهُونَ» أى لاهون غافلون عن أمر الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أى متى يوم الحساب ؛ يقولون ذلك ٱستهزاءً وشكًّا فى القيامة . ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ نصب « يَوْمَ » على تقدير الجزاء أى هذا الجزاء « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يُحرَقون، وهو من قولهم : فتنت الذهب أى أحرقته لتختبره، وأصل الفتنة الاختبار . وقيل : إنه مبنيّ بنى لإضافته إلى غير متمكن، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم، أو رفع على البدل من « يَوْمُ الدِّينِ » . وقال الزجاج : يقول يعجبنى يومُ أنت قائم و يومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت وهو فى موضع رفع، فإنما ٱنتصب هذا وهو فى المعنى رفع . وقال ٱبن عباس : «يُفْتَنُونَ» يُعذَّبون . ومنه قول الشاعر :

كلُّ ٱمرِئٍ من عبادِ الله مُضطَهدٌ * ببطنِ مكةَ مقهورٌ ومفتونُ

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أى يقال لهم ذوقوا عذابكم ؛ قاله ابن زيد . مجاهد : حريقكم . ابن عباس : أى تكذيبكم يعنى جزاءه . الفرّاء : أى عذابكم ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فى الدنيا . وقال : « هذا » ولم يقل هذه ؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أى هم فى بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به . ﴿ آخِذِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات ؛ قاله الضحاك . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : « آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ » أى عاملين بالفرائض . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أى قبل دخولهم الجنة فى الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بالفرائض . وقال ابن عباس : المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين فى أعمالهم .

قوله تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ معنى « يهجعون » ينامون والهجوع النوم ليلا ، والتَّهْجاع النَّومة الخفيفة ؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حَصَّتِ البيضةُ رأسى فَمَا * أَطْعَمُ نَوْماً غَيرَ تَهْجاعِ

وقال عمرو بن مَعْدِى كَرِب يتشوّق أخته وكان أسرها الصِّمَّة أبو دُرَيد بن الصِّمَّة :

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِى السَّمِيعُ * يُؤَرِّقُنِى وأَصحابِى هُجُوعُ

يقال : هَجَع يَهْجَع هُجوعاً وهَبَغَ يَهْبَغ هُبوغاً بالغين المعجمة إذا نام ؛ قاله الجوهرى . واختلف فى « ما » فقيل : صلة زائدة — قاله إبراهيم النخعى — والتقدير كانوا قليلا من الليل

يهجعون ؛ أى ينامون قليــلا من الليل ويصلّون أكثره . قال عطاء : وهذا لمـا أمروا بقيام الليــل . وكان أبو ذر يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصــة « قُمِ اللَّيْــلَ إِلَّا قَلِيلًا » الآية . وقيل : ليس « ما » صــلة بل الوقف عند قوله : « قَلِيلًا » ثم يبتدئ « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » فـ « ـما » للنفى وهو نفى النوم عنهم البتــة . قال الحسن : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نشطوا فجدّوا إلى السحر . روى عن يعقوب الحضرمى أنه قال : آختلفوا فى تفسير هــذه الاية فقال بعضهم : « كَانُوا قَلِيلًا » معناه كان عددهم يسيرا ثم آبتدأ فقال : « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون ؛ قال آبن الأنبارى : وهذا فاسد ؛ لأن الآية إنمـا تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم ، وبعد فلو آبتدأنا « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون لم يكن فى هــذا مدح لهم ؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون « ما » جحدا .

قلت : وعلى ما تأوّله بعض الناس — وهو قول الضحاك — من أن عددهم كان يسيرا يكون الكلام متصلا بما قبل من قوله : « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » أى كان المحسنون قليلا ، ثم آستأنف فقال : « مِنَ اللَّيْــلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعلى التأويل الأوّل والثــانى يكون « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ» خطابا مستأنفا بعد تمام ما تقدّمه ويكون الوقف على « مَا يَهْجَعُونَ» وكذلك إن جعلت « قَلِيلًا » خبر كان وترفع « ما » بقليل؛ كأنه قال : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . فـ « ـما » يجوز أن تكون نافية ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا ، ويجوز أن تكون رفعا على البــدل من آسم كان ، التقدير كان هجوعهم قليــلا من الليل ، وآنتصاب قوله « قَلِيلًا » إن قدرت « ما » زائدة مؤكدة بـ « يَهْجَعُونَ» على تقدير كانوا وقتا قليلا أو هجوعا قليــلا يهجعون ، وإن لم تقدر « ما » زائدة كان قوله : « قَلِيــلًا » خبر كان ولم يجز نصبه بـ « يَهْجَعُونَ » ؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ « يهجعون » مع تقدير « ما » مصدرا قدمت الصلة على الموصول . وقال أنس وقتادة فى تأويل الآية : أى كانوا يصلّون بين العشاءين ؛ المغرب والعشاء . أبو العاليــة : كانو لا ينامون بين العشاءين . وقاله آبن وهب . وقال مجاهــد :

نزلت فى الأنصار كانوا يصلون العشاءين فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم يمضون إلى قُباء . وقال محمد بن على بن الحسين : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العَتَمة . قال الحسن : كأنه عَدّ هجوعهم قليلا فى جنب يقظتهم للصلاة . وقال ابن عباس ومُطرِّف : قلّ ليلة لا تأتى عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أولها وإما من وسطها .

الثانيـــة — روى عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ فى منامه فأنشده :

وكيف تنـامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ * ولم تَدرِ فى أىّ المجالِس تـنزِلُ

وروى عن رجل من الأزد أنه قال : كنت لا أنام الليـل فنمت فى آخر الليل ، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة ، ثم آنتهيا إلى النيام فلم يكسواهم ، فقلت لهما : آكسوانى من حُللكما هذه، فقالا لى : إنها ليست حُلّة لباس إنما هى رضوان الله يحـل على كل مصلّ . ويروى عن أبى خَلّاد أنه قال : حدّثنى صاحب لى قال : فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثِّلت لى القيامةُ ، فنظرت إلى أقوام من إخوانى قد أضاءت وجوههم ، وأشرقت ألوانهـم ، وعليهم الحلل من دون الخـلائق ، فقلت : ما بال هؤلاء مكتسون والنـاس عُراة ، ووجوههم مشرقة ووجوه النـاس مغبرة ، فقال لى قائل : الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة ، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد، قال : ورأيت أقواما على نجائب فقلت : ما بال هؤلاء ركبانا والناس مشاة حفاة؟ فقال لى: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقربا لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب؛ قال: فصحت فى منامى واهًا للعابدين، ما أشرف مقامهم . ثم آستيقظت من منامى وأنا خائف .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان ؛ أى يستغفرون من ذنوبهم؛ قاله الحسن . والسحر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء . وقد مضى فى «آل عمران»[1] القول فيـه . وقال ابن عمر ومجاهد : أى يصلّون وقت السحر فسمّوا الصـلاة آستغفارا . وقال الحسن فى قوله تعالى : «كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ» مدّوا الصلاة من أول الليل

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إلى السحر ثم استغفروا في السحر . ابن وهب : هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء فيصلون في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قالوا : كانوا يَنْضَحون لِناس من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلا، ثم يصلّون آخر الليل . الضحاك : صلاة الفجر . قال الأحنف بن قيس : عرضت عملي على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْنا بعيدا لا نبلغ أعمالهم « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعرضت عملي على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذّبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ مدح ثالث . قال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رَحِما ، أو يَقري به ضيفا ، أو يحمل به كَلًّا ، أو يغني به محروما . وقاله ابن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة . ابن العربي : والأقوى في هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة سأل سائل : « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » والحقّ المعلوم هو الزكاة التي بين الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت .

الخامسة ــ قوله تعالى : «لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما . « وَالْمَحْرُومِ » الذي حُرم المالَ . واختلف في تعيينه ؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما : المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم . وقالت عائشة رضي الله عنها : المحروم المُحارَف الذي لا يتيسر له مكسبه؛ يقال : رجل مُحارَف بفتح الراء أي محدود محروم وهو خلاف قولك مُبارَك . وقد حُورِف كسبُ فلان إذا شُدّد عليه في معاشه كأنه مِيلَ برزقه عنه . وقال قتادة والزهري : المحرو المتعفّف الذي لا يسأل الناس شيئا ولا يُعلِم بحاجته . وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت هذه الآية « وفي أَمْوَالِهِمْ » . وقال

عكرمة : المحروم الذى لا يبقى له مال . وقال زيد بن أسلم : هو الذى أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القُرَظي: المحروم الذى أصابته الجائحة ثم قرأ «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» نظيره فى قصة أصحاب الجنة حيث قالوا : « بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» وقال أبو قلابة: كان رجل من أهل اليمامة له مال بخاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحابه هذا المحروم فأقسموا له . وقيل : إنه الذى يطلب الدنيا وتُدبِر عنه . وهو يروى عن ٱبن عباس أيضا. وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك . وقيل: إنه الكلب. روى أن عمر بن عبد العزيز كان فى طريق مكة، بخاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتِف شاة فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم . وقيل : إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوى الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته فى مال غيره . وروى ٱبن وهب عن مالك : أنه الذى يُحرَم الرزق وهذا قول حسن؛ لأنه يعم جميع الأقوال . وقال الشعبي: لى اليوم سبعون سنة منذ ٱحتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ . رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي. وأصله فى اللغة الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع . قال عَلْقَمة :

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْم مُطْعَمُهُ * أَنَّى تَوَجَّـه والمحـرومُ محـرومُ

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنـا ظلمونا حقوقنا التى فَرَضتَ لنـا عليهم فيقول الله تعـالى وعزتى وجلالى لأقـربنكم ولأبعدنّهم" ثم تلا رسـول الله صلى الله عليه وسلم « وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » ذكره الثعلبي .

قوله تعـالى : وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعـالى : ﴿وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ لمـا ذكر أمر الفريقين بيّن أن فى الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيما، ومنها أنه

قدّر الأقوات فيها قِواما للحيوانات ، ومنها سيرهم فى البلدان التى يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة . والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم، وصدق نبوّة نبيهم؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : التقدير وفى الأرض وفى أنفسكم آيات للموقنين . وقال قتادة : المعنى من سار فى الأرض رأى آياتٍ وعبرا ، ومن تفكر فى نفسه علم أنه خلق ليعبد الله . آبن الزبير ومجاهد : المراد سبيل الخلاء والبول . وقال السائب آبن شريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ؛ ولو شرب لبنا محضا لخرج منه الماء ومنه الغائط فتلك الآية فى النفس . وقال آبن زيد : المعنى أنه خلقكم من تراب ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . السدى : «وَفِي أَنفُسِكُمْ» أى فى حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم . الحسن : وفى الهَرَم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد . وقيل : المعنى وفى خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح ، وفى آختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة ، وحسبك بالقلوب وما فيها من العقول، وما خصّت به من أنواع المعانى والفنون ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتّيها لما خُلقت له ، وما سوّى فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنى ، وأنه إذا جسّا شىء منها جاء العجز ، وإذا آسترخى أناخ الذل «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يعنى ببصر القلب ليعرفوا كمال قدرته . وقيل : إنه نُجْح العاجز، وحرمان الحازم .

قلت : كل ما ذكر مراد فى الاعتبار . وقد قدّمنا فى آية التوحيد من سورة « البقرة »[1] أن ما فى بدن الإنسان الذى هو العالم الصغير شىء إلا وله نظير فى العالم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفى ويغنى لمن تدبر .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٢ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق . قال سعيد بن جبير : كل عين قائمة فإنها من الثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم . وقال أهل المعانى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » معناه وفى المطر رزقكم سمى المطر سماء؛ لأنه من السماء ينزل . قال الشاعر(1) :

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ * رعيناه وإنْ كانوا غِضَابَا

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى ربّ السماء رزقكم ؛ نظيره : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » . وقال سفيان الثورى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » أى عند الله فى السماء رزقكم . وقيل : المعنى وفى السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب فى أم الكتاب . وعن سفيان قال : قرأ واصل الأحدب « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : ألا أرى رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ، فدخل خَرِبة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو فى الثالثة بدوخلّةٍ(2) رُطَبٍ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق الله بالموت بينهما . وقرأ ابن محيصن ومجاهد « وَفِي السَّمَاءِ رَازِقُكُمْ » بالألف وكذلك فى آخرها « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ » . ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال مجاهد : يعنى من خير وشر . وقال غيره : من خير خاصة . وقيل : الشر خاصة . وقيل : الجنة ؛ عن سفيان بن عُيينة . الضحاك : « وَمَا تُوعَدُونَ » من الجنة والنار . وقال ابن سيرين: « وَمَا تُوعَدُونَ » من أمر الساعة . وقاله الربيع .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أكّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق فى السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحقٌّ ثم أكده بقوله : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ وخصّ النطق من بين سائر الحواسّ ؛ لأن ما سواه من الحواسّ يدخله التشبيه ، كالذى

---

(1) هو معوّد الحكماء معاوية بن مالك ؛ وسمى معوّد الحكماء لقوله فى هذه القصيدة :

أعوّد مثلها الحكماء بعدى * إذا ما الحق فى الحدثان نابا

(2) الدوخلة (بتشديد اللام وتخفيفها) : سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب

يُرى فى المرآة ، واستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها ، والدوى والطنين فى الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعترض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مَشُوب بما يشكل به . وقال بعض الحكماء : كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره . وقال الحسن : بلغنى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ » " . وقال الأصمعى : أقبلت ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابى جِلف جاف على قعود له متقلّدا سيفه وبيده قوسه ، فدنا وسلّم وقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى أَصْمَع ، قال : أنت الأصمعى ؟ قلت : نعم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن ؛ قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ؛ قال : فاتل علىّ منه شيئا ؛ فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » إلى قوله : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : يا أصمعى حسبك ، ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال : أَعِنّى على توزيعها ، ففرقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فمقتُّ نفسى ولُمتها ، ثم حججت مع الرشيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى وهو ناحل مصفر، فسلّم علىّ وأخذ بيدى وقال : اتل علىّ كلام الرحمن، وأجلسنى من وراء المقام فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ » حتى وصلت إلى قوله تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فقال الأعرابى : لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبارك وتعالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » قال فصاح الأعرابى وقال : ياسبحان الله من الذى أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدّقوه فى قوله حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ فقالها ثلاثا وخرجت بها نَفْسه . وقال يزيد بن مرثد : إن رجلا جاع بمكان ليس فيه شىء فقال : اللهم رزقك الذى وعدتنى فأتنى به ، فشبِع ورَوِى من غير طعام ولا شراب . وعن أبى سعيد الخدرى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لو أن أحدكم

ن رزقه لتبعه كما يتبعه الموت " أسنده الثعلبي . وفي سنن ابن ماجه عن حبة وسواء ابني خالد قالا دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئا فأعناه عليه، فقال : "لا تيأسا من الرزق ما تهززت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمرَ ليس عليه قِشْر[1] ثم يرزقه الله" . وروى أن قوما من الأعراب زرعوا زرعا فأصابته جائحة فحزنوا لأجله ، فخرجت عليهم أعرابية فقالت : مالي أراكم قد نكستم رءوسكم ، وضاقت صدوركم ، هو ربنا والعالم بنا ، رزقنا عليه يأتينا به من حيث شاء . ثم أنشأت تقول :

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ * صُمٍّ مُلَمْلَمةٍ مُلْسٍ نواحيها
رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاها اللهُ لانفلقتْ * حتى تؤدي إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طِباقِ السبعِ مَسْلَكُها * لسهَّلَ اللهُ في المَرْقَى مَرَاقيها
حتى تنالَ الذي في اللوح خطَّ لها * إنْ لم تَنَلْه وإلا سوف يأتيها

قلت : وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسمع قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » فرجع ولم يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ليس الأشعريون بأهونَ على الله من الدواب : وقد ذكرناه في سورة « هود »[2] . وقال لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » الآية . وقد مضى في « لقمان »[3] وقد استوفينا هذا الباب في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة) والحمد لله . وهذا هو التوكل الحقيق الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رزقنا الله إياه، ولا أحالنا على أحد سواه بمنّه وكرمه .

قوله تعالى : « مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » قراءة العامة « مِثْلَ » بالنصب أي كمثل « مَا أَنَّكُمْ » فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أي كمثل نطقكم و « ما » زائدة ؛ قاله بعض الكوفيين . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد ؛ أي لحقّ حقًّا مثلَ

(١) القشر هنا الثياب . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

نطقك ؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف . وقول سيبويه : إنه مبنى بنى حين أضيف إلى غير متمكن و « ما » زائدة للتوكيد . المازنى : « مثل » مع « ما » بمنزلة شيء واحد فبنى على الفتح لذلك . وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ قال : ولأن من العرب من يجعل مثلا منصوبا أبدا ؛ فتقول : قال لى رجلٌ مثلَك ، ومررت برجل مثلَك بنصب [مثل على معنى كمثل] [1] . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش « مثلُ » بالرفع على أنه صفة لحقّ ؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة ، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التى يقع بعدها التماثل بين المتماثلين . و « مثلَ » مضاف إلى « أنّكُمْ » و « ما » زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدرا . ويجوز أن تكون بدلا من « لحقٌّ » .

قوله تعالى : هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط . « هَلْ أَتَاكَ » أى ألم يأتك . وقيل : « هَلْ » بمعنى قد ؛ كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » . وقد مضى الكلام فى ضيف إبراهيم فى « هود » [2] « والحجر » [3] . « الْمُكْرَمِينَ » أى عند الله ؛ دليله قوله تعالى : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ » قال آبن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل ــ زاد عثمان بن حَصِين ــ ورفائيل عليهم الصلاة والسلام . وقال محمد بن كعب : كان جبريل ومعه تسعة . وقال عطاء وجماعة : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

قال ابن عبّاس : سماهم مكرمين لأنهم غير مدعوين . وقال مجاهد : سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه . قال عبد الوهاب : قال لى على بن عياض : عندى هريسة ما رأيك فيها ؟ قلت : ما أحسن رأيى فيها ؛ قال : امض بنا ؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب، فما راعنى إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّست وعلى عاتقه المِنْديل ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا ؛ قال : هَوِّن عليك فإنك عندنا مُكرَم ، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس؛ انظر إلى قوله تعالى : «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ» .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ تقدّم فى « الحجر » . ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم سلام . ويجوز بمعنى أمرى سلام أو ردّى لكم سلام . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « سِلْمٌ » بكسر السين . ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى أنتم قوم منكرون ؛ أى غرباء لا نعرفكم . وقيل : لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم ؛ فقال : « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » . وقيل : أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان . وقال أبو العالية : أنكر سلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الأرض . وقيل : خافهم ؛ يقال : أنكرته إذا خفته ، قال الشاعر[(1)] :

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذى نَكِرَتْ * مِنَ الحوادثِ إلّا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الزجاج : أى عدل إلى أهله . وقد مضى فى « والصافّات »[(2)] . ويقال : أراغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا تُرِيغ أى تريد وتطلب ، وأراغ إلى كذا أى مال إليه سرًّا وحاد ؛ فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتان بمعنى . ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما فى « هود » : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » . ويقال : إن إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفى من ضيفه ؛ لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام .

---

(١) هو الأعشى .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٤

قوله تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ يعنى العجل . ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر ، وآختاره لهم سمينا زيادة فى إكرامهم . وقيل : العِجْل فى بعض اللغات الشاة . ذكره القشيرى . وفى الصحاح : العِجل ولد البقرة والعِجَّوْل مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة ؛ عن أبى الجراح ، وبقرة مُعْجِل ذات عِجْل ، وعِجْل قبيلة من ربيعة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى أحسّ منهم فى نفسه خوفا . وقيل : أضمر لما لم يتحرَّموا بطعامه . ومن أخلاق الناس أن من تَحرَّم بطعام إنسان أمنه . وقال عمرو بن دينار : قالت الملائكة لا نأكل إلا بالثمن . قال : كلوا وأدّوا ثمنه . قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تسمّون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم . فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : لهذا آتخذك الله خليلا . وقد تقدّم هذا فى « هود » . ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله . ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى بولد يولد له من سارة زوجته . وقيل : لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم ، فدعوا الله فأحيا العجل الذى قربه إليهم . وروى عون بن أبى شدّاد : أن جبريل مسح العجل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل فى الدار . ومعنى « عليم » أى يكون بعد بلوغه من أولى العلم بالله وبدينه . والجمهور على أن المبشر به هو إسحق . وقال مجاهد وحده : هو إسمعيل وليس بشىء فإن الله تعالى يقول : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ » . وهذا نص .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ أى فى صيحة وضجة ؛ عن آبن عباس وغيره . ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته . وقال عكرمة وقتادة : إنها الرَّنّة والتأوه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان . قال الفراء : وإنما هو كقولك أقبل يشتمنى أى أخذ فى شتمى . وقيل : أقبلت فى صَرَّة أى فى جماعة من النساء تسمع كلام الملائكة . قال

الجوهري : الصَّرة الضجّة والصيحة ، والصَّرة الجماعة ، والصَّرة الشدّة من كرب وغيره ؛ قال آمرؤ القيس :

فَأَلْحَقَهُ بالهَادِيَاتِ ودُونَهُ * جَوَاحِرُها في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ [1]

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة . وصَرة القيظ شدّة حَرّه . فلما سمعت سارة البشارة صَكّت وجهها ؛ أي ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب ؛ قاله سفيان الثوري وغيره . وقال آبن عباس : صَكّت وجهها لطمته . وأصل الصّك الضرب ؛ صكّه أي ضربه ؛ قال الراجز [2] :

* يا كَرَوَانًا صُكَّ فَاكْبَأَنَّا *

قال الأموي : كَبَن الظّبيُ إذا لَطَأ بالأرض وآكْبَأَنّ آنقبض . ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أتلد عجوز عقيم . الزجاج : أي وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد؛ كما قالت : « يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ » . ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ ﴾ أي كما قلنا لكِ وأخبرناكِ ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ فلا تَشُكّي فيه ، وكان بين البشارة والولادة سنة ، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم يومئذ آبن مائة سنة وقد مضى هذا . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

(١) ويروى فألحقنا والبيت من معلقته ، والهاديات أوائل بقر الوحش ، وجواحرها متخلفاتها ، ولم تزيل أي لم تتفرق ؛ يقول : لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق .

(٢) هو مدرك بن حصن . وتمامه : * فشن بالسلح فلما شنا *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم : « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى شأنكم وقصتكم « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ يريد قوم لوط . ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ أى لنرجمهم بها . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أى مُعلَّمة . قيل : كانت مخطّطة بسواد وبياض . وقيل : بسواد وحُمرة . وقيل : « مُسَوَّمَةً » أى معروفة بأنها حجارة العذاب . وقيل : على كل حجر اسم من يهلك به . وقيل : عليها أمثال الخواتيم . وقد مضى هذا كله فى « هود » . فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذّاذهم فلم يفلت منهم مخبر . ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه . ثم قيل : كانت مطبوخة طبخ الآجر ، قاله ابن زيد ؛ وهو معنى قوله تعالى : « حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » على ما تقدّم بيانه فى « هود » . وقيل : هى الحجارة التى نراها وأصلها طين ، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور . وإنما قال « مِنْ طِينٍ » ليعلم أنها ليست حجارة الماء التى هى البَرَد . حكاه القشيرى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قومه من المؤمنين ؛ لئلا يهلك المؤمنون ، وذلك قوله تعالى : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » . ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يعنى لوطا وبنتيه وفيه إضمار . أى فما وجدنا فيها غير أهل بيت . وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل . وقوله : « فِيهَا » كناية عن القرية ولم يتقدّم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم . وأيضا فقوله تعالى : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ » يدل على القرية ؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية . وقيل : الضمير فيها للجماعة . والمؤمنون والمسلمون ها هنا سواء فجنّس اللفظ لئلا يتكرر ؛ كما قال : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » . وقيل : الإيمان تصديق القلب ، والإسلام الانقياد بالظاهر ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا . فسماهم فى الآية الأولى مؤمنين ؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى فى «البقرة»[1] وغيرها . وقوله : «قَالَتِ الْأَعْرَابُ

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

آمنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا » يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام فى صحيح مسلم وغيره . وقد بيناه فى غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ أى عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم . نظيره : « وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » . ثم قيل : الآية المتروكة نفس القرية الخربة . وقيل : الحجارة المنضودة التى رُجموا بها هى الآية . ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون[1] .

قوله تعالى : وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِى مُوسَى ﴾ أى وتركنا أيضا فى قصة موسى آية . وقال الفراء : هو معطوف على قوله : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ » « وَفِى مُوسَى » . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة بيّنة وهى العصا . وقيل : أى بالمعجزات من العصا وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ أى فرعون أعرض عن الإيمان « بِرُكْنِهِ » أى بجموعه وأجناده ؛ قاله ابن زيد . وهو معنى قول مجاهد ، ومنه قوله : « أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » يعنى المنعة والعشيرة . وقال ابن عباس وقتادة : بقوته . ومنه قول عنترة :

فما أَوْهَى مِراسُ الحَرْبِ رُكْنِى * ولكنْ ما تَقَادَمَ مِن زَمَانِى[2]

وقيل : بنفسه . وقال الأخفش : بجانبه ؛ كقوله تعالى « أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ » وقاله المؤرِّج . الجوهرى : وركن الشىء جانبه الأقوى ، وهو يأوى إلى ركن شديد أى عزة ومنعة . القشيرى : والركن جانب البدن . وهذا عبارة عن المبالغة فى الإعراض عن الشىء .

---

(١) فى نسخة : المشفقون .

(٢) فى رواية : ولا وصلت إلىّ يد الزمان .

﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ « أو » بمعنى الواو ؛ لأنهم قالوهما جميعا . قاله المؤرّج والفراء ؛ وأنشد بيت جرير :

أَثعلبَةَ الفَوارِسَ أَوْ رِيَاحًا * عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ والخِشَابَا[1]

وقد توضع « أو » بمعنى الواو ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » والواو بمعنى أو ؛ كقوله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » وقد تقدّم جميع هذا[2] . ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان . ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أى طرحناهم ﴿ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يعنى فرعون ؛ لأنه أتى ما يلام عليه .

قوله تعالى : وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أى وتركنا فى عاد آية لمن تأمل . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ وهى التى لا تُلقح سحابا ولا شجرا، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة ؛ ومنه آمرأة عقيم لا تحمل ولا تلد . ثم قيل هى الجنوب . روى آبن أبى ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الريح العقيم الجَنُوب " وقال مقاتل : هى الدبور كما فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم " نُصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبُور " . وقال آبن عباس : هى النكباء . وقال عُبيد بن عُمير : مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد أيضا أنها الصَّبا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أى كالشىء الهشيم ؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت رميم وهشيم . قال آبن عباس : كالشىء الهالك البالى ؛ وقاله مجاهد . ومنه قول الشاعر[3] :

---

(١) طهية كسمية حىّ من تميم نسبوا إلى أمهم ، والخشاب بطون من تميم أيضا .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) هو جرير يرثى أبنه .

تَرَكَتْنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِى * وَإِذْ بَقِيتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي

وقال قتادة : إنه الذى ديس من يابس النبات . وقال أبو العالية والسدى : كالتراب المدقوق . قُطْرب : الرَّمِيم الرَّماد . وقال يمان : ما رمّته الماشيةُ من الكلأ بمرمتها . ويقال للشفة المِرَمَّة والمِقَمَّة بالكسر، والمَرَمَّة بالفتح لغة فيه . وأصل الكلمة من رمّ العظمُ إذا بلى تقول منه : رَمَّ العظمُ يَرِمّ بالكسر رِمّة فهو رميم، قال :

ورأى عواقبَ خُلْفِ ذاكَ مَذَمَّةً * تَبْقَى عليه والعِظَامُ رَمِيمُ

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمم ورِمام . ونظير هذه الآية : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » حسب ما تقدم[1] .

قوله تعالى : وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ أى وفيهم أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أى إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما فى هود[2] : « تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » . وقيل معنى « تَمَتَّعُوا » أى أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم . ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أى الموت . وقيل : هى كل عذاب مهلك ؛ قال الحسين بن واقد : كل صاعقة فى القرآن فهو العذاب . وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصن ومجاهد والكسائى « الصَّعْقَة » يقال : صَعِق الرجلُ صَعْقَة وتَصْعاقا أى غُشِى عليه . وصَعَقتهم السماء أى ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب وقد مضى فى « البقرة[3] » وغيرها . ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إليها نهارا . ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ قيل : معناه

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٦ فما بعدها . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢١٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

من نهوض . وقيل : ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم ؛ تقول : لا أقوم لهذا الأمر أي لا أطيقه . وقال ابن عباس : أي ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب . ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ أي ممتنعين من العذاب حين أهلكوا ؛ أي ما كان لهم ناصر .

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو « وَقَوْمِ نُوحٍ » بالخفض أي وفي قوم نوح آية أيضا . الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح ، أو يكون معطوفا على الهاء والميم في « أَخَذَتْهُمْ » أو الهاء في « أَخَذْنَاهُ » أي فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح ، أو « نَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » ونبذنا قوم نوح ، أو يكون بمعنى آذكر .

قوله تعالى : وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ لما بين هذه الآيات قال : وفي السماء آيات وعبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال ، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان . ومعنى « بِأَيْدٍ » أي بقوة وقدرة . عن ابن عباس وغيره . ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ قال ابن عباس : لقادرون . وقيل : أي وإنا لذو سعة وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده . وقيل : أي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا . عن ابن عباس أيضا . الحسن : وإنا لمطيقون . وعنه أيضا : وإنا لموسعون الرزق بالمطر . وقال الضحاك : أغنيناهم ؛ دليله : « عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ » . وقال القتبي : ذو سعة على خلقنا . والمعنى متقارب . وقيل : جعلنا بينهما وبين الأرض سعة . الجوهري : وأوسع الرجلُ أي صار ذا سَعة وغِنى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أي أغنياء قادرون . فشمل جميع الأقوال . ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾

أى بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها . ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أى فنعم الماهدون نحن لهم . والمعنى فى الجمع التعظيم ؛ مَهَدت الفراشَ مَهْدا بَسَطته ووطَّأته ، وتمهيد الأمور تسويتها و إصلاحها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أى صنفين ونوعين مختلفين . قال ٱبن زيد : أى ذكرا وأنثى وحلوا وحامضا ونحو ذلك . مجاهد : يعنى الذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجنّ والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشىّ ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم والأرابيح والأصوات . أى جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » لتعلموا أن خالق الأزواج فرد ، فلا يقدّر فى صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ٱبتداء ولا ٱنتهاء ؛ إذ هو عز وجل وتر « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ لما تقدّم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى : لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد ؛ أى قل لقومك : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى فرّوا من معاصيه إلى طاعته . وقال ٱبن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم . وعنه فرّوا منه إليه وٱعملوا بطاعته . وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان : ففروا إلى الله ٱخرجوا إلى مكة . وقال الحسين

ابن الفضل : احترزوا من كل شيء دون الله فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه . وقال أبو بكر الورّاق : فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقال الجُنَيد : الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه . وقال ذو النّون المصري : ففرّوا من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الشكر . وقال عمرو بن عثمان : فرّوا من أنفسكم إلى ربكم . وقال أيضا : فرّوا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم . وقال سهل بن عبد الله : فرّوا مما سوى الله إلى الله . « إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا للناس وهو النذير . وقيل : هو خطاب من الله للخلق . ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أي من محمد وسيوفه ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أي أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بي ؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون ، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم والكاف من « كَذَٰلِكَ » يجوز أن تكون نصبا على تقدير أنذركم إنذارا كإنذار من تقدّمني من الرسل الذين أنذروا قومهم ، أو رفعا على تقدير الأمرُ كذلك أي كالأول . والأوّل تخويف لمن عصاه من الموحّدين ، والثاني لمن أشرك به من الملحدين . والتمام على قوله : « كَذَٰلِكَ » عن يعقوب وغيره .

قوله تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أي أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب . وتواطئوا عليه ؛ والألف للتوبيخ والتعجب . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي لم يوص بعضهم بعضا بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحدّ في الكفر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم واصفح عنهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة ، ثم نسخ هذا بقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : نسخ بآية السيف . والأوّل قول الضحاك ؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة . وقال مجاهد : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » فأعرض عنهم « فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » أي ليس يلومك

ربك على تقصير كان منك « وَذَكِّرْ » أى بالعظة فإن العظة « تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » قتادة: « وَذَكِّرْ » بالقرآن « فَإِنَّ الذِّكْرَى » به « تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » . وقيل : ذكرهم بالعقوبة وأيام الله . وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ قيل : إن هذا خاص فيمن سبق فى علم الله أنه يعبده ، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص . المعنى : وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون . قال القُشيرى : والآية دخلها التخصيص على القطع ؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة ، وقد قال الله تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ » ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم ؛ وهو كقوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا » وإنما قال فريق منهم . ذكره الضحاك والكلبي والفراء والقتبى . وفى قراءة عبد الله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » وقال علىّ رضى الله عنه : أى وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بالعبادة . واعتمد الزجاج على هذا القول ، ويدل عليه قوله تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا » . فإن قيل : كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته ؟ قيل : قد تذللوا لقضائه عليهم ؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه ، وإنما خالفهم من كفر فى العمل بما أمره به ، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه . وقيل : « إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى إلا ليقروا لى بالعبادة طوعا أو كرها ؛ رواه علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس . فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصنعة . مجاهد : إلا ليعرفونى .

الثعلبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عُرِفَ وجوده وتوحيده . ودليل هذا التأويل قوله تعالى : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ» «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» وما أشبه هذا من الآيات . وعن مجاهد أيضا : إلا لآمرهم وأنهاهم . زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من الشقوة والسعادة؛ فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للمعصية . وعن الكلبي أيضا : إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » الآية . وقال عكرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد . وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب ؛ تقول : عبد بيّن العبودة والعبودية ، وأصل العبودية الخضوع والذل . والتعبيد التذليل؛ يقال : طريق مُعَبَّد . قال : [1]

* وَظِيفًا وَظِيفًا فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ *

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخذه عبدا . وكذلك الاعتباد . والعبادة : الطاعة ، والتعبد التنسك فمعنى «لِيَعْبُدُونِ» ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا . ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ «مِنْ» صلة أي رزقا بل أنا الرزاق والمعطي . وقال ابن عباس وأبو الجوزاء : أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ وقرأ ابن محيصن وغيره «الرَّازِقُ» . ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ أي الشديد القوي . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والنخعي « الْمَتِينِ » بالجر على النعت للقوة . الباقون بالرفع على النعت لـ «الرزاق» ، أو « ذو » من قوله : « ذُو الْقُوَّةِ » أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أو يكون نعتا لاسم إنّ على الموضع ، أو خبرا بعد خبرا . قال الفراء : كان

---

(١) هو طرفة بن العبد والبيت من معلقته وصدره :

* تباري عتاقا ناجيات وأتبعت *

الوظيف عظم الساق . وقوله أتبعت وظيفا وظيفا أي أتبعت وظيف يدها وظيف رجلها ، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها في موضع يدها إذا سارت . والمور : الطريق .

حقه المتينة فذكره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل؛ يقال : حبل متين ، وأنشد الفرّاء :

لِكُلِّ دَهْرٍ قَدْ لَبِستُ أَثْوُبَا * حَتَّى ٱكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبَا

* مِنْ رِيطَةٍ وَٱلْيُمْنَةَ الْمُعَصَّبَا *

فذكّر المعصّب ؛ لأن اليمنة صنف من الثياب ؛ ومن هذا الباب قوله تعالى : « فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ » أى وعظ «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » أى الصياح والصوت .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كفروا من أهل مكة ﴿ ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أى نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة . وقال ٱبن الأعرابى : يقال يوم ذَنُوب أى طويل الشر لا ينقضى . وأصل الذَّنُوب فى اللغة الدّلو العظيمة ، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنُوب نصيبا من هذا ، قال الراجز :

لَنَا ذَنُوبٌ ولَكُمْ ذَنُوبُ * فإنْ أَبَيْتُمْ فلنا القَلِيبُ

وقال عَلْقمة :

وفى كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بِنعْمةٍ * فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر[1] :

لَعَمْرُكَ والمَنَايَا طَارِقاتٌ * لِكُلِّ بَنِى أَبٍ منها ذَنُوبُ

الجوهرى : والذَّنُوب الفرس الطويل الذَّنَب ، والذَّنُوب النصيب ، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن ، والذَّنُوب الدّلو الملأى ماء . وقال ٱبن السكيت : فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر ولا يقال لها وهى فارغة ذَنُوب ، والجمع فى أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنائب ، مثل قَلُوص وقَلائص . ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أى فلا يستعجلون نزول العذاب بهم ؛ لأنهم قالوا يا محمد : « ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجل بهم ٱنتقامه ، ثم لهم فى الآخرة العذاب الدائم ، والخزى القائم ، الذى لا ٱنقطاع له ولا نفاد ، ولا غاية ولا آباد . تم تفسير سورة « والذاريات » والحمد لله .

---

(١) قائله أبو ذؤيب .

سورة «والطور»

مكية كلها فى قول الجميع وهى ثمان وأربعون آية

روى الأئمة عن جُبَير بن مُطْعِم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بالطور فى المغرب . متفق عليه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ الطور ٱسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى ؛ أقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات ، وهو أحد جبال الجنة . وروى إسمعيل بن إسحق قال : حدّثنا إسمعيل ٱبن أبى أويس ، قال : حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة مَلاحم من مَلاحم الجنة [1] " قيل : فما الأجبل ؟ قال : جبل أُحُد يحبنا ونحبه والطُّور جبل من جبال الجنة ولُبْنان جبل من جبال الجنة " وذكر الحديث وقد ٱستوفيناه فى كتاب « التذكرة » . قال مجاهد : الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طُورسينا . وقاله السدّى . وقال مقاتل بن حيان : هما طُوران يقال لأحدهما طُورسينا والآخر طُورزيتا؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل : هو جبل بمدين وٱسمه زَبير . قال الجوهرى : والزَّبير الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام .

(١) الملاحم : غزوة بدر وأحد والخندق وخيبر .

قلت : ومدين بالأرض المقدسة وهي قرية شعيب عليه السلام . وقيل : إن الطُّور كل جبل أنبت وما لا ينبت فليس بطُور ؛ قاله بن عباس . وقد مضى في « البقرة »(١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ أي مكتوب ؛ يعني القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ ؛ كما قال تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ » . وقيل : يعني سائر الكتب المنزلة على الأنبياء ، وكان كل كتاب في رَقّ ينشره أهله لقراءته . وقال الكلبي : هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم . وقال الفراء : هو صحائف الأعمال ؛ فمن آخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله ؛ نظيره : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا » وقوله : « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » وقيل : إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون . وقيل : المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين ؛ بيانه : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ »

قلت : وفي هذا القول تجوُّز ؛ لأنه عبّر بالقلوب عن الرّق . قال المبّرد : الرَّق ما رُقِّق من الجلد ليكتب فيه والمنشور المبسوط . وكذا قال الجوهري في الصحاح ؛ قال : والرَّق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق . ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ والرَّق أيضا العظيم من السلاحف . قال أبو عبيدة : و جمعه رُقُوق . والمعنى المراد ما قاله الفراء ؛ والله أعلم .

وكل صحيفة فهي رَقّ لرقة حواشيها ؛ ومنه قول المتلمس :

فكأنما هي من تَقادُمِ عَهْدِها ۞ رَقٌّ أُتيح كتابُها مسطور(٢)

وأما الرِّق بالكسر فهو الملك . يقال : عبد مرقوق . وحكى الماوردي عن ابن عباس أن الرَّق بالفتح ما بين المشرق والمغرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ قال علي وابن عباس وغيرهما : هو بيت في السماء حيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . قال

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) لم نعثر على هذا البيت في ديوان المتلمس .

على رضى الله عنه : هو بيت فى السماء السادسة . وقيل : فى السماء الرابعة . روى أنس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُوتى بى إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حِيال الكعبة لو خَرّ خَرّ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه " ذكره الماوردىّ . وحكى القشيرى عن ٱبن عباس أنه فى السماء الدنيا . وقال أبو بكر الأنبارى : سأل ٱبن الكواء عليا رضى الله عنه قال : فما البيت المعمور ؟ قال : بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّرَاح . وكذا فى « الصحاح » : والضُّرَاح بالضم بيت فى السماء وهو البيت المعمور عن ٱبن عباس . وعُمْرانه كثرة غاشيته من الملائكة . وقال المهدوى عنه : حذاء العرش . والذى فى صحيح مسلم عن مالك بن صَعْصَعة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء : " ثم رُفع إلى البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخرَ[1] ما عليهم " وذكر الحديث . وفى حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتيت بالبُرَاق " الحديث ؛ وفيه : " ثم عرج بنا إلى السابعة فٱستفتح جبريلُ عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد — صلى الله عليه وسلم — قيل وقد بُعث إليه قال قد بُعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنِدا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملَك لا يعودون إليه " . وعن ٱبن عباس أيضا قال : لله فى السموات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتا ، سبعة فى السموات وسبعة فى الأرضين والكعبة ، وكلها مقابلة للكعبة . وقال الحسن : البيت المعمور هو الكعبة ، البيت الحرام الذى هو معمور من الناس ، يَعمُره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة ، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة فى الأرض . وقال الربيع بن أنس : إن البيت المعمور كان

---

(١) « آخر » برفع الراء ونصبها ، فالنصب على الظرف والرفع على تقدير ذلك آخر ما عليهم ؛ والرفع أوجه . (هامش مسلم) .

فى الأرض موضع الكعبة فى زمان آدم عليه السلام، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجوا فأبوا عليه وعصوه، فلما طغى الماء رفع فجعل بحذائه فى السماء الدنيا، يعمُره كلّ يوم سبعونَ ألفَ ملك، ثم لا يرجعون إليه حتى ينفخ فى الصور . قال : فبوّأ الله جلّ وعزّ لإبراهيم مكان البيت حيث كان ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» . ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ يعنى السماء سماها سقفا ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت؛ بيانه : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » . وقال ابن عباس : هو العرش وهو سقف الجنة . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ قال مجاهد : الموقد؛ وقد جاء فى الخبر : " إن البحر يُسجَّر يوم القيامة فيكون نارا " . وقال قتادة : المملوء . وأنشد النحويون للنَّمر بن تَوْلَب :

إذا شاء طالعَ مَسْجُورةً * تَرَى حولها النَّبْعَ والسَّاسَمَا[1]

يريد وَعلًا يطالع عينا مسجورة مملوءة . فيجوز أن يكون المملوء نارا فيكون كالقول المتقدّم . وكذا قال الضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه المُوقَد المحمىّ بمنزلة التَّنُّور المسجور . ومنه قيل : لِلْمِسْعَر مِسْجَر؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » أى أوقدت؛ سَجَرت التَّنُّور أسجره سجرا أى أحميته . وقال سعيد ابن المسيِّب قال على رضى الله عنه لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . قال ما أُرَاك إلا صادقا ، وتلا « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » . « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ » مخففة . وقال عبد الله ابن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . وقال كعب : يُسجَّر البحر غدا فيزاد فى نار جهنم ؛ فهذا قول . وقال ابن عباس : المسجور الذى ذهب ماؤه . وقاله أبو العالية . وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال : خرجت أمة لتستقى فقالت : إن الحوض مسجور أى فارغ؛ قال ابن أبى داود : ليس لذى الرُّمة حديث إلا هذا . وقيل : المسجور أى المفجور ؛ دليله : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » أى تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء .

---

(١) الساسم غير مهموز شجر يتخذ منه القسىّ والسهام؛ والنبع مثله .

وقول ثالث قاله علىّ رضى الله عنه وعكرمة؛ قال أبو مكين : سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال هو بحر دون العرش . وقال علىّ : تحت العرش فيه ماء غليظ . ويقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون فى قبورهم . وقال الربيع بن أنس : المسجور المختلط العذب بالملح .

قلت : وإليه يرجع معنى « سُجِّرَتْ » فى أحد التأويلين ؛ أى يُفَجَّر عذبُها فى مالحها ؛ والله أعلم . وسيأتى . وروى علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : المسجور المحبوس .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم أى واقع بالمشركين . قال جُبَير بن مُطْعِم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر ، فوافيته يقرأ فى صلاة المغرب « وَالطُّورِ » إلى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبى ، فأسلمت خوفا من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب . وقال هشام بن حسان : انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ « وَالطُّورِ » حتى بلغ « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ » فبكى الحسن وبكى أصحابه بفجعل مالك يضطرب حتى غُشى عليه . ولما وُلّى بَكَّار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين ، فرغب إلى الصلح بينهما ، وأنه يعطى خصمه من عنده عوضا من يمينه فأبى إلا اليمين ، فأحلفه بأوّل « وَالطُّورِ » إلى أن قال له قل : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ » إن كنت كاذبا ، فقالها فخرج فكسر من حينه .

قوله تعالى : يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ العامل فى يوم قوله : « واقِعٌ » أى يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذى تمور فيه السماء . قال أهل اللغة : مار الشىءُ يَمُورُ مَوْرًا ، أى تحرك وجاء وذهب كما تَتَكفَّأ النخلةُ العَيْدانة ، أى الطويلة ، والتَّمُور مثله . وقال الضحاك : يموج بعضها فى بعض . مجاهد : تدور دورا . أبو عبيدة والأخفش : تكفأ ، وأنشد للأعشى :

كأنّ مِشيَتَهـا مِن بيتِ جارتِهـا * مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَـلُ

وقيل تجرى جريا . ومنه قول جرير :

وما زالتِ القَتْـلَى تَمُـورُ دِماؤُهَا * بِدجلةَ حـتّى ماءُ دجلةَ أَشْـكَلُ [1]

وقال ابن عباس : تمـور السماء يومئذ بمـا فيها وتضطرب . وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم فى بعض . والمور أيضا الطريق . ومنه قول طَرَفة :

* ... فَـوْقَ مَـوْرٍ مُعَبَّـدِ [2] *

والمَوْر الموج . وناقة مَوّارة اليد أى سريعة . والبعير يمور عضداه إذا ترددا فى عرض جَنْبه ، قال الشاعر :

* على ظَهْـرِ مَـوَّارِ المِـلَاطِ حِصَانِ *

المِلاط الجنب . وقولهم : لا أدرى أغارَ أم مَارَ ، أى أتى غورا أم دار فرجع إلى نجد . والمُور بالضم الغبار بالريح . وقيل : إن السماء هاهنا الفلك ومَوره اضطراب نظمه واختلاف سيره ، قاله ابن بحر . ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ قال مقاتل : تسير عن أماكنها حتى تستوى بالأرض . وقيل : تسير كسير السحاب اليوم فى الدنيا ، بيانه « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » . وقد مضى هـذا المعنى فى « الكهف » [3] . ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

---

(١) الأشكل : ما فيه بياض وحمرة .

(٢) البيت من معلقته وتمامه : تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت : وظيفا وظيفا فوق مور معبد .
تبارى : تعارض . والعتاق : النوق الكرام . والناجيات : السريعات . والوظيف عظم الساق . والمعبد : المذلل .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٦ طبعة أولى أو ثانية .

« وَيْلٌ » كلمة تقال للهالك ، وإنما دخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة . ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أى فى تردد فى الباطل ، وهو خوضهم فى أمر محمد بالتكذيب . وقيل : فى خوض فى أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حسابا ولا جزاء . وقد مضى فى «براءة»[1] .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ « يَوْمَ » بدل من يومئذ . و« يُدَعُّونَ » معناه يدفعون إلى جهنم بشدة وعنف ؛ يقال : دَعَعته أَدُعُّه دعًّا أى دفعته ؛ ومنه قوله تعالى : « فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ » . وفى التفسير : إن خزنة جهنم يَغُلُّون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعونهم فى النار دفعا على وجوههم ، وزخا فى أعناقهم حتى يَرِدوا النار . وقرأ أبو رجاء العطاردى وٱبن السَّمَيْقَع «يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا» بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ ٱستفهام معناه التوبيخ والتقريع ؛ أى يقال لهم « أَفَسِحْرٌ هَذَا » الذى ترون الآن بأعينكم ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل ؛ أى بل كنتم لا تبصرون فى الدنيا ولا تعقلون .

قوله تعالى : ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ أى تقول لهم الخزنة ذوقوا حرها بالدخول فيها ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْلَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن فـ « سواء » خبره محذوف ؛ أى سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شىء ، كما أخبر عنهم أنهم يقولون : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا » . ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ لما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضا ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ أى ذوى فاكهة كثيرة ؛ يقال : رجل فاكه أى ذو فاكهة ، كما يقال : لَابِنٌ وتامرٌ ؛ أى ذو لبن وتمر ؛ قال[1] :

وغَرَرْتَنِي وزَعمتَ أنـ * ـكَ لَابِنٌ بالصَّيْفِ تامِرْ

أى ذو لبن وتمر . وقرأ الحسن وغيره « فَكِهِينَ » بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين فى قول ٱبن عباس وغيره ؛ يقال : فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيب النفس مزاحا . والفكه أيضا الأشِر البطِر . وقد مضى فى «الدخان»[2] القول فى هذا . ﴿ بِمَا آتَاهُمْ ﴾ أى أعطاهم ﴿ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ . ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم ذلك . ﴿ هَنِيئًا ﴾ الهنىء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنئكم ما صرتم إليه «هَنِيئًا» . وقيل : أى متعتم بنعيم الجنة إمتاعا هنيئا . وقيل : أى كلوا وٱشربوا هنئتم « هنيئا » فهو صفة فى موضع المصدر . وقيل : « هنيئا » أى حلالا . وقيل : لا أذى فيه ولا غائلة . وقيل : « هنيئا » أى لا تموتون ؛ فإن مالا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنىء .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ ﴾ سرر جمع سرير وفى الكلام حذف تقديره : متكئين على نمارق سرر . ﴿ مَصْفُوفَةٍ ﴾ قال ٱبن الأعرابى : أى موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا . وفى الأخبار أنها تصفّ فى السماء بطول كذا وكذا ؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له ، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها . قال ٱبن عباس : هى سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير ما بين مكة وأيلة . ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى قرناهم بهن . قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته ٱمرأة وتزوجت ٱمرأة وليس من كلام العرب تزوّجت بامرأة . قال : وقول الله عز وجل « وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أى قرناهم بهنّ من قول الله تعالى : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أى وقرناءهم . وقال الفرّاء : تزوّجت بٱمرأة لغة فى أزد شنوءة . وقد مضى القول فى معنى الحور العين[3] .

---

(١) هو الحطيئة . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٣٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٥٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ والذينَ آمنُوا واتّبعتْهُم ذُرِّيتُهم ﴾ قرأ العامة «واتّبعتْهُم» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء . وقرأ أبو عمرو «وأتْبعْنَاهُمْ» بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون ؛ اعتبارا بقوله : «ألْحَقْنَا بِهِمْ» ؛ ليكون الكلام على نسق واحد . فأما قوله : « ذُرِّيَّاتُهُم » الأولى فقرأها بالجمع ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم . وقرأ الباقون « ذُرِّيَّتُهُم » على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع . فأما الثانية فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع . الباقون « ذُرِّيَّتَهُم » على التوحيد وفتح التاء . واختلف فى معناه فقيل عن ابن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقَرّ بهم عينه ، وتلا هذه الآية . ورواه مرفوعا النحاس فى «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه " ثم قرأ « والذينَ آمَنُوا وأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإيمَانٍ » الآية . قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه . الزمخشرى : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم فى أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم .

وعن ابن عباس أيضا أنه قال : إن الله ليلحق بالمؤمن ذريته الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان؛ قاله المهدوى . والذرية تقع على الصغار والكبار، فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قوله تعالى : « بِإِيمَانٍ » فى موضع الحال من المفعولين ؛ وكان التقدير « بِإِيمَانٍ » من الآباء . وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله : « بِإِيمَانٍ » حالا من الفاعلين . القول الثالث عن ابن عباس أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون . وفى رواية عنه : إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء؛ فالآباء داخلون فى اسم الذرية ؛ كقوله تعالى : «وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» . وعن ابن عباس أيضا يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول يا ربّ إنى عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به" . وقالت خديجة رضى الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ولدين لى ماتا فى الجاهلية فقال لى : "هما فى النار" فلما رأى الكراهية فى وجهى قال : "لو رأيتِ مكانَهما لأبغضتِهما" قالت : يا رسول الله فولدى منك ؟ قال : "فى الجنة" ثم قال : "إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة والمشركين وأولادهم فى النار"(1) ثم قرأ « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » الآية .

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم ، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئا بإلحاق الذريات بهم . والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وقال ابن زيد : المعنى « وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » ألحقنا بالذرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل ؛ فالهاء والميم على هذا القول للذرية . وقرأ ابن كثير « وَمَا أَلِتْنَاهُمْ » بكسر اللام . وفتح الباقون . وعن أبي هريرة « آلَتْنَاهُمْ » بالمدّ؛ قال ابن الأعرابى : أَلَتَه يألِته أَلْتا وآلَته يُؤْلِته إيلاتا ولاته يَليته لَيْتا كلّها إذا نقصه .

---

(1) هذا الحديث كان قبل قوله صلى الله عليه وسلم : « سألت ربى فأعطانى أولاد المشركين خدما لأهل الجنة » .

وفي الصحاح : ولاته عن وجهه يلوته ويليته أي حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاته عن وجهه فعل وأفعل بمعنى، ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا أي ما نقصه مثل ألته وقد مضى بـ«الحجرات»[1]. ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ قيل : يرجع إلى أهل النار . قال ابن عباس : ارتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم، ولهذا قال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ » . وقيل : هو عام لكل إنسان مرتهن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمله ، فأما الزيادة على ثواب العمل فهي تفضل من الله . ويحتمل أن يكون هذا في الذرية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مرتهنين بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي أكثرنا لهم من ذلك زيادة من الله ، أمدهم بها غير الذي كان لهم .

قوله تعالى : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة . والكأس إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره ، فإذا فرغ لم يسم كأسا . وشاهد التنازع والكأس في اللغة قول الأخطل :

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادَمَنِي * لا بِالحَصُورِ ولا فيها بِسَوَّارِ[2]

نَازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ * صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي

وقال امرؤ القيس :

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الحَدِيثَ وَأَسْمَحَتْ * هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّالِ

وقد مضى هذا في « والصافات »[3] . ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي في الكأس أي لا يجري بينهم لغو

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٨ فما بعدها . (٢) مربح : يعر لصيفانه الربع وهي الفصلان؛ ويروى : مرنح وهو الذي كأسه ملأى بالخمر فيسكر ولا يتغير عن أخلاقه الحميدة . والحصور الضيق البخيل مثل الحصير . والسوار هو المعربد الوثاب، ويروى بسئار وهو الذي إذا شرب ترك بقية من الشراب في قعر الإناء . والدجاج هنا المراد به الديكة يريد وقت السحر ؛ يقال هذا دجاج فيريدون الديوك . وهذه دجاج فيريدون الأنثى . ووقعة الساري — ويروى وقفة الساري — من وقعت الإبل إذا بركت . والساري هو السائر بالليل . وفي نسخ الأصل كلها في الكأس بازعى . والتصحيح كما أثبتناه في صدر الكتاب من ديوان الأخطل طبع اليسوعيين .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٧٧ وما بعدها ففيها الكلام على الكأس .

« وَلَا تَأْثِيمٌ » ولا ما فيه إثم . والتأثيم تفعيل من الإثم ؛ أى تلك الكأس لا تجعلهم آثمين لأنه مباح لهم . وقيل : « لَا لَغْوٌ فِيهَا » أى فى الجنة . قال آبن عطاء : أىّ لغو يكون فى مجلس محله جنّة عدن، وسقاتهم الملائكة، وشربهم على ذكر الله، وريحانهم وتحيتهم من عند الله، والقوم أضياف الله! « وَلَا تَأْثِيمٌ » ولا كذب؛ قاله آبن عباس . الضحاك : يعنى لا يكذب بعضهم بعضا . وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وأبو عمرو : « لا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ » بفتح آخره . الباقون بالرفع والتنوين وقد مضى هذا فى «البقرة»(١) عند قوله تعالى : « وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أى بالفواكه والتحف والطعام والشراب ؛ ودليله : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ »، « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » . ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقر الله تعالى بهم أعينهم . وقيل : إنهم مَن أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم . وقيل : هم غلمان خلقوا فى الجنة . قال الكلبي : لا يكبرون أبدا ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ فى الحسن والبياض ﴿لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ فى الصَّدَف، والمكنون المصون . وقوله تعالى : «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ» . قيل : هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة . وليس فى الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم . وعن عائشة رضى الله عنها : أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أدنى أهل الجنة منزلة من يُنادى الخادم من خدمه فيجيبه ألف كلّهم لبيك لبيك" . وعن عبد الله بن عمر قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه" . وعن الحسن أنهم قالوا : يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم ؟ فقال : "ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب" . قال الكسائى : كننت الشيء سترته وصنته من الشمس، وأكننته فى نفسى أسررته . وقال أبو زيد : كننته وأكننته بمعنى فى الكِنّ وفى النفس جميعا؛ تقول : كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومُكَنّ » وكننت الجارية وأكننتها فهى مكنونة ومُكَنّة .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضا . وقيل : فى الجنة « يَتَسَاءَلُونَ » أى يتذاكرون ما كانوا فيه فى الدنيا من التعب والخوف من العاقبة ، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم . وقيل : يقول بعضهم لبعض بم صرت فى هذه المنزلة الرفيعة ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أى قال كل مسئول منهم لسائله : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ » أى فى الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله . ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالجنة والمغفرة . وقيل : بالتوفيق والهداية . ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ قال الحسن : « السَّمُوم » اسم من أسماء النار وطبقة من طباق جهنم . وقيل : هو النار كما تقول جهنم . وقيل: نار عذاب السَّمُوم . والسَّمُوم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سُمَّ يومُنا فهو مسموم والجمع سَمَائم . قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ؛ وقد تستعمل السَّمُوم فى لفح البرد [وهو فى لفح الحر] (١) والشمس أكثر ؛ قال الراجز :

اليومُ يومٌ باردٌ سَمُومُه * مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا أَلُومُهْ

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أى فى الدنيا بأن يمنّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا . وقيل : «نَدْعُوهُ» أى نعبده . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ وقرأ نافع والكسائى «أَنَّهُ» بفتح الهمزة أى لأنه . الباقون بالكسر على الابتداء . و «البر» اللطيف ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : إنه الصادق فيما وعد . وقاله ابن جريج .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فذكر يا محمد قومك بالقرآن . ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يعنى برسالة ربك ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ تبتدع القول وتخبر بما فى غد من غير وحى . ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ وهذا ردّ لقولهم فى النبى صلى الله عليه وسلم؛ فعقبة بن أبى مُعَيْط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة قال : إنه ساحر، وغيرهما قال : كاهن، فأكذبهم الله تعالى وردّ عليهم . ثم قيل : إن معنى « فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ » القسم؛ أى وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون . وقيل : ليس قسماً ، وإنما هو كما تقول : ما أنت بحمد الله بجاهل؛ أى قد برأك الله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ أى بل يقولون محمد شاعر. قال سيبويه: خوطب العباد بما جرى فى كلامهم . قال أبو جعفر النحاس : وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبيّن ولا مشروح؛ يريد سيبويه أن«أم» فى كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث؛ كما قال[(١)]:

* أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تُلِمّْ *

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال :

* أَمِ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مُنْجَذِمْ *

فما جاء فى كتاب الله تعالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث ، والنحويون يمثلونها ببل . ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ قال قتادة: قال قوم من الكفار تربّصوا

(١) هو الأعشى .

محمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بنى فلان. قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر، أى يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأن أباه مات شابا فربما يموت كما مات أبوه . وقال الأخفش : نتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر، كما تقول : قصدت زيدا وقصدت إلى زيد . والمنون الموت فى قول ابن عباس .

قال أبو الغول الطُّهوى :

هُمُ مَنَعُوا حِمَى الْوَقْبَى بِضَرْبٍ * يُؤَلِّف بين أَشْتاتِ الْمَنُونِ (١)

أى المنايا؛ يقول: إن الضرب يجمع بين قوم متفرّقى الأمكنة لو أتتهم مناياهم فى أماكنهم لأتتهم متفرّقة، فاجتمعوا فى موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة . وقال السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس : « ريب » فى القرآن شك إلا مكانا واحدا فى الطور « ريب المنون » يعنى حوادث الأمور؛ وقال الشاعر (٢) :

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّها * تُطَلَّقُ يوماً أو يَموتُ حَلِيلُها

وقال مجاهد : « رَيْبَ الْمَنُونِ » حوادث الدهر، والمنون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب :

أَمِنَ الْمَنونِ ورَيْبِـه تَتَوَجَّـعُ * والدَّهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وقال الأعشى :

أَأَنْ رَأَتْ رجلاً أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ * رَيْبُ الْمَنونِ ودَهْرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ (٣)

قال الأصمعى : المنون الليل والنهار؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال . وعنه : أنه قيل للدهر منون؛ لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان أى قوّته وكذلك المنيَّة . أبو عبيدة : قيل للدهر منون؛ لأنه مُضْعِف من قولهم حَبْلٌ مَنِين أى ضعيف، والمنين الغبار الضعيف . قال الفراء : والمنون مؤنثة وتكون واحدا وجمعا . الأصمعى : المنون واحد لاجماعة له .

---

(١) هو من بنى نهشل واسمه علباء بن جوشن . والوقبى بكسرى ماء لبنى مالك بن مازن مشهور بوقائع عديدة وهو على طريق المدينة من البصرة .

(٢) الذى فى نسخ الأصل : قال ابن عباس وليس بشىء، وفى سائر كتب التفسير قال الشاعر كما أثبتناه .

(٣) يروى : ودهر مفند . وهى الرواية المشهورة . متبل مسقم أو يذهب بالأهل والولد . وخبل ككتف ملتو على أهله لا يرون فيه سرورا .

الأخفش : هو جماعة لاواحد له ، والمنون يذكر و يؤنث فمن ذكره جعله الدهر أو الموت ، ومن أنثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ أى قل لهم يا محمد تربصوا أى آنتظروا . ﴿ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أى من المنتظرين بكم العذاب ؛ فعُذِّبوا يوم بدر بالسيف .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ ﴾ أى عقولهم ﴿ بِهَـٰذَا ﴾ أى بالكذب عليك . ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى أم طغوا بغير عقول . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل أى بل كفروا طغيانا وإن ظهر لهم الحقّ . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله ؛ أى لم يصحبها بالتوفيق . وقيل : « أَحْلَامُهُمْ » أى أذهانهم ؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يُعطَى الكافر الذّهن فصار عليه حجة . والذّهن يقبل العلم جملة ، والعقل يميز العلم و يقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ما أعقل فلانا النصرانى ! فقال : " مَهْ إنّ الكافر لا عقل له أما سمعت قول الله تعالى « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ » " . وفى حديث آبن عمر : فزجره النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : " مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله " ذكره الترمذى الحكيم أبو عبد الله بإسناده .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى آختلقه وآفتراه ، يعنى القرآن . والتقوّل تكلّف القول ، وإنما يستعمل فى الكذب فى غالب الأمر . ويقال قوّلتنى ما لم أقل وأقْوَلتنى ما لم أقل أى آدّعيته علىّ . وتقوّل عليه أى كذب عليه . وآقتال عليه تحكم قال (١) :

ومَنْزِلةٌ فى دارِ صِدْقٍ وغِبْطَةٍ * وما آقتالَ مِن حُكْمٍ علَىَّ طَبِيبُ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أى ليس كما يقولون . ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جحدا وآستكبارا . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أى بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى أن محمدا آفتراه . وقرأ الجحدرى « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ » بالإضافة . والهاء فى « مثله » للنبي صلى الله

---

(١) هو كعب بن سعد الغنوى

عليه وسلم ، وأضيف الحديث الذى يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به . والهاء على قراءة الجماعة للقرآن .

قوله تعالى : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ « أم » صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شىء . قال ٱبن عباس : من غير ربّ خلقهم وقدّرهم . وقيل : من غير أمّ ولا أب فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لله عليهم حجة؛ ليسوا كذلك ، أليس قد خُلِقوا من نطفة وعَلَقة ومُضْغة؛ قاله ٱبن عطاء . وقال ٱبن كيسان : أم خُلِقوا عبثا وتُرِكوا سُدًى « مِنْ غيرِ شىءٍ » أى لغير شىء «فمِن» بمعنى اللام . ﴿ أَمْ هُمُ الْخَـٰلِقُونَ ﴾ أى أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك ، و إذا أقرّوا أن ثَمّ خالقا غيرهم فما الذى يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام ، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث . ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئا ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بالحق ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله و يعرضوا عن أمره . وقال ٱبن عباس : خزائن ربك المطر والرزق . وقيل : مفاتيح الرحمة . وقال عكرمة : النبوة . أى أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا . وضرب المثل بالخزائن ؛ لأن الخزانة بيت

يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر، ومقدورات الربّ كالخزائن التى فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها . ﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : المسلّطون الجبّارون . وعنه أيضا : المبطلون . وقاله الضحاك . وعن ابن عباس أيضا : أم هم المتولّون . عطاء : أم هم أرباب قاهرون . قال عطاء : يقال تسيطرت علىّ أى اتخذتنى خَوَلا لك . وقاله أبو عبيدة . وفى الصحاح : المسيطر والمصيطر المسلّط على الشىء لِيُشرِف عليه ويتعهدَ أحوالَه ويكتبَ عمله ، وأصله من السّطر؛ لأن الكتاب يُسَطِّر والذى يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِر . يقال سَيْطرتَ علينا . ابن بحر : « أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ » أى هم الحفظة ؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذى يحفظ ما كتب فيه ؛ فصار المسيطر ها هنا حافظا ما كتبه الله فى اللوح المحفوظ . وفيه ثلاث لغات : الصاد وبها قرأت العامة ، والسين وهى قراءة ابن مُحَيصن وحميد ومجاهد وقُنْبل وهشام وأبى حَيْوة ، وبإشمام الصاد الزاى وهى قراءة حمزة كما تقدّم فى « الصّراط » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ أى أيدّعون أن لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدا وسببا ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أى عليه الأخبارَ ويصلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى . ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة بينة أن هذا الذى هم عليه حقّ . والسّلم واحد السلالم التى يرتقى عليها . وربما سمى الغرز بذلك ؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبى يصف ناقته :

مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ ربُّها * بِسُلَّمِ غَرْزٍ فى مُنَاخٍ يُعَاجِلُهْ

وقال زُهير :

وَمَنْ هابَ أسبابَ المنيّةِ يَلْقَها[1] * ولَوْ رَامَ أسبابَ السّماءِ بِسُلَّمِ

وقال آخر :

تَجَنَّيْتِ لى ذنباً وما إنْ جَنَيْتُهُ * لِتَتَّخِذِى عُذْراً إلى الهَجْرِ سُلَّمَا

---

(١) ويروى :

* ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *

وهى الرواية المشهورة .

وقال ابن مُقبل في الجمع :

لا تُحْرِزُ المرءَ أحجاءُ البِلادِ ولا * يُبْنَى له في السَّمواتِ السَّلالِيمُ

الأحجاء النواحي مثل الأرجاء واحدها حَجًا ورَجًا مقصور . ويروى : أعناء البلاد ، والأعناء أيضا الجوانب والنواحي واحدها عِنْو بالكسر . وقال ابن الأعرابي : واحدها عَنًا مقصور وجاءنا أعناء من النـاس واحدهم عِنْو بالكسر وهم قوم من قبائل شتى . « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أي عليه ؛ كقوله تعالى : « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ » أي عليها ، قاله الأخفش . وقال أبو عبيدة : يستمعون به . وقال الزجاج : أي ألهم بجبريل الذي يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ سَـفَّه أحلامهم توبيخا لهم وتقـريعا . أي أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، ومن كان عقله هكذا فلا يسـتبعد منه إنكار البعث . ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أي على تبليغ الرسالة . ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أي فهم من المغرم الذي تطلبهم به «مُثْقَلُونَ» مجهدون لمـا كلفتهم به . ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب . وقيل : أي أم عندهم علم ما غاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل . وقال قتادة : لمـا قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى : «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ» حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليـه أمره . وقال ابن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه . وقال القتبي : يكتبون يحكمون والكتاب الحكم ؛ ومنه قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَـةَ » أي حكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام : "والذي نفسي بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله " أي بحكم الله .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْـدًا ﴾ أي مكرا بك في دار النـدوة . ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي الممكور بهم «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » وذلك أنهم قتلوا ببدر . ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يخلق ويرزق ويمنع . ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزه نفسه أن يكون له شريك . قال الخليـل : كل ما في سـورة « والطور » من ذكر « أَمْ » فكلمة استفهام وليس بعطف .

قوله تعالى : وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ قال ذلك جوابا لقولهم : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا : ﴿ سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ أى بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء ، وهـذا فعل المعاند أو فعل من آستولى عليه التقليد ، وكان فى المشركين القسمان . والكِسَف جمع كِسْفة وهى القطعة من الشيء؛ يقال: أعطنى كِسْفة من ثوبك، ويقال فى جمعها أيضا: كِسْف . ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد . وقال الأخفش : من قرأ كِسْفًا جعله واحدا ومن قرأ « كِسَفا » جعله جمعا . وقد تقدم القول فى هذا فى « سبحان »(1) وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ منسوخ بآية السيف . ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ ﴾ بفتح الياء قراءة العامة ، وقرأ آبن عامر وعاصم بضمها . قال الفرّاء : هما لغتان صَعِق وصُعِق مثل سَعِد وسُعِد . قال قتادة : يوم يموتون . وقيل : يوم بدر . وقيل : يوم النفخة الأولى . وقيل : يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم . وقيل : « يُصْعَقُون » بضم الياء من أصعقه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى ما كادوا به النبي صلى الله عليه وسلم فى الدنيا . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ من الله . و « يَوْمَ » منصوب على البدل من « يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ » .

قوله تعالى : وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٠ طبعة أولى أو ثانية و جـ ٣ ص ١٢٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ قيل : قبل موتهم . آبن زيد : مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين . آبن عباس : هو القتل . وعنه : عذاب القبر . وقاله البَرَاء بن عازب وعليّ رضي الله عنهم . فـ « دُونَ » بمعنى غير . وقيل : عذابا أخفّ من عذاب الآخرة . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يصيرون إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » قيل : لقضاء ربك فيما حملك من رسالته . وقيل : لبلائه فيما آبتلاك به من قومك ؛ ثم نسخ بآية السيف .

الثانية — قوله تعالى : « فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » أي بمرأى منظر منا نرى ونسمع ماتقول وتفعل . وقيل : بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك . والمعنى واحد . ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام : « وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي » (1) أي بحفظي وحراستي وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾

فيه مسئلتان

الأولى — قوله تعالى : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » آختلف في تأويل قوله : « حِينَ تَقُومُ » فقال عون بن مالك وآبن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه ؛ فيقول سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ؛ فإن كان المجلس خيرا آزددت ثناء حسنا ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له ؛ ودليل هذا التأويل ما خرّجه الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غُفر له ما كان في مجلسه ذلك " قال حديث

---

(1) راجع جـ ١١ ص ١٩٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حسن صحيح غريب. وفيه عن ابن عمر قال : كنا نعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم : " ربّ اغفرلى وتب على إنك أنت التوّاب الغفور " قال حديث حسن صحيح غريب . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع : المعنى حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا . قال الكيا الطبرى : وهذا فيه بعد ؛ فإن قوله : « حِينَ تَقُومُ » لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذى يكون بعد القيام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ؛ فدل على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود رضى الله عنه . وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك . قال حسان : ليكون مفتتحا لعمله بذكر الله . وقال الكلبى : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهى صلاة الفجر . وفى هذا روايات مختلفات صحاح ؛ منها حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من تعارّ فى الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفرلى أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته " خرّجه البخارى . تعارّ الرجلُ من الليل إذا هبّ من نومه مع صوت ؛ ومنه عارّ الظّليمُ يعارُّ عِرارا وهو صوته ؛ و بعضهم يقول : عَرَّ الظّليمُ يَعِرُّ عِرارا كما قالوا زَمَر النّعامُ يَزْمِرُ زِمارا . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : " اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قيّوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ ووعدك الحقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبيون حقّ ومحمد حقّ اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفرلى ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك " متفق عليه . وعن ابن عباس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة « آل عمران » .

وقال زيد بن أسلم : المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر . قال آبن العربي : أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل . وقال الضحاك : إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها . الماوردي : وفي هذا التسبيح قولان : أحدهما وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود . الثاني إنه التوجه في الصلاة يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك آسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك . قال آبن العربي : من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله ، والآثار في ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : " وجهت وجهي " الحديث . وقد ذكرناه وغيره في آخر سورة « الأنعام »[1] . وفي البخاري عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال قلت : يا رسول الله علّمني دعاء أدعو به في صلاتي ؛ فقال : " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلي مغفرة من عندك وآرحمني إنك أنت الغفور الرحيم " .

الثانية — قوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » تقدّم في «ق»[2] مستوفى عند قوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » . وأما « إِدْبَارَ النُّجُومِ » فقال علىّ وآبن عباس وجابر وأنس : يعني ركعتي الفجر . فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس . وعن الضحاك وآبن زيد : أن قوله : « وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » يريد به صلاة الصبح وهو آختيار الطبري . وعن آبن عباس : أنه التسبيح في آخر الصلوات . وبكسر الهمزة في « إِدْبَارَ النُّجُومِ » قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه في « قٓ » . وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْقَع « وَأَدْبَارَ » بالفتح ومثله روى عن يعقوب وسلام وأيوب . وهو جمع دُبْر ودُبُر ، ودُبْر الأمر ودُبُره آخره . وروى الترمذي من حديث محمد بن فضيل ، عن رِشْدِين بن كريب عن أبيه عن آبن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب "

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ص ٢٥ من هذا الجزء .

قال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هـذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن رِشْدِين بن كريب . وسألت محمد بن إسمعيل عن محمد بن فضيل ورِشْدِين بن كريب أيهما أوثق ؟ فقال : ما أقربهما ، ومحمد عندى أرجح . قال : وسألت عبد الله بن عبد الرحمن عن هـذا فقال : ما أقربهما ، ورِشْدِين بن كريب أرجحهما عندى . قال الترمذى : والقول ما قال أبو محمد ورِشْدين بن كريب عندى أرجح من محمد وأقدم وقد أدرك رِشْدِين آبن عباس ورآه . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشدّ معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح . وعنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها " . تم تفسير سورة « والطور » والحمد لله .

سورة والنجم

مكية وهى إحدى وستون آية

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال آبن عباس وقتادة : إلا آية منها وهي قوله : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » الآية . وقيل : آثنتان وستون آية . وقيل : إن السورة كلها مدنية . والصحيح أنها مكية لما روى آبن مسعود أنه قال : هى أوّل سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة . وفى « البخارى » عن آبن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . وعن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد لها ، فما بقى أحد من القوم إلا سجد ، فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال : يكفينى هـذا . قال عبد الله : فلقد رأيته بعدُ قُتِل كافرا . متفق عليه . الرجل يقال له أمية بن خلف . وفى الصحيحين عن زيد بن ثابت أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم سورة « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلم يسجد . وقد مضى فى آخر «الأعراف»[1] القول فى هذا والحمد لله .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : معنى « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » والثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر ؛ والعرب تسمى الثُّريا نجما وإن كانت فى العدد نجوما ؛ يقال إنها سبعة أنجم ، ستة منها ظاهرة وواحد خفىّ يمتحن الناسُ به أبصارهم . وفى « الشِّفا » للقاضى عياض : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى فى الثريا أحد عشر نجما . وعن مجاهد أيضا أن المعنى والقرآن إذا نزل ؛ لأنه كان ينزل نجوما . وقاله الفراء . وعنه أيضا : يعنى نجوم السماء كلها حين تغرب . وهو قول الحسن قال : أقسم الله بالنجوم إذا غابت . وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمع ؛ كقول الراعى :

فَباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فى مُسْتَحِيرةٍ * سَرِيعٍ بِأيدى الآكِلين جُمودُها

وقال عمر بن أبى رَبيعة

أَحْسَنُ النَّجْمِ فى السماءِ الثُّرَيّا * والثُّرَيّا فى الأرضِ زَيْنُ النِّساءِ

وقال الحسن أيضا : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقال السدى : إن النجم هنا الزهرة لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها . وقيل : المراد به النجوم التى ترجم بها الشياطين ؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ، فذعر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريرا ، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال : انظروا البروج الاثنى عشر فإن انقضّ

منها شيء فهو ذهاب الدنيا ، فإن لم ينقض منها شئ فسيحدث فى الدنيا أمر عظيم ، فآستشعروا ذلك ، فلما بُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم الذى آستشعروه ، فأنزل الله تعالى : « والنَّجْمِ إِذَا هَوَى » أى ذلك النجم الذى هوى هو لهذه النبوّة التى حدثت . وقيل : النجم هنا النبت الذى ليس له ساق ، وهَوَى أى سقط على الأرض . وقال جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم : «وَالنَّجْمِ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم « إِذَا هَوَى » إذا نزل من السماء ليلة المعراج . وعن عُرْوة بن الزبير رضى الله عنهما أن عُتْبة بن أبى لهب وكان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتينّ محمدا فلأوذينـه ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذى دنا فتدلى . ثم تَفَل فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردّ عليه آبنته وطَلَّقها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم سَلِّط عليه كلبا من كلابك " وكان أبو طالب حاضرا فوجم لها وقال : ما كان أغناك يابن أخى عن هـذه الدعوة . فرجع عُتْبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام ، فنزلوا منزلا ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هـذه أرض مَسْبَعة . فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يامعشر قريش هذه الليلة ! فإنى أخاف على آبنى دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يَتشمّم وجوههم حتى ضرب عُتْبة فقتله . وقال حسّان :

مَنْ يَرْجِعِ العامَ إلى أهْلِهِ * فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ (1)

وأصل النَّجْم الطلوع ؛ يقال : نَجَم السنُّ ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا أى خرج على السلطان . والهُوِيّ النزول والسقوط ؛ يقال : هَوَى يَهْوِي هُوِيّا مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيّا ؛ قال زُهَير :

فَشَجَّ بِهَا الأَمَاعِزَ وهْيَ تَهْوِي (2) * هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ

(1) فى نسخة : من يرجع الآن .

(2) شج : علا . والبيت فى وصف عير وأتنه ؛ أى لما وجد العير أن صنيبعات قد آنقطع ماؤها آنتقل عنها إلى غيرها بجعل يعلو بالأتن الأماعز وهى حزون الأرض الكثيرة الحصى .

وقال آخـــر[1] :

بَيْنَمَا نَحْنُ بالبَلَاكِثِ فالقَا * عِ سِرَاعاً والعِيسُ تَهْوِي هُوِيَّا

خَطَرتْ خَطْرةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ * ـرَاكِ وَهْنًا فما ٱستطعتُ مُضِيَّا

الأصمعي : هَوَى بالفتح يَهْوِي هُوِيًّا أي سقط إلى أسفل . قال : وكذلك ٱنهوى في السير إذا مضى فيه، وهَوَى وٱنْهَوى فيه لغتان بمعنى ، وقد جمعهما الشاعر في قوله[2] :

وَكَمْ مَنْزِلٍ لولايَ طِحتَ كما هَوَى * بأجرامِـهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَـوِي

ويقال في الحبّ : هَوِيَ بالكسر يَهْوَى هَوًى أي أحبّ .

قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أي ما ضلّ محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق وما حاد عنه . ﴿ وَمَا غَوَى ﴾ الغيّ ضد الرشد أي ما صار غاويا . وقيل : أي ما تكلم بالباطل . وقيل : أي ما خاب مما طلب والغيّ الخيبة ؛ قال الشاعر[3] :

فمن يَلْقَ خيرًا يَحْمَدِ النَاسُ أَمْرَهُ * ومن يَغْوِ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِمَا

أي من خاب في طلبه لامه الناس . ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي . ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم ؛ أي كان أبدا موحدا لله . وهو الصحيح على ما بيناه في « الشورى » عند قوله[4] : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

فيـــه مسئلتـــان :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » قال قتادة : وما ينطق بالقرآن عن هواه « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » إليه . وقيل : « عَنِ الْهَوَى » أي بالهوى؛ قاله أبو عبيدة ؛

---

(١) قائله أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة كان متوجها إلى الشام فلما كان بالبلاكث ــ بالمثلثة ــ تذكر زوجته وكان شغوفا بها فكر راجعا فقال الأبيات ؛ و بعد البيتين :

قلت لبيـــك إذ دعاني لك الشـــو * ق وللحاديين حثا المطيا

(٢) قائله يزيد بن الحكم الثقفي . (٣) قائله المرقش . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

كقوله تعالى : « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً » أى فاسأل عنه . النحاس : قول قتادة أولى وتكون « عن » على بابها، أى ما يخرج نطقه عن رأيه، إنما هو بوحى من الله عز وجل؛ لأن بعده: « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

الثانيــة ــ قد يحتج بهذه الآية من لا يجوّز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الاجتهاد فى الحوادث . وفيها أيضا دلالة على أن السنة كالوحى المنزل فى العمل . وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب حديث المقدام بن معدى كرب فى ذلك[1] والحمد لله . قال السجستانى : إن شئت أبدلت « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » من « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » قال ابن الأنبارى: وهذا غلط؛ لأن « إن » الخفيفة لا تكون مبدلة من « ما » الدليل على هذا أنك لا تقول : والله ما قمت إن أنا لقاعد .

قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ يعنى جبريل عليه السلام فى قول سائر المفسرين سوى الحسن، فإنه قال: هو الله عز وجل ويكون قوله تعالى : ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمام الكلام ، ومعناه ذو قوة والقوة من صفات الله تعالى؛ وأصله من شدّة فتل الحبل، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل . ثم قال : ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعنى الله عز وجل؛ أى استوى على العرش . روى معناه عن الحسن . وقال الربيع بن أنس والفرّاء: ﴿ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ أى استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ « هو » . وأكثر العرب إذا أرادوا العطف فى مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه ؛ فيقولون : استوى هو وفلان ؛ وقلما يقولون استوى وفلان؛ وأنشد الفرّاء :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُـودُهُ ٭ ولا يَسْتوِى والخِرْوَعُ المتقصِّفُ[2]

أى لا يستوى هو والخروع؛ ونظير هذا : « أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا » والمعنى أئذا كنا ترابا نحن وآباؤنا . ومعنى الآية؛ استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) النبع شجر فى الجبال تؤخذ منه القسى . والخروع معروف ، والمتقصف المتكسر .

وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر . وأنكر ذلك الزجاج إلا في ضرورة الشعر . وقيل : المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى وهو أجود . وإذا كان المستوى جبريل فمعنى «ذُو مِرَّةٍ» في وصفه ذو منطق حسن ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن . وقيل : معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيّ [1] " . وقال امرؤ القيس :

كنتُ فيهم أبدًا ذا حِيلةٍ * مُحْكَمَ المِرَّةِ مأمونَ العُقَدْ

وقد قيل : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوة . قال الكلبي : وكان من شدّة جبريل عليه السلام أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الأرض السُّفلى [2] ، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها . وكان من شدّته أيضا أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل في الهند . وكان من شدّته صيحته بثمود في عددهم ، وكثرتهم فأصبحوا جاثمين خامدين وكان من شدّته هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها في أسرع من الطرف ؛ وقال قُطْرُب : تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل ذُو مِرَّةٍ . قال الشاعر :

قد كنتُ قبلَ لقاكُمُ ذا مِرَّةٍ * عندي لِكلّ مُخاصِمٍ ميزانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحَصافة عقله أن الله ائتمنه على وحيه إلى جميع رسله . قال الجوهري : والمرة إحدى الطبائع الأربع ، والمرة القوة وشدّة العقل أيضا . ورجل مرير أي قوي ذو مِرة . قال [3] :

تَرَى الرجلَ النَّحيفَ فتزدريهِ * وَحَشْوُ ثيابِهِ أسدٌ مَرِيرُ

وقال لَقِيط :

حتى استمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرتُهُ * مُرُّ العَزِيمةِ لا [قَحْمًا] ولا ضَرَعًا [4]

---

(١) السوى : الصحيح الأعضاء . (٢) في بعض النسخ : من الماء الأسود .

(٣) قائله العباس بن مرداس . وفي التاج : وفي أثوابه رجل مزير . بالزاي ويروى : أسد مزير . والمزير كأمير الشديد القلب القوي النافذ في الأمور . (٤) في الأصول « لارتا » ولم يتبين لنا وجه المعنى فيها فأثبتنا بدلها « قحما » عن ديوان لقيط بآخر كتاب منتهى الطلب . والقحم الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف . والضرع اللين الذليل .

وقال مجاهد وقتادة : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوة ؛ ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة :

إِنِّى آمرؤٌ ذو مِرَّةٍ فاستبقِنِى * فيما يَنُوبُ مِن الخُطُوبِ صَلِيبُ

فالقوة تكون من صفة الله عز وجل ومن صفة المخلوق . « فآستوى » يعنى جبريل على ما بينا أى آرتفع وعلا إلى مكان فى السماء بعد أن علَّم محمدا صلى الله عليه وسلم . قاله سعيد آبن المسيِّب وآبن جبير . وقيل : « فاسْتَوَى » أى قام فى صورته التى خلقه الله تعالى عليها ؛ لأنه كان يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة الآدميين كما كان يأتى إلى الأنبياء، فسأله النبى صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه التى جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين مرة فى الأرض ومرة فى السماء فأما فى الأرض ففى الأفق الأعلى ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم بحراء ، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب ، فخر النبى صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه ، فنزل إليه فى صورة الآدميين وضمه إلى صدره ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه ، فلما أفاق النبى صلى الله عليه وسلم قال : " يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحدا على مثل هذه الصورة " . فقال : يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتى و إن لى ستمائة جناح سعة كل جناح ما بين المشرق والمغرب . فقال : " إن هذا لعظيم " فقال : وما أنا فى جنب ما خلقه الله إلا يسيرا ، ولقد خلق الله إسرافيل له ستمائة جناح ، كل جناح منها قدر جميع أجنحتى ، و إنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوَصْع . يعنى العصفور الصغير ؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ » وأما فى السماء فعند سدرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقول ثالث أن معنى « فَآسْتَوَى » أى آستوى القرآن فى صدره . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فى صدر جبريل حين نزل به عليه . الثانى فى صدر محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه . وقول رابع أن معنى «فَآسْتَوَى» فاعتدل يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فآعتدل فى قوته . الثانى فى رسالته . ذكرهما الماوردى .

قلت : وعلى الأوّل يكون تمام الكلام « ذُو مِرَّةٍ » وعلى الثانى « شَدِيدُ الْقُوَى » . وقول خامس أن معناه فآرتفع . وفيه على هذا وجهان : أحدهما أنه جبريل عليه السلام

ٱرتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفا . الثانى أنه النبي صلى الله عليه وسلم ٱرتفع بالمعراج ١٠ وقول سادس « فَٱسْتَوَى » يعنى الله عز وجل أى ٱستوى على العرش على قول الحسن . وقد مضى القول فيه فى « الأعراف »[1] .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ جملة فى موضع الحال والمعنى فٱستوى عاليا ؛ أى ٱستوى جبريل عاليا على صورته ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا . والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق . وقال قتادة : هو الموضع الذى تأتى منه الشمس . وكذا قال سفيان : هو الموضع الذى تطلع منه الشمس . ونحوه عن مجاهد . ويقال : أُفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر . وقد مضى فى « حم السجدة »[2] . وفرس أُفُق بالضم أى رائع وكذلك الأنثى ؛ قال الشاعر :

أُرَجِّلُ لِمَّتِي وأَجُرُّ ذَيْلِي * وتَحْمِلُ شِكَّتِي أُفُقٌ كُمَيْتُ[3]

وقيل : « وَهُوَ » أى النبي صلى الله عليه وسلم « بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ » يعنى ليلة الإسراء وهذا ضعيف ؛ لأنه يقال : ٱستوى هو وفلان ولا يقال ٱستوى وفلان إلا فى ضرورة الشعر . والصحيح ٱستوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية ؛ لأنه كان يتمثل للنبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بالوحى فى صورة رجل، فأحبّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يراه على صورته الحقيقية ، فٱستوى فى أفق المشرق فملأ الأفق .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أى دنا جبريل بعد ٱستوائه بالأفق الأعلى من الأرض « فَتَدَلَّىٰ » فنزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحى . المعنى أنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من عظمته ما رأى ، وهاله ذلك ردّه الله إلى صورة آدمىّ حين قرب من النبي صلى الله عليه وسلم بالوحى، وذلك قوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ » يعنى أوحى الله إلى جبريل وكان جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ » قاله ٱبن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم . وعن

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ فما بعد وجـ ١ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٤ فما بعد

(٣) قائله عمرو بن قنعاس المرادى . والشكة السلاح . وفى اللسان : وتحمل بزتى . والكميت من الخيل ما خلط حمرته سواد غير خالص .

ٱبن عباس أيضا فى قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » أن معناه أن الله تبارك وتعالى « دنا » من محمد صلى الله عليه وسلم « فَتَدَلَّى » . وروى نحوه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى دنا منه أمره وحكمه . وأصل التدلى النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب؛ قال لَبِيد :[1]

فَتَــدَلَّيْت عَلَيْــه قافِــلًا * وعلى الأرض غَيَابَاتُ الطَّفَلْ[1]

وذهب الفرّاء إلى أن الفاء فى « فَتَدَلَّى » بمعنى الواو ، والتقدير ثم تدلى جبريل عليــه السلام ودنا . ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت ، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا ، وشتمنى فأساء وأساء فشتمنى ؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد . وكذلك قوله تعالى: « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » المعنى والله أعلم ٱنشق القمر وٱقتربت الساعة . وقال الجرجانى : فى الكلام تقديم وتأخير أى تدلّى فدنا ؛ لأن التــدلّى سبب الدنوّ . وقال ٱبن الأنبارى : ثم تدلّى جبريل أى نزل من السماء فدنا من محمد صلى الله عليــه وسلم . وقال ٱبن عباس : تدلّى الرفرف لمحمد صلى الله عليــه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه . وسيأتى . ومن قال : المعنى فٱســتوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلّى أى هَوَى للسجود . وهــذا قول الضحاك . قال القشيرى : وقيل على هذا تدلّى أى تَدَلَّلَ ؛ كقولك تَظَنَّى بمعنى تَظَنَّنَ ، وهــذا بعيد ؛ لأن الدلال غير مرضىّ فى صفة العبودية .

قوله تعـالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أى « كان » محمد من ربه أو من جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ » أى قدر قوسين عربيتين . قاله ٱبن عباس وعطاء والفرّاء . الزمخشرى : فإن قلت كيف تقدير قوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو على فى قوله[2] :

* وَقَدْ جَعَلَتْنِى مِن حَزِيمَةَ إِصْبَعَا *

(١) البيت فى وصف فرس . أراد أنه نزل من مربأته وهو على فرسه راكب .
(٢) قائله أعشى نهشل وصدره : * فأدرك إبقاء العرادة ظلعها *

أى ذا مقـدار مسافة اصبع « أَوْ أَدْنَى » أى على تقديركم كقوله تعـالى : « أَوْ يَزِيدُونَ » . وفى الصحاح : وتقول بينهما قابُ قَوْس ، وقِيبُ قَوْس وقادُ قَوْس وقِيدُ قَوْس ؛ أى قَدْر قوس . وقرأ زيد بن على « قَادَ » وقرئ « قِيدَ » و « قَدْرَ » . ذكره الزمخشرى . والقابُ ما بين المَقْبِض والسِّيَة . ولكل قوس قابان. وقال بعضهم فى قوله تعالى : « قَابَ قَوْسَيْنِ » أراد قابى قوس فقلبه . وفى الحديث : "ولَقابُ قوس أحدكم من الجنة وموضع قِـدّه خيرٌ من الدنيا وما فيها " والقِـدّ السّوط . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال قال النبي صـلى الله عليه وسلم : "ولَقابُ قوسِ أحدكم فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها " . وإنما ضرب المثـل بالقوس، لأنها لا تختلف فى القاب . والله أعلم . قال القاضى عياض : اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنو مكانٍ ولا قرب مَـدًى ، وإنما دنو النبي صلى الله عليه وسـلم من ربه وقُربه منه إبانةُ عظيمِ منزلته ، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبِـه وقدرته ، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط وإكرام . ويتأول فى قوله عليه السلام : "ينزل ربنا إلى سماء الدنيا " على أحد الوجوه نزول إجمـال وقبول وإحسان . قال القاضى : وقوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » فمن جعـل الضمير عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحـل ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم وعبارة عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التحفّى ، وإنافة المنزلة والقـرب من الله ويتأول فيـه ما يتأول فى قوله عليه السلام : "من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة" قرب بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول . وقد قيل : « ثم دَنَا » جبريل من ربه « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قاله مجاهد . ويدل عليـه ما روى فى الحـديث : " إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام " . وقيل : « أو » بمعنى الواو أى قاب قوسين وأدنى . وقيـل : بمعنى بل أى بل أدنى . وقال سعيد بن المسيِّب : القاب صـدر القوس العربية حيث يشدّ عليـه السير الذى يتنكبه صاحبـه ، ولكل قوس قاب واحد . فأخبر أن جبريل قرب من محمد صلى الله عليه وسـلم كقرب قاب قوسين . وقال سعيد بن جبـير وعطاء

وأبو إسحق الهَمْدانى وأبو وائل شقيق بن سلمة : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » أى قدر ذراعين والقوس الذراع يقاس بها كل شىء ، وهى لغة بعض الحجازيين . وقيل : هى لغة أزد شنوءة أيضا . وقال الكسائى : قوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أراد قوسا واحدا ؛ كقول الشاعر :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ * قَطَعْتُهُ بالسَّمْتِ لا بالسَّمْتَيْنِ (1)

أراد مهمها واحدا . والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال فى تصغيرها قُوَيْسة ومن ذكر قال قُوَيْس ؛ وفى المثل هو من خير قُوَيْسٍ سَهْمًا . والجمع قِسِى وقُسِىٌّ وأَقْواس وقِيَاس وأنشد أبو عبيدة :

* ووَتَّرَ الأساوِرُ القِيَاسَا (2) *

والقَوْس أيضا بقية التمر فى الجُلَّة أى الوعاء . والقَوْس برج فى السماء ، فأما القُوسُ بالضم فصومعة الراهب؛ قال الشاعر وذكر امرأة :

* لاسْتَفْتَنَتْنِى وذَا المِسْحَيْنِ فى القُوسِ (3) *

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ تفخيم للوحى الذى أوحى إليه . وتقدم معنى الوحى وهو إلقاء الشىء بسرعة ومنه الوَحَاءَ الوَحَاءَ (4) . والمعنى فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى . وقيل : المعنى « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ » جبريل عليه السلام « مَا أَوْحَى » . وقيل : المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . قال قتادة : أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . ثم قيل : هذا الوحى هل هو مبهم ؟ لا نَطَّلع عليه نحن وتُعُبِّدْنا بالإيمان به

---

(1) السمت : الطريق ومعناه قطعته على طريق واحد .

(2) قائله القلاخ بن حزن . تمامه : * صغدية تنتزع الأنفاسا *
والأساور : جمع إسوار وهو المقدم من أساورة الفرس . والصغد : جيل من العجم و يقال إنه اسم بلد .

(3) قائله جرير وصدره : * لا وصل إذ صرفت هند ولو وقفت *

(4) يمد و يقصر فالمقصور الوحى كالوعى ومعناه البدار البدار . راجع جـ ٤ ص ٨٥ وجـ ١٠ ص ١٢٣ فى معا الوحى والقول فيه .

على الجملة، أو هو معلوم مفسّر؟ قولان . وبالثانى قال سعيد بن جبير؛ قال : أوحى الله إلى محمد ؛ ألم أجدك يتيما فآويتك ! ألم أجدك ضالا فهديتك ! ألم أجدك عائلا فأغنيتك «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» . وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

قوله تعالى : مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أى لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره فى فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية . وقيل : كانت رؤية حقيقة بالبصر . والأول مروى عن ابن عباس . وفى صحيح مسلم أنه رآه بقلبه . وهو قول أبى ذر وجماعة من الصحابة . والثانى قول أنس وجماعة . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أما نحن بنى هاشم فنقول إن محمدا رأى ربه مرتين . وقد مضى القول فى هذا فى «الأنعام»[1] عند قوله : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» . وروى محمد بن كعب قال : قلنا يا رسول الله صلى الله عليك رأيت ربك؟ قال : "رأيته بفؤادى مرتين" ثم قرأ «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» . وقول ثالث أنه رأى جلاله وعظمته . قاله الحسن . وروى أبو العالية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : " رأيت نهرا ورأيت وراء النهر حجابا ورأيت

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وراء الحجاب نورا لم أر غير ذلك . وفي صحيح مسلم عن أبي ذرّ قال : سألت رسـول الله صلى الله عليه وسلم هـل رأيت ربك؟ قال : " نور أَنَّى أراه " المعنى غلبني من النور وبهرني منـه ما منعني من رؤيته ، ودل على هـذا الرواية الأخرى " رأيت نورا " . وقال آبن مسعود : رأى جبريلَ على صورته مرتين . وقرأ هشام عن آبن عامر وأهل الشام «مَا كَذَّبَ» بالتشديد أى ما كذَّب قلبُ محمـد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدّقه . فـ « ما » مفعوله بغير حرف مقدّر؛ لأنه يتعدّى مشدّدًا بغير حرف . ويجوز أن تكون « ما » بمعنى الذى والعائد محذوف . ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرا . الباقون مخففا؛ أى ما كذب فؤاد محمد فيما رأى فأسقط حرف الصفة . قال حسان رضي الله عنه :

لو كنتِ صادقة الذى حدّثتِنِي * لنجوتِ مَنْجًا الحرث بنِ هِشامِ

أى فى الذى حدّثتِنِي . ويجوز أن يكون مع الفعل مصـدرا . ويجوز أن يكون بمعنى الذى؛ أى ما كذَب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم الذى رأى .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ قرأ حمزة والكسائى « أَفَتَمْرُونَهُ » بفتح التـاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه . وآختاره أبو عبيد؛ لأنه قال : لم يماروه وإنما جحدوه . يقال : مراه حقه أى جحده ومريته أنا ؛ قال الشاعر :

لئن هَجَـرتَ[1] أخا صِـدقٍ ومَكْرُمَـةٍ * لقـد مَرَيْتَ أخًا ما كان يَمْـرِيكَا

أى جحدته . وقال المبرّد : يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه . قال : ومثل على بمعنى عن قول بنى كعب بن ربيعة رضى الله عليك؛ أى رضى عنك . وقرأ الأعرج ومجاهد « أَفَتُمْرُونَهُ » بضم التاء من غير ألف من أمريت أى تريبونه وتشككونه . الباقون « أَفَتُمَارُونَهُ » بألف أى أتجادلونه وتدافعونه فى أنه رأى الله ؛ والمعنيان متداخلان ؛ لأن مجادلتهم جحود . وقيل : إن الجحـود كان دائما منهم وهذا جدال جديد . قالوا : صف لنـا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا التى فى طريق الشام . على ما تقدّم[2] .

---

(١) ورُوى : هجوت . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ « نزلة » مصدر في موضع الحال كأنه قال : ولقد رآه نازلا نزلة أخرى . قال ابن عباس : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه مرة أخرى بقلبه . روى مسلم عن أبي العالية عنه قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » قال : رآه بفؤاده مرتين ؛ فقوله : « نَزْلَةً أُخْرَى » يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كان له صعود ونزول مرارا بحسب أعداد الصلوات المفروضة ، فلكل عرجة نزلة . وعلى هذا قوله تعالى : « عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » أي ومحمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى وفي بعض تلك النزلات . وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » أنه جبريل . ثبت هذا أيضا في صحيح مسلم . وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم : " رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت " ذكره المهدوي .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ « عِنْدَ » من صلة « رآه » على ما بينا . والسِّدْر شجر النَّبِق وهي في السماء السادسة ، وجاء في السماء السابعة . والحديث بهذا في صحيح مسلم ؛ الأول ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال : فراش[1] من ذهب ، قال : فأُعطي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ، أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغُفِر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا المقْحِمات[2] . الحديث الثاني رواه قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما رُفعتُ إلى سِدْرة المنتهى في السماء السابعة نَبِقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفِيَلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات " لفظ الدارقطني . والنَّبِق بكسر الباء ثمر السِّدْر الواحد نَبِقة . ويقال : نَبْق بفتح النون وسكون

(١) ويروى : « جراد من ذهب » . والفراش دويبة ذات جناحين تتهافت في ضوء السراج واحدتها فراشة .

(٢) المقحمات الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار أي تلقيهم فيها .

الباء ذكرهما يعقوب فى الإصلاح وهى لغة المصريين، والأولى أفصح وهى التى ثبتت عن النبى صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى — قال : "يسير الراكب فى ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب — شك يحيى — فيها فَرَاش الذهب كأن ثمرها القِلال" قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

قلت : وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس "ثم ذُهِب بى إلى سِدْرة المنتَهى و إذا ورقها كآذان الفِيلة و إذا ثمرها كالقِلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها" . وٱختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتَهى على أقوال تسعة : الأوّل — ما تقدّم عن ٱبن مسعود أنه ينتهى إليها كلما يهبط من فوقها و يصعد من تحتها . الثانى — أنه ينتهى علم الأنبياء إليها و يعزب علمهم عما وراءها . قاله ٱبن عباس . الثالث — أن الأعمال تنتهى إليها وتقبض منها . قاله الضحاك . الرابع — لٱنتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها . قاله كعب . الخامس — سُمِّيت سِدْرة المنتَهى لأنه ينتهى إليها أرواح الشهداء . قاله الربيع بن أنس . السادس — لأنه تنتهى إليها أرواح المؤمنين قاله قتادة . السابع — لأنه ينتهى إليها كل من كان على سنّة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه . قاله على رضى الله عنه والربيع بن أنس أيضا . الثامن — هى شجرة على رءوس حملة العرش إليها ينتهى علم الخلائق . قاله كعب أيضا .

قلت : يريد — والله أعلم — أن ٱرتفاعها وأعالى أغصانها قد جاوزت رءوس حملة العرش ؛ ودليله ما تقدّم من أن أصلها فى السماء السادسة وأعلاها فى السماء السابعة ، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رءوس حملة العرش . والله أعلم . التاسع — سُمِّيت بذلك لأن من رفع إليها فقد ٱنتهى فى الكرامة . وعن أبى هريرة لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ٱنتهى به إلى سِدْرة المنتَهى فقيل له هذه سِدْرة المنتَهى ينتهى إليها كل أحد خَلَا من أمتك على سنّتك فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهارٌ من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار

من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مُصَفًّى ، وإذا هى شجرة يسير الراكب المسرع فى ظلّها مائة عام لا يقطعها ، والورقة منها تغطّى الأمّة كلّها . ذكره الثعلبى .

قوله تعالى : ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سدرة المنتهى . وقرأ علىّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبْرَة الجهنى وعبد الله بن الزبير ومجاهد « عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى» يعنى جَنَّه المبيت . قال مجاهد : يريد أجنه . والهاء للنبى صلى الله عليه وسلم . وقال الأخفش : أدركه كما تقول جنه الليل أى ستره وأدركه . وقراءة العامة «جَنَّةُ الْمَأْوَى» قال الحسن ، هى التى يصير إليها المتقون . وقيل : إنها الجنة التى يصير إليها أرواح الشهداء قاله ابن عباس . وهى عن يمين العرش . وقيل : هى الجنة التى آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهى فى السماء السابعة[1] . وقيل : إن أرواح المؤمنين كلهم فى جنّة المأوى . وإنما قيل لها جنّة المأوى : لأنها تأوى إليها أرواح المؤمنين وهى تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها . وقيل : لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن مسعود وأصحابه : فَرَاشٌ من ذهب . ورواه مرفوعا ابن مسعود وابن عباس إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قوله . وقال الحسن : غشيها نور ربّ العالمين فاستنارت . قال القشيرى : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشيها ؟ قال : "فَرَاش من ذهب" . وفى خبر آخر "غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها" وقال الربيع بن أنس : غشيها نور الربّ والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت السّدرة يغشاها فَرَاش من ذهب ورأيت على كل ورقة مَلَكا قائما يسبح الله تعالى وذلك قوله « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » " ذكره

---

(١) فى نسخ : «الرابعة» وكذا فى حاشية الجمل عن القرطبى .

المهدوى والثعلبى[1] . وقال أنس بن مالك : « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » قال جراد من ذهب وقد رواه مرفوعا . وقال مجاهد : إنه رَفْرَف أخضر . وعنه عليه السلام : " يغشاها رَفْرَف من طير خضر " . وعن ٱبن عباس : يغشاها ربُّ العزة ؛ أى أمره كما فى صحيح مسلم مرفوعا : "فلما غشيها من أمر الله ما غشى". وقيل : هو تعظيم الأمر؛ كأنه قال : إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته . وهكذا قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » « وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى » ومثله « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ » . وقال الماوردى فى معانى القرآن له : فإن قيل لم ٱختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل : لأن السِّدرة تختص بثلاثة أوصاف : ظلّ مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ، فشابهت الإيمان الذى يجمع قولا وعملا ونيّــة ، فظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النية لكونه ورائحتها بمنزلة القول لظهوره . وروى أبو داود فى سننه قال : حدّثنا نصر بن على قال حدّثنا أبو أسامة عن ٱبن جريج عن عثمان بن أبى سليمان عن سعيد بن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم عن عبد الله بن حبشى، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قطع سِدْرة صَوَّب اللهُ رأسَه فى النار" وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : هذا الحديث مختصر يعنى من قطع سِدْرة فى فلاة يستظل بها ٱبن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صَوَّب اللهُ رأسَه فى النار .

قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ قال ٱبن عباس : أى ما عدل يمينا ولا شمالا، ولا تجاوز الحدّ الذى رأى . وقيل : ما جاوز ما أُمر به . وقيل : لم يمدّ بصره إلى غير ما رأى

---

(١) بعد هذا نقل الجمل عن القرطبى فى تفسيره ما يأتى : وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون إليها متشوقين متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة ، وروى فى حديث المعراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ذهب بى جبريل إلى سدرة المنتهى وأوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كقلال هجر " قال : " فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى قدر أن ينعتها من حسنها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة " وقيل : يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الأنوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرك الشجرة ، وخر موسى صعقا ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أبهمه تعظيما له والغشيان يكون بمعنى التغطية .

من الآيات . وهذا وصف أدب للنبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك المقام ؛ إذ لم يلتفت يمينا ولا شمالا .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ قال ابن عباس : رأى رَفْرَفا سد الأفق . وذكر البيهقى عن عبد الله قال : « رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال ابن عباس : رأى رَفْرَفا أخضر سدّ أفق السماء . وعنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فى حُلّة رفرف أخضر ، قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال البيهقى : قوله فى الحديث "رأى رَفْرَفا" يريد جبريل عليه السلام فى صورته على رفرف ، والرفرف البساط . ويقال : فِراش . ويقال : بل هو ثوب كان لباسا له . فقد روى أنه رآه فى حُلّة رفرف .

قلت : خرّجه الترمذى عن عبد الله قال « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » قال : رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام فى حُلّة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : وقد روى عن ابن عباس فى قوله تعالى « دَنَا فَتَدَلَّى » أنه على التقديم والتأخير ؛ أى تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه . قال : "فارقنى جبريل وانقطعت عنّى الأصوات وسمعت كلام ربّى" فعلى هذا الرَّفْرَفُ ما يُقعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره . وهو بالمعنى الأول جبريل . قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان : رأى جبريل عليه السلام فى صورته التى يكون فيها فى السموات ؛ وكذا فى صحيح مسلم عن عبد الله قال : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح . ولا يبعد مع هذا أن يكون فى حُلّة رفرف وعلى رفرف . والله أعلم . وقال الضحاك : رأى سِدْرة المنتهى . وعن ابن مسعود : رأى ما غشى السِّدرة من فَرَاش الذهب . حكاه الماوردى . وقيل : رأى المعراج . وقيل : هو ما رأى تلك الليلة فى مسراه فى عوده وبدئه ؛ وهو أحسن ؛ دليله « لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » « ومِنْ » يجوز أن تكون للتبعيض ، وتكون « الكبرى » مفعولة لـ « رأى » وهى فى الأصل صفة الآيات ووحدت لرءوس

الآيات . وأيضا يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى؛ كقوله تعالى : « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ». وقيل : « الْكُبْرَى » نعت لمحذوف؛ أي رأى من آيات ربه الآية الكبرى . ويجوز أن تكون « مِن » زائدة؛ أي رأى آيات ربه الكبرى . وقيل : فيه تقديم وتأخير؛ أي رأى الكبرى من آيات ربه .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر من آثار قدرته ما ذكر ، حاجّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقل وقال : أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئا كما أُوحِيَ إلى محمد . وكانت اللاتُ لثقيف ، والعُزَّى لقريش وبني كنانة ، ومناةُ لبني هلال[(١)] . وقال هشام : فكانت مناة لهُذَيل وخُزاعة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح . ثم اتخذوا اللاتَ بالطائف ، وهي أحدث من مَنَاة وكانت صخرةً مُرَبَّعة ، وكان سَدَنتها من ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وبها كانت العرب تسمي زيد اللات وتَيْمَ اللات . وكانت في موضع [منارة][(٢)] مسجد الطائف اليسرى ، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار . ثم اتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللات ، اتخذها ظالم بن أسعد ، وكانت بوادي نَخْلة الشامية فوق ذات عِرْق ، فبنوا عليها بيتا وكانوا يسمعون منها[(٣)] الصوت . قال هشام : وحدثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كانت العُزَّى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نَخْلة ، فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال :

---

(١) اتفقت نسخ الأصل على القول بأن مناة لبني هلال ولم نره لغير المؤلف .

(٢) الزيادة من كتاب الأصنام لابن الكلبي .

(٣) في كتاب الأصنام « فيه » بدل « منها » .

"ايت بطنَ نَخْلة فإنك تجد ثلاث سَمُرات فاْعضِد الأولى" فأتاها فعَضَدها فلما جاء إليه قال : "هل رأيت شيئا" قال : لا . قال : "فاْعضِد الثانية" فأتاها فعَضَدها، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "هل رأيت شيئا" قال : لا . قال : "فاْعضِد الثالثة" فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها تُصَرِّف بأنيابها ، وخلفها دُبيَّة[1] السُّلَمى وكان سادِنَها فقال :

يا عُزّ كُفرانَكِ لا سُبحانَكِ * إنى رأيتُ الله قد أهانَكِ

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حُمَمة، ثم عَضَد الشجرة وقتل دُبيَّة السادن، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "تلك العُزّى [ولن تُعبدَ أبدا] " وقال ابن جُبير : العُزّى حجر أبيض كانوا يعبدونه . قتادة : نبت كان ببطن نَخْلة «ومَنَاة» صنم لخزاعة . وقيل : إن اللّات فيما ذكر بعض المفسرين أخذه المشركون من لفظ الله، والعُزّى من العزيز، ومَنَاة من مَنَى الله الشيءَ إذا قدره . وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح « اللّاتّ » بتشديد التاء وقالوا : كان رجلا يَلُتّ السَّويق للحاجّ ــ ذكره البخارى عن ابن عباس ــ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . ابن عباس : كان يبيع السَّويق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثَقيف تلك الصخرة إعظاما لصاحب السَّويق . أبو صالح : إنما كان رجلا بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويَلُتّ لهم السَّويق فلما مات عبدوه . مجاهد : كان رجل فى رأس جبل له غُنَيمة يَسلِي[2] منها السَّمْن ويأخذ منها الأَقِط ويجمع رِسْلَها، ثم يتخذ منها حَيْسا فيطعم الحاجّ ، وكان ببطن نَخْلة فلما مات عبدوه وهو اللّاتَ . وقال الكَلْبيّ : كان رجلا من ثقيف يقال له صِرمة بن غنم . وقيل إنه عامر بن ظَرِب العَدْوانىّ . قال الشاعر[3] :

لا تَنْصُروا اللّاتَ إنّ الله مُهلِكُهَا * وكيف يَنْصُركُمْ مَنْ ليس يَنْتَصِرُ

(١) دبية بالدال المهملة بن حرمى ويروى ابن حرمى ثم السلمى .

(٢) يسلى : يجمع . والأقط لبن مجفف يابس مستحجر يطبخ به . والرسل اللبن .

(٣) هو شداد بن عارض الجشمى قاله فى أبيات حين هدمت اللات وحرقت ، ينهى ثقيفا عن العود إليها ، والغضب لها .

والقراءة الصحيحة «اللاتَ» بالتخفيف اسم صنم والوقف عليها بالتاء وهو اختيار الفراء.

قال الفراء: وقد رأيت الكسائى سأل أبا فَقْعَس الأَسَدِى[1] فقال ذاه لذات [ولاه للات] وقرأ « أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّهْ » . وكذا قرأ الدُّورِى عن الكسائى والبَزِّى عن ابن كثير « اللاَّه » بالهاء فى الوقف ومن قال : إن « اللاّت » من الله وقف بالهاء أيضا . وقيل : أصلها لاهة مثل شاة [أصلها شاهة] . وهى من لاَهَت أى اختفت ؛ قال الشاعر :

لاَهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ * ياليتها خَرجتْ حتّى رأيناها

وفى الصحاح : اللاّت اسم صنم كان لثقيف وكان بالطائف ، وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء ؛ قال الأخفش : سمعنا من العرب من يقول اللاّتِ والعُزّى ، ويقول هى اللاّتْ فيجعلها تاء فى السّكوت وهى اللاّتِ فاعْلَمْ أنه جُرَّ فى موضع الرفع ، فهذا مثل أمسِ مكسورٌ على كل حال وهو أجودُ منه ؛ لأن الألف واللام اللتان فى اللاّت لا تسقطان وإن كانتا زائدتين ؛ وأما ما سمعنا من الأكثر فى اللاّتِ والعُزّى فى السّكوت عليها فاللاّهْ لأنها هاء فصارت تاء فى الوصل وهى فى تلك اللغة مثلُ كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ ، وكذلك هيهاتِ فى لغة من كسرها ؛ إلا أنه يجوز فى هيهاتِ أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك فى اللاّتِ ؛ لأن التاء لا تزاد فى الجماعة إلا مع الألف ، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقى الاسم على حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وحُمَيد ومجاهد والسُّلَمى والأعشى عن أبى بكر « وَمَنَاءَةَ » بالمدّ والهمز . والباقون بترك الهمز لغتان . وقيل: سمى بذلك ؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه . وبذلك سميت مِنًى لكثرة ما يراق فيها من الدماء . وكان الكسائى وابن كثير وابن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل .

---

(1) الذى ذكره النحاس فى إعراب قوله تعالى : « ولات حين مناص » أن الفراء قال عن الكسائى أحسبه أنه سأل أبا السمال كيف يقرأ فيقف على «ولات» فوقف عليها بالهاء . وعبارة الفراء فى هذه السورة من تفسيره : وكان الكسائى يقف عليها بالهاء وأنا أقف على التاء . ا هـ . ولم يذكر أبا فقعس .

الباقون بالتاء ٱتباعا لخط المصحف . وفى الصحاح : ومَنَاةُ ٱسم صنم كان [لِهُذَيل وخُزَاعة] (١) بين مكة والمدينــة ، والهاء للتأنيث و يسكت عليها بالتاء وهى لغــة ، والنسبة إليها مَنَوِىّ ، وعبد مَناةَ بن أُدّ بن طابِخة وزيد مناةَ بن تميم بن مُرّ يُمَدّ ويقصر؛ قال هَوْبَر الحارثى :

أَلَا هلْ أَتَى التَّيْمَ بنَ عبدِ مَنَاءةٍ * على الشِّنْءِ فِيما بينَنا ٱبْنُ تَمِـيمِ

قوله تعالى : ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ العرب [لا] (٢) تقول للثالثة أخرى، و إنما الأخرى نعت للثانية وٱختلفوا فى وجهها فقال الخليل : إنمــا قال ذلك لوفاق رءوس الآى ؛ كقوله : « مَآرِبُ أُخْرَىٰ » ولم يقــل أخر . وقال الحسين بن الفضل : فى الآية تقــديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللّات والعُزّى الأخرى ومَنَاة الثالثــة . وقيل : إنما قال « وَمَنَــاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » لأنها كانت مرتبة عنــد المشركين فى التعظيم بعــد اللّات والعُزّى فالكلام على نسقه . وقد ذكرنا عن هشام : أن مَنَاة كانت أولا فى التقديم ، فلذلك كانت مقدّمة عندهم فى التعظيم ؛ والله أعلم . وفى الآية حذف دل عليه الــكلام ؛ أى أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرّت حتى تكون شركاء لله . ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴾ ردّا عليهم قولهم الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله .

قوله تعــالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا ﴾ يعنى هذه القسمة ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أى جائرة عن العدل ، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحق . يقال : ضَازَ فى الحكم أى جار ، وضَازَه حقَّه يَضِيزه ضَيْزا ــ عن الأخفش ــ أى نقصه وبخســه . قال : وقد يهمز فيقال ضازه يَضْأَزه ضَأْزا وأنشــد :

فإنْ تَنْأَ عنّا نَنْتَقِصْكَ و إنْ [تُقِمْ] (٣) * فقِسْمُــكَ مَضْئوزٌ وأنفُكَ رَاغِــمُ

وقال الكسائى : يقال ضازَ يَضِيز ضَيْزا وضازَ يَضُوز ضَوْزا ، وضَأَزَ يَضْأَزُ ضأزا إذا ظلم وتعدّى و بخس وٱنتقص ؛ قال (٤) :

ضَازَتْ بنو أَسَدٍ بِحُكمِـهِمُ * إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

(١) الزيادة من الصحاح . (٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) الزيادة من اللسان وفى الأصل و إن تغب . وروى حظك بدل قسمك . (٤) قائله امرؤ القيس .

وقوله تعالى : « قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائرة وهى فُعْلى مثل طُوبَى وحُبْلَى؛ وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء؛ لأنه ليس فى الكلام فِعْلى صفة ، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى . قال الفرّاء : وبعض العرب تقول ضُؤْزى وضِئْزى بالهمز . وحكى أبو حاتم عن أبى زيد: أنه سمع العرب تهمز «ضِيزى» . قال غيره : وبها قرأ ابن كثير؛ جعله مصدرا مثل ذِكرى وليس بصفة؛ إذ ليس فى الصفات فِعْلى ولا يكون أصلها فُعْلى؛ إذ ليس فيها ما يوجب القلب ، وهى من قولهم ضأزته أى ظلمته . فالمعنى قسمة ذات ظلم . وقد قيل هما لغتان بمعنى. وحكى فيها أيضا سواهما ضَيْزَى وضَأْزَى وضُوزَى وضُؤْزَى . وقال المؤرّج: كرهوا ضم الضاد فى ضِيزَى وخافوا انقلاب الياء واوا وهى من بنات الواو؛ فكسروا الضاد لهذه العلة ، كما قالوا فى جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ مثل حُمْرٍ وصُفْرٍ وخُضْر. فأما من قال : ضاز يَضُوز فالاسم منه ضُوزَى مثل شُورَى .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أى ما هى يعنى هذه الأوثان « إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » يعنى نحتموها وسميتموها آلهة . ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أى قلدتموهم فى ذلك . ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان . ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر أى ما يتبع هؤلاء إلى الظن . ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أى تميل إليه . وقراءة العامة « يَتَّبِعُونَ » بالياء . وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْقع

« تَتَّبِعُونَ » بالتاء على الخطاب . وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أى البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلهة . ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أى آشتهى أى ليس ذلك له . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من البنين . أى يكون له دون البنات . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من غير جزاء ليس الأمر كذلك . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من النبوة أن تكون فيه دون غيره . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من شفاعة الأصنام . نزلت فى النضر بن الحرث . وقيل : فى الوليد بن المغيرة . وقيل : فى سائر الكفار . ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له . قال الأخفش : الملك واحد ومعناه جمع ؛ وهو كقوله تعالى : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » . وقيل : إنما ذكر ملكا واحدا ، لأن كم تدل على الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله . ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ أى كتسمية الأنثى ؛ أى

يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله . ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى إنهم لم يشاهدوا خلقة الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يروه فى كتاب . ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ أى ما يتبعون ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى أن الملائكة إناث . ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ يعنى القرآن والإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ نزلت فى النضر . وقيل : فى الوليد . ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أى إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم . قال الفراء : صغرهم وازدرى بهم . أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى حاد عن دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ فيجازى كلا بأعمالهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ اللام متعلقة بالمعنى الذى دل عليه « وَلِلَّهِ مَا فِى السمواتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » كأنه قال : هو مالك ذلك يهدى من يشاء ويضل من يشاء ليجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته . وقيل : « لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » معترض فى الكلام والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزى . وقيل : هى

لام العاقبة ، أى ولله ما فى السموات وما فى الأرض ؛ أى وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسىء ومحسن : فللمسىء السوءى وهى جهنم وللمحسن الحسنى وهى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » هذا نعت للمحسنين ؛ أى هــم لا يرتكبون كبائر الإثم وهــو الشرك ؛ لأنه أكبر الآثام . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى « كَبِيرَ » على التوحيد وفسره آبن عبــاس بالشرك . « وَالْفَوَاحِشَ » . الزنى . وقال مقاتل : « كَبَائِرَ الْإِثْمِ » كل ذنب ختم بالنــار « وَالْفَوَاحِشَ » كل ذنب فيــه الحدّ . وقد مضى فى « النساء »[1] القول فى هذا . ثم آستثنى آستثناء منقطعا وهى :

المسئلة الثانية ــ فقال : « إِلَّا اللَّمَمَ » وهى الصغائر التى لا يســلم من الوقوع فيهــا إلا من عصمه الله وحفظه . وقد آختلف فى معناها ؛ فقال أبو هريرة وآبن عباس والشعبى : « اللَّمَمَ » كل ما دون الزنى . وذكر مقاتل بن سليمان : أن هــذه الاية نزلت فى رجل كان يسمى نبهان التمار ؛ كان له حانوت يبيع فيــه تمرا ، فجاءته آمرأة تشترى منه تمرا فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هــذا ، فلما دخلت راودها فأبت وآنصرفت فنــدم نبهان : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! ما من شىء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ؛ فقال : "لعل زوجها غازٍ" فنزلت هذه الآية . وقد مضى فى آخر « هود »[2] وكذا قال آبن مسعود وأبو سعيد الخدرى وحذيفة ومسروق : إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : زنى العينين النظر ، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرجلين المشى ، وإنمــا يصدّق ذلك أو يكذّبه الفرج ، فإن تقدّم كان زنى وإن تأخر كان لممــا . وفى صحيح البخارى ومسلم عن آبن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم ممــا قال أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله كتب

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٥٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٩ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية ، ففيه بيان الإجمال فى هذا الحديث برواية أخرى .

على ٱبن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه ". والمعنى إن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة هو فى الفرج وغيرُه له حظٌّ من الإثم . والله أعلم. وفى رواية أبى صالح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "كُتِب على ٱبن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ ذلك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخُطَا والقلب يَهْوَى ويتمنى ويصدِّق ذلك الفرج ويكذِّبه ". خرجه مسلم . وقد ذكر الثعلبي حديث طاوس عن ٱبن عباس فذكر فيه الأذن واليد والرجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان : وزنى الشفتين القبلة . فهذا قول . وقال ٱبن عباس أيضا : هو الرجل يلمّ بذنب ثم يتوب . قال : ألم تسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول :

إنْ تَغفِرِ اللّهمّ تغفر جَمّا * وأىُّ عَبْدٍ لكَ لا ألمّا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ٱبن عباس[1] . قال النحاس : هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسنادا . وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ٱبن عباس فى قول الله عز وجل « إلَّا اللَّمَمَ » قال : هو أن يلمّ العبد بالذنب ثم لا يعاوده ؛ قال الشاعر :

إن تغفرِ اللهمّ تَغفر جَمّا * وأىُّ عبدٍ لكَ لا ألَمّا

وكذا قال مجاهد والحسن : هو الذى يأتى الذنب ثم لا يعاوده . ونحوه عن الزهرى . قال : اللمم أن يزنى ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود . ودليل هذا التأويل قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ » الآية . ثم قال : « أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » فضمن لهم المغفرة؛ كما قال عقيب اللمم : ﴿ إنّ

---

(١) روى هذا الحديث الترمذى بهذا الإسناد وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب . والبيت لأمية بن الصلت قاله عند احتضاره .

رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فعلى هذا التأويل يكون « إِلَّا اللَّمَمَ » آستثناء متصل. قال عبدالله بن عمرو آبن العاص : اللمم مادون الشرك. وقيل : اللمم الذنب بين الحدّين وهو مالم يأت عليه حدّ فى الدنيا، ولا تُوعِّد عليـه بعذاب فى الآخرة تكفِّره الصلوات الخمس . قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة . ورواه العوفى والحكم بن عيينة عن آبن عباس . وقال الكلبى : اللّمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّا فى الدنيا ولا عذابا فى الآخرة، فذلك الذى تكفّره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعـد المرة فيتوب منه . وعن آبن عباس أيضا وأبى هريرة وزيد بن ثابت : هـو ما سلف فى الجاهلية فلا يؤاخذهم به . وذلك أن المشركين قالوا للسلمين : إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت. وقاله زيد بن أسلم و [آبنه](١) وهو كقوله تعالى : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . وقيـل : اللّمم هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعادة ، قاله نفطويه . قال : والعـرب تقول ما يأتينا إلّا لِمَامًا ، أى فى الحين بعد الحين . قال : ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل ، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم يفعله . وفى الصحاح : وألمّ الرجل من اللّمم وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة . وأنشد غير الجوهرى :

بِزينبَ أَلْمِمْ قَبـلَ أن يَرْحلَ الرَّكْبُ * وقُـلْ إنْ تَمَلِّينَـا فمـا مَلَّكِ القَلْبُ

أى آقرب . وقال عطاء بن أبى رباح : اللّمم عادة النفس الحين بعـد الحين . وقال سعيد آبن المسيّب : هو ما ألمّ على القلب . أى خطر . وقال محمد بن الحنفية : كلّ ما هممت به من خير أو شر فهو لَمَم . ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام : " إن للشيطان لَمّةً وللمَلَك لَمّةً " الحديث . وقد مضى فى « البقرة »(٢) عند قوله تعالى : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ » . وقال أبو إسحق الزجاج : أصل اللّمم والإلمـام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه

---

(١) فى الأصل : وأبوه . وما أثبتناه يوافق ما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

ولا يقيم عليه ؛ يقال : ألممت به إذا زرته وآنصرفت عنه ، ويقال : مافعلته إلا لِمَمًا وإلمامًا أى الحين بعد الحين وإنما زيارتك إلمام ، ومنه إلمام الخيال ؛ قال الأعشى :

أَلَمَّ خَيَالٌ مِنْ قُتَيْلَةَ بَعْدَ مَا * وَهَى حَبْلُهَا مِنْ حَبْلِنَا فَتَصَرَّمَا

وقيل : إلا بمعنى الواو وأنكر هذا الفراء . وقال : المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب . وقيل : اللّمم النظرة التى تكون بجأة .

قلت : هذا فيه بعدٌ إذ هو معفوّ عنه آبتداء غير مؤاخذ به ؛ لأنه يقع من غير قصد وآختيار وقد مضى فى « النور »(1) بيانه . واللَّمَمُ أيضا طرف من الجنون ورجل ملموم أى به لَمَمٌ . ويقال أيضا : أصابت فلانا لَمَّةٌ من الجنّ وهى المسّ والشىء القليل ؛ قال الشاعر(2) :

فإذا وذلك يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ * إلّا كَلَمَّةِ حالِمٍ بخَيالِ

الثالثة — قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » لمن تاب من ذنبه وآستغفر ؛ قاله آبن عباس . وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب آبن مسعود : رأيت فى المنام كأنى أُدخلت الجنة فإذا قِباب مضروبة ، فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لذى الكَلَاع وحَوْشَب ، وكانا ممن قتل بعضهم بعضا ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقالوا : إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة . فقال أبو خالد : بلغنى أن ذا الكَلَاع أعتق آثنى عشر ألف بنت .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يعنى أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع . قال الترمذىّ أبو عبد الله : وليس هو كذلك عندنا ، بل وقع الإنشاء على التربة التى رفعت من الأرض ، وكنا جميعا فى تلك التربة وفى تلك الطينة ، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْو النفوس على آختلاف هيئتها ، ثم آستخرجها من صُلْبها على آختلاف الهيئات ، منهم كالدرّ يتلألأ ، وبعضهم أنور من بعض ، وبعضهم أسود كالحُمَمَة ، وبعضهم أشدّ سوادا من بعض ؛ فكان الإنشاء واقعا علينا وعليه . حدّثنا عيسى

---

(1) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٧ طبعة أولى أو ثانية .

(2) هو آبن مقبل . والواو فى وذلك زائدة كقول أبى كبير الهذلى :

فإذا وذلك ليس إلا حينه * وإذا مضى شىء كأن لم يفعل

ابن حماد العسقلاني قال : حدثنا بشر بن بكر ، قال حدثنا الأوزاعي ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عُرِض عليّ الأولون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة " فقال قائل : يارسول الله ! ومن مضى من الخلق ؟ قال : " نعم عُرِض عليّ آدم فمن دونه فهل كان خُلِق[1] أحد " قالوا : ومن في أصلاب الرجال وبطون الأمهات ؟ قال : " نعم مثلوا في الطين فعرفتهم كما علم آدم الأسماء كلها " .

قلت : وقد تقدم في أول « الأنعام[2] » أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التي يدفن فيها . ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام في البطن ، سمي جنينا لاجتنانه واستتاره . قال عمرو بن كلثوم :

* هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا[3] *

وقال مكحول : كنا أجنة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا رُضَّعا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا يَفَعَة فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ثم صرنا شبابا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شيوخا — لا أبالك — فما بعد هذا ننتظر ؟ ! . وروى ابن لَهِيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال : كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيّ صغير هو صِدِّيق ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد " فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » إلى آخرها . ونحوه عن عائشة : "كان اليهود" . بمثله . ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ لا تمدحوها ولا تثنوا عليها ، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أي أخلص العمل واتقى عقوبة الله . عن الحسن وغيره . قال الحسن : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هي عاملة ، وما هي صانعة ، وإلى ما هي صائرة . وقد مضى في « النساء » الكلام في معنى هذه الآية عند قوله

---

(١) في نسخة : « فهل كان قبله أحد » . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) وصدره : * ذراعي حرة أدماء بكر * وهي رواية أبي عبيدة . أي لم تضم في رحمها ولدا قط .

تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ »[1] فتأمله هناك . وقال ابن عباس : ما من أحد من هذه الأمة أزكيه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ لما بين جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحدا منهم معينا بسوء فعله . قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيره بعض المشركين ، وقال : لِمَ تركتَ دين الأشياخ وضلَّلتهم وزعمتَ أنهم في النار ؟ ! قال : إني خشيت عذاب الله ؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن [له][2] ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل « وَأَعْطَى قَلِيلًا » أي من الخير بلسانه « وَأَكْدَى » أي قطع ذلك وأمسك عنه . وعنه أنه أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد الإيمان ثم تولى فنزلت « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » الآية . وقال ابن عباس والسُّدي والكلبي والمسيّب بن شريك : نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتصدق وينفق في الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك ألا يبقى لك شيء . فقال عثمان : إن لي ذنوبا وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ! فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها . فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن بعض ما كان يصنع [من الصدقة][3] فأنزل الله تعالى « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . ذكر ذلك الواحدي والثعلبي . وقال السُّدي أيضا : نزلت في العاص بن وائل السَّهمي ، وذلك أنه

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من أسباب النزول للواحدي .
(٣) الزيادة من أسباب النزول للواحدي .

كان و بما يوافق النبى صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : نزلت فى أبى جهل آبن هشام، قال : والله ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق . فذلك قوله تعـالى : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » . وقال الضحاك : هو النَّضْر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين آرتد عن دينه، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه . وأصل « أَكْدَى » من الكدية يقال لمن حَفَر بئرا ثم بلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حَفْر قـد أَكْدَى ، ثم آستعملته العرب لمن أعطى ولم يُتَمِّم ، ولمن طلب شـيئا ولم يبلغ آخره . وقال الحُطَيْئة :

فأعطى قليــلًا ثم أَكْدَى عطاءَه * ومن يَبْذُلِ المعروفَ فى الناس يُحْمَدِ

قال الكسائىّ وغيره : أَكْدَى الحافرُ وأَجْبل إذا بلغ فى حَفْره كُدْية أو جبـلا فلا يمكنه أن يحفر . وحفر فأَكْدَى إذا بلغ إلى الصُّلْب . ويقال : كَدِيت أصابعه إذا كَلَّتْ من الحَفْر . وكَدِيت يدُه إذا كَلَّتْ فلم تعمل شيئا . وأَكْدَى النَّبتُ إذا قلّ رَيْعه، وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كدوا فهى كَادِيَةٌ إذا أبطأ نباتها ؛ عن أبى زيد . وأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشىء رددته عنه . وأَكْدَى الرجلُ إذا قلّ خيره . وقوله : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أى قطع القليل .

قوله تعـالى : ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أى أعند هذا المكدى علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب . « فَهُوَ يَرَى » أى يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره ، وكفى بهـذا جهلا وحمقا . وهـذه الرؤية هى المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان؛ كأنه قال : فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة .

قوله تعـالى : أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أى صحف ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ كما فى سورة « الأعلى » « صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » أى لا تؤخذ نفس بدلا عن أخرى؛ كما قال : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وخصّ صحف إبراهيم وموسى بالذكر؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة أخيه وآبنه وأبيه؛ قاله الهذيل بن شرحبيل . «وأن» هذه المخففة من الثقيلة وموضعها جرٌّ بدلا من « ما » أو يكون فى موضع رفع على إضمار هو . وقرأ سعيد بن جبير وقتادة « وَفَى » خفيفة ومعناها صدق فى قوله وعمله ، وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة «وفّى» بالتشديد أى قام بجميع مافرض عليه فلم يَخرِم منه شيئا . وقد مضى فى « البقرة »[1] عند قوله تعالى : « وإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبه بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» والتوفية الإتمـام . وقال أبو بكر الورّاق : قام بشرط ما آدّعى؛ وذلك أن الله تعالى قال له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » فطالبه الله بصحة دعواه ، فابتلاه فى ماله وولده ونفسه فوجده وافيا بذلك؛ فذلك قوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » أى آدّعى الإسلام ثم صحح دعواه . وقيل : وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار . رواه الهيثم عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم . وروى سهل بن سعد الساعدى عن أبيه "ألا أخبركم لم سمّى اللهُ تعالى خليلَه إبراهيمَ الذى وَفّى لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » " الآية . ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وَفّى » أى وَفّى ما أرسل به، وهو قوله : « أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » قال آبن عباس : كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، ويأخذون الولىّ بالولىّ فى القتل والجراحة؛ فيقتل الرجل بأبيـه وآبنه وأخيه وعمه وخاله وآبن عمه وقريبـه وزوجته وزوجها وعبده ، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعـالى : « أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وقال الحسن وقتادة وسـعيد بن جبير فى قوله تعـالى : « وَفّى » عمل بمـا أمر به وبلّغ رسالات ربه . وهـذا أحسن؛ لأنه عام . وكذا قال مجاهد : « وَفّى » بمـا فرض عليـه . وقال أبو مالك

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٩٧ فما بعدها طبعة ثانية .

الغفاري قوله تعالى : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » إلى قوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى » في صحف إبراهيم وموسى، وقد مضى في آخر « الأنعام »[1] القول في « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ روى عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا » وقال أكثر أهل التأويل : إنها محكمة ولا ينفع أحدا عمل أحد ، وأجمعوا أنه لا يصلى أحدٌ عن أحد . ولم يجز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت، إلا أنه قال : إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه . وأجاز الشافعي وغيره الحج التطوع عن الميت . وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه . وروى أن سعد بن عبادة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أمي توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : "نعم" قال : فأي الصدقة أفضل ؟ قال : "سقي الماء" . وقد مضى جميع هذا مستوفى في « البقرة »[2] و « آل عمران»[3] و «الأعراف»[4] . وقيل : إن الله عز وجل إنما قال « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدق عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل . وقال الربيع بن أنس : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» يعني الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره .

قلت : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدم كثير منها لمن تأملها، وليس في الصدقة اختلاف . كما في صدر

---

(١) راجع جـ٧ ص١٥٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ٣ ص٤٢٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانيه

(٣) راجع جـ ٤ ص ١٥١ فما بعدها . (٤) كذا في الأصل ولم نعثر على هذا المعنى في السورة المذكورة .

كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك . وفى الصحيح : " إذا مات الإنسان ٱنقطع عمله إلا من ثلاث " وفيــه " أو ولد صالح يدعوله " وهــذا كله تفضل من الله عز وجل، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه ؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عشرا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة ؛ كما قيل لأبى هريرة : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حســنة " فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة" فهذا تفضل وطريق العدل « أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى » خاص فى السيئة ؛ بدليل ما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله عزّ وجلّ إذا همّ عبدى بحسنــة ولم يعملها كتبتها له حسنــةً فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضِعف وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدة" . وقال أبو بكر الوراق : « إِلَّا مَا سَعَى » إلا ما نوى؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : " يُبعَث الناسُ يوم القيامة على نياتهم " .

قوله تعــالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أى يريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ أى يجزى به ﴿ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ . قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما؛ قال الشاعر :

إِنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بنَ سَعْدٍ سَــعْيَهُ * لم أَجْــزِهِ بِبَلاءِ يَــوْمٍ واحِــدِ

بجمع بين اللغتين .

قوله تعــالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أى المرجع والمردّ والمصير فيعاقب ويثيب . وقيل : منه ٱبتداء المِنّة وإليه ٱنتهاء الأمان . وعن أبىّ بن كعب قال قال النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » قال : " لافكرة فى الربّ " .وعن أنس قال النبى صلى الله عليه وسلم: " إذا ذكر الله تعالى فانتهوا " .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " يأتى الشيطانُ أحدكم فيقول مَن خَلَق كذا وكذا حتى يقول له من خَلَق ربَّكَ فإذا بلغ ذلك فليَستعذْ بالله ولْيَنْته " وقد تقـدّم فى آخر « الأعراف »(١) . ولقد أحسن من قال .

ولا تُفكِرَنْ(٢) فى ذِى العُلَا عَزَّ وجهُهُ * فإنَّكَ تُردَى إنْ فعلتَ وتُخْـذَلُ
ودونَكَ مَصْنـوعاتِه فاعتَبِرْ بهـا * وقُلْ مِثلَ ما قال الخليـلُ المبَجَّلُ

قوله تعـالى : وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعـالى فلا فاعل إلا هو ؛ وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لا والله ما قال رسول الله قطُّ إنّ الميِّت يعذَّب ببكاء أحدٍ ولكنّه قال : " إنّ الكافرَ يزيدُه الله ببكاء أهله عذابا و إنّ اللهَ لَهُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى وما تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى " . وعنها قالت : مَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" فنزل عليه جبريل فقال: يا محمد! إن الله يقول لك: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى» . فرجع إليهم فقال : " ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل فقال آيتِ هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول «هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» أى قضى أسباب الضحك والبكاء. وقال عطاء بن أبى مسلم : يعنى أفرح وأحزن؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء . وقيل لعمر: هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال : نعم! والإيمان والله أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى . وقد تقدّم هذا المعنى فى « النمل »(٣) و « براءة »(٤) . قال الحسن:

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) من أفكر لغة فى فكر بالتضعيف .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٧٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٢١٧ طبعة أولى أو ثانية .

أضحك الله أهل الجنة فى الجنة وأبكى أهـل النار فى النار . وقيل : أضحك من شاء فى الدنيا بأن سَرّه وأبكى من شاء بأن غمّه . الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر . وقيـل : أضحك الأشجار بالنُّوّار، وأبكى السّحاب بالأمطار . وقال ذو النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته . وقال سهل بن عبـد الله : أضحك الله المطيعين بالرحمـة وأبكى العاصين بالسخط . وقال محمد آبن على الترمذى : أضحك المؤمن فى الآخرة وأبكاه فى الدنيـا . وقال بسام بن عبـد الله : أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم . وأنشد :

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحْتَرِقُ * وإنمـا ضِحْكُها زُورٌ ومُخْتَلَقُ
يا رُبَّ باكٍ بِعينٍ لا دموعَ لهـا * ورُبَّ ضاحِكِ سِنٍّ ما بِهِ رَمَـقُ

وقيل : إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان وليس فى سائر الحيوان من يضـحك ويبكى غير الإنسان . وقد قيل : إن القرد وحده يضحك ولا يبكى ، وأن الإبل وحدها تبكى ولا تضحك . وقال يوسف بن الحسين : سئل طاهر المقدسى أتضحك الملائكة؟ فقال : ما ضحكوا ولا كلّ من دون العرش منـذ خلقت جهنم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أى قضى أسباب الموت والحياة . وقيل : خلق الموت والحياة كما قال : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » قاله آبن بحر . وقيل : أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان . قال الله تعـالى : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » الآية . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » على ما تقـدّم [1] ، وإليه يرجع قول عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله . وقول من قال : أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجود والبذل . وقيل : أمات النطفة وأحيـا النسمة . وقيـل : أمات الآباء وأحيا الأبنـاء . وقيل : يريد بالحيـاة الخصب وبالموت الجدب . وقيـل : أنام وأيقظ . وقيل : أمات فى الدنيا وأحيا للبعث . ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أى من أولاد آدم ولم يرد آدم وحوّاء بأنهما خلقا من نُطْفة .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٨ طبعة أولى أو ثانية .

والنّطفة الماء القليل مشتقّ من نطف الماءُ إذا قَطَر . ﴿ تُمْنَى ﴾ تصبّ في الرحم وتراق ؛ قاله الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح . يقال : مَنَى الرجل وأَمْنى من الْمَنِيّ وسميت مِنًى بهذا الاسم لمـا يُمْنَى فيها من الدماء أي يُراق . وقيل : « تُمْنَى » تُقدَّر ؛ قاله أبو عبيدة . يقال : مَنَيت الشيءَ إذا قدّرته ومُنِي له أي قُدّر له ؛ قال الشاعر : (١)

* حتّى تُلاقِيَ ما يَمْنِي لكَ المَانِي *

أي ما يقدر لك القادر .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ أي إعادة الأرواح في الأشباح للبعث . وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو « النَّشَاءَةَ » بفتح الشين والمـدّ ؛ أي وعد ذلك ووعده صـدق . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ قال ٱبن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء؛ ثم قرأ « يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ » (٢) وقرأ « يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ » (٣) وٱختاره الطبري . وعن ٱبن زيد أيضا ومجاهد وقتادة والحسن : « أَغْنَى » مَوّل « وَأَقْنَى » أَخْدم . وقيل : « أَقْنَى » جعل

(١) قائله أبو قلابة الهـذلي . وصدره : * ولا تقولن لشيء سوف أفعله * وقيل هو لسويد بن عامر المصطلق . وقبله :

لا تأمن الموت في حل وفي حرم * إن المنايا توافي كل إنسان
وٱسلك طريقك فيها غير محتشم * حتى الخ ....

(٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧ (٣) سورة البقرة آية ٢٤٥

لكم قِنْيــة تقتنونها وهو معنى أخدم أيضا . وقيــل : معناه أرضى بمـا أعطى أى أغنـاه ثم رضّاه بما أعطاه . قاله آبن عباس . وقال الجوهرى : قَنِيَ الرجل يقْنَى قِنًى مثل غَنِيَ يغْنَى غِنًى، وأقناه الله أى أعطاه الله ما يُقتَنى من القِنْية والنَّشب . وأقناه [الله] أيضا أى رضّاه . والقِنَى الرِّضا، عن أبى زيد؛ قال وتقول العرب : من أُعطِى مائةً من المعز فقد أُعطِى القِنَى، ومن أُعطِى مائةً من الضأن فقد أُعطِى الغِنَى ، ومن أُعطِى مائة من الإبل فقد أُعطِى المُنَى . ويقال : أغناه الله وأقناه أى أعطاه ما يَسكن إليه . وقيل : « أَغْنَى وَأَقْنَى » أى أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه ؛ قاله سليمان التيمى . وقال سفيان : أغنى بالقناعة وأقـنى بالرِّضا . وقال الأخفش : أقنى أفقر . قال آبن كيسان : أولد . وهذا راجع لمـا تقدّم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ « الشِّعْرى » الكوكب المضىء الذى يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه فى شـدّة الحرّ ، وهما الشّعريان العَبُور التى فى الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصاءُ التى فى الذِّراع ؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيْل . وإنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغـيره ؛ لأن العرب كانت تعبده ؛ فأعلمهم الله جل وعزّ أن الشِّعرى مربوب وليس بربّ . وآختلف فيمن كان يعبده ؛ فقال السـدى : كانت تعبده حِمْـير وخُزَاعة . وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسـلم من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يُسمون النبى صلى الله عليه وسـلم آبن أبى كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهـم ؛ وقالوا : ما لقينـا من آبن أبى كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقـد وقف فى بعض المضايق وعساكر رسول الله صلى الله عليه وسـلم تمرّ عليه : لقد أَمِرَ أَمْرُ آبنِ أبى كبشة . وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظّمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ، قال الشاعر :

مَضَى أَيْلُولُ وآرتفـعَ الحَـرُورُ * وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُـورُ

وقيـل إن العرب تقول فى خرافاتها : إن سُهَيْلا والشِّعرى كانا زوجين ، فآنحـدر سُهَيْل فصار يمانيـا ، فآتبعته الشّعرى العَبُور فعبرت المجرّة فسميت العَبُـور ، وأقامت الغُمَيْصاءُ فبكت

لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناها فسمِّيت غُمَيْصاء لأنها أخفى من الأخرى . ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ سماها الأولى لأنهم كانوا من قبل ثمود . وقيل : إن ثمود من قبل عاد . وقال ابن زيد : قيل لها عاد الأولى لأنها أوّل أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام . وقال ابن إسحق : هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصّرصر ، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة وقيل : عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى والمعنى متقارب . وقيل : إن عادا الآخرة الجبارون وهم قوم هود . وقراءة العامة « عَاداً الأُولَى » ببيان التنوين والهمز . وقرأ نافع وابن مُحيصن وأبو عمرو « عَادًا الُّولَى » بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها ، إلا أنّ قالون والمسيّبي(١) يظهران الهمزة الساكنة . وقلبها الباقون واوا على أصلها ، والعرب تقلب هذا القلب فتقول قُمِ الَّان عنّا وضُمَّ لِثْنين أي قم الآن وضمّ الآثنين ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة . وقرئ « ثَمُوداً » « وثَمُودَ » وقد تقدم(٢) . وآنتصب على العطف على عاد . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ وذلك لطول مدّة نوح فيهم ، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد آبنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول : آحذر هذا فإنه كذّاب ، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثل ما قلت لك ؛ فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه . وقيل : إن الكناية ترجع إلى كلّ من ذكر من عاد وثمود وقوم نوح ؛ أي كانوا أكفر من مشركي العرب وأطغى . فيكون فيه تسلية وتعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه يقول له : فآصبر أنت أيضا فالعاقبة الحميدة لك . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ يعني مدائن قوم لوط عليه السلام آئتفكت بهم ، أي آنقلبت وصار عاليها سافلها . يقال : أفكته أي قلبته وصرفته . « أَهْوَى » أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض . وقال المبرّد : جعلها تَهْوِي . ويقال : هَوَى بالفتح يَهْوِي هويّا أي سقط

---

(١) في بعض نسخ الأصل « السوسي »

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

و« أَهْوَى » أى أسقط . ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ أى ألبسها ما ألبسها من الحجارة ؛ قال الله تعالى : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » . وقيل: إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم، أى غَشَّاها من العذاب ما غشَّاهم ، وأبهم لأن كلا منهم أُهلِك بضرب غير ما أُهلِك به الآخر . وقيل : هـذا تعظيم الأمر . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ أى فبأى نِعَم ربّك تشـكّ . والمخاطبـة للإنسان المكذب . والآلاء النعـم واحدها أَلَى وإِلَى وإِلْيَ . وقرأ يعقوب « تَّمَارَى » بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى والتشديد .

قوله تعـالى : هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُـدُوا ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَـذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمـد بن كعب : يريد أن محمدا صلى الله عليه وسـلم نذير بالحق الذى أنذر به الأنبياء قبـله ، فإن أطعتموه أفلحتم ، وإلا حلّ بكم ما حلّ بمكذّبى الرسل السالفة . وقال قتادة : يريد القرآن وأنه نـذير بما أنذرت به الكتب الأولى. وقيل : أى هذا الذى أخبرنا به من أخبار الأمم المـاضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أى مثل النذر ؛ والنذر فى قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكُر بمعنى الإنكار ؛ أى هذا إنذار لكم . وقال أبو مالك : هذا الذى أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو فى صحف إبراهيم وموسى . وقال السـدى أخبرنى أبو صالح قال : هذه الحروف التى ذكر الله تعالى من قوله تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ » إلى قوله : « هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى » كل هذه فى صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ أي قربت الساعة ودنت القيامة . وسماها آزفة لقرب قيامها عنده كما قال : « يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا » . وقيل : سماها آزفة لدنوها من الناس وقربها منهم ليستعدّوا لها؛ لأن كل ما هو آت قريب . قال :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنّ رِكابَنَا * لمَّا تَزُلْ بِرِحالنا وكأَنْ قَـدِ

وفي الصحاح : أَزِف الترحل يَأْزَف أَزَفا أي دنا وأَفِد ؛ ومنه قوله تعالى : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » يعني القيامة ، وأزِف الرجل أي عَجِل فهو آزِف على فاعل ، والمتآزِف القصير وهو المتداني . قال أبو زيد : قلت لأعرابي ما الْمُحْبَنْطِئُ ؟ قال : المتَكَأْكِيءُ ؟ قلت : ما المتكأكِئ ؟ قال : المتآزِف . قلت : ما المتآزف ؟ قال : أنت أحمق وتركني ومرّ . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدّمها . وقيل : كاشفة أي انكشاف أي لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله ؛ فالكاشفة اسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاء في العاقبة والعافية والداهية والباقية ؛ كقولهم : ما لفلان من باقية أي من بقاء . وقيل : أي لا أحد يردّ ذلك ؛ أي إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا ينجيهم غير الله تعالى . وقد سميت القيامة غاشية ، فإذا كانت غاشية كان ردّها كشفا ، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف ؛ أي نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة . وقيل : إن كاشفة بمعنى كاشف والهاء للمبالغة مثل راوية وداهية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعني القرآن . وهذا استفهام توبيخ ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ تكذيبا به ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ انزجارا وخوفا من الوعيد . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ما رؤى بعد نزول هذه الآية ضاحكا إلا تبسما . وقال أبو هريرة : لما نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » قال أهل الصفة « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يلج النار من بكى من

خشية الله ولا يدخل الجنة مُصرّ على معصية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم ". وقال أبو حازم : نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل يبكي ، فقال له : من هذا ؟ قال : هذا فلان ؛ فقال جبريل : إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء ، فإن الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحورا من جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أي لاهون معرضون . عن ابن عباس ؛ رواه الوالبيّ والعوفيّ عنه . وقال عكرمة عنه : هو الغناء بلغة حمير ؛ يقال : سمِّد لنا أي غنِّ لنا ، فكانوا إذا سمعوا القرآن يتلى تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا . وقال الضحاك : سامدون شامخون متكبرون . وفي الصحاح : سَمَد سُمُودا رفع رأسه تكبرا وكل رافع رأسه فهو سامد ؛ قال :(1)

* سَوَامِدُ اللَّيْلِ خِفَافُ الأَزْوَادْ *

يقول : ليس في بطونها علف . وقال ابن الأعرابي : سَمَدت سُمُودا علوت . وسَمَدت الإبلُ في سيرها جدّت . والسُّمُود اللهو ، والسَّامد اللاهي ؛ يقال للقَيْنة : أَسْمِدينا ؛ أي ألهينا بالغناء . وتسميد الأرض أن يجعل فيها السِّماد وهو سِرْجين ورَمَاد . وتسميد الرأس استئصال شعره لغة في التَّسبيد . واسْمَأَدَّ الرجلُ بالهمز اسْمِئْدادا أي وَرِم غضبا . وروى عن علي رضي الله عنه أن معنى « سَامِدُونَ » أن يجلسوا غير مصلّين ولا منتظرين الصلاة . وقال الحسن : واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام ؛ ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج والناس ينتظرونه قياما فقال : " مالي أراكم سامدين " حكاه الماوردي . وذكره المهدوي عن علّي ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياما [ينتظرونه] فقال : " مالكم سامدون " قاله المهدوي . والمعروف في اللغة سَمَد يَسْمُد سُمُودا إذا لَهَا وأعرض . وقال المبرّد : سامدون خامدون ؛ قال الشاعر :

أَتَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ * بِمَقْدُورٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا

(1) قائله رؤبة بن العجاج يصف إبلا .

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ» لم يرضاحكا إلا مبتسما حتى مات صلى الله عليه وسلم . ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ قيل : المراد به سجود تلاوة القرآن . وهو قول ابن مسعود . وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقد تقدم أول السورة من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون . وقيل : إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين فى أثناء قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قوله : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » وأنه قال : تلك الغرانيقُ العُلا وشفاعتهنّ تُرتَجَى . كذا فى رواية سعيد بن جبير تُرتجى . وفى رواية أبى العالية وشفاعتهنّ تُرتَضى ، ومثلهنّ لا يُنسَى . ففرح المشركون وظنّوا أنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم على ماتقدّم بيانه فى « الحج »[(1)] . فلما بلغ الخبر بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجعوا ظنّا منهم أنّ أهل مكة آمنوا ، فكان أهل مكة أشدّ عليهم وأخذوا فى تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم . وقيل : المراد سجود الفرد فى الصلاة وهو قول ابن عمر ؛ كان لا يراها من عزائم السجود . وبه قال مالك . وروى أبىّ بن كعب رضى الله عنه : كان آخر فعل النبي صلى الله عليه وسلم ترك السجود فى المفصّل . والأوّل أصح وقد مضى القول فيه آخر « الأعراف »[(2)] مبينا والحمد لله رب العالمين . تم تفسير سورة « النجم » .

---

(١) هذه الأخبار من المفتريات على المعصوم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن ينطق بما هو نقيض القرآن ، ولا يمكن أن ينطق على لسانه الشيطان . وكل ما كان من هذا المعنى فهو باطل وضعته الملاحدة للدخول به إلى الطعن فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو فى الوحى أو فى القرآن وهو الذى لا ينطق عن الهوى . وراجع ما كتبه المصنف عن هذا الحديث فى جـ ١٢ ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ســورة القمــر

مكية كلها فى قول الجمهور . وقال مقاتل : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » إلى قوله : «وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» ولا يصح على ما يأتى . وهى خمس وخمسون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ « ٱقْتَرَبَتْ » أى قربت مثل « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » على ما بيناه فهى بالإضافة إلى ما مضى قريبة ؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب فقال : "ما بقى من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقى من هذا اليوم فيما مضى" وما نرى من الشمس إلا يسيرا . وقال كعب ووهب : الدنيا ستة آلاف سنة . قال وهب : قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة . ذكره النحاس .

ثم قال تعالى : « وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » أى وقد آنشق القمر . وكذا قرأ حُذيفة « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدْ ٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » بزيادة «قد» وعلى هذا الجمهور من العلماء ؛ ثبت ذلك فى الصحيح

للبخاري وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجُبَير بن مُطْعِم وابن عباس رضي الله عنهم . وعن أنس قال : سأل أهلُ مكةَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » إلى قوله « سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » يقول ذاهب . قال أبو عيسى الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ البخاري عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر ؛ أي اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره . وكذا قال القشيري . وذكر الماوردي : أن هذا قول الجمهور، وقال : لأنه إذا انشق ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء . وقال الحسن : اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية . وقيل : « وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » أي وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وَضَح ؛ قال :

أقيمُوا بَني أميَّ صُدُورَ مَطِيِّكُمْ * فإنِّي إلى حَيٍّ سواكم لَأَمْيَلُ

فقدحُمَّتِ الحاجاتُ واللَّيْلُ مُقْمِرٌ * وشُدَّتْ لِطيَّاتٍ مَطَايا وأَرْحُلُ

وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يسمى الصبح فلقا؛ لانفلاق الظلمة عنه . وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة :

فلمّا أَدْبَرُوا ولَهُمْ دَوِيٌّ * دعانا عِندَ شَقِّ الصُّبْحِ داعِ

قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية؛ وأنها كانت باستدعاء النبيِّ صلى الله عليه وسلم من الله تعالى عند التَّحدِّي . فروي أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضبا من سبِّ أبي جهل الرسول صلى الله عليه وسلم طلب أن يريه آيةً يزداد بها يقينا في إيمانه . وقد تقدّم في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما في حديث ابن مسعود وغيره . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد قيل . هو على

التقديم والتأخير، وتقديره : انشق القمر واقتربت الساعة ؛ قاله ابن كيسان . وقد مرّ عن الفراء أن الفعلين إذا كانا متقاربى المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عند قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر . قال ابن عباس : اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا : إن كنت صادقا فاشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبى قُبَيس ونصف على قُعَيْقِعَان؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فعلتُ تؤمنون " قالوا : نعم! وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما قالوا فانشق القمر فرقتين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى المشركين : " يافلان يافلان اشهدوا " . وفى حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت قريش : هذا من سحر ابن أبى كبشة ؛ سحركم فاسئلوا السُّفَّار . فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر انشق فنزلت : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا » أى إن يروا آية تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعرضوا عن الإيمان ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ أى ذاهب ؛ من قولهم : مَرَّ الشيءُ واستمر إذا ذهب ؛ قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء والكسائى وأبو عبيدة ، واختاره النحاس . وقال أبو العالية والضحاك : محكم قوىّ شديد، وهو من المِرَّة وهى القوّة؛ كما قال لَقِيط :

حتّى استمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ * مُرُّ العَزِيمة لا [قَحْمًا] (1) ولاضَرَعَا

وقال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدّة فتله . وقيل : معناه مُرٌّ من المرارة . يقال : أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارة فهو مُرٌّ وأَمَرَّه غيره ومَرَّره . وقال الربيع : مستمر نافذ . يمان : ماضٍ . أبو عبيدة : باطل . وقيل : دائم . قال :

* وليس على شيءٍ قَوِيمٍ بمُسْتَمِرّ * (2)

---

(1) راجع هامش ص ٨٦ من هذا الجزء فى شرح البيت .

(2) البيت لامرئ القيس وصدره : ألا إنما الدنيا ليال وأعصر .

أى بدائم . وقيل : يشبه بعضه بعضا ؛ أى قد ٱستمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتى بشىء له حقيقة بل الجميع تخييلات . وقيل : معناه قد مرّ من الأرض إلى السماء . ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ نبيّنا ﴿ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى ضلالاتهم وٱختياراتهم . ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أى يستقر بكل عامل عمله ، فالخير مستقر بأهله فى الجنة ، والشر مستقرّ بأهله فى النار .

وقرأ شيبة « مُسْتَقَرٌّ » بفتح القاف أى لكل شىء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخر . وقد روى عن أبى جعفر بن القَعْقاع « وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ » بكسر القاف والراء جعله نعتا لأمر و « كُلٌّ » على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف ، كأنه قال : وكل أمر مستقر فى أمّ الكتاب كائن . ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة ؛ المعنى : ٱقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر ؛ أى ٱقترب ٱستقرار الأمور يوم القيامة . ومن رفعه جعله خبرا عن « كلّ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أى من بعض الأنباء ؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه ، وأن لهم فيه شفاء . وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك ، وإنما ٱقتصّ علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك ؛ وذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ » أى جاء هؤلاء الكفّار من أنباء الأمم الخالية ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أى مايزجرهم عن الكفر لو قبلوه . وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالا ؛ لأن التاء حرف مهموس والزاى حرف مجهور ، فأبدل من التاء دالا توافقها فى المخرج وتوافق الزاى فى الجهر . و « مُزْدَجَر » من الزّجر وهو الانتهاء ، يقال : زجره وٱزدجره فٱنزجر وٱزدجر ، وزجرته أنا فانزجر أى كففته فكفّ ، كما قال :

فأصبحَ ما يطلبُ الغانيا * تِ مُزْدَجَرا عن هواه ٱزدجارا

وقرئ « مُزَّجَرٌ » بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاى فيها . حكاه الزمخشرى .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعنى القرآن وهو بدل من « ما » من قوله : « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » . ويجوز أن يكون خبر ٱبتداء محذوف أى هو حكمة . ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾

إذا كذبوا وخالفوا كما قال الله تعالى : « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » فـ« ـما » نفي أي ليست تغني عنهم النذر . ويجوز أن يكون آستفهاما بمعنى التوبيخ؛ أي فأيّ شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها . و « النُّذُرُ » يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم . قيل : هـذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو تمام الكلام . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ العامل في « يَوْمَ » « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أو « خُشَّعًا » أو فعل مضمر تقديره وآذكر يوم . وقيل : على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر ، تقديره : فتول عنهم فإن لهـم يوم يدعو الداعي . وقيل : تَولَّ عنهم يا محمد فقـد أقمت الحجة وأبصرهم يوم يدعو الداعي . وقيل : أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنهم يدعون ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ وينالهم عذاب شديد . وهو كما تقول : لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم . وقيل : أي وكلّ أمر مسـتقر يوم يدعو الداعي . وقرأ آبن كثير « نُكْرٍ » بإسـكان الكاف، وضمهـا الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة . والداعي هو إسرافيل عليه السلام . وقد روى عن مجاهد وقتادة أنهما قرآ « إِلَىٰ شَيْءٍ نُكِرَ » بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول . ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ الخشوع في البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذل يتبين في ناظر الإنسان ؛ قال الله تعالى : « أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ » وقال تعالى : «خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» . و يقال : خَشَع وآختَشَع إذا ذَلّ . وخَشَع ببصره أي غضّه . وقرأ حمزة والكسائيّ وأبو عمرو « خَاشِعًا » بالألف ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدّمت على الجماعة التوحيد، نحو : « خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ » والتأنيث نحو : «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ» ويجوز الجمع نحو : « خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ » قال[1] :

وَشَبَـابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُـم * مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَـدّ

(١) هو الحرث بن دوس الإيادي ؛ ويروى لأبي دؤاد الإيادي .

و « خُشَّعًا » جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم فى « عنهم » فيقبح الوقف على هذا التقدير على « عنهم » . ويجوز أن يكون حالا من المضمر فى « يَخْرُجُونَ » فيوقف على « عَنْهُمْ » . وقرئ « خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ » على الابتداء والخبر ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله :

* [وجدته](1) حَاضِرَاه الجودُ والكَرَمُ *

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور واحدها جَدَث . ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ . وقال فى موضع آخر : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » فهما صفتان فى وقتين مختلفين؛ أحدهما — عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم فى بعض، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها [الثانى](2) — فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد له جهة يقصدها . و « مُهْطِعِينَ » معناه مسرعين ؛ قاله أبو عبيدة . ومنه قول الشاعر :

بِدِجْلَةَ دارُهمْ ولقد أراهم * بدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ

الضحاك : مقبلين . قتادة : عامدين . ابن عباس : ناظرين . عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت . والمعنى متقارب . يقال : هَطَعَ الرجلُ يَهْطَع هُطُوعا إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه، وأهطع إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه . قال الشاعر(3) :

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بنُ سَعْدٍ وقد أُرَى * ونِمْرُ بنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

و بعير مُهْطِع فى عنقه تصويبٌ خِلْقة . وأهطع فى عَدْوه أى أسرع . ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يعنى يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدّة .

---

(1) الزيادة من إعراب القرآن للسمين .

(2) الزيادة من مفصل إعراب القرآن وغيره .

(3) قائله تبع .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكر جملا من وقائع الأمم الماضية تأنيسا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتعزية له . « قَبْلَهُمْ » أي قبل قومك . ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ يعني نوحا . الزمخشريّ : فإن قلت ما معنى قوله « فَكَذَّبُوا » بعد قوله « كَذَّبَتْ » قلت : معناه كذّبوا فكذّبوا عبدنا ؛ أي كذّبوه تكذيبا على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذّب تبعه قرن مكذّب ، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا ؛ أي لما كانوا مكذّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسا كذّبوا نوحا لأنه من جملة الرسل . ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أي هو مجنون ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أي زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل . وقيل إنما قال : « وَٱزْدُجِرَ » بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أي دعا عليهم حينئذ نوح وقال : ربّ ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ أي غلبوني بتمردهم ﴿ فَٱنْتَصِرْ ﴾ أي فانتصر لي . وقيل : إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه . ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ أي كثير ؛ قاله السدّيّ . قال الشاعر :

أعينيّ جُودَا بالدُّموعِ الهَوَامِرِ * على خيرِ بادٍ من مَعَدَّ وحاضِرِ

وقيل : إنه المنصبّ المتدفّق ؛ ومنه قول آمرئ القيس يصف غيثا :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثم انْتَحَى * فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ [(١)]

والهمر الصبّ ؛ وقد هَمَر الماءَ والدَّمْعَ يَهْمِرُ هَمْرا . وهَمَر أيضا إذا أكثر الكلام وأسرع . وهَمَر له من ماله أى أعطاه . قال ابن عباس : ففتحنا أبواب السماء بماء من غير سحاب لم يقلع أربعين يوما . وقرأ ابن عامر ويعقوب : « فَفَتَّحْنَا » مشدّدة على التكثير . الباقون « فَفَتَحْنَا » مخففا . ثم قيل : إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها . وقيل : إنه المجرّة وهى شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر ؛ قاله علىّ رضى الله عنه . ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ قال عُبَيد بن عُمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون ، وإن عينا تأخرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرّا أجاجا إلى يوم القيامة . ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أى ماء السماء وماء الأرض ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ؛ حكاه ابن قتيبة . أى كان ماء السماء والأرض سواء . وقيل : « قُدِرَ » بمعنى قضى عليهم . قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا أن يغرقوا . وقال محمد بن كعب : كانت الأقوات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء ؛ وتلا هذه الآية . وقال : « الْتَقَى الْمَاءُ » والالتقاء إنما يكون فى اثنين فصاعدا ؛ لأن الماء يكون جمعا وواحدا . وقيل : لأنهما لما اجتمعا صارا ماء واحدا . وقرأ الجحدرى : « فَالْتَقَى الْمَاءَانِ » . وقرأ الحسن : « فَالْتَقَى الْمَاوَانِ » وهما خلاف المرسوم . القشيرى : وفى بعض المصاحف « فَالْتَقَى الْمَاوَانِ » وهى لغة طىء . وقيل : كان ماء السماء باردا مثل الثلج وماء الأرض حارا مثل الحميم . ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أى على سفينة ذات ألواح . ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ قال قتادة : يعنى المسامير التى دُسِرت بها السفينةُ أى شُدّت ؛ وقاله القرظى وابن زيد وابن جبير ورواه الوالبى عن ابن عباس . وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج سميت بذلك لأنها تدسر الماء أى تدفعه ، والدُّسُر الدّفع والمَخْر ؛ ورواه العوفى عن ابن عباس قال : الدُّسر كَلْكَلُ السفينة .

---

(١) راح : أى عاد فى الرواح ؛ كأن المطر كان فى أول النهار ثم عاد فى آخره . وتمريه : تستدرّه ، وأصله من مرى الضرع وهو مسحه ليدر . وخص الصبا لأنهم يمطرون بها .

وقال الليث: الدِّسار خيط من ليف تُشد به ألواح السفينة. وفى الصحاح: الدِّسار واحد الدُّسر وهى خيوط تشدّ بها ألواح السفينة ، ويقال هى المسامير، وقال تعالى : « عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ » . ودُسْر أيضا مثل عُسُر وعُسْر . والدَّسْر الدفع ، قال ابن عباس فى العنبر : إنما هو شىء يَدْسُره البحر دَسْرا أى يدفعه . ودَسَره بالرمح . ورجل مِدْسر . ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى بمرأى منا . وقيل : بأمرنا . وقيل : بحفظ منا وكِلاءة . وقد مضى فى « هود »[1] . ومنه قول الناس للمودِّع : عين الله عليك ؛ أى حفظه وكلاءته . وقيل : بوحينا . وقيل : أى بالأعين النابعة من الأرض . وقيل : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه . وقيل : أى تجرى بأوليائنا، كما فى الخبر : مرض عين من عيوننا فلم تعده . ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أى جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به ؛ فاللام فى « لِمَنْ » لام المفعول له . وقيل : « كُفِرَ » أى جحد فـ« مَن » كناية عن نوح . وقيل : كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب ؛ أى عقابا لكفرهم بالله تعالى . وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد « جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ » بفتح الكاف والفاء بمعنى : كان الغرق جزاء وعقابا لمن كفر بالله ، وما نجا من الغرق غير عُوج بن عُنُق[2] ؛ كان الماء إلى حُجْزته . وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها ، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك ، ونجّاه من الغرق . ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ يريد هذه الفعلة عبرة . وقيل أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل . قال قتادة : أبقاها الله ببَاقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية ، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رمادا . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ مُتّعظ خائف وأصله مُذْتَكِر مُفْتَعِل من الذِّكْر، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالا لتوافق الذال فى الجهر وأدغمت الدال فيها . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أى إنذارى ؛

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) عوج بن عنق هو المشهور والذى صوبه صاحب القاموس هو ابن عوق لا عنق .

قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران . وقيل : « نُذُر » جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أى سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه ؛ فهل من طالب لحفظه فيعانَ عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى ؛ ولقد هيأناه للذكر من يَسَّر ناقته للسَّفَر إذا رَحَلها ، ويَسَّر فرسَه للغزو إذا أسرجه وألجمه ؛ قال :

وقُمْـتُ إليـهِ باللِّجَامِ مُيَسِّرًا * هُنالكَ يَجْزِينِي الذى كنتُ أَصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن ؛ وقال غيره : ولم يكن هذا لبنى إسرائيل ، ولم يكونوا يقرءون التوراة إلا نظرا ، غير موسى وهرون و يوشع ٱبن نون وعزير صلوات الله عليهم ، ومن أجل ذلك ٱفتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت ؛ على ما تقدّم بيانه فى سورة « براءة »(1) فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكّروا ما فيه أى يفتعلوا الذّكر ، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ قارئ يقرؤه . وقال أبو بكر الورّاق وٱبن شَوْذب : فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه ، وكرّر فى هذه السورة للتنبيه والإفهام . وقيل : إن الله تعالى ٱقتص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين ، فكان فى كل قصة ونبأ ذكر للستمع أن لو ٱدّكر ، وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » لأن « هَلْ » كلمة ٱستفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم وجعلها حجة عليهم ؛ فاللام من « هَلْ » للاستعراض والهاء للاستخراج .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(1) راجع جـ ٨ ص ١١٧ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ هم قوم هود . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وقعت « نُذُر » فى هذه السورة فى ستة أماكن محذوفة الياء فى جميع المصاحف ، وقرأها يعقوب مثبتة فى الحالين، وورش فى الوصل لا غير ، وحذف الباقون . ولا خلاف فى حذف الياء من قوله : « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » والواو من قوله : « يَدْعُ » فأما الياء من « الدَّاعِ » الأول فأثبتها فى الحالين آبن محيصن ويعقوب وحميد والبَزّى ، وأثبتها ورش وأبو عمرو فى الوصل، وحذف الباقون . وأما « الدَّاعِ » الثانية فأثبتها يعقوب وآبن محيصن وآبن كثير فى الحالين ، وأثبتها أبو عمرو ونافع فى الوصل ، وحذفها الباقون . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أى شديدة البرد ؛ قاله قتادة والضحاك . وقيل : شديدة الصوت . وقد مضى فى «حمٓ السّجدة»(1) . ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أى فى يوم كان مشئوما عليهم . وقال آبن عباس : أى فى يوم كانوا يتشاءمون به . الزجاج : قيل فى يوم أربعاء . آبن عباس : كان آخر أربعاء فى الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم . وقرأ هرون الأعور « نَحِسٍ » بكسر الحاء وقد مضى القول فيه فى حمٓ السّجدة « فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ » . و « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » أى دائم الشؤم آستمر عليهم بنحوسه ، وآستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك . وقيل : آستمر بهم إلى نار جهنم . وقال الضحاك : كان مُرًّا عليهم . وكذا حكى الكسائى أن قوما قالوا هو من المرارة؛ يقال : مَرّ الشيء وأمَرّ أى كان كالشيء المرّ تكرهه النفوس . وقد قال : «فَذُوقُوا» والذى يذاق قد يكون مُرًّا . وقد قيل : هو من المِرّة بمعنى القوّة . أى فى يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذى لا يطاق نقضه ؛ فإن قيل : فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء؟ وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم آستجيب له فيه فيما بين الظهر والعصر . وقد مضى فى «البقرة»(2) حديث جابر بذلك . فالجواب — والله أعلم — ما جاء فى خبر يرويه مسروق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتانى جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضى باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر "

(1) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(2) راجع جـ ٢ ص ٣١٣ طبعة ثانية .

ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين ، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين كما كانت الأيام النحسات المذكورة فى القرآن؛ نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أول يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة آستجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحسا على الظالم؛ ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان على الكفار، وقول جابر فى حديثه لم ينزل بى أمر غليظ إشارة إلى هذا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ فى موضع الصفة للريح أى تقلعهم من مواضعهم . قيل : قلعتهم من تحت أقدامهم آقتلاع النخلة من أصلها . وقال مجاهد . كانت تقلعهم من الأرض، فترمى بهم على رءوسهم فتندق أعناقهم وتبين رءوسهم عن أجسادهم . وقيل : تنزع الناس من البيوت . وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : " آنتزعت الريح الناس من قبورهم " . وقيل : حفروا حفرا ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم ، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة . ويروى أن سبعة منهم حفروا حفرا وقاموا فيها ليردوا الريح . قال آبن إسحق : لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمى لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلى والحرث بن شداد والهلقام وآبنا تِقْن وخلجان بن سعد فأولجوا العيال فى شِعْب بين جبلين، ثم آصطفوا على باب الشِّعب ليردّوا الريح عمن فى الشِّعب من العيال ، فجعلت الريح تَجْعفُهم[1] رجلًا رجلًا، فقالت آمرأة عاد :

ذَهَبَ الدهرُ بعمرِو بـ * ـن حـلِىٍّ والهنيّات

ثم بالحـرث والهِلْـ * ـقامِ طَلّاعِ الثنيّات

والذى سَدَّ مهبَّ الر * يح أيـام البـليّات

---

(١) جعفه : صرعه، ضرب به الأرض .

الطبرى : فى الكلام حذف ، والمعنى تنزع الناس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر؛ فالكاف فى موضع نصب للمحذوف . الزجاج : الكاف فى موضع نصب على الحال، والمعنى تنزع الناس مشبّهين بأعجاز نخل . والتشبيه قيل إنه للحفر التى كانوا فيها . والأعجاز جمع عجز وهو مؤخر الشىء ، وكانت عاد موصوفين بطول القامة ، فشُبِّهوا بالنخل آنكبت لوجوهها . وقال: «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» للفظ النخل وهو من الجمع الذى يذكر ويؤنث . والمنقعر المنقطع من أصله ؛ قعرت الشجرة قعرا قلعتها من أصلها فآنقعرت . الكسائى : قعرت البئر أى نزلت حتى آنتهيت إلى قعرها ، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى آنتهيت إلى قعره . وأقعرت البئر جعلت لها قعرا . وقال أبو بكر بن الأنبارى : سئل المبرّد بحضرة إسمعيل القاضى عن ألف مسئلة هذه من جملتها، فقيل له : ما الفرق بين قوله تعالى : «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً» و «جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ» وقوله : «كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ» و «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» فقال : كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا، أو إلى المعنى تأنيثا . وقيل : إن النخل والنخيل بمعنى يذكر ويؤنث كما ذكرنا . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ هم قوم صالح كذّبوا الرسل ونبيهم، أو كذّبوا بالآيات التى هى النذر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ وندع جماعة . وقرأ أبو الأشهب وآبن السَّمَيْقَع وأبو السَّمَّال العدوى « أَبَشَرٌ » بالرفع « وَاحِدٌ » كذلك رفع بالابتداء والخبر « نَتَّبِعُهُ » . الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشرا منا واحدا نتبعه . وقرأ أبو السَّمَّال[1] :

(١) هذه رواية أخرى عن أبى السمال كما فى « روح المعانى » وغيره .

« أَبَشَرٌ » بالرفع « مِنَّا وَاحِدًا » بالنصب رفع « أَبَشَرٌ » بإضمار فعل يدل عليه « أَؤُلْقِىَ » كأنه قال : أينبأ بشر منا، وقوله : « وَاحِدًا » يجوز أن يكون حالا من المضمر فى « مِنَّا » والناصب له الظرف ، والتقدير أينبأ بشر كائن منا منفردا ؛ ويجوز أن يكون حالا من الضمير فى « نَتَّبِعُهُ » منفردا لا ناصر له . ﴿ إِنَّا إِذًا لَفِى ضَلَالٍ ﴾ أى ذهاب عن الصواب « وَسُعُرٍ » أى جنون ، من قولهم : ناقة مسعورة ، أى كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، ذكره ٱبن عباس قال الشاعر يصف ناقته :

تَخَالُ بها سُعْرًا إذا السَّفْرُ هَزَّهَا * ذَمِيلٌ[1] وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

وقال ٱبن عباس أيضا : السُّعر العذاب ، وقاله الفراء . مجاهد : بعد عن الحق . السدى : فى ٱحتراق . قال[2] :

أصحوتَ اليومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّ * ومِنَ الحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ

أى متقد ومحترق . أبو عبيدة : هو جمع سعير وهو لهب النار . والبعير[3] المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدّة . ومعنى الآية : إنا إذًا لفى شقاء وعناء مما يلزمنا .

قوله تعالى : ﴿ أَؤُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أى خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ؟ ! وهو ٱستفهام معناه الإنكار . ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أى ليس كما يدّعيه ، وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير ٱستحقاق . والأَشَر المَرَح والتجبّر والنّشاط . يقال : فرس أَشِر إذا كان مرحا نشيطا ؛ قال ٱمرؤ القيس يصف كلبا :

فيدركنا فَغِمٌ داجِنٌ * سَمِيعٌ بَصِيرٌ طَلُوبٌ نَكِرْ[4]

أَلَصُّ الضُّروسِ[5] حَنِيُّ الضُّلُوعِ * تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشِيطٌ أَشِرْ

---

(١) الذميل : ضرب من سير الإبل . (٢) هو طرفة . (٣) فى بعض النسخ : السعير .

(٤) الفغم : المولع بالصيد الحريص عليه . داجن : ألوف للصيد . ونكر أى منكر عالم . وقيل نكر أى كريه الصورة .

(٥) الألص الذى التصقت أسنانه بعضها إلى بعض .

وقيل : « أَشِرٌ » بَطِر . والأَشَر البَطَر ؛ قال الشاعر :

أَشِــرْتُمْ بِلُبْس الخَزِّ لَمـا لَبِسْتُمُ * ومِن قبلُ ما تَدرون مَنْ فتحَ القُرَى

وقــد أَشِر بالكسر يأشَر أَشَرا فهو أَشِر وأَشْران ، وقوم أَشَارى مثــل سَكْران وسُكَارى ؛ قال الشــاعر [1] :

وخَلَّتْ وُعُــولًا أَشَارَى بهــا * وقــد أَزْهَفَ الطَّعْنُ أبطالهــا

وقيــل : إنه المتعدى إلى منزلة لا يستحقها ؛ والمعنى واحد . وقال ٱبن زيد وعبــد الرحمن ٱبن حماد : الأَشِر الذى لا يبــالى ما قال . وقرأ أبو جعفــر وأبو قِلابة « أَشَرٌّ » بفتح الشين وتشديد الراء يعنى به أشرنا وأخبثنا . ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ أى سيرون العذاب يوم القيامة ، أو فى حال نزول العذاب بهم فى الدنيا . وقرأ ٱبن عامر وحمــزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب . الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم . وقوله : « غدًا » على التقريب على عادة الناس فى قولهم للعواقب : إن مع اليوم غدا ؛ قال :

للمــوتِ فيهــا سِهامٌ غــير مُخْطِئَــةٍ * مَنْ لم يكن مَيِّتًــا فى اليومِ ماتَ غَــدَا

وقال الطِّرِمّاح :

أَلَا عَلِّــلَانِى قَبْـــلَ نَــوْحِ النَّــوَائِحِ * وقَبْلَ ٱضطِرَابِ النَّفْسِ بينَ الجَوَانِحِ

وقبــلَ غَــدٍ يا لَهْفَ نفسِى على غَــدٍ * إذا رَاحَ أصحــابى ولســـتُ بــرائحِ .

إنمــا أراد وقت المــوت ولم يرد غدا بعينــه . ﴿ مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ وقــرأ أبو قِــلابة « الأَشَرُّ » بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصــل . قال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَرِ إلا فى ضرورة الشعر ، كقول رؤبة :

* بِلَالُ خَيْرُ الناسِ وٱبنُ الأَخْيَرِ *

---

(1) هى مية بنت ضرار الضبى ترثى أخاها . وأزهف الطعن أبطالها أى صرعها . وقبــل البيت :

تراه عــلى الخيـــل ذا قدمــة * إذا ســـربل الدم أكفالهــا

وإنما يقولون هو خير قومه وهو شر الناس ؛ قال الله تعالى : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وقال : « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا » . وعن أبي حَيْوة بفتح الشين وتخفيف الراء . وعن مجاهد وسعيد بن جُبَير ضم الشين والراء والتخفيف ، قال النحاس : وهو معنى «الأشر» ومثله رجل حَذِر وحَذُر .

قوله تعالى : إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ ﴾ أي مخرجوها من الهَضْبة التي سألوها ، فروى أن صالحا صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها ، فخرجت ناقة عُشَراء [وبراء](1) . ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي اختبارا وهو مفعول له . ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ أي انتظر ما يصنعون . ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ أي اصبر على أذاهم ، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحولت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق . ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ أي أخبرهم ﴿ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، كما قال تعالى : « لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » . قال ابن عباس : كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئا من الماء وتسقيهم لبنا وكانوا في نعيم ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئا . وإنما قال : « بَيْنَهُمْ » لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم . وروى أبو الزبير عن جابر قال : لما نزلنا الحِجر في مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك ، قال : " أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل

(1) في الأصول جرداء وفي قصص الأنبياء للثعلبي وغيره من كتب التفسير وبراء فلذا أثبتناه .

إليهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذى كانوا يشربون يوم غِبّها " وهو معنى قوله تعالى : « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » . ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ الشِّرب بالكسر الحظّ من الماء ؛ وفى المثل : (آخرها أقلّها شِرْبا) وأصله فى سقى الإبل ، لأن آخرها يرد وقد نزف الحوضُ . ومعنى « مُحْتَضَرٌ » أى يحضُره من هوله ؛ فالناقة تحضُر الماء يوم وِردها ، وتغيب عنهم يوم وِردهم ؛ قاله مقاتل . وقال مجاهد : إن ثمود يَحضُرون الماء يوم غِبّها فيشربون ، ويَحضرون اللبن يوم وِردها فيحتلبون .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ يعنى بالحضّ على عقرها ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ عقرها ﴿ فَعَقَرَ ﴾ ها. ومعنى تعاطى تناول الفعل ، من قولهم عَطَوتُ أى تناولت ؛ ومنه قول حسّان :

كلتاهُمَا حَلَبُ العَصيرِ فعَاطِنِي * بزجاجةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ

قال محمد بن إسحق : فكمن لها فى أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها ، فخرّت ورغت رغاءة واحدة تحدّر سَقْبها من بطنها ثم نحرها ، وانطلق سَقْبها حتى أتى صخرة فى رأس جبل فرغا ثم لاذ بها ، فأتاهم صالح عليه السلام ؛ فلما رأى الناقة قد عُقرت بكى وقال : قد انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله . وقد مضى فى « الأعراف »[1] بيان هذا المعنى . قال ابن عباس : وكان الذى عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى . ويقال فى اسمه قُدَار بن سالف . وقال الأفوه الأَوْدىّ :

أو قَبْلَه[2] كقُدَارٍ حين تابَعَهُ * على الغَوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمى الجزّار قُدَارًا تشبيها بقُدَار بن سالف مشئوم آل ثمود ؛ قال مهلهل :

إنّا لَنضرِبُ بالسُّيوفِ رُءوسَهمْ * ضَرْبَ القُدَارِ نقيعةَ القُدَّامِ[3]

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الذى فى شعراء النصرانية : (أو بعده) .

(٣) القدار : الجزار . والنقيعة : ما ينحر للضيافة . والقدام : القادمون من سفر جمع قادم . وقيل : القدام الملك . ويروى : * إنا لنضرب بالصوارم هامهم *

وذكره زهير فقال :

فَتُنْتَجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ * كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ (١)

يريد الحرب فكنى عن ثمود بعاد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام، وقد مضى فى « هود » (٢) . ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية « المُحْتَظَر » بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة . وفى الصحاح : والمحتظِر الذى يعمل الحظيرة وقرئ « كَهَشِيمِ المحتظَر » فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به ، ويقال للرجل القليل الخير « إنه لَنَكِدُ الحَظِيرة » . قال أبو عبيد : أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . المهدوى : من فتح الظاء من « المحتظر » فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار . ويجوز أن يكون « المحتظَر » هو الشجر المتخذ منه الحظيرة . قال ابن عباس : « المحتظِر » هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . قال :

أَثَرْنَ عَجاجةً كدخانِ نارٍ * تشبُّ بغرقدٍ بالٍ هَشِيمِ

وعنه : كحشيش تأكله الغنم . وعنه أيضا : كالعظام النخرة المحترقة ، وهو قول قتادة . وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح . وقال سفيان الثورى : هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا وهو فعيل بمعنى مفعول . وقال ابن زيد : العرب تسمى كل شيء كان رطبا فيبس هشيما . والحظر المنع ، والمحتظر المفتعل يقال منه : احتظر على إبله وحظر أى جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله ؛ قال الشاعر :

تَرَى جِيَفَ المَطِىِّ بجانبيه * كأنَّ عظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ

---

(١) تنتج لكم يعنى الحرب ، غلمان أشأم فى معنى غلمان شؤم أو كلهم فى الشؤم كأحمر عاد . «ثم ترضع فتفطم» يريد أنه يتم أمر الحرب ، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تمت .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٦١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وعن ابن عباس أنهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ؛ فالمحتظر على هذا الذى يتخذ حظيرة على زرعه ، والهشيم فتات السنبلة والتبن . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضا لما كذبوا لوطا . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ؛ قال النضر : الحاصب الحصباء فى الريح . وقال أبو عبيدة : الحاصب الحجارة . وفى الصحاح : والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء وكذلك الحَصِبة ؛ قال لَبِيد :

جَرَّتْ عليها أَنْ خَوَتْ مِن أهلها * أذيالَها كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

عصفت الريح أى اشتدت فهى ريح عاصفٌ وعَصُوف . وقال الفَرَزْدق :

مستقبلين شَمالَ الشامِ تَضرِبُنَا * بحاصبٍ كنَدِيفِ القُطْنِ منثورِ

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ يعنى من تبعه على دينه ولم يكن إلا ابنتاه ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ قال الأخفش : إنما أجراه لأنه نكرة ولو أراد سحر يوم بعينه لما أجراه ، ونظيره : « اهْبِطُوا مِصْرًا » لما نكره فلما عرفه فى قوله : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » لم يُجْرِه ، وكذا قال الزجاج : « سحر » إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يصرف ، تقول أتيته سحرًا ، فإذا أردت سحر يومك

لم تصرفه تقول : أتيته سَحَرًا يا هذا وأتيته بسحر . والسحر هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار ؛ لأن في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار . ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ إنعاما منا على لوط وابنتيه فهو نصب لأنه مفعول به . ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي من آمن بالله وأطاعه . ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ يعني لوطا خوفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقوبتنا وأخذنا إياهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي شكوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدقوه ، وهو تفاعل من المرية . ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف طلبا للفاحشة على ما تقدم . يقال : راودته على كذا مُرَاوَدَةً ورِوادا أي أردته . وراد الكلأ يروده رَوْدا ورِيادا ، وارتاده ارتيادا بمعنًى أي طلبه ؛ وفي الحديث : " إذا بال أحدكم فليرتد لبوله " أي يطلب مكانا لينا أو منحدرا . ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعَمُوا . وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب . وقيل : لا بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم . قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل ؛ فقالوا : لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم . ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فقلنا لهم ذوقوا والمراد من هذا الأمر الخبر ؛ أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط . ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي دائم عام استقر فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة . وذلك العذاب قلب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها . و « بُكْرَةً » هنا نكرة فلذلك صرفت . ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أهلكوا به فلذلك حسن التكرير . ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعنى القبط و « النُّذُر » موسى وهرون . وقد يطلق لفظ الجمع على الأثنين . ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ معجزاتنا الدالة على توحيدنا ونبوة أنبيائنا ؛ وهى العصا ، واليد ، والسنون ، والطمسة ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . وقيل : « النذر » الرسل فقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى . وقيل : « النُّذُر » الإنذار . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ أى غالب فى آنتقام ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ أى قادر على ما أراد .

قوله تعالى : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ﴾ خاطب العرب . وقيل أراد كفار أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : آستفهام وهو آستفهام إنكار ومعناه النفى ؛ أى ليس كفاركم خيرا من كفار من تقدّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ ﴾ أى فى الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة . وقال آبن عباس : أم لكم فى اللوح المحفوظ براءة من العذاب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أى جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم ولم يقل منتصرين آتباعا لرءوس الآى ؛ فرد الله عليهم فقال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ أى جمع كفار مكة ، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره . وقراءة العامة « سَيُهْزَمُ » بالياء على ما لم يسم فاعله « الْجَمْعُ » بالرفع . وقرأ رُوَيْس عن يعقوب « سَنَهْزِمُ » بالنون وكسر الزاى «الْجَمْعَ» نصبا . ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم . وقرأ عيسى وآبن إسحق ورويس عن يعقوب « وَتُوَلُّونَ » بالتاء على الخطاب . و « الدُّبُرَ » آسم جنس كالدرهم

والدينار فوحد والمراد الجمع لأجل رءوس الآى . وقال مقاتل : ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدّم من الصّف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه ، فأنزل الله تعالى : «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» . وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبي وقاص : لما نزل قوله تعالى : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» كنت لا أدرى أى الجمع ينهزم ، فلما كان يوم بَدْر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يَثِب فى الدِّرع ويقول : اللهم إن قريشا جاءتك تُحادُّك وتُحادُّ رسولك بفخرها و[خُيَلائها][1] فأخنهم الغداةَ ــ ثم قال ــ «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعرفت تأويلها . وهذا من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر . أخنى عليه الدهر أى أتى عليه وأهلكه ، ومنه قول النابغة :

* أَخْنَى عليه الذى أَخْنَى على لُبَدِ *

وأخنيت عليه أفسدت . قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين ؛ فالآية على هذا مكية . وفى البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإنى لجارية ألعب « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قُبَّة له يوم بدر : "أَنْشُدُكَ عهدَك ووعدَك اللهم إن شئت لم تُعبَد بعدَ اليوم أبدًا" فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ؛ وهو فى الدِّرْع فخرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » يريد القيامة . «وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» أى أدهى وأمرّ مما لحقهم يوم بدر . و « أَدْهَى » من الداهية وهى الأمر العظيم ؛ يقال : دهاه أمر كذا أى أصابه دهوا ودهيا . وقال ابن السكيت : دهته داهية دهواء ودهياء وهى توكيد لها .

---

(١) فى الأصول : « بخيلها » وهو تحريف والتصويب من سيرة ابن هشام .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ أى فى حَيْدةٍ عن الحق و « سعرٍ » أى آحتراق . وقيل : جنون على ما تقدّم فى هذه السورة . « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القَدَر فنزلت « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » خرجه الترمذى أيضا وقال حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شيء بقَدَر . قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال النبى صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ شيءٍ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس — أو — الكَيْس والعَجْز " وهذا إبطال لمذهب القَدَرية . « ذُوقُوا » أى يقال لهم ذوقوا ، ومسّها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها . و « سَقَر » آسم من أسماء جهنم لا ينصرف ؛ لأنه آسم مؤنث معرفة وكذا لظى وجهنم . وقال عطاء : « سَقَر » الطبق السادس من جهنم . وقال قُطْرب : « سَقَر » من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته لَوَّحَتْه . ويوم مُسْمَقِرٌ ومُصْمَقِرٌ شديدُ الحرّ .

الثانيـة — قوله تعالى : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ » قراءة العامة « كُلَّ » بالنصب . وقرأ أبو السَّمّال « كُلُّ » بالرفع على الابتداء . ومن نصب فبإضمار فعل وهو آختيار الكوفيين ، لأن إنّ تطلب الفعل فهى به أولى ، والنصب أدل على العموم فى المخلوقات لله تعالى؛ لأنك لو حذفت « خَلَقْنَاهُ » المفسِّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كل شيء بقدر. ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيرا لما يعمل فيما قبله .

الثالثة ـ الذى عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشياء ؛ أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده على نحو ما سبق فى علمه ، فلا يحدث حدث فى العالم العلوىّ والسفلىّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخالق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه سبحانه لا إله إلا هو ولا خالق غيره، كما نص عليه القرآن والسنة لا كما قالت القدَرِيّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذرّ رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا ؟ فقال : "أنتم خصماء الله يوم القيامة" .

الرابعة ـ روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم " . خرجه ابن ماجه فى سننه . وخرج أيضا عن ابن عباس وجابر قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنفان من أمتى ليس لهم فى الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقَدَر" . وأسند النحاس : وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفى قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضّبى قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القدَرِيّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم فى شفاعتى نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّى " وفى صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله : والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقَدَر . وهذا مثل قوله تعالى فى المنافقين : «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ » وهذا واضح . وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بالقَدَر يذهب الهمّ والحزن "

قوله تعالى : وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أى إلا مرة واحدة . ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أى قضائى فى خلق أسرع من لمح البصر . واللّمح النظر بالعَجَلة ؛ يقال : لمح البرق ببصره . وفى الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة ، ولَمَحَ البرقُ والنجمُ لَمْحًا أى لَمَع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم الخالية . وقيل أتباعكم وأعوانكم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أى من يتذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوبا عليهم . وهذا بيان قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . « فِي الزُّبُرِ » أى فى اللوح المحفوظ . وقيل : فى كتب الحفظة . وقيل فى أم الكتاب . ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ أى كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به، ومكتوب إذا فعله ؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْرا كَتَبَ وٱسْتَطَرَ مثله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضا . « وَنَهَرٍ » يعنى أنهار الماء والخمر والعسل واللّبن ؛ قاله ٱبن جريج . ووحد لأنه رأس الآية ، ثم الواحد قد ينبئ عن الجميع . وقيل : فى « نهر » فى ضياء وسعة ومنه النهار لضيائه ، ومنه أنهرت الجرح ؛ قال الشاعر[1] :

مَلَكْتُ بها كَفِّى فأنهرتُ فَتْقَها * يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها

(١) هو قيس بن الخطيم يصف طعنة . وملكت أى شددت وقويت .

وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرّف وقتادة « وَنُهُرٍ » بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم كسحاب وسُحُب ؛ قال الفراء أنشدنى بعض العرب :

إنْ تَكُ ليلًا فإنّى نَهِرُ * مَتَى أرى الصُّبحَ فلا أنتظِرُ

أى صاحب النهار . وقال آخر :

لَوْلا الثَّرِيدانِ هَلَكْنَا بالضُّمُرْ * ثَرِيدُ ليلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أى مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أى يقدر على مايشاء . و «عند» هاهنا عندية القربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة . قال الصادق : مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق . وقرأ عثمان البَتّى «فِى مَقَاعِدِ صِدْقٍ » بالجمع والمقاعد مواضع قعود الناس فى الأسواق وغيرها ؛ قال عبد الله بن بريدة : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى ، فيقرءون القرآن على ربهم تبارك وتعالى ، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذى هو مجلسه ، على منابر من الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضّة بقدر أعمالهم ، فلا تَقَرّ أعينهم بشىء قط كما تَقَرّ بذلك ، ولم يسمعوا شيئا أعظم ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون إلى منازلهم ، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد . وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون : يا أولياء الله انطلقوا ؛ فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا . فيقولون : فما بغيتكم ؟ فيقولون : مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد روى هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى ؛ ففى الخبر : إن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفّها الملائكة إلى الجنة والناس فى الحساب ، فيقولون للملائكة : إلى أين تحملوننا ؟ فيقولون إلى الجنة . فيقولون : إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا ؛ فيقولون : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر « فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ » . والله أعلم .

تم تفسير سورة « القمر » والحمد لله .

سورة الرحمن

مكيـة كلها فى قول الحسن وعُرْوة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال آبن عباس :
إلا آية منها هى قوله تعالى : « يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية . وقال آبن مسعود
ومقاتل : هى مدنيـة كلها . والقول الأوّل أصح لمـا روى عُرْوة بن الزبير قال : أوّل من
جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صـلى الله عليه وسـلم آبن مسعود ؛ وذلك أن الصحابة قالوا :
ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال آبن مسعود : أنا ؛
فقالوا : إنا نخشى عليك ، و إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال :
« بسم الله الرحمن الرحيم . الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش فى أنديتها ،
فتأملوا وقالوا : ما يقول آبن أُمّ عَبْد ؟ قالوا : هو يقول الذى يزعم محمـد أنه أنزل عليه ،
ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه . وصح أن النبي صلى الله عليه وسـلم قام يصلى الصبح بنخلة ،
فقرأ سـورة « الرحمن » ومرّ النفر من الجنّ فآمنوا به . وفى الترمذى عن جابر قال : خرج
رسـول الله صلى الله عليه وسـلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرحمن » من أولها إلى آخرها
فسكتوا ؛ فقال: " لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحسن مَرْدُودا منكم كنت كلمـا
أتيت على قوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد"
قال : هذا حديث غريب . وفى هذا دليل على أنهـا مكية والله أعلم . وروى أن قيس بن
عاصم المِنْقرى قال للنبي صلى الله عليه وسـلم : آتل علىّ ممـا أنزل عليك ، فقرأ عليه سـورة
« الرحمٰن » فقال : أعدها؛ فأعادها ثلاثا؛ فقال : والله إنّ له لطَلَاوة ، وإن عليه لحَلَاوة ،
وأسفله مغدِق ، وأعلاه مثمـر ، وما يقول هـذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك
رسول الله . وروى عن علىّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لكل
شيء عَروس وعَروس القرآن سورة الرحمٰن " .

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشّعْبى : « الرحمٰن » فاتحة ثلاث سور إذا جمعن كن آسما من أسماء الله تعالى « الر » و « حم » و « نٓ » فيكون مجموع هذه « الرحمٰن » . « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى علّمه نبيه صلى الله عليه وسلم حتى أدّاه إلى جميع الناس . وأنزلت حين قالوا : وما الرحمٰن ؟ وقيل : نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا : إنما يعلّمه بشر وهو رحمٰن اليمامة ؛ يعنون مسيلمة الكذّاب ، فأنزل الله تعالى « الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » . وقال الزجاج : معنى « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى سهله لأن يذكر ويقرأ كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » . وقيل : جعله علامة لما تعبد الناس به . ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ قال ابن عباس وقتادة والحسن يعنى آدم عليه السلام . ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أسماء كل شيء . وقيل : علمه اللغات كلها . وعن ابن عباس أيضا وابن كيسان : الإنسان ها هنا يراد به محمد صلى الله عليه وسلم ، والبيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال . وقيل : ما كان وما يكون ؛ لأنه بيّن عن الأولين والآخرين ويوم الدّين . وقال الضحاك : « البيان » الخير والشر . وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره ؛ وقاله قتادة . وقيل : « الإنسان » يراد به جميع الناس فهو اسم للجنس و « البيان » على هذا الكلامُ والفهمُ ، وهو مما فضّل به الإنسان على

سائر الحيوان . وقال السدى : علم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به . وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم . نظيره « عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أى يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر . قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : أى يجريان بحساب فى منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال ابن زيد وابن كيسان : يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يَحْسُب شيئا لو كان الدهر كلّه ليلا أو نهارا . وقال السدى : « بِحُسْبَانٍ » تقدير آجالها أى تجرى بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا ؛ نظيره « كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى » . وقال الضحاك : بقدر . مجاهد : « بِحُسْبَانٍ » كحسبان الرَّحَى يعنى قطبها يدوران فى مثل القطب . والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أَحْسُبُه بالضم حَسْبا وحُسْبانا مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجحان وحِسابة أيضا أى عددته . وقال الأخفش : ويكون جماعة الحساب مثل شِهاب وشُهبان . والحُسبان أيضا بالضم العذاب والسهام القصار ، وقد مضى فى « الكهف »[1] الواحدة حُسْبانة ، والحُسْبانة أيضا الوسادة الصغيرة ؛ تقول منه : حَسَّبْتُه إذا وسَّدْته ؛ قال[2] :

* ... لَثَوَيْتَ غيرَ مُحَسَّبِ *

أى غير موسَّد يعنى غير مكرَّم ولا مكفَّن ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : النجم ما لا ساق له والشجر ماله ساق ، وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التيمى :

لَقَد أَنْجَمَ القَاعُ الكَبِيرُ عِضَاهَهُ * وتَمَّ بِهِ حَيَّا تَمِيمٍ ووَائِلِ

وقال زهير بن أبى سُلْمى :

مُكَلَّلٌ بِأُصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُه * رِيحُ الجَنُوبِ لِضَاحِي مائِهِ حُبُكُ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو نهيك الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل ، والبيت بتمامه :

لتقيت بالوجعاء طعنة مرهف * مران أو لثويت غير محسب

الوجعاء الأست يقول : لو طعنتك لوليتنى دبرك واتقيت طعنتى بوجعائك ، ولثويت هالكا غير مكرم .

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ ينجُم بالضم نجوما ظهر وطلع ، وسجودهما بسجود ظلالهما لله الضحاك . وقال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معهـا حتى ينكسر الفيء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما قال تعالى : « يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ » . وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء وسجوده فى قول مجاهد دوران ظله وهو آختيار الطبرى ؛ حكاه المهدوى . وقيل : سجود النجم أفوله وسجود الشجر إمكان الآجتناء لثمارها ؛ حكاه المـاوردى . وقيل : إن جميع ذلك مسخر لله ؛ فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم ، وعبد كثير من العجم الشجر . والسجود الخضوع ، والمعنىّ به آثار الحدوث ؛ حكاه القشيرى . النحاس : أصل السجود فى اللغة الآستسلام والآنقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها آستسلامها لأمر الله عز وجل وآنقيادها له ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة ؛ وأنشد محمد بن يزيد فى النجم بمعنى النجوم قال[1] :

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فى مُسْتَحِيرة * سَرِيعٍ بأَيْدى الآكلينَ جُمُودُها

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ وقرأ أبو السَّمَّال « والسماءُ » بالرفع على الآبتداء وآختار ذلك لمـا عطف على الجمـلة التى هى « وَالنَّجْـمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » بجعـل المعطوف مركبا من مبتدإ وخبر كالمعطوف عليه . الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده . ﴿ وَوَضَعَ الْمِـيزَانَ ﴾ أى العدل ؛ عن مجاهد وقتادة والسدى ؛ أى وضع فى الأرض العدل الذى أمر به ؛ يقال : وضع الله الشريعة . ووضع فلان كذا أى ألقاه . وقيل : على هذا الميزان القرآن ؛ لأن فيـه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل . وقال الحسن وقتادة ـ أيضا ـ والضحاك : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » والقسط العـدل . وقيل : هو الحكم . وقيل : أراد وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال . وأصل ميزان موزان وقد مضى فى « الأعراف »[2] القول فيه . ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ ﴾ موضع « أَنْ » يجوز أن يكون نصبا

---

(١) قائله الراعى . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

على تقـدير حذف حرف الجـر كأنه قال : لئلا تطغوا ، كقوله تعـالى : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » . ويجـوز ألا يكون « لِأَنْ » موضـع من الإعراب فتكون بمعنى أى و « تطغوا » على هـذا التقدير مجزوما ؛ كقوله تعالى : « وَٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا » . والطغيان مجاوزة الحـد فمن قال الميزان العـدل قال طغيانه الجور . ومن قال : إنه الميزان الذى يوزن به قال طغيـانه البخس . قال ابن عبـاس : أى لا تخونوا من وزنـتم له . وعنـه أنه قال : يا معشر الموالى ! وليتم أمرين بهما هلك النـاس : المكيال والميزان . ومن قال إنه الحُكْم قال : طغيانه التحريف . وقيل : فيـه إضمار ؛ أى وضـع الميزان وأمركم ألا تطغوا فيـه . ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أى افعلوه مستقيما بالعـدل . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : أقيموا لسان الميزان بالقسط والعـدل . وقال ابن عيينة[1] : الإقامة باليد والقسط بالقلب . وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية . وقيل هو كقولك : أقام الصلاة أى أتى بهـا فى وقتها ، وأقام النـاس أسواقهم أى أتوها لوقتها . أى لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل . ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴾ أى لا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن ، وهـذا كقوله : « وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ » . وقال قتـادة فى هـذه الآية : اعدل يا بن آدم كما تحب أن يُعدَل لك ، وأوف كما تحب أن يُوفَّى لك ، فإن العدل صلاح الناس . وقيل : المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم . وكرر الميزان لحال رءوس الآى . وقيل : التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيـه . وقراءة العامة « تُخْسِرُوا » بضم التـاء وكسر السين . وقرأ بلال بن أبى بُرْدة وأَبَان بن عثمان « تَخْسَرُوا » بفتح التـاء والسين وهما لغتان ؛ يقال : أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته وقيل : « تَخْسَرُوا » بفتح التـاء والسين محمـول على تقـدير حذف حرف الجـر والمعنى ولا تخسروا فى الميزان . ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ الأنام النـاس ؛ عن ابن عباس . الحسن : الجن والإنس . الضحاك كل ما دب على وجه الأرض ؛ وهـذا عام . ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى كل

---

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى « أبو عبيدة » بدل ابن عيينة .

ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار . ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ الأكمام جمع كِمّ بالكسر .
قال الجوهرى : والكِمّة بالكسر والكِمامة وعاء الطلع وغِطاء النَّوْر والجمع كِمَام وأكِمّة وأكْمَام
والأكاميم أيضا . وكُمّ الفصيلُ إذا أُشفق عليه فسُتِر حتى يَقْوَى؛ قال العَجّاج :

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ الناسَ إذْ تُكُمُّوا * بغُمَّـةٍ لَـوْ لَمْ تُفَـرَّجْ غُمُّـوا

وتُكُمُّوا أى أغمى عليهم وغُطُّوا . وأَكَمَّتِ [النَّخلةُ] (١) وكَمَّمت أى أخرجت أكمامها . والكِمَام
بالكسر والكِمَامة أيضا ما يُكَمّ به فمُ البعير لئلا يعَضّ ؛ تقول منه بعير مَكْموم أى مَحْجوم .
وكَمّمت الشىء غطّيته . والكُمّ ما ستر شيئا وغطّاه ومنه كُمّ القميص بالضم والجمع أَكْمَام وكِمَمَة
مثل حُبّ وحِبَبة . والكُمّة القَلَنْسوة المدوّرة؛ لأنها تُغطّى الرأس . قال :

فقلتُ لهمْ كِيلُوا بكُمّةِ بعضِكُمْ * دَرَاهِمَكُمْ إنّى كذلكَ أَكْيَلُ

قال الحسن : « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » أى ذات الليف فإن النخلة قد تُكَمّم بالليف، وكِمَامها ليفها
الذى فى أعناقها . ٱبن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق . وقال عكرمة : ذات الأحمال .
﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ الحبّ الحنطة والشعير ونحوهما والعصف التِّبْن . عن الحسن
وغيره . مجاهد : ورق الشجر والزرع . ٱبن عباس : تِبْن الزرع وورقه الذى تَعصِفه
الرياح . سعيد بن جبير : بَقْل الزرع أى أوّل ما ينبت منه . وقاله الفرّاء . والعرب تقول :
خرجنا نَعصِف الزرعَ إذا قطعوا منـه قبل أن يُدرِك . وكذا فى الصحاح : وعَصَفتُ الزرعَ
أى جززته قبل أن يُدرِك . وعن ٱبن عباس أيضا : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع
رءوسه ويبس؛ نظيره : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » . الجوهرى : وقـد أَعصفَ الزرعُ
ومكانٌ مُعْصِف أى كثير الزرع . قال أبو قيس بن الأَسْلَت الأنصارىّ :

إذا جُمَـادَى مَنَعتْ قَطْـرَهَا * زَانَ جَنَابِى عَطَنٌ مُعْصِفُ

---

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى .

والعَصْف أيضا الكسب؛ ومنه قول الراجز[1] :

* بغيرِ ما عَصْفٍ ولا ٱصْطِرَافِ *

وكذلك الاعتصاف ، والعَصِيفة الورق المجتمع الذى يكون فيه السُّنْبل . وقال الهروىّ : والعصف والعَصِيفة ورق السُّنْبل . وحكى الثعلبى : وقال ٱبن السِّكِّيت تقول العرب لورق الزرع العصف والعَصِيفة والجِلّ بكسر الجيم . قال عَلْقَمة بن عَبَدة :

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالتْ عَصِيفَتُهَا * حَدُورُهَا من أَتِيِّ المَاءِ مَطْمُومُ

وفى الصحاح : والجِلُّ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد . والريحان الرزق؛ عن ٱبن عباس ومجاهد . الضحاك : هى لغة حِمْير . وعن ٱبن عباس أيضا والضحاك وقتادة : أنه الريحان الذى يشمّ . وقاله ٱبن زيد . وعن ٱبن عباس أيضا : أنه خضرة الزرع . وقال سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق . وقال الفراء : العصف المأكول من الزرع ، والريحان ما لا يؤكل . وقال الكلبى : إن العصف الورق الذى لا يؤكل، والريحان هو الحبّ المأكول . وقيل : الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت رَيْحانا ؛ لأن الإنسان يَراحُ لها رائحةً طيبة . أى يشمّ فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة ؛ وأصل الياء فى الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه وبين الرُّوحانىّ وهو كل شىء له رُوح . قال ٱبن الأعرابى : يقال شىء رُوحانى ورُيحانى أى له رُوح . ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان فأصله رَيْوَحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهَيِّن ولَيِّن ، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدتين الألف والنون ، والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة . وفى الصحاح : والرَّيْحان نبت معروف ، والرَّيْحان الرزق ؛ تقول : خرجت أبتغى رَيْحانَ الله ؛ قال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب :

سَلامُ الإلهِ ورَيْحانُهُ * ورَحْمَتُهُ وسَمَاءٌ دِرَرْ

---

(١) قائله العجاج . وصدر البيت :

* قد يكسب المال الهدان الجافى *

والهدان الأحمق .

وفى الحديث : " الولد من ريحان الله " . وقولهم : سبحانَ الله وريحانه نصبوهما على المصدر يريدون تنزيها له واسترزاقا . وأما قوله : « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » فالعصف ساق الزرع والريحان ورقه ؛ عن الفراء . وقراءة العامة « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » بالرفع فيهما كلها على العطف على الفاكهة . ونصبها كلها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفا على الأرض . وقيل : بإضمار فعل أى وخلق الحبّ ذا العصف والريحان ؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » . وجرّ حمزة والكسائى « الريحان » عطفا على العصف أى فيهما الحبّ ذو العصف والريحان ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان الرزق ، فيكون كأنه قال : والحبّ ذو الرزق . والرزق من حيث كان العصف رزقا ؛ لأن العصف رزق للبهائم والريحان رزق للناس ، ولا شبهة فيه فى قول من قال إنه الريحان المشموم .

قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خطاب للإنس والجنّ لأن الأنام واقع عليهما . وهذا قول الجمهور يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة ، وخرجه الترمذى وفيه " للجنّ أحسنُ منكم رَدًّا "[1] . وقيل : لما قال « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » دل ذلك على أن ما تقدّم وما تأخر لهما . وأيضا قال : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ وهو خطاب للإنس والجنّ وقد قال فى هذه السورة : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » . وقال الجرجانى : خاطب الجنّ مع الإنس وإن لم يتقدّم للجنّ ذكر ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » . وقد سبق ذكر الجنّ فيما سبق نزوله من القرآن ، والقرآن كالسورة الواحدة ؛ فإذا ثبت أنهم مكلفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات . وقيل : الخطاب للإنس على عادة العرب فى الخطاب للواحد بلفظ التثنية ؛ حسب ما تقدّم من القول فى « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ » . وكذلك قوله :

* قِفَا نَبْكِ ...[2] *

و * خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي ...[3] *

---

(١) رواية الترمذى المتقدمة تخالف هذه الرواية فى اللفظ وهذه رواية الحاكم .

(٢) البيت مطلع معلقة امرىء القيس وتمامه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٣) البيت مطلع قصيدة لامرئ القيس أيضا والبيت بتمامه :

خليلى مرا بى على أم جندب * نقضّ لبانات الفؤاد المعذب

فأما مابعد « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » فإنه خطاب للإنس والجن ، الصحيح قول الجمهور لقوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » والآلاء النعم وهو قول جميع المفسرين ، واحدها إِلًى وأَلًى مثل مِعًى وعَصًا ، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغات . حكاها النحاس قال : وفي واحد « آناء الليل » ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام ، وقد مضى في « الأعراف »[1] و « النجم » . وقال ابن زيد : إنها القدرة وتقدير الكلام فبأي قدرة ربكما تكذبان ؛ وقاله الكلبي واختاره الترمذي محمد بن علي ، وقال : هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن ، والعَلَم إمام الجند والجند تتبعه ، وإنما صارت عَلَما لأنها سورة صفة الملك والقدرة ؛ فقال : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم ذكر الإنسان فقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » ثم ذكر ما صنع به وما منّ عليه به ، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نجم وشجر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ، فخاطب هذين الثقلين الجن والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه ، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلا لهم : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي بأي قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكا يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم . ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجان من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي بأي قدرة ربكما تكذبان ؛ فإن له في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلق خلق . وقال القتبي : إن الله تعالى عدد في هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٣٧ طبعة أولى أو ثانية . وص ١٢١ من هذا الجزء .

كل خلة وصفها ونعمة وضعها بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها ؛ كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن صَرُورة فحججت بك أفتنكر هذا ؟! ألم تكن راجلا فحملتك أفتنكر هذا ؟! والتكرير حسن فى مثل هذا . قال :

* كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

وقال :

لا تَقْتُلِى مُسْلِماً إنْ كنتِ مُسْلِمَةً * إيَّاكِ مِنْ دَمِهِ إيَّاكِ إيَّاكِ

وقال آخر :

لا تقطعنَّ الصديقَ ما طَرَفتْ * عيناكَ من قول كاشحٍ أَشِرِ
ولا تَمَلَّنَّ من زيارته زُرْهُ * وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طردا للغفلة ، وتأكيدا للحجة .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض ، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » باتفاق من أهل التأويل يعنى آدم . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ الصلصال الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة ، شبهه بالفخّار الذى طبخ . وقيل : هو طين خلط برمل . وقيل : هو الطين المنتن من صَلَّ اللحمُ وأَصلَّ إذا أنتن ؛ وقد مضى فى « الحجر »[1] . وقال هنا : « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » وقال هناك : « مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » . وقال : « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١ طبعة أولى أو ثانية .

لازِبٍ» . وقال : «كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ» وذلك متفق المعنى؛ وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طينا ، ثم انتقل فصار كالحمإ المسنون ، ثم انتقل فصار صلصالا كالفخار . ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ قال الحسن : الجان إبليس وهو أبو الجنّ . وقيل : الجان واحد الجنّ والمارج اللهب ؛ عن ابن عباس ، وقال : خلق الله الجان من خالص النار . وعنه أيضا من لسانها الذى يكون فى طرفها إذا التهبت . وقال الليث : المارج الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد . وعن ابن عباس أنه اللهب الذى يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر؛ ونحوه عن مجاهد؛ وكله متقارب المعنى . وقيل : المارج كل أمر مرسل غير ممنوع ، ونحوه قول المبرد ؛ قال المبرد : المارج النار المرسلة التى لا تمنع . وقال أبو عبيدة والحسن : المارج خلط النار وأصله من مرج إذا اضطرب واختلط؛ ويروى أن الله تعالى خلق نارين فمرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى وهى نار السموم فخلق منها إبليس . قال القُشَيرى : والمارج فى اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول؛ كقوله : «ماء دافق» و «عيشة راضية» والمعنى ذو مرج ؛ قال الجوهرى فى الصحاح : و «مارج من نار» نار لا دخان لها خلق منها الجان . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أى هو ربّ المشرقين. وفى الصافات «وَرَبُّ الْمَشَارِقِ» (1) وقد مضى الكلام فى ذلك هنالك .

قوله تعالى : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

---

(1) راجع جـ ١٥ ص ٦٣ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ « مَرَجَ » أى خلّى وأرسل وأهمل ؛ يقال : مرج السلطانُ الناسَ إذا أهملهم . وأصل المَرْج الإهمال كما تُمْرَج الدابةُ فى المرعى . ويقال : مَرَجَ خَلَطَ . وقال الأخفش : ويقول قوم أَمْرَج البحرين مثل مَرَج ، فَعَل وأَفْعَل بمعنى . « الْبَحْرَيْنِ » قال ابن عباس : بحر السماء وبحر الأرض ؛ وقاله مجاهد وسعيد بن جبير . «يَلْتَقِيَانِ» فى كل عام . وقيل : يلتقى طرفاهما . وقال الحسن وقتادة : بحر فارس والروم . وقال ابن جريج : إنه البحر المالح والأنهار العذبة . وقيل : بحر المشرق والمغرب يلتقى طرفاهما . وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان . « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز فعلى القول الأول ما بين السماء والأرض ؛ قاله الضحاك . وعلى القول الثانى الأرض التى بينهما وهى الحجاز ؛ قاله الحسن وقتادة . وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلهية على ما تقدّم فى « الفرقان »[1] . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى كلم الناحية الغربية فقال : إنى جاعل فيك عبادا لى يُسبّحونى ويُكبّرونى ويهلّلونى ويُمجّدونى فكيف أنت لهم ؟ فقالت : أُغرقُهم يا ربّ . قال : إنى أحملهم على يدى ، وأجعل بأسك فى نواحيك . ثم كلّم الناحية الشرقية فقال : إنى جاعل فيك عبادا لى يُسبّحونى ويُكبّرونى ويُهلّلونى ويُمجّدونى فكيف أنت لهم ؟ قالت : أُسبّحكَ معهم إذا سبّحوكَ ، وأُكبّرك معهم إذا كبّروك ، وأُهلّلكَ معهم إذا هَلّلوكَ ، وأُمجّدك معهم إذا مجّدوك ؛ فأثابها الله الحِلْية وجعل بينهما بَرْزخا ، وتحوّل أحدهما مِلحا أُجاجا ، وبقى الآخر على حالته عذبا فُراتا ؛ ذكر هذا الخبر الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله قال : حدّثنا صالح بن محمد ، حدّثنا القاسم العمرىّ عن سهل عن أبيه عن أبى هريرة . «لَا يَبْغِيَانِ» قال قتادة : لا يبغيان على الناس فيغرقانهم ؛ جعل بينهما وبين الناس يَبَسا . وعنه أيضا ومجاهد : لا يبغى أحدهما على صاحبه فيغلبه . ابن زيد : المعنى « لَا يَبْغِيَانِ » أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : مرج البحرين يلتقيان لولا البرزخ الذى بينهما لا يبغيان أن يلتقيا . وقيل : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ؛ أى بينهما

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٥٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

مدّة قدرها الله وهى مدّة الدنيا فهما لا يبغيان ؛ فإذا أذن الله فى انقضاء الدنيا صار البحران شيئا واحدا؛ وهو كقوله تعالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » . وقال سهل بن عبدالله : البحران طريق الخير والشر، والبرزخ الذى بينهما التوفيق والعصمة .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ أى يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان ، كما يخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان . وقرأ نافع وأبو عمرو « يُخْرَجُ » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول . الباقون « يَخْرُجُ » بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل . وقال : « منهما » وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ؛ كقوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ » وإنما الرسل من الانس دون الجن ؛ قاله الكلبي وغيره . وقال الزجاج : قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما ؛ وهو كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً » والقمر فى سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما فى إحداهنّ فيهنّ . وقال أبو عليّ الفارسيّ : هذا من باب حذف المضاف ؛ أى من أحدهما ؛ كقوله : «عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» أى من إحدى القريتين. وقال الأخفش سعيد: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب . وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان . ابن عباس : هما بحرا السماء والأرض . فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما ؛ وقاله الطبرى . قال الثعلبيّ : ولقد ذكر لى أن نواة كانت فى جوف صدفة ، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعضَ ، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة . وقيل : إن العذب والملح قد يلتقيان ، فيكون العذب كاللقاح للملح ، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى . لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح . وقيل : المرجان عظام اللؤلؤ وكباره؛ قاله علي وابن عباس رضى الله عنهما . واللؤلؤ صغاره . وعنهما أيضا بالعكس : إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره ؛ وقاله الضحاك وقتادة . وقال ابن مسعود وأبو مالك : المرجان الخرز الأحمر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ يعنى السفن . ﴿ الْمُنْشَآتُ ﴾ قراءة العامة « الْمُنْشَآتُ » بفتح الشين ؛ قال قتادة : أى المخلوقات للجرى مأخوذ من الإنشاء . وقال مجاهد : هى السفن التى رُفع قِلْعها ؛ قال : وإذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشئات . وقال الأخفش : إنها المجرَيات . وفى الحديث : إن عليا رضى الله عنه رأى سفنا مُقْلَعة ، فقال : ورب هذه الجوارى المنشئات ما قتلت عثمان ولا مالأت فى قتله . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بآختلاف عنه « الْمُنْشِئَاتُ » بكسر الشين أى المنشئات السير ؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والآتساع . وقيل : الرافعات الشُّرُع أى القُلُع . ومن فتح الشين قال : المرفوعات الشُّرُع . ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى كالجبال والعَلَم الجبل الطويل ؛ قال[1] :

* إذا قَطعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَمْ *

فالسفن فى البحر كالجبال فى البر وقد مضى فى « الشورى »[2] بيانه . وقرأ يعقوب « الْجَوَارِى » بياء فى الوقف وحذف الباقون .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الضمير فى « عَلَيْهَا » للأرض ، وقد جرى ذكرها فى أول السورة فى قوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » وقد يقال : هو أكرم مَنْ عليها ،

---

(١) قائله جرير ؛ وتمام البيت :

* حتى تناهين بنا إلى الحكم *

وبعده : خليفة الحجاج غير المتهم * فى ضنضئ المجد وبؤبؤ الكرم

(٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » فأيقنت الملائكة بالهلاك؛ وقاله مقاتل . ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوي الأقدام . وقيل : وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب . ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ويبقى الله فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه ؛ قال الشاعر :

قَضَى على خلقه المنايا * فكلُّ شيءٍ سواه فاني

وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا؛ ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم . وقال ابن عباس : الوجه عبارة عنه كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقال أبو المعالي : وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى ، وهو الذي ارتضاه شيخنا . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » والموصوف بالبقاء عند تعرض الخلق للفناء وجود الباري تعالى . وقد مضى في « البقرة »[1] القول في هذا عند قوله تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى مستوفى . قال القشيري : قال قوم هو صفة زائدة على الذات لا تكيف ، يحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام . والصحيح أن يقال وجهه وجوده وذاته ، يقال : هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب . وقيل : أي يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه . وقيل : وتبقى الجهة التي يتقرب بها إلى الله . ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح ؛ يقال : جلَّ الشيءُ أي عَظُم وأجللته أي عظّمته ، والجلال اسم من جلّ . ﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك؛ كما تقول : أنا أكرمك عن هذا ؛ ومنه إكرام الأنبياء والأولياء . وقد أتينا على هذين الاسمين لغة ومعنى في الكتاب الأسنى مستوفى . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام " . وروي أنه من قول ابن مسعود ومعناه : الزموا ذلك في الدعاء . قال أبو عبيد :

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٣ فما بعدها طبعة ثانية .

الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه . ويقال الإلظاظ الإلحاح . وعن سعيد المقبرى أن رجلا أَلَحَّ فجعل يقول : اللهم ياذا الجلال والإكرام ! اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! فنودى : إنى قد سمعت فما حاجتك ؟

قوله تعالى : يَسْئَلُهُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قيل : المعنى يسأله من فى السموات الرحمة ، ومن فى الأرض الرزق . وقال ٱبن عباس وأبو صالح : أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونهما جميعا . وقال ٱبن جريج : وتسأله الملائكة الرزق لأهل الأرض فكانت المسئلتان جميعا من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض . وفى الحديث : "إن من الملائكة ملكا له أربعة أوجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزق لبنى آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النسر وهو يسأل الله الرزق للطير". وقال ٱبن عطاء: إنهم سألوه القوة على العبادة . ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا كلام مبتدأ . وٱنتصب « كُلَّ يَوْمٍ » ظرفا ، لقوله : « فِي شَأْنٍ » أو ظرفا للسؤال، ثم يبتدئ « هُوَ فِي شَأْنٍ » . وروى أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : "من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين". وعن ٱبن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قول الله عز وجل : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : "يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا" . وقيل : من شأنه أن يحيى ويميت، ويعز ويذل، ويرزق ويمنع . وقيل : أراد شأنه فى يومى الدنيا والآخرة . قال ٱبن بحر : الدهر كله يومان، أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة ، فشأنه سبحانه وتعالى فى أيام الدنيا الٱبتلاء والٱختبار بالأمر والنهى والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع ، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب ،

والثواب والعقاب . وقيـل : المراد بذلك الإخبار عن شـأنه فى كل يوم من أيام الدنيـا وهو الظاهر . والشأن فى اللغة الخطب العظيم والجمع الشئون والمراد بالشأن هاهنا الجمع كقوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » . وقال الكلبى : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت . وقال عمرو ابن ميمون فى قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » من شأنه أن يميت حيًّا، ويُقِرُّ فى الأرحام ماشاء، ويعزّ ذليلا، ويذلّ عزيزا . وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فلم يعرف معناها، واستمهله إلى الغد فانصرف كئيبا إلى منزله فقال له غلام له أسود : ماشأنك؟ فأخبره . فقال له : عد إلى الأمير فإنى أفسرها له، فدعاه فقال : أيها الأمير! شأنه أن يولج الليـل فى النهار ، ويولج النهار فى الليـل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخـرج الميت من الحى ، ويشفى سقيما ، ويسقم سليما ، ويبتلى معافى ، ويعافى مبتلًى ، ويعز ذليلا ، ويذل عزيزا، ويفقر غنيا، ويغنى فقيرا؛ فقال له : فرّجت عنى فرّج الله عنك، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام؛ فقال : يامولاى ! هـذا من شأن الله تعالى . وعن عبـد الله ابن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى؛ قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » وقد صح أن الندم توبة . وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألا يكون الندم توبة فى تلك الأمة ، ويكون توبة فى هذه الأمة؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله . وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبديها لا شئون يبتديها . وأما قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فمعناه ليس له إلا ماسعى عدلا ولى أن أجزيه بواحدة ألفًا فضلا ؛ فقام عبد الله وقبل رأسه وسوّغ خراجه .

قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ يقال : فَرَغت من الشغل أفرُغ فُروغا وفَرَاغا وتفرغت لكذا وآستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه ، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده : إذًا أتفرغ لك أى أقصدك . وفرغ بمعنى قصد ؛ وأنشد آبن الأنبارى فى مثل هذا لجرير :

آلانَ وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ * فهذا حِينَ كُنْتُ لها عَذابَا

يريد وقد قصدت . وقال أيضا(١) وأنشده النحاس :

* فَرَغْتُ إلى العَبْدِ المقيَّدِ فى الحِجْلِ *

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة ، صاح الشيطان : يا أهل الجُبَاجِب(٢) ! هذا مُذَمَّم يبايع بنى قَيْلَة على حربكم ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "هذا إِزْبُ(٣) العقبة أَمَا والله يا عدو الله لأتفرغنّ لك" أى أقصد إلى إبطال أمرك . وهذا آختيار القتبى والكسائى وغيرهما . وقيل : إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور، ثم قال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » مما وعدناكم ونوصل كُلًّا إلى ما وعدناه ، أى أقسم ذلك وأتفرغ منه . قاله الحسن ومقاتل وآبن زيد . وقرأ عبد الله وأبىّ « سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ » وقرأ الأعمش وإبراهيم

---

(١) أى جرير . (٢) الجباجب : منازل منى . (٣) الإزب : ضبطه الحلبى فى سيرته بكسر الهمزة وإسكان الزاى ، وهو هنا آسم شيطان .

« سَيُفْرَغُ لَكُمْ » بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله . وقرأ ٱبن شهاب والأعرج « سَنَفْرَغُ لَكُمْ » بفتح النون والراء ؛ قال الكسائى : هى لغة تميم يقولون فَرِغ يفرَغ ، وحكى أيضا فَرَغ يَفرَغ ورواهما هبيرة عن حفص عن عاصم . وروى الجُعْفى عن أبى عمرو «سَيَفْرَغُ» بفتح الياء والراء ، ورويت عن ٱبن هُرْمز . وروى عن عيسى الثقفى « سَنِفْرَغُ لَكُمْ » بكسر النون وفتح الراء وقرأ حمزة والكسائى « سَيَفْرُغُ لَكُمْ » بالياء . الباقون بالنون وهى لغة تهامة . والثَّقَلان الجنّ والإنس ؛ سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما فى الأرض من غيرهما بسبب التكليف . وقيل : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا ؛ قال الله تعالى : « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » ومنه قولهم : أعطه ثقله أى وزنه . وقال بعض أهل المعانى : كل شئ له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل . ومنه قيل لبيض النعام ثقل ؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به . وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب . وقال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » فجمع، ثم قال : « أَيُّهَ الثَّقَلَانِ » لأنهما فريقان وكل فريق جمع، وكذا قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ » ولم يقل إن ٱستطعتما ؛ لأنهما فريقان فى حال الجمع ، كقوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ » و « هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ » ولو قال : سنفرغ لكما ، وقال : إن ٱستطعتما لجاز[1] . وقرأ أهل الشام « أَيُّهُ الثَّقَلَانِ » بضم الهاء . الباقون بفتحها وقد تقدّم[2] .

مسئلة — هذه السورة و « الأحقاف » و « قل أوحى » دليل على أنّ الجنّ مخاطبون مكلّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء، مؤمنهم كمؤمنهم ، وكافرهم ككافرهم ، لا فرق بيننا وبينهم فى شىء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ ذكر ٱبن المبارك وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر الله السماء التى تليها

(١) أى فى غير القرآن . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٣٨ فما بعدها و جـ ١٦ ص ٩٧ فما بعدها .

كذلك فينزلون فيكونون صفًّا من خلف ذلك الصفّ ، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ، فينزل الملَك الأعلى فى بهائه وملكه ومجنّبته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قُطْرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » والسلطان العذر . الضحاك أيضا : بينما الناس فى أسواقهم ٱنفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجنّ والإنس ، فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » ذكره النحاس .

قلت : فعلى هذا يكون فى الدنيا ، وعلى ما ذكر ٱبن المبارك يكون فى الآخرة . وعن الضحاك أيضا : إن ٱستطعتم أن تهربوا من الموت فٱهربوا . وقال ٱبن عباس : إن ٱستطعتم أن تعلموا ما فى السموات وما فى الأرض فٱعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أى ببينة من الله تعالى . وعنه أيضا أن معنى « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » لا تخرجون من سلطانى وقدرتى عليكم . قتادة : لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل : لا تنفذون إلا إلى سلطان الباء بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي » أى إلىّ . قال الشاعر[(١)] :

أَسِيئِى بِنا أو أحسِنِى لا ملولَةٌ * لدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ

وقوله : « فَانْفُذُوا » أمر تعجيز .

قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أى لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار ، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ . وقيل : ليس هذا متعلقا بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذابا بالنار . وقيل : أى بآلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب . وقيل : يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » فتلك النار ، قوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ »

---

(١) هو كثير عزة

والشواظ فى قول ٱبن عباس وغيره اللهب الذى لا دخان له . والنحاس : الدخان الذى لا لهب فيه ؛ ومنه قول أمية بن أبى الصَّلْت يهجو حسان بن ثابت رضى الله عنه كذا وقع فى تفسير الثعلبيّ والماورديّ بن أبى الصَّلْت ، وفى « الصحاح » و « الوقف والابتداء » لابن الأنبارى أمية بن خلف قال :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسّانَ عَنِّى * مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إلى عُكَاظِ

أَلَيْس أبوكَ فينا كان قَيْنًا * لَدَى ٱلْقَيْنَاتِ فَسْلًا فى الحَفَاظِ

يَمانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيرًا * ويَنْفُخُ دائبًا لَهَبَ الشُّوَاظِ

فأجابه حسان رضى الله عنه فقال :

هَجَوْتكَ فَٱخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ * بِقافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ (١)

وقال رؤبة :

إنّ لهم من وَقْعِنا أَقْيَاظَا * ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا

وقال مجاهد : الشّواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار . الضحاك : هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب . وقاله سعيد بن جبير . وقد قيل : إن الشواظ النار والدخان جميعا . قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب . وقرأ ٱبن كثير «شِواظ» بكسر الشين الباقون بالضم وهما لغتان ؛ مثل صُوَار وصِوَار لقطيع البقر . ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قراءة العامة « وَنُحَاسٌ » بالرفع عطف على « شُوَاظ » . وقرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن ومجاهد وأبو عمرو « ونُحَاسٍ » بالخفض عطفا على النار . قال المهدوى : من قال إن الشّواظ النار والدخان جميعا فالجر فى « نحاس » على هذا بين ؛ فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذى لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

(١) وفى التاج بدل هذا البيت :

مجللة تعممه شنارا * مضرمة تأجج كالشواظ

والفسل من الرجال الرذل الذى لا مروءة له ولا جلد والمفسول مثله .

شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ » وشىء من نحاس فشىء معطوف على شواظ ، ومن نحاس جملة هى صفة لشىء ، وحذف شىء وحذفت مِن لتقدم ذكرها فى « مِن نار » كما حذفت على من قولهم : على من تنزل أنزل [أى][1] عليه . فيكون « نُحَاس » على هـذا مجرورا بمن المحذوفـة . وعن مجاهـد وحميد وعكرمة وأبى العـالية « ونِحاسٍ » بكسر النون لغتـان كالشِّواظ والشُّواظ . والنِّحاس بالكسر أيضا الطبيعة والأصل ؛ يقال : فلان كريم النِّحاس والنُّحاس أيضا بالضم أى كريم النِّجار . وعن مسلم بن جُنْدَب « ونَحْسٌ » بالرفع . وعن حنظلة بن مرّة بن النعمان الأنصارى « ونَحْسٍ » بالجـر عطف على نار . ويجـوز أن يكون « ونِحاسٍ » بالكسر جمع نَحْسٍ كصَعْب وصِعاب « ونَحْسٌ » بالرفع عطف على « شـواظ » وعن الحسن « ونُحُسٍ » بالضم [فيهما][2] جمع نَحْس . ويجوز أن يكون أصله ونُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدّم عند قوله : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »[3] . وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة « وَنَحُسٌّ » بفتح النون وضم الحاء وتشديد السين من حَسَّ يَحُسّ حَسًّا إذا آستأصل ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ » والمعنى ونقتل بالعذاب . وعلى القراءة الأولى «وَنُحَاسٌ» فهو الصُّفْر المذاب يُصَبّ على رءوسهم . قاله مجاهد وقتـادة وروى عن آبن عبـاس . وعن آبن عبـاس أيضا وسعيد آبن جبير أن النحاس الدخان الذى لا لهب فيـه ؛ وهو معنى قول الخليل ؛ وهو معروف فى كلام العرب بهذا المعنى ؛ قال نابغة بنى جَعْدة :

يُضىءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ * ـطِ لم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَـاسَا

قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول السَّليط دهن السِّمسم بالشام ولا دخان فيه . وقال مقاتل : هى خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب ، تجرى من تحت العرش على رءوس أهل النار ؛ ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار . وقال آبن مسعود : النُّحَاس المهـل . وقال الضحاك : هو دُرْدِىّ الزّيت المغلىّ . وقال الكسائى : هو النار التى لهـا ريح شديدة . ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ أى لا ينصر بعضكم بعضا يعنى الجن والإنس .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) الذى فى الأصول : « بالضم فيهن » وما أثبتناه هو ما عليه كتب التفسير أى بضمتين وكسر السين .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أى انصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ الدِّهان الدهن؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما. والمعنى أنها صارت فى صفاء الدهن، والدهان على هذا جمع دُهْن. وقال سعيد بن جبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء. وقيل : المعنى تصير فى حمرة الورد وجريان الدهن؛ أى تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم وتصير مثل الدُّهْن لرقتها وذوبانها. وقيل : الدّهان الجلد الأحمر الصّرف. ذكره أبو عبيد والفراء. أى تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حر النار. ابن عباس : المعنى فكانت كالفرس الوَرْد، يقال للكُمَيت وَرْدٌ إذا كان يتلون بألوان مختلفة. قال ابن عباس : الفرس الوَرْدُ فى الربيع كُمَيت أصفر، وفى أول الشتاء كُمَيت أحمر، فإذا اشتد الشتاء كان كُمَيتا أغبر. وقال الفراء : أراد الفرس الوَرْدِيّة، تكون فى الربيع وَرْدة إلى الصُّفْرة، فإذا اشتد البرد كانت وَرْدة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدة إلى الغبرة؛ فشبه تلون السماء بتلون الوَرْد من الخيل. وقال الحسن : «كَٱلدِّهَانِ» أى كصبّ الدُّهن فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا. وقال زيد ابن أسلم : المعنى أنها تصير كعَكَر الزيت، وقيل : المعنى أنها تمر وتجىء. قال الزجاج : أصل الواو والراء والدال للجىء والإتيان. وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوَرْدة تتغير ألوانها وقال قتادة : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر. حكاه الثعلبى. وقال الماوردى: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحُمْرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن؛ وهى حمراء كحمرة الدم وترى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحا فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز ترى حمراء، لأنه أصل لونها. والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ هذا مثل قوله : « وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم فيسأل فى بعض ولا يسأل فى بعض ، وهذا قول عكرمة . وقيل : المعنى لا يسئلون إذا آستقروا فى النار . وقال الحسن وقتادة : لا يسئلون عن ذنوبهم؛ لأن الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة . رواه العوفى عن آبن عباس . وعن الحسن ومجاهد أيضا : المعنى لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم؛ دليله مابعده . وقاله مجاهد عن آبن عباس . وعنه أيضا فى قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » وقوله : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ » وقال : لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ . وقال أبو العالية : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم . وقال قتادة : كانت المسئلة قبل ، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم . وفى حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وفيه قال : " فيَلْقَى العبدَ فيقول أى فُلْ[(1)] ألم أُكْرِمْك وأُسوِّدْك وأُزوِّجْك وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبلَ وأَذَرْك تَرْأَس وتَرْبَع فيقول بلى فيقول أفظننت أنك مُلَاقِيَّ فيقول لا فيقول إنى أنساك كما نسيتنى ثم يلقى الثانى فيقول له مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدّقت ويثنى بخير ما آستطاع فيقول هاهنا إذًا ثُمَّ يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك فيفتكر فى نفسه من هذا الذى يشهد علىّ فيُخْتَم على فِيهِ ويقال لفخذه ولحمه وعظامه آنطقى فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه " وقد مضى هذا الحديث فى « حم السجدة » وغيرها[(2)] .

---

(١) أى فل : معناه يا فلان وليس ترخيما له ، وإنما هى صيغة آرتجلت فى النداء، ولا تقال إلا بسكون اللام . وقال قوم إنه ترخيم فلان .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٤٨ فما بعدها وص ٣٥٠ منه أيضا طبعة أولى وثانيه .

قوله تعالى : يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ قال الحسن : سواد الوجه وزرقة الأعين ؛ قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » . ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أى تأخذ الملائكة بنواصيهم أى بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم فى النار . والنواصى جمع ناصية . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره . وعنه : يؤخذ برجلى الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى فى النار . وقيل : يفعل ذلك به ليكون أشد لعذابه وأكثر لتشويهه . وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ؛ تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه ، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه .

قوله تعالى : ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى يقال لهم هذه النار التى أخبرتم بها فكذبتم . ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ قال قتادة : يطوفون مرة بين الحميم ومرة بين الجحيم ، والجحيم النار والحميم الشراب . وفى قوله : « آنٍ » ثلاثة أوجه ، أحدها أنه الذى انتهى حره وحميمه . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى ؛ ومنه قول النابغة الذبيانى .

وتُخْضَبُ لِحْيَةٌ غَدَرتْ وخَانَتْ * بِأَحمرَ مِن نَجِيعِ الجوفِ آنِ (١)

قال قتادة : « آنٍ » طبخ منذ خلق الله السموات والأرض ؛ يقول : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك . وقال كعب : « آنٍ » واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل

---

(١) نجيع الجوف : يعنى الدم الخالص . وقبل البيت :

فإن يقدر عليك أبو قبيس * تمط بك المعيشة فى هوان

النار فيغمسون بأغلالهم فيــه حتى تنخلع أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقا جديدا فيلقون فى النار، فذلك قوله تعالى : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . وعن كعب: أيضا أنه الحاضر . وقال مجاهد : إنه الذى قــد آن شربه وبلغ غايته . والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما فى ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب فى الطاعات . وروى عن النبي صــلى الله عليه وســلم أنه أتى على شاب فى الليل يقرأ « فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول : وَيْحِى من يوم تنشقّ فيه السماء وَيْحِى ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "وَيْحَكَ يافتى مثلها فــو الذى نفسى بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك" .

قوله تعــالى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَــامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — لمــا ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدّ للأبرار . والمعنى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب فترك المعصية . فـ«ـمقام» مصدر بمعنى القيام . وقيل : خاف قيام ربه عليه أى إشرافه واطلاعه عليه؛ بيانه قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَــا كَسَبَتْ » . وقال مجاهد وإبراهيم النخعى : هو الرجل يَهُمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

الثانيــــة — هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه : إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان هَمّ بالمعصــية وتركها خــوفا من الله وحيــاء منه . وقال به ســفيان الثورىّ وأفتى به . وقال محمــد بن علىّ الترمذىّ : جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته . وقال ابن عباس : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض . وقيل : المقام الموضع . أى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب كما تقــدّم . ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله ، وهــو كالأجل فى قــوله : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ » وقــوله فى موضــع آخر :

« إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ » . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أى لمن خاف جنتان على حدة ، فلكل خائف جنتان . وقيل : جنتان لجميع الخائفين ؛ والأول أظهر . وروى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الجنتان بستانان فى عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام فى وسط كل بستان دار من نور وليس منها شيء إلا يهتز نعمة وخضرة قرارها ثابت وشجرها ثابت" ذكره المهدوى والثعلبي أيضا من حديث أبى هريرة . وقيل : إن الجنتين جنته التى خلقت له وجنة ورثها . وقيل : إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا . وقيل : إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه . وقيل : إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها . وقال مقاتل : هما جنة عدن وجنة النعيم . وقال الفراء : إنما هى جنة واحدة فثنى لرءوس الآى . وأنكر القتبى هذا وقال : لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنما قال تسعة عشر لمراعاة رءوس الآى . وأيضا قال : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » . وقال أبو جعفر النحاس: قال الفراء قد تكون جنة فتثنى فى الشعر ؛ وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل ، يقول الله عز وجل : « جَنَّتَانِ » ويصفهما بقوله « فِيهِمَا » فيدع الظاهر ويقول : يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشعر . وقيل : إنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة . وقيل : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه خاصة حين ذكر ذات يوم الجنة حين أُزْلِفَت والنار حين بُرِّزَت . قاله عطاء وابن شَوْذَب ؛ وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبنا على ظمإ فأعجبه ، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حل فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ؛ فقال : "رحمك الله لقد أنزلت فيك آية" وتلا عليه هذه الآية .

قوله تعالى : ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أى ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فنّ . وقال مجاهد : الأفنان الأغصان واحدها فنن؛ قال النابغة :

بكاءَ حَمامةٍ تَدْعو هَديلًا * مُفَجَّعةٍ على فَنَنٍ تُغَنِّى [(1)]

وقال آخر يصف طائرين :

باتا على غُصْنِ بَانٍ فى ذُرَى فَنَنٍ * يُرَدِّدانِ لُحونًا ذاتَ ألْوانِ

أراد باللحون اللغات . وقال آخر :

ما هاجَ شَوْقَكَ مِن هَديلِ حمامةٍ * تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَمامَا

تدعو أبا فَرْخَيْن صادفَ ضارِيًا * ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّقورِ قَطَامَا

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين؛ وقال يصف رَحًى :

* لها زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ *

وشجرة فَنَّاء أى ذات أفنان وفنواء أيضا على غير قياس . وفى الحديث : "إن أهل الجنة مُرْدٌ مُكَحَّلون أولو أفانين" يريد أولو فَنَن وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فنن [وهو الخُصْلة [(2)]] من الشَّعر شبه بالغصن . ذكره الهروى . وقيل : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى ذواتا سعة وفضل على ما سواهما ؛ قاله قتادة . وعن مجاهد أيضا وعكرمة : إن الأفنان ظل الأغصان على الحيطان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال ابن عباس: تجريان ماء بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة . وعن ابن عباس أيضا والحسن : تجريان بالماء الزلال؛ إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل . وعنه أيضا :

---

(١) قبل هذا البيت :

أساءلها وقد سفحت دموعى * كأن مفيضهن غروب شن

(٢) الزيادة من النهاية لابن الأثير .

عينان مثل الدنيا أضعافا مضاعفة ، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وترابهما الكافور، وحمأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين . وقيل : تجريان من جبل من مسك . وقال أبو بكر الوراق : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل .

قوله تعالى : فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أى صنفان وكلاهما حلو يستلذ به . قال ابن عباس : ما فى الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وقيل : ضربان رطب ويابس لا يقصر هـذا عن ذلك فى الفضل والطِّيب . وقيل : أراد تفضـيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما ، فإنه ذكر ها هنـا عينين جاريتين وذكر ثَمَّ عينين تنضخان بالمـاء والنضخ دون الجرى؛ فكأنه قال : فى تينك الجنتين من كل فاكهة نوع، وفى هذه الجنة من كل فاكهة نوعان .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ ﴾ هو نصب على الحـال والفرش جمع فراش . وقرأ أبو حَيْوة «فُرْشٍ» بإسكان الراء . ﴿ بَطَآئِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهى التى تحت الظهارة . والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن؛ أى إذا كانت البطانة التى تلى الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة . قاله ابن مسعود وأبو هريرة . وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من إستبرق فمـا الظواهر ؟ قال هذا مما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقال ابن عباس : إنمـا وصف لكم بطائنها لتهتدى إليه قلوبكم ، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله . وفى الخـبر عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " ظواهرها نور يتلألأ " . وعن الحسن : بطائنها من إسـتبرق وظواهرها من نور جامد . وعن الحسن أيضـا : البطائن هى الظواهر .

وهو قول الفراء، وروى عن قتادة . والعرب تقول للظهر بطنا، فيقولون : هذا ظهر السماء وهـذا بطن السماء لظاهرها الذى تراه . وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا ، وقالوا : لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين إذا ولى كلُّ واحد منهما قوماً ، كالحائط بينك وبين قوم ؛ وعلى ذلك أمر السماء . ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ الجَنَى ما يُجتَنَى من الشجر؛ يقال : أتانا بجَنَـاة طيبة لكل ما يجتنى . وثمر جنِيّ على فَعِيل حين جُنِى ؛ وقال :(1)

هـذا جَنَـاىَ وخِيَـاره فِيـهْ * إذْ كُلّ جانٍ يَـدُهُ إلى فِيـهْ

وقرئ « جِنَى » بكسر الجيم . « دانٍ » قريب . قال ابن عباس : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولىُّ الله إن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا لا يرد يدَه بُعْدٌ ولا شوك .

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْف » قيل : فى الجنتين المذكورتين . قال الزجاج : وإنمـا قال : « فِيهِنَّ » ولم يقل فيهما ؛ لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما من النعيم . وقيل : « فِيهِنَّ » يعود على الفرش التى بطائنها من إستبرق؛ أى فى هذه الفرش «قَاصِرَاتُ الطَّرْف» أى نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم. وقـد مضى فى « والصافات(2) » ووحد الطـرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه فى معنى المصدر؛ من طَرَفت عينـه تطرِف طَرْفا ، ثم سميت العين بذلك فأدّى عن الواحد والجمع ؛ كقولهم : قوم عَدْل وصَوْم .

---

(1) هو عمرو بن عدى اللخمى ابن أخت جذيمة الأبرش ؛ وهو مثل يضرب للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده .

(2) راجع جـ ١٥ ص ٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيــــة — قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » اى لم يصبهنّ بالجماع قبل أزواجهنّ هؤلاء أحد . الفراء : والطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية طَمَثها يَطمِثها و يَطمُثها طَمْثا إذا افتضها . ومنه قيل : امرأة طامِث أى حائض . وغير الفراء يخالفه فى هذا و يقول : طَمَثها بمعنى وطئها على أى الوجوه كان . إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر . وقرأ الكسائى « لَمْ يَطْمُثْهُنَّ » بضم الميم يقال : طَمَثت المرأةُ تَطمُث بالضم حاضت وطَمِثت بالكسر لغة فهى طامث؛ وقال الفرزدق :

وَقَعْنَ إلىَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِي * وهنّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ

وقيل : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » لم يمسسهن ؛ قال أبو عمرو : والطمث المسّ وذلك فى كل شىء يمسّ . و يقال للرتع : ما طمث ذلك المرتع قبلنا أحدٌ ، وما طمث هذه الناقة حَبْل أى ما مسها عقال . وقال المبرِّد : أى لم يذللهن إنس قبلهم ولا جان والطمث التذليل . وقرأ الحسن « جَأن » بالهمز .

الثالثــــة — فى هذه الآية دليل على أن الجنّ تغشى كالإنس، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنيات . قال ضمرة : للؤمنين منهم أزواج من الحور العين فالإنسيات للإنس والجنيات للجنّ . وقيل : أى لم يطمث ما وهب الله للؤمنين من الجنّ فى الجنة من الحور العين من الجنّيات جنّ ، ولم يطمث ما وهب الله للؤمنين من الإنس فى الجنّة من الحور العين من الإنسيات إنس ؛ وذلك لأن الجنّ لا تطأ بنات آدم فى الدنيا . ذكره القشيرى .

قلت : قد مضى فى « النمل »(1) القول فى هذا وفى « سبحان »(2) أيضا ، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم . وقد قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونزهن ، والطمث الجماع . ذكره بكماله الترمذى الحكيم، وذكره المهدوى أيضا والثعلبى وغيرهما والله أعلم .

(1) راجع جـ ١٣ ص ٢١١ (2) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٩

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلّة حتى يرى مخها " وذلك بأن الله تعالى يقول : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم آستصفيته لأُريته [من ورائه] (١) و يروى موقوفا . وقال عمرو بن ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلّة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك ، كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء . وقال الحسن : هنّ فى صفاء الياقوت و بياض المرجان .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ «هَلْ» فى الكلام على أربعة أوجه ؛ تكون بمعنى قد كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » و بمعنى الآستفهام كقوله تعالى : « فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » و بمعنى الأمر كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » و بمعنى ما فى الجحد كقوله تعالى : « فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ » و « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » قال عكرمة : أى هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة . آبن عباس : ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة . وقيل : هل جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن إليه فى الآخرة ؛ قاله آبن زيد . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » ثم قال " هل تدرون ماذا قال ربكم " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " . و روى آبن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

هذه الآية فقال : " يقول الله هـل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدى إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قُدسى برحمتى" وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه فى الأزل إلا حفظ الإحسان عليـه فى الأبد . وقال محمـد بن الحنفيـة والحسن : هى مُسْجَلة للبر والفاجر ؛ أى مرسلة على الفاجر فى الدنيا والبر فى الآخرة .

قوله تعـالى : وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أى وله من دون الجنتين الأولين جنتان أخريان . قال ابن عباس : ومن دونهما فى الدَّرَج . ابن زيد : ومن دونهما فى الفضل . ابن عباس : والجنات لمن خاف مقام ربه ، فيكون فى الأولين النخل والشجر ، وفى الأخريين الزرع والنبات وما انبسط . المـاوردى : ويحتمل أن يكون « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته ، إحداهما للحور العين ، والأخرى للولدان المخلّدين ؛ ليتميز بهما الذكور عن الإناث . وقال ابن جريج : هى أربع : جنتان منها للسابقين المقربين « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » و « عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » وجنتان لأصحـاب اليمين « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْـلٌ وَرُمَّانٌ » و « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » . وقال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقربين والأخريين من ورِق لأصحاب اليمين . قلت : إلى هـذا ذهب الحَلِيمى أبو عبد الله الحسن بن الحسين فى كتاب منهاج الدين له ، واحتج بما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » إلى قـوله « مُدْهَامَّتَانِ » قال : تانك للمقرّبين وهاتان لأصحاب اليمـين . وعن أبى موسى الأشـعرى نحوه . ولمـا وصف الله الجنتـين أشار إلى الفرق بينهما فقـال فى الأوليين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » وفى الأخريين « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أى فوارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضخ دون الجرى . وقال فى الأوليين : « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » فعم ولم يخص وفى الأخريين « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » ولم يقل من كل فاكهة ، وقال

فى الأولين : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو الديباج وفى الأخريين « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ » والعبقرىّ الوشى ولاشك أن الديباج أعلى من الوشى ، والرفرف كِسَر الخباء ولا شك أن الفرش المعدّة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء . وقال فى الأولين فى صفة الحور : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » وفى الأخريين « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » وليس كل حسنٍ كحسن الياقوت والمرجان . وقال فى الأولين : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » وفى الأخريين « مُدْهَامَّتَانِ » أى خضراوان كأنهما من شدّة خضرتهما سوداوان ، ووصف الأولين بكثرة الأغصان ، والأخريين بالخضرة وحدها ، وفى هذا كله تحقيق للمعنى الذى قصدنا بقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » ولعل مالم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر . فإن قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأولين ؟ قيل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب ، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة فى الخوف من الله تعالى ، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله فى الخوف من الله تعالى . ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليين من ذهب وفضة ، والأخريين من ياقوت وزمرّد وهما أفضل من الأولين ، وقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى ومن أمامهما ومن قبلهما . وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول فقال : ومعنى « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى دون هذا إلى العرش ، أى أقرب وأدنى إلى العرش ، وأخذ يفضلهما على الأولين بما سنذكره عنه . وقال مقاتل : الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى .

قوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أى خضراوان من الرّىّ ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : مسودتان . والدُّهْمة فى اللغة السواد ؛ يقال : فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أى اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذى فيه ، فإن زاد على ذلك حتى اشتد السواد فهو جَوْن . وادْهَمّ الفرسُ ادهمامًا أى صار أدهم وادهامّ الشىءُ ادهيمامًا أى اسوادّ ؛ قال الله

تعالى : « مُدْهَامَّتَانِ » أى سوداوان من شدة الخضرة من الرِّىّ ، والعرب تقول لكل أخضر أسود وقال لَبيد يرثى قتلى هَوَازِن :

وجاءوا بِـه فى هَـوْدَجٍ وَوَرَاءَهُ[1] * كَتَائِبُ خُضْرٌ فى نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

السَّنَوَّر لَبُـوس من قِدٍّ كالدِّرْع . وسميت قُرَى العراق سوادا لكثرة خضرتها . ويقال لليل المظلم أخضر . ويقال : أباد الله خضراءهم أى سوادهم .

قوله تعالى : فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أى فوارتان بالماء؛ عن ابن عباس . والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء . وعنه أن المعنى نَضَّاختان بالخير والبركة؛ وقاله الحسن ومجاهد . ابن مسعود وابن عباس أيضا وأنس : تَنْضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما يَنْضَخ رش المطر . وقال سعيد بن جبير : بأنواع الفواكه والماء . الترمذى : قالوا بأنواع الفواكه والنعم والجوارِ المزيّنات والدواب المسرجات والثياب الملوّنات . قال الترمذىّ : وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجرى . وقيل : تنبعان ثم تجريان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قال بعض العلماء : ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره . وهذا ظاهر الكلام . وقال الجمهور : هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة ؛ كقوله تعالى :

---

(١) وجاءوا به : يعنى قتادة بن مسلمة الحنفى .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقوله : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » وقد تقدّم (١) . وقيل : إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم فى ذلك الوقت بمنزلة البُرّ عندنا ؛ لأن النخل عامة قوتهم ، والرمان كالثمرات (٢) ، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما ، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التى يعجبون بها ؛ فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن ؛ فأخرجهما فى الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها . وقيل : أُفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه ؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله ، وهى المسئلة :

الثانيــة ــ إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رُطَبا لم يحنث . وخالفه صاحباه والناس . قال ٱبن عباس : الرمانة فى الجنة مثـل البعير المُقَتَّب . وذكر ٱبن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : نخـل الجنة جذوعها زمرد أخضر ، وكرانيفها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مُقَطَّعاتهم وحُلَلهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم . قال : وحدّثنا المسعودىّ عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة ، قال : نخـل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرها أمثال القِـلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وإنّ ماءها ليجرى فى غير أخدود ، والعنقود ٱثنا عشر ذراعا .

قوله تعـالى : فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١)

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » يعنى النساء الواحدة خَيْرة على معنى ذوات خير . وقيل : « خَيْرَات » بمعنى خَيِّرات نخفّف كهين ولين . ٱبن المبارك : حدثنا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦ طبعة ثانية وجـ ٣ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : والرمان كالشراب الخ .

الأوزاعيّ عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال : لو أن خَيْرة من « خيرات حسان » آطلعت من السماء لأضاءت لهـا ، ولقهر ضـوء وجهها الشمس والقمر ، ولَنصِيفٌ[1] تُكْساه خَيْرة خير من الدنيا وما فيها . « حِسَانٌ » أى حسان الخلق ، وإذا قال الله تعالى : « حِسَانٌ » فمن ذا الذى يقـدر أن يصف حسنهن ! وقال الزهريّ وقتـادة : « خَـيْرَاتٌ » الأخلاق « حِسَانٌ » الوجوه . وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أمّ سلمة . وقال أبو صالح : لأنهنّ عَذَارى أبكار .

وقرأ قَتَـادة وآبن السَّمَيْقع وأبو رجاء العطارديّ وبكر بن حبيب السَّهْميّ « خَيِّرَاتٌ » بالتشديد على الأصـل . وقد قيل : إنّ خَيْرات جمـع خَيْر والمعنى ذوات خَيْر . وقيـل : مختارات . قال الترمذيّ : فالخيرات ما آختارهنّ الله فأبدع خلقهنّ بآختياره ، فآختيار الله لا يشـبه آختيار الآدميين . ثم قال : « حِسَـانٌ » فوصفهنّ بالحسن فإذا وصـف خالق الحسن شـيئا بالحسن فآنظر ما هنـاك . وفى الأوليـين ذكر بأنهن « قَاصِرَاتُ الطَّرْف » و « كَأَنَّهُنَّ الْيَـاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فآنظركم بين الخيرة وهى مختـارة الله ، وبين قاصرات الطرف . وفى الحديث : "إن الحور يأخذ بعضهنّ بأيدى بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدًا ونحن المقيمات فلا نَظعن أبدًا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبدًا ونحن خَيْرَات حسان حبيبات لأزواج كرام" . خرجه الترمذى بمعناه من حديث عليّ رضى الله عنه . وقالت عائشة رضى الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هـذه المقالة أجابهنّ المؤمنات من نسـاء أهل الدنيـا : نحن المصلِّيات وما صَلَّيْتنّ ، ونحن الصـائمات وما صُمْتنّ ، ونحن المتوضئات وما توضأتنّ ، ونحن المتصدِّقات وما تصدّقتنّ . فقالت عائشة رضى الله عنها : فغلبنهنّ والله .

الثانيـــة ــ وآختلف أيهما أكثر حسنا وأبهر جمالا الحور أو الآدميات ؟ فقيل : الحور لمـا ذكر من وصفهنّ فى القـرآن والسنّة ؛ ولقوله عليـه الصلاة والسلام فى دعائه على الميت

---

(١) هو الخمار وقيل المعجر . النهاية .

فى الجنازة : "وأبدله زوجا خيرا من زوجه" وقيل : الادميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف . وروى مرفوعا . وذكر ابن المبارك : وأخبرنا رشدين عن ابن أنعم(١) عن حبان ابن أبى جبلة ، قال : إن نساء الدنيا من دخل منهن الجنة فضلن على الحور العين بما عملن فى الدنيا . وقد قيل : إن الحور العين المذكورات فى القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يخلقن فى الآخرة على أحسن صورة ؛ قاله الحسن البصرى . والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا وإنما هن مخلوقات فى الجنة؛ لأن الله تعالى قال : «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات ؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن أقل ساكنى الجنة النساء" فلا يصيب كل واحد منهم امرأة ، ووعدا لحور العين لجماعتهم ، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا .

قوله تعالى : حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ «حُورٌ» جمع حوراء وهى الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدم(٢). «مَقْصُورَاتٌ» محبوسات مستورات «فِي الْخِيَامِ» فى الحجال لسن بالطوافات فى الطرق؛ قاله ابن عباس . وقال عمر رضى الله عنه : الخيمة درة مجوفة . وقاله ابن عباس . وقال : هى فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى قوله تعالى : «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ» بلغنا فى الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قطرات الرحمة ، ثم ضرب على كل واحدة منهن خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب ، حتى إذا دخل ولى الله الجنة

(١) هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (بفتح أوله وسكون النون وضم المهملة) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

آنصدعت الخيمة عن باب ليعلم وليّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها ، فهى مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين . والله أعلم . وقال فى الأولين : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » قصرن طرفهنّ على الأزواج ولم يذكر أنهنّ مقصورات ، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل . وقال مجاهد : « مَقْصُورَاتٌ » قد قُصرن على أزاجهنّ فلا يُردن بدلا منهم . وفى الصحاح : وقصرت الشيء أقصره قصرا حبسته ، ومنه مقصورة الجامع ، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره ، وآمرأة قَصيرة وقَصُورة أى مقصورة فى البيت لا تترك أن تخرج ؛ قال كُثيِّر :

وأنتِ التى حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرَةٍ * إلىَّ وما تَدْرِى بذاكَ القَصَائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ ولم أُرِدْ * قِصارَ الخُطَا شَرُّ النِّساءِ البَحاتِرُ (١)

وأنشده الفراء قَصُورة؛ ذكره آبن السكيت . وروى أنس قال قال النبى صلى الله عليه وسلم: "مررت ليلة أُسرى بى فى الجنة بنهر حافتاه قِبَاب المرجان فنوديت منه السلام عليك يارسول الله فقلت ياجبريل من هؤلاء قال هؤلاء جوارٍ من الحور العين آستأذنّ ربهنّ فى أن يُسلِّمن عليك فأذن لهنّ فقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبدًا ونحن الراضيات فلا نسخَط أبدا أزواج رجال كرام" ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ » أى محبوسات حبس صيانة وتكرمة . وروى عن أسماء بنت يزيد (٢) الأشهلية أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ! إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم ، فهل نشاركم فى الأجر ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "نعم إذا أحسنتن تَبَعُّلَ (٣) أزواجكنّ وطلبتن مرضاتهم" .

قوله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أى لم يمسسهن على ما تقدم قبل . وقراءة العامة « يَطْمِثْهُنَّ » بكسر الميم . وقرأ أبو حيوة الشامى وطلحة بن مُصَرِّف والأعرج والشيرازى عن الكسائى

---

(١) البحاتر : جمع بحترة بضم الباء القصيرة المجتمعة الخلق .

(٢) فى نسخ الأصل بنت عبيد والتصحيح من التهذيب . (٣) مصاحبتهم فى الزوجية والعشرة .

بضم الميم فى الحرفين . وكان الكسائى يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَيِّر فى ذلك ، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانية . وهى قراءة أبى إسحق السَّبيعى . قال أبو إسحق : كنت أصلى خلف أصحاب علىّ فيرفعون الميم ، وكنت أُصَلِّى خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها ، فاستعمل الكسائى الأثرين . وهما لغتان طَمُث وطَمِث مثل يَعرُشُون ويَعكُفون ، فمن ضم فللجمع بين اللغتين ، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة . وإنما أعاد قوله « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » ليبين أن صفة الحور المقصورات فى الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف . يقول : إذا [قصرن](1) كانت لهن الخيام فى تلك الحال .

قوله تعالى : مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرفرف المحابس(2) . وقال ابن عباس : الرفرف فضول الفرش والبسط . وعنه أيضا : الرفرف المحابس يتكئون على فضولها . وقاله قتادة . وقال الحسن والقرظى : هى البسط . وقال ابن عيينة : هى الزرابى . وقال ابن كيسان : هى المرافق . وقاله الحسن أيضا . وقال أبو عبيدة : هى حاشية الثوب . وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر تبسط . وقيل : الفرش المرتفعة . وقيل : كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف . قال ابن مقبل :

وإنّا لَنَزّالونَ تَغْشَى نِعالُنَا * سَوَاقِطَ من أصناف رَيْطٍ ورفرفِ

وهذه أقوال متقاربة . وفى الصحاح : والرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس الواحدة رَفْرَفة . وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضا : الرفرف رياض الجنة واشتقاق الرفرف

---

(1) فى الأصول كلها : إذا ضجرن الخ والضجر لا يجوز فى الجنة ولذا أثبتنا بدل ضجرن قصرن .

(2) المحابس جمع محبس كمقعد ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه . وفى نسخ : المجالس وكلا المعنيين صحيح كما فى اللغة .

من رَفَّ يَرِف إذا ٱرتفع : ومنه رَفْرَفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء وربما سموا الظَّلِيم رَفْرافا بذلك؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو، ورفرف الطائر أيضا إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والرفرف أيضا كِسَر الخباء وجوانب الدِّرْع وما تدلى منها؛ الواحدة رَفْرفة . وفي الخبر في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه وَرَقة . أي رفع طرف الفسطاط . وقيل: أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِف إذا صار غضًّا نضيرا . حكاه الثعلبي . وقال القتبي : يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النِّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز رَفَّ يَرِفّ رفيفًا . حكاه الهروى . وقد قيل : إن الرفرف شيء إذا ٱستوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يمينا وشمالا ورفعا وخفضا يتلذذ به مع أنيسته . قاله الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول وقد ذكرناه في « التذكرة » . قال الترمذيّ : فالرفرف أعظم خطرا من الفرش فذكر في الأولين « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِن إِسْتَبْرَقٍ » وقال هنا : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ » فالرفرف هو شيء إذا ٱستوى عليه الوليّ رفرف به ؛ أي طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمِرْجاح ؛ وأصله من رفرف بين يدى الله عز وجل ، روى لنا في حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سِدْرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مَسْند العرش ، فذكر أنه قال : " طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدى ربي " ثم لما حان الٱنصراف تناوله فطار به خفضا ورفعا يهوى به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكى ويرفع صوته بالتحميد؛ فالرفرف خادم من الخدم بين يدى الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب ، كما أن البُراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه ، فهذا الرفرف الذى سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكؤهما وفرشهما ، يرفرف بالولى على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان . ثم قال : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فالعبقرى ثياب منقوشة تبسط ، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر ! . وقرأ عثمان رضى الله عنه والجحدرى والحسن وغيرهم « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ » بالجمع غير مصروف وكذلك

« وَعَبَاقِرِىٌّ حِسَانٍ » جمع رَفْرَف وعَبْقرىّ . و « رَفْرَف » اسم للجمع و « عَبْقرِىّ » واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبْقر . وقد قيل : إن واحد رفرف وعَبْقرىّ رَفْرفة وعَبقرية والرفارف والعَبَاقر جمع الجمع . والعبقرىّ الطَّنَافس الثِّخان منها ؛ قاله الفراء . وقيل: الزَّرَابى . عن ابن عباس وغيره . الحسن : هى البُسُط . مجاهد : الدِّيباج . القتبىّ : كل ثوب وشى عند العرب عبقرىّ . قال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى فينسب إليها كل وَشْى حُبِك . قال ذو الرُّمَّة :

حتى كأنّ رِياضَ القُفِّ أَلْبَسها * مِن وَشْيِ عَبْقَرَ تَجْلِيلٌ وتَنْجِيدُ

ويقال : عَبْقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بُسُط منقوشة . وقال ابن الأنبارى : إن الأصل فيه أن عَبْقر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل . وقال الخليل: كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقرىّ . ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى عمر رضى الله عنه : " فلم أر عبقريّا من الناس يَفْرِى فَرِيَّه " وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم " فلم أر عَبْقريًّا يَفْرِى فَرِيَّه " فقال : رئيس قوم وجليلهم . وقال زُهَير :

بِخَيْلٍ عليها جِنّةٌ عَبْقَرِيّةٌ * جَدِيرون يومًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا

وقال الجوهرى : العبقرىّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ .
قال لَبِيد :

* كُهُولٌ وشُبَّانٌ كَجِنّةِ عَبْقَرِ[(1)] *

ثم نسبوا إليه كل شىء يعجبون من حِذقه وجودة صنعته وقوّته فقالوا : عَبْقرىّ وهو واحد وجمع . وفى الحديث : " إنه كان يسجد على عبقرىّ " وهو هذه البسط التى فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا : ظُلْم عبقرىّ وهذا عبقرىٌّ قومِ للرجل القوىّ . وفى الحديث : " فلم أر عبقريا يَفْرِى فَرِيّه " ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال : « وعبقرِىٌّ حِسانٍ » وقرأ بعضهم

(١) صدر البيت : * ومن فاد من إخوانهم وبنيهم *

« عَبَاقِرِيٌّ » وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته . وقال قُطْرُب : ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسِيّ وكَرَاسِيّ وبُخْتِيّ وبَخَاتِيّ . وروى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « مُتَّكِئِينَ على رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرَ حِسَانٍ » ذكره الثعلبى . وضم الضاد من «خضر» قليل .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ « تبارك » تفاعل من البركة وقد تقدّم[1] . «ذِى الجَلَالِ» أى العظمة . وقد تقدّم «والإِكرامِ»[2] . وقرأ عامر «ذُو الجَلَالِ» بالواو وجعله وصفا للاسم، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى . الباقون « ذِى الجَلَالِ » جعلوا « ذى » صفة لـ « ربك » . وكأنه يريد به الاسم الذى افتتح به السورة ؛ فقال : « الرحمن » فافتتح بهذا الاسم فوصف خلق الإنسان والجنّ ، وخلق السموات والأرض وصنعه، وأنه « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ » ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها ، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان . ثم قال فى آخر السورة : « تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » أى هذا الاسم الذى افتتح به هذه السورة ؛ كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتى ، فمن رحمتى خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار ، فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال : « ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » جليل فى ذاته كريم فى أفعاله . ولم يختلف القراء فى إجراء النعت على الوجه بالرفع فى أوّل السورة ، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذى يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه ، فيستبشرون بحسن الجزاء ، وجميل اللقاء ، وحسن العطاء . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١ فما بعدها .

(٢) راجع ص ١٦٥ من هذا الجزء .

سورة الواقعة

مكية وهي سبع وتسعون آية

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » . وقال الكلبي : مكية إلا أربع آيات؛ منها آيتان « أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » نزلتا في سفره إلى مكة؛ وقوله تعالى : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » نزلتا في سفره إلى المدينة . وقال مسروق : من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنة ، ونبأ أهل النار ، ونبأ أهل الدنيا ، ونبأ أهل الآخرة ، فليقرأ سورة الواقعة . وذكر أبو عمر ابن عبد البر في « التمهيد » و « التعليق » والثعلبي أيضا : أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : أفلا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : أفلا نأمر لك بعطائك ؟ قال : لا حاجة لي فيه ؛ حبسته عني في حياتي ، وتدفعه لي عند مماتي ؟ قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي ؟ إني أمرتهن أن يقرأن سورة « الواقعة » كل ليلة ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا" .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦)

قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أي قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة . وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب . وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد . وفيه إضمار أي اذكروا

إذا وقعت الواقعة . وقال الجرجانى : « إذا » صلة؛ أى وقعت الواقعة؛ كقوله : « ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ » و « وَأَتَى أَمْرُ اللَّهِ » وهو كما يقال : قد جاء الصوم أى دنا وٱقترب . وعلى الأوّل «إذا» للوقت، والجواب قوله : «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» . ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر ؛ كقوله تعالى : «لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ»(١) أى لغو، والمعنى لا يسمع لها كذب؛ قاله الكسائى. ومنه قول العامة : عائذًا بالله أى مَعاذ الله ، وقم قائمًا أى قم قياما . ولبعض نساء العرب تُرَقِّص ٱبنها :

قُـمْ قائمًا قُمْ قائمًا ✽ أصبت عبـدًا نائمًا

وقيل : الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أى ليس لوقعتها حال كاذبة ؛ أو نفس كاذبة ؛ أى كل من يخبر عن وقعتها صادق . وقال الزجاج : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى لا يردها شيء . ونحوه قول الحسن وقتادة . وقال الثورىّ : ليس لوقعتها أحد يكذّب بها . وقال الكسائىّ أيضا : ليس لها تكذيب . أى ينبغى ألا يكذّب بها أحد . وقيل : إن قيامها جِدٌّ لا هزْلَ فيه .

قوله تعالى : ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال عِكرمة ومقاتل والسُّدّى : خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا ورفعتْ من نأى ؛ يعنى أسمعت القريب والبعيد . وقال السُّدّى : خفضت المتكبّرين ورفعت المستضعفين . وقال قتادة : خفضت أقواما فى عذاب الله، ورفعت أقواما إلى طاعة الله. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خفضت أعداء الله فى النار، ورفعت أولياء الله فى الجنة. وقال محمد بن كعب : خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين . وقال ٱبن عطاء : خفضت أقواما بالعدل، ورفعت آخرين بالفضل. والخفض والرفع يستعملان عند العرب فى المكان والمكانة والعز والمهانة . ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة

---

(١) هذه قراءة نافع .

توسعا ومجازا على عادة العرب فى إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما ممـا لم يكن منه الفعل ؛ يقولون : ليل نائم ونهار صائم . وفى التنزيل : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده ؛ فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات ، وخفض أعداءه فى أسفل الدركات . وقـرأ الحسن وعيسى الثقفى « خَافِضَةً رَافِعَةً » بالنصب . الباقون بالرفع على إضمار مبتدإ ؛ ومن نصب فعلى الحال . وهو عند الفراء على إضمار فعل ؛ والمعنى « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَـةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » وقعت « خَافِضَةً رَافِعَةً » . والقيامة لا شك فى وقوعها ، وأنها ترفع أقواما وتضع آخرين على ما بيناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أى زُلزلت وحُركت عن مجاهد وغيره ؛ يقال : رَجَّه يَرُجّه رجًّا أى حركه وزلزله . وناقة رجّاءُ أى عظيمة السَّنام . وفى الحديث : "مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجّ فلا ذمّةَ له" يعنى إذا اضطربت أمواجه . قال الكلبى : وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها اضطربت فَرَقا من الله تعالى . قال المفسّرون : تَرْتَجُّ كما يَرْتَج الصبيُّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شىء عليها من الجبال وغيرها . وعن ابن عباس الرَّجّة الحركة الشديدة يسمع لهـا صوت . وموضع « إذا » نصب على البـدل من « إِذَا وَقَعَت » . ويجـوز أن ينتصب بـ « خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » أى تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال ؛ لأن عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض . وقيل : أى وقعت الواقعة إذا رجّت الأرض ؛ قاله الزجاج والجرجانى . وقيل : أى اذكر « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ . رَجًّا » مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أى فتتت ؛ عن ابن عباس . مجاهد : كما يُبَسُّ الدقيق أى يُلَتُّ . والبسيسة السَّويق أو الدقيق يُلَتُّ بالسّمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا . قال الراجز :

لا تَخْبِزَا خَبْزًا وبُسَّا بَسًّا * ولا تُطِيلَا بِمُنَاخٍ حَبْسَا

وذكر أبو عبيدة أنه لصّ من غَطَفان أراد أن يخبز فخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجينا . والمعنى أنها خُلطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء . أى تصير الجبال ترابا فيختلط البعض بالبعض . وقال الحسن : وبُسّت قلعت من أصلها فذهبت؛ نظيره: « يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » . وقال عطية : بسطت كالرمل والتراب . وقيل : البسّ السّوق أى سيقت الجبال؛ قال أبو زيد : البسّ السّوق وقد بسست الإبل أبُسّها بالضم بَسًّا . وقال أبو عبيد : بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بِسْ بِسْ . وفى الحديث : "يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يَبُسّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون" ومنه الحديث الآخر : "جاءكم أهل اليمن يَبُسّون عيالهم"(1) والعرب تقول : جِئْ به من حَسِّك وبَسِّك . ورواهما أبو زيد بالكسر فمعنى من حِسّك من حيث أحسسته وبِسّك من حيث بلغه مسيرك . وقال مجاهد : سالت سيلا . عكرمة : هُدّت هدّا . محمد بن كعب : سُيِّرت سيرا ؛ ومنه قول الأغلب العجلى(2) :

وقال الحسن : قطعت قطعا . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ قال على رضى الله عنه : الهباء المنبث الرَّهَج(3) الذى يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب ، فجعل الله أعمالهم كذلك . وقال مجاهد : الهباء هو الشعاع الذى يكون فى الكوة كهيئة الغبار . وروى نحوه عن ابن عباس . وعنه أيضا : هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئا . وقاله عطية . وقد مضى فى « الفرقان » عند قوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً »(4) وقراءة العامة « مُنْبَثًّا » بالثاء المثلثة أى متفرقا من قوله تعالى : « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ » أى فرّق ونشر . وقرأ مسروق والنَّخَعى وأبو حيوة «مُنْبَتًّا» بالتاء المثناة أى منقطعا من قولهم: بته الله أى قطعه ؛ ومنه البتات .

---

(1) أى يسوقون عيالهم . (2) بياض بالأصل فى موضع الشاهد من قول الأغلب العجلى الراجز ولم نعثر عليه . (3) الرهج بالفتح وبالإسكان الغبار . (4) راجع جـ ١٣ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانيـة .

قوله تعالى : وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أى أصنافا ثلاثة كل صنف يشا كل ما هو منه ، كما يشا كل الزوج الزوجة ، ثم بين من هم فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» و «السَّابِقُونَ» فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النـار . قاله السُّدىّ . والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة . يقال : قعد فلان شأمة . ويقال : يا فلان شائم بأصحابك . أى خذ بهم شأمة أى ذات الشمال . والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى ، وللجانب الشمال الأشأم . وكذلك يقال لمـا جاء عن اليمين اليُمْن ، ولمـا جاء عن الشمال الشّؤم . وقال ٱبن عباس والسُّدىّ : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذّرية من صُلْبه فقال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أُخذوا من شقّ آدم الأيمن يومئذ ، وأصحاب المشأمة الذين أُخذوا من شـقّ آدم الأيسر . وقال عطاء ومحمد بن كعب : أصحاب الميمنة من أوتى كتابه بيمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتى كتابه بشماله . وقال ٱبن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة الميـامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمـال السيئة القبيحة . وفى صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " فلما عَلَوْنا السماء الدنيـا فإذا رجل عن يمينه أَسْـودة وعن يساره أَسْودة — قال — فإذا نظـر قِبل يمينه ضحك وإذا نظـر قِبل شماله بكى — قال — فقال مرحبا بالنبى الصـالح والابن الصالح — قال — قلت ياجبريل من هذا قال هذا آدم عليه السـلام وهذه الأسودة التى عن يمينه وعن شمـاله نَسَم بنيه فأهـل اليمين أهل الجنـة والأسودة التى عن شماله أهل النـار " وذكر الحديث . وقال المبرد : وأصحاب الميمنة أصحاب التقـدّم وأصحاب المشأمة

أصحاب التأخر ؛ والعرب تقول : اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك . أي اجعلني من المتقدمين ولا تجعلنا من المتأخرين . والتكرير في « ما أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » . و«مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» للتفخيم والتعجيب ؛ كقوله : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ » و « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ » كما يقال : زيد زيد ! وفي حديث أم زرع رضي الله عنها [1] : مَالِكٌ وما مَالِكٌ ! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب . وقيل : « أَصْحَابُ » رفع بالابتداء والخبر « مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » كأنه قال : « فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » ما هم ؛ المعنى أيّ شيء هم . وقيل : يجوز أن تكون « ما » تأكيدا والمعنى فالذين يعطون كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدّم وعلو المنزلة .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "السابقون الذين إذا أُعطوا الحقّ قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم" ذكره المهدوي . وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : إنهم الأنبياء . الحسن وقتادة : السابقون إلى الإيمان من كل أمة . ونحوه عن عكرمة . محمد بن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين ؛ دليله قوله تعالى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » . وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد وأوّل الناس رواحا إلى الصلاة . وقال عليّ رضي الله عنه : هم السابقون إلى الصلوات الخمس . الضحاك : إلى الجهاد . سعيد بن جبير : إلى التوبة وأعمال البر ؛ قال الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » ثم أثنى عليهم فقال : « أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » . وقيل : إنهم أربعة منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية، وسابقان في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . قاله ابن عباس ؛ حكاه الماوردي . وقال شُمَيْط بن العجلان : الناس ثلاثة ؛ فرجل ابتكر للخير في حداثة سنه ثم

(١) حديث أم زرع رواه مسلم في فضائل الصحابة عن عائشة رضي الله عنها أنه : جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا ، فقالت إحداهن : زوجي مالك وما مالك ! مالك خير من ذلك ... ... الخ . الحديث .

داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طوّل الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال . وقيل : هم كل من سبق إلى شيء من أشياء الصلاح . ثم قيل : « السَّابِقُونَ » رفع بالابتداء والثاني توكيد له والخبر ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ . وقال الزجاج : « السَّابِقُونَ » رفع بالابتداء والثاني خبره ؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ من صفتهم . وقيل : إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي جماعة من الأمم الماضية . ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ أي ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . قال الحسن : ثُلَّة ممن قد مضى قبل هذه الأمة ، وقليل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم اجعلنا منهم بكرمك . وسموا قليلا بالإضافة إلى من كان قبلهم ؛ لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم ، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا . وقيل : لما نزل هذا شقّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن تكونوا ربعَ أهل الجنة بل ثلثَ أهل الجنة بل نصفَ أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني " رواه أبو هريرة ، ذكره الماوردي وغيره . ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنها خبر ؛ ولأن ذلك في جماعتين مختلفتين . قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا ؛ فلذلك قال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ وقال في أصحاب اليمين وهم سوى السابقين : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو

أن تكون أمتي شطر أهل الجنة " ثم تلا قوله تعالى : «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» قال مجاهد : كلٌّ من هذه الأمة . وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " الثُّلَّتان جميعا من أمتي " يعني « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » . وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . قال أبو بكر رضي الله عنه : كلا الثلتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من هو في أول أمته ، ومنهم من هو في آخرها . وهو مثل قوله تعالى : «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ » . وقيل : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » أي من أول هذه الأمة . « وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ » يسارع في الطاعات حتى يلحق درجة الأولين ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " خيركم قَرْني " ثم سَوّى في أصحاب اليمين بين الأولين والآخرين . والثلة من ثللت الشيء أي قطعته ؛ فمعنى ثلة كمعنى فرقة ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أي السابقون في الجنة « عَلَىٰ سُرُرٍ » ؛ أي مجالسهم على سرر جمع سرير . «مَوْضُونَةٍ» قال ابن عباس : منسوجة بالذهب . وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت . وعن ابن عباس أيضا : « مَوْضُونَةٍ » مصفوفة ؛ كما قال في موضع آخر : «عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ» . وعنه أيضا وعن مجاهد : مَرْمولة[1] بالذهب . وفي التفاسير : «مَوْضُونَةٍ» أي منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد . والوَضْن النسج المضاعف والنضد ؛ يقال : وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرَّ بعضه فوق بعض فهو موضون ، ودرع موضونة أي محكمة في النسج مثل مصفوفة ؛ قال الأعشى :

وَمِنْ نَسْـجِ دَاوُدَ مَوْضُـونَةً * تُسَـاقُ مع الحيِّ عيرًا فَعِـيرًا

وقال أيضا :

وَبَيْضَـاءَ كالنِّهْيِ مَوْضُـونَةً * لهـا قَوْنَسٌ فوقَ جَيْبِ البَـدَنْ

---

(١) مرمولة منسوجة .

والسرير الموضون الذى سطحه بمنزلة المنسوج؛ ومنه الوَضين بِطَانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه فى بعض ؛ ومنه قوله :

* إليكَ تَعْدُو قَلِقاً وَضِينُها (١) *

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى على السرر ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا يرى بعضهم قَفَا بعض ، بل تدور بهم الأسرة ، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله ؛ أى يتكئون متقابلين . قاله مجاهد وغيره . وقال الكلبيّ : طول كل سرير ثلثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها آرتفعت .

قوله تعالى : يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ أى غلمان لا يموتون ؛ قاله مجاهد . الحسن والكلبيّ : لا يهرمون ولا يتغيرون ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

وهَلْ يَنْعَمَنْ إلاّ سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ * قَلِيلُ الهُمومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وقال سعيد بن جبير: مُخَلَّدون مُقَرَّطون يقال للقُرْط الخَلَدَة ولجماعة الحُلِيّ الخَلَدَة. وقيل: مسوَّرون ونحوه عن الفراء؛ قال الشاعر :

ومُخَلَّداتٌ بِاللُّجَيْنِ كأَنَّمَا * أَعْجازُهُنَّ أَقاوِزُ الكُثْبانِ (٢)

---

(١) الضمير يعود على الناقة ؛ أراد أنها قد هزلت ودقت للسير عليها .

(٢) الأقاوز جمع قوز وهو كثيب من الرمل صغير شبه به أرداف النساء . « ... للبيان » .

وقيل : مقرطون يعنى ممنطقون من المناطق . وقال عكرمة : «مُخَلَّدُونَ» منعّمون . وقيل : على سنّ واحدة أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه والحسن البصرى : الولدان هاهنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة . وقال سلمان الفارسىّ : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة . قال الحسن : لم يكن لهم حسنات يجزون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا فى هذا الموضع . والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة إنما تتم باحتفاف الخدم والولدان بالإنسان . ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أكواب جمع كوب وقد مضى فى « الزخرف »[1] وهى الآنية التى لا عُرى لها ولا خراطيم ، والأباريق التى لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق ؛ سمى بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه . ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ مضى فى «والصافات»[2] القول فيه . والمعين الجارى من ماء أو خمر غير أن المراد فى هذا الموضع الخمر الجارية من العيون . وقيل : الظاهرة للعيون فيكون «معين» مفعولا من المعاينة . وقيل : هو فعيل من المعن وهو الكثرة . وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التى تستخرج بعصر وتكلّف ومعالجة .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أى لا تتصدع رءوسهم من شربها ؛ أى إنها لذة بلا أذى بخلاف شراب الدنيا . ﴿ وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ تقدم فى « والصافات »[3] أى لا يسكرون فتذهب عقولهم . وقرأ مجاهد : « لا يَصَّدَّعُونَ » بمعنى لا يتصدّعون أى لا يتفرقون كقوله تعالى : «يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ» . وقرأ أهل الكوفة « يُنْزِفُونَ » بكسر الزاى أى لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم ؛ ومنه قول الشاعر[4] :

لَعَمْرِى لَئِنْ أَنْزَفْتُمْ أو صَحَوْتُمْ * لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبْجَرَا

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١١٢ فما بعدها .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٧٧ فما بعدها .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٧٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) هو الحطيئة وقد تقدم البيت فى جـ ١٥ ص ٧٩

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال ؛ السُّكْر والصُّداع والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أى يتخيرون ما شاءوا لكثرتها . وقيل : وفاكهة متخيرة مرضية والتخير الاختيار . ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الترمذى عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر؟قال:"ذاك نهر أعطانيه الله تعالى — يعنى فى الجنة — أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجُزُر" قال عمر : إن هذه لناعمةٌ ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَكَلَتُها أحسنُ منها"(1) قال : حديث حسن . وخرجه الثعلبي من حديث أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة طيرا مثل أعناق البُخْت تصطفّ على يد ولىّ الله فيقول أحدها ياولىّ الله رَعيتُ فى مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التَّسنيم فكُلْ منِّى فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى فى الجنة حيث شاء " فقال عمر : يا نبىّ الله إنها لناعمة . فقال : " آكلُها أَنعمُ منها " . وروى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة لطيرا فى الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير "

قوله تعالى : ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجر ؛ فمن جر وهو حمزة والكسائى وغيرهما جاز أن يكون معطوفا على « بِأَكْوَابٍ » وهو محمول على المعنى ؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور . قاله الزجاج . وجاز أن يكون معطوفا على « جَنَّاتٍ » أى هم فى « جَنَّاتِ النَّعِيمِ » وفى حور على تقدير حذف المضاف كأنه قال : وفى معاشرة

(1) فى نسخ الأصل : أكلها أنعم منها . وما أثبتناه هو ما فى صحيح الترمذى .

حور . الفراء : الجر على الإتباع فى اللفظ و إن آختلفا فى المعنى ؛ لأن الحور لا يطاف بهنّ قال الشاعر :

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يومًا * وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيونَا

والعين لا تُزجَّج وإنما تكحل . وقال آخر :

ورأيتُ زَوْجَك فى الوَغَى * مُتقلِّدًا سَيْفًا ورُمْحَا

وقال قُطْرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم فى ذلك لذة . ومن نصب وهو الأشهب العقيلى والنَّخعى وعيسى بن عمر الثَّقفى - وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ ، فهو على تقدير إضمار فعل ؛ كأنه قال : ويزوّجون حُورا عِينا . والحمل فى النصب على المعنى أيضا حسن ؛ لأن معنى يطاف عليهم به يُعطَونه . ومن رفع وهم الجمهور — وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم — فعلى معنى وعندهم حور عين ؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور . وقال الكسائى : ومن قال « وَحُورٌ عِينٌ » بالرفع وعلل بأنه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك فى فاكهة ولحم ؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين . وجاز أن يكون معطوفا على « ثُلَّةٌ » و « ثُلَّةٌ » آبتداء وخبره « عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ » وكذلك « وَحُورٌ عِينٌ » وآبتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة . ﴿ كَأَمْثَالِ ﴾ أى مثل أمثال ﴿ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أى الذى لم تمسه الأيدى ولم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاء وتلألأ ؛ أى هنّ فى تشاكل أجسادهنّ فى الحسن من جميع جوانبهنّ كما قال الشاعر :

كأنّما خُلِقَتْ فى قِشْرِ لُؤْلُؤَةٍ * فَكُلُّ أَكْنافِها وَجْهٌ لِمِرْصادِ

﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ثوابا ونصبه على المفعول له . ويجوز أن يكون على المصدر ؛ لأن معنى « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ » يجازون . وقد مضى الكلام فى الحور العين فى « والطُّور »(١) وغيرها . وقال أنس قال النبى صلى الله عليه وسلم : " خلق الله الحور العين

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . وراجع ج ١٦ ص ١٥٢ .

من الزعفران» وقال خالد بن الوليد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق فى يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة» فقال له رجل : يا أبا سليمان إن هذا لعجبٌ ولا ينقص من التفاحة ؟ قال : نعم كالسِّراج الذى يوقد منه سِراج آخر وسُرُج ولاينقص ، والله على ما يشاء قدير . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران ، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر ،ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حُلَّة مثل شقائق النعمان، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نورا ساطعا كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا ، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقة ثيابها وجلدها ، فى رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر ، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهى تنادى هذا ثواب الأولياء « جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ قال ابن عباس : باطلا ولا كذبا . واللغو مايلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أَثَّمْته أى قلت له أثمت . محمد بن كعب : « وَلَا تَأْثِيمًا » أى لايؤثِّم بعضُهم بعضا . مجاهد : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا» شتما ولا مأثما. ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ « قِيلًا » منصوب بـ« يَسْمَعُونَ » أو استثناء منقطع أى لكن يقولون قيلا أو يسمعون و « سَلَامًا سلاما » منصوبان بالقول أى إلا أنهم يقولون الخير . أو على المصدر أى إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاما . أو يكون وصفا لقيل ، والسلام الثانى بدل من الأول، والمعنى إلا قيلا يسلم فيه من اللغو . ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم . قال ابن عباس : أى يحيى بعضهم بعضا . وقيل : تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عزّ وجلّ .

قوله تعالى : وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدم ، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذى هم فيه . ﴿فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ أى فى نبق قد خضد شوكه أى قطع ؛ قاله ٱبن عباس وغيره. وذكر ٱبن المبارك، حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يوما ؛ فقال : يا رسول الله ! لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما هى" قال : السّدر فإن له شوكا مؤذيا ؛ فقال صلى الله عليه وسلم: "أو ليس يقول « فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ » خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمرا يفتق الثمر منها عن ٱثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر" . وقال أبو العالية والضحاك : نظر المسلمون إلى وَجٍّ (1) وهو وادٍ بالطائف مخصب فأعجبهم سدره ، فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا ؛ فنزلت . قال أمية بن أبى الصَّلْت يصف الجنة :

إنّ الحدائقَ فى الجنانِ ظليلةٌ * فيها الكَواعِبُ سِدْرُها مَخْضُودُ

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : « فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ » وهو الموقر حملا . وهو قريب مما ذكرنا فى الخبر . سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من القلال . وقد مضى هذا فى سورة

(1) الذى فى اللسان : وج موضع بالبادية . وقيل : بلد بالطائف وقيل هى الطائف .

« النجم »[١] عند قوله تعالى : « عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » وأن ثمرها مثل قلال هَجَر من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ الطَّلْح شجر الموز واحده طلحة . قاله أكثر المفسرين علىّ وابن عباس وغيرهم . وقال الحسن : ليس هو موز ولكنه شجر له ظـل بارد رطب . وقال الفراء وأبو عبيدة : شجر عظام له شوك؛ قال بعض الحداة[٢] وهو الجعدىّ :

بَشَّرَهَـا دَلِيلُهَـا وقَالَا * غَدًا تَرَيْنَ الطَّلْحَ والأَحْبَالَا[٣]

فالطَّلح كلّ شجر عظيم كثير الشوك . الزّجاج : يجوز أن يكون فى الجنة وقـد أزيل شوكه . وقال الزجاج أيضا : كشجر أم غيلان [له][٤] نَوْر طيّب جدا نخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله ، إلا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا . وقال السدىّ : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل . وقرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » بالعين وتلا هذه الآية « وَنَخْـلٌ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » وهو خلاف المصحف . فى رواية أنه قرئ بين يديه « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال : ما شأن الطلح ؟ إنمـا هو « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » ثم قال : « لَهَـا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقيل له : أفـلا نحولها ؟ فقال : لا ينبغى أن يهاج القرآن ولا يحوّل . فقد اختار هذه القراءة ولم ير إثباتها فى المصحف لمخالفة ما رَسْمه مجمَع عليه . قاله القشيرى . وأسنده أبو بكر الأنبارىّ قال : حدثنى أبى قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سـعد عن قيس بن عُبَاد قال : قرأت عنـد علىّ أو قُرِئت عند علىّ ـ شكّ مجالد ـ « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال على رضى الله عنه : ما بال الطلح ؟ أما تقرأ «وَطَلْعٍ» ثم قال : «لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ» فقال له : يا أمير المؤمنين أنحكّها من المصحف؟

---

(١) راجع ص ٩٤ فما بعدها من هذا الجزء .

(٢) فى الأصول « الحداة » بالحاء المهملة وما أثبتناه يوافق ما فى تفسير الطبرى .

(٣) الأحبال جمع حبلة بالضم : ثمر السلم والبال والسمر أو ثمر العضاه عامة .

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

فقال : لا يهاج القرآن اليوم . قال أبو بكر : ومعنى هـذا أنه رجع إلى ما فى المصحف وعلم أنه هو الصواب ، وأبطل الذى كان فرط من قوله . والمنضود المتراكب الذى نُضـد أوّله وآخره بالحمـل ، ليست له سُـوقٌ بارزة بل هو مرصوص ، والنَّضْـد هو الرّص والمنضَّـد المرصوص ؛ قال النابغة :

خَلَّتْ سَـبِيلَ أَتِيّ كان يَحْبِسُهُ * ورَفَّعَتْهُ إلى السِّجْفَيْنِ فالنَّضَدِ

وقال مسروق : أشجار الجنـة من عروقها إلى أفنانهـا نضيدة ثمر كلّه، كلّما أكل ثمرة عاد مكانها أحسنُ منها .

قوله تعـالى : ﴿ وَظِلٍّ مَمْـدُودٍ ﴾ أى دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس ؛ كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » وذلك بالغداة وهى ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقـدّم بيانه هنالك (1) . والجنة كلها ظلّ لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعنى ظل العرش . وقال عمرو بن ميمون : مسيرة سبعين ألف سنة . وقال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشىء الذى لا ينقطع ممدود؛ وقال لبيد :

غَلَبَ العَزاءُ وكنتُ غيرَ مُغَلَّبِ * دَهرٌ طـويلٌ دائمٌ ممْـدودُ

وفى صحيح الترمذىّ وغيره من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : "وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم « وَظِلٍّ مَمْدُودٍ » " . ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ أى جارٍ لا ينقطع وأصل السّكب الصبّ؛ يقال: سكبه سَكْبًا والسُّكوب آنصبابه؛ يقال : سَكَبَ سُكُوبا وآنْسَكَبَ آنسكابا ؛ أى وماء مصبوب يجرى الليل والنهار فى غير أخدود لا ينقطع عنهم . وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة ، وكانت الأنهار فى بلادهم عزيزة لا يصلون إلى المـاء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا فى الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة فى الدنيا ، وهى الأشجار وظلالها والمياه والأنهار وآطرادها .

---

(1) راجع ج ٣ ص ٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أي ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ ﴾ أي في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي لا يُحظَر عليها كثمار الدنيا . وقيل : « وَلَا مَمْنُوعَةٍ » أي لا يمنع من أرادها بشوك ولا بعد حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها ؛ قال الله تعالى : « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا » . وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ روى الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » قال : "ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة" قال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدِين بن سعد . وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث : الفرش في الدرجات وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض . وقيل : إن الفرش هنا كناية عن النّساء اللواتي في الجنة ولم يتقدّم لهنّ ذكر ، ولكن قوله عز وجل « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » دالٌ ؛ لأنها محل النساء ؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهنّ وكمالهنّ ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أي خلقناهنّ خلقا وأبدعناهنّ إبداعا . والعرب تسمى المرأة فِراشا ولِباسا وإزارا ؛ وقد قال تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » ثم قيل : على هذا هنّ الحور العين ؛ أي خلقناهنّ من غير ولادة . وقيل : المراد نساء بني آدم أي خلقناهنّ خلقا جديدا وهو الإعادة ؛ أي أعدناهنّ إلى حال الشباب وكمال الجمال . والمعنى أنشأنا العجوز والصّبية إنشاء واحدا وأضمرن ولم يتقدّم ذكرهنّ ؛ لأنهنّ قد دخلن في أصحاب اليمين ؛ ولأن الفُرُش كناية عن النّساء كما تقدّم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » قال : "منهنّ البِكْر والثّيِّب" . وقالت أم سلمة رضى الله تعالى عنها : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا » فقال : "يا أم سلمة هنّ اللواتي قُبِضن في الدنيا عجائز شُمْطا عُمْشا رُمْصا جعلهنّ الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء" أسنده النحاس عن أنس قال : حدّثنا أحمد بن عمرو قال حدّثنا عمرو بن عليّ ، قال حدّثنا أبو عاصم عن

موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك رفعه «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» قال : "هنّ العجائز العُمْش الرُّمص كُنّ فى الدنيا عُمْشا رُمصا" . وقال المسيَّب بن شريك : قال النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» قال : "هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله خلقا جديدا كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا" فلما سمعت عائشة ذلك قالت : واوجعاه ! فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك وجع" . ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : العُرُب العواشق لأزواجهنّ . وعن ابن عباس أيضا : أن العروب الملقة . عكرمة : الغَنِجة . ابن زيد : بلغة أهل المدينة . ومنه قول لبيد :

وفى الخِبَاءِ عَرُوبٌ غيرُ فاحِشَةٍ * رَيَّا الروادِفِ يَعْشَى دُونَها البصرُ

وهى الشَّكِلة بلغة أهل مكة . وعن زيد بن أسلم أيضا : الحسنة الكلام . وعن عكرمة أيضا وقتادة : العرب المتحببات إلى أزواجهنّ واشتقاقه من أعرب إذا بين، فالعروب تبين محبتها لزوجها بشكل وغنج وحسن كلام . وقيل : إنها الحسنة التبعل لتكون ألذ استمتاعا . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «عُرُبًا» قال : "كلامهنّ عربى" . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «عُرْبًا» بإسكان الراء . وضم الباقون وهما جائزان فى جمع فَعُول . «أَتْرَابًا» على ميلاد واحد فى الاستواء وسنّ واحدة ثلاث وثلاثين سنة . يقال فى النساء أتراب وفى الرجال أقران . وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصِّبَا من النساء وانحطت عن الكبر . وقيل : «أَتْرَابًا» أمثالا وأشكالا ؛ قاله مجاهد . السدى : أتراب فى الأخلاق لا تباغض بينهنّ ولا تحاسد . ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ قيل : الحور العين للسابقين، والأتراب العرب لأصحاب اليمين .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى : «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ» أى هم «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» وقد مضى الكلام فى معناه . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبى رباح والضحاك :

« ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » يعني من سابق هـذه الأمة « وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » من هذه الأمة من آخرها ؛ يدل عليه ماروى عن آبن عباس فى هذه الآية « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هم جميعا من أمتي" . وقال الواحديّ : أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم الماضية ونصف من هـذه الأمة . وهـذا يردّه ما رواه آبن ماجه فى سننه والترمذيّ فى جامعه عن بُرَيدة بن خَصيب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أهل الجنة عشرون ومائة صفّ ثمانون منها من هـذه الأمة وأربعون من سائر الأمم" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . و « ثُلَّةٌ » رفع على الآبتداء، أو على حذف خبر حرف الصفة، ومجازه : لأصحاب اليمين ثلتان ثلة من هؤلاء وثلة من هؤلا . والأوّلون الأمم الماضية والآخرون هذه الأمة على القول الثانى .

قوله تعالى : وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال؛ لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم ثم عظّم ذكرهم فى البلاء والعذاب فقال : ﴿ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ ﴾ والسموم الريح الحارة التى تدخل فى مسام البدن . والمراد هنا حرّ النار ولفحها . ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ أى ماء حار قد انتهى حره إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم ، كالذى يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميا حارا فى نهاية الحرارة والغليان . وقد مضى فى « القتال »[1] « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » . ﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ أى يفزعون من السّموم إلى الظل كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلاّ من يحموم؛ أى من دخان جهنم أسود شديد السواد . عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وكذلك اليحموم فى اللغة الشديد السواد وهو يفعول من الحمّ وهو الشّحم المسودّ باحتراق النار . وقيل : هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم . وقال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل مافيها أسود . وعن ابن عباس أيضا : النار سوداء . وقال ابن زيد : اليحموم جبل فى جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار . ﴿ لَا بَارِدٍ ﴾ بل حار لأنه من دخان شفير جهنم . ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ عذب ؛ عن الضحاك . وقال سعيد بن المسيّب : ولا حسن منظره ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم . وقيل : « وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ » أى من النار يعذّبون بها ؛ كقوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أى إنما استحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا فى الدنيا متنعمين بالحرام والمترَف المنعَّم ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال السُّدىّ : « مُتْرَفِينَ » أى مشركين . ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾ أى يقيمون على على الشرك ؛ عن الحسن والضحاك وابن زيد . وقال قتادة ومجاهد : الذنب العظيم الذى لا يتوبون منه . الشّعبى : هو اليمين الغَمُوس وهى من الكبائر؛ يقال : حَنِث فى يمينه أى لم يَبَرّها ورجع فيها . وكانوا يقسمون أن لا بعث ، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حِنْثهم ؛ قال الله تعالى مخبرا عنهم : «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ» . وفى الخبر :

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

كان يتحنث فى حراء ؛ أى يفعل مايسقط عن نفسه الحنث وهو الذنب . ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ هذا آستبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له ؛ فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ ﴾ من آبائكم ﴿ وَالْآخِرِينَ ﴾ منكم ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ومعنى الكلام القسم ودخول اللام فى قوله تعالى : « لَمَجْمُوعُونَ » هو دليل القسم فى المعنى ؛ أى إنكم لمجموعون قسما حقا خلاف قسمكم الباطل ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ عن الهدى ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ وهو شجر كريه المنظر كريه الطعم وهى التى ذكرت فى سورة « والصافات »[1] . ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ أى من الشجرة ؛ لأن المقصود من الشجر شجرة . ويجوز أن تكون « من » الأولى زائدة ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفا كأنه قال : « لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ » طعاما . وقوله : « مِنْ زَقُّومٍ » صفة لشجر ، والصفة إذا قدرت الجار زائدا نصبت على المعنى ، أو جررت على اللفظ ، فإن قدرت المفعول محذوفا لم تكن الصفة إلا فى موضع جر .

قوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ أى على الزقوم أو على الأكل أو على الشجر ؛ لأنه يذكر و يؤنث . ﴿ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ وهو الماء المغلى الذى قد آشتد غليانه وهو صديد أهل النار . أى يورثهم حر ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشا فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميا مُغْلًى .

قوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة « شُرْبَ » بضم الشين . الباقون بفتحها لغتان جيدتان ؛ تقول العرب : شَرِبت شُرْبا وشَرْبا وشِرْبا وشُرُبا بضمتين . قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها والفتح هو المصدر الصحيح ؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فَعْل ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة ؛ فتقول : فَعْلة نحو شَرْبة و بالضم الآسم . وقيل : إن المفتوح والآسم مصدران فالشَّرْب كالأكل والشُّرْب كالذُّكر . والشِّرْب بالكسر المشروب كالطِّحْن المطحون . والهيم الإبل العطاش التى

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٥ طبعة أولى أو ثانية

لا تَرْوَى لداء يصيبها ؛ عن آبن عباس وعِكرمة وقَتَادة والسُّدى وغيرهم . وقال عِكرمة أيضا : هى الإبل المِراض . الضحاك : الهيم الإبل يصيبها داء تَعطَش منه عطشا شديدا واحدها أَهْيَم والأنثى هَيْماء . ويقال لذلك الداء الهُيَام ؛ قال قيس بن المُلَوّح :

يقال بِهِ داء الهُيَامِ أصابه * وقد علِمت نفسى مكانَ شِفائها

وقوم هِيم أيضا أى عِطاش وقد هاموا هُيَاما . ومن العرب من يقول فى الإبل هائم وهائمة والجمع هيم ؛ قال لَبِيد :

أَجَزْتُ إلى معارِفها بِشُعْثٍ * وأَطْلاَحٍ مِنَ العِيدِيِّ هِيمِ[1]

وقال الضحاك والأخفش وآبن عيينة وآبن كيسان : الهيم الأرض السهلة ذات الرمل . وروى أيضا عن آبن عباس : فيشربون شرب الرمال التى لا تَرْوَى بالماء . المهدوى : ويقال لكل ما لا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء . وفى الصحاح : والهُيَام بالضم أشد العطش والهُيَام كالجنون من العشق . والهُيَام داء يأخذ الإبل فتهيم فى الأرض لا ترعى . يقال : ناقة هَيْماء . والهيماء أيضا المفازة لا ماء بها . والهَيَام بالفتح الرمل الذى لا يتماسك أن يسيل من اليد للينه والجمع هِيم مثل قَذَالٍ وقُذُلٍ[2] . والهِيَام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى رزقهم الذى يعدّ لهم ، كالنزل الذى يعدّ للأضياف تكرمة لهم ، وفيه تهكم ؛ كما فى قوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » وكقول أبى السّعد الضّبى :

وكنّا إذا الجَبّارُ بالجيش ضَافَنَا * جعلنا القَنَا والمرهفاتِ له نُزُلَا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبى عمرو « هَذَا نُزْلُهُمْ » بإسكان الزاى ؛ وقد مضى فى آخر « آل عمران »[3] القول فيه . « يَوْمَ الدِّينِ » يوم الجزاء يعنى فى جهنم .

---

(١) شعث : رجال ساءت حالهم من الجهد والسفر . وأطلاح : إبل مهازيل والواحد طليح . والعيدى إبل منسوبة إلى فحل .   (٢) أى خففت وكسرت الهاء لأجل الياء .   (٣) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى فهلا تصدّقون بالبعث ؟ لأن الإعادة كالابتداء . وقيل : المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدّقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ؟

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أى ما تصبّونه من المنىّ فى أرحام النساء . ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أى تصوّرون منه الإنسان ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ المقدّرون المصوّرون . وهذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى ؛ أى إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث . وقرأ أبو السَّمّال ومحمد بن السَّمَيْقَع وأشهب العقيلى : « تَمْنُونَ » بفتح التاء وهما لغتان أمنى ومنى وأمذى ومذى ، يُمنى ويَمنى ويُمذى ويَمذى . الماوردى : ويحتمل أن يختلف معناهما عندى فيكون أَمْنى إذا أنزل عن جماع ، ومَنَى إذا أنزل عن الاحتلام . وفى تسمية المنىّ مَنيًّا وجهان : أحدهما لإمنائه وهو إراقته . الثانى لتقديره ومنه المنَا الذى يوزن به لأنه مقدار لذلك ، كذلك المنىّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ احتجاج أيضا أى الذى يقدر على الإماتة يقدر على الخلق ، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث . وقرأ مجاهد وحميد وابن مُحَيْصن وابن كثير « قَدَرْنَا » بتخفيف الدال . الباقون بالتشديد ، قال الضحاك : أى سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض . وقيل : قضينا . وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب ؛ فلا أحد يبقى غيره عز وجل . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد ؛ أى لم يغلبنا . « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » معناه بمغلوبين . وقال الطبرىّ : المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم آخرين من جنسكم ، وما نحن بمسبوقين

فى آجالكم ؛ أى لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقـدّم . ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم . وقيل : المعنى ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، فيجمّل المؤمنُ ببيـاض وجهه ، ويُقبّح الكافرُ بسواد وجهه . سـعيد بن جبير : قوله تعالى « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » يعنى فى حواصل طير سود تكون ببَرَهُوت كأنها الخطاطيف ، و بَرَهُوت واد فى اليمن . وقال مجاهد : « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » فى أى خلق شئنا . وقيل : المعنى ننشئكم فى عالم لا تعلمون ، وفى مكان لا تعلمون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ﴾ أى إذ خلقتم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئا ؛ عن مجاهد وغيره . قَتَادة والضحاك : يعنى خلق آدم عليه السلام . ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى فهلا تذكرون . وفى الخبر : عجبا كلّ العجب للـكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للصدّق بالنشأة الآخرة وهـو لا يسعى لدار القرار . وقراءة العامة « النَّشْأَة » بالقصر . وقرأ مجاهد والحسن وٱبن كثير وأبو عمرو : « النَّشَاءَة » بالمد ، وقد مضى فى « العنكبوت »(١) بيانه .

قوله تعـالى : أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ هذه حجـة أخرى ؛ أى أخبرونى عمـا تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر ، أنتم تنبتونه وتحصلونه زرعا فيكون فيه السُّنْبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ؟ و إنما منكم البذر وشقّ الأرض ، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنْبل من الحبّ ليس إليكم ، فكيف تنـكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم ؟ ! وأضـاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى ؛ لأن الحرث فعلهم ويجرى على ٱختيارهم ، والزرع من فعل الله تعالى

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

وينبت على ٱختياره لا على ٱختيارهم . وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقولنّ أحدكم زرعتُ وليقلْ حرثتُ فإن الزارع هو الله" قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله تعالى « أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » . والمستحب لكل من يلق البذر فى الأرض أن يقرأ بعد الآستعاذة « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ » الآية ثم يقول : بل الله الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صل على محمد، وٱرزقنا ثمره ، وجنّبنا ضرره، وٱجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، ولآلائك من الذاكرين، وبارك لنا فيه يارب العالمين . ويقال : إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات، الدود والجراد وغير ذلك . سمعناه من ثقة وجُرِّب فوجد كذلك . ومعنى « أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ » أى تجعلونه [زرعا](1) . وقد يقال : فلان زرّاع كما يقال حراث، أى يفعل ما يؤول إلى أن يكون زرعا يعجب الزرّاع . وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوزا .

قلت : فهو نهى إرشاد لا نهى حظر وإيجاب، ومنه قوله عليه السلام : "لا يقولنّ أحدكم عبدى وأمتى وليقلْ غلامى وجاريتى وفتاىَ وفتاتى" وقد مضى فى « يوسف »(2) القول فيه . وقد بالغ بعض العلماء فقال : لا يقل حرثت فأصبت ، بل يقل : أعاننى الله فحرثت، وأعطانى بفضله ما أصبت . قال الماوردى : وتتضمن هذه الآية أمرين ؛ أحدهما — الآمتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم . الثانى — البرهان الموجب للآعتبار؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشى بذره، وآنتقاله إلى آستواء حاله من العَفَن والتتريب حتى صار زرعا أخضر، ثم جعله قويا مشتدا أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أخفّ عليه وأقدر، وفى هذا البرهان مقنع لذوى الفطر السليمة . ثم قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أى متكسرا يعنى الزرع . والحطام الهشيم الهالك الذى لا ينتفع به فى مطعم ولا غذاء ؛ فنبه بذلك أيضا على أمرين : أحدهما — ماأولاهم به من النِّعم فى زرعهم إذ لم يجعله حطاما ليشكروه . الثانى — ليعتبروا بذلك فى أنفسهم ؛ كما أنه يجعل

---

(١) زيادة لازمة (٢) راجع جـ ٩ ص ١٩٤ طبعة أولى أو ثانية .

الزرع حطاما إذا شاء ، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا . ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أى تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم ؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهما . وفى الصحاح : وتفكه أى تعجب ويقال تندّم ، قال الله تعالى : « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تندمون وتفكهت بالشيء تمتعت به . وقال يمان : تندمون على نفقاتكم؛ دليله : «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا» . وقال عِكْرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التى أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم فى زرعكم . آبن كيسان : تحزنون؛ والمعنى متقارب . وفيه لغتان : تَفَكَّهون وتَفَكَّنُون : قال الفراء : والنون لغة عُكْل . وفى الصحاح : التفكن التندّم على مافات . وقيل : التفكه التكلم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للزاح فُكَاهة بالضم ؛ فأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحا . وقراءة العامة « فَظَلْتُمْ » بفتح الظاء . وقرأ عبد الله « فَظِلْتُمْ » بكسر الظاء ورواها هرون عن حسين عن أبى بكر . فمن فتح فعلى الأصل والأصل ظَلَلْتم لحذف اللام الأولى تخفيفا ، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها . ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضّل « أَئِنَّا » بهمزتين على الآستفهام ورواه عاصم عن زِرّ بن حُبَيْش . الباقون بهمزة واحدة على الخبر؛ أى يقولون « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » أى معذَّبون ؛ عن آبن عباس وقَتَادة قالا والغرام العذاب ؛ ومنه قول آبن المحلِّم :

وثقت بأن الحفظ منّى سجية ✽ وأنّ فؤادى مُتبَلٌ بك مغرمُ

وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا؛ ومنه قول النَّمر بن تَوْلَب :

سَلَا عن تذكُّره تُكْتَما[1] ✽ وكان رَهيناً بها مُغْرَمَا

يقال : أغرم فلان بفلانة ، أى أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم . وقال مجاهد أيضا : لملقون شرا . وقال مقاتل بن حيان : مهلكون . النحاس : « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مأخوذ من الغَرَام وهو الهلاك؛ كما قال[2] :

يومُ النِّسَارِ ويومُ الجِفَا ✽ رِ كَانَا عَذَاباً وكَانَا غَرَامَا

(١) تكتم : آسم من يشبب بها . (٢) قائله بشر بن أبى خازم . النسار موضع وقيل هو ماء لبنى عامر . والجفار موضع وقيل هو ماء لبنى تميم . و يوم النسار و يوم الجفار يومان من أيام العرب مشهوران .

الضحاك وابن كيسان : هو من الغُرْم ، والمُغْرَم الذى ذهب ماله بغير عوض ؛ أى غرمنا الحبّ الذى بذرناه . وقال مُرّة الهَمْدانى : محاسبون . ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى حرمنا ما طلبنا من الرّيع . والمحروم الممنوع من الرزق . والمحروم ضد المرزوق وهو المحارَف فى قول قتادة .

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأرض الأنصار فقال : "مايمنعكم من الحرث" قالوا : الجدوبة ؛ فقال : "لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء و إن شئت زرعت بالريح و إن شئت زرعت بالبذر" ثم تلا « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » .

قلت : وفى هذا الخبر والحديث الذى قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع فى أسماء الله سبحانه ، وأباه الجمهور من العلماء ، وقد ذكرنا ذلك فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ لتحيوا به أنفسكم ، وتسكنوا به عطشكم ، لأن الشراب إنما يكون تبعا للطعوم ، ولهذا جاء الطعام مقدما فى الآية قبلُ ، ألا ترى أنك تسقى ضيفك بعد أن تطعمه . الزمخشرى : ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء :

إذا سُقِيتْ ضُيوفُ الناس مَحْضاً * سَقَوْا أضيافَهمْ شَبِماً زُلَالَا

وسُقِى بعضُ العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثَمِيلة . ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ أى السّحاب الواحدة مُزْنة ؛ فقال الشاعر :

فنحنُ كماءِ المُزْنِ مافى نِصَابِنَا * كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ

وهذا قول آبن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُزْن السّحاب . وعن آبن عباس أيضا والثوري : المُزْن السّماء والسحاب . وفي الصّحاح : أبو زيد؛ المُزْنة السّحابة البيضاء والجمع مُزْن، والمُزْنة المَطْرَة ؛ قال :

أَلَم تَـرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مُزْنَةً ＊ وعُفْرُ الظِّباءِ في الكِنَاسِ تَقَمَّعُ (١)

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ أي فإذا عرفتم بأني أنزلته فلم لا تشـكروني بإخلاص العبـادة لي ؟ ولم تنكرون قدرتي على الإعادة ؟ . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أي ملحا شديد الملوحة ؛ قاله آبن عباس . الحسن : مرًّا قُعَاعًا (٢) لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما . ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي فهلّا تشكرون الذي صنع ذلك بكم .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرَّطْب ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ يعني التي تكون منها الزِّناد وهي المَرْخ والعَفَار . ومنه قولهم : في كلّ شجرٍ نارٌ وآسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَارُ؛ أي آستكثرا منها، كأنهما أخذا من النار ما هو حَسْبهما . ويقال : لأنهما يُسرعان الْوَرْيَ . يقال : أوريت النار إذا قدحتها . ووَرَى الزَّنْدُ يَرِي إذا آنقدح منه النار . وفيه لغـة أخرى : ووَرِي الزَّنْدُ يَرِي بالكسر فيهما . ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أي المخترعون الخالقون ؛ أي فإذا عرفتم قدرتي فآشكروني ولا تنكروا قدرتي على البعث .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعني نار الدنيا موعظة للنار الكبرى؛ قاله قتادة . ومجاهد : تبصرة للناس من الظلام . وصح عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنه قال : " إن ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم " فقالوا يا رسول الله : أن كانت لكافية؛ قال : "فإنها فَضَلت عليها بتسعة وستين جزءا كلّهنّ مثل حَرِّها" . ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال الضحاك : أي منفعة للمسافرين؛ سموا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر . الفراء : إنما يقال

---

(١) البيت لأوس بن حجر : وتقمع تحرك رءوسها لتطرد القمعة وهي ذباب أزرق يدخل في أنوف الدواب .

(٢) في نسخة : زعاقا ومعناهما واحد، وهو الماء الشديد المرارة والملوحة .

للسافرين مُقْوِين إذا نزلوا القِيّ وهى الأرض القفر التى لا شىء فيها . وكذلك القَوَى والقَوَاء بالمد والقصر ، ومنزل قَوَاء لا أنيس به ؛ يقال : أَقْوت الدارُ وقَوِيت أيضا أى خلَت من سكانها ؛ قال النابغة :

يادارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ * أَقْوَتْ وطالَ عليها سالِفُ الأمدِ

وقال عَنْتَرة :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقادَمَ عَهْدُهُ * أَقْوَى وأَقْفَرَ بعدَ أمِّ الهَيْثَمِ

ويقال : أَقْوَى أى قَوِى وقَوِى أصحابه ، وأَقْوَى إذا سافر أى نزل القَوَاء والقِيّ . وقال مجاهد : للقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها . وقال ابن زيد : للجائعين فى إصلاح طعامهم . يقال : أقويت منذ كذا وكذا أى ما أكلت شيئا ، وبات فلان القَوَاء وبات القفرَ إذا بات جائعا على غير طُعْم قال الشاعر (١) :

وإنّى لأختارُ القَوَى طَاوِىَ الحَشَى * محافَظَةً من أَنْ يقالَ لَئِيمُ

وقال الربيع والسدى : المقوين المنزلين لازناد معهم يعنى نارا يوقدون فيختبزون بها ؟ ورواه العوفى عن ابن عباس . وقال قطرب : المُقْوِى من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغنى ؛ يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله . المهدوى : والآية تصلح للجميع لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغنى والفقير . وحكى الثعلبى أن أكثر المفسرين على القول الأول . القشيرى : وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم ، لأن أهل البادية لا بدّ لهم من النار يوقدونها ليلا لتهرب منهم السّباع ، وفى كثير من حوائجهم .

قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أى فنزه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد والعجز عن البعث .

(١) قائله : حاتم طىّ .

قوله تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ « لا » صلة في قول أكثر المفسرين ، والمعنى فأقسم ؛ بدليل قوله : « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ » . وقال الفراء : هي نفي والمعنى ليس الأمر كما تقولون ، ثم آستأنف « أُقْسِمُ » . وقد يقول الرجل : لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفي اليمين بل يريد به نفي كلام تقدّم . أي ليس الأمر كما ذكرت بل هو كذا . وقيل : « لا » بمعنى أَلَا للتنبيه كما قال[1] :

* أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي *

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه ، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا . وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر « فَلَأُقْسِم » بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حالٍ ويقدر مبتدأ محذوف ، التقدير : فلأنا أقسم بذلك . ولو أريد به الآستقبال للزمت النون ، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الآستقبال وهو شاذ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها في قول قتادة وغيره . عطاء بن أبي رَبَاح : منازلها . الحسن : آنكدارها وآنتثارها يوم القيامة . الضحاك : هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطروا قالوا مُطِرنا بنَوْء كذا . الماوردي : ويكون قوله تعالى « فَلَا أُقْسِمُ » مستعملا على حقيقته من نفي القسم . القشيري : هو قسم ولله تعالى أن يقسم بما يريد ، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة .

---

(١) قائله آمرؤ القيس ؛ وتمامه :

* وهل يَنعمن من كان في العصر الخالي *

قلت : يدل على هــذا قراءة الحسن « فَلَأُقْسِمُ » وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته فى غير موضع من كتابه . وقال آبن عباس : المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما ؛ أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين ، فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام عشرين سنة ، فهو ينزله على الأحداث من أمته ؛ حكاه المــاوردى عن آبن عباس والسدى . وقال أبو بكر الأنبارى : حدثنا إسمعيل آبن إسحق القاضى حدثنا حجّاج بن المِنهال حدثنا همّام عن الكلبى عن أبى صالح عن آبن عباس قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل إلى الأرض نجوما ، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر ، فذلك قول الله تعالى : « فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُــونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وحكى الفراء عن آبن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . وقرأ حمزة والكسائى « بِمَوْقِعِ » على التوحيد وهى قراءة عبد الله آبن مسعود والنَّخَعى والأعمش وآبن محيصن ورُوَيس عن يعقوب . الباقون على الجمـع ؛ فمن أفرد فلأنه آسم جنس يؤدّى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلآختلاف أنواعه .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ قيل : إن الهاء تعود على القرآن أى إن القرآن لقسم عظيم ؛ قاله آبن عباس وغيره . وقيل : ما أقسم الله به عظيم « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » ذكر المقسم عليه ؛ أى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة وليس بمفترًى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربهم ، وشفاء صدورهم ؛ كريم على أهل السماء ؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه . وقيل : « كَرِيمٌ » أى غير مخلوق . وقيل : « كَرِيمٌ » لمــا فيه من كريم الأخلاق ومعالى الأمور . وقيل : لأنه يُكرِّم حافظه ويُعظِّم قارئه .

الرابعــة ــ قوله تعــالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون عند الله تعــالى . وقيل : مكنون محفوظ عن البــاطل . والكتاب هنــا كتاب فى السماء ؛ قاله آبن عبــاس . وقال جابر بن زيد وآبن عباس أيضا : هو اللوح المحفوظ . عِكرمة : التــوراة والإنجيل فيهما ذكر

القرآن ومن ينزل عليه . السدىّ : الزبور . مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ٱختلف فى معنى « لَا يَمَسُّهُ » هل هو حقيقة فى المسّ بالجارحة أو معنى؟ وكذلك ٱختلف فى «الْمُطَهَّرُونَ» من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جبير : لا يمسّ ذلك الكتاب إلا المطهَّرون من الذنوب وهم الملائكة . وكذا قال أبو العالية وٱبن زيد : إنهم الذين طُهِّروا من الذّنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم؛ فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون . الكلبىّ : هم السَّفَرة الكرام البرَرَة . وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما ٱختاره مالك حيث قال : أحسن ما سمعت فى قوله « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنها بمنزلة الآية التى فى «عَبَسَ وَتَوَلَّى » : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ » يريد أن المطهَّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة فى سورة «عبس». وقيل: معنى «لَا يَمَسُّهُ» لا ينزل به « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أى الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء . وقيل : لا يمسّ اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهَّرون . وقيل : إن إسرافيل هو الموكل بذلك؛ حكاه القشيرى . ٱبن العربى : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله فى وقت ولا تصل إليه بحال ، ولو كان المراد به ذلك لما كان للٱستثناء فيه مجال . وأما من قال : إنه الذى بأيدى الملائكة فى الصحف فهو قول محتمل؛ وهو ٱختيار مالك . وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا؛ وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن فى كتاب عمرو بن حزم الذى كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته : (من محمد النبىّ إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلَال والحرث بن عبد كُلَال ونُعَيْم بن عبد كُلَال قَيْل ذى رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان فى كتابه ألا يمسّ القرآن إلا طاهر . وقال ٱبن عمر قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا تَمَسّ القرآن إلا وأنت طاهر". وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة : « لَا يَمَسُّهُ

إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » فقام وٱغتسل وأسلم . وقد مضى فى أول سورة « طه »(١) . وعلى هذا المعنى قال قَتَادة وغيره : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » من الأحداث والأنجاس . الكلبي : من الشرك . الربيع بن أنس : من الذنوب والخطايا . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا يقرؤه « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » إلا الموحِّدون ؛ قاله محمد بن فضيل وعبيدة . قال عِكرمة : كان ٱبن عباس ينهى أن يُمَكَّن أحدٌ من اليهود والنصارى من قراءة القرآن . وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعَه وبركته إلا المطهَّرون ؛ أى المؤمنون بالقرآن . ٱبن العربي : وهو ٱختيار البخاري ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً " . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهّره الله من الشرك والنفاق . وقال أبو بكر الورّاق : لا يوفق للعمل به إلا السّعداء . وقيل : المعنى لا يمس ثوابه إلا المؤمنون . ورواه معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ظاهر الآية خبر عن الشرع ؛ أى لا يمسّه إلا المطهَّرون شرعا ، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع ؛ وهذا ٱختيار القاضى أبى بكر بن العربي . وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة » . المهدوي : يجوز أن يكون أمرا وتكون ضمة السين ضمة إعراب . ويجوز أن يكون نهيا وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم .

السادسة ـ وٱختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء ؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم . وهو مذهب عليّ وٱبن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد ٱبن زيد وعطاء والزهرى والنَّخَعيّ والحكم وحمّاد ، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي . وٱختلفت الرواية عن أبى حنيفة ؛ فروى عنه أنه يمسّه المحدِث ، وقد روى هذا عن جماعة من السّلف منهم ٱبن عباس والشّعبي وغيرهما . وروى عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر . ٱبن العربي : وهذا إن سلّمه ممّا يقوى الحجة عليه ؛ لأن حريم الممنوع ممنوع . وفيما كتبه النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٣ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ٱبن حزم أقوى دليل عليه . وقال مالك : لا يحمله غير طاهر بعِلاقة ولا على وِسادة . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذلك . ولم يمنع من حَمْله بعِلاقة أو مسّه بحائل . وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن على أنه لا بأس بحمله ومسّه للسلم والكافر طاهرا أو محدثا إلا أن داود قال: لا يجوز للشرك حمله . وٱحتجوا فى إباحة ذلك بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه . وفى مسّ الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع ٱعتبارا بالبالغ . والثانى الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأن تعلّمه حال الصغر؛ ولأن الصبىّ وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثا .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى منزل؛ كقولهم : ضَرْب الأمير ونَسج اليمن . وقيل : « تَنْزِيلٌ » صفة لقوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وقيل : أى هو تنزيل .

قوله تعالى : أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ أى مكذّبون ؛ قاله ٱبن عباس وعطاء وغيرهما . والمُدْهِن الذى ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبه بالدُّهن فى سهولة ظاهره . وقال مقاتل بن سليمان وقَتادة : مُدْهِنون كافرون ؛ نظيره : « وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » . وقال المؤرِّج : المدهن المنافق أو الكافر الذى يُلين جانبه ليُخْفى كفره ،

والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللّين وأن يُسِرّ خلاف ما يظهر؛ وقال أبو قيس بن الأَسْلَت :

الحَزْمُ والقُوَّةُ خيرٌ من الإدهان والفَهَّةِ والهَاعِ (١)

وأدهن وداهن واحد . وقال قوم : داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غَشَشْت . وقال الضحاك : «مدهنون» معرضون . مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر به . ابن كيسان : المدهن الذى لا يعقل ما حقّ الله عليه ويدفعه بالعلل . وقال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم فى قبول القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال ابن عباس : تجعلون شكركم التكذيب . وذكر الهيثم بن عدى : أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان ؟ أى ما شكره . وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره ؛ لأن شكر الرزق يقتضى الزيادة فيه فيكون الشكر رزقا على هذا المعنى . فقيل : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ » أى شكر رزقكم الذى لو وجد منكم لعاد رزقا لكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالرزق أى تضعون الكذب مكان الشكر ؛ كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » أى لم يكونوا يُصلُّون ولكنهم كانوا يصفرون ويُصفِّقون مكان الصلاة . ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكن أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة ، أو صبرٍ إن كان مكروها تعبدا له وتذللا . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » حقيقة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد به الاستسقاء بالأنواء وهو قول العرب مُطِرنا بنَوْء كذا . رواه علىّ بن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : مُطِر الناسُ على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافرٌ قالوا

(١) الفهة العى . والهاع هنا : سوء الحرص مع ضعف .

هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صَدَق نَوْءُ كذا وكذا " قال فنزلت هذه الآية : « فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » حتى بلغ « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » . وعنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج فى سفر فعطشوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقيتم لعلكم تقولون هذا المطر بنَوْء كذا " فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء . فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطروا ؛ فمرّ النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقينا بنَوْء كذا ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم لله على رزقه إياكم « أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » بالنعمة وتقولون سُقينا بنَوْء كذا ؛ كقولك : جعلتَ إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، وجعلتَ إنعامى لديك أن اتخذتنى عدوًّا . وفى الموطأ عن زيد بن خالد الجُهَنِىّ أنه قال: صلّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبح بالحُدَيْبِية على إِثْرِ سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس وقال : "أتدرون ماذا قال ربكم" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بالكوكب فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب وأما من قال مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بى " . قال الشافعى رحمه الله : لا أحبّ أحدا أن يقول مُطرنا بنَوْء كذا وكذا ، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئا من المطر ، والذى أحبّ أن يقول : مُطرنا وقت كذا كما تقول مُطرنا شهر كذا ، ومن قال ، مُطرنا بنَوْء كذا ، وهو يريد أن النَّوْء أنزل الماء ، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر ، حلال دمه إن لم يَتُب . وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكيا عن الله سبحانه : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر " فمعناه عندى على وجهين ؛ أما أحدهما فإن المعتقد بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرا صريحا يجب استتابته عليه وقتله [إن أبى] لنبذه الإسلام وردّه القرآن ؛ والوجه الآخر أن

(١) فى إثر سماء : أى بعد مطر . وفى « إثر » لغتان : كسر الهمزة وسكون الثاء، وفتحهما .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

يعتقد أن النَّوْء يُنزل الله به الماء ، وأنه سبب الماء على ما قدّره الله وسبق فى علمه ؛ وهذا وإن كان وجها مباحا ، فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عز وجل ، وجهلا بلطيف حكمته فى أنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنَوْء كذا ، ومرة بنَوْء كذا ، وكثيرا ما ينوء النَّوْء فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله تعالى لا من النَّوْء . وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطر : مُطرنا بنَوْء الفتح ؛ ثم يتلو : «مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا» قال أبو عمر : وهذا عندى نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "مُطرنا بفضل الله ورحمته". ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين آستسقى به : ياعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كم بقى من نَوْء الثريا ؟ فقال العباس : العلماء يزعمون أنها تعترض فى الأفق سبعا بعد سقوطها . فما مضت سابعة حتى مطروا ؛ فقال عمر : الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته . وكان عمر رحمه الله قد علم أن نَوْء الثُّرَيا وقت يُرْجى فيه المطر ويؤمَّل فسأله عنه أخرج أم بقيت منه بقية . وروى سفيان بن عيينة عن إسمعيل بن أمية أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا فى بعض أسفاره يقول : مطرنا ببعض عَثَانين الأسد ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبتَ بل هو سُقْيا الله عز وجل" قال سفيان : عَثَانين الأسد الذّراع والجبهة . وقراءة العامة « تُكَذِّبون » من التكذيب . وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وثّاب « تَكْذِبُونَ » بفتح التاء مخففا . ومعناه ما قدمناه من قول من قال : مطرنا بنَوْء كذا . وثبت من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لن يزلن فى أمتى التفاخر فى الأحساب والنِّياحة والأَنْواء" ولفظ مسلم فى هذا " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب والآستسقاء بالنجوم والنياحة " .

قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ أى فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلقوم . ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى معروف ؛ قال حاتم :

أَماوِيّ ما يُغنِى الثَّرَاءُ عن الفتى * إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

وفى حديث : " إنّ مَلَك الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيئا فشيئا حتى ينتهى بها الى الحُلْقوم فيتوفاها ملك الموت " . ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أمرى وسلطانى . وقيل : تنظرون إلى الميت لا تقدرون له على شيء . وقال ابن عباس : يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه . ثم قيل : هو رد عليهم فى قولهم لإخوانهم « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » أى فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحُلْقوم . وقيل : المعنى فهلا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه فى جسده، مع حرصكم على امتداد عمره، وحبكم لبقائه . وهذا رد لقولهم : « نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » . وقيل : هو خطاب لمن هو فى النزع ؛ أى إن لم يك ما بك من الله فهلا حفظت على نفسك الروح . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أى بالقدرة والعلم والرؤية قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت الى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلىّ منه . وقيل أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه « أقرب إليه منكم » ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أى لا ترونهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أى فهلّا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَدِينُونَ »[1] أى مجزيّون محاسبون . وقد تقدم . وقيل : غير مملوكين ولا مقهورين . قال الفراء وغيره : دنته ملكته ؛ وأنشد للحطيئة :

لقد دُيِّنْتِ[2] أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى * تَرَكْتِهِمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

يعنى مُلِّكْتِ . ودانه أى أذله واستعبده؛ يقال : دنته فدان . وقد مضى فى « الفاتحة »[3] القول فى هذا عند قوله تعالى : « يَوْمِ الدِّينِ » . ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ ترجعون الروح الى الجسد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين . و « تَرْجِعُونَهَا » جواب لقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » ولقوله : « فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ »

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) ويروى : سوست ؛ يخاطب أمه .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٤٣ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أجيبا بجواب واحد . قاله الفراء . وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى : « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . وقيل : حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقيل : فيها تقديم وتأخير مجازها : فلولا وهلّا إن كنتم غير مدينين ترجعونها ؛ تردون نفس هذا الميت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم .

قوله تعالى : فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبين درجاتهم فقال : «فَأَمَّا إِنْ كَانَ» هذا المتوفى « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وهم السابقون . ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ وقراءة العامة « فَرَوْحٌ » بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره فراحة من الدنيا . وقال الحسن : الرَّوح الرحمة . الضحاك : الرَّوح الاستراحة . القتبي : المعنى له في القبر طيب نسيم . وقال أبو العباس بن عطاء : الرَّوح النظر إلى وجه الله ، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه ، وجنة نعيم هو ألا يحجب فيها عن الله عز وجل . وقرأ الحسن وقَتادة ونصر بن عاصم والجَحْدري ورُوَيس وزيد عن يعقوب « فَرُوحٌ » بضم الراء ورويت عن ابن عباس . قال الحسن : الرُّوح الرحمة ؛ لأنها كالحياة للمرحوم . وقالت عائشة رضي الله عنها : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « فَرُوح » بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة

فى الجنة وهذا هو الرحمة . « وَرَيْحَانٌ » قال مجاهد وسعيد بن جبير : أى رزق . قال مقاتل : هو الرزق بلغة حمير ؛ يقال خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه ؛ قال النَّمِر بن تَوْلَب :

سَلَامُ الإلهِ ورَيْحانُه * ورحمتُـه وسَمَاءٌ دِرَرْ

وقال قتادة : إنه الجنة . الضحاك : الرحمـة . وقيل هو الريحان المعروف الذى يشم . قاله الحسن وقتادة أيضا . الربيع بن خيثم : هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث . أبو الجوزاء : هذا عند قبض روحه يتلق بضَبَائِر الرَّيْحان . أبو العالية : لا يفارق أحد رُوحه من المقربين فى الدنيا حتى يؤتى بغصنين[1] من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما وأصـل ريحان وآشتقاقه تقدم فى أول سورة « الرحمن »[2] فتأمله . وقد سرد الثعلبى فى الرَّوْح والرَّيْحان أقوالا كثيرة سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى « إِنْ كَانَ » هذا المتوفى « مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم ، فإنهم يسلمون من عذاب الله . وقيل : المعنى سلام لك منهم ؛ أى أنت سالم من الاغتمام لهم . والمعنى واحد . وقيل : أى إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلى الله عليك ويسلّم . وقيل : المعنى إنهم يسلّمون عليك يا محمد . وقيل : معناه سلمت أيها العبد ممـا تكره فإنك من أصحاب اليمين فحذف إنك . وقيل : إنه يُحيَّا بالسلام إكراما ؛ فعلى هذا فى محل السـلام ثلاثة أقاويل : أحدها عند قبض روحه فى الدنيا يسلّم عليه ملَك الموت ؛ قاله الضحاك . وقال آبن مسعود : إذا جاء ملَك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقد مضى هذا فى سورة « النحل »[3] عند قوله تعالى : « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » الثانى عند مساءلته فى القبر يسلّم عليه منكر ونكير . الثالث عند بعثه فى القيامة تسلّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها .

---

(١) فى رواية أخرى « بغصن » . (٢) راجع ص ١٥٧ فما بعدها من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٠١ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وقد يحتمل أن تسلّم عليه فى المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراما بعد إكرام . والله أعلم . وجواب « إنْ » عند المبرِّد محذوف والتقدير مهما يكن من شىء « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » إن كان من أصحاب اليمين « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليه ، كما حذف الجواب فى نحو قولك أنت ظالم إن فعلت؛ لدلالة ما تقدّم عليه . ومذهب الأخفش أن الفاء جواب « أَمَّا » و « إِنْ » ومعنى ذلك أن الفاء جواب « أَمَّا » وقد سدّت مسدّ جواب « إِنْ » على التقدير المتقدّم ، والفاء جواب لها على هذا الحد . ومعنى « أَمَّا » عند الزجاج الخروج من شىء إلى شىء؛ أى دع ما كنا فيه وخذ فى غيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالبعث ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ عن الهدى وطريق الحق ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى فلهم رزق من حميم ، كما قال : «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ » وكما قال : «ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ» ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ إدخال فى النار. وقيل : إقامة فى الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها؛ يقال: أصلاه النار وصلاه؛ أى جعله يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول؛ كما يقال: لفلان إعطاء مال أى يُعطَى المال. وقرئ «وَتَصْلِيَةِ» بكسر التاء أى ونزل من تصلية جحيم . ثم أدغم أبو عمرو التاء فى الجيم وهو بعيد . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى هذا الذى قصصناه محض اليقين وخالصه. وجاز إضافة الحق إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما . قال المبرد : هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين فهو من باب إضافة الشىء إلى نفسه عند الكوفيين. وعند البصريين حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين. وقيل : هو توكيد . وقيل : أصل اليقين أن يكون نعتا للحق فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز ؛ كقوله : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » وقال قتادة فى هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدا من الناس حتى يَقِفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن فى الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى نَزِّه الله تعالى عن السوء . والباء زائدة أى سبح اسم ربك والاسم المسمى . وقيل :

« فَسَبِّحْ » أى فصلّ بذكر ربك وبأمره . وقيل : فاذكر ٱسم ربك العظيم وسبحه . وعن عقبة بن عامر قال : لما نزلت « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » قال النبي صلى الله عليه وسلم "ٱجعلوها فى ركوعكم" ولما نزلت « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ٱجعلوها فى سجودكم" خرجه أبو داود . والله أعلم .

سورة الحديد

مدنية فى قول الجميع وهى تسع وعشرون آية

عن العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد ويقول : "إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية" يعنى بالمسبّحات « الحديد » و « الحشر » و « الصف » و « الجمعة » و « التغابن » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى مجد الله ونزهه عن السوء . وقال ٱبن عباس : صلى لله « مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ » ممن خلق من الملائكة « وَٱلْأَرْضِ » من شىء فيه رُوح أو لا رُوح فيه . وقيل : هو تسبيح الدلالة . وأنكر الزجاج هـذا وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ؛ فلِمَ قال : « وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وإنما هو تسبيح مقال . وٱستدل بقوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ » فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ؟ !

قلت : وما ذكره هو الصحيح ، وقد مضى بيانه والقول فيه فى «سبحان»(١) عند قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى انفرد بذلك . والمُلْك عبارة عن المُلْك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر . وقيل : أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق . ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يميت الأحياء فى الدنيا ويحيى الأموات للبعث . وقيل : يحيى النطف وهى موات ويميت الأحياء . وموضع « يُحْيِي وَيُمِيتُ » رفع على معنى وهو يحيى ويميت . ويجوز أن يكون نصبا بمعنى « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » محييا ومميتا على الحال من المجرور فى « له » والجار عاملا فيها . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى الله لا يعجزه شىء .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ اختلف فى معانى هذه الأسماء وقد بيناها فى الكتاب الأسنى . وقد شرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحا يغنى عن قول كل قائل ؛ فقال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : " اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر " عنى بالظاهر الغالب ، وبالباطن العالم ؛ والله أعلم . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم فى « الأعراف[1] » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من رزق ومطر وملك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يعنى بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شىء منها . وقد جمع فى هذه الآية بين « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » وبين « وَهُوَ مَعَكُمْ » والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بدّ من التأويل ، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض . وقد قال الإمام أبو المعالى : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان فى بطن الحوت . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا التكرير للتأكيد أى هو المعبود على الحقيقة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى أمور الخلائق فى الآخرة . وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائى وخلف « تَرجِع » بفتح التاء وكسر الجيم . الباقون « تُرْجَعُ » .

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾ تقدّم فى « آل عمران[2] » . ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى لا تخفى عليه الضمائر ، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾

قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى صدّقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ تصدّقوا . وقيل أنفقوا فى سبيل الله . وقيل : المراد الزكاة المفروضة . وقيل : المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ دليل على أن أصل الملك لله سبحانه ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك بالجنة . فمن أنفق منها فى حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم . وقال الحسن : « مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم . وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النواب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقّ قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم . ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وعملوا الصالحات ﴿ مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ استفهام يراد به التوبيخ . أى أىّ عذر لكم فى ألا تؤمنوا وقد أزيحت العلل ؟ ! ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ بين بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع . وقرأ أبو عمرو : ﴿ وَقَدْ أُخِذَ مِيثَاقُكُمْ ﴾ على غير مسمى الفاعل . والباقون على مسمى الفاعل . أى أخذ الله ميثاقكم . قال مجاهد : هو الميثاق الأول الذى كان وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه . وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركب فيكم العقول ، وأقام عليكم الدلائل والحجج التى تدعو إلى متابعة الرسول ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إذ كنتم . وقيل : أى

إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل . وقيل : أى إن كنتم مؤمنين بحق يوما من الأيام فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقد صحت براهينه . وقيل : إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم . وكانوا يعترفون بهذا . وقيل : هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ميثاقهم فارتدوا . وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان .

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يريد القرآن . وقيل : المعجزات؛ أى لزمكم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لما معه من المعجزات ، والقرآن أكبرها وأعظمها . ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أى بالقرآن . وقيل : بالرسول . وقيل : بالدعوة . ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ وهو الإيمان . ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى أى شيء يمنعكم من الإنفاق فى سبيل الله ، وفيما يقربكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهى صائرة إلى الله تعالى . فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق . ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى إنهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له .

الثانية — قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة . وقال الشعبى والزهرى : فتح الحديبية . قال قتادة :

كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفي الكلام حذف؛ أي «لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل. فحذف لدلالة الكلام عليه. وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشقّ والأجر على قدر النَّصَب. والله أعلم.

الثالثة — روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقدَّم أهل الفضل والعزم؛ وقد قال الله تعالى: «لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» وقال الكلبي: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه؛ لأنه أوّل من أسلم. وعن ابن مسعود: أوّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر؛ ولأنه أوّل من أنفق على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم. وعن ابن عمر قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّها في صدره بخِلال فنزل جبريل فقال: يا نبيّ الله! مالي أرى أبابكر عليه عباءة قد خلَّها في صدره بخِلَال فقال: " قد أنفق عليَّ ماله قبل الفتح " قال: فإن الله يقول لك اقرأ على أبي بكر السلام وقل له أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط " فقال أبو بكر: أأسخط على ربّي؟ إني عن ربّي لراض، إني عن ربّي لراض، إني عن ربّي لراض، قال: " فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عني راض " فبكى أبو بكر فقال جبريل عليه السلام: والذي بعثك يا محمد بالحقّ، لقد تخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيِّ منذ تَخلَّل صاحبك هذا بالعباءة؛ ولهذا قدمته الصحابة على أنفسهم، وأقروا له بالتقدم والسبق. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سبق النبي صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثلَّث عمرُ، فلا أوتى برجل فضَّلني على أبي بكر إلا جلدته حد المفترى ثمانين جلدة وطرح الشهادة. فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ.

الرابعـــة — التقدّم والتأخر قد يكون فى أحكام الدنيا، فأما فى أحكام الدين فقد قالت عائشة رضى الله عنها : أمرنا رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن ننزل الناس منازلهم . وأعظم المنازل مرتبـة الصلاة . وقد قال صلى الله عليـه وسلم فى مرضـه : " مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس " الحديث . وقال : " يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله " وقال : " وليؤمكما أكبركما " من حديث مالك بن الحويرث وقد تقدم . وفهم منه البخارى وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال صلى الله عليـه وسلم : " الولاء لِلكُبْرَ " ولم يعن كبر السن . وقد قال مالك وغيره : إن للسنّ حقّا . وراعاه الشافعى وأبو حنيفة وهـو أحقّ بالمراعاة ؛ لأنه إذا آجتمع العلم والسنّ فى خيِّرين قُدِّم العـلم، وأما أحكام الدنيا فهى مرتبة على أحكام الدين، فمن قُدِّم فى الدين قُدِّم فى الدنيا . وفى الآثار : " ليس مِنا من لم يوقِّر كبيرَنا و يرحم صغيرنا و يعـرف لعالمنا حقّه" . ومن الحديث الثابت فى الأفراد : "ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيَّض الله له عند سنِّه من يكرمه "[1] وأنشدوا :

يا عائبـاً للشيوخ مِن أَشَرٍ * دَاخَلَهُ فى الصِّبا ومن بَذَخِ

آذكر إذا شئتَ أن تُعيِّرهمْ * جدَّكَ وآذكر أباك يابن أخِ

وآعلم بأن الشبابَ منسلِخٌ * عنـك وما وِزْرُه بمنسلِخ

من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ * يوماً به سِـنُّه إلى الشَّيَـخ

الخامسة — قوله تعالى : « وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » أى المتقدمون المتناهون السابقون والمتأخرون اللاحقون وعدهم الله جميعا الجنة مع تفاوت الدرجات . وقرأ آبن عامر «وَكُلٌّ» بالرفع وكذلك هـو بالرفع فى مصاحف أهـل الشام . الباقون « وَكُلًّا » بالنصب عـلى ما فى مصاحفهم ؛ فمن نصب فعـلى إيقاع الفعل عليـه أى وعد الله كلّا الحسنى . ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل، والهاء محذوفة من وعده .

---

(١) هو لابن عبد الصمد السرقسطى كما فى « أحكام القرآن » لابن العربى .

قوله تعالى : مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ندب إلى الإنفاق فى سبيل الله ؛ وقد مضى فى « البقرة »[1] القول فيه . والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا قد أقرض؛ كما قال[2] :

وإذا جُوزِيتَ قَرْضًا فَاجْزِهِ * إِنَّمَا يَجْزِى الفتى ليس الجَمَلْ

وسمى قرضا ؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل . أى من ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة . قال الكلبى : « قرضا » أى صدقة « حسنا » أى محتسبا من قلبه بلا منّ ولا أذى . ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ مابين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف . وقيل : القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . رواه سفيان عن أبى[3] حيان . وقال زيد بن أسلم : هو النفقة على الأهل . الحسن : التطوع بالعبادات . وقيل : إنه عمل الخير ؛ والعرب تقول : لى عند فلان قرض صدق وقرض سوء . القشيرى : والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس ، يبتغى به وجه الله دون الرياء والسمعة ، وأن يكون من الحلال . ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الردىء فيخرجه ؛ لقوله تعالى : « ولا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ »

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧ فما بعدها .

(٢) قائله لبيد ؛ ومعنى البيت : إذا أسدى إليك معروف فكافئ عليه .

(٣) كل نسخ الأصل بلفظ أبى حيان والظاهر أن صوابه : ابن حيان .

وأن يتصدق فى حال يأمل الحياة ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الصدقة فقال : " أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقى قلت لفلان كذا ولفلان كذا " وأن يخفى صدقته ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » وألا يمن ؛ لقوله تعالى : « لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » وأن يستحقر كثير ما يعطى ؛ لأن الدنيا كلها قليلة ، وأن يكون من أحب أمواله ؛ لقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وأن يكون كثيرا ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "أفضل الرقاب أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها " . « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » وقرأ ابن كثير وابن عامر « فَيُضَعِّفُهُ » بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء . وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة « فَيُضَاعِفُهُ » بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء . ورفع الباقون عطفا على « يُقْرِضُ » . وبالنصب جوابا على الاستفهام . وقد مضى فى « البقرة »(1) القول فى هذا مستوفى . ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ العامل فى « يوم » « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » وفى الكلام حذف أى « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » فى « يوم ترى » فيه ﴿ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ ﴾ أى يمضى على الصراط فى قول الحسن . وهو الضياء الذى يمرون فيه ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى قدامهم . ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قال الفراء : الباء بمعنى فى أى فى أيمانهم أو بمعنى عن أى عن أيمانهم . وقال الضحاك : «نُورُهُمْ» هداهم «وبِأَيْمَانِهِم» كتبهم ؛ واختاره الطبرى . أى يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى فى . ويجوز على هذا أن يوقف على « بَيْنَ أَيْدِيهِم » ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن . وقرأ سهل ابن سعد الساعدى وأبو حيوة «وبإيمانهم» بكسر الألف أراد الإيمان الذى هو ضد الكفر . وعطف ما ليس بظرف على الظرف ؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف . والمعنى

---

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٣٩ طبعة أولى أو ثانية .

يسعى كائنا « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » وكائنا « بِإِيمَانِهِـمْ » وليس قوله « بَيْنَ أَيْدِيهِـمْ » متعلقا بنفس « يَسْعَى » . وقيـل : أراد بالنـور القرآن . وعن ابن مسـعود : يؤتون نورهم على قـدر أعمالهم، فمنهـم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نورا من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى . وقال قتادة : ذكر لنـا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينـة وعدنٍ أو ما بين المدينـة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضـع قدميه " قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط كما تقـدم . وقال مقاتل : ليكون دليـلا لهم إلى الجنة . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ التقـدير يقال لهـم «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جناتٍ ولا بد من تقدير حذف المضاف؛ لأن البشرى حدث والجنة عين فلا تكون هي هي . « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من تحتهم أنهار اللبن والمـاء والخمر والعسل من تحت مساكنها . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الدخول المحذوف ؛ التقدير « بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جناتٍ « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم ؛ لأن فيه فصلا بين الصلة والموصول . ويجوز أن يكون مما دل عليه البشرى، كأنه قال : تبشرون خالدين . ويجوز أن يكون الظرف الذي هو « الْيَوْمَ » خبرا عن « بُشْرَاكُمْ » و « جَنَّـاتٌ » بدلا من البشرى على تقـدير حذف المضاف كما تقدم . و « خَالِدِينَ » حال حسب ما تقدم . وأجاز الفراء نصب « جَنَّات » على الحـال على أن يكون « الْيَوْمَ » خبرا عن «بُشْرَاكُمْ» وهو بعيد؛ إذ ليس في « جَنَّات » معنى الفعل . وأجاز أن يكون «بشراكم» نصـبا على معنى يبشرونهم بشرى وينصب « جنات » بالبشرى وفيـه تفرقة بين الصـلة والموصـول .

قوله تعالى : يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ العامل فى « يوم » « ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . وقيل : هو بدل من اليوم الأول . ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر، والنظر الانتظار أى انتظرونا . وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار . أى أمهلونا وأخرونا ؛ أنظرته أخرته واستنظرته أى استمهلته . وقال الفراء : تقول العرب : أنظرنى انتظرنى ؛ وأنشد لعمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا * وأنظرنا نخبرك اليقينا

أى انتظرنا . ﴿ نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ أى نستضىء من نوركم . قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة — قال الماوردى : أظنها بعد فصل القضاء — ثم يعطون نورا يمشون فيه . قال المفسرون : يعطى الله المؤمنين نورا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، و يعطى المنافقين أيضا نورا خديعة لهم ؛ دليله قوله تعالى : « وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . وقيل : إنما يعطون النور ؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر ، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو أمامة : يعطى المؤمن النور و يترك الكافر والمنافق بلا نور . وقال الكلبى : بل يستضىء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور ، فبينما هم يمشون

إذ بعث الله فيهم ريحا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين؛ فذلك قوله تعالى : « رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » يقوله المؤمنون ؛ خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون ، فإذا بقى المنافقون فى الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للؤمنين : « ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » . ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ أى قالت لهم الملائكة « ٱرْجِعُوا » . وقيل : بل هو قول المؤمنين لهم « ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ » إلى الموضع الذى أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورا فإنكم لا تقتبسون من نورنا . فلما رجعوا وانعزلوا فى طلب النور ﴿ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ ﴾ . وقيل : أى هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا . « بِسُورٍ » أى سُورٌ ؛ والباء صلة . قاله الكسائى . والسّور حاجز بين الجنة والنار . وروى أن ذلك السّور ببيت المقدس عند موضع يعرف بوادى جهنم . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ يعنى ما يلى منه المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ يعنى ما يلى المنافقين . قال كعب الأحبار : هو الباب الذى ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة . وقال عبد الله بن عمرو : إنه سور بيت المقدس الشرقى باطنه فيه المسجد « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعنى جهنم . ونحوه عن ابن عباس . وقال زياد بن أبى سوادة : قام عبادة ابن الصامت على سور بيت المقدس الشرقى فبكى، وقال : من هاهنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم . وقال قتادة : هو حائط بين الجنة والنار « بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعنى الجنة « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعنى جهنم . وقال مجاهد : إنه حجاب كما فى « الأعراف » وقد مضى القول فيه [1] . وقد قيل : إن الرحمة التى فى باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين .

قوله تعالى : ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أى ينادى المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ فى الدنيا يعنى نصلى مثل ما تصلون، ونغزو مثل ما تغزون، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى يقول المؤمنون « بَلَى » قد كنتم معنا فى الظاهر ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى ٱستعملتموها فى الفتنة . وقال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق . وقيل : بالمعاصى؛ قاله أبو سنان . وقيل : بالشهوات واللذات

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

رواه أبو نمير الهمْدانى . ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ أى «تَرَبَّصْتُمْ» بالنبى صلى الله عليه وسلم الموت وبالمؤمنين الدوائر. وقيل : « تَرَبَّصْتُمْ » بالتوبة « وَٱرْتَبْتُمْ » أى شككتم فى التوحيد والنبوة ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾ أى الأباطيل . وقيل : طول الأمل . وقيل : هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم. وقال قتادة : الأمانى هنا خدع الشيطان. وقيل : الدنيا؛ قاله عبد الله بن عباس[1] . وقال أبو سنان : هو قولهم سيغفر لنا. وقال بلال بن سعد : ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غِرة . ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ يعنى المـوت . وقيل : نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : إلقاؤهم فى النار . ﴿ وَغَرَّكُم ﴾ أى خدعكم ﴿ بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ أى الشيطان . قاله عكرمة ؛ وقيل : الدنيا ؛ قاله الضحاك . وقال بعض العلماء : إن للباقى بالمـاضى معتبرا ، وللآخر بالأول مزدجرا ، والسعيد من لا يغتر بالطمع ، ولا يركن إلى الخدع ومن ذكر المنيّـة نسى الأمنيّة ، ومن أطال الأمـل نسى العمل ، وغفل عن الأجل . وجاء « الْغَرُورُ » على لفظ المبـالغة للكثرة . وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقع وسِمَـاك بن حرب «الْغُرُورُ» بضم الغين يعنى الأباطيل وهو مصدر . وعن ٱبن عباس : أن نبى الله صلى الله عليه وسلم خط لنـا خطوطا ، وخطّ منها خطّا ناحية فقال : " أتدرون ما هذا هذا مثل ٱبن آدم ومثل التمنى وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت " . وعن ٱبن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطّا مربعا ، وخطّ فى وسطه خطّا وجعله خارجا منه ، وخط عن يمينـه ويساره خطوطا صغارا فقال : " هذا ٱبن آدم وهذا أجله محيـط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا " .

قوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ أيها المنافقون ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أيأسهم من النجاة . وقراءة العامة « يؤخذ » باليـاء ؛ لأن التأنيث غير حقيقى ؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل . وقرأ ٱبن عامر ويعقوب «تُؤْخَذُ» بالتاء وٱختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية . والأول

(١) فى بعض الأصول : عبد الله بن عياش .

آختيار أبى عبيد؛ أى لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى . ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى مقامكم ومنزلكم ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى أولى بكم والمولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم آستعمل فيمن كان ملازما للشيء . وقيل : أى النار تملك أمرهم؛ بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُرَكّب فيها الحياة والعقل فهى تتميز غيظا على الكفار، ولهذا خوطبت فى قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى ساءت مرجعا ومصيرا.

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى يقرب ويحين، قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْنِ لى يا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الجَهْلَا * وأن يُحْدِثَ الشَّيبُ المبينُ لنا عَقْلَا

وماضيه أَنَى بالقصر يَأْنِى . ويقال : آن لك ـ بالمد ـ أن تفعل كذا يَئِين أَيْنا أى حان، مثل أَنَى لك وهو مقلوب منه . وأنشد آبن السكيت :

أَلَمّا يَئِنْ لِي أَنْ تُجَلَّى عَمَايَتِي * وأُقْصِرَ عن لَيْلَى بَلَى قد أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين . وقرأ الحسن « أَلَمَّا يَأْنِ » وأصلها « ألم » زيدت « ما » فهى نفى لقول القائل : قد كان كذا، و « لم » نفى لقوله : كان كذا . وفى صحيح مسلم عن آبن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » إلا أربع سنين . قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدة؛ تقول عاتبته معاتبة ﴿ أَنْ تَخْشَعَ ﴾ أى تذل وتلين ﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

روى أن المزاح والضحك كثر فى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما ترفّهوا بالمدينة، فنزلت الآية؛ ولما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يستبطئكم بالخشوع " فقالوا عند ذلك : خشعنا . وقال ابن عباس : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . وقيل : نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت « الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » إلى قوله : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » الآية ؛ فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأول فنزلت : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا فى العلانية باللسان. قال السدى وغيره : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بالظاهر وأسرّوا الكفر « أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » . وقيل : نزلت فى المؤمنين . قال سعد : قيل يارسول الله لو قصصت علينا فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فقالوا بعد زمان : لو حدثتنا فنزل « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » فقالوا بعد مدة لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» ونحوه عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول : ما أحدثنا ؟ قال الحسن : استبطأهم وهم أحب خلقه إليه . وقيل : هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا : « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ » أى ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمتقدمى قوم موسى وعيسى؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم فقست قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا ﴾ أى وألا يكونوا فهو منصوب عطفا على « أَنْ تَخْشَعَ » . وقيل . مجزوم على النهى ؛ مجازه ولا يكونن ؛ ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب « وَلَا تَكُونُوا » بالتاء ؛ وهى قراءة عيسى وابن إسحق . يقول : لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى، أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الازمان بهم . قال ابن مسعود: إن بنى إسرائيل

لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فآخترعوا كتابا من عند أنفسهم آستحلته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. ثم قالوا: أعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فآتركوهم وإلا فآقتلوهم. ثم آصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد؛ فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله في ورقة وجعلها في [قرن وعلقه في] عنقه[1] ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنت بهذا يعني المعلق على صدره. فآفترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة؛ وخير مللهم أصحاب ذي القرن. قال عبد الله: ومن يعش منكم فسيرى منكرا، وبحسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيان[2]: يعني مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد وآستبطئوا بعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعني الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى. ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعث النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فسّقهم الله. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدبين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا. وذكر آبن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وآنظروا فيها ـــ أو قال في ذنوبكم ـــ كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى، فآرحموا أهل البلاء، وآحمدوا الله على العافية. وهذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وآبن المبارك رحمهما الله

---

(١) الزيادة من تفسير الطبري. (٢) في بعض التفاسير مقاتل بن سليمان وهو المفسر.

تعالى . ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن بن مروان القَلَانسيّ قال : حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق ، قال حدّثنا على بن يعقوب الزيات ، قال حدثنا إبراهيم بن هشام ، قال حدثنا زكريا ابن أبى أبان ، قال حدثنا الليث بن الحرث قال حدّثنا الحسن بن داهر ، قال سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال : كنت يوما مع إخوانى فى بستان لنا ، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا ، وكنت مولعا بضرب العود والطُّنبور ، فقمت فى بعض الليل فضربت بصوت يقال له راشين السَّحَر[1] ، وأراد سنان يغنِّى ، وطائر يصيح فوق رأسى على شجرة ، والعود بيدى لا يجيبنى إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان — يعنى العود الذى بيده — ويقول : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » قلت : بلى والله ! وكسرت العود ، وصرفت من كان عندى ، فكان هذا أوّل زهدى وتشميرى . وبلغنا عن الشعر الذى أراد ابن المبارك أن يضرب به فى العود :

ألَمْ يَأْنِ لى منك أن تَرْحَما * وتَعْصِ العَواذِلَ واللُّوَّما
وتَرْثِى لصَبٍّ بكم مُغْرَمٍ * أقام على هجركم مأْتَما
يَبِيتُ إذا جَنَّهُ لَيْلُهُ * يُراعى الكَواكِبَ والأَنْجُما
وماذا على الظَّبى لَوْ أنَّهُ * أحَلَّ مِن الوَصْلِ ما حَرَّما

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليلا ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » فرجع القهقرى وهو يقول : بلى والله قدآن ؛ فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وبعضهم يقول لبعض : إن فضيلا يقطع الطريق . فقال الفضيل : أوّاه ! أرانى بالليل أسعى فى معاصى الله وقوم من المسلمين يخافوننى ! اللهم إنى قد تبت إليك ، وجعلتُ توبتى إليك جوار بيتك الحرام .

(١) هكذا فى الأصول ولم نقف عليها بعد البحث .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى « يُحْيِي الْأَرْضَ » الجدبة « بعد موتها » بالمطر . وقال صالح المرى : المعنى يلين القلوب بعد قساوتها . وقال جعفر ابن محمد : يحييها بالعدل بعد الجور . وقيل : المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة . وقيل : كذلك يحيي الله الموتى من الأمم ، ويميز بين الخاشع قلبه و بين القاسى قلبه . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله وأنه لمحيي الموتى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أى المصدقين بما أنزل الله تعالى . الباقون بالتشديد أى المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء فى الصاد . وكذلك فى مصحف أبيّ وهو حثٌّ على الصدقات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالصدقة والنفقة فى سبيل الله . قال الحسن : كل ما فى القرآن من القرض الحسن فهو التطوع . وقيل : هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبا صادقا . وإنما عطف بالفعل على الآسم ؛ لأن ذلك الآسم فى تقدير الفعل ؛ أى إن الذين صدّقوا وأقرضوا ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أمثالها . وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله . وقرأ الأعمش « يُضَاعِفُهُ » بكسر العين وزيادة هاء . وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب « يُضَعَّفُ » بفتح العين وتشديدها . ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ آختلف فى « الشُّهَدَاء » هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به . فقال مجاهد وزيد آبن أسلم : إن الشهداء والصدّيقين هم المؤمنون وأنه متصل؛ وروى معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يوقف على هذا على قوله «الصِّدِّيقُون» وهذا قول آبن مسعود فى تأويل الآية . قال القشيرى قال الله تعالى : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء ، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين ، والصالحون يتلون الشهداء ، فيجوز أن تكون هذه الآية فى جملة من صدّق بالرسل أعنى « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ » ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية ، فيكون صدّيق فوق صدّيق فى الدرجات ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذى فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأَنْعَما (١) " وروى عن آبن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصدّيقين . فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله : « الصدّيقون » حسن . والمعنى « وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » أى لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم . وفيهم قولان: أحدهما — أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ؛ قاله الكلبى ؛ ودليله قوله تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » . الثانى — أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة ؛ وفيما يشهدون به قولان : أحدهما — أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية . وهذا معنى قول مجاهد . الثانى — يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم ؛ قاله الكلبى . وقال مقاتل قولا ثالثا : إنهم القتلى فى سبيل الله تعالى . ونحوه عن آبن عباس أيضا قال : أراد شهداء المؤمنين . والواو واو الآبتداء . والصدّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء .

---

(١) " أنعما " أى زادا وفضلا . وقيل معناه صارا إلى النعيم ودخلا فيه .

وقد اختلف فى تعيينهم ؛ فقال الضحاك : هم ثمانية نفر ؛ أبو بكر وعلى وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة . وتابعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ؛ ألحقه الله بهم لما صدق نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل بن حيان : الصدّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين ، مثل مؤمن آل فرعون ، وصاحب آل ياسين ، وأبى بكر الصديق ، وأصحاب الأخدود .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالرسل والمعجزات ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فلا أجر لهم ولا نور .

قوله تعالى : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفا على نفسه من القتل ، وخوفا من لزوم الموت فبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغى أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى . و « ما » صلة تقديره : اعلموا أنّ الحياة الدنيا لعب باطل ولهو فرح ثم ينقضى . وقال قتادة : لعب ولهو أكل وشرب . وقيل : إنه على المعهود من اسمه ؛ قال مجاهد : كل لعب لهو . وقد مضى هذا المعنى

فى « الأنعام »[1] وقيـل : اللعب ما رغّب فى الدنيا ، واللهو ما ألهى عن الآخرة ؛ أى شغل عنها . وقيـل : اللعب الاقتناء واللهـو النساء . ﴿ وَزِينَـةٌ ﴾ الزينة ما يتزين به ، فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة ، وكذلك من تزين فى غير طاعة الله . ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أى يفخر بعضكم على بعض بها . وقيل : بالخلقة والقوة . وقيل : بالأنساب على عادة العـرب فى المفاخرة بالآباء . وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله أوحى إلىّ أن تواضـعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد" وصح عنه عليـه الصلاة والسلام أنه قال : " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية الفخر فى الأحساب " الحديث . وقد تقدم جميع هـذا . ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ لأن عادة الجاهليـة أن تتكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنـين بالإيمان والطاعة . قال بعض المتأخرين : « لعب » كلعب الصبيان « ولهو » كلهو الفتيان « وزينة » كزينـة النسوان « وتفاخر » كتفاخر الأقران « وتكاثر » كتكاثر الدهقان . وقيل : المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء فى الزوال والفناء . وعن علىّ رضى الله عنه قال لعمّار : لاتحـزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشـياء ، مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكـوح ، فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة ، وأكثر شرابها المـاء ويستوى فيـه جميع الحيـوان ، وأفضل ملبوسها الديبـاج وهو نسج دودة ، وأفضـل المشموم المسك وهو دم فأرة ، وأفضـل المركوب الفرس وعليها يقتـل الرجال ، وأما المنكوح فالنساء وهـو مبال فى مبال ؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها . ثم ضرب الله تعالى لها مثلا بالزرع فى غيث فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أى مطر ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الكفّار هنا الزرّاع لأنهم يغطّون البذر . والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشيما كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن . وقد مضى معنى هـذا المثل فى « يونس »[2] و « الكهف »[3] . وقيـل :

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٧ فما بعدها « « «
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٢ فما بعدها « « «

الكفّار هنا الكافرون بالله عز وجل؛ لأنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين . وهذا قول حسن؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها . وفى الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة . وموضع الكاف رفع على الصفة . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أى يجف بعد خضرته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ أى متغيرا عما كان عليه من النضرة . ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى فتاتا وتبنا فيذهب بعد حسنه ، كذلك دنيا الكافر . ﴿ وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى للكافرين . والوقف عليه حسن ، ويبتدئ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أى للؤمنين . وقال الفراء : « وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ» تقديره إما عذاب شديد و إما مغفرة، فلا يوقف على «شديد». ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ هذا تأكيد ما سبق؛ أى تغر الكفار، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة . وقيل : العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيدا فى العمل للدنيا ، وترغيبا فى العمل للآخرة .

قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى سارعوا بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم . وقيل: سارعوا بالتوبة؛ لأنها تؤدى إلى المغفرة؛ قاله الكلبى . وقيل: التكبيرة الأولى مع الإمام؛ قاله مكحول . وقيل : الصفّ الأول . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لو وصل بعضها ببعض . قال الحسن : يعنى جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها . وقيل : يريد لرجل واحد أى لكل واحد جنة بهذه السعة . وقال ابن كيسان : عنى به جنّة واحدة من الجنّات . والعرض أقل من الطول ؛ ومن عادة العرب أنها تعبر عن سعة الشىء بعرضه دون طوله . قال :

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهْىَ عَرِيضَةٌ * على الخائِفِ المطْلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كله فى « آل عمران »[1] . وقال طارق بن شهاب : قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضى الله عنه أرأيت قول الله عز وجل « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٠٤ فما بعدها .

فأين النار ؟ فقال لهم عمر : أرأيتم الليل إذا ولّى وجاء النهار أين يكون الليل ؟ فقالوا : لقد نزعت بما في التوراة مثله . ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ شرط الإيمان لا غير وفيه تقوية الرجاء . وقد قيل : شرط الإيمان هنا وزاد عليه في « آل عمران » فقال « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » . ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي إن الجنة لا تنال ولا تدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله . وقد مضى هذا في « الأعراف »[1] وغيرها . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار . وقيل : الجوائح في الزرع . ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ بالأوصاب والأسقام؛ قاله قتادة . وقيل : إقامة الحدود؛ قاله ابن حيان . وقيل : ضيق المعاش . وهذا معنى رواه ابن جريج ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ يعني في اللوح المحفوظ . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ الضمير في « نبرأها » عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع . وقال ابن عباس : من قبل أن يخلق المصيبة . وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي خلق ذلك وحفظ جميعه « عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » هيّن . قال الربيع بن صالح: لما أخذ سعيد بن جبير رضي الله عنه بكيت؛ فقال : ما يبكيك؟ قلت : أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه . قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

فلا تبك فإنه كان فى علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية . وقال ابن عباس : لما خلق الله القلم قال له اكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . وقد ترك لهذه الآية جماعة من الفضلاء الدواء فى أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكلا عليه ، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة ، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا؛ قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » . وقد قيل : إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هون عليهم ما يصيبهم فى الجهاد من قتل وجرح ، وبين أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدر لا مدفع له ، وإنما على المرء امتثال الأمر، ثم أدبهم فقال هذا ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أى حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق ؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فُرِغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه . وعن ابن مسعود أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه " ثم قرأ « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى كى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى من الدنيا؛ قاله ابن عباس . وقال سعيد بن جبير : من العافية والخصب . وروى عكرمة عن ابن عباس : ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرا وغنيمته شكرا . والحزن والفرح المنهىّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى متكبر بما أوتى من الدنيا، فخور به على الناس . وقراءة العامة « آتاكم » بمد الألف أى أعطاكم من الدنيا . واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو « أَتَاكُمْ » بقصر الألف واختاره أبو عبيد . أى جاءكم ، وهو معادل لـ«فاتكم» ولهذا لم يقل أفاتكم . قال جعفر بن محمد الصادق : يابن آدم مالك تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفوت ، أو تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت . وقيل لبزرجمهر : أيها الحكيم ! مالك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آت ؟ قال : لأن الفائت لا يتلافى بالعَبْرة ، والآتى لا يستدام بالحَبْرة .

وقال الفضيل بن عياض فى هذا المعنى : الدنيا مُبيد ومُفيد، فما أباد فلا رجعة له ، وما أفاد آذن بالرحيل . وقيل : المختال الذى ينظر إلى نفسه بعين الافتخار ، والفخور الذى ينظر إلى الناس بعين الاحتقار وكلاهما شرك خفىّ . والفخور بمنزلة المُصَرّاة تُشَدّ أخلافها ليجتمع فيها اللبن ، فيتوهم المشترى أن ذلك معتاد وليس كذلك ، فكذلك الذى يرى من نفسه حالا وزينة وهو مع ذلك مدّع فهو الفخور .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أى لا يحب المختالين « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » ف « الَّذِين » فى موضع خفض نعتا للمختال . وقيل : رفع بالابتداء أى الذين يبخلون فالله غنى عنهم . قيل : أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى فى كتبهم ؛ لئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم[1] . قاله السدى والكلبى . وقال سعيد بن جبير : « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » يعنى بالعلم ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى بألا يعلموا الناس شيئا . زيد بن أسلم : إنه البخل بأداء حق الله عز وجل . وقيل : إنه البخل بالصدقة والحقوق ؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعرى . وقال طاوس : إنه البخل بما فى يديه . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وفرّق أصحاب الخواطر بين البخل والسخاء بفرقين : أحدهما أن البخيل الذى يلتذ بالإمساك . والسخىّ الذى يلتذ بالإعطاء . الثانى — إن البخيل الذى يعطى عند السؤال ، والسخىّ الذى يعطى بغير سؤال . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ غنى عنه . ويجوز أن يكون لما حث على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنىّ عنهم . وقراءة العامة « بالبخل » بضم الباء وسكون الخاء . وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى ابن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائى « بِالْبَخَلِ » بفتحتين وهى لغة الأنصار . وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْقَع « بِالْبَخْل » بفتح الباء وإسكان الخاء . وعن نصر بن عاصم « الْبُخُلِ » بضمتين وكلها لغات مشهورة . وقد تقدم الفرق بين البخل والشح فى آخر « آل عمران »[2] .

---

(١) يريد ما يأكلونه من الناس باسم الدين من الأموال

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

وقرأ نافع وابن عامر «فَإِنَّ اللهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» بغير « هو » . والباقون « هُوَ الْغَنِيُّ » على أن يكون فصلا . ويجوز أن يكون مبتدأ و « الْغَنِيُّ » خبره والجملة خبر إن . ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلا ؛ لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ .

قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)

قوله تعالى : «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة . وقيل : الإخلاص لله تعالى فى العبادة ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ بذلك دعت الرسل ؛ نوح فمن دونه إلى محمد صلى الله عليه وسلم . «وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ» أى الكتب ؛ أى أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم «وَالْمِيزَانَ» قال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أى بالعدل فى معاملاتهم . وقوله : « بِالْقِسْطِ » يدل على أنه أراد الميزان المعروف . وقال قوم : أراد به العدل . قال القشيرى : وإذا حملناه على الميزان المعروف ، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب :

* عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً باردًا *

ويدل على هذا قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » ثم قال : « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » وقد مضى القول فيه[1] . «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» روى عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد

(١) راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء .

والنار والمـاء والملح " . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام، الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج وعصا موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء السَّنْدان والكَلْبَتَان والمِيقَعة وهي المطرقة، ذكره المـاوردي . وقال الثعلبي : قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين، السَّنْدان، والكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة . وحكاه القشيري قال : والمِيقَعة ما يحدّد به ؛ يقال وَقَعْتُ الحديدَة أقعها أي أحددتها . وفي الصحاح: والمِيقَعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه، وخشبة القَصّار التي يَدق عليها والمِطْرقة والمِسنّ الطويل . وروى أن الحـديد أنزل في يوم الثلاثاء . « فِيـهِ بَأْسٌ شَـدِيدٌ » أي لإهراق الدماء . ولذلك نهي عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء ؛ لأنه يوم جرى فيه الدم . وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم". وقيل : «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي أنشأناه وخلقناه؛ كقوله تعالى : «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» وهذا قول الحسن . فيكون من الأرض غير منزل من السماء . وقال أهل المعاني : أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » يعني السلاح والكُرَاع والجُنة. وقيل : أي فيه من خشية القتل خوف شـديد . ﴿ وَمَنَافِـعُ لِلنَّاسِ ﴾ قال مجاهـد : يعني جُنَّة . وقيل: يعني انتفاع الناس بالمـاعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه. ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أي أنزل الحـديد ليعلم من ينصره . وقيـل : هو عطف على قوله تعالى : « لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب ، وهذه الأشياء ؛ ليتعامل النـاس بالحق ، « وَلِيَعْـلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وليرى الله من ينصر دينـه ﴿ وَ ﴾ ينصر ﴿ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال ابن عباس : ينصرونهم لا يكذبونهم ، ويؤمنون بهم « بِالْغَيْبِ » أي وهم لا يرونهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَـوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ « قوي » في أخـذه « عزيز » أي منيع غالب . وقد تقدّم . وقيل : « بالغيب » بالإخلاص .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ فصل ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب، وأخبر أنه أرسل نوحا و إبراهيم وجعل النبوّة فى نسلهما .﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أى جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء ، و بعضهم أمما يتلون الكتب المنزلة من السماء ؛ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أى من ذرّيتهم بإبراهيم ونوح ﴿مُهْتَدٍ﴾ . وقيل : « فمنهم مهتد » أى من ذريتهما مهتدون . ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٧)

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أى أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ أى على آثار الذرية . وقيل : على آثار نوح و إبراهيم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى و إلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه . وتقدّم اشتقاقه فى أوّل سورة « آل عمران »[(١)] .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ على دينه يعنى الحواريين وأتباعهم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أى مودّة فكان يوادّ بعضهم بعضا . وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا فى الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك ، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه . والرأفة اللين، والرحمة الشفقة . وقيل : الرأفة

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٥ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

تخفيف الكَلّ والرحمة تحمل الثقل . وقيل : الرأفة أشد الرحمة . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أى من قِبل أنفسهم . والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل ؛ قال أبو على : وٱبتدعوها رهبانية ٱبتدعوها . وقال الزجاج : أى ٱبتدعوها رهبانية كما تقول رأيت زيدا وعمرا كلمت . وقيل : إنه معطوف على الرأفة والرحمة ؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيروا وٱبتدعوا فيها . قال الماوردى : وفيها قراءتان ؛ إحداهما بفتح الراء وهى الخوف من الرَّهب ، الثانية بضم الراء وهى منسوبة إلى الرُّهْبان كالرُّضْوانية من الرِّضْوان ؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات فى الآمتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ؛ وذلك أن ملوكهم غيروا وبدّلوا و بقى نفر قليل فترهبوا وتبتلوا . قال الضحاك : إن ملوكا بعد عيسى عليه السلام ٱرتكبوا المحارم ثلثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقى على منهاج عيسى فقتلوهم ، فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فٱعتزلوا الناس وٱتخذوا الصوامع . وقال قتادة : الرهبانية التى ٱبتدعوها رفض النساء وٱتخاذ الصوامع . وفى خبر مرفوع : "هى لحوقهم بالبرارى والجبال" . ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها ؛ قاله ٱبن زيد . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾ أى ما أمرناهم إلا بما يرضى الله ؛ قاله ٱبن مسلم . وقال الزجاج : « مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » معناه لم نكتب عليهم شيئا البتة . ويكون « ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ » بدلا من الهاء والألف فى « كَتَبْنَاهَا » والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ٱبتغاء رضوان الله . وقيل : « إِلَّا ٱبْتِغَاءَ » الآستثناء منقطع ، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ٱبتدعوها ٱبتغاء رضوان الله . ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى فما قاموا بها حق القيام . وهذا خصوص ؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم ، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم ؛ كما قال تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » وهذا فى قوم أداهم الترهب إلى طلب الرياسة فى آخر الأمر . وروى سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس فى قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا » قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل

وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل و يدعون إلى دين الله تعالى ، فقال أناس لملكهم لو قتلت هـذه الطائفة . فقال المؤمنون : نحن نكفيكم أنفسنا . فطائفة قالت : آبنوا لنا آسطوانة آرفعونا فيها ، وأعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نهيم فى الأرض ونسيح ، ونشرب كما تشرب الوحوش فى البرية ، فإذا قدرتم علينا فآقتلونا ، وطائفة قالت : آبنوا لنا دُورا فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا تروننا . وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا ، فمضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم ممن قـد غير الكتاب فقالوا : نسيح ونتعبد كما تعبد أولئـك ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان من تقدم من الذين آقتدوا بهم . فذلك قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِـمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ » الآية . يقول : آبتـدعها هؤلاء الصالحون « فَمَا رَعَوْهَا » المتأخرون « حق رعايتها » ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعنى الذين آبتدعوها أوّلا ورعوها ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعنى المتأخرين ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا قليـل جاءوا ، من الكهوف والصّوامع والغيران فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الثالثــة — وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة ، فينبغى لمن آبتدع خيرا أن يدوم عليه ، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل فى الآية . وعن أبى أمامة الباهلى —وآسمه صُدَىّ بن عجلان — قال : أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم ، إنمـا كتب عليكم الصيام ، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإن ناسا من بنى إسرائيل آبتدعوا بِدعا لم يكتبها الله عليهم آبتغوا بها رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فعابهم الله بتركها فقال : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَـا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » .

الرابعــة — وفى الآية دليل على العزلة عن الناس فى الصوامع والبيوت ، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغير الأصدقاء والإخوان . وقد مضى بيان هذا فى سورة «الكهف»[1] مستوفى والحمد لله . وفى مسند أحمد بن حنبل من حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال:

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٠ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية من سراياه فقال : مَرَّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء و يصيب ما حوله من البقل و يتخلّى عن الدنيا . قال : لو أنى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لى فعلت و إلا لم أفعل، فأتاه فقال : يا نبى الله ! إنى مررت بغار فيه ما يقوتنى من الماء والبقل، فحدثتنى نفسى بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة والذى نفس محمد بيده لغَدْوة أو رَوْحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم فى الصفّ الأوّل خير من صلاته ستين سنة" . وروى الكوفيون عن آبن مسعود، قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرى أىّ الناس أعلم " قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا آختلف الناس فيه و إن كان مقصرا فى العمل و إن كان يزحف على آسته هل تدرى من أين آتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مراتٍ فلم يبقَ منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعوا إليه فتعالوا نفترق فى الأرض إلى أن يبعث الله النبى الأمى الذى وعدنا عيسى — يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم — فتفرقوا فى غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر — وتلا « وَرَهْبَانِيَّةً » الآية — أتدرى ما رهبانية أمتى الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يا آبن مسعود آختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها وآختلف من كان من قبلكم من النصارى على آثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى — عليه السلام — حتى قتلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانى قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى آبن مريم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهى التى قال الله تعالى فيهم « وَرَهْبَانِيَّةً آبْتَدَعُوهَا » — الآية — فمن

آمن بى وآتبعنى وصدّقنى فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسقون " يعنى الذين تهوّدوا وتنصروا . وقيل : هؤلاء الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون . وفى الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى إن الأولين أصروا على الكفر أيضا فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى آمنوا بموسى وعيسى ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أى مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ؛ وهذا مثل قوله تعالى : « أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » (1) وقد تقدم القول فيه . والكفل الحظ والنصيب وقد مضى فى « النساء » (2) وهو فى الأصل كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط ؛ قاله ابن جريج . ونحوه قال الأزهرى ؛ قال : اشتقاقه من الكساء الذى يحويه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه لئلا يسقط ؛ فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى كما يحفظ الكفل الراكب . وقال أبو موسى الأشعرى : « كِفْلَيْنِ » ضعفين بلسان الحبشة . وعن ابن زيد : « كِفْلَيْنِ » أجر الدنيا والآخرة . وقيل : لما نزلت « أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » افتخر مؤمنو أهل

(1) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) راجع جـ ٤ ص ٢٩٥ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هـذه الآية . وقـد آستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحسـنة إنما لها من الأجر مِثْل واحد ؛ فقال : الحسـنة آسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان ، وينطلق على عمومه ، فإذا آنطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليهـا من الثواب إلا مِثْل واحد . و إن آنطلقت على حسـنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مِثْلين ؛ بدليل هـذه الآية فإنه قال : « كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » والكِفل النصيب كالمِثـل ، فجعـل لمن آتقى الله وآمن برسـوله نصيبين ؛ نصيبا لتقوى الله ونصيبا لإيمـانه برسوله . فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هى التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات ، وهو الإيمان الذى جمع الله تعـالى فى صـفته عشرة أنواع ؛ لقوله تعـالى : « إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْـلِمَاتِ » الآية بكمالها . فكانت هـذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مِثْل . وهـذا تأويل فاسـد ؛ لخروجه عن عموم الظاهر ؛ فى قوله تعالى : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » بمـا لا يحتمله تخصيص العموم ؛ لأن ما جمـع عشر حسنات فليس يُجْزَى عن كل حسنة إلا بمثلها . وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالهـا والأخبار دالة عليه . وقد تقدم ذكرها[1] . ولو كان كما ذكر لمـا كان بين الحسنة والسيئة فرق .

﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً ﴾ أى بيانا وهـدى ؛ عن مجاهـد . وقال آبن عباس : هو القـرآن . وقيل : ضيـاء ﴿ تَمْشُونَ بِهِ ﴾ فى الآخرة على الصراط ، وفى القيامة إلى الجنة . وقيل تمشون به فى الناس تدعونهم إلى الإسـلام فتكونون رؤساء فى دين الإسلام لا تزول عنكم رياسـة كنتم فيها . وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه السـلام . و إنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله ، لا الرياسة الحقيقية فى الدين . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْـلُ الْكِتَابِ ﴾ أى ليعلم و « أن لا » صـلة زائدة مؤكدة ؛ قاله الأخفش . وقال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صـلة زائدة فى كل كلام دخل عليه

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ وجزء ١٣ ص ٢٤٤ .

بجحد . قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أى لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ ﴾ . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا فنزلت « لِئَلَّا يَعْلَمَ » أى ليعلم أهل الكتاب « أَنْ لَا يَقْدِرُونَ » أى أنهم لا يقدرون ؛ كقوله تعالى : « أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا » . وعن الحسن : « لَيْلَا[1] يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » وروى ذلك عن ابن مجاهد . وروى قطوب بكسر اللام وإسكان[2] الياء . وفتح لام الجرلغة معروفة . ووجه إسكان الياء أن همزة « أَنْ » حذفت فصارت « لَنْ » فأدغمت النون فى اللام فصار « لِلَّا » فلما اجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء؛ كما قالوا : فى أَمَّا أَيْمَا . وكذلك القول فى قراءة من قرأ « لِيْلَا » بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة . وعن ابن مسعود «لِكَيْلَا يَعْلَمَ» وعن حِطّان بن عبد الله «لِأَنْ يَعْلَمَ» وعن عِكرمة « لِيَعْلَمَ» وهو خلاف المرسوم . « مِنْ فَضْلِ اللهِ » قيل : الإسلام . وقيل : الثواب . وقال الكلبى : من رزق الله . وقيل : نعم الله التى لا تحصى . « وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ » ليس بأيديهم فيصرفون النبوّة عن محمد صلى الله عليه وسلم إلى من يحبون . وقيل : « وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ » أى هو له ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ . وفى البخارى : حدثنا الحكم بن نافع ، قال حدثنا شعيب عن الزهرى ، قال أخبرنى سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : " إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا قال هل

(١) مثل ليلى اسم المرأة ورفع الفعل بعدها .

(٢) روى قطرب عن الحسن أيضا كما فى السمين وغيره ، فتكون للحسن قراءتان فتح اللام وكسرها مع إسكان الياء فيهما

ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلى أوتيه من أشاء" فى رواية : "فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا" الحديث . ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ . تم تفسير سورة « الحديد » والحمد لله .

تفسير سورة المجادلة

وهى آثنتان وعشرون آية

مدنية فى قول الجميع . إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدنىّ وباقيها مكىّ . وقال الكلبى: نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » نزلت بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ التى آشتكت إلى الله هى خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل بنت حكيم . وقيل آسمها جميلة . وخَوْلة أصح ؛ وزوجها أَوْس بن الصّامت أخو عُبادة بن الصّامت ، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته والناس معه على حمار فآستوقفته طويلا ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عُمَيرا ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ؛ فآتق الله يا عمر ؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب . وهو واقف يسمع كلامها ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستنى من أوّل النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هى خَوْلة

بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ وقالت عائشة رضى الله عنها : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء إنى لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى تقول : يا رسول الله ! أكل شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ؛ اللهم إنى أشكو إليك ! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : « قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّٰهِ » خرجه ابن ماجه فى السنن . والذى فى البخارى من هذا عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : « قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا » . وقال الماوردى : هى خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل : بنت خويلد . وليس هذا بمختلف ؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدّها فنسبت إلى كل واحد منهما . وزوجها أَوْس بن الصّامت أخو عُبَادة بن الصّامت . وقال الثعلبى قال ابن عباس : هى خولة بنت خويلد الخزرجية ، كانت تحت أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وكانت حسنة الجسم ، فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها ، فلما انصرفت أرادها فأبت فغضب عليها — قال عُرْوة [1] : وكان امرءا به لَمَم [2] فأصابه بعض لَمَمِه فقال لها : أنت علىّ كظهر أمى . وكان الإيلاء والظهار من الطلاق فى الجاهلية ، فسألت النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : " حرمتِ عليه " فقالت : والله ما ذكر طلاقا ؛ ثم قالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وابن عمى وقد نفضت له بطنى ؛ فقال : " حرمتِ عليه " فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية . وروى الحسن : أنها قالت : يا رسول الله ! قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجى ظاهر منى ؛ فقال رسول الله عليه وسلم : " ما أوحى إلىّ فى هذا شىء " فقالت يا رسول الله : أوحى إليك فى كل شىء وطُوِى عنك هذا ؟ ! فقال : " هو ما قلت لكِ " فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله .

(١) عروة هو راوى حديث عائشة المتقدم .

(٢) اللمم طرف من الجنون يلم بالإنسان أى يعتريه .

وزوجها أوس بن الصامت ، وآختلفوا فى نسبها ، قال بعضهم : هى أنصارية وهى بنت ثعلبة ، وقال بعضهم : هى بنت دليج ، وقيل : هى بنت خُوَيلد ، وقال بعضهم : هى بنت الصامت ، وقال بعضهم : هى أمة كانت لعبد الله بن أبىّ ، وهى التى أنزل الله فيها «وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا» لأنه كان يكرهها على الزنى . وقيل : هى بنت حكيم . قال النحاس : وهذا ليس بمتناقض يجوز أن تنسب مرة إلى أبيها ، ومرة إلى أمها ، ومرة إلى جدّها ، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبىّ فقيل لها أنصارية بالولاء ؛ لأنه كان فى عداد الأنصار وإن كان من المنافقين .

الثانيــة — قرئ «قَد سَّمِعَ اللهُ» بالادغام و «قَدْ سَمِعَ اللهُ» بالإظهار . والأصل فى السماع إدراك المسموعات ، وهو آختيار الشيخ أبى الحسن . وقال آبن فورك : الصحيح أنه إدراك المسموع . وقال الحاكم أبو عبد الله فى معنى السميع : إنه المدرك للأصوات التى يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أذن ، وذلك راجع إلى أن الأصوات لاتخفى عليه ، وإن كان غير موصوف بالحسّ المركّب فى الأذن ؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلا لإدراك الصوت . والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفا بهما . وشكى وآشتكى بمعنى واحد . وقرئ «تُحَاوِرُكَ» أى تراجعك الكلام و «تُجَادِلُكَ» أى تسائلك .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾

فأنزل الله : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ » الآية . وروى الدارقطنى من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدثه قال : إن أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خُوَيْلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ظاهر حين كبرت سنى ورق عظمى . فأنزل الله تعالى آية الظهار ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأوس : "أعتق رقبة" قال : مالى بذلك يدان . قال : "فصم شهرين متتابعين" قال : أما إنى إذا أخطأنى أن آكل فى يوم ثلاث مرات يكلّ بصرى . قال : "فأطعم ستين مسكينا" قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة . قال : فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا حتى جمع الله له . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ قال : فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكينا . وفى الترمذى وسنن ابن ماجه : أن سلمة ابن صخر البياضى ظاهر من امرأته ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : "أعتق رقبة" قال : فضربت صفحة عنق بيدى ، فقلت : لا والذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : "فصم شهرين" فقلت : يا رسول الله ! وهل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام . قال : "فأطعم ستين مسكينا" الحديث . وذكر ابن العربى فى أحكامه : روى أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "قد حرمت عليه" فقالت : أشكو إلى الله حاجتى . [ثم عادت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حرمت عليه" فقالت : إلى الله أشكو حاجتى إليه](1) وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن ، ثم تحولت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحى ، فذهبت أن تعيد ، فقالت عائشة : اسكتى فإنه قد نزل الوحى . فلما نزل القرآن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها : "أعتق رقبة" قال : لا أجد . قال : "صم شهرين متتابعين" قال : إن لم آكل فى اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصرى . قال : "فأطعم ستين مسكينا . قال : فأعنى . فأعانه بشىء . قال أبو جعفر النحاس : أهل التفسير على أنها خَوْلة

(١) الزيادة من الأحكام لابن العربى .

فيه ثلاث وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ ﴾[1] قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف « يَظَّاهَرُونَ » بفتح الياء وتشديد الظاء وألف . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب « يَظَّهَّرونَ » بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء . وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرّ ابن حُبَيش « يُظَاهِرُونَ » بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء . وقد تقدّم هذا في « الأحزاب »[2] . وفي قراءة أُبَيّ « يَتَظَاهَرُونَ » وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة . وذِكر الظهر كناية عن معنى الركوب ، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كنى عنه بالظهر ؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره ، فكنى بالظهر عن الركوب . ويقال : نزل عن امرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب . ومعنى أنت عليّ كظهر أمي أي أنت عليّ محرّمة لا يحل لي ركوبك .

الثانيــة — حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلَّل بظهرٍ محرَّم ؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت علي كظهر أمي أنه مظاهر . وأكثرهم على أنه إن قال لها : أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر . وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما . واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه ؛ فروى عنه نحو قول مالك ؛ لأنه شبه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبد كالأم . وروى عنه أبو ثور : أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها . وهو مذهب قتادة والشعبي . والأول قول الحسن والنخعيّ والزهريّ والأوزاعيّ والثوريّ .

الثــالثــة — أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي . وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وسترا . فإن قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر ، أو قال : أنت عليّ مثل أمي ؛ فإن أراد الظهار فله نيته ، وإن أراد الطلاق كان مطلقا البتة عند مالك ،

(١) نسخ الأصل على « يظهرون » وهي قراءة نافع التي سيذكرها المؤلف .

(٢) آية الظهار في جـ ١٤ ص ١١٨ ولم يذكر هناك شيئا بل أحال الكلام على هذه السورة .

و إن لم تكن له نيــة فى طلاق ولا ظهار كان مظاهرا . ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق ؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة له إلى الظهار ، وكناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق البتّ .

الرابعــــة ــ ألفاظ الظهار ضربان : صريح وكناية ؛ فالصريح أنت علىّ كظهر أمى ، وأنتِ عنــدى وأنتِ منى وأنتِ معى كظهر أمى . وكذلك أنت علىّ كبطن أمى أو كرأسها أو فرجها أو نحـوه ، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك علىّ كظهر أمى فهو مظاهر ؛ مثل قـوله : يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليـه . وقال الشافعى فى أحد قوليه : لا يكون ظهارا . وهذا ضعيف منه ؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصــة حقيقة خلافا لأبى حنيفة فصح إضافة الظهار إليه . ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف . و إن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التى لا تحل له بحال كالبنت والأخت والعمة والخالة كان مظاهرا عند أكثر الفقهاء ، وعنــد الإمام الشافعى رضى الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا . والكناية أن يقول : أنت علىّ كأمى أو مثل أمى فإنه يعتــبر فيه النية . فإن أراد الظهار كان ظهارا ، و إن لم يرد الظهار لم يكن مظاهرا عند الشافعى وأبى حنيفة . وقد تقـدّم مذهب مالك رضى الله عنه فى ذلك ؛ والدليـــل عليه أنه أطلق تشبيه امرأته بأمّــه فكان ظهارا . أصله إذا ذكر الظهر وهــذا قوىّ فإن معنى اللفظ فيه موجود ــ واللفظ بمعناه ــ ولم يُلْزَم حكم الظهر للفظه و إنما أُلْزِمَه بمعناه وهو التحريم ؛ قاله ابن العربى .

الخــامســـة ــ إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضــاء أمه كان مظاهرا ؛ خلافا لأبى حنيفة فى قوله : إنه إن شبهها بعضو يحل له النظر إليه لم يكن مظاهرا . وهذا لا يصح ؛ لان النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحــل له ، وفيه وقع التشبيه و إياه قصد المظاهر ؛ وقــد قال الإمام الشافعى فى قول : إنه لا يكون ظهارا إلا فى الظهر وحده . وهذا فاسد ؛ لأن كل عضو منها محــرّم ، فكان التشبيه به ظهارا كالظهر ؛ ولأن المظاهر إنمــا يقصد تشبيه المحلل بالمحرّم فلزم على المعنى .

السادسة — إن شبه امرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهارا حملا على الأول ، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا ؛ فمنهم من قال : يكون ظهارا . ومنهم من قال : يكون طلاقا . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يكون شيئا . قال ابن العربي : وهذا فاسد؛ لأنه شبه محللا من المرأة بمحرم فكان مقيدا بحكمه كالظهر ، والأسماء بمعانيها عندنا ، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم .

قلت : الخلاف في الظهار بالأجنبية قوي عند مالك . وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن . ومنهم من لا يجعله شيئا . ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقا . وهو عند مالك إذا قال : كظهر ابني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه . وقد روي عنه أيضا : أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء ؛ كما قال الكوفي والشافعي . وقال الأوزاعي : لو قال لها أنت علي كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها . والله أعلم .

السابعة — إذا قال : أنت علي حرام كظهر أمي كان ظهارا ولم يكن طلاقا ؛ لأن قوله : أنت حرام علي يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة : ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيرا لأحد الاحتمالين يقضى به فيه .

الثامنة — الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من كل زوج يجوز طلاقه . وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه ، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم . قال القاضي أبو بكر ابن العربي : وهي مسئلة عسيرة جدا علينا ؛ لأن مالكا يقول : إذا قال لأمته أنت علي حرام لا يلزم . فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته . ولكن تدخل الأمة في عموم قوله : «مِنْ نِسَائِهِمْ» لأنه أراد من محللاتهم . والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبضع دون رفع العقد فصح في الأمة ؛ أصله الحلف بالله تعالى .

التاسعة ـ ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك . ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ نِسَائِهِمْ » وهذه ليست من نسائه . وقد مضى أصل هذه المسئلة في سورة «براءة» عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ »(1) الآية .

العاشرة ـ الذمي لا يلزم ظهاره . وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : يصح ظهار الذمي ؛ ودليلنا قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يعني من المسلمين . وهذا يقتضي خروج الذمي من الخطاب . فإن قيل : هذا استدلال بدليل الخطاب . قلنا : هو استدلال بالاشتقاق والمعنى ؛ فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ ، فلا يتعلق بها حكم طلاق ولا ظهار ؛ وذلك كقوله تعالى : « وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال .

الحادية عشرة ـ قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يقتضي صحة ظهار العبد خلافا لمن منعه . وحكاه الثعلبي عن مالك ؛ لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام .

الثانية عشرة ـ وقال مالك رضي الله عنه : ليس على النساء تظاهر ، وإنما قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ » ولم يقل اللائي يظهرن منكن من أزواجهن ، إنما الظهار على الرجال . قال ابن العربي : هكذا روي عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد . وهو صحيح معنى ؛ لأن الحل والعقد [والتحليل والتحريم](2) في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع . قال أبو عمر : ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء . وقال الحسن بن زياد : هي مظاهرة . وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد : ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء قبل النكاح كان أو بعده . وقال الشافعي : لا ظهار للمرأة من الرجل . وقال الأوزاعي : إذا قالت المرأة لزوجها : أنت علي كظهر أمي

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٢١٠ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) الزيادة من ابن العربي .

فـلانة فهى يمين تكفرها . وكذلك قال إسحق ؛ قال : لا تكون آمرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها . وقال الزهرى : أرى أن تكفّر كفّارة الظهار ولا يحول قولها هذا بينها و بين زوجها أن يصيبها ، رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال : حرمت ما أحل الله ، عليها كفارة يمين . وهو قول أبى يوسف . وقال محمـد بن الحسن : لا شىء عليها .

الثـالثة عشرة — من به لَمَـمٌ وآنتظمت له فى بعض الأوقات الكلـم إذا ظاهر لزم ظهاره ؛ لمـا روى فى الحديث : أن خَوْلة بنت ثعلبة وكان زوجها أَوْس بن الصّامت وكان به لَمَم فأصابه بعض لَمَمه فظاهر من آمرأته .

الرابعـة عشرة — من غضب وظاهر من آمرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه. وفى بعض طرق هـذا الحديث ، قال يوسف بن عبد الله بن سلام : حدّثتنى خَوْلة آمرأة أوس بن الصامت ، قالت : كان بينى و بينه شىء ، فقال : أنت على كظهر أمى ثم خرج إلى نادى قومه . فقولها : كان بينى و بينه شىء . دليل على منازعة أحرجته فظاهر منها . والغضب لغو لا يرفع حكما ولا يغير شرعا وكذلك السكران . وهى :

الخامسة عشرة — يلزمه حكم الظهار والطلاق فى حال سكره إذا عقل قوله ونظم كلامه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » على ما تقدم فى « النساء » (1) بيانه . والله أعلم .

السادسـة عشرة — ولا يقرب المظاهر آمرأته ولا يباشرها ولا يتـلذذ منها بشىء حتى يكفر خلافا للشافعى فى أحد قوليـه ؛ لأن قوله : أنت على كظهر أمى يقتضى تحـريم كل آستمتاع بلفظه ومعناه ، فإن وطئها قبل أن يكفر ، وهى :

السابعة عشرة — آستغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة . وقال مجاهد وغيره : عليـه كفارتان . روى سـعيد عن قتادة ، ومطرف عن رجاء بن حيوة عن قبيصة آبن ذؤيب عن عمرو بن العاص فى المظاهر : إذا وطئ قبل أن يكفر عليه كفارتان . ومعمر عن قتادة قال قال قبيصة بن ذؤيب : عليه كفارتان . وروى جماعة من الأئمة منهم آبن ماجه

---

(1) راجع جـ ٥ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية .

والنسائى عن آبن عباس : أن رجلا ظاهر من آمرأته فغشيها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال :"ماحملك على ذلك " فقال : يارسول الله ! رأيت بياض خلخالها فى ضـوء القمر فلم أملك نفسى أن وقعت عليها . فضحك النبى صلى الله عليـه وسلم وأمره ألا يقربها حتى يكفر . وروى آبن ماجه والدار قطنى عن سـليمان بن يسار عن سلمة آبن صخر أنه ظاهر فى زمان النبي صلى الله عليـه وسلم، ثم وقع بآمرأته قبل أن يكفر، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأمره أن يكفر تكفيرا واحدا .

الثامنة عشرة ــ إذا ظاهر من أربع نسوة فى كلمة واحدة، كقوله :أنتن على كظهر أمى كان مظاهرا من كل واحدة منهن ، ولم يجـزله وطء إحداهن وأجزأته كفـارة واحدة . وقال الشافعى : تلزمه أربع كفارات . وليس فى الآية دليـل على شىء من ذلك ؛ لأن لفظ الجمع إنمـا وقع فى عامة المؤمنين والمعول على المعـنى . وقد روى الدار قطنى عن آبن عبـاس قال كان عمر بن الخطاب رضى الله عنـه يقول : إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة ، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه فى كل واحدة منهن كفارة . وهذا إجماع .

التاسعة عشرة ــ فإن قال لأربع نسوة إن تزوجتكن فأنتن على كظهر أمى فتزوج إحداهن لم يقربها حتى يكفر، ثم قد سقط عنـه اليمين فى سائرهن . وقد قيـل : لا يطأ البواقى منهن حتى يكفر . والأول هو المذهب .

الموفيـة عشرين ــ وإن قال لامرأته : أنت على كظهر أمى وأنت طالق البتـة[1]،لزمه الطلاق والظهار معا،ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفر، فإن قال لها : أنت طالق البتة وأنت على كظهر أمى لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار؛لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق .

---

(١) يريد بالبتـة هنا الطلاق الثلاث كما يفهم من العبارة بعد وكما فى آبن العربى حيث قال : إذا طلقها ثلاثا بعد الظهار ثم عادت إليه بنكاح جديد لم يطأ حتى يكفر .

الحادية والعشرون — قال بعض العلماء : لا يصح ظهار غير المدخول بها . وقال المزنى : لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية وهذا ليس بشىء؛ لأن أحكام الزوجية فى الموضعين ثابتة وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياسا ونظرا . والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مَاهُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أى ما نساؤهم بأمهاتهم . وقراءة العامة « أُمَّهَاتِهِمْ » بخفض التاء على لغة أهل الحجاز ؛ كقوله تعالى: « مَاهَذَا بَشَرًا » . وقرأ أبو معمر والسلمى وغيرهما « أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع على لغة تميم . قال الفراء : أهل نجد وبنو تميم يقولون « مَا هَـذَا بَشَرٌ » ، و « مَاهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع . ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ ﴾ أى ما أمهاتهم إلا الوالدات . وفى المثل : ولدك مَنْ دَمَّى عَقِبَيْك . وقد تقدم القول فى اللائى فى « الأحزاب »[1] .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى فظيعا من القول لا يعرف فى الشرع . والزور الكذب ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا القول المنكر .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

---

(١) ليس فى الأحزاب كلام على اللائى ويبدو أن سقطا وقع فى نسخ الأصل التى بأيدينا .

فيه آثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ هذا آبتداء والخبر «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه؛ أى فعليهم تحرير رقبة . وقيل : أى فكفارتهم عتق رقبة والمجمع عليه عند العلماء فى الظهار قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى . وهو قول المنكر والزور الذى عنى الله بقوله : « وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا » فمن قال هذا القول حرم عليه وطء آمرأته . فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار؛ لقوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ »وهذا يدل على أن كفارة الظهار لاتلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العود، وهذا حرف مشكل آختلف الناس فيه على أقوال سبعة: الأول — إنه العزم على الوطء وهو مشهور قول العراقيين أبى حنيفة وأصحابه . وروى عن مالك : فإن عزم على وطئها كان عودا ، وإن لم يعزم لم يكن عودا . الثانى — العزم على الإمساك بعد التظاهر منها؛ قاله مالك . الثالث — العزم عليهما . وهو قول مالك فى موطئه؛ قال مالك فى قوله الله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » قال سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من آمرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها . فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه . قال مالك : وإن تزوجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفر كفارة التظاهر . القول الرابع — إنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عودا . قاله الحسن ومالك أيضا . الخامس — وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما آبتداه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه . وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة . السادس — إن الظهار يوجب تحريما لايرفعه إلا الكفارة ومعنى العود عند القائلين بهذا أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد . السابع — هو تكرير الظهار بلفظه . وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس ، قالوا : إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العود ، وإن لم يكرر فليس بعود . يسند ذلك إلى بكير بن

الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضا وهو قول الفراء . وقال أبو العالية : وظاهر الآية تشهد له ، لأنه قال : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » أي إلى قول ما قالوا . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » هو أن يقول لها أنت علي كظهر أمي . فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفر كفارة الظهار . قال ابن العربي : فأما القول بأنه العود إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعا لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه . وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لعود القول منهم وأيضا فإن المعنى ينقضه ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل ؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفار لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره .

قلت : قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حمل منه عليه، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم ، وأما قول الشافعي : بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات، الأول — أنه قال : « ثُمَّ » وهذا بظاهره يقتضي التراخي . الثاني — أن قوله تعالى : « ثُمَّ يَعُودُونَ » يقتضي وجود فعل من جهته ومرور الزمان ليس بفعل منه . الثالث — أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء . فإن قيل : فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح . وهذه عمدة أهل ما وراء النهر . قلنا : إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفّر وعاد إلى أهله . وتحقيق هذا القول أن العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولا اقتضى التحليل وهو النكاح ، وقال قولا اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل ، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت علي كظهر أمي ، وإذا كان ذلك كفر وعاد إلى أهله لقوله « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » . وهذا تفسير بالغ [في فنه] (١) .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي .

الثانيـــة — قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير والمعنى «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ» إلى ما كانوا عليه من الجماع «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» لما قالوا ؛ أى فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا ؛ فالجار فى قوله «لِمَا قَالُوا» متعلق بالمحذوف الذى هو خبر الابتداء وهو عليهم . قاله الأخفش . وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . وقيل : المعنى الذين كانوا يظّهّرون من نسائهم فى الجاهلية ، ثم يعودون لما كانوا قالوه فى الجاهلية فى الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة . الفراء : اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عن ما قالوا ويريدون الوطء . وقال الأخفش : لما قالوا وإلى ما قالوا واحد ، واللام وإلى يتعاقبان ؛ قال : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا» وقال : «فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» وقال : «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» وقال : «وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ» .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى فعليه إعتاق رقبة ، يقال : حررته أى جعلته حرا . ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سليمة من كل عيب ، ومن كمالها إسلامها عند مالك والشافعى ؛ كالرقبة فى كفارة القتل . وعند أبى حنيفة وأصحابه تجزى الكافرة ومن فيها شائبة رِقّ [1] كالمكاتَبة وغيرها .

الرابعــة — فإن أعتق نصفى عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبى حنيفة . وقال الشافعى : يجزئ ؛ لأن نصف العبدين فى معنى العبد الواحد ؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزى كالإطعام ؛ ودليلنا قوله تعالى : «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد ، وبعض الرقبة ليس برقبة ، وليس ذلك مما يدخله التلفيق ؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها ؛ أصله إذا اشترك رجلان فى أضحيتين ؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا ؛ ولأنه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين ، كذلك فى مسئلتنا وبهذا يبطل دليلهم . والإطعام وغيره لا يتجزّى فى الكفارة عندنا .

(١) فى بعض الأصول : شعبة رق ؛ والمعنى واحد .

الخامســـة — قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أى يجامعها فلا يجــوز للظاهر الوطء قبــل التكفير ، فإن جامعها قبــل التكفير أثم وعصى ولا يســقط عنه التكفير . وحكى عن مجاهد : أنه إذا وطئ قبل أن يشرع فى التكفير لزمته كفارة أخرى . وعن غيره : أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شىء أصلا ؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخرها حتى مس فقد فات وقتها . والصحيح ثبوت الكفارة؛ لأنه بوطئه ارتكب إثما فلم يكن ذلك مسقطا للكفارة ، ويأتى بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها . وفى حديث أوس بن الصامت لمـا أخبر النبى صلى الله عليه وسـلم بأنه وطئ امرأته أمره بالكفارة[1] . وهــذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام . وقال أبو حنيفة : إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم فى قول أكثر العلماء . وقاله الحسن وسفيان وهو الصحيح من مذهب الشافعى . وقيل : وكل ذلك محرم وكل معانى المسيس . وهو قول مالك وأحد قولى الشافعى . وقد تقدم .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أى تؤمرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التكفير وغيره .

السابعـــة — من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكا لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته ؛ أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئا سواه ، فله أن يصوم عند الشافعى . وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجا إلى ذلك . وقال مالك : إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة، وهى :

الثامنـــة — فعليه صوم شهرين متتابعين . فإن أفطر فى أثنائهما بغير عذر استأنفهما، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض، فقيل : يبنى؛ قاله ابن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى ، وهو أحد قولى الشافعى وهو الصحيح من مذهبه . وقال مالك :

---

(١) لم يتقدم العود فى حديث أوس، وإنما هو فى مظاهر آخر وهو القائل : رأيت خلخالها فى ضوء القمر .

إنه إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنى إذا صح . ومذهب أبي حنيفة رضي الله عنه أنه يبتدئ ، وهو أحد قولي الشافعي .

التاسعة ــ إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعي ؛ لأنه بذلك أمر حين دخل فيه . ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه ؛ قياسا على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل انقضائها ، فإنها تستأنف الحيض إجماعا من العلماء . وإذا ابتدأ سفرا في صيامه فأفطر ، ابتدأ الصيام عند مالك والشافعي وأبي حنيفة ؛ لقوله : « مُتَتَابِعَيْنِ » . ويبني في قول الحسن البصري ؛ لأنه عُذر وقياسا على رمضان ، فإن تخللها زمان لا يحل صومه في الكفارة كالعيدين وشهر رمضان انقطع .

العاشرة ــ إذا وطئ المتظاهر في خلال الشهرين نهارا ، بطل التتابع في قول الشافعي ، وليلا فلا يبطل ؛ لأنه ليس محلا للصوم . وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل بكل حال ووجب عليه ابتداء الكفارة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين ، وإلى أبعاضهما ، فإذا وطئ قبل انقضائهما فليس هو الصيام المأمور به . فلزمه استئنافه ؛ كما لو قال : صلّ قبل أن تكلم زيدا . فكلم زيدا في الصلاة ، أو قال : صلّ قبل أن تبصر زيدا فأبصره في الصلاة لزمه استئنافها ؛ لأن هذه الصلاة ليست هي الصلاة المأمور بها كذلك هذا ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة ــ ومن تطاول مرضه طولا لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر ، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام . ولو كان مرضه مما يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطء امرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام . ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه .

الثانية عشرة ــ ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم . ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفر صام . وإنما يُنظَر إلى حاله يوم يكفّر . ولو جامعها في عدمه

وعمره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق . ولو ابتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى . وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه . ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم فى الصلاة أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك .

الثالثة عشرة — ولو أعتق رقبتين عن كفارتى ظهار أو قتل أو فطر فى رمضان وأشرك بينهما فى كل واحدة منهما لم يجزه . وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين . وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين . وقد قيل : إن ذلك يجزيه . ولو ظاهر من امرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدة منهما حتى يكفر كفارة أخرى . ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفر الكفارة عن الأخرى . ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهن ثلاث رقاب، وصام شهرين ، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوما ، فإن كفر عنهن بالإطعام جاز أن يطعم عنهن مائتى مسكين ، وإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام ؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق .

فصل وفيه ست مسائل :

الأولى — ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبة؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينا لكل مسكين مُدّان بمُد النبي صلى الله عليه وسلم . وإن أطعم مدّا بمد هشام، وهو مدّان إلا ثلثا، أو أطعم مدّا ونصفا بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم أجزأه . قال أبو عمر بن عبد البر : وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل لم يقل فى كفارة الظهار «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ» فواجب قصد الشبع . قال ابن العربى : وقال مالك فى رواية ابن القاسم وابن عبد الحكم مدّ بمدّ هشام وهو الشبع هاهنا ؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط . وقال فى رواية أشهب : مدّان بمدّ النبى صلى الله عليه وسلم أحب إلى . وكذلك قال عنه ابن القاسم أيضا .

قلت : وهى رواية ٱبن وهب ومطرّف عن مالك : أنه يعطى مدّين لكل مسكين بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم . وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه . ومذهب الشافعى وغيره مدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك ؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المد ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين . ودليلنا قوله تعالى : « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً » وإطلاق الإطعام يتناول الشبع ، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليه . وكذلك قال أشهب : قلت لمالك أيختلف الشّبع عندنا وعندكم ؟ قال نعم ! الشبع عندنا مدّ بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم والشّبع عندكم أكثر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة دونكم ، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن . وقال أبو الحسن القابسى إنما أخذ أهل المدينة بمدّ هشام فى كفّارة الظهار تغليظا على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكرا من القول وزورا . قال ٱبن العربى : وقع الكلام ها هنا فى مدّ هشام كما ترون ، ووددت أن يهشم الزمان ذكره ، ويمحو من الكتب رسمه ؛ فإن المدينة التى نزل الوحى بها وٱستقر الرسول بها ووقع عندهم الظهار ، وقيل لهم فيه « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا » فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشّبع ، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم ، وقد ورد ذلك الشّبع فى الأخبار كثيرا ، وٱستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان فى أذن هشام ، فرأى أن مدّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يشبعه ، ولا مثله من حواشيه ونظرائه فسوّل له أن يتخذ مدّا يكون فيه شبعه ، فجعله رطلين وحمل الناس عليه ، فإذا ٱبتل عاد نحو الثلاثة الأرطال ؛ فغير السنة وأذهب محل البركة . قال النبي صلى الله عليه وسلم حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة فى مدهم وصاعهم ، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة ، فكانت البركة تجرى بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم فى مدّه ، فسعى الشيطان فى تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة ، فلم يستجب له فى ذلك إلا هشام ، فكان من حق العلماء أن يلغوا ذكره ويمحوا رسمه إذا لم يغيروا أمره ، وأما أن يحيلوا على ذكره فى الأحكام ، ويجعلوه تفسيرا لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسرا عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم ؛ ولذلك كانت رواية أشهب فى ذكر مدّين بمد النبي صلى الله عليه وسلم فى كفارة الظهار أحبّ إلينا من

الرواية بأنها بمدّ هشام . ألا ترى كيف نبه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب : الشبع عندنا بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم، والشبع عندكم أكثر لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة . وبهذا أقول فإن العبادة إذا أُديت بالسنة ، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول ، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل فى الميزان، وأبرك فى يد الآخذ ، وأطيب فى شدقه، وأقل آفة فى بطنه، وأكثر إقامة لصلبه . والله أعلم .

الثانيــة — ولا يجزئ عنـد مالك والشـافعى أن يطعم أقل من ستين مسكينا ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن أطعم مسكينا واحدا كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

الثالثــة — قال أبو بكر بن العربى : من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل . واحتج بقوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » ولم يفرق بين الرشيد والسفيه ؛ وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره ، فإن هذه الآية عامة ، وقد كان القضاء بالحجر فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشيا والنظر يقتضيه، ومن كان عليه حجر لصغر أو لولاية وبلغ سفيها قد نهى عن دفع المال إليه، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضى على العام .

الرابعــة — وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقا ؛ وقد روى معنى ذلك عن ابن عباس وأبى قِلابة وغيرهما .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى ذلك الذى وصفنا من التغليظ فى الكفارة « لِتُؤْمِنُوا » أى لتصدّقوا أن الله أمر به . وقد استدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى ؛ لما ذكرها وأوجبها قال : « ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عند حدوده لا تتعدّوها ، فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيمانا ، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان . فإن قيل : معنى قوله : « ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى لئلا تعودوا للظهار الذى هو منكر من القول وزور .

قيل له : قد يجوز أن يكون هذا مقصودا والأول مقصودا ، فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور ، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما ، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تُكفِّروا . إذ كان الله منع من مسيسها ، وتكفّروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفّارة وألزم إخراجها منكم ؛ فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله ؛ لأنها حدود تحفظونها ، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم إيمان . وبالله التوفيق .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أى بين معصيته وطاعته ، فمعصيته الظهار ، وطاعته الكفارة . ﴿ وللكافرينَ عذابٌ أليمٌ ﴾ أى لمن لم يصدّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده، ذكر المحادين المخالفين لها . والمحادّة المعاداة والمخالفة فى الحدود ؛ وهو مثل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُشَاقُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ » . وقيل : « يُحَادُّونَ اللهَ » أى أولياء الله كما فى الخبر : " من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة " . وقال الزجاج : المحادّة أن تكون فى حدّ يخالف حدّ صاحبك . وأصلها الممانعة ومنه الحديد ومنه الحدّاد للبوّاب . ﴿ كُبِتُوا ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال قتادة : أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم . وقال ابن زيد : عذبوا . وقال السدى : لعنوا . وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق . وقيل : يوم بدر . والمراد المشركون . وقيل : المنافقون . ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وقيل : « كُبِتُوا »

أى سيكبتون وهو بشارة من الله تعالى للؤمنين بالنصر، وأخرج الكلام بلفظ الماضى تقريبا للخبر عنه . وقيل: هى بلغة مذحج . ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فيمن حاد الله ورسوله من الذين من قبلهم فيما فعلنا بهم . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بـ « عَذَابٌ مُهِينٌ » أو بفعل مضمر تقديره واذكر تعظيما لليوم . ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ﴾ أى الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم فى حالة واحدة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ أى يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فى الدنيا ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ عليهم فى صحائف أعمالهم ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ هم حتى ذكرهم به فى صحائفهم ليكون أبلغ فى الحجة عليهم . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع وناظر لا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلا يخفى عليه سر ولا علانية . ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ﴾ قراءة العامة بالياء ؛ لأجل الحائل بينهما . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج وأبو حيوة وعيسى « مَا تَكُونُ » بالتاء لتأنيث الفعل ، والنجوى السرار . وهو مصدر والمصدر قد يوصف به . يقال : قوم نجوى أى ذوو نجوى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ هُمْ نَجْوَى » . وقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ خفض بإضافة « نَجْوَى » إليها . قال الفراء : « ثَلَاثَةٍ » نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت « نَجْوَى » إليها. ولو نصبت على إضمار فعل جاز ، وهى قراءة ابن أبى عبلة « ثَلَاثَةً » و « خَمْسَةً » بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ؛ قاله الزمخشرى . ويجوز رفع « ثلاثة » على البدل من موضع « نجوى » . ثم قيل : كل سرار نجوى . وقيل : النجوى ما يكون من

خلوة ثلاثة يسرون شيئا و يتناجون به ، والسِّرار ما كان بين آثنين . ﴿ إِلَّا هو رَابِعُهُمْ ﴾ يعلم ويسمع نجواهم ؛ يدل عليه آفتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم . وقيل : النجوى من النجوة وهى ما آرتفع من الأرض ، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عمــا يتصل به ، والمعنى أن سمع الله محيط بكل كلام ، وقد سمع الله مجادلة المرأة التى ظاهر منها زوجها . ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ قرأ سلّام و يعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع « مِنْ نَجْوَى » قبل دخول « مِن » لأن تقديره ما يكون نجوى ، و « ثلاثة » يجوز أن يكون مرفوعا على محل « لا » مع « أدنى » كقولك : لا حولَ ولا قوةٌ إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة . ويجوز أن يكونا مرفوعين على الآبتداء كقولك لا حولٌ ولا قوة إلا بالله . وقد مضى فى « البقرة »[1] بيان هذا مستوفى . وقرأ الزهرى وعكرمة « أكبر » بالباء . والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر . وقال الفرّاء فى قوله « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ » قال : المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود ؛ لأنه تعالى إنمــا قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعــلم ما يقولون سرا وجهرا ولا تخفى عليه خافية ؛ فمن أجل ذلك آكتفى بذكر بعض العدد دون بعض . وقيل : معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا آنتقال ، ونزل ذلك فى قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئا سرا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك ؛ قاله آبن عباس . وقال قتادة ومجاهد : نزلت فى اليهود . ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من حسن وسيء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعــالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

(١) راجع جـ٣ ص ٢٦٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ قيل : إن هذا فى اليهود والمنافقين حسب ما قدّمناه . وقيل : فى المسلمين . قال ٱبن عباس : نزلت فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت . وقال مقاتل : كان بين النبي صلى الله عليه وسلم و بين اليهود موادعة ، فإذ مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا ، فيعرج عن طريقه ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينتهوا فنزلت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يأتى النبي صلى الله عليه وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه فى حرب أو بلية أو أمر مهمّ فيفزعون لذلك فنزلت .

الثانيــة — روى أبو سعيد الخــدرى قال : كنا ذات ليـلة نتحـدّث إذ خرج علينا رسول الله صــلى الله عليه وسـلم فقال : " ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى " فقلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله ؛ إنا كنا فى ذكر المسيخ — يعنى الدجال — فرقا منه . فقال : " ألا أخبركم بمـا هو أخوف عندى منه " قلنا : بلى يا رسول الله ؛ قال : " الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل " ذكره المـاوردى . وقرأ حمزة وخلف ورويس عن يعقوب «وَيَنْتَجُونَ» فى وزن يفتعلون وهى قراءة عبد الله وأصحابه . وقرأ الباقون «وَيَتَنَاجَوْنَ» فى وزن يتفاعلون ، وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لقوله تعـالى : « إِذَا تَنَاجَيْتُمْ »و « تَنَاجَوْا » . النحاس : وحكى سيبويه أن تفاعلوا وٱفتعـلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا وٱختصموا ، وتقاتلوا وٱقتتلوا فعلى هذا «يَتَنَاجَوْنَ» و «يَنْتَجُون» واحد . ومعنى ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أى الكذب والظلم . ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُـولِ﴾ أى مخالفتـه . وقرأ الضحاك ومجاهد وحميـد « وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ » بالجمـع .

الثالثــــة ــ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ لاخلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود ؛ كانوا يأتون النبيصلىالله عليه وسلم فيقولون: السام عليك. يريدون بذلك السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : " عليكم " فى رواية وفى رواية أخرى " وعليكم " . قال ابن العربى : وهى مشــكلة . وكانوا يقولون : لو كان محمد نبيا لمــا أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به ، وجهلوا أن البارى تعــالى حليم لا يعاجل من سبّه ، فكيف من سبّ نبيه . وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وســلم قال : " لا أحد أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهــم و يرزقهم" فأنزل الله تعــالى هذا كشفا لسرائرهم ، وفضحا لبواطنهــم ، ومعزة لرسوله صــلى الله عليه وسلم . وقــد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديا أتى على رسول الله صــلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فقال : السام عليكم . فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " أتدرون ما قال هذا " قالوا : الله ورسوله أعلم. قال: " قال كذا ردوه علىّ " فردوه؛ قال : " قلت السام عليكم " قال : نعــم . فقال النبيصلى الله عليه وسلم عند ذلك: " إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت" فأنزل الله تعالى : « وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » .

قلت : خرجه الترمذى وقال هــذا حديث حسن صحيح . وثبت عن عائشة أنها قالت : جاء أناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقلت : السام عليكم وفعل الله بكم وفعل . فقال عليه السلام : " مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش ولا التفحش " فقلت : يارســول الله ألست ترى مايقولون ؟! فقال : " ألستِ ترين أرد عليهم مايقولون أقول وعليكم " فنزلت هذه الآية « بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » أى إن الله سلم عليك وهم يقولون السام عليــك ، والسام الموت . خرجه البخارى ومسلم بمعناه . وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وســلم : " إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم " كذا الرواية " وعليكم " بالواو وتكلم عليهــا العلماء ؛ لأن الواو العاطفــة تقتضى التشريك فيلزم منــه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت ، أو من

سآمة دينتا وهو الملال . يقال : سئم يسأم سآمة وسآما . فقال بعضهم : الواو زائدة كما زيدت فى قول الشاعر :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الحَيِّ وٱنْتَحَى *

أى لما أجزنا ٱنتحى فزاد الواو . وقال بعضهم : هى للاستئناف، كأنه قال : والسام عليكم . وقال بعضهم : هى على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك ؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سلم ناس من يهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ؛ فقال : " وعليكم " فقالت عائشة وغضبت : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : " بلى قد سمعت فرددت عليهم و إنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا " خرجه مسلم . ورواية الواو أحسن معنى ، و إثباتها أصح رواية وأشهر .

وقد ٱختلف فى رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين ، و إليه ذهب ٱبن عباس والشَّعبى وقَتَادة ؛ للأمر بذلك . وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وٱبن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك . وقد ٱختار ٱبن طاوس أن يقول فى الرد عليهم : علاك السلام أى ٱرتفع عنك . وٱختار بعض أصحابنا : السِّلام بكسر السين يعنى الحجارة . وما قاله مالك أولى ٱتباعا للسنة ؛ والله أعلم . وروى مسروق عن عائشة قالت : أتى النبي صلى الله عليه وسلم ناسٌ من اليهود، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ؛ قال : " وعليكم " قالت عائشة : قلت بل عليكم السَّامُ والذَّامُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة لا تكونى فاحشة " فقالت : ما سمعت ما قالوا ! فقال: " أو ليس قد رددتُ عليهم الذى قالوا قلتُ وعليكم " . فى رواية قال : ففطنت بهم عائشة فسبتهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش " وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى : « وإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ » إلى آخر الآية . الذام بتخفيف الميم هو العيب؛ وفى المثل (لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًّا) أى عيبا ، ويهمز ولا يهمز ؛

يقال : ذَأَمَه يَذْأَمُه، مثل ذأب يذأب، والمفعول مذءوم مهموزا، ومنه « مَذْءُومًا مَدْحُورًا » ويقال : ذامَه يَذُومُه مخففا كرامه يرومه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ قالوا : لو كان محمد نبيا لعذّبنا الله بما نقول فهلا يعذبنا الله . وقيل : قالوا إنه يرد علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت ، فلو كان نبيا لاستجيب له فينا ومتنا . وهذا موضع تعجب منهم ؛ فإنهم كانوا أهل كتاب ، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يُغضَبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب . ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى كافيهم جهنم عقابا غدا ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ» أى تساررتم . ﴿ فَلَا تَتَنَاجَوْا ﴾ هذه قراءة العامة . وقرأ يحيى بن وثاب وعاصم ورويس عن يعقوب « فَلَا تَنْتَجُوا» من الانتجاء . ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ أى بالطاعة ﴿ وَالتَّقْوَى ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه . وقيل : الخطاب للمنافقين؛ أى يأيها الذين آمنوا بزعمهم . وقيل : أى يأيها الذين آمنوا بموسى . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون فى الآخرة .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أى من تزيين الشياطين ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا فى السرايا، أو إذا أجروا آجتماعهم على مكايدة المسلمين ، وربما كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ﴾ أى التناجى ﴿شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى بمشيئته . وقيل : بعلمه . وعن آبن عباس : بأمره . ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى يكلون أمرهم إليه ، ويفوّضون جميع شؤونهم إلى عونه ، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر ، فهو الذى سلط الشيطان بالوساوس آبتلاء للعبد وآمتحانا ولو شاء لصرفه عنه .

الثانيـــة — فى الصحيحين عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان ثلاثة فـلا يتناجى آثنان دون الواحد " وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى آثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه" فبين فى هذا الحديث غاية المنع وهى أن يجد الثالث من يتحدّث معه كما فعل آبن عمر؛ وذلك أنه كان يتحدّث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فـلم يناجه حتى دعا رابعا ، فقال له وللأوّل : تأخرا وناجى الرجل الطالب للناجاة . خرجه الموطأ . وفيه أيضا التنبيه على التعليل بقوله : "من أجل أن يحزنه" أى يقع فى نفسه ما يحزن لأجله . وذلك بأن يقدّر فى نفسه أن الحديث عنه بما يكره ، أو أنه لم يروه أهلا ليشركوه فى حديثهم ، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس . وحصل ذلك كله من بقائه وحده ، فإذا كان معه غيره أَمِن ذلك ؛ وعلى هذا يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فـلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلا ؛ لوجود ذلك المعنى فى حقه ؛ بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون بالمنع أولى . وإنما خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أوّل عدد يتأتى ذلك المعنى فيه . وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، و إليه ذهب آبن عمر ومالك والجمهور . وسواء أكان التناجى فى مندوب أو مباح أو واجب فإنّ الحزن يقع به . وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان

فى أول الإسلام ؛ لأن ذلك كان فى حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . وقال بعضهم : ذلك خاص بالسفر فى المواضع التى لا يأمن الرجل فيها صاحبه ، فأما فى الحضر و بين العمارة فلا ؛ فإنه يجد من يعينه ، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث . والله أعلم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ ﴾[1] لما بين أن اليهود يحيونه بما لم يحيه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب فى مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس ، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم والنظر إليه . قال قتادة ومجاهد : كانوا يتنافسون فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض . وقاله الضحاك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب . قال الحسن و يزيد بن أبى حبيب : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض ؛ رغبة فى القتال والشهادة فنزلت . فيكون كقوله : « مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » . وقال مقاتل : كان النبى صلى الله عليه وسلم فى الصُّفَّة ، وكان فى المكان ضيق يوم الجمعة ، وكان النبى صلى الله عليه

(١) الأصول على قراءة نافع «فى المجالس» بالأفراد .

وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس ابن شماس وقد سُبِقوا فى المجلس ، فقاموا حيال النبى صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لمن حوله من [غير] (١) أهل بدر : "قم يافلان وأنت يافلان" بعدد القائمين من أهل بدر، فشقّ ذلك على من أقيم ، وعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم الكراهية فى وجوههم ، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا : ما أُنصِف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان . فأنزل الله عز وجل هذه الآية . « تَفَسَّحُوا » أى توسعوا . وفَسَحَ فلان لأخيه فى مجلسه يَفْسَح فَسْحا أى وَسَّع له ؛ ومنه قولهم بلد فَسِيح ولك فى كذا فُسْحة ، وفَسَح يَفْسَح مثل مَنَع يَمْنَع ، أى وسّع فى المجلس ، وفَسُح يَفْسُح فَسَاحة مثل كَرُم يَكْرُم أى صار واسعا ؛ ومنه مكان فسيح .

الثانيــة — قرأ السُّلَمِيّ و زِرّ بن حُبَيش وعاصم « فِي المَجَالِسِ » وقرأ قتادة وداود ابن أبى هند والحسن باختلاف عنه « إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا » الباقون « تَفَسَّحُوا فِي المَجْلِسِ » فمن جمع فلأن قوله : « تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ » ينبئ أن لكل واحد مجلسا . وكذلك إن أريد به الحرب . وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم وجمع لأن لكل جالس مجلسا . وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس؛ كقولهم : كثر الدينار والدرهم .

قلت : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه [قال صلى الله عليه وسلم : "من سَبَق إلى ما لم يُسبَق إليه فهو أحق به"] (٢) ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخارى ومسلم عن ابن عمر عن

(١) الزيادة من أسباب النزول وبعض التفاسير .

(٢) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه" . وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم انه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا . وكان ٱبن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه . لفظ البخارى .

الثالثة ــ إذا قعد واحد من الناس فى موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه؛ لما روى مسلم عن أبى الزبير عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول ٱفسحوا" .

فرع ــ القاعد فى المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نُظر؛ فإن كان الموضع الذى قام إليه مثل الأول فى سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك ، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك؛ لأن فيه تفويت حظّه .

الرابعة ــ إذا أمر إنسان إنسانا أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكانا يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع ؛ لما روى : أن ٱبن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له فى يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه .

فرع ــ وعلى هذا من أرسل بساطا أو سجادة فتبسط له فى موضع من المسجد .

الخامسة ــ روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قام أحدكم ــ وفى حديث أبى عوانة من قام من مجلسه ــ ثم رجع إليه فهو أحقّ به" قال علماؤنا : هذا يدل على صحة القول بوجوب ٱختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه ؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى . وقد قيل : إن ذلك على الندب ؛ لأنه موضع غير متملك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده . وهذا فيه نظر ؛ وهو أن يقال : سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه ، فصار كأنه يملك منفعته؛ إذ قد منع غيره من أن يزاحمه عليه . والله أعلم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى فى قبوركم . وقيل : فى قلوبكم . وقيل : يوسع عليكم فى الدنيا والآخرة . ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهـما . وكسر الباقون وهمـا لغتان مثل « يَعْكُفُونَ » و « يَعْرِشُونَ » والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين. وقال مجاهد والضحاك: إذا نودى للصلاة فقوموا إليها . وذلك أن رجالا تثاقلوا عن الصلاة فنزلت . وقال الحسن ومجاهـد أيضا : أى انهضوا إلى الحـرب . وقال ابن زيد : هـذا فى بيت النبي صلى الله عليـه وسلم ؛ كان كل رجل منهم يحبّ أن يكون آخر عهده بالنبي صـلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسـلم « فَانْشُزُوا » فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف . وهذا هو الصحيح ؛ لأنه يعم . والنشز الارتفاع مأخـوذ من نشز الأرض وهـو ارتفاعها ؛ يقال : نَشَزَ يَنْشُز ويَنْشِز إذا انتحى من موضـعه ؛ أى ارتفع منه . وامرأة ناشز منتحية عن زوجها . وأصل هذا من النَّشَز، والنَّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى . ذكره النحاس .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فى الثواب فى الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم . وقال ابن مسـعود : مدح الله العلمـاء فى هذه الآية . والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العـلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم « دَرَجَاتٍ » أى درجات فى دينهم إذا فعلوا ما أمروا به . وقيل : كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستبقون إلى مجلس النبي صـلى الله عليه وسلم فالخطاب لهم . ورأى عليه الصلاة والسلام رجلا من الأغنياء يقبض ثوبه نفورا من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: " يا فلان خشيتَ أن يتعدّى غناكَ إليه أو فقره إليك " وبين فى هذه الآية أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صـدور المجالس . وقيـل : أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن . وقال يحيى بن يحيى عن مالك : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الصحابة « وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » يرفع الله بها العالم والطالب للحق .

قلت : والعموم أوقع فى المسئلة وأولى بمعنى الآية ؛ فيرفع المؤمن بإيمانه أولا ثم بعلمه ثانيا . وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أَجَلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم . وفى البخارى عن عبد الله ابن عباس قال : قدم عُيَينة ابن حِصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا . الحديث . وقد مضى فى آخر « الأعراف »[1] . وفى صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحرث لقى عمر بعُسْفَان وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملته على أهل الوادى ؟ فقال : ابن أبزى . فقال : ومن ابن أبزى؟ قال : مولى من موالينا . قال : فاستخلفت عليهم مولى ! قال : إنه قارئ لكتاب الله و إنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما و يضع به آخرين" وقد مضى أول الكتاب[2] . ومضى القول فى فضل العلم والعلماء فى غير موضع من هذا الكتاب[3] . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حُضْر الجواد المُضَمَّر سبعين سنة". وعنه صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب". وعنه عليه الصلاة والسلام : " يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس : خُيِّرَ سليمانُ بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ٦ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٤٣ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ « ناجيتم » ساررتم . قال آبن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقّوا عليه، فأراد الله عز وجل أن يخفّف عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فلما قال ذلك كفّ كثير من الناس . ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها . وقال الحسن : نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبي صلى الله عليه وسلم ويناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين انهم ينتقصونهم في النجوى ، فشقّ عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن آستخلائه . وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون : إنه أُذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحدا مناجاته . فكان ذلك يشقّ على المسلمين ؛ لأن الشيطان كان يلقى في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا آجتمعت لقتاله . قال : فأنزل الله تبارك وتعالى « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ » الآية ، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية ، فآنتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وآمتنعوا من النجوى؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية .

الثانيــة — قال آبن العربي : وفي هذا الخبر عن زيد مايدل على أن الأحكام لا تترتب ب المصالح، فإن الله تعالى قال : « ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » ثم نسخه مع كونه خيرا وأطهر،

وهــذا رد على المعتزلة عظيم فى التزام المصالح، لكن راوى الحديث عن زيد ابنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء . والأمر فى قوله تعـالى : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ » نص متـواتر فى الرد على المعتزلة . والله أعلم .

الثالثـــة ــ روى الترمذى عن علىّ بن علقمة الأنمارى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لمـا نزلت « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : " ماترى دينارا " قلت لا يطيقونه . قال : " فنصف دينار " قلت : لا يطيقونه . قال : " فكم " قلت : شعيرة . قال : " إنك لزهيد " قال فنزلت « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » الآية . قال : فبي خفّف الله عن هذه الأمة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب إنمـا نعرفه من هذا الوجه، ومعنى قوله : شعيرة يعنى وزن شعيرة من ذهب . قال ابن العربى : وهــذا يدل على مسئلتين حسنتين أصوليتين ؛ الأولى ــ نسـخ العبادة قبـل فعلها . والثانيــة ــ النظر فى المقدّرات بالقياس ؛ خلافا لأبى حنيفة .

قلت : الظاهر أن النسخ إنمـا وقع بعد فعل الصدقة . وقد روى عن مجاهد : أن أوّل من تصدّق فى ذلك علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وناجى النبى صلى الله عليه وسلم . روى أنه تصدّق بخاتم . وذكر القشيرى وغيره عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : " فى كتاب الله آية ماعمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى، وهى : « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » كان لى دينار فبعته، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفد ، فنسخت بالآية الأخرى « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » . وكذلك قال ابن عباس : نسخها الله بالآية التى بعدها . وقال ابن عمر : لقد كانت لعـلىّ رضى الله عنه ثلاث لو كانت لى واحدة منهن كانت أحب إلىّ من حمر النَّعم، تزويجه فاطمة، و إعطاؤه الراية يوم خيـبر ، وآية النجوى . ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى من إمسا كها ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لقلوبكم من المعاصى . ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ يعنى الفقراء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾ آستفهام معناه التقرير . قال آبن عباس : « أَأَشْفَقْتُمْ » أى أبخلتم بالصدقة ؛ وقيل : خفتم والإشفاق الخوف من المكروه . أى خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ . وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة . وقال آبن عباس : مابقى إلا ساعة من النهار حتى نسخ . وكذا قال قتادة . والله أعلم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى نسخ الله ذلك الحكم . وهذا خطاب لمن وجد مايتصدّق به ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة . وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روى عن علىّ رضى الله عنه ضعيف؛ لأن الله تعالى قال : « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا » وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدّق بشيء . والله أعلم . ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ﴾ فى فرائضه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ فى سننه ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ قال قتادة : هم المنافقون تولوا اليهود ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يقول : ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك ، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم . قال السدى ومقاتل : نزلت فى عبد الله بن أبى وعبد الله بن نبتل المنافقين ؛ كان أحدهما يجالس النبى صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبى صلى الله عليه وسلم فى حجرة من حجراته إذ قال : "يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعينى شيطان" فدخل عبد الله بن نبتل — وكان أزرق أسمر قصيرا خفيف اللحية — فقال عليه الصلاة والسلام : "علام تشتمنى أنت وأصحابك" فحلف بالله ما فعل ذلك . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : "فعلت" فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ؛ فنزلت هذه الاية . وقال معناه ابن عباس . روى عكرمة عنه ؛ قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال : "يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان" فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق ، فدعا به النبى صلى الله عليه وسلم فقال : "علام تشتمنى أنت وأصحابك" قال : دعنى أجئك بهم . فمر فجاء بهم فحلفوا جميعا أنه ما كان من ذلك شىء، فأنزل الله عز وجل « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا » إلى قوله : « هُمُ الْخَاسِرُونَ » واليهود مذكورون فى القرآن بـ « غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أى لهؤلاء المنافقين ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فى جهنم وهو الدرك الأسفل . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بئس الأعمال أعمالهم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ يستجنون بها من القتل . وقرأ الحسن وأبو العالية «إِيمَانَهُمْ» بكسر الهمزة هنا وفى «المنافقين» . أى إقرارهم اتخذوه جنة ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ، وكفرت قلوبهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار . والصدّ المنع « عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن الإسلام . وقيل : فى قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق . وقيل : أى بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم .

قوله تعالى : لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي من عذابه شيئا . وقال مقاتل : قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه يُنصَر يوم القيامة ؛ لقد شقينا إذًا ! فوالله لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة . فنزلت : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ اليوم . وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غدا ، وقد صارت المعارف ضرورية . وقال ابن عباس : هو قولهم «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ بإنكارهم وحلفهم . قال ابن زيد : ظنوا أنهم ينفعهم في الآخرة . وقيل : « يَحْسَبُونَ » في الدنيا « أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ » لأنهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار . والأول أظهر . وعن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ينادى مناد يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القَدَرية مسودّة وجوههم مزرقّة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمسا ولا قمرا ولا صنما ولا وثنا ولا اتخذنا من دونك إلها " قال ابن عباس : صدقوا والله ! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ثم تلا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هم والله القَدَرية . ثلاثا .

قوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي غلب واستعلى أي بوسوسته في الدنيا . وقيل : قوى عليهم . وقال المفضّل : أحاط بهم . ويحتمل رابعا أي جمعهم وضمهم . يقال : أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض ، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوى عليهم وأحاط بهم . ﴿ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أي أوامره في العمل بطاعته . وقيل : زواجره في النهي عن معصيته .

والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة ، و يكون بمعنى الترك ، والوجهان محتملان هنا . ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ طائفته ورهطه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ فى بيعهم ؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم ، و باعوا الهدى بالضلالة .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقدم أول السورة . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أى من جملة الأذلاء لا أذل منهم ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾ أى قضى الله ذلك . وقيل : كتب فى اللوح المحفوظ ؛ عن قتادة . الفراء : كتب بمعنى قال . ﴿ أَنَا ﴾ توكيد ﴿ وَرُسُلِي ﴾ من بعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب ، ومن بعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة . قال مقاتل قال المؤمنون : لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم ؛ فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول : أتظنون الروم وفارس مثل القرى التى غلبتم عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عددا ، وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك . فنزلت : « لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » . نظيره : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

قوله تعالى : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ﴾ أى يحبون ويوالون ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقـدّم (١) ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ قال السـدى : نزلت فى [عبـد الله (٢) بن] عبـد الله بن أبىّ ، جلس إلى النبى صـلى الله عليه وسـلم فشرب النبى صـلى الله عليه وسلم ماء ؛ فقال له : بالله يا رسـول الله ما أبقيت من شرابك فضلة أسقيها أبى ؛ لعل الله يطهر بهـا قلبه ؟ فأفضل له فأتاه بها ؛ فقال له عبد الله : ما هذا ؟ فقال : هى فضلة من شراب النبى صلى الله عليه وسـلم جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بهـا . فقال له أبوه : فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها . فغضب وجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله ! أما أذنت لى فى قتل أبى ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " بل ترفق به وتحسن إليـه " . وقال آبن جريج : حُدِّثت أن أبا قحافة سبّ النبى صـلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر آبنـه صكة فسقط منها على وجهه ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : " أو فعلته لا تعد إليـه " فقال : والذى بعثك بالحـق نبيا لو كان السـيف منى قريبا لقتلته . وقال آبن مسعود : نزلت فى أبى عبيـدة بن الجراح ؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وقيل يوم بدر . وكان الجراح يتصدّى لأبى عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله ؛ فأنزل الله حين قتل أباه : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . قال الواقدى : كذلك يقول أهل الشام . ولقد سألت رجالا من بنى الحـرث بن فهر فقالوا : توفى أبوه من قبل الإسـلام . ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ يعنى أبا بكر دعى آبنه عبد الله إلى البراز يوم بدر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " متّعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعـلم أنك عندى بمنزلة السمع والبصر " . ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعنى مصعب بن عمير

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) زيادة لازمة ؛ فقد كان عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وخيارهم وكان عبد الله رأس المنافقين .

قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر . ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص ابن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وعليا وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر . وقيل : إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعة، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح . على ما يأتي بيانه أول سورة « الممتحنة » إن شاء الله تعالى . بين أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب .

الثانيـــة — استدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم. قال أشهب عن مالك : لا تجالس القَدَرية وعادِهم في الله ؛ لقوله تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

قلت : وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان . وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت في من كان يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ — إلى قوله — أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ » " أي خلق في قلوبهم التصديق يعني من لم يوال من حاد الله . وقيل : كتب أثبت ؛ قاله الربيع بن أنس . وقيل : جعل ؛ كقوله تعالى : « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أي اجعلنا . وقوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » . وقيل : « كَتَبَ » أي جمع ، ومنه الكتيبة ؛ أي لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض. وقراءة العامة بفتح الكاف من « كتب » ونصب النون من « الإيمان » بمعنى كَتَبَ الله وهو الأجود ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ وقرأ أبو العالية وزر بن حبيش والمفضل عن عاصم « كُتِبَ » على من لم يسم فاعله « الْإِيمَانُ » برفع النون . وقرأ زر بن حُبَيش « وَعَشِيرَاتِهِمْ » بألف وكسر التاء على الجمع . ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم . وقيل : « كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ » أي على قلوبهم ، كما في قوله : « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ » وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان . « وَأَيَّدَهُمْ » قواهم ونصرهم بروح منه ؛ قال الحسن : بنصر منه . وقال

الربيع بن أنس : بالقرآن وحججه . وقال آبن جريج : بنور و إيمان و برهان وهدى . وقيل : برحمة من الله . وقال بعضهم : أيدهم بجبريل عليه السلام . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أى قبل أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قال سعيد بن أبي سعيد الجرجانى عن بعض مشايخه ، قال داود عليه السلام : إلهى ! من حزبك وحول عرشك ؟ فأوحى الله إليه : « يا داود الغاضة أبصارهم ، النقية قلوبهم ، السليمة أكفهم ؛ أولئك حزبى وحول عرشى » .

ختمت والحمد لله " سورة المجادلة "

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

مَدَنِيَّةٌ فى قول الجميع . وهى أربع وعشرون آية

روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة الحشر لم يبق شى من الجنة والنار والعرش والكرسىّ والسموات والأرض والهوام والريح والسحاب والطير والدواب والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صَلَّوْا عليه واستغفروا له . فإن مات من يومه أو ليلته مات شهيدا " . خَرّجه الثعلبي . وخرّج الثعالبي عن يزيد الرَّقاشيّ عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ آخر سورة الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » — الى آخرها — فمات من ليلته مات شهيدا " . وروى الترمذى عن مَعْقِل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال حين يُصبح ثلاثَ مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وَكّل الله به سبعين ألف مَلَك يُصَلُّون عليه حتى يُمْسى وإن مات فى يومه مات شهيدًا ومن قرأها حين يُمْسى فكذلك " . قال : حديث حسن غريب .

قوله تعالى : سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾

تقدّم[1] .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوٓا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ

(١) راجع أوّل سورة الحديد جـ ١٧ ص ٢٣٥ .

حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٢)

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ) قال سعيد بن جُبير : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال قل سورة النَّضير؛ وهم رهط من اليهود من ذُرّية هارون عليه السلام، نزلوا المدينة فى فِتَن بنى إسرائيل انتظاراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمرهم ما نَصّ الله عليه .

الثانيــة — قوله تعالى : (لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) الحَشْر الجمعُ، وهو على أربعة أوجه : حشرانِ فى الدنيا وحشران فى الآخرة ؛ أما الذى فى الدنيا فقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » قال الزُّهْرِىّ : كانوا من سِبْطٍ[1] لم يصبهم جلاء، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء ؛ فلولا ذلك لعذبهم فى الدنيا . وكان أوّل حشر حُشِروا فى الدنيا الى الشام . قال ابن عباس وعكرمة : من شك أن المحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : " اخرجوا " قالوا الى أين ؟ قال : " الى أرض المحشر " . قال قتادة : هذا أوّل الحشر . قال ابن عباس : هم أوّل من حُشر من أهل الكتاب وأخرج من دياره . وقيل : إنهم أخرجوا الى خَيْبَر ، وأن معنى « لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » إخراجهم من حصونهم الى خَيْبر، وآخره إخراج عمر رضى الله عنه إياهم من خَيْبر الى نجد وأذرِعات . وقيل تَيْماء وأريحاء ، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم . وأما الحشر الثانى :

---

(١) السبط : ولد الولد . والسبط من اليهود : كالقبيلة من العرب .

لحشرهم قرب القيامة . قال قتادة : تأتى نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتأكل منهم من تخلف . وهذا ثابت فى الصحيح ، وقد ذكرناه فى (كتاب التذكرة) . ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال : قلت لمالك هو جلاؤهم من ديارهم ؟ فقال لى : الحشر يوم القيامة حشر اليهود . قال : وأجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود الى خيبر حين سئلوا عن المال فكتموه ، فاستحلهم بذلك . قال ابن العربى : للحشر أول ووسط وآخر ، فالأول إجلاء بنى النضير ، والأوسط إجلاء خيبر ، والآخر حشر يوم القيامة . وعن الحسن : هم بنو قريظة . وخالفه بقية المفسرين وقالوا : بنو قريظة ما حشروا ولكنهم قتلوا . حكاه الثعلبى .

الثالثة ـ قال الكيا الطبرى : ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شىء لا يجوز الآن ، وإنما كان ذلك فى أول الإسلام ثم نسخ . والآن فلا بد من قتالهم أو سبيهم أو ضرب الجزية عليهم .

قوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ يريد لعظم أمر اليهود ومنعتهم وقوتهم فى صدور المسلمين ، واجتماع كلمتهم . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ ﴾ قيل : هى الوطيح والنطاة والسلالم والكتيبة . ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى من أمره . وكانوا أهل حلقة ـ أى سلاح كثير ـ وحصون منيعة ، فلم يمنعهم شىء منها . ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى أمره وعذابه . ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى لم يظنوا . وقيل : من حيث لم يعلموا . وقيل : « من حيث لم يحتسبوا » بقتل كعب بن الأشرف ، قاله ابن جريج والسدى وأبو صالح .

قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ، وكان الذى قتله هو محمد بن مسلمة ، وأبو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش ـ وكان أخا كعب ابن الأشرف من الرضاعة ـ وعباد بن بشر بن وقش ، والحارث بن أوس بن معاذ ، وأبو عبس بن جبر . وخبره مشهور فى السيرة . وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " نصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر " فكيف لا ينصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلة بنى النضير . وهذه خصيصى لمحمد صلى الله عليه وسلم دون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب ؛ أى يهدمون . وقرأ السُّلَمِى والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو « يُخَرِّبُونَ » بالتشديد من التخريب . قال أبو عمرو : إنما اخترت التشديد لأن الإخراب تركُ الشئ خراباً بغير ساكن ، وبنو النضير لم يتركوها خرابا وإنما خَرّبوها بالهدم ؛ يؤيده قوله تعالى : « بِأَيْدِيهِم وأَيْدِى المؤمنين » . وقال آخرون : التخريب والإخراب بمعنى واحد ، والتشديد بمعنى التكثير . وحكى سيبويه : أن معنى فَعّلت وأفعلت يتعاقبان ؛ نحو أخربته وخرّبته وأفرحته وفرّحته . واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأولى . قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا ، واليهود يُخَرّبون من داخل ليبنُوا به ماخُرِّب من حصنهم . فروى أنهم صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولاله ؛ فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبيّ الذى نُعِت فى التوراة ، فلا تردّ له راية . فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة ، فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة ، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصارىّ فقتل كَعْبًا غِيلَةً ثم صَبّحهم بالكتائب ؛ فقال لهم : اخرجوا من المدينة . فقالوا : الموت أحب إلينا من ذلك ؛ فتنادَوْا بالحرب . وقيل : استمهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدسّ إليهم عبد الله ابن أُبَيّ المنافقُ وأصحابُه لاتخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم ، ولئن أُخرِجتم لنخرجن معكم . فدَرَّبُوا على الأزِقّة وحصّنوها إحدى وعشرين ليلة ، فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب وأَيِسُوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح ؛ فأبى عليهم إلا الجلاء ؛ على ما يأتى بيانه . وقال الزهرى وابن زيد وعُرْوة بن الزبير : لما صالحهم النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن لهم ماأقلّت الإبل ؛ كانوا يستحسنون الخَشَبة والعمود فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم ويُخرِّب المؤمنون باقيها . وعن ابن زيد أيضا : كانوا يخربونها لئلا يسكنها المسلمون بعدهم . وقال ابن عباس : كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دُورهم هدموها ليتسع موضع القتال ، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التى بعدها ليتحصنوا فيها ، ويرموا

بالتي أخرجوا منها المسلمين . وقيل : ليسدّوا بها أزقّتهم . وقال عِكرمة « بأيديهم » في إخراب دواخلها ومافيها لئلا يأخذه المسلمون . وبـ « أيدى المؤمنين » في إخراب ظاهرها ليصلوا بذلك إليهم . قال عكرمة : كانت منازلهم مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها ، فخربوها من داخل وخربها المسلمون من خارج . وقيل : « يخربون بيوتهم » بنقض المواعدة « وأيدى المؤمنين » بالمقاتلة ؛ قاله الزهري أيضا . وقال أبو عمرو بن العلاء « بأيديهم » في تركهم لها . وبـ « أيدى المؤمنين » في إجلائهم عنها . قال ابن العربي : التناول للإفساد إذا كان باليد كان حقيقة ، وإذا كان بنقض العهد كان مجازاً ؛ إلا أن قول الزهري في المجاز أمثل من قول أبي عمرو بن العلاء .

قوله تعالى : ﴿ فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ ﴾ أي اتّعظوا يا أصحاب العقول والألباب . وقيل : يا من عاين ذلك ببصره . فهو جمع للبصر . ومن جملة الاعتبار هنا أنهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها . ومن وجوهه : أنه سلّط عليهم من كان ينصرهم . ومن وجوهه أيضا : أنهم هدموا أموالهم بأيديهم . ومن لم يعتبر بغيره اعتبر في نفسه . وفي الأمثال الصحيحة : « السّعيد من وُعظ بغيره » .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾ أي لولا أنه قضى أنه سيُجليهم عن دارهم ، وأنهم يبقون مدّة فيؤمن بعضهم ويولد لهم من يؤمن . ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي بالقتل والسّبي كما فعل ببني قُرَيظة . والجلاء مفارقة الوطن ؛ يقال : جلَا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء . والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما في الإبعاد واحدا من وجهين : أحدهما ــ أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء

الأهل والولد . الثانى — أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لواحد ولجماعة؛ قاله المـاوَرْدِىّ .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الجلاء. ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ ﴾ أى عادَوْه وخالفوا أمره. ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ ﴾ قرأ طَلْحة بن مُصَرِّف ومحمـد بن السَّمَيْقَع « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ » بإظهار التضعيف كالتى فى « الأنفال »(١) ، وأدغم الباقون .

قوله تعـالى : مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَـةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَـا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ « ما » فى محل نصب بـ « قطعتم » ؛ كأنه قال : أىّ شىء قطعتم . وذلك أن النبىّ صـلى الله عليه وسلم لـما نزل على حصون بنى النَّضِـير — وهى البُوَيْرَة — حين نقضوا العهـد بمَعُونة قريش عليه يوم أُحُد ، أمر بقطع نخيلهم وإحراقها . واختلفوا فى عدد ذلك ؛ فقال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات . وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة . وكان ذلك عن إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بأمره؛ إمّا لإضعافهم بها وإما لسَعَة المكان بقطعها. فشقّ ذلك عليهم فقالوا — وهم يهود أهـل الكتاب — : يا محمـد ، ألست تزعم أنك نبىّ تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ، وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد فى الأرض ! ؟ فشق ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم . ووجد المؤمنون فى أنفسهم حتى اختلفوا ؛ فقـال بعضهم : لا تقطعوا ممـا أفاء الله علينا . وقال بعضهم : اقطعوا لنغيظهم بذلك . فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله . وقال شاعرهم سَمّاك اليهودىّ فى ذلك :

---

(١) آية ١٣

ألسْنَا ورِثْنا الكتاب الحكيم * على عهد موسى ولم نَصْدِف

وأنتم رِعاءٌ لِشاءٍ عِجافٍ * بسَهْلِ تِهامة والأخْيَف

تَرَوْن الرِّعاية مجدًا لكم * لدَى كلّ دهرٍ لكم مُجْحِف

فيأيها الشاهدون انتهُوا * عن الظلم والمنطق المُؤْنِف

لعل الليالي وصَرْفَ الدُّهور * يُدِلْن من العادل المنصف

بقَتْل النَّضير وإجلائها (١) * وعَقْرِ النخيل ولم تُقْطَف

فأجابه حسان بن ثابت :

تفاقد مَعْشَرٌ (٢) نصرُوا قريشًا * وليس لهم ببلدتهم نَصيرُ

هُمُو أوتوا الكتاب فضيَّعوه * وهم عُمْيٌ عن التوراة بُورُ

كفرتم بالقُرآن وقد أبيتم (٣) * بتصديق الذى قال النذير

وهان على سَرَاة بنى لُؤَىٍّ * حريقٌ بالبُوَيرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

أدام الله ذلك من صنيع * وحَرَّق فى نواحيها (٤) السَّعيرُ

ستعلم أيُّنا منها بنُزْهٍ * وتعلم أىّ أرضَيْنا تَضير

فلو كان النخيل بها رِكابًا * لقالوا لا مُقَامَ لكم فسيرُوا

الثانيــة ـــ كان خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم فى ربيع الأول أول السنة الرابعة من الهجرة ، وتحصّنوا منه فى الحصون ، وأمر بقطع النخل وإحراقها ، وحينئذ نزل تحريم الخمر . ودَسّ عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بنى النَّضير : إنّا معكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ؛ فاغترُّوا بذلك . فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم وألقوا بأيديهم ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكف عن

---

(١) فى سيرة ابن هشام : « وأحلافها » . (٢) فى سيرة ابن هشام : « تفاهد » .

(٣) فى السيرة : « أتيتم » . (٤) فى السيرة : « فى طرائقها » .

دمائهم ويُخليهم؛ على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا كذلك إلى خَيْبَر، ومنهم من سار إلى الشام . وكان ممن سار منهم إلى خَيْبَر أكابرهم ؛ كحُيَيّ بن أَخْطب ، وسَلّام بن أبي الحُقَيق ، وكِنانة بن الربيع . فدانت لهم خَيبر .

الثالثة — ثبت في صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع نخل بني النَّضير وحرّق . ولها يقول حسان :

وهان على سَراة بني لُؤَيّ * حريقٌ بالبُوَيْرة مستطير

وفي ذلك نزلت « ما قَطَعْتُمْ مِن لِينَةٍ » الآية .

واختلف الناس في تخريب دار العدوّ وتحريقها وقطع ثمارها على قولين : الأوّل — أن ذلك جائز ؛ قاله في المدوّنة . الثاني — إن علم المسلمون أن ذلك لهم لم يفعلوا ، وإن يئسوا فعلوا ؛ قاله مالك في الواضحة . وعليه يناظر أصحاب الشافعي . ابن العربي : والصحيح الأوّل . وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخل بني النَّضير له ؛ ولكنه قطع وحرّق ليكون ذلك نكاية لهم ووَهْنًا فيهم حتى يخرجوا عنها . وإتلافُ بعض المال لصلاح باقيه مصلحةٌ جائزة شرعا ، مقصودٌ عقلا .

الرابعة — قال الماورديّ : إن في هذه الآية دليلًا على أن كلّ مجتهد مصيب . وقاله الكِيَا الطبريّ قال : وإن كان الاجتهاد يبعد في مثله مع وجود النبيّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك وسكت ؛ فتلقّوا الحكم من تقريره فقط . وقال ابن العربيّ : وهذا باطل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معهم ، ولا اجتهاد مع حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يدل على اجتهاد النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل عليه ؛ أخذًا بعموم الإذاية للكفار ، ودخولا في الاذن للكل بما يقضي عليهم بالاجتياح والبَوار ؛ وذلك قوله تعالى : « وليُخْزِيَ الفاسِقين » .

الخامسة — اختلف في اللِّينة ما هي ؛ على أقوال عشرة : الأوّل — النخل كله إلا العَجْوة ؛ قاله الزهريّ ومالك وسعيد بن جُبير وعِكْرِمة والخليل . وعن ابن عباس ومجاهد

والحسن : أنها النخل كله ، ولم يستثنوا عجْوة ولا غيرها . وعن ابن عباس أيضا : أنها لون من النخل . وعن الثّوْرىّ : أنها كرام النخل . وعن أبى عبيدة : أنها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبَرْنِىّ . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصّةً . وذكر أن العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام فى السفينة . والعتيق : الفحل . وكانت العجْوة أصل الإناث كلها فلذلك شق على اليهود قطعها ؛ حكاه الماوردىّ . وقيل : هى ضرب من النخل يقال لتمره : اللّون ، تمره أجود التمر ، وهو شديد الصفرة ، يُرَى نواه من خارجه ويغيب فيه الضِّرس ؛ النخلة منها أحبّ إليهم من وَصِيف . وقيل : هى النخلة القريبة من الأرض . وأنشد الأخفش :

قد شجانى الحمام حين تَغَنّى * بفراق الأحباب من فوق لِينَهْ

وقيل : إن اللِّينة الفَسيلة ؛ لأنها ألين من النخلة . ومنه قول الشاعر :

غَرَسُوا لِينها بمجرى مَعِين * ثم حَفّوا النخيل بالآجام

وقيل : إن اللِّينة الأشجارُ كلّها للينها بالحياة ؛ قال ذو الرُّمّة :

طِراقُ الخَوَافِي واقعٌ فوق لِينة * نَدَى لَيْلِه فى ريشه يترقرق

والقول العاشر ـ أنها الدَّقَل ؛ قاله الأصمعى . قال : وأهل المدينة يقولون لا تنتفخ الموائد حتى توجد الألوان ؛ يعنون الدَّقَل . قال ابن العربىّ : والصحيح ما قاله الزهرىّ ومالك لوجهين : أحدهما ـ أنهما أعرف ببلدهما وأشجارهما . الثانى ـ أن الاشتقاق يَعْضُده وأهل اللغة يصححونه ؛ فإن اللِّينة وزنها لُوْنة ، واعتلّت على أصولهم فآلت إلى لِينة فهى لَون ، فإذا دخلت الهاء كُسر أولها ؛ كبَرْك الصدر (بفتح الباء) وبِرْكه (بكسرها) لأجل الهاء . وقيل لِينة أصلها لِوْنة فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . وجمع اللينة لِين . وقيل لِيان ؛ قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه :

وسالفة كسَحُوق اللّيا * نِ أضْرَمَ فيها الغَوِىُّ السُّعُرْ

---

(١) (البرنى بفتح فسكون) : ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء ، عذب الحلاوة .

وقال الأخفش : إنما سميت لينة اشتقاقا من اللّون لا من اللين . المهدوىّ : واختلف في اشتقاقها ؛ فقيل : هي من اللون وأصلها لُونة . وقيل : أصلها لِينة من لان يلين . وقرأ عبد الله « ما قطعتم مِن لِينةٍ ولا تركتم قوماء على أصولها » أي قائمة على سوقها . وقرأ الأعمش « ما قطعتم من لِينةٍ أو تركتموها قُوَّماً على أصولها » المعنى لم تقطعوها . وقرئ « قُوْماء على أُصُلها » . وفيه وجهان : أحدهما — أنه جمع أصلٍ ؛ كَرْهن ورُهُن . والثاني — اكْتُفِي فيه بالضمة عن الواو . وقرئ « قائما على أصوله » ذهابا إلى لفظ « ما » . ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بأمره ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي ليذلّ اليهود الكفار به وبنبيّه وكتبه .

قوله تعالى : وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ ﴾ يعني ما ردّه الله تعالى ﴿ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ من أموال بني النَّضير . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أوْضَعْتم عليه . والإيجاف : الإيضاع في السير وهو الإسراع ؛ يقال : وَجَف الفرسُ إذا أسرع ، وأوجفته أنا أي حركته وأتعبته ؛ ومنه قول تميم بن مقبل :

مَذاوِيد بالبِيض الحديث صِقالُها * عن الركب أحيانا إذا الركب أَوْجَفُوا

والرِّكاب الإبل ، واحدها راحلة . يقول : لم تقطعوا إليها شُقّة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة ؛ وإنما كانت من المدينة على مِيلَيْن . قال الفرّاء : فمشَوْا إليها مَشْيًا ولم يركبوا خيلا

ولا إبلا ؛ إلا النبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه ركب جملا وقيل حمارا مخطوما بليف ، فافتتحها صلحا وأجلاهم وأخذ أموالهم . فسأل المسلمون النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقسم لهم فنزلت « وما أفاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهم فما أَوْجَفْتُمْ عَلَيهِ » الآية . فجعل أموال بنى النَّضير للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً يضعها حيث شاء؛ فقسمها النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين. قال الواقديّ ورواه ابن وهب عن مالك : ولم يعط الأنصار منها شيئا إلا ثلاثة نفر محتاجين ؛ منهم أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة ، وسهل بن حُنيف ، والحارث بن الصِّمَّة . وقيل : إنما أعطى رجلين، سهلًا وأبا دُجَانة . ويقال : أعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفا له ذِكْرٌ عندهم . ولم يُسلم من بنى النضير إلا رجلان : سفيان ابن عمير، وسعد بن وهب ؛ أسلما على أموالهما فأحرزاها . وفى صحيح مسلم عن عمر قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنة ، وما بقى يجعله فى الكُرَاع والسلاح عُدّة فى سبيل الله تعالى . وقال العباس لعمر ــ رضى الله عنهما ــ : اقض بينى وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن ــ يعنى عليًّا رضى الله عنه ــ فيما أفاء الله على رسوله من أموال بنى النضير، فقال عمر: أتعلمان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا نُورَثُ ما تركناه صدقة" قالا نعم . قال عمر : ان الله عز وجل كان خص رسوله صلى الله عليه وسلم بخاصة لم يُخَصِّص بها أحدًا غيره . قال : « ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ مِن أهْلِ القُرَى فَلِلّهِ ولِلرَّسُولِ » (ما أدرى هل قرأ الآية التى قبلها أم لا) فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينكم أموال بنى النَّضير ، فوالله ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقى هذا المال . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه نفقة سنة ،ثم يجعل ما بقى أُسْوَةَ المال ... الحديث بطوله ، خرّجه مسلم . وقيل : لما ترك بنو النَّضير ديارهم وأموالهم طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظ كالغنائم ؛ فبيّن الله تعالى أنها فَىْءٌ ،وكان قد جرى ثَمّ بعضُ القتال؛ لأنهم حُوصِرُوا أيامًا وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء. ولم يكن قتال على التحقيق . بل جرى مبادئ القتال وجرى الحصار،

وخص الله تلك الأموال برسوله صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد: أعلمهم الله تعالى وذكّرهم أنه إنما نصر رسوله صلى الله عليه وسلم ونصرهم بغير كُراع ولا عُدّة . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى من أعدائه . وفى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون أصحابه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ قال ابن عباس : هى قُرَيْظَة والنَّضير، وهما بالمدينة وفَدَك ، وهى على ثلاثة أيام من المدينة وخَيْبر . وقُرَى عُرَينة ويَنْبُع جعلها الله لرسوله . وبيّن أن فى ذلك المال الذى خصه بالرسول عليه السلام سُهْمانًا لغير الرسول نظرًا منه لعباده . وقد تكلم العلماء فى هذه الآية والتى قبلها ، هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التى فى الأنفال؛ فقال قوم من العلماء : إن قوله تعالى: « ما أفاء الله على رَسُولِهِ مِن أَهلِ القُرَى » منسوخ بما فى سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سُمِّيَ له ، والأخماس الأربعة لمن قاتل . وكان فى أوّل الإسلام تُقسم الغَنيمة على هذه الأصناف ولا يكون لمن قاتل عليها شيء . وهذا قول يزيد بن رُومان وقتادة وغيرهما . ونحوه عن مالك . وقال قوم : إنما غنم بصلح من غير إيجاف خَيْل ولا رِكاب؛ فيكون لمن سمى الله تعالى فيه فَيْئًا والأولى للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّة، إذا أخذ منه حاجته كان الباقى فى مصالح المسلمين . وقال معمر : الأولى للنبيّ صلى الله عليه وسلم . والثانية هى الجزية والخراج للأصناف المذكورة فيه . والثالثة الغنيمة فى سورة الأنفال للغانمين . وقال قوم منهم الشافعيّ : إن معنى الآيتين واحد؛ أى ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وكان الخمس الباقى على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا ،وسهم لذوى القربى — وهم بنو هاشم و بنو المطلب — لأنهم مُنعوا الصدقة فجعل لهم حق فى الفىء . وسهم لليتامى . وسهم للمساكين . وسهم لابن السبيل . وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالذى كان من الفىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف عند الشافعيّ فى قول إلى المجاهدين المترصدين للقتال فى الثغور؛ لأنهم القائمون

مقام الرسول عليه الصلاة والسلام . وفى قول آخر له : يصرف إلى مصالح المسلمين من سدّ الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يُقدّم الأهم فالأهم ؛ وهذا فى أربعة أخماس الفىء . فأما السهم الذى كان له من خمس الفىء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم بلا خلاف؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : " ليس لى من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم " . وقد مضى القول فيه فى سورة « الأنفال »[1] . وكذلك ما خلفه من المال غير موروث ، بل هو صدقة يُصرف عنه إلى مصالح المسلمين ؛ كما قال عليه السلام : " إنا لا نورث ما تركناه صدقة " . وقيل : كان مال الفىء لنبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى : « ما أفاء الله على رسولِهِ » فأضافه إليه ؛ غير أنه كان لا يتأثّل[2] مالاً ، إنما كان يأخذ بقدر حاجة عياله ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين . قال القاضى أبو بكر بن العربى : لا إشكال أنها ثلاثة معانٍ فى ثلاث آيات ؛ أما الآية الأولى فهى قوله : « هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ » ثم قال تعالى : « وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ » يعنى من أهل الكتاب معطوفاً عليهم . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يريد كما بيّنا؛ فلا حق لكم فيه ، ولذلك قال عمر: إنها كانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يعنى بنى النضير وما كان مثلها . فهذه آية واحدة ومعنًى متحد . الآية الثانية ـ قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ » وهذا كلام مبتدأ غير الأوّل لمستحق غير الاول . وسمى الآية الثالثة آية الغنيمة ، ولا شك فى أنه معنًى آخر باستحقاق ثان لمستحق آخر، بَيْدَ أن الآية الأولى والثانية ، اشتركتا فى أن كل واحدة منهما تضمّنت شيئًا أفاءه الله على رسوله ، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثالثة وهى قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى » عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ؛ فنشأ الخلاف من هاهنا ، فمن طائفة قالت : هى ملحقة بالأولى ، وهو مال الصلح كله ونحوه .

(١) راجع جـ ٨ ص ١١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) المتأثل : الجامع .

ومن طائفة قالت : هى ملحقة بالثانية وهى آية الأنفال . والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا ؛ هل هى منسوخة — كما تقدّم — أو محكمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالأولى أولى ؛ لأن فيه تجديد فائدة ومعنى . ومعلوم أن حمل الحرف من الآية فضلا عن الآية على فائدة متجدّدة أولى من حمله على فائدة معادة» . وروى ابن وهب عن مالك فى قوله تعالى : « فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » بنى النضير . لم يكن فيها خمس ولم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب . كانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسّمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار؛ حسب ما تقدّم . وقوله : «مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ » هى قُرَيظة، وكانت قريظة والخندق فى يوم واحد . قال ابن العربى : قول مالك إن الآية الثانية فى بنى قُريظة ، إشارةٌ إلى أن معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ . وهذا أقوى من القول بالإحكام . ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبينا أن الآية الثانية لها معنى مجدّد حسب ما دلّلنا عليه . والله أعلم .

قلت — ما اختاره حَسَن . وقد قيل : إن سورة « الحشر» نزلت بعد الأنفال ، فمن المحال أن ينسخ المتقدّمُ المتأخر . وقال ابن أبى نَجيح : المال ثلاثة : مَغْنم ، أوفَىْءٌ، أو صَدَقة؛ وليس منه درهم إلا وقد بيّن الله موضعه . وهذا أشبه .

الثالثة — الأموال التى للأئمة والوُلاة فيها مَدْخَلٌ ثلاثةُ أضْرُب : ما أُخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم ؛ كالصدقات والزكوات . والثانى — الغنائم ؛ وهو ما يحصل فى أيدى المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغَلَبة . والثالث — الفَىْء ؛ وهو ما رجع للسلمين من أموال الكفار عَفْوًا صَفْوًا من غير قتال ولا إيجاف ؛ كالصلح والجزْية والخَراج والعُشور المأخوذة من تجار الكفار . ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم ، أو يموت أحد منهم فى دار الإسلام لا وارث له . فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها ؛ حسب ما ذكره الله تعالى ، وقد مضى فى « براءة » [1] . وأما الغنائم فكانت

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

فى صدر الإسلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما شاء؛ كما قال فى سورة « الأنفال » : « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » ، ثم نسخ بقوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » الآية. وقد مضى فى الأنفال بيانه[1] . فأما الفَىْء فقسمته وقسمة الخمس سواء . والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام ، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل ، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما قسمه كلّه بين الناس ، وسوّى فيه بين عربيّهم ومولاهم . ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يَغْنَوْا ، و يعطوْا ذَوُو القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفىء سهمهم على مايراه الإمام ، وليس له حدّ معلوم . واختلف فى إعطاء الغنىّ منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه لأنه حقّ لهم . وقال مالك : لا يعطى منه غير فقرائهم ؛ لأنه جُعل لهم عوضًا من الصدقة . وقال الشافعى : أيما حصل من أموال الكفار من غير قتال كان يقسم فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم على خمسة وعشرين سهما : عشرون للنبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل فيها ما يشاء . والخُمس يقسم على ما يقسم عليه خُمس الغَنيمة . قال أبو جعفر أحمد ابن نصر الدّاوُدِىّ : وهذا قولٌ ما سبقه به أحد علمناه ، بل كان ذلك خالصا له ؛ كما ثبت فى الصَحيح عن عمر مبيّنا للآية . ولو كان هذا لكان قوله : « خالِصةً لكَ مِنْ دُونِ المُؤمنِين »[2] يدل على أنه يجوز الموهوبة لغيره ، وأن قوله : « خالِصةً يومَ القِيامةِ »[3] يجوز أن يشركهم فيها غيرهم . وقد مضى قول الشافعىّ مستوْعَبًا فى ذلك والحمد لله . ومذهب الشافعىّ رضى الله عنه : أن سبيل خمس الفَىء سبيل خمس الغَنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهى بعده لمصالح المسلمين . وله قول آخر : أنها بعده للرصدين أنفسهم للقتال بعده خاصة ؛ كما تقدم .

الرابعة ــ قال علماؤنا : ويقسم كل مال فى البلد الذى جُبِىَ فيه ، ولا ينقل عن ذلك البلد الذى جُبِىَ فيه حتى يَغْنَوْا ، ثم ينقل إلى الأقرب من غيرهم ؛ إلا أن ينزل بغير البلد الذى جُبِىَ فيه فاقةٌ شديدة ، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا ؛ كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أعوام الرَّمادة ، وكانت خمسة أعوام أو ستة . وقد قيل عامين . وقيل :

(١) راجع جـ ٨ ص ٩ (٢) آية ٥٠ سورة الأحزاب . (٣) آية ٣٢ سورة الأعراف .

عام فيه اشتدّ الطاعون مع الجوع . وإن لم يكن ما وصفنا ورأى الإمام إيقاف الفَىْء أوقفه لنوائب المسلمين ؛ ويعطى منه المنفوس ويبدأ بمن أبوه فقير . والفيء حلال للأغنياء . ويسوّى بين الناس فيه إلا أنه يؤثر أهل الحاجة والفاقة . والتفضيل فيه إنما يكون على قدر الحاجة . ويعطى منه الغرماء ما يؤدّون به ديونهم . ويعطى منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلا ، ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للسلمين . وأَوْلاهم بتوفر الحظ منهم أعظمهم للسلمين نفعًا . ومن أخذ من الفيء شيئا فى الديوان كان عليه أن يغزو إذا غزى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً ﴾ قراءة العامة « يكون » بالياء . « دُولَةً » بالنصب ؛ أى كى لا يكون الفَىْء دُولةً . وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام — عن ابن عامر — وأبو حَيْوَة « تكون » بتاء « دُولةٌ » بالرفع ؛ أى كى لا تقع دُولة . فكان تامة . و « دُولَةٌ » رفع على آسم كان ولا خبر له . ويجوز أن تكون ناقصة وخبرها « بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » وإذا كانت تامة فقوله : « بين الأغنياء منكم » متعلق بـ « دُولة » على معنى تداول بين الأغنياء منكم . ويجوز أن يكون « بين الأغنياء منكم » وصفا لـ « دولة » . وقراءة العامة « دُولة » بضم الدال . وقرأها السُّلَمِىّ وأبو حَيْوَة بالنصب . قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعى : هما لغتان بمعنًى واحد . وقال أبو عمرو بن العَلَاء : الدَّوْلة (بالفتح) الظَّفر فى الحرب وغيره ؛ وهى المصدر . وبالضم آسم الشيء الذى يُتداول من الأموال . وكذا قال أبو عبيدة : الدُّولة آسم الشيء الذى يتداول . والدَّوْلة الفعل . ومعنى الآية : فعلنا ذلك فى هذا الفَىْء ؛ كى لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غَنِموا أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه ؛ وهو المِرْباع . ثم يصطفى منها أيضا بعد المرباع ما شاء . وفيها قال شاعرهم :

* لك المِـرْباع منها والصَّفايا[1] *

(١) البيت بتمامه .

لك المرباع منها والصفايا * وحكمك والنشيطة والفضول

وهو لعبد الله بن عنمة الضبى يخاطب بسطام بن قيس . والنشيطة ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى مجتمع الحى . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما .

يقول: كى لا يعمل فيه كما كان يعمل فى الجاهلية. فجعل الله هذا لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ يقسمه فى المواضع التى أمر بها ليس فيها خمس، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعا.

السادسة ــ قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أى ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه، وما نهاكم عنه من الأخذ والغلول فانتهوا؛ قاله الحسن وغيره. السُّدِّى: ما أعطاكم من مال الفَىْء فاقبلوه، وما منعكم منه فلا تطلبوه. وقال ابن جُريج: ما آتاكم من طاعتى فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتى فاجتنبوه. الماوَرْدِىّ: وقيل إنه محمول على العموم فى جميع أوامره ونواهيه؛ لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهى إلا عن فساد.

قلت: هذا هو معنى القول الذى قبله. فهى ثلاثة أقوال.

السابعة ــ قال المهدوىّ: قوله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» هذا يوجب أن كل ما أمر به النبىّ صلى الله عليه وسلم أمْرٌ من الله تعالى. والآية وإن كانت فى الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها. وقال الحَكَم بن عُمير ــ وكانت له صحبة ــ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "إن هذا القرآن صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ عسير على من تركه يسير على من اتبعه وطلبه. وحديثى صعب مستصعب وهو الحكم فمن استمسك بحديثى وحفظه نجا مع القرآن. ومن تهاون بالقرآن وحديثى خسر الدنيا والآخرة. وأمرتم أن تأخذوا بقولى وتكتنفوا أمرى وتتبعوا سنتى فمن رضى بقولى فقد رضى بالقرآن ومن استهزأ بقولى فقد استهزأ بالقرآن قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»".

الثامنة ــ قال عبد الرحمن بن زيد: لقى ابن مسعود رجلاً مُحْرِمًا وعليه ثيابه فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل أتقرأ علىّ بهذا آيةً من كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». وقال عبد الله بن محمد بن هارون الفِرْيَابِىّ: سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول: سلونى عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم؛ قال فقلت له: ما تقول ــ أصلحك الله ــ فى المُحْرِم يقتل الزُّنْبُور؟ قال فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .
وحدثنا سُفيان بن عُيَيْنة عن عبد الملك بن عُمير عن رِبْعِيّ بن حِراش عن حُذيفة بن اليَمان قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر " . حدثنا سفيان
ابن عُيينة عن مِسْعَر بن كِدَام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب —
رضى الله عنه — أنه أمر بقتل الزُّنْبُور . قال علماؤنا : وهذا جواب فى نهاية الحسن؛ أفتى
بجواز قتل الزنبور فى الإحرام، وبيّن أنه يقتدى فيه بعمر، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر
بالاقتداء به ، وأن الله سبحانه أمر بقبول ما يقوله النبيّ صلى الله عليه وسلم . فجواز قتله
مستنبط من الكتاب والسنة . وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سئل عن أمهات
الأولاد فقال : هن أحرار فى سورة « النساء » عند قوله تعالى : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ »[1] . وفى صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله الواشِمات والمُسْتَوْشِمات والمُتَنَمِّصات[2] والمُتَفَلِّجات للحُسْن
المُغَيِّرات خلقَ الله " فبلغ ذلك امرأةً من بنى أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت :
بلغنى أنك لعنتَ كَيْتَ وكيت ! فقال . ومالىَ لا ألعنُ مَن لعنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم
وهو فى كتاب الله ! فقالت : لقد قرأت ما بين اللَّوْحَيْن فما وجدت فيه ما تقول . فقال :
لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه! أما قرأت « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » !
قالت : بلى . قال : فإنه قد نَهَى عنه . الحديث . وقد مضى القول فيه فى « النساء »[3]
مستوفًى .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وإن جاء بلفظ الإيتاء وهو المناولة
فإن معناه الأمر؛ بدليل قوله تعالى : « وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فقابله بالنهى ، ولا يقابل
النهى إلا بالأمر؛ والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبلُ مع قوله عليه الصلاة والسلام : " إذا

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٥٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) المتنمصات : (جمع متنمصة) وهى التى تنتف الشعر من وجهها . والمتفلجات : (جمع متفلجة) وهى التى تتكلف أن تفرق بين سنها من الثنايا والرباعيات .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٩٢

أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه". وقال الكلبي : إنها نزلت في رؤساء المسلمين ، قالوا فيما ظهر عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من أموال المشركين : يا رسول الله ، خذ صَفِيّك والرُّبع ، ودَعْنا والباقي ؛ فهكذا كنا نفعل في الجاهلية . وأنشدوه :

لك المِرْباع منها والصَّفايا * وحُكْمُكَ والنَّشيطة والفُضُولُ

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

العاشـــرة ـــ قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي عذاب الله ، إنه شديد لمن عصاه . وقيل : اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيّعوها . ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف ما أمره به .

قوله تعـالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾

أي الفَيْءُ والغَنائم « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » . وقيل : « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ » ولكن يكون « للفقراء » . وقيل : هو بيـان لقوله : « وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » فلما ذُكروا بأصنافهم قيل المـال لهؤلاء ، لأنهم فقراء ومهاجرون وقد أخرجوا من ديارهم ؛ فهم أحق الناس به . وقيل : « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ » للفقراء المهاجرين لكيلا يكون المـال دولة للأغنياء من بني الدنيـا . وقيل : والله شديد العـقاب للمهاجرين ؛ أي شديد العـقاب للكفار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجلهم . ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدم ذكرهم في قوله تعـالى : « وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » . وقيل : هو عطف على ما مضى ، ولم يأت بواو العطف كقولك : هذا المـال لزيد لبكر لفلان لفلان . والمهاجرون هنا من هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حُبًّا فيه ونُصْرَةً له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبًّا لله ولرسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يَعْصب الحجر على بطنه ليقيم به صُلْبَه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ الحَفِيرة في الشتاء

ماله دِثار غيرها . وقال عبد الرحمن بن أبزَى وسعيد بن جبير : كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحجّ عليها و يغزو ، فنسبهم الله إلى الفقر وجعل لهم سهمًا فى الزكاة . ومعنى « أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم » أى أخرجهم كفار مكة؛ أى أحْوَجُوهم إلى الخروج ؛ وكانوا مائة رجل . ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون . ﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ ﴾ أى غنيمة فى الدنيا ﴿ وَرِضْوانًا ﴾ فى الآخرة ؛ أى مرضاة ربهم . ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد فى سبيل الله . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى فعلهم ذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بالجابية[1] فقال : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبَيّ بن كعب . ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت . ومن أداد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل . ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ؛ فإن الله تعالى جعلنى له خازنا وقاسما . ألَا وإنى بادٍ بأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فمعطيهن ، ثم المهاجرين الأولين ؛ أنا وأصحابى أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ لاخلاف أن الذين تبوّءوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها . « والإيمانَ » نصب بفعل غير تبوّأ؛ لأن التبوّء إنما يكون فى الأماكن . و﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ « من » صلة تبوّأ والمعنى : والذين تبوّءوا الدار من قبل المهاجرين واعتقدوا الإيمان وأخلصوه ؛ لأن الإيمان

(١) بلدة بدمشق .

ليس بمكان يتبوأ . كقوله تعالى : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ »(١) أى وادعوا شركاءكم؛ ذكره أبو علىّ والزمخشرىّ وغيرهما . ويكون من باب قوله : عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً باردا . ويجوز حمله على حذف المضاف كأنه قال : تبوّءوا الدار ومواضع الإيمان . ويجوز حمله على ما دل عليه تبوّأ ؛ كأنه قال : لزموا الدار ولزموا الإيمان فلم يفارقوهما . ويجوز أن يكون تبوّأ الإيمان على طريق المَثَل ؛ كما تقول : تبوّأ من بنى فلان الصميم . والتبوُّء : التمكن والاستقرار . وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم .

الثانيـــة ـــ واختلف أيضا هل هذه الآية مقطوعة مما قبلها أو معطوفة ؛ فتأول قوم أنها معطوفة على قوله : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » وأن الآيات التى فى الحشر كلها معطوفة بعضها على بعض . ولو تأملوا ذلك وأنصفوا لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه ؛ لأن الله تعالى يقول : « هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ـــ إلى قوله ـــ الفاسِقِينَ» فأخبر عن بنى النَّضير وبنى قَيْنُقَاع . ثم قال: « وما أفاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنهم فما أَوْجَفْتُمْ عليه مِنْ خَيْلٍ ولا رِكابٍ ولكنّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على من يشاء » فأخبر أن ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يُوجف عليه حين خلّوه . وماتقدم فيهم من القتال وقطع شجرهم فقد كانوا رجعوا عنه وانقطع ذلك الأمر . ثم قال : « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » وهذا كلام غير معطوف على الأوّل . وكذا « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ » ابتداء كلام فى مدح الأنصار والثناء عليهم ؛ فإنهم سلّموا ذلك الفىء للمهاجرين ؛ وكأنه قال : الفىء للفقراء المهاجرين ؛ والأنصار يحبون لهم لم يحسدوهم على ما صَفَا لهم من الفىء . وكذا « والذين جاءوا من بعدهم » ابتداء كلام ؛ والخبر « يقولون رَبَّنَا اغفر لنا » . وقال إسماعيل ابن إسحاق : إن قوله « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ » « والذين جاءوا » معطوف على ما قبلُ ، وأنهم

(١) آية ٧١ سورة يونس .

شركاء فى الفىء ؛ أى هذا المـال للهاجرين والذين تبوءوا الدار . وقال مالك بن أوس : قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الآية « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ » فقال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » فقال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ « ما أفاءَ اللهُ على رسوله — حتى بلغ — للفقراء المهاجرين » ، « والذين تبـوءوا الدار والإيمـان » ، « والذين جاءوا من بعـدهم » ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعىَ وهو بسَرْوِ حِمْـيَر[1] نصيبه منها لم يَعْرَق فيها جبينه . وقيـل : إنه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه من ذلك، وقال لهم : تثبتوا الأمر وتدبروه ثم اغدوا علىّ . ففكر فى ليلته فتبين له أن هذه الآيات فى ذلك أنزلت . فلما غَدَوْا عليه قال : قد مررت البارحة بالآيات التى فى سورة « الحشر » وتلا « ما أفاءَ اللهُ على رسـوله من أهل القُرَى — إلى قوله — للفقراء المهاجرين » فلما بلغ قوله : « أولئك هم الصادقون » قال : ما هى لهؤلاء فقط . وتلا قوله « والذين جاءوا من بعدهم — إلى قوله — رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . ثم قال : ما بقى أحد من أهل الإسـلام إلا وقد دخل فى ذلك . والله أعلم .

الثالثـــة — روى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيــه أن عمر قال : لولا من يأتى من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَيْبَرَ . وفى الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة ، أن عمر أبقى سـواد العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم ؛ لتكون من أُعطيات المقاتلة وأرزاق الحِشْـوة والذَّرارى ، وأن الزبـير وبلالاً وغير واحد من الصحابة أرادوه على قسم ما فتح عليهم ؛ فكره ذلك منهم . واختلف فيما فعل من ذلك ؛ فقيل : إنه استطاب أنفس أهل الجيش ؛ فمن رضى له بترك حَظّه بغير ثمن لِيُبْقِيَه للسلمين قبله . ومن أبى أعطاه ثمن حظه . فمن قال : إنمـا أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم جعـل فعله كفعل النبىّ صلى الله عليـه وسلم ؛ لأنه قسم خَيْـبر ، لأن اشتراءه إياها وترك من ترك عن طيب نفسه بمنزلة قسمها . وقيل : إنه أبقاها بغير شىء أعطاه أهل الجيوش . وقيل : إنه

---

(١) سرو حمير : منازل حمير بأرض اليمن . والسرو من الجبل ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل .

تأول فى ذلك قول الله سبحانه وتعالى : « للفقراء المهاجرين ــ إلى قوله ــ رَبَّنا إنك رءوف رحيم » على ما تقدّم . والله أعلم .

الرابعــة ــ واختلف العلماء فى قسمة العَقار؛ فقال مالك : للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين . وقال أبو حنيفة : الإمام مخيّر بين أن يقسمها أو يجعلها وَقْفًا لمصالح المسلمين . وقال الشافعيّ : ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم، بل يقسمها عليهم كسائر الأموال . فمن طاب نفسًا عن حقه للإمام أن يجعله وقْفًا عليهم فله . ومن لم تَطِب نفسُه فهو أحق بماله . وعمر رضى الله عنه استطاب نفوس الغانمين واشتراها منهم .

قلت : وعلى هذا يكون قوله : « والذين جاءوا من بعدهم » مقطوعًا مما قبله، وأنهم نُدبوا بالدعاء للأولين والثناء عليهم .

الخامســة ــ قال ابن وهب : سمعت مالكًا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال : إن المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة، وإن غيرها من القُرَى افتتحت بالسيف؛ ثم قرأ « والذين تَبَوَّءُوا الدارَ والإيمانَ مِن قبلهم يُحِبُّون من هاجر إليهم » الآية . وقد مضى الكلام فى هذا، وفى فضل الصلاة فى المسجدين : المسجد الحرام ومسجد المدينة؛ فلا معنى للإعادة .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ يعنى لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفَىْء وغيره ؛ كذلك قال النـاس . وفيـه تقدير حذف مضافين ؛ المعنى مَسَّ حاجة مِن فَقْد ما أوتوا . وكل ما يجد الإنسان فى صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة . وكان المهاجرون فى دور الأنصار، فلما غَنِم عليـه الصلاة والسلام أموال بنى النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صـنعوا مع المهاجرين فى إنزالهـم إياهم فى منازلهم وإشراكهم فى أموالهم . ثم قال : " إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علىّ من بنى النَّضِير بينكم وبينهـم ، وكان المهاجرون على ما هم عليـه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم " . فقال سعد بن عُبَادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار : رضينا وسَلَّمنا يارسول الله . فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : "اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار" . وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا إلا الثلاثة الذين ذكرناهم . ويحتمل أن يريد به «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا» إذا كان قليلا [بل] يقنعون به ويرضون عنه. وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم دُنْيا ، ثم كانوا عليه بعد موته صلى الله عليه وسلم بحكم الدنيا . وقد أنذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : "سترون بعدى أَثَرَة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض" .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فى الترمذيّ عن أبى هريرة : أن رجلا بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه؛ فقال لامرأته : نوّمى الصّبية وأطفئى السّراج وقرّبى للضيف ماعندك؛ فنزلت هذه الآية «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» قال : هذا حديث حسن صحيح . خرّجه مسلم أيضا . وخرّج عن أبى هريرة قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى مجهود . فأرسل الى بعض نسائه فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . ثم أرسل الى الأخرى فقالت مثل ذلك؛ حتى قلن كلهنّ مثل ذلك : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . فقال : "مَن يُضيف هذا الليلة رحمه الله" ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله. فانطلق به الى رحله فقال لامرأته : هل عندك شىء ؟ قالت: لا ، إلا قُوت صِبيانى . قال : فعلّليهم بشىء فإذا دخل ضيفنا فأطفئى السّراج وأريه أنا نأكل ، فإذا أهوى ليأكل فقومى الى السراج حتى تطفئيه . قال : فقعدوا وأكل الضيف . فلما أصبح غدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "قد عَجِبَ اللهُ — عز وجل — من صنيعكما بضيفكما الليلة" . وفى رواية عن أبى هريرة قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضيفه فلم يكن عنده مايضيفه . فقال : "ألا رجل يضيف هذا رحمه الله" ؟ فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة ، فانطلق به الى رحله ... ؛ وساق الحديث بنحو الذى قبله ، وذكر فيه نزول الآية . وذكر المهدويّ عن أبى هريرة أن هذا نزل فى ثابت بن قيس ورجل

من الأنصار — نزل به ثابت — يقال له أبو المتوكل ، فلم يكن عنـد أبى المتوكل إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لامرأته : أطفئى السراج ونوّمى الصبية ؛ وقدّم ما كان عنده الى ضيفه . وكذا ذكر النحاس قال قال أبو هريرة : نزل برجل من الأنصار — يقال له أبو المتوكل — ثابت بن قيس ضيفًا ، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لامرأته : أطفئى السراج ونوّمى الصبية ؛ فنزلت « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ — الى قوله — فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . وقيـل : إن فاعل ذلك أبو طلحة . وذكر القشيرىّ أبو نصر عبد الرحيم آبن عبد الكريم : وقال ابن عمر أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج الى هذا منا ؛ فبعثه إليهم ، فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى تداولها سبعة أبيات ، حتى رجعت إلى أولئك ؛ فنزلت « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ » . ذكره الثعلبىّ عن أنس قال : أُهدِىَ لرجل من الصحابة رأسُ شاة وكان مجهودا فوجّه به الى جارٍ له ، فتداولته سبعة أنفس فى سبعة أبيات ، ثم عاد الى الأول ؛ فنزلت « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ » الآية . وقال ابن عباس قال النبىّ صـلى الله عليه وسلم للأنصار يوم بنى النَّضير : " إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم فى هـذه الغنيمة وإن شـئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم تقسم لكم من الغنيمة شيئا " فقالت الأنصـار : بل نقسم لإخواننـا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهـم بالغنيمة ؛ فنزلت « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ » الآية . والأوّل أصح . وفى الصحيحين عن أنس : أن الرجل كان يجعل للنبىّ صـلى الله عليه وسـلم النّخلات من أرضه حتى فُتحت عليـه قُرَيْظة والنَّضير ؛ فجعل بعد ذلك يردّ عليه ما كان أعطاه . لفظ مسـلم . وقال الزّهرىّ عن أنس بن مالك : لمـا قـدم المهاجرون من مكة المدينةَ قَدِموا وليس بأيديهم شىء ، وكان الأنصار أهلَ الأرض والعَقار ، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوْهم أنصاف ثمـار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمَؤُونة ؛ وكانت أمّ أنس بن مالك تُدْعَى أمّ سُليم ، وكانت أمّ عبد الله بن أبى طلحة ، كان أخًا لأنَس لأمّه ؛ وكانت أعطت أمّ أنَس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عِذاقًا[1] لهـا ؛ فأعطاها رسول الله صلى

(١) العذاق : بكسر العين جمع عذق بفتحها ومعناها النخلات .

الله عليه وسلم أمَّ أَيْمَنَ مَوْلاَتَه ، أُمّ أسامة بن زيد . قال ابن شهاب : فأخبرني أَنَسُ بنَ مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خَيْبَر وانصرف إلى المدينة، ردَ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا مَنَحُوهم من ثمارهم . قال : فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمي عِذاقها، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَّ أَيْمَنَ مكانهنّ من حائطه . خرّجه مسلم أيضا .

الثامنة — الإيثار؛ هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنياوية، ورغبةً في الحظوظ الدينية . وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة . يقال : آثرته بكذا ؛ أي خَصصته به وفضّلته . ومفعول الإيثار محذوف ؛ أي يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ، لا عن غِنًى بل مع احتياجهم إليها ؛ حسب ما تقدّم بيانه . وفي مُوَطَّأ مالك : « أنه بلغه عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أن مسكينا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف ؛ فقالت لمولاة لها : أعطيه إياه ؛ فقالت : ليس لك ما تُفطرين عليه ؛ فقالت : أعطيه إياه . قالت : ففعلت . قالت : فلما أمْسَينا أهْدَى لنا أهلُ بيت أو إنسانٌ ما كان يُهدى لنا : شاةً وكَفَنَها[(1)] . فدعتني عائشة فقالت : كُلِي من هذا ، فهذا خير من قُرْصك . قال علماؤنا : هذا من المال الرابح والفعل الزاكي عند الله تعالى يعجل منه ما يشاء، ولا ينقص ذلك مما يدّخر عنه . ومن ترك شيئا لله لم يجد فَقْدَه . وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة ، وأن من فعل ذلك فقد وُقِيَ شُحّ نفسه وأفلح فلاحًا لا خَسارة بعده . ومعنى (شاةً وكَفَنَها) فإن العرب — أو بعض العرب أو بعض وجوههم — كان هذا من طعامهم ، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غَطّوه كلّه بعجين البُرّ وكَفَنُوه به ثم عَلّقوه في التَّنُّور ، فلا يخرج من وَدَكه شيء إلا في ذلك الكفن ؛ وذلك من طيب الطعام عندهم . وروى النَّسائيّ عن نافع

(1) أي أنها كانت ملفوفة بالرغف ؛ وسيأتي معناه بأوضح من هذا . وقولها : « ما كان يهدى لنا » تريد أن عائشة رضي الله عنها لم تعلم بذلك ولم تحتسب به فتثق به وتعول عليه ، ولكن الله سبحانه عوضها من حيث لا تحتسب (شرح الموطأ) .

أن ابن عمر اشتكى واشتهى عنبا ، فٱشْتُرِى له عنقود بدرهم ، فجاء مسكين فسأل ؛ فقال : أعطوه إياه ؛ فخالف إنسان فاشتراه بدرهم ، ثم جاء به إلى ابن عمر ، فجاء المسكين فسأل ، فقال : أعطوه إياه ؛ ثم خالف إنسان فاشتراه بدرهم ، ثم جاء به إليه ؛ فأراد السائل أن يرجع فمنع . ولو علم ابن عمر أنه ذلك العنقود ما ذاقه؛ لأن ما خرج لله لا يعود فيه . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا محمد بن مطرف قال حدّثنا أبو حازم عن عبد الرحمن بن سعيد ابن يَرْبُوع عن مالك الدار : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربعمائة دينار ، فجعلها فى صُرّة ثم قال للغلام : اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجرّاح، ثم تَلَكَّأْ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها . فذهب بها الغلام إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ؛ فقال : وَصَلَه الله ورحمه، ثم قال : تعالى يا جارية، اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان؛ حتى أنفذها . فرجع الغلام إلى عمر ، فأخبره فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل ؛ وقال : اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل، وتَلَكَّأْ فى البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع؛ فذهب بها إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ؛ فقال : رحمه الله ووَصَله ، وقال : يا جارية ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا و بيت فلان بكذا ؛ فٱطّلعت امرأة معاذ فقالت : ونحن !والله مساكين فأعطنا . ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران قد جاء بهما إليها . فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فسُرّ بذلك عمر وقال : إنهم إخوة ! بعضُهم من بعض . ونحوه عن عائشة رضى الله عنها فى إعطاء معاوية إياها ؛ وكان عشرة آلاف وكان المُنْكَدِر دخل عليها . فإن قيل : وردت أخبار صحيحة فى النّهى عن التصدق بجميع ما يملكه المرء ؛ قيل له : إنما كره ذلك فى حق من لا يوثق منه الصبر على الفقر، وخاف أن يتعرّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه . فأما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم ، فلم يكونوا بهذه الصفة؛ بل كانوا كما قال الله تعالى : « والصّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْسِ » (١) . وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك . والإمساك لمن لا يصبر

---

(١) آية ١٧٧ سورة البقرة .

ويتعرض للسألة أولى من الإيثار . وروى أن رجلا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بمثل البيضة من الذهب فقال : هـذه صدقة ؛ فرماه بها وقال : " يأتى أحدكم بجميـع ما يملكه فيتصدق به ثم يقعد يتكفّف الناس " . والله أعلم .

التاسعـــة : ـــ والإيثار بالنفس فـوق الإيثار بالمـال وإن عاد إلى النفس . ومن الأمثال السائرة :

* والجُودُ بالنَّفس أقصَى غاية الجُودِ[1] *

ومن عبارات الصوفية الرشيقة فى حدّ المحبـة : أنها الإيثار ؛ ألا ترى أن آمرأة العزيز لمّـا تناهت فى حُبّها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت : أنا راودته عن نفسه . وأفضل الجود بالنفس الجودُ على حماية رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ؛ ففى الصحيح أن أبا طَلْحة تَرّس على النبيّ صلى الله عليه وسلم يومَ أُحُد ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتطلّع ليرى القوم . فيقول له أبو طلحة : لا تُشرف يا رسـول الله ! لا يصيبونك ! نحـرى دون نحرك ! ووَقَى بيده رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فشُلّت . وقال حُذيفة العَدَوىّ : انطلقت يوم اليَرْمُوك أطلب ابن عمٍّ لى ـــ ومعى شىء من المـاء ـــ وأنا أقـول : إن كان به رَمَق سـقيته ، فإذا أنا به ، فقلت له : أسقيك ؛ فأشار برأسـه أنْ نَعم ؛ فإذا أنا برجل يقول : آه ! آه ! فأشار إلىّ ابن عمى أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم . فسمع آخر يقول : آه ! آه ! فأشار هشام أن انطلق إليـه فجئته فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام فإذا هو قـد مات . فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات . وقال أبو يزيد البِسْطامىّ : ما غَلَبنى أحد ما غلبنى شابٌّ من أهل بَلْخ ؛ قَدِم علينا حاجًّا فقال لى : يا أبا يزيد ، ما حَدُّ الزهـد عندكم ؟ فقلت : إنْ وَجَدْنا أكلنا ، وإن فقـدنا صَبَرْنَا .

(١) هو من بيت لمسلم بن الوليد ، صدره :

* تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها *

يقول : تجود بنفسك فى الحرب إذ أنت الضنين بها فى الذم . ويروى :

* يجود بالنفس إذ ضن الجواد بها *

فقال : هكذا كلاب بلخ عندنا . فقلت : وما حَدّ الزهد عندكم ؟ قال : إن فقدنا شكرنا وإن وجدنا آثارنا . وسُئل ذو النُّون المصرى : ما حَدّ الزاهد المنشرح صدره ؟ قال ثلاث : تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القُوت . وحكى عن أبى الحسن الأنطاكى : أنه آجتمع عنده نَيِّف وثلاثون رجلا بقرية من قُرَى الرَّىّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ؛ فلما رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئا ؛ إيثارًا لصاحبه على نفسه .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الخصاصة : الحاجة التى تختل بها الحال . وأصلها من الاختصاص وهو الانفراد بالأمر . فالخصاصة الانفراد بالحاجة؛ أى ولو كان بهم فاقة وحاجة . ومنه قول الشاعر :

أمّا الربيع إذا تكون خصاصة * عاش السقيم به وأثْرَى المُقْتِرُ

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الشح والبُخْلُ سواء ؛ يقال : رجل شحيح بَيِّن الشُّح والشَّح والشَّحاحة . قال عمرو بن كُلْثُوم :

ترى اللَّحِزَ الشَّحيحَ إذا أُمِرَّتْ [1] * عليه لِماله فيها مُهِينَا

وجعل بعض أهل اللغة الشُّحّ أشد من البخل . وفى الصحاح : الشح البخل مع حِرص ؛ تقول : شَحِحت (بالكسر) تَشَحّ . وشَحَحْتَ أيضا تَشُحّ وتَشِحّ . ورجل شحيح ، وقومٌ شِحاح وأشِحّة . والمراد بالآية الشُّحّ بالزكاة وما ليس بفرض من صلة ذوى الأرحام والضيافة، وما شاكل ذلك . فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق فى ذلك وإن أمسك عن نفسه . ومن وَسّع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يُوقَ شُحّ نفسه . وروى الأَسْوَد عن آبن مسعود أن رجلا أتاه فقال له : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ! قال :

---

(١) فى شرح التبريزى : « اللحز : الضيق البخيل . وقيل : هو السيئ الخلق اللئيم . وقوله : إذا أمرت عليه . أى أديرت . والمعنى : أن الخمر إذا كثر دورانها عليه أهان ماله ؛ يقال : فلان مهين لماله ؛ إذا كان سخيا . وفلان معز لماله ؛ إذا كان بخيلا » .

وما ذاك ؟ قال : سمعت الله عز وجل يقول : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدى شيئا . فقال آبن مسعود : ليس ذلك بالشح الذى ذكره الله تعالى فى القرآن ، إنما الشّح الذى ذكره الله تعالى فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلمًا ؛ ولكن ذلك البخل ، وبئس الشئ البخل . ففرق رضى الله عنه بين الشح والبخل . وقال طاوس : البخل أن يبخل الإنسان بما فى يده ، والشّح أن يشح بما فى أيدى الناس ؛ يحب أن يكون له ما فى أيديهم بالحلّ والحرام ؛ لا يقنع . ابن جبير : الشح منع الزكاة وآدّخار الحرام . ابن عُيَيْنة : الشح الظلم . الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم . ابن عباس : من آتبع هواه ولم يقبل الإيمان فذلك الشحيح . ابن زيد : من لم يأخذ شيئا [لشىء] نهاه الله عنه ، ولم يَدْعُه الشح [على أن يمنع شيئا من شىء] أمره الله به ، فقد وقاه الله شح نفسه . وقال أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " بَرِئَ من الشّح من أدّى الزكاة وقَرَى الضيف وأعطى فى النائبة " . وعنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يدعو " اللّهُمّ إنى أعوذ بك من شُحّ نفسى وإسرافها ووساوسها " . وقال أبو الهيّاج الأسدى : رأيت رجلا فى الطّواف يدعو : اللهم قِنِى شُحّ نفسى . لا يزيد على ذلك شيئا ؛ فقلت له ؟ فقال : إذا وُقيتُ شُحّ نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل . فاذا الرجل عبد الرحمن ابن عَوْف .

قلت : يدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " آتقوا الظلمَ فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة وآتّقوا الشّح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سَفَكُوا دماءهم واستحلّوا محارمهم " . وقد بيناه فى آخر « آل عمران »[1] . وقال كِسْرَى لأصحابه : أىّ شىء أضرّ بآبن آدم ؟ قالوا : الفقر . فقال كِسْرَى : الشح أضرّ من الفقر ؛ لأن الفقير إذا وجد شبع ، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبدا .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعنى التابعين ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة . قال ابن أبى لَيْلَى : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون، والذين تبوّءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم . فاجْهَدْ ألّا تخرج من هذه المنازل . وقال بعضهم : كن شَمْسًا فإن لم تستطع فكن قَمَرًا، فإن لم تستطع فكن كَوْكبًا مضيئا، فإن لم تستطع فكن كوكبا صغيرا ، ومن جهة النور لا تنقطع . ومعنى هذا : كن مهاجريًّا . فإن قلت: لا أجد ؛ فكن أنصاريًّا . فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم ، فإن لم تستطع فأحبّهم واستغفر لهم كما أمرك الله . وروى مُصْعَب بن سعد قال : الناس على ثلاثة منازل ؛ فمضت منزلتان وبَقِيت منزلة ؛ فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت . وعن جعفر بن محمد ابن على عن أبيه عن جدّه علىّ بن الحسين رضى الله عنه، أنه جاءه رجل فقال له : يابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما تقول فى عثمان ؟ فقال له : يا أخى أنت من قوم قال الله فيهم : « لِلفقراءِ المهاجِرين » الآية . قال لا ! قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم : « والذينَ تَبوَّءُوا الدّارَ والإيمان » الآية . قال لا ! قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام ! وهى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ » الآية . وقد قيل : إن محمد ابن على بن الحسين ، رضى الله عنهم ، روى عن أبيه أن نفرًا من أهل العراق جاءوا إليه ، فَسَبُّوا أبا بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ ثم عثمان ــ رضى الله عنه ــ فأكثروا ؛ فقال لهم : أمِنَ المهاجرين الأولين أنتم ؟ قالوا لا . فقال : أفمن الذين تبوّءوا الدار والإيمان من

قبلهم ؟ فقالوا لا . فقال : قد تبرأتم من هذين الفريقين ! أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » قوموا ، فعل الله بكم وفعل . ذكره النحاس .

الثانيــة — هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظًّا في الفَيْء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، وأن مَن سبّهم أو واحدا منهم أو اعتقد فيه شرًّا إنه لاحق له في الفيء . روى ذلك عن مالك وغيره . قال مالك : من كان يُبْغِض أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ ، فليس له حق في فيء المسلمين . ثم قرأ « والذين جاءوا من بعدهم » الآية .

الثالثــة — هذه الآية تدل على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول ، وإبقاء العقار والأرض شملا[(1)] بين المسلمين أجمعين ؛ كما فعل عمر رضى الله عنه ؛ إلا أن يجتهد الوالى فينفذ أمرا فيمضى عمله فيه لاختلاف الناس عليه وان هذه الآية قاضية بذلك ؛ لأن الله تعالى أخبر عن الفيء وجعله لثلاث طوائف : المهاجرين والأنصار — وهم معلومون — « والذين جاءوا من بعدهم يقولون رَبَّنَا اغْفِرْ لنا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بِالإيمانِ » . فهى عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم إلى يوم الدين . وفى الحديث الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج إلى المَقْبُرة فقال : " السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددْت أن رأيت[(2)] إخواننا " قالوا : يارسول الله ، ألسنا بإخوانك ؟ فقال " بل أنتم أصحابى وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ وأنا فَرَطُهم على الحَوْض " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن إخوانهم كل من يأتى بعدهم ؛ لا كما قال السُّدّى والكَلْبى : إنهم الذين هاجروا بعد ذلك . وعن الحسن أيضا « والذين جاءُوا من بعدِهم » مَن قصد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة .

---

(1) كذا فى الأصول . والمراد جعلها عامة شاملة بين المسلمين .
(2) فى صحيح مسلم : « أنا قد رأينا ... » .

الرابعــة ــ قوله تعــالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ نصب فى موضع الحال؛ أى قائلين . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ فيه وجهان : أحدهما ــ أمروا أن يستغفروا لمن سبق هذه الأمة من مؤمنى أهل الكتاب . قالت عائشة رضى الله عنها : فأمروا أن يستغفروا لهم فسبّوهم . الثانى ــ أمروا أن يستغفروا للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . قال ابن عباس : أمر الله تعــالى بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلم أنهــم سيُفْتَنُون . وقالت عائشة : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد فسببتموهم ، سمعت نبيّكم صلى الله عليه وسلم يقول : " لاتذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرُها أوّلَهــا " وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابى فقولوا لعن الله أشرَّكم " . وقال العَــوّام بن حَوْشَب : أدركت صدر هــذه الأمة يقولون : اذكروا محاسن أصحــابِ رسول الله صلى الله عليه وســلم حتى تألف عليهم القلوب ، ولاتذكروا ماشَجَر بينهم فتجسِّرُوا الناس عليهم . وقال الشعبيّ : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخَصْــلة ؛ سئلت اليهود: مَن خير أهل مِلَّتكم ؟ فقالوا : أصحاب موسى . وسئلت النصارى : مَن خير أهل مِلَّتكم؟ فقالوا : أصحاب عيسى . وسئلت الرافضة مَن شَرّ أهل مِلَّتكم ؟ فقالوا : أصحاب محمد ؛ أمِرُوا بالاستغفار لهم فسبُّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيــامة ، لا تقوم لهم راية ، ولاتثبت لهم قَدَم ، ولاتجتمع لهم كلمــة ؛ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجتهم . أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة . ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى حقدا وحسدًا ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعــالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾

تعجب[1] من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنهم لايعتقدون دينًا ولا كتابا . ومن جملة المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول وعبد الله بن نَبْتَل ورفاعة بن زيد . وقيل : رافعة بن تابوت وأوس بن قَيْظِيّ، كانوا من الأنصار ولكنهم نافقوا وقالوا ليهود قُرَيظة والنَّضير : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ . وقيل : هو من قول بني النضير لقُرَيظة . وقوله : ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ لا نطيعه في قتالكم . وفي هذا دليل على صحة نُبُوّة محمد صلى الله عليه وسلم من جهة علم الغيب؛ لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي في قولهم وفعلهم .

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾ أي منهزمين . ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ قيل معنى « لا ينصرونهم » طائعين . « ولئن نصروهم » مكرهين « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » . وقيل : معنى « لا ينصرونهم » لا يدومون على نصرهم . هذا على أن الضميرين متفقان . وقيل : إنهما مختلفان ؛ والمعنى لئن أخرج اليهود لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم . « ولئن نصروهم » أي ولئن نصر اليهود المنافقين « ليولن الأدبار » . وقيل : « لئن أخرجوا لا يخرجون معهم » أي علم الله منهم أنهم لا يخرجون إن أخرجوا . « ولئن قوتلوا لا ينصرونهم » أي علم الله منهم ذلك . ثم قال : « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » فأخبر عما قد أخبر أنه لايكون كيف كان يكون لو كان؛ وهو كقوله تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[2] . وقيل : معنى « ولئن نصروهم » أي ولئن شئنا أن ينصروهم زيّنا ذلك لهم . « ليولن الأدبار » .

---

(١) في نسخة : « يعجب » (٢) آية ٢٨ سورة الأنعام .

قوله تعالى : لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ ﴾ يا معشر المسلمين . ﴿ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أى خوفا وخشية . ﴿ فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ يعنى صدور بنى النّضير . وقيل : فى صدور المنافقين . ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين ؛ أى يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربهم ذلك الخوف . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أى لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته .

قوله تعالى : لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا ﴾ يعنى اليهود ﴿ إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ أى بالحيطان والدُّور ، يظنون أنها تمنعهم منكم . ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ أى من خلف حيطان يستترون بها لجُبْنهم ورَهْبتهم . وقراءة العامة « جُدُرٍ » على الجمع ، وهو اختيار أبى عبيدة وأبى حاتم ؛ لأنها نظير قوله تعالى : « فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ » وذلك جمع . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثير وابن مُحَيصن وأبو عمرو « جِدارٍ » على التوحيد ؛ لأن التوحيد يؤدّى عن الجمع . وروى عن بعض المكّيين « جَدْر » (بفتح الجيم وإسكان الدال) ؛ وهى لغة فى الجدار . ويجوز أن يكون معناه من وراء نخلهم وشجرهم ؛ يقال : أجدر النخل إذا طلعت رءوسه فى أول الربيع . والجَدْر نبتٌ واحدته جَدْرة . وقُرِئَ « جُدْر » (بضم الجيم وإسكان الدال) جمع الجدار . ويجوز أن تكون الألف فى الواحد كألف كِتاب ، وفى الجمع كألف ظِراف . ومثله ناقة هِجَانٌ ونُوقٌ هِجان ؛ لأنك تقول فى التثنية : هِجانان ؛ فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين فى اللفظ مختلفين فى المعنى ؛ قاله ابن جنّى .

قوله تعالى : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعنى عداوة بعضهم لبعض . وقال مجاهد : « بأسهم بينهم شديد » أى بالكلام والوعيد لنفعلن كذا . وقال السُّدّى : المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد . وقيل : « بأسهم بينهم شديد » أى إذا لم يلقَوْا عدوا نسبوا أنفسهم إلى الشدّة والبأس، ولكن إذا لَقُوا العدوّ انهزموا . ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ يعنى اليهود والمنافقين ؛ قاله مجاهد . وعنه أيضا يعنى المنافقين . الثَّوْرِىّ : هم المشركون وأهل الكتاب . وقال قتادة : «تحسبهم جميعا» أى مجتمعين على أمر ورأى . «وقلوبهم شتّى» متفرّقة . فأهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم؛ وهم مجتمعون فى عداوة أهل الحق . وعن مجاهد أيضا أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود . وهذا ليقوِّى أنفس المؤمنين عليهم . وقال الشاعر :

إلى الله أشكو نِيَّةً شَقَّت العَصَا * هى اليوم شَتّى وهى أمس جُمَّعُ

وفى قراءة ابن مسعود « وقلوبهم أَشَتّ » يعنى أشدّ تشتيتا ؛ أى أشدّ اختلافا . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى ذلك التشتيت والكفر بأنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله .

قوله تعالى : كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

قال ابن عباس : يعنى به قَيْنُقَاع؛ أمكن الله منهم قبل بنى النَّضير . وقال قتادة : يعنى بنى النضير؛ أمكن الله منهم قبل قُرَيظة . مجاهد : يعنى كفار قريش يوم بدر . وقيل : هو عامّ فى كل من انتقم منه على كفره قبل بنى النَّضير من نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى ﴿ وَبَالَ ﴾ جزاء كفرهم . ومن قال : هم بنو قُريظة ، جعل « وبال أمرهم » نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسَبْىِ الذرّية . وهو قول الضحاك . ومن قال المراد بنو النَّضير قال : « وبال أمرهم » الجلاء والنفى . وكان بين النضير وقريظة سنتان . وكانت وقعة بدر قبل غَزْوة بنى النَّضير بستة أشهر؛ فلذلك قال : « قريبا » وقد قال قوم : غزوة بنى النضير بعد وقعة أُحُد. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الآخرة .

قوله تعالى : كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ هذا ضَرْبُ مَثَلٍ للنافقين واليهود فى تخاذلهم وعدم الوفاء فى نُصْرتهم . وحَذَف حرف العطف، ولم يقل : وكمثل الشيطان ؛ لأن حذف حرف العطف كثير ؛ كما تقول : أنت عاقل أنت كريم أنت عالم . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الإنسان الذى قال له الشيطان اكفر، راهب تُرِكت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ لِيَدْعُوَ لها ، فزيّن له الشيطان فوطئها فحملت، ثم قتلها خوفاً أن يفتضح، فدل الشيطان قومها على موضعها ، فجاءوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاءه الشيطان فوعده أنه إن سجد له أنجاه منهم ، فسجد له فتبرأ منه فأسلمه . ذكره القاضى إسماعيل وعليّ بن المديني عن سفيان بن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وذكر خبره مطولا ابن عباس ووهب بن مُنَبِّه . ولفظهما مختلف . قال ابن عباس فى قوله تعالى « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ » : كان راهب فى الفَتْرة يقال له : برصيصا ؛ قد تعبّد فى صَوْمعته سبعين سنة ، لم يعص الله فيها طَرْفة عين ، حتى أعيا إبليس . فجمع إبليس مَرَدة الشياطين فقال : ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا ؟ فقال الأبيض ، وهو صاحب الأنبياء، وهو الذى قصد النبيّ صلى الله عليه وسلم فى صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحى، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند ؛ فذلك قوله تعالى : « ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ »(1) فقال : أنا أكْفِيكَه ؛ فانطلق فتزيّا بزِيّ الرهبان ، وحلق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه ؛ وكان لاينفتل من صلاته إلا فى كل عشرة أيام يوما ، ولا يُفطر إلا فى كل عشرة أيام ؛ وكان يواصل العشرة

(1) آية ٢٠ سورة التكوير .

الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيض أنه لايجيبه أقبل على العبادة فى أصل صَوْمعته؛ فلما انفتل برصيصا من صلاته ، رأى الأبيض قائما يصلّى فى هيئة حسنة من هيئة الرهبان ؛ فندم حين لم يجبه ، فقال له : ماحاجتك ؟ فقال : أن أكون معك ، فأتأدّب بأدبك ، وأقتبس من عملك ، ونجتمع على العبادة ؛ فقال : إنى فى شغل عنك ؛ ثم أقبل على صلاته ؛ وأقبل الأبيض أيضا على الصلاة ؛ فلما رأى برصيصا شدّة اجتهاده وعبادته قال له : ماحاجتك ؟ فقال : أن تأذن لى فأرتفع إليك . فأذن له فأقام الأبيض معه حَوْلًا لا يُفطر إلا فى كل أربعين يوما يوما واحدا ، ولا ينفتل من صلاته إلا فى كل أربعين يوما ، ورُبّما مدّ الى الثمانين؛ فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه . ثم قال الأبيض : عندى دعوات يَشْفِى الله بها السقيم والمبتلى والمجنون ؛ فعلمه إيّاها . ثم جاء الى إبليس فقال : قد والله أهلكت الرجل . ثم تعرض لرجل فخنقه ، ثم قال لأهله — وقد تصوّر فى صورة الآدميين — : إن بصاحبكم جنونا أفأطبّه ؟ قالوا نعم . فقال : لا أقوى على جِنّيّته ، ولكن اذهبوا به الى برصيصا، فإن عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب ؛ فجاءوه فدعا بتلك الدعوات ، فذهب عنه الشيطان . ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك ويرشدهم الى برصيصا فيعافَوْن . فانطلق الى جارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة ، وكان أبوهم ملكا فمات واستخلف أخاه ، وكان عمها ملكًا فى بنى إسرائيل ؛ فعذبها وخنقها . ثم جاء إليهم فى صورة رجل متطبّب ليعالجها فقال : إن شيطانها مارد لا يطاق ، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده ، فاذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت ؛ فقالوا : لا يجيبنا إلى هذا؛ قال : فَابْنُوا صومعةً فى جانب صومعته ثم ضعوها فيها، وقولوا : هى أمانة عندك فاحتسب فيها . فسألوه ذلك فأبى ، فبنَوْا صومعة ووضعوا فيها الجارية ؛ فلما انفتل من صلاته عاين الجارية وما بها من الجمال فأُسْقِط فى يده ، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها . وكان يكشف عنها ويتعرض بها لبرصيصا، ثم جاءه الشيطان فقال : وَيْحَكَ ! واقِعْها ، فما تجد

مثلها ثم تتوب بعد ذلك . فلم يزل به حتى واقعها فحملت وظهر حملها . فقال له الشيطان : ويحك ! قد افتضحت . فهل لك أن تقتلها ثم تتوب فلا تفتضح ، فان جاءوك وسألوك فقل جاءها شيطانها فذهب بها . فقتلها برصيصا ودفنها ليلا ؛ فأخذ الشيطان طَرَف ثوبها حتى بقي خارجا من التراب ؛ ورجع برصيصا إلى صلاته . ثم جاء الشيطان إلى إخوتها في المنام فقال : إن برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا ، وقتلها ودفنها في جبل كذا وكذا ؛ فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا : ما فعلت أختنا ؟ فقال : ذهب بها شيطانها ؛ فصدقوه وانصرفوا . ثم جاءهم الشيطان في المنام وقال : إنها مدفونة في موضع كذا وكذا ، وإن طرف ردائها خارج من التراب ؛ فانطلقوا فوجدوها ، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه ، وحملوه إلى الملك فأقر على نفسه فأمر بقتله . فلما صُلب قال الشيطان : أتعرفني ؟ قال لا والله ! قال : أنا صاحبك الذي علّمتك الدعوات ، أما اتقيت الله أما استحيت وأنت أعبد بني إسرائيل ! ثم لم يكفك صنيعك حتى فضحت نفسك ، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس ! فإن متّ على هذه الحالة لم يُفلح أحد من نظرائك بعدك . فقال : كيف أصنع ؟ قال : تطيعني في خَصْلة واحدة وأنجيك منهم وآخذ بأعينهم . قال : وما ذاك ؟ قال : تسجد لي سجدة واحدة ؛ فقال : أنا أفعل ؛ فسجد له من دون الله . فقال : يا برصيصا ، هذا أردت منك ؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك ، إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين . وقال وهب ابن مُنَبّه : إن عابدا كان في بني إسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكرا ، ليست لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلّفون أختهم ، ولا عند مَن يأمنون عليها ، ولا عند مَن يضعونها . قال : فاجتمع رأيهم على أن يخلّفوها عند عابد بني إسرائيل ، وكان ثقة في أنفسهم ؛ فأتوه فسألوه أن يخلّفوها عنده ؛ فتكون في كنفه وجواره إلى ان يقفلوا من غَزاتهم ؛ فأبى ذلك عليهم وتعوّذ بالله منهم ومن أختهم . قال فلم يزالوا به حتى أطمعهم[1] فقال : أنزلوها في بيت حِذاء صَوْمعتي ؛ فأنزلوها في ذلك البيت ، ثم انطلقوا وتركوها ؛ فمكثت في جوار ذلك العابد زمانا ، يُنزل إليها الطعام من

(١) كذا في الأصول . ولعلها « أطاعهم » .

صومعته ، فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه و يصعد فى صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام . قال : فتلطّف له الشيطان فلم يزل يرغّبه فى الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوّفه أن يراها أحد فيعلقها . قال : فلبث بذلك زمانا ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والأجر ، وقال له : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظمَ لأجرك ؛ قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه فى بيتها؛ قال : فلبث بذلك زمانا ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير وحَضّه عليه ؛ وقال : لو كنت تكلّمها وتحدّثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشةً شديدة . قال : فلم يزل به حتى حدّثها زمانا يطلع عليها من فوق صومعته . قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدّثها وتقعد على باب بيتها فتحدّثك كان آنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدّثها ،وتخرج الجارية من بيتها؛ فلبثا زمانا يتحدّثان؛ ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال : لو خرجتَ من باب صومعتك فجلست قريبا من باب بيتها كان آنس لها . فلم يزل به حتى فعل . قال : فلبثا زماناً ؛ ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها ، وقال له : لو دَنَوْتَ من باب بيتها فحدّثتها ولم تخرج من بيتها ؛ ففعل . فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدثها . فلبثا بذلك حيناً ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت البيت معها تحدثها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد كان أحسنَ بك . فلم يزل به حتى دخل البيت ؛ فجعل يحدثها نهاره كله، فإذا أمسى صعد فى صومعته . قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فلم يزل يزيّنها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبّلها . فلم يزل به إبليس يحسّنها فى عينه و يسوّل له حتى وقع عليها فأحبلها، فولدت له غلاما . فجاءه إبليس فقال له : أرأيت أن جاء إخوة هذه الجارية وقد ولدت منك ! كيف تصنع ! لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك؟ فاعمد إلى ابنها فآذبحه وآدفنه؛ فإنها ستكتم عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ؛ ففعل . فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلتَ ابنها ! خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها . فلم يزل به حتى ذبحها

وألقاها فى الحفيرة مع ابنها ، وأطبق عليها صخرة عظيمة ، وسوّى عليها التراب ، وصعد فى صومعته يتعبّد فيها ؛ فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ؛ حتى قفل إخوتها من الغزو ، فجاءوه فسألوه عنها فنعاها لهم وترحّم عليها ، وبكى لهم وقال : كانت خيرَ أَمَة ، وهذا قبرها فانظروا إليه . فأتى إخوتها القبر فبكَوْا على قبرها وترحّموا عليها ، وأقاموا على قبرها أياما ثم انصرفوا إلى أهاليهم . فلما جَنّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، أتاهم الشيطان فى صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ؛ فأخبره بقول العابد وموتها وترحّمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها ؛ فكذّبه الشيطان وقال : لم يَصْدُقكم أمرَ أختكم ، إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاما فذبحه وذبحها معه فزعًا منكم ، وألقاها فى حَفيرة احتفرها خلف الباب الذى كانت فيه عن يمين من دخله . فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله ؛ فإنكم ستجدونهما هنالك جميعا كما أخبرتكم . قال : وأتى الأوسط فى منامه وقال له مثل ذلك . ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك . فلما استيقظ القوم استيقظوا متعجبين لما رأى كل واحد منهم . فأقبل بعضهم على بعض ، يقول كل واحد منهم لقد رأيت عجبًا ؛ فأخبر بعضهم بعضا بما رأى . قال أكبرهم : هذا حُلم ليس بشىء ؛ فامضوا بنا ودعوا هذا . قال أصغرهم : لا أمضى حتى آتى ذلك المكان فأنظر فيه . قال : فانطلقوا جميعا حتى دخلوا البيت الذى كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وُصف لهم فى منامهم ، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيل لهم ؛ فسألوا عنها العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما . فاستعدَوْا عليه ملِكهم ، فأُنزِل من صومعته فقدّموه ليُصْلَب ؛ فلما أوقفوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى صاحبك الذى فتنتك فى المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحتَ ابنها ؛ فإن أنت أطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك خلّصتك مما أنت فيه . قال : فكفر العابد بالله . فلما كفر خلّى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه . قال : ففيه نزلت هذه الآية «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ — إلى قوله — جَزَاءُ الظَّالِمِينَ» .

قال ابن عباس : فضرب الله هذا مثلًا للنافقين مع اليهود . وذلك أن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام أن يُجلى بنى النَّضير من المدينة ، فدسّ إليهم المنافقون ألا تخرجوا من دياركم ، فإن قاتلوكم كنا معكم ، وإن أخرجوكم كنا معكم ؛ فحاربوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فخذلهم المنافقون ، وتبرءوا منهم كما تبرّأ الشيطان من بَرْصيصا العابد . فكان الرُّهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتّقيّة والكتمان . وطمع أهل الفسوق والفجور فى الأحبار فرموْهم بالبهتان والقبيح ؛ حتى كان أمر جُريج الراهب ، و برّأه الله فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس . وقيل : المعنى مَثَل المنافقين فى غدرهم(1) لبنى النَّضير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: « لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ(2) » الآية . وقال مجاهد : المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم . ومعنى قوله تعالى : « إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ » أى أغواه حتى قال : إنى كافر . وليس قول الشيطان : « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » حقيقة ، إنما هو على وجه التبرؤ من الإنسان ؛ فهو تأكيد لقوله تعالى : « إنى برىء منك » . وفتح الياء من « إنى » نافع وابن كثير وأبو عمرو . وأسكن الباقون . ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ أى عاقبة الشيطان وذلك الإنسان . ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ نصب على الحال . والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة فى الراهب والشيطان . ومن جعلها فى الجنس فالمعنى : وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين . ونصب «عاقبتهما» على أنه خبر كان . والاسم «أَنَّهُمَا فِي النَّارِ» . وقرأ الحسن « فكان عاقبتُهُمَا » بالرفع على الضد من ذلك . وقرأ الأعمش « خَالِدَانِ فيهاَ » بالرفع وذلك خلاف المرسوم . ورفعه على أنه خبر « أنّ » والظرف مُلْغًى .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

---

(١) فى بعض الأصول : « وعدهم » . (٢) آية ٤٨ سورة الأنفال .

قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه . ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعنى يوم القيامة . والعرب تكنى عن المستقبل بالغد . وقيل : ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة؛ كما قال الشاعر :

* وإن غدًا للناظرين قريب * (1)

وقال الحسن وقتادة : قرّب الساعة حتى جعلها كغد . ولا شك أن كل آتٍ قريبٌ ؛ والموت لا محالة آتٍ . ومعنى « مَا قَدَّمَتْ » يعنى من خير أو شر . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أعاد هذا تكريرا ، كقولك : اعجل اعجل، ارم ارم . وقيل التقوى الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب، والثانية اتقاء المعاصى فى المستقبل . ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير : أى بما يكون منكم . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أى تركوا أمره . ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيرا ؛ قاله ابن حبّان . وقيل : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ؛ قاله سفيان . وقيل : « نسوا الله » بترك شكره وتعظيمه . « فأنساهم أنفسهم » بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضا ؛ حكاه ابن عيسى . وقال سهل بن عبد الله : « نسوا الله » عند الذنوب. « فأنساهم أنفسهم » عند التوبة . ونسب تعالى الفعل إلى نفسه فى «أنساهم» إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذى تركوه . وقيل : معناه وجدهم تاركين أمره ونهيه ؛ كقولك : أحمدت الرجل إذا وجدته محمودا . وقيل : « نسوا الله » فى الرخاء . « فأنساهم أنفسهم » فى الشدائد . ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال ابن جبير: العاصون . وقال ابن زيد: الكاذبون. وأصل الفسق الخروج ؛ أى الذين خرجوا عن طاعة الله .

(1) فى فرائد اللآل أن قائل هذا هو قراد بن أجدع النعمان بن المنذر . ولفظ البيت :
فإن يك صدر هذا اليوم ولى * فإن غدا لناظره قريب

قوله تعالى : لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أى فى الفضل والرتبة . ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أى المقربون المكرمون . وقيل : الناجون من النار . وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى « المائدة » عند قوله تعالى : « قل لا يَسْتَوِى الخبيثُ والطَّيِّبُ »[1] . وفى سورة « السجدة » عند قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يَسْتَوون »[2] . وفى سورة « صۤ » « أم نَجْعَلُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ كالمُفْسِدينَ فى الأرض أم نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كالفُجَّارِ »[3] فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾ حَثّ على تأمّل مواعظ القرآن ، و بيّن أنه لا عذر فى ترك التدبُّر ؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبالُ مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعةً متصدّعة ؛ أى متشققة من خشية الله . والخاشع : الذليل . والمتصدّع : المتشقق . وقيل : « خاشعًا » لله بما كلّفه من طاعته . « متصدّعًا » من خشية الله أن يعصيه فيعاقبه . وقيل : هو على وجه المَثَل للكفار .

قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أى إنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدّع لوعيده ؛ وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون فى وعده ولا ترهبون من

---

(١) آية ١٠٠ راجع جـ ٦ ص ٣٢٧ (٢) آية ١٨ راجع جـ ١٤ ص ١٠٥

(٣) آية ٢٨ راجع جـ ١٥ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية .

وعيده ! وقيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أى لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت، وتصدّع من نزوله عليه؛ وقد أنزلناه عليك وثبّتناك له؛ فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لا تثبت له الجبال . وقيل : إنه خطاب للأمة ، وأن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدّعت من خشية الله . والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتا ؛ فهو يقوم بحقه إن أطاع، ويقدر على ردّه إن عصى؛ لأنه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب .

قوله تعالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ قال ابن عباس : عالم السر والعلانية . وقيل : ما كان وما يكون . وقال سهل : عالم بالآخرة والدنيا . وقيل: « الغيب » ما لم يعلم العباد ولا عاينوه . « والشهادة » ما علموا وشاهدوا . ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم (١) .

قوله تعالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾ أى المنزّه عن كل نقص ، والطاهر عن كل عيب . والقَدَس (بالتحريك) : السَّطْل بلغة أهل الحجاز ؛ لأنه يُتَطَهَّر به . ومنه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء من البئر بالسانية (٢) . وكان سيبويه يقول : قَدُّوس وسَبُّوح؛ بفتح أولهما . وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائى أعرابيا فصيحا يُكْنَى أبا الدينار يقرأ « القَدُّوس » بفتح القاف . قال ثعلب : كل اسم على

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٠٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) من معنى السانية : الدلو وأدواته . والمراد هنا الأدوات التى يستخرج بها الماء .

فَعُّول فهو مفتوح الأول؛ مثل سَفُّود[١] وكَلّوب وتَنّور وسَمُّور وشَبُّوط، إلا السُّبّوح والقُدّوس فإن الضم فيهما أكثر؛ وقد يفتحان. وكذلك الذُّرّوح[٢] (بالضم) وقد يفتح. ﴿السَّلَامُ﴾ أي ذو السلامة من النقائص. وقال ابن العربيّ: اتفق العلماء رحمة الله عليهم على أن معنى قولنا في الله «السلام»: النسبة؛ تقديره ذو السلامة. ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال: الأول — معناه الذي سَلِم من كل عيب وبَرِئ من كل نقص. الثاني — معناه ذو السلام؛ أي المسلم على عباده في الجنة؛ كما قال: «سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم». الثالث — أن معناه الذي سلم الخلقُ من ظلمه.

قلت: وهذا قول الخطابي؛ وعليه والذي قبله يكون صفةَ فعل. وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفةَ ذات. وقيل: السلام معناه المسلِّم لعباده. ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب. وقيل: المؤمن الذي يؤمن أولياءه من عذابه، ويؤمن عباده من ظلمه؛ يقال: آمنه من الأمان الذي هو ضدّ الخوف؛ كما قال تعالى: «وآمَنَهم مِن خَوْف» فهو مؤمن؛ قال النابغة:

والمُؤْمِنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها * رُكْبانُ مكّةَ بين الغِيلِ والسَّنَدِ[٣]

وقال مجاهد: المؤمن الذي وحّد نفسه بقوله: «شَهِدَ الله أنه لا إله إلا هو»[٤]. وقال ابن عباس: إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار. وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبيّ، حتى إذا لم يبق فيها من يوافق اسمه اسم نبيّ قال الله تعالى لباقيهم: أنتم

---

(١) السفود: حديدة يشوى عليها اللحم؛ والجمع سفافيد. والكلوب: حديدة معطوفة كالخطاف. والتنور: الكانون يخبز فيه. والسمور: حيوان برى يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها ودفائها وحسنها. والشبوط: سمك رقيق الذنب عريض الوسط لين المس صغير الرأس. والجمع شبابيط.

(٢) الذروح: دويبة حمراء منقطة بسواد تطير؛ وهي من السموم القاتلة.

(٣) العائذات: ما عاذ بالبيت من الطير. والغيل: الشجر الكثير الملتف. والسند: ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح.

(٤) آية ١٨ سورة آل عمران.

المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن؛ فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين . (الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ) تقدّم الكلام فى المهيمن فى «المائدة»[1] وفى « العزيز » فى غير موضع[2]. (الْجَبَّارُ) قال ابن عباس : هو العظيم . وجبروت الله عظمته . وهو على هذا القول صفة ذات؛ من قولهم : نخلة جَبّارة . قال امرؤ القَيْس :

سوامق جبّار أثيث فروعُه * وعالين قنوانا من البُسْر أحمرا[3]

يعنى النخلة التى فاتت اليَد . فكان هذا الاسم يدل على عظمة الله وتقديسه عن أن تناله النقائص وصفات الحدث . وقيل : هو من الجَبْر وهو الإصلاح؛ يقال : جبرت العظم فجَبَر؛ إذا أصلحته بعد الكسر؛ فهو فعّال من جبر إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير . وقال الفراء : هو من أجبره على الأمر أى قهره . قال : ولم أسمع فعّالا من أفعل إلا فى جبار ودرّاك من أدرك . وقيل : الجبار الذى لا تطاق سَطْوته . (الْمُتَكَبِّرُ) الذى تكبر بربوبيّته فلا شىء مثله . وقيل : المتكبر عن كل سوء ، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم . وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد . وقال حُميد بن ثَوْر :

عَفَت مثل ما يعفو الفَصيل فأصبحت * بها كبرياء الصعب وهى ذلول

والكبرياء فى صفات الله مدح ، وفى صفات المخلوقين ذم . وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن رَبّه تبارك وتعالى أنه قال : " الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحد منهما قصمته ثم قذفته فى النار " . وقيل : المتكبر معناه العالى . وقيل : معناه الكبير لأنه أجلّ من أن يتكلف كبرا . وقد يقال : تظلّم بمعنى ظلم، وتشتّم بمعنى شتم، واستقر بمعنى قرّ[4]. كذلك المتكبر بمعنى الكبير . وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف بتفعل إذا نسب إلى ما لم يكن منه . ثم نزّه نفسه فقال : (سُبْحَانَ اللَّهِ) أى تنزيها لجلالته وعظمته . (عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

(٣) سوامق : مرتفعات . والأثيث : الملتف . والقنوان : العذق . (٤) فى نسخة : «واستمر بمعنى مرّ» .

قوله تعالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ « الخالق » هنا المقدّر . و« البارئ » المنشئ المخترع . و « المصور » مصوّر الصور ومركبها على هيئات مختلفة . فالتصوير مرتب على الخلق والبراية[1] وتابع لهما . ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل . وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق : جعله عَلَقَة ، ثم مُضْغَة ، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يُعرف بها ويُتميز عن غيره بسِمَتها . فتبارك الله أحسن الخالقين . وقال النابغة :

الخالق البارئ المصوّر في الـ * أرحامِ ماءً حتى يصير دماً

وقد جعل بعض الناس الخالق بمعنى التصوير ؛ وليس كذلك ، وإنما التصوير آخرا والتقدير أوّلا والبراية بينهما . ومنه قوله الحق : « وإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ »[2] . وقال زُهير :

وَلأنتَ تَفْرِى ما خَلَقْتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخْلُق ثم لا يَفْرِى

يقول : تُقَدِّر ما تُقَدِّر ثم تَفْرِيه ؛ أى تُمضيه على وَفْق تقديرك ، وغيرك يقدر ما لا يتم له ولا يقع فيه مراده ؛ إما لقصوره في تصوّر تقديره أو لعجزه عن تمام مراده . وقد أتينا على هذا كله في « الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » والحمد لله . وعن حاطب ابن أبي بَلْتَعَة أنه قرأ « البارئ المصوَّرَ » بفتح الواو ونصب الراء ؛ أى الذى يبرأ المصوَّر ؛ أى يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات . ذكره الزّمخشري . ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[3] تقدم الكلام فيه . وعن أبي هريرة قال : سألت خليلي أبا القاسم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال : "يا أبا هريرة ،

---

(١) كذا في نسخ الأصل . والذى في كتب اللغة : « برأ الله الخلق برءا وبروءا » .

(٢) آية ١١٠ سورة المائدة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ وجـ ٢ ص ١٣١ وجـ ١٠ ص ٢٦٦

عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها " فأعدت عليه فأعاد علي فأعدت عليه فأعاد علي . وقال جابر بن زيد : ان اسم الله الأعظم هو الله لمكان هذه الآية . وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " . وعن أبي أمامة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من قرأ خواتم سورة الحشر في ليل أو نهار فقبضه الله في تلك الليلة أو ذلك اليوم فقد أوجب الله له الجنة " .

سورة الممتحنة

مدنيّة في قول الجميع ، وهي ثلاث عشرة آية

الممتحنة (بكسر الحاء) أي المختبرة ، أضيف الفعل إليها مجازا ؛ كما سُمّيت سورة «براءة» المبعثرة والفاضحة ، لما كشفت من عيوب المنافقين . ومن قال في هذه السورة : الممتَحنة (بفتح الحاء) فإنه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها ، وهي أم كُلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْط . قال الله تعالى : « فآمتحنوهنّ اللهُ أعلمُ بإيمانهن » الآية . وهي آمرأة عبد الرحمن ابن عَوْف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ج تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ج وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ عدّى اتخذ إلى مفعولين، وهما «عدوّكم أولياء» . والعدوّ فعول من عدا كعفوّ من عفا . ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجماعة إيقاعه على الواحد . وفى هذه الآية سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ ﴾ روى الأئمة — واللفظ لمسلم — عن علىّ رضى الله عنه قال : بعثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال : " ائتوا رَوْضَةَ خاخ[1] فإن بها ظَعِينة[2] معها كتاب فخذوه منها "، فانطلقنا تَعادى[3] بنا خيلُنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا : أخرجى الكتاب؛ فقالت : ما معى كتاب . فقلنا : لَتُخرِجِنّ الكتاب أو لَتُلْقِينّ الثياب ؛ فأخرجته من عِقاصها . فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبى بَلْتَعَة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا حاطب ما هذا ؟ قال لا تعجل علىّ يا رسول الله ، إنى كنت امرأً مُلْصَقًا فى قريش — قال سفيان : كان حَلِيفًا لهم، ولم يكن من أنفُسها — وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمُون بها أهليهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النَّسَب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتى، ولم أفعله كفرًا ولا ارتدادًا عن دِينى، ولا رِضًا بالكفر بعد الإسلام . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " صَدَق " . فقال عمر : دَعْنِى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال : " إنه قد شهد بدرًا وما يُدرِيك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم " فأنزل الله عز وجل « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ » . قيل : اسم المرأة سارّة من موالى قريش . وكان فى الكتاب : « أمّا بعدُ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسَّيْل، وأقسم بالله لو لم يَسِر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم ، وأنجز له مَوْعِدَه فيكم ؛ فإن الله وليُّه وناصره . ذكره بعض المفسرين .

(١) موضع بين مكة والمدينة على اثنى عشر ميلا من المدينة .

(٢) الظعينة : هى المرأة فى الهودج . ولا يقال ظعينة إلا وهى كذلك . (٣) أى تجرى .

وذكر القُشَيْرِيّ والثَّعْلَبِيّ أن حاطب بن أبي بَلْتَعَة كان رجلا من أهل اليمن، وكان له حِلْف بمكة في بني أسد بن عبد العُزَّى رَهْط الزبير بن العَوّام . وقيل : كان حليفًا للزبير بن العَوّام، فقدمت من مكة سارّة مولاة أبي عمرو بن صَيْفِيّ بن هاشم بن عبد مَناف إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز لفتح مكة . وقيل : كان هذا في زمن الحُدَيْبِيَة؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمهاجرة جئتِ يا سارة" . فقالت لا . قال : "أمسلمة جئت" قالت لا . قال : "فما جاء بك" قالت : كنتم الأهل والموالي والأصل والعَشِيرة ، وقد ذهب الموالي ـ تعني قُتلوا يوم بدر ـ وقد احتجتُ حاجةً شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : "فأين أنتِ عن شباب أهل مكة" وكانت مُغَنِّيَةً؛ قالت : ما طُلب منّي شيء بعد وقعة بدر . فحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها ، فكسَوْها وأعطوْها وحملُوها فخرجت إلى مكة ، وأتاها حاطب فقال : أعطيك عشرة دنانير وبُرْدًا على أن تبلغي هذا الكتاب إلى أهل مكة . وكتب في الكتاب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حِذْرَكم . فخرجت سارة ، ونزل جبريل فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث عليًّا والزبير وأبا مَرْثَد الغَنَوِيّ . وفي رواية : عليًّا والزبير والمِقْدَاد . وفي رواية : أرسل عليًّا وعَمّار بن ياسر . وفي رواية : عليًّا وعمارا وعمر والزبير وطَلْحة والمقداد وأبا مَرْثَد ـ وكانوا كلهم فرسانا ـ وقال لهم : "انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَة خاخ فإن بها ظَعِينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلّوا سبيلها فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها" فأدركوها في ذلك المكان ، فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت ما معها كتاب ؛ ففتّشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتابا ، فهمّوا بالرجوع فقال عليّ : والله ما كَذَبْنَا ولا كُذِّبْنَا ! وسَلّ سيفه وقال : أَخرِجي الكتاب وإلا والله لأجردنّك ولأضربنّ عنقك ؛ فلما رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها ـ وفي رواية من حُجْزَتها[1] ـ فخلّوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأرسل إلى حاطب فقال :

---

(١) الحجزة : معقد الإزار ، وموضع التكة من السراويل .

" هل تعرف الكتاب ؟ " قال نعم . وذكر الحديث بنحو ما تقدّم . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هي أحدهم .

الثانيــة — السورة أصلٌ في النّهي عن موالاة الكفار. وقد مضى ذلك في غير موضع.[1] من ذلك قوله تعالى : « لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » . « يأيّها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » . « يأيها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهودَ والنصارَى أولياءَ » . ومثله كثير . وذكر أن حاطباً لما سمع « يأيها الذين آمنوا » غُشِيَ عليه من الفرح بخطاب الإيمان .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ يعني بالظاهر ؛ لأن قلب حاطب كان سليماً؛ بدليل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : " أما صاحبكم فقد صدق ". وهذا نص في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده . والباء في « بالمودّة » زائدة ؛ كما تقول : قرأت السورة وقرأت بالسورة ، ورميت إليه ما في نفسي وبما في نفسي . ويجوز أن تكون ثابتة على أن مفعول « تُلْقُونَ » محذوف ؛ معناه تلقون إليهم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودّة التي بينكم وبينهم . وكذلك « تُسِرون إليهم بِالْمَوَدَّةِ » أي بسبب المودّة . وقال الفرّاء : « تلقون إليهم بالمودّة » من صلة « أولياء » ودخول الباء في المودّة وخروجها سواء . ويجوز أن تتعلق بـ « لا تتّخذوا » حالاً من ضميره . وبـ « أولياء » صفة له . ويجوز أن تكون استئنافا . ومعنى « تلقون إليهم بالمودّة » تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم ؛ وقاله الزجاج .

الرابعــة — من كثر تطلّعه على عَوْرات المسلمين وينبّه عليهم ويعرّف عدوّهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعله لغَرَض دُنْيَوِيّ واعتقاده على ذلك سليم ؛ كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليَد ولم يَنْوِ الرِّدّة عن الدِّين .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٧ و ١٧٨ و جـ ٦ ص ٢١٦ .

الخامســـة ـ إذا قلنا لا يكون بذلك كافرا فهل يقتل بذلك حدّا أم لا ؟ اختلف الناس فيه ؛ فقال مالك وابن القاسم وأشهب : يجتهد في ذلك الإمام . وقال عبد الملك : إذا كانت عادته تلك قُتل؛ لأنه جاسوس . وقد قال مالك بقتل الجاسوس ـ وهو صحيح ـ لإضراره بالمسلمين وسَعْيه بالفساد في الأرض . ولعل ابن الماجِشُون إنما اتخذ التكرار في هذا لأن حاطبا أخذ في أول فعله . والله أعلم .

السادســـة ـ فإن كان الجاسوس كافرا فقال الأوزاعيّ : يكون نقضًا لعهده . وقال أَصْبَغ : الجاسوس الحربيّ يقتل، والجاسوس المسلم والذميّ يعاقبان إلا إن تظاهرا على الإسلام فيقتلان . وقد روى عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أتى بعَيْنٍ للشركين اسمه فُرَات بن حَيّان ، فأمر به أن يقتل؛ فصاح : يا معشر الأنصار، أُقْتَلُ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ! فأمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم فخلّى سبيله . ثم قال : " إن منكم من أَكِلُه إلى إيمانه منهم فُرَات بن حَيّان " . وقوله : « وقد كفروا » حال، إمّا من « لا تتخـذوا » و إما من « تُلْقُون » أى لا تتولّوهم أو توادّوهم؛ وهذه حالهم . وقرأ الجَحْدَرِيّ « لمـا جاءكم » أى كفروا لأجل ما جاءكم من الحق .

السابعـــة ـ قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُـولَ ﴾ استئناف كلام كالتفسير لكفرهم وعُتُوهم ، أو حال من « كفروا » . ﴿ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ تعليلٌ لـ«يخرجون» المعنى يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأن تؤمنوا بالله ؛ أى لأجل إيمانكم بالله . قال ابن عباس : وكان حاطب ممن أخرج مع النبيّ صـلى الله عليه وسـلم . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى . وقيل : فى الكلام حذف؛ والمعنى إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى، فلا تلقوا إليهـم بالمودّة . وقيل : «إن كنتم خرجتم جِهادا فِي سبِيلِي وٱبتِغاء مرضاتِي » شَرْطٌ وجوابُه مقـدّم . والمعنى إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى فلا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء . ونصب جهـادا » و « ابتغاء » لأنه مفعـول له . وقـوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ بدل من

« تلقون » ومبيّن عنه . والأفعال تبدل من الأفعال، كما قال : «وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ له العذابُ»(١) . وأنشد سيبويه :

مَتَى تأتنا تُلْمِمْ بنا في ديارنا * تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجا

وقيل : هو على تقدير أنتم تُسِرّون إليهم بالمودّة ؛ فيكون استئنافا . وهذا كلّه معاتبةٌ لحاطب . وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه؛ فإن المعاتبة لا تكون إلا من مُحِبّ لحبيبه ، كما قال :

أعاتب ذا المودّة من صديق * إذا ما رابني منه اجتناب

إذا ذهب العِتاب فليس وُدٌّ * ويبقى الودّ ما بقي العتاب

ومعنى « بِالْمَوَدَّةِ » أى بالنصيحة فى الكتاب إليهم . والباء زائدة كما ذكرنا، أو ثابتة غير زائدة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ ﴾ أضمرتم . ﴿ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ أظهرتم . والباء فى « بما » زائدة ؛ يقال : علمت كذا وعلمت بكذا . وقيل : وأنا أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ؛ فحذف من كل أحد . كما يقال : فلان أعلم وأفضل من غيره . وقال ابن عباس : وأنا أعلم بما أخفيتم فى صدوركم وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد . ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ ﴾ أى من يسرّ إليهم ويكاتبهم منكم . ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى أخطأ قصد الطريق .

قوله تعالى : إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يلقوكم ويصادفوكم ؛ ومنه المثاقفة ؛ أى طلب مصادفة الغرّة فى المسايفة وشبهها . وقيل : « يثقفوكم » يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم . ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ

(١) آية ٦٨ سورة الفرقان .

أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ» أى [أيديهم] بالضرب والقتل، وألسنتهم بالشتم . «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» بمحمد، فلا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم .

قوله تعالى : لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ» لما اعتذر حاطب بأن له أولادًا وأرحامًا فيما بينهم ، بيّن الرب عز وجل أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئًا يوم القيامة إن عُصِىَ من أجل ذلك . «يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ» فيُدْخِل المؤمنين الجنة و يدخل الكافرين النار . وفى «يفصل» قراءات سبع : قرأ عاصم «يَفْصِل» بفتح الياء وكسر الصاد مخففًا . وقرأ حمزة والكسائى «يُفَصِّل» بضم الياء وكسر الصاد مشددًا . وقرأ الحسن وابن عامر «يُفَصَّل» كذلك مشددًا إلا أنه على ما لم يسم فاعله . وقرأ طلحة والنَّخَعِىّ بالنون وكسر الصاد مشددة . وروى عن عَلْقَمة كذلك بالنون مخففة . وقرأ قتادة وأبو حَيْوَة «يُفْصِل» بضم الياء وكسر الصاد مخففة من أفصل . وقرأ الباقون «يُفْصَل» بياء مضمومة وتخفيف الفاء وفتح الصاد على الفعل المجهول ، واختاره أبو عبيد . فمن خفف فلقوله : «وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ» (١) وقوله : «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ» (٢) . ومن شدد فلأن ذلك أبين فى الفعل الكثير المكرر المتردد . ومن أتى به على ما لم يسم فاعله فلأن الفاعل معروف . ومن أتى به مُسَمَّى الفاعل ردّ الضمير إلى الله تعالى . ومن قرأ بالنون فعلى التعظيم . «وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» .

قوله تعالى : قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ

---

(١) آية ٥٧ سورة الأنعام . (٢) آية ٤٠ سورة الدخان .

وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ لما نهى عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وأن من سيرته التبرُّؤ من الكفار؛ أي فاقتدوا به وأْتَمُّوا ؛ إلا في استغفاره لأبيه . والإسْوَةُ والأُسْوَة ما يُتَأَسَّى به ، مثل القِدْوة والقُدْوة . ويقال : هو إسوتك ؛ أي مثلك وأنت مثله . وقرأ عاصم « أُسْوَة » بضم الهمزة . لغتان . ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ يعني أصحاب إبراهيم من المؤمنين . وقال ابن زيد : هم الأنبياء . ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ الكفار . ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي الأصنام . وبُرَآء جمع بريء؛ مثل شريك وشركاء ، وظريف وظرفاء . وقراءة العامة على وزن فُعَلاء . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق « بِرَاء » بكسر الباء على وزن فِعال ؛ مثل قَصير وقصار، وطَويل وطوال ، وظريف وظراف . ويجوز ترك الهمزة حتى تقول : بَرًا؛ وتنوّن . وقُرئ «بَرَاء» على الوصف بالمصدر . وقرئ «بُراء» على إبدال الضم من الكسر؛ كرُخال ورُباب[1] . والآية نصٌّ في الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في فعله . وذلك يصحّح أن شرع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا فيما أخبر الله ورسوله . ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي بما آمنتم به من الأوثان . وقيل : أي بأفعالكم وكذبناها وأنكرنا أن تكونوا على حق . ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ أي هذا دأبنا معكم مادمتم على كفركم . ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ فحينئذ تنقلب المعاداة موالاة . ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ فلا تتأسّوا به في الاستغفار فتستغفروا للمشركين ؛ فإنه كان عن

(١) رخال : جمع رخل ، الأنثى من أولاد الضأن . والرباب : جمع الربى ، الشاة التي وضعت حديثا . وقيل : إذا مات ولدها .

موعدة منه له ؛ قاله قتادة ومجاهد وغيرهما . وقيل : معنى الاستثناء أن إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا فى الاستغفار لأبيه ، ثم بيّن عذره فى سورة « التوبة »(1) .

وفى هذا دلالة على تفضيل نبيّنا عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء ؛ لأنا حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمرًا مطلقا فى قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا(2) » وحين أمرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثنى بعض أفعاله . وقيل : هو استثناء منقطع ؛ أى لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك، إنما جرى لأنه ظنّ أنه أسلم ، فلما بان له أنه لم يُسلم تبرّأ منه . وعلى هذا يجوز الاستغفار لمن يُظَنّ أنه أسلم؛ وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن، فلِمَ توالوهم . ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هذا من قول إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ أى ما أدفع عنك من عذاب الله شيئا إن أشركت به . ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ هذا من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه . وقيل : علّم المؤمنين أن يقولوا هذا . أى تبرءوا من الكفار وتوكّلوا على الله وقولوا : « رَبَّنَا عليكَ تَوَكَّلْنَا » أى اعتمدنا . ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ أى رجعنا . ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ لك الرجوع فى الآخرة . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى لا تُظهر عدوّنا علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك . وقيل : لا تسلّطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا . ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾ أى فى إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء . ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى فى التبرؤ من الكفار . وقيل : كرّر للتأكيد . وقيل : نزل الثانى بعد

(1) راجع ج ٨ ص ٢٧٤ (2) آية ٧ سورة الحشر .

الأوّل بمدة ، وما أكثر المكررات فى القرآن على هذا الوجه . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى عن الإسلام وقبول هـذه المواعظ . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ ﴾ أى لم يتعبّدهم لحاجته إليهم . ﴿ الحَمِيدُ ﴾ فى نفسه وصفاته . ولما نزلت عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين ؛ فعلم الله شدّة وجد المسلمين فى ذلك فنزلت ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ وهذا بأن يُسلم الكافر . وقد أسلم قوم منهم بعـد فتح مكة وخالطهم المسلمون ؛ كأبى سفيان بن حَرْب والحارث بن هشام وسُهيل بن عمـرو وحَكيم بن حِزام . وقيـل : المودّة تزويج النبىّ صلى الله عليـه وسلم أمّ حَبيبة بنت أبى سفيان ؛ فلانت عنـد ذلك عَريكة أبى سـفيان ، واسترخت شَكيمته فى العداوة . قال ابن عباس : كانت المودّة بعـد الفتح تزويج النبىّ صلى الله عليـه وسلم أمّ حبيبة بنت أبى سفيان ؛ وكانت تحت عبـد الله بن جَحْش ، وكانت هى وزوجها من مهاجرة الحبشة . فأمّا زوجها فتنصّر وسألها أن تتابعه على دينـه فأبت وصبرت على دينهـا ، ومات زوجها على النصرانيـة . فبعث النبىّ صلى الله عليـه وسلم إلى النجاشى فخطبها ؛ فقال النجاشى لأصحابه : من أولاكم بهـا ؟ قالوا : خالد بن سـعيد بن العاص . قال فزوّجها من نبيّكم . ففعل ؛ وأمهرها النجاشى من عنده أربعمائة دينار . وقيل : خطبها النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن عفّان ، فلما زوّجه إياها بعث إلى النجاشى فيها ؛ فساق عنه المهر وبعث بهـا إليه . فقال أبو سفيان وهو مشرك لمـا بلغه تزويج النبىّ صلى الله عليه وسلم ابنتـه : ذلك الفَحْل لا يُقْدَع أنْفُه . « يقدع » بالدال غير المعجمة ؛ يقال : هـذا فحل لا يقدع أنفه ؛ أى لا يضرب أنفه . وذلك إذا كان كريما .

قوله تعـالى : لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ هذه الآية رُخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم. قال ابن زيد : كان هـذا فى أوّل الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ . قال قتادة : نسختها «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» . وقيل: كان هذا الحكم لعلّة وهو الصلح ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم وبقى الرسم يُتْلَى . وقيـل : هى مخصوصة فى حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ومَنْ بينه و بينه عهد لم ينقضه؛ قاله الحسن. الكلبي : هم خُزَاعة و بنو الحارث بن عبـد مناف . وقاله أبو صالح ، وقال : هم خزاعة . وقال مجاهد : هى مخصوصة فى الذين آمنوا ولم يهاجروا . وقيـل : يعنى به النساء والصبيان لأنهم ممن لا يقـاتل ؛ فأذن الله فى برّهم . حكاه بعض المفسرين . وقال أكثر أهل التـأويل : هى محكمة . واحتجوا بأن أسمـاء بنت أبى بكر سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل تَصِـلُ أُمّها حين قدِمت عليها مشركة ؟ قال : "نعم" خرّجه البخارى ومسلم . وقيل : إن الآية فيهـا نزلت . روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيـه أن أبا بكر الصديق طلّق امرأته قُتَيـلة فى الجاهليـة ، وهى أم أسماء بنت أبى بكر ، فقدمت عليهم فى المدة التى كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلّى الله عليه وسلم و بين كفار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبى بكر الصديق قُرْطا وأشياء، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فأنزل الله تعالى: « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ» . ذكر هذا الخبر المـاوَرْدِيّ وغيره، وخرجه أبو داود الطَّيَالسى فى مسنده .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ « أن » فى موضع خفض على البـدل من « الذين »؛ أى لا ينهاكم الله عن أن تَبَرّوا الذين لم يقاتلوكم . وهم خُزاعة، صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليـه أحدا؛ فأمر ببرّهم والوفاء لهم إلى أجلهم؛ حكاه الفرّاء . ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى تعطوهم قسطًا من أموالكم على وجه الصّـلة . وليس يريد به من العدل؛ فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل؛ قاله ابن العربى .

الثالثــة — قال القاضي أبو بكر في كتاب الأحكام له : « استدل به بعض من تعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر . وهذه وهلة عظيمة، إذ الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه لا يدلّ على وجوبه ، وإنما يعطيك الإباحة خاصة . وقد بيّنا أن إسماعيل بن إسحاق القاضي دخل عليه ذمّي فأكرمه ، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك؛ فتلا هذه الآية عليهم » .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي جاهدوكم على الدين ﴿ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ وهم عُتاة أهل مكة . ﴿ وَظَاهَرُوا ﴾ أي عاونوا على إخراجكم وهم مشركو أهل مكة . ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ « أنْ » في موضع جرّ على البدل على ما تقدّم في « أنْ تبرّوهم » . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ ﴾ أي يتخذهم أولياء وأنصارًا وأحبابا ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام ، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة ؛ فبيّن أحكام مهاجرة النساء . قال ابن عباس : جرى الصلح مع مشركي قريش عام الحُدَيْبِيَة ، على أن من أتاه من أهل مكة ردّه إليهم ؛ فجاءت سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعدُ ؛ فأقبل زوجها وكان كافرا — وهو صَيْفِيّ بن الراهب . وقيل : مسافر المخزومي — فقال : يا محمد ، اردد عليّ امرأتي فإنك شرطت ذلك ! وهذه طِينة الكتاب لم تَجِفّ بعدُ ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل : جاءت أم كُلْثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيْط ، فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردّها . وقيل : هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد ، فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أَخَوَيْها وحبسها ؛ فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ردّها علينا للشرط ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : "كان الشرط في الرجال لا في النساء" فأنزل الله تعالى هذه الآية . وعن عُرْوَة قال : كان مما اشترط سُهيل بن عمرو على النبيّ صلى الله عليه وسلم يومَ الحُدَيْبِيَة : ألّا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ؛ حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل ، يومئ إلى أن الشرط في ردّ النساء نُسخ بذلك . وقيل : إن التي جاءت أُمَيْمَة بنت بِشر ، كانت عند ثابت بن الشِّمْراخ ففرّت منه وهو يومئذ كافر ، فتزوّجها سَهْل بن حُنيف فولدت له عبد الله ؛ قاله زيد بن حبيب . كذا قال الماورديّ : أميمة بنت بشر كانت عند ثابت بن الشِّمْراخ . وقال المهدويّ : وروى ابن وهب عن خالد أن هذه الآية نزلت في أُمَيْمَة بنت بشر من بني عمرو بن عوف . وهي امرأة حسان بن الدَّحدَاح ، وتزوّجها بعد هجرتها سَهل بن حُنيف . وقال مقاتل : إنها سُبَيْعة زوجة صَيْفِي بن الراهب مشرك من أهل مكة . والأكثر من أهل العلم أنها أم كلثوم بنت عقبة .

الثانيــة — واختلف أهل العلم هل دخل النساء فى عقد المهادنة لفظًا أو عموما ؛ فقالت طائفة منهـم : قد كان شرط ردّهن فى عقد المهادنة لفظًا صريحًا فنسخ الله ردّهن من العقد ومنع منه ، وبقّاه فى الرجال على ما كان . وهـذا يدلّ على أن للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يجتهد رأيه[1] فى الأحكام ، ولكن لا يقرّه الله على خطأ . وقالت طائفة من أهـل العلم : لم يشترط ردّهن فى العقد لفظا ، وإنما أطلق العقد فى ردّ من أسـلم ؛ فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال . فبيّن الله تعـالى خروجهنّ عن عمومه . وفرّق بينهنّ وبين الرجال لأمرين : أحدهما — أنهنّ ذوات فروج يحرمن عليهم . الثانى — أنهنّ أرقّ قلوبًا وأسرع تقلّبًا منهم . فأما المقيمة منهنّ على شركها فمردودة عليهم .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ قيل : إنه كان من أرادت منهنّ إضرار زوجها قالت : سأهاجر إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ فلذلك أمر صلى الله عليه وسلم بٱمتحانهنّ . وٱختلف فيما كان يمتحنهنّ به على ثلاثة أقوال :

الأوّل — قال ٱبن عبـاس : كانت المحنة أن تُستحلف بالله أنهـا ما خرجت من بغض زوجها ، ولا رغبةً من أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، ولا عشقًا لرجل منّا ؛ بل حُبًّا لله ولرسوله . فإذا حلفت بالله الذى لا إله إلا هو على ذلك ، أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها ؛ فذلك قوله تعالى : « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ »

الثـانى — أن المحنة كانت أن تشهد أنـ لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؛ قاله ابن عباس أيضا .

الثـالث — بما بيّنه فى السورة بعدُ من قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ » قالت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحن إلّا بالآية التى قال الله : « إذا جاءك المؤمناتُ يُبَايِعْنَكَ » رواه مَعْمَر عن الزُّهْرى عن عائشة . خرّجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

---

(١) الاجتهاد : بذل الوسع فى طلب الأمر .

الرابعــــة ــ أكثر العلمــاء على أن هذا ناسخ لمــا كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشا ، من أنه يردّ إليهم من جاءه منهم مسلمًا؛ فنُسخ من ذلك النساء . وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن . وقال بعض العلماء : كله منسوخ فى الرجال والنساء ، ولا يجوز أن يهادن الإمامُ العدوّ على أن يردّ إليهم من جاءه مسلما ؛ لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز . وهذا مذهب الكوفيين . وعقــد الصلح على ذلك جائز عند مالك . وقــد احتج الكوفيون لمــا ذهبوا إليــه من ذلك بحديث إسماعيــل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن خالد بن الوليــد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى قوم من خَثْعَم فاعتصموا بالسجود فقتلهم، فَوَداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف الدِّية ؛ وقال : " أنا برىء من كل مسلم أقام مع مشرك فى دار الحرب لا تَرَاءَى نارُهما " قالوا : فهذا ناسخ لردّ المسلمين إلى المشركين؛ إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد برئ ممن أقام معهم فى دار الحرب. ومذهب مالك والشافعى أن هــذا الحكم غير منسوخ . قال الشــافعىّ : وليس لأحد هــذا العقد إلا الخليفة أو رجل بأمره ، لأنه يَلِى الأموال كلها . فمن عقد غير الخليفة هــذا العقد فهو مردود .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ أى هذا الامتحان لكم، والله أعلم بإيمانهن ؛ لأنه متولّى السرائر. ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ أى بما يظهرن من الإيمــان . وقيل : إن علمتموهنّ مؤمنات قبــل الامتحان . ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ أى لم يُحلّ الله مؤمنةً لكافر ، ولا نكاح مؤمن لمشركة .

وهــذا أدلّ دليل على أن الذى أوجب فرقةَ المسلمة من زوجها إســلامُها لا هجرتها . وقال أبو حنيفة : الذى فرّق بينهما هو اختلاف الدارين . و إليه إشــارة فى مذهب مالك

---

(١) الأصل فى « ترَاءَى » تتراءى . والترائى تفاعل من الرؤية ؛ يقال : تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضا . و إسناد الترائى إلى النارين مجاز . أى يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموضع الذى إذا أوقدت فيــه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها فى منزله . ولكنه ينزل مع المسلمين فى دارهــم . إنما كره مجاورة المشركين لأنهم لاعهد لهم ولا أمان . وحث المسلمين على الهجرة . (عن نهاية ابن الأثير) .

بل عبارة . والصحيح الأوّل ؛ لأن الله تعالى قال : « لا هُنّ حِلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّون لهن » فبيّن أن العلة عدم الحِلّ بالإسلام وليس باختلاف الدار . والله أعلم . وقال أبو عمر : لا فرق بين الدارين لا فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى القياس ، وإنما المراعاة فى ذلك الدينان ؛ فباختلافهما يقع الحكم وباجتماعهما ؛ لا بالدار . والله المستعان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ أمر الله تعالى إذا أمسكت المرأة المسلمة أن يُرَدّ على زوجها ما أنفق ، وذلك من الوفاء بالعهد ؛ لأنه لما مُنع من أهله بحرمة الإسلام، أمر برد المال [إليه] حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة والمال .

السابعة — ولا غُرْم إلا إذا طالب الزوج الكافر ؛ فإذا حضر وطالب منعناها وغَرِمنا . فإن كانت ماتت قبل حضور الزوج لم نَغْرَم المهر إذ لم يتحقق المنع . وإن كان المسمّى خمراً أو خنزيرا لم نَغْرَم شيئا ؛ لأنه لا قيمة له . وللشافعيّ فى هذه الآية قولان : أحدهما — أن هذا منسوخ . قال الشافعيّ : وإذا جاءتنا المرأة الحُرّة من أهل الهُدْنة مسلمةً مهاجِرةً من دار الحرب إلى الإمام فى دار السلام أو فى دار الحرب ، فمن طلبها من وَلِيٍّ سوَى زوجها مُنع منها بلا عِوَض . وإذا طلبها زوجها لنفسه أو غيره بوكالته ففيه قولان : أحدهما — يعطى العوض ؛ والقول ما قال الله عز وجل . وفيه قول آخر — أنه لا يعطى الزوج المشرك الذى جاءت زوجته مسلمةً العوَض . [فإن شرط الإمامُ ردّ النساء كان الشرط ورسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يردّ النساء كان شرط من شرط ردّ النساء منسوخا وليس عليه عِوض ؛ لأن الشرط المنسوخ باطل ولا عوض للباطل] (1) .

---

(1) ما بين المربعين هكذا ورد فى جميع نسخ الأصل ، وهو مضطرب . وقد نقل المؤلف رحمه الله هذه المسألة من كتاب الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس ونصها فيه : وإن شرط الامام رد النساء كان الشرط منتقضا . ومن قال هذا قال : ان شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الحديبية فيه أن يرد من جاء منهم ، وكان النساء منهم كان شرطا صحيحا ؛ فنسخه الله ورد العوض ، فلما قضى الله عز وجل ثم رسوله صلى الله عليه وسلم الا يرد النساء كان شرط من شرط رد النساء منسوخا وليس عليه أن يعوض ؛ لأن شرطه المنسوخ باطل ولا عوض للباطل » .

الثامنــة ـ أمر الله تعالى بردّ مثل ما أنفقوا إلى الأزواج، وأن المخاطب بهذا الإمامُ، ينفذ مما بين يديه من بيت المال الذى لا يتعين له مصرف . وقال مقاتل : يردّ المهر الذى يتزوجها من المسلمين ، فإن لم يتزوجها من المسلمين أحد فليس لزوجها الكافر شىء . وقال قتادة : الحكم فى ردّ الصداق إنما هو فى نساء أهل العهد ؛ فأما من لا عهد بينه و بين المسلمين فلا يرد إليهم الصداق . والأمر كما قاله .

التاسعة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ يعنى إذا أسلمن وانقضت عدتهن ؛ لما ثبت من [تحريم] نكاح المشركة والمعتدة . فإن أسلمت قبل الدخول ، ثبت النكاح فى الحال ولها التزوّج .

العاشرة ـ قوله تعالى : ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أباح نكاحها بشرط المهر؛ لأن الإسلام فرّق بينها و بين زوجها الكافر .

الحادية عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من الإمساك . وهو اختيار أبى عبيد ؛ لقوله تعالى : « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » . وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو « ولا تُمَسِّكُوا » مشددة من التمسك . يقال : مَسَّك يمسِّك تمسُّكًا ؛ بمعنى أمسك يمسك . وقرئ « ولا تَمَسَّكوا » بنصب التاء؛ أى لا تتمسكوا . والعِصَم جمع العِصْمة ؛ وهو ما اعتصم به . والمراد بالعصمة هنا النكاح . يقول : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها ، فليست له امرأة ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين . وعن النَّخَعى : هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر؛ وكان الكفار يتزوجون المسلمات والمسلمون يتزوجون المشركات؛ ثم نسخ ذلك فى هذه الآية . فطلق عمر بن الخطاب حينئذ امرأتين له بمكة مشركتين : قُرَيبة بنت أبى أمية فتزوجها معاوية بن أبى سفيان وهما على شركهما بمكة . وأم كُلْثوم بنت عمرو الخُزَاعيّة أم عبد الله بن المغيرة ؛ فتزوجها أبو جهم بن حُذافة وهما على شركهما . فلما وَلِيَ عمر قال أبو سفيان لمعاوية : طلّق قُرَيبة لئلا يرى عمر سَلَبه فى بيتك ؛ فأبى معاوية من ذلك . وكانت عند طلحة بن عبيد الله أَرْوَى

بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق الإسلام بينهما ، ثم تزوجها فى الإسلام خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت ممن فرّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار ، فحبسها و زوّجها خالدا . و زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب ابنته — وكانت كافرة — من أبى العاص بن الربيع ، ثم أسلمت وأسلم زوجها بعدها . ذكر عبد الرزاق عن ابن جُريج عن رجل عن ابن شهاب قال : أسلمت زينب بنت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهاجرت بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الهجرة الأولى ، وزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى مشرك بمكة . الحديث ؛ وفيه : أنه أسلم بعدها . وكذلك قال الشعبى . قال الشَّعْبِيّ : وكانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم آمرأة أبى العاص بن الربيع ، فأسلمت ثم لحقت بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى زوجها المدينة فأمّنته فأسلم فردّها عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أبو داود عن عكرمة عن ابن عباس : بالنكاح الأوّل ؛ ولم يحدث شيئا . قال محمد بن عمر فى حديثه : بعد ست سنين . وقال الحسن بن علىّ : بعد سنتين . قال أبو عمر : فإن صح هذا فلا يخلو من وجهين : إما أنها لم تحض حتى أسلم زوجها، و إما أن الأمر فيها منسوخ بقول الله عز وجل: «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ» يعنى فى عدّتهن . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء أنه عنى به العدّة . وقال ابن شهاب الزهرى رحمه الله فى قصة زينب هذه : كان قبل أن تنزل الفرائض . وقال قتادة : كان هذا قبل أن تنزل سورة « براءة » بقطع العهود بينهم وبين المشركين . والله أعلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ المراد بالكوافر هنا عَبَدة الأوثان من لا يجوز ابتداء نكاحها، فهى خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب . وقيل : هى عامة ؛ نسخ منها نساء أهل الكتاب . ولو كان إلى ظاهر الآية لم تحل كافرة بوجه . وعلى القول الأول إذا أسلم وَثَنِيّ أو مجوسيّ ولم تُسلم امرأته فرّق بينهما . وهذا قول بعض أهل العلم . ومنهم من قال : ينتظر بها تمام العدة . فمن قال يفرق بينهما فى الوقت ولا ينتظر تمام العدة إذا عرض عليها الإسلام ولم تسلم مالكُ بن أنس . وهو قول الحسن وطاوس ومجاهد وعطاء

وعكرمة وقتادة والحَكَم، واحتجوا بقوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » . وقال الزهرى : ينتظر بها العدّة . وهو قول الشافعى وأحمد . واحتجوا بأن أبا سفيان بن حرب أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته، وكان إسلامه بمَرّ الظَّهران[1] ثم رجع إلى مكة وهندٌ بها كافرة مقيمة على كفرها؛ فأخذت بلحيته وقالت : اقتلوا الشيخ الضال . ثم أسلمت بعده بأيام؛ فاستقرا على نكاحهما لأن عدتها لم تكن انقضت . قالوا : ومثله حَكيم بن حِزام أسلم قبل امرأته، ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما. قال الشافعى: ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى: «ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافِرِ» لأن نساء المسلمين محرمات على الكفار؛ كما أن المسلمين لا تحل لهم الكوافر والوثنيات ولا المجوسيات بقول الله عز وجل : « لا هنّ حِلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّونَ لَهُنّ » ثم بيّنت السنة أن مراد الله من قوله هذا أنه لا يحل بعضهم لبعض إلا أن يسلم الباقى منهما فى العدة . وأما الكوفيون وهم سفيان وأبو حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا فى الكافرَيْن الذّميَّيْن : إذا أسلمت المرأة عُرِض على الزوج الإسلام ، فإن أسلم وإلا فُرّق بينهما . قالوا : ولو كانا حربيين فهى امرأته حتى تحيض ثلاث حيض إذا كانا جميعا فى دار الحرب أو فى دار الإسلام . وإن كان أحدهما فى دار الإسلام والآخر فى دار الحرب انقطعت العصمة بينهما؛ فراعوا الدار؛ وليس بشىء . وقد تقدم .

الثالثة عشرة — هذا الاختلاف إنما هو فى المدخول بها ، فإن كانت غير مدخول بها فلا نعلم اختلافا فى انقطاع العصمة بينهما؛ إذ لا عِدّةَ عليها . وكذا يقول مالك فى المرأة ترتد وزوجها مسلم : انقطعت العصمة بينهما . وحجته « ولا تُمْسِكوا بعصم الكوافِر» وهو قول الحسن البصرى والحسن بن صالح بن حَىّ. ومذهب الشافعى وأحمد أنه ينتظر بها تمام العدة .

الرابعة عشرة — فإن كان الزوجان نصرانيين فأسلمت الزوجة ففيها أيضا اختلاف . ومذهب مالك وأحمد والشافعى الوقوف إلى تمام العدة، وهو قول مجاهد، وكذا الوثنىّ تُسلم زوجته، إنه إن أسلم فى عدتها فهو أحق بها ؛ كما كان صَفْوان بن أُمَيّة وعِكْرِمة بن أبى جهل

(١) مر الظهران : قرية قرب مكة .

أحق بزوجتيهما لما أسلما في عدّتيهما ؛ على حديث ابن شهاب . ذكره مالك في الموطّأ .
قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوان وبين إسلام زوجته نحو من شهر. قال ابن شهاب : ولم يبلغنا أن امرأة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها كافر مقيم بدار الحرب إلا فرقت هجرتها بينه وبينها؛ إلا أن يقدَم زوجها مهاجراً قبل أن تنقضى عدتها . ومن العلماء من قال : ينفسخ النكاح بينهما . قال يزيد بن علقمة : أسلم جدّى ولم تُسلم جدّتى ففرّق عمر بينهما رضى الله عنه ؛ وهو قول طاوس . وجماعة غيره منهم عطاء والحسن وعكرمة قالوا : لا سبيل عليها إلا بخطبة .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ قال المفسرون : كان مَن ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها . ويقال للسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة : ردّوا إلى الكفار مهرها . وكان ذلك نَصَفًا وعَدْلًا بين الحالتين . وكان هذا حكم الله مخصوصا بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة ؛ قاله ابن العربي .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ (١) أى ما ذُكر فى هذه الآية . ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ فى الخبر : أن المسلمين قالوا : رضينا بما حكم الله ؛ وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت « وإنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِن

---

١) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا » . وروى الزهرىّ عن عُروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : حكم الله عز وجل بينكم فقال جل ثناؤه : « وَآسألوا ما أنفقتم وليَسْألُوا ما أنفقوا » فكتب إليهم المسلمون : قد حكم الله عز وجل بيننا بأنه إن جاءتكم امرأة منّا أن توجّهوا إلينا بصداقها ، وإن جاءتنا امرأة منكم وجّهنا إليكم بصداقها . فكتبوا إليهم : أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئا ، فإن كان لنا عندكم شىء فوجّهوا به ؛ فأنزل الله عز وجل « وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا » . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » أى بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة يرد بعضهم إلى بعض . قال الزهرىّ : ولولا العهد لأمسك النساء ولم يردّ إليهم صداقا . وقال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفَىْء والغَنيمة . وقالا : هى فيمن بيننا و بينه عهد وليس بيننا و بينه عهد . وقالا : ومعنى « فعاقبتم » فاقتصصتم . ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى الصدُقات . فهى عامة فى جميع الكفار . وقال قتادة أيضا : وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار الذين[1] بينكم و بينهم عهد ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا . ثم نُسخ هذا فى سورة « براءة » . وقال الزهرىّ : انقطع هذا عام الفتح . وقال سفيان الثورىّ : لا يعمل به اليوم . وقال قوم : هو ثابت الحكم الآن أيضا . حكاه القُشَيْرىّ .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ قراءة العامة « فعاقبتم » . وقرأ علْقمة والنَّخَعىّ وحُميد والأعرج « فعقّبتم » مشدّدة . وقرأ مجاهد « فأعقبتم » وقال : صنعتم كما صنعوا بكم . وقرأ الزهرىّ « فعقَبتم » خفيفة بغير ألف . وقرأ مسروق وشَقيق بن سَلَمة « فعقِبتم » بكسر القاف خفيفة . وقال : غنمتم . وكلها لغات بمعنًى واحد . يقـال : عاقب وعَقَب وعقّب وأعقب وتعقّب واعتقب وتعاقب إذا غنم . وقال القتبىّ « فعاقبتم » فغزوتم معاقبين غزوًا بعد غَزْو . وقال ابن بحر : أى فعاقبتم المرتدة بالقتل فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين .

(١) فى بعض نسخ الأصل : « إلى الكفار الذين ليس بينكم و بينهم عهد » بزيادة « ليس » .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ قال ابن عباس: يقول إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة، وليس بينكم وبينهم عهد، ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم، فأعطوا هذا الزوجَ المسلمَ مهره من الغنيمة قبل أن تُخَمَّس. وقال الزهريّ: يعطى من مال الفيء. وعنه يعطى من صداق من لحق بنا. وقيل: أي إن امتنعوا من أن يَغْرَمُوا مهر هذه المرأة التي ذهبت إليهم، فأنبذوا العهد إليهم حتى إذا ظفرتم فخذوا ذلك منهم. قال الأعمش: هي منسوخة. وقال عطاء: بل حكمها ثابت. وقد تقدم جميع هذا. القُشيريّ: والآية نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان، ارتدت وتركت زوجها عِيَاض ابن غَنْم القرشي، ولم ترتدّ امرأة من قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام. وحكى الثعلبي عن ابن عباس: هن ست نسوة رجعن عن الإسلام ولَحِقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين: أمّ الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن أبي شدّاد الفهري[1]. وفاطمة بنت أبي أُمَيّة بن المُغيرة أخت أم سلمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب، فلما هاجر عمرُ أبَتْ وارتدت. وبَرْوَع بنت عقبة، كانت تحت شَمّاس بن عثمان. وعبدة بنت عبد العُزّى، كانت تحت هشام بن العاص. و[أم] كلثوم بنت جَرْوَل، تحت عمر بن الخطاب. وشهبة بنت غَيْلان. فأعطاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ احذروا أن تتعدّوا ما أمرتم به.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

---

(١) هو عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد القرشي الفهري.

الأولى ـــ لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه، فأمر أن يأخذ عليهن ألا يُشركن . وفى صحيح مسلم عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُمتَحَنّ بقول الله تعالى : « يأيها النَّبِيُّ إذا جاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ » إلى آخر الآية . قالت عائشة : فمن أقرّ بهذا من المؤمنات فقد أقرّ بالمِحْنَة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انطلقن فقد بايعتكن" ولا والله ما مَسّتْ يدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدَ امرأة قطُّ ، غير أنه بايعهن بالكلام . قالت عائشة : والله ، ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قطّ إلا بما أمره الله عز وجل ، وما مسّتْ كَفُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كفَّ امرأة قطّ ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن "قد بايَعْتُكُنّ كلاما" . وروى أنه عليه الصلاة والسلام بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب ، وكان يشترط عليهن . وقيل : لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصّفَا ومعه عمرُ أسفل منه ، فجعل يشترط على النساء البَيْعة وعمر يصافحهن . ورُوى أنه كلّف امرأة وقفت على الصّفَا فبايعتهن . ابن العربى : وذلك ضعيف ، وإنما ينبغى التعويل على ما فى الصحيح . وقالت أمّ عَطِيّة : لما قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت ، ثم أرسل إلينا عمرَ بن الخطاب ، فقام على الباب فسلّم فردَدْن عليه السلام ، فقال : أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليكنّ ؛ ألّا تشركن بالله شيئا . فقلن نعم . فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ، ثم قال : اللّهُمّ اشهد . ورَوَى عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا بايع النساء دَعَا بقدح من ماء ، فغمس يده فيه ثم أمر النساء فغمسن أيديهن فيه .

الثانيـــة ـــ رُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قال : "على ألّا يُشْرِكْنَ بالله شيئا" قالت هنْد بنت عُتْبة وهى مُنْتَقِبة خوفاً من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعته بحَمْزَةَ يومَ أُحُد : والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيتك أخذته على الرجال ـــ وكان بايع الرجال

يومئذ على الإسلام والجهاد فقط — فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولا يسْرِقن" فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شَحيح وإنى أصيب من ماله قُوتَنَا . فقال أبو سفيان : هو لك حلال . فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم وعَرَفها وقال : "أنت هند"؟ فقالت : عفا الله عما سلف . ثم قال : "ولا يزنين" فقالت هند : أوَ تَزْنِى الحُرّة ! ثم قال : "ولا يقتلن أولادهن" أى لا يَئِدْنَ المَوْءُودَات ولا يُسقطن الأجنّة . فقالت هند : رَبّيناهم صغارا وقتلتهم كبارًا يوم بدر، فأنتم وهم أبصر . وروى مقاتل أنها قالت : رَبّيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا، وأنتم وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى . وكان حَنْظلة بن أبى سفيان وهو بكْرُها قُتل يوم بَدْر . ثم قال: «وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ» . قيل : معنى «بَيْنَ أَيْدِيهِنّ» ألسنتهنّ بالنّميمة . ومعنى بين «أَرْجُلِهِنّ» فروجهن . وقيل : ما كان بين أيديهن من قُبْلة أوجَسّة، وبين أرجلهن الجماع . وقيل: المعنى لا يُلْحقن برجالهن ولدًا من غيرهم . وهذا قول الجمهور . وكانت المرأة تلتقط ولدًا فتُلْحقه بزوجها وتقول : هذا ولدى منك . فكان هذا من البهتان والافتراء . وقيل : مابين يديها ورجليها كناية عن الولد؛ لأن بطنها الذى تحمل فيه الولد بين يديها، وفَرْجها الذى تلد منه بين رجليها . وهذا عامٌّ فى الإتيان بولد وإلحاقه بالزوج وإن سبق النهى عن الزنى . وروى أن هندًا لما سمعت ذلك قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ؛ ما تأمر إلا بالأرشد ومكارم الأخلاق ! . ثم قال : ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ قال قتادة : لا يَنُحْنَ . ولا تخلُو امرأة منهنّ إلا بذى مَحْرَم . وقال سعيد بن المُسَيّب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم: هو ألّا يَخْمِشْنَ وجهًا، ولا يَشْقُقْن جَيْبًا، ولا يَدْعُون وَيْلًا ولا يَنْشُرْن شعرًا ولا يحدّثن الرجال إلا ذا مَحْرَم . وروت أم عطية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ذلك فى النَّوْح . وهو قول ابن عباس . وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أمّ سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «ولا يعصينك فى معروف» فقال : "هو النوح" . وقال مصعب بن نوح : أدركت عجوزا ممن بايع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فحدّثتنى عنه عليه الصلاة والسلام فى قوله «ولا يعصينك فى معروف» فقال :

" النوح " . وفى صحيح مسلم عن أم عطية لما نزلت هـذه الآية «يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ـ الى قوله ـ ولا يعصينك فى معروف» قال : "كان منـه النياحة" قالت : فقلت يارسول الله، إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدونى فى الجاهلية؛ فلا بد لى من أن أسعدهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إلا آل فلان " . وعنها قالت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع البيعة ألا ننوح؛ فما وفت منا امرأة إلا خمس : أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبى سبرة امرأة معاذ أو ابنة أبى سبرة، وامرأة معاذ . وقيل : إن المعروف هاهنا الطاعة لله ولرسوله؛ قاله ميمون بن مهران . وقال بكر بن عبد الله المزنى : لا يعصينك فى كل أمر فيه رشدهن . الكلبى : هو عام فى كل معروف أمر الله عز وجل ورسوله به . فروى أن هندا قالت عند ذلك : ماجلسنا فى مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء .

الثالثـة ـ ذكر الله عز وجل ورسـوله عليه الصلاة والسلام فى صفة البيعة خصالا شتى، صرح فيهن بأركان النهى فى الدين ولم يذكر أركان الأمر . وهى ستة أيضا : الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والاغتسال من الجنابة . وذلك لأن النهى دائم فى كل الأزمان وكل الأحوال؛ فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد . وقيل : إن هذه المناهى كان فى النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهن عنها شرف النسب، فخصت بالذكر لهذا . ونحو منه قوله عليه الصلاة والسلام لوفد عبد القيس : " وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت"[1] فنبههم على ترك المعصية فى شرب الخمـر دون سائر المعاصى؛ لأنها كانت شهوتهم وعادتهم؛ وإذا ترك المرء شهوته من المعاصى هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها .

(١) الدباء : هو القرع اليابس . والحنتم : الجـرة . والنقير : أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء . والمزفت : الإناء الذى طلى بالزفت . قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية : « عن أبى بكرة قال : أما الدباء فان أهل الطائف كانوا يأخذون القرع فيخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت . وأما النقير فان أهل اليمـامة كانوا ينقرون أصـل النخلة ثم ينبذون الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهـدر ثم يموت . وأما الحنتم بجرار كانت تحمل إلينا فيها الخمر . وأما المزفت فهى الأوعية التى فيها الزفت... ومعنى النهى عن الانتباذ فى هذه الأوعية بخصوصها لأنه يسرع إليها الإسكار؛ فربما يشرب منها من لا يشعر بذلك . ثم ثبتت الرخصة فى الانتباذ فى كل وعاء مع النهى عن شرب كل مسكر» .

الرابعــة — لمـا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في البَيْعة : "ولا يَسْرِقن" قالت هند : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل مَسِيك فهل عليّ حرج أن آخذ مايكفيني وولدى ؟ قال : " لا إلاّ بالمعروف " فخشيتْ هند أن تقتصر على ما يعطيها فتضيع ، أو تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة . فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا " أى لاحرج عليك فيما أخذت بالمعروف ؛ يعني من غير استطالة الى أكثر من الحاجة . قال ابن العربيّ : وهذا إنمـا هو فيما لا يَخْزُنه عنها فى حجاب ولا يضبط عليـه بقُفْل ؛ فإنه إذا هتكته الزوجة وأخذت منه كانت سارقة تعصى به وتقطع يدها .

الخامســة — قال عُبَادة بن الصّامت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء ؛ ألّا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا يَعْضَهْ بعضُكم بعضًا ولا تَعْصُوا فى معروف أمركم به " . معنى « يَعْضَهْ » يسحر . والعَضْهُ : السحر . ولهذا قال ابن بحر وغيره فى قوله تعالى : «وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ» إنه السحر . وقال الضحاك : هذا نهى عن البهتان؛ أى لا يَعْضَهْن رجلا ولا امرأة . ﴿ بِبُهْتَانٍ ﴾ أى بسحر . والله أعلم. ﴿ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ والجمهور على أن معنى « ببهتان » بولد . « يفترينه بين أيديهن » ما أخذْنَه لقيطًا . « وأرجلهن » ما ولدته من زنًى . وقد تقدّم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فى البخارى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ولا يعصينك فى معروف » قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء. واختلف فى معناه على ما ذكرنا . والصحيح أنه عام فى جميع ما يأمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم و ينهى عنه ؛ فيدخل فيه النَّوْح وتخريق الثياب وجَزّ الشعر والخَلْوة بغير مَحْرَم إلى غير ذلك . وهذه كلها كبائر ومن أفعال الجاهلية . وفى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشعرىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أربع فى أمّتى من أمر الجاهلية " فذكر منهـا النياحة . وروى يحيى بن أبى كَثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذه النوائح يُجعلن يوم القيـامة صفّين صفًّا عن اليمين وصفًّا عن اليسار ينبحن كما تنبح الكلاب فى يوم

كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يؤمر بهن إلى النار " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصلّي الملائكة على نائحة ولا مُرِنّة"[1] . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع نائحة فأتاها فضربها بالدِّرّة حتى وقع خمارها عن رأسها . فقيل : يا أمير المؤمنين، المرأةَ المرأةَ ! قد وقع خمارها . فقال : إنها لا حُرْمة لها . أسند جميعه الثعلبيّ رحمه الله . أما تخصيص قوله : « في معروف » مع قوة قوله : « ولا يَعْصِينك » ففيه قولان :

أحدهما — أنه تفسير للمعنى على التأكيد؛ كما قال تعالى : « قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ »[2] لأنه لو قال احكم لكفى . الثاني — إنما شرط المعروف في بَيْعة النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يكون تنبيها على أن غيره أَوْلَى بذلك وألزم له وأنفى للإشكال .

السابعة — روى البخاريّ عن عُبادة بن الصّامت قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا" قرأ آية النساء . وأكثر لفظ سفيان قرأ في الآية "فمن وَفَى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها" . وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان ؛ فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب ؛ فنزل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فكأني أنظر إليه حين يُجَلِّس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : " « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إذا جاءك المؤمناتُ يُبَايِعْنَكَ على ألَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شيئا ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أولادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أيديهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ » — حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ — : أَنْتُنَّ على ذلك" ؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله؛ لا يَدْرِي الحسن[3] من هي . قال: "فتصدّقن" وبسط بلال ثوبه فجعلن يُلقين الفَتَخ[4] والخواتيم في ثوب بلال . لفظ البخاريّ .

---

(١) الإرنان : الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء ؛ يقال : رنت المرأة ترن رنينا ، وأرنت ، صاحت . (٢) آخر سورة الأنبياء . (٣) هو الحسن بن مسلم راوي الحديث .

(٤) الفتخ (بفتحات وآخره خاء معجمة) : الخواتيم العظام ؛ أو حلق من فضة لا فص فيها .

الثامنة — قال المهدوى: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا؛ والأمر بذلك ندب لا إلزام . وقال بعض أهل النظر : إذا ٱحتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يعنى اليهود. وذلك أن ناسا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين و يواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم فنُهوا عن ذلك . ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ﴾ يعنى اليهود ؛ قاله ابن زيد . وقيل : هم المنافقون. وقال الحسن : هم اليهود والنصارى . قال ٱبن مسعود : معناه أنهم تركوا العمل للآخرة وآثروا الدنيا . وقيل : المعنى يئسوا من ثواب الآخرة ؛ قاله مجاهد . ومعنى ﴿ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ ﴾ أى الأحياء من الكفار . ﴿مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ﴾ أن يرجعوا إليهم ؛ قاله الحسن وقتادة . قال ابن عرفة : وهم الذين قالوا : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ »[1] . وقال مجاهد : المعنى كما يئس الكفار الذين فى القبور أن يرجعوا إلى الدنيا . وقيل : إن الله تعالى ختم السورة بما بدأها من ترك موالاة الكفار؛ وهى خطاب لحاطب بن أبى بَلْتَعَة وغيره . قال ٱبن عباس : « يأيها الذين آمنوا لا تَتَوَلَّوْا » أى لا توالوهم ولا تناصحوهم ؛ رجع تعالى بطَوْله وفضله على حاطب بن أبى بلتعة . يريد أن كفار قريش قد يئسوا من خير الآخرة كما يئس الكفار المقبورون من حظ يكون لهم فى الآخرة من رحمة الله تعالى . وقال القاسم بن أبى بَزّة فى قوله تعالى « قد يَئِسُوا من الآخرة كما يَئِس الكفارُ من أصحاب القُبُورِ » قال : من مات من الكفار يئس من الخير . والله أعلم .

---

(١) آية ٢٤ سورة الجاثية .

ســـورة الصــف

مدنية فى قول الجميع ؛ فيما ذكر المـاوردى . وقيل : إنها مكيّـة ؛ ذكره النحاس عن ابن عباس . وهى أربع عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)

تقــدّم[1] .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ روى الدارمىّ أبو محمد فى مسنده أخبرنا محمد بن كثير عن الاوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عبد الله بن سَلَام قال : قَعَدْنَا نَفَرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أىّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناه ؛ فأنزل الله تعالى « سَبَّحَ لِلَّهِ ما فى السّـمواتِ وما فى الأرض وهو العزيزُ الحكيمُ . يَأَيُّهَا الَّذين آمنوا لِمَ تقولون مَالَا تَفْعَلُونَ » حتى ختمها . قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها . قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سَلَام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سـلمة وقرأها علينا يحيى وقرأها علينا الأوزاعى وقرأها علينا محمد[2] . وقال ابن عباس قال عبد الله بن رَوَاحة : لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٣٥ (٢) هذا الحديث كما ورد فى مسند الدارمى . وقد ذكر فى الأصول مضطربا .

لعملناه ؛ فلما نزل الجهاد كرهوه . وقال الكلبي : قال المؤمنون يا رسول الله، لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لسارعنا إليها، فنزلت « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] فمكثوا زمانا يقولون : لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين. فدلّهم الله تعالى عليها بقوله : « تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » الآية . فابتُلُوا يوم أُحُد ففرّوا، فنزلت تعيّرهم بترك الوفاء . وقال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بَدْر قالت الصحابة : اللّهُمّ اشهد! لئن لَقِينا قتالا لنُفْرِغَنّ فيه وُسْعَنا، ففروا يوم أُحُد فعيّرهم الله بذلك . وقال قتادة والضحاك : نزلت في قوم كانوا يقولون : نحن جاهدنا وأَبْلَيْنا ولم يفعلوا . وقال صُهَيب : كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم فقتلته. فقال رجل يا نبيّ الله، إني قتلت فلانا، ففرح النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك . فقال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عَوْف : يا صُهيب ، أما أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك قتلت فلانا! فان فلانا انْتَحَل قتله ، فأخبره فقال: "أكذلك يا أبا يحيى"؟ قال نعم، والله يا رسول الله، فنزلت الآية في المنتحل . وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين، كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه : إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا ؛ فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا .

الثانيــة — هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملًا فيه طاعة أن يَفِيَ بها . وفي صحيح مسلم عن أبي موسى[2] أنه بعث إلى قرّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقرّاؤهم، فاتلُوه ولا يَطُولَنّ عليكم الأمد فتَقْسُوَ قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم . وإنّا كنا نقرأ سورةً كنا نشبهها في الطُّول والشدة بـ «براءة» فأُنسيتُها، غير أني قد حفظت منها «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جَوْف ابن آدمَ إلا التراب» . وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المُسبِّحات فأنسيتها ؛ غير أني

---

(١) آية ١٠ من هذه السورة . (٢) الذي في صحيح مسلم : حدثني سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن داود عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه قال : بعث أبو موسى ... الخ » .

حفظت منها « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون » فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة . قال ابن العربى : وهذا كله ثابت فى الدِّين . أما قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون» فثابت فى الدِّين لفظًا ومعنًى فى هذه السورة . وأما قوله : « شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة » فمعنًى ثابتٌ فى الدِّين ؛ فإن من التزم شيئًا لزمه شرعا . والملتزَم على قسمين : أحدهما — النذر ؛ وهو على قسمين ؛ نذرُ تقرب مبتدأ كقوله : لله علىّ صلاة وصوم وصدقة ؛ ونحوه من القُرَب . فهذا يلزم الوفاء به إجماعا . ونذرُ مباح وهو ما عُلِّق بشرط رغبة ؛ كقوله : إن قدم غائبى فعلىّ صدقة ، أو عُلِّق بشرط رهبة ؛ كقوله : إن كفانى الله شرّ كذا فعلىّ صدقة . فاختلف العلماء فيه ؛ فقال مالك وأبو حنيفة : يلزمه الوفاء به . وقال الشافعىّ فى أحد أقواله : إنه لا يلزمه الوفاء به . وعموم الآية حجة لنا ؛ لأنها بمطلقها تتناول ذمّ من قال ما لا يفعله على أى وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط . وقد قال أصحابه : إن النذر إنما يكون بما القصد منه القُرْبة مما هو من جنس القربة . وهذا و إن كان من جنس القربة لكنه لم يقصد به القربة ، و إنما قصد منع نفسه عن فعل أو الإقدام على فعل . قلنا : القُرَب الشرعية مَشَقّات وكُلَف و إن كانت قربات . وهذا تكلّف التزام هذه القربة بمشقة لجَلْب نفع أو دفع ضر ، فلم يخرج عن سَنَن التكليف ولا زال عن قصد التقرب . قال ابن العربى : فإن كان المقول منه وعدًا فلا يخلو أن يكون منوطا بسبب كقوله : إن تزوّجتَ أعنتُك بدينار ، أو ابتعت حاجة كذا أعطيتك [كذا](١) . فهذا لازم إجماعا من الفقهاء . وإن كان وعدًا مجرّدًا فقيل يلزم بتعلقه(٢) . وتعلقوا بسبب الآية ؛ فانه روى أنهم كانوا يقولون : لو نعلم أىّ الأعمال أفضل أو أحبّ إلى الله لعملناه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وهو حديث لا بأس به . وقد روى عن مجاهد أن عبد الله بن رَوَاحة لما سمعها قال : لا أزال حبيسًا فى سبيل الله حتى أُقتل . والصحيح عندى أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر .

---

(١) زيادة عن ابن العربى .

(٢) فى ابن العربى : « بمطلقه » .

قلت : قال مالك : فأما العِدَة مثل أن يسأل الرجل الرجل أن يَهَب له الهبة فيقول له نعم ؛ ثم يَبْـدُو له ألا يفعل فما أرى ذلك يلزمه . وقال ابن القاسم : إذا وعد الغرماء فقال : أشهدكم أنى قد وهبت له من أن يؤدّى إليكم (١) ؛ فان هذا يلزمه . وأما أن يقول نعم أنا أفعل ؛ ثم يبدو له فلا أرى عليه ذلك .

قلت : أى لا يقضى عليه بذلك ؛ فأما فى مكارم الأخلاق وحسن المروءة فنعم . وقد أثنى الله تعالى على من صَدَق وعده ووَفَى بنـذره فقال : « والمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إذا عاهَدُوا (٢) » ، وقال تعالى : « واذْكُرْ فِى الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إنه كان صادِقَ الوَعْدِ (٣) » وقد تقدم بيانه .

الثالثـة ـــ قال النَّخَعِىّ : ثلاث آيات منعتنى أن أقص على الناس « أتأمرون الناس بِالْبِرّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم (٤) » ، « ومَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ (٥) » ، « يأيها الذين آمنوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ » . وخرّج أبو نُعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار عن ثُمَامة أن أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " أتيت ليلة أُسرِىَ بى على قوم تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار كلما قرضت وفَتْ (٦) " قلت : " من هؤلاء يا جبريل " ؟ قال : " هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرءون كتاب الله ولا يعملون " . وعن بعض السلف أنه قيل له : حدِّثنا ، فسكت . ثم قيل له : حدِّثنا . فقال : أترونَنى (٧) أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله ! .

الرابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ لِمَ تَقُـولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ استفهام على جهـة الإنكار والتوبيخ ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله . أما فى المـاضى فيكون كذباً ، وأما فى المستقبل فيكون خُلْفًا ؛ وكلاهما مذموم . وتأوّل سـفيان بن عُيَينة قوله تعـالى : « لِمَ تقولون ما لا تفعلون » أى لم تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم ، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون . فعلى هذا يكون الكلام محمولا على ظاهره فى إنكار القول .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : « من أين » ولعل صوابها : « وهبت له ما يؤدى إليكم » .
(٢) آية ١٧٧ سورة البقرة . (٣) آية ٥٤ سورة مريم . راجع جـ ١١ ص ١١٤ (٤) آية ٤٤ سورة البقرة .
(٥) آية ٨٨ سورة هود . (٦) وفت : تمت وطالت . (٧) فى بعض نسخ الأصل : « أتأمروننى » .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قد يحتج به فى وجوب الوفاء فى اللَّجاج والغضب على أحد قولى الشافعى . و « أَنْ » رفع بالابتداء وما قبلها الخبر ؛ وكأنه قال : قولكم ما لا تفعلون مذموم . ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف . الكسائى : « أن » فى موضع رفع ؛ لأن « كَبُرَ » فعلٌ بمنزلة بئس رجلا أخوك . و « مَقْتًا » نصب بالتميز ؛ المعنى كبر قولهم ما لا يفعلون مقتًا . وقيل : هو حال . والمقت والمَقَاتة مصدران ؛ يقال : رجل مَقِيت وممقوت إذا لم يحبّه الناس .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ أى يصفون صفا . والمفعول مضمر؛ أى يصفون أنفسهم صفًّا . ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ قال الفرّاء: مرصوص بالرصاص . وقال المبرّد : هو من رصصت البناء إذا لاأمْتَ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة . وقيل : هو من الرَّصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض . والتراصّ التلاصق؛ ومنه وتراصّوا فى الصف . ومعنى الآية : يحبّ مَن يثبت فى الجهاد فى سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء . وقال سعيد بن جُبير : هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوّهم .

الثانيـة ــ وقد استدلّ بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس؛ لأن الفرسان لا يصطفّون على هذه الصفة . المهدوىّ : وذلك غير مستقيم؛ لما جاء فى فضل الفارس فى الأجر والغنيمة . ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأن معناه الثبات .

الثالثـة ــ لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تَعرِض للإنسان ، أو فى رسالة يرسلها الإمام، أو فى منفعة تظهر فى المقام؛ كفرصة تُنتهز ولا خلاف فيها . وفى الخروج عن

الصف للبارزة خلاف على قولين : أحدهما — أنه لا بأس بذلك إرهابًا للعدو ، وطلبًا للشهادة وتحريضا على القتال . وقال أصحابنا : لا يبرز أحد طالبا لذلك ؛ لأن فيه رياءً وخروجا إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو . وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر ، كما كانت فى حروب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر وفى غَزْوة خَيْبر . وعليه دَرَج السلف . وقد مضى القول مستوفًى فى هذا فى « البقرة » عند قوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »(١) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بيّن أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا فى سبيل الله ؛ وحل العقاب بمن خالفهما . أى وآذكر لقومك يا محمد هذه القصة .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ وذلك حين رَمَوْه بالأُدْرَة ؛ حسب ما تقدّم فى آخر سورة « الأحزاب »(٢) . ومن الأذى ما ذكر فى قصة قارون : إنه دس إلى آمرأة تدّعى على موسى الفجور(٣) . ومن الأذى قولهم : « ٱجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ »(٤) . وقولهم : « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا »(٥) . وقولهم : إنك قتلت هارون(٦) . وقد تقدّم هذا . ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول يُحترم ويُعظّم . ودخلت « قد » على « تعلمون » للتأكيد ؛ كأنه قال : وتعلمون علمًا يقينًا لا شبهة لكم فيه . ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أى مالوا عن الحق . ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى أمالها عن الهُدَى . وقيل : « فلما زاغوا » عن الطاعة . « أزاغ الله قلوبهم » عن الهداية .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦١ طبعة ثانية .
(٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣١٠
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣
(٥) راجع جـ ٦ ص ١٢٨
(٦) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

وقيل : « فلما زاغوا » عن الإيمان . « أزاغ الله قلوبهم » عن الثواب . وقيل : أى لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب ، خلق الله الضلالة فى قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ﴾ أى وآذكر لهم هذه القصة أيضا . وقال : « يابنى إسرائيل » ولم يقل « يا قوم » كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه . ﴿ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أى بالإنجيل . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ لأن فى التوراة صفتى ، وأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة فتنفروا عنى . ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ ﴾ مصدقا . « ومبشرا » نصب على الحال ؛ والعامل فيها معنى الإرسال . و « إليكم » صلة الرسول . ﴿ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ قرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو « من بعدىَ » بفتح الياء . وهى قراءة السُّلَمِىّ وزِرّ بن حُبَيش وأبى بكر عن عاصم . وآختاره أبو حاتم لأنه اسم ؛ مثل الكاف من بعدك ، والتاء من قمت . الباقون بالإسكان . وقرئ « من بعدى آسمه أحمد » بحذف الياء من اللفظ . و « أحمد » آسم نبيّنا صلى الله عليه وسلم . وهو آسم عَلَم منقول من صفة لا من فعل؛ فتلك الصفة أفعل التى يراد بها التفضيل . فمعنى « أحمد » أى أحمدُ الحامدين لربه . والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبيّنا أحمدأكثرهم حمدًا . وأما محمد فمنقول من صفة أيضا ، وهى فى معنى محمود ؛ ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار . فالمحمَّد هو الذى حُمِد مَرّةً بعد مرة . كما أن المُكَرَّم من الكرم مرة بعد مرة . وكذلك الممدّح ونحو ذلك . فآسم محمد مطابق لمعناه ، والله سبحانه سمّاه قبل ان يُسَمِّىَ به نفسه . فهذا عَلَمٌ

من أعلام نبوّته ، إذ كان اسمه صادقا عليه ؛ فهو محمود فى الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة . وهو محمود فى الآخرة بالشفاعة . فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضى اللفظ . ثم إنه لم يكن مُحَمَّدًا حتى كان أحمدَ، حَمِد ربَّه فنبّأه وشرّفه؛ فلذلك تقدّم اسم أحمد على الاسم الذى هو محمد فذكره عيسى عليه السلام فقال : « اسمه أحمد » . وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه : تلك أمة أحمد ؛ فقال : اللّهُمّ اجعلنى من أمة أحمد . فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد ؛ لأن حَمْدَه لربّه كان قبل حمد الناس له . فلما وُجِد وبُعث كان محمدا بالفعل . وكذلك فى الشفاعة يحمد ربّه بالمحامد التى يفتحها عليه ؛ فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " اسمى فى التوراة أحيد لأنى أحيد أمتى عن النار واسمى فى الزبور الماحى محا الله بى عَبَدة الأوثان واسمى فى الإنجيل أحمد واسمى فى القرآن محمد لأنى محمود فى أهل السماء والأرض " . وفى الصحيح " لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى تحشر الناس على قَدَمى وأنا العاقب " . وقد تقدّم [1] . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قيل عيسى . وقيل محمد صلى الله عليهما وسلّم . ﴿ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ قرأ الكسائى وحمزة « ساحر » نعتا للرجل . وروى أنها قراءة ابن مسعود . الباقون « سحر » نعتا لما جاء به الرسول .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى لا أحدَ أظلم . ﴿ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ تقدّم فى غير موضع [2] . ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ هذا تعجب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التى ظهرت لهما . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وهو يَدَّعِى » بفتح الياء والدال وشدّها وكسر العين؛ أى ينتسب . ويَدّعى وينتسب سواء . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى من كان فى حكمه أنه يختم له بالضلالة .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٠٠ (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠١ وجـ ٧ ص ٣٩

قوله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ الإطفاء هو الإخماد ، يستعملان فى النار ، ويستعملان فيما يجرى مجراها من الضياء والظهور . ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه ؛ وهو أن الإطفاء يستعمل فى القليل والكثير، والإخماد إنما يستعمل فى الكثير دون القليل ؛ فيقال : أطفأت السراج ؛ ولا يقال أخمدت السراج . وفى « نور الله » هنا خمسة أقاويل : أحدها ـ أنه القرآن ؛ يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ؛ قاله ابن عباس وابن زيد . والثانى ـ أنه الإسلام ؛ يريدون دفعه بالكلام؛ قاله السُّدّى . الثالث ـ أنه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يريدون هلاكه بالأراجيف ؛ قاله الضحاك . الرابع ـ حجج الله ودلائله ؛ يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم ؛ قاله ابن بحر . الخامس ـ أنه مَثَل مضروب ؛ أى من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا ممتنعا فكذلك من أراد إبطال الحق ؛ حكاه ابن عيسى . وسبب نزول هذه الآية ماحكاه عطاء عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوَحْى أربعين يوما؛ فقال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود ، أبشروا ! فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتمّ أمره ؛ فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحى بعدها ؛ حكى جميعه الماوردىّ رحمه الله . ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ أى بإظهاره فى الآفاق . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم « وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ » بالإضافة على نية الانفصال؛ كقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وشبهه ، حسب ما تقدم بيانه فى « آل عمران »(1) . الباقون « مُتِمٌّ نُورَهُ » لأنه فيما يستقبل ؛ فعمل . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ من سائر الأصناف .

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أى محمدا بالحق والرشاد . ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى بالحجج . ومن الظهور الغلبة باليد فى القتال؛ وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان ، بل المراد يكون أهل الإسلام عالين غالبين . ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام فى آخر الزمان . قال مجاهد : وذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام . وقال أبو هريرة : «لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه» بخروج عيسى . وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَيَنْزِلَنَّ آبن مريم حَكَمًا عادلًا فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّليب وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزير وَلَيَضَعَنَّ الجزية وَلَتُتْرَكَنَّ القِلاص[1] فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنَّ الشَّحْناءُ والتَّباغضُ والتَّحاسدُ ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يَقْبَلُه أَحَدٌ" . وقيل : «لِيُظْهِرَه» أى ليطلع محمدا صلى الله عليه وسلم على سائر الأديان ؛ حتى يكون عالما بها عارفًا بوجوه بطلانها ، وبما حرّفوا وغيّروا منها . ﴿على الدِّينِ﴾ أى على الأديان؛ لأن الدِّين مصدر يعبّر به عن جمع .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

(١) القلاص (بكسر القاف) : الناقة الشابة .

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ﴾ قال مقاتل : نزلت فى عثمان بن مَظْعُون ؛ وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أذِنتَ لى فطلّقتُ خَوْلة، وتَرَهَّبْتُ واختَصَيْت وحَرّمتُ اللّحم، ولا أنام بليل أبدًا، ولا أفطر بنهار أبدًا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ مِنْ سُنّتى النكاحَ ولا رَهْبانيةَ فى الإسلام إنما رهبانيةُ أمتى الجهادُ فى سبيل الله وخِصاءُ أُمتى الصومُ ولا تُحَرِّموا طيبات ما أحلّ الله لكم . ومِنْ سُنّتى أنام وأقوم وأُفطِر وأصوم فمَنْ رَغِب عن سُنّتى فليس منى " . فقال عثمان : والله لَوَدِدْتُ يا نبيَّ الله أى التجارات أحبّ إلى الله فأتّجر فيها؛ فنزلت . وقيل : « أَدُلُّكم » أى سأدلكم . والتجارة الجهاد؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » الآية (١) . وهذا خطاب لجميع المؤمنين . وقيل : لأهل الكتاب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ تُنْجِيكُمْ ﴾ أى تخلصكم . ﴿ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى مؤلم . وقد تقــدّم (٢) . وقراءة العامة « تُنْجِيكم » بإسكان النون من الإنجاء . وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حَيْوة « تُنَجِّيكم » مشدّدًا من التّنجية . ثم بين التجارة وهى المسألة : —

الثالثــة — فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ذكر الأموال أوّلًا لأنها التى يُبدأ بها فى الإنفاق . ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أى هذا الفعل ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . و « تؤمنون » عند المبرد والزجاج فى معنى آمنوا؛ ولذلك جاء « يَغْفِرْ لَكُمْ » مجزوما على أنه جواب الأمر . وفى قراءة عبد الله « آمنوا بالله » وقال الفراء « يغفر لكم » جواب الاستفهام ؛ وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى ؛ وذلك أن يكون « تؤمنون بالله ، وتجاهدون » عطف بيان على قوله : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » كأن التجارة لم يُدْرَ ماهى؛ فبُيِّنت بالإيمان والجهاد؛ فهى هما فى المعنى . فكأنه قال : هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم . الزّمخشرىّ : وجه قول الفرّاء أن متعلق الدلالة

---

(١) آية ١١١ سورة التوبة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

هو التجارة والتجارة مفسّرة بالإيمان [والجهاد] . كأنه قيل : هل تتّجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم . قال المهدوىّ : فإن لم تقدر هذا التقدير لم تصح المسألة ؛ لأن التقدير يصير إن دُللتم يغفر لكم؛ والغفران إنما نُعت بالقبول والإيمان لا بالدلالة . قال الزجاج : ليس إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم؛ إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقرأ زيد بن على «تؤمنوا»، «وتجاهدوا» على إضمار لام الأمر . كقوله :

مُحمّدُ تَفْدِ نفسَك كلُّ نفسٍ * إذا ما خِفْتَ من شيء تَبَالا(١)

أراد لِتَفْدِ . وأدغم بعضهم فقال : « يغفر لكم » والأحسن ترك الإدغام ؛ لأن الراء حرف متكرر قوىّ فلا يحسن إدغامه فى اللام؛ لأن الأقوى لا يُدغم فى الأضعف .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ خرّج أبو الحسين الآجُرّى عن الحسن قال: سألت عمران بن الحُصَين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية «ومساكِنَ طيّبةً» فقالا: على الخبير سقطت، سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال: "قَصْرٌ من لؤلؤة فى الجنة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زَبَرْجَدة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لَوْن على كل فراش سبعون امرأةً من الحُور العِين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام فى كل بيت سبعون وَصِيفاً ووصيفة فيعطى الله تبارك وتعالى المؤمنَ من القُوّة فى غداةٍ واحدة ما يأتى على ذلك كله". ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى إقامة . ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى السعادة الدائمة الكبيرة . وأصل الفوز الظفَر بالمطلوب .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ قال الفرّاء والأخفش : «أخرى» معطوفة على «تجارة» فهى فى محل خفض . وقيل : محلها رفع؛ أى ولكم خصلة أخرى وتجارة أخرى تحبّونها . ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أى هو نصر من الله ؛ فـ «نصر» على هذا تفسير

---

(١) اختلف فى قائله ؛ فقيل إنه لحسان ، وقيل لأبى طالب عم الرسول صلوات الله عليه ، وقيل للأعشى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الثمانين بعد الستمائة) . والتبال : سوء العاقبة ؛ وهو بمعنى الوبال .

« وأُخرى » . وقيل : رفع على البدل من « أخرى » أى ولكم نصر من الله . ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أى غنيمة فى عاجل الدنيا ؛ وقيـل فتح مكة . وقال ابن عباس : يريد فتح فارس والروم . ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

أكّد أمر الجهاد؛ أى كونوا حَوارِىّ نبيكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حوارىّ عيسى على من خالفهم . وقـرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع « أنصاراً لله » بالتنوين . قالوا : لأن معناه اثبتـوا وكونوا أعواناً لله بالسيف على أعدائه . وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام « أنصارَ اللهِ » بلا تنوين؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى . واختاره أبو عُبيد لقوله : « نحن أنصارُ اللهِ » ولم ينوّن؛ ومعناه كونوا أنصارا لدين الله . ثم قيـل : فى الكلام إضمار؛ أى قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله؛ أى كونوا أنصارا كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصارا وكانوا حواريّين . والحَوارِيُّون خواصّ الرسـل . قال مَعْمَر : كان ذلك بحمـد الله ؛ أى نصروه وهم سبعون رجلا ، وهم الذين بايعوه ليلة العَقَبة . وقيل : هم من قريش . وسمّاهم قتادة : أبا بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير وسـعد بن مالك وأبا عبيـدة — واسمه عامر — وعثمان بن مَظْعُون وحمـزة بن عبد المطلب ؛ ولم يذكر سعيدا فيهم ، وذكر جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلا ، وقد مضت أسماؤهم فى « آل عمران »[1] ، وهم أوّل من آمن به من بنى إسرائيل ؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل :

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٧ و يلاحظ أنه لم تذكر أسماؤهم ، بل ذكر سبب تسميتهم .

قال الله لعيسى إذا دخلت القرية فأت النهر الذى عليه القصّارون[1] فآسألهم النُّصرة ، فأتاهم عيسى وقال : من أنصارى الى الله ؟ قالوا : نحن ننصرك . فصدقوه ونصروه . ومعنى « من أنصارِى إلى اللهِ » أى مَن أنصارى مع الله ؛ كما تقول : الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل ؛ أى مع الذَّوْد . وقيل : أى مَن أنصارى فيما يقرّب إلى الله . وقد مضى هذا فى « آل عمران »[1] . ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ والطائفتان فى زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء ؛ على ماتقدّم فى « آل عمران »[2] بيانه . ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ الذين كفروا بعيسى . ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى غالبين . قال ابن عباس : أيّد الله الذين آمنوا فى زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار . وقال مجاهد : أيّدوا فى زمانهم على من كفر بعيسى . وقيل أيّدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين : من قال كان الله فارتفع ، ومن قال كان آبنَ الله فرفعه الله إليه ؛ لأن عيسى بن مريم لم يقاتل أحدا ولم يكن فى دين أصحابه بعده قتال . وقال زيد بن على وقتادة : « فأصبحوا ظاهِرِين » غالبين بالحجة والبرهان ؛ لأنهم قالوا فيما روى : ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لاينام ، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل ! . وقيل : نزلت هذه الآية فى رسل عيسى عليه الصلاة والسلام . قال آبن إسحاق : وكان الذى بعثهم عيسى من الحواريّين والأتباع فطرس وبولس إلى رُومِيَة . واندرابيس ومتى إلى الأرض التى يأكل أهلها الناس . وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق . وفيلبس إلى قُرْطَاجَنَّة وهى أفريقية . ويحنّس إلى دقسوس قرية أصحاب الكهف . ويعقوبس إلى أوريشَلِم وهى بيت المقدس . وابن تلما الى العرابية وهى أرض الحجاز . وسيمن إلى أرض البربر . ويهودا وبردس الى الإسكندرية وما حولها[3] . فأيدهم الله بالحجة . ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى عالين ؛ من قولك : ظهرت على الحائط أى علوتُ عليه . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

---

(١) القصار : محوّر الثياب راجع جـ ٤ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ٤ ص ١٠٠

(٣) يلاحظ أن هذه الأسماء وردت محرفة فى نسخ الأصل ، وأثبتناها كما وردت فى تاريخ الطبرى (جـ ٣ قسم أول ص ٧٣٧ طبع أوربا) .

